











المجلة الدولية

للعالم الاجتماعي

دراسة مستفيدة عن شباب العالم

• حيرة الشباب ...  
بين الممكن والمستحيل

العدد ١٣ السنة الرابعة

أكتوبر / ديسمبر ١٩٧٢

تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو



مركز مطبوعات اليونسكو



المجلة الدولية

للعالم الاجتماعى

العدد الثالث عشر

السنة الرابعة

٨ رمضان ١٣٩٢

٥ أكتوبر ١٩٧٣

٥ تشرين الأول ١٩٧٣

#### محتويات العدد

##### محاولات جديدة

فى دراسة المشكلات الاجتماعية للشباب

بقلم : ليوبولد روزنماير

ترجمة : الدكتور أحمد عبد الرحيم أبو زيد

##### ♦ الجغرافيا الاقتصادية والتنمية

بقلم : الدكتور فيكتور فولسكى

ترجمة : الدكتور محمد السيد غلاب

##### ♦ علم الاجتماع

بقلم : جورج بالاندييه

ترجمة : الدكتور أحمد الخشاب

##### ♦ التغير السياسى فى المجتمعات الجمية

مشكلات فى الجمعية المنعزلة

بقلم : ليو كوبر

ترجمة : الدكتور محمود اسماعيل

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

١ شارع طلعت حرب بميدان التحرير

بالقاهرة

تليفون : ٢٢٤٠٢

رئيس التحرير : عبد المنعم الصاوى

هيئة التحرير : د. مصطفى كمال طلبه

د. محمود الشنيطى

عثمان نوبيه

محمود فؤاد عمران

الإشراف الفنى : عبد السلام الشريف

# شباب العالم:

---

حركات الشباب التى اقلقت المفكرين ، فى اواخر العقد الماضى ،  
وانارت كثيرا من الجدل والمناقشة والحوار ، وامتدت على اتساع قارتي  
اوربا وامريكا ، وكادت تنتقل بكل ما فيها من عنف الى قارات العالم  
الاخرى .

هذه الحركات قد كانت ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى التفت  
اليها العالم فى شىء غير قليل من الانتباه ، كذلك فان الدارسين والعلماء  
قد اولوها جانبا كبيرا من الاهتمام ، فخرجت كتب عديدة ، مشحونة  
بالتحليلات والبيانات والاحصاءات ، لتفسير هذه الظاهرة ، وكشف  
جذورها ، وتبين اهدافها .

وبرغم اوجه الخلاف فى آراء المفسرين والمحللين فان الظاهرة ظلت  
مع هذا قائمة ، تقابل حيننا بالقلق ، وحيننا آخر بالارتياح .

والذى لا شك فيه أن اغلب الذين تناووها اعطوها حيزا اكبر مما  
تشغله فى الواقع ، وفسروها تفسيرات بدت فى بعض الأحيان مفرغة ،  
تهدد بالخطر ، كأنما هذا العالم على حافة حرب أهلية بين الاجيال .

ووصفها بعض الدارسين بأنها حالة من حالات التمرد ، ومظهر

# بين الممكن والمستحيل

---

من مظاهر رفض كل ما هو قائم ، ورغبة في استبدال نظم جديدة لا يدرك أحد حدودها ولا أهدافها بالنظم الاجتماعية السائدة .

ورجع آخرون أن هذه الحركات ليست الا مظاهرات موقوتة ، لا تلبث أن تزول ، وأن الشباب يقبل عليها كما يقبل على الموضات الجديدة ، تعلقا بكل جديد .

وبين الرايين تعلقت أنفاس الملايين من سائر انحاء العالم ترقب وتنتظر ماذا تسفر عنه هذه الظاهرة الجديدة وماذا تنتهى اليه .

والذى لا شك فيه أن هذه الظاهرة قد خفت ، أو انها تجردت من العنف الذى سيطر عليها ، عندما بدأت في قلب أوروبا ، وانتقلت منها الى بعض العواصم والمدن الأخرى في أوروبا وأمريكا .

وإذا كانت هذه الظاهرة تكتفى اليوم ببعض المظاهر القريبة ، في الملابس ، وإطالة الشعور ، والسلوك العام ، الا أن تجردها من العنف ينتقل بها من حالة الإيجابية التى كادت تصل الى حد التمرد الى حالة السلبية القائمة بالوضع الاجتماعي ، وإن اتجهت الى التجرد في بعض المظاهر والأشكال ،

وعندما تكون الحالة في شدتها فان دراستها تصبح عسيرة وصعبة ، لكنها بعد أن تخف تتحول الى مادة تصلح للدرس والبحث والتحرى ، للوصول الى توصيف لها ، على أساس علمي يحكمه المنطق . ولقد أخذت الدراسة اشكالا شتى ، وأخذ العلماء يحلون ويفسرون ، ليصلوا الى جذور المشكلة ، والى حلول لها .

ولعلنا لو تتبعنا هذه الظاهرة في تطورها نجد أنها تختلف في العالم المتقدم عنها في العالم النامي .

ويودى أن أسبق هنا الى أن أقرر أن ظاهرة الشباب في العالم المتقدم كانت أثرا من آثار الرخاء .

ان التقدم الصناعي قد رفع مستوى الحياة في العالم المتقدم ، ومع ارتفاع مستوى الحياة ترتفع الأسعار ، ومع ارتفاع الأسعار يزداد الهمم على الأفراد وعلى الأسر ، ويشعر رب البيت أنه مطالب بتوفير التكاليف الباهظة التي تفرضها عليه التزاماته . ولكي يتمكن رب الأسرة من القيام بهذه الالامب فعليه أن يضاعف من انتاجه ، وأن يزيد من أوقات عمله ، بل أنه يضطر في كثير من الحالات الى أن يسمح لزوجته بأن تعمل ، وعندئذ يضعف سلطان الأسرة على أفرادها ، ويفتقد الأولاد والبنات الجوالعائلى الذى ينمو فيه الشعور بالارتباط بقم معينة ، ولاء معين للاب واللام ولل كبار من الأخوة .

ويجد الشباب أنفسهم فرادى ، بلا رقابة مباشرة أو غير مباشرة . وعندما تخف رقابة الوالدين على الشباب فان حجم الحرية التى يتمتعون بها يتضاعف .

عندئذ تتكون منهم مجموعات تتبادل آراء لا ضابط لها ، وتسلك سلوكا بلا قيود .

وفى مثل هذا الجو تتولد أفكار غريبة ، وتهب رياح هوج ، وتشكل ارادة الشباب فى اطار صاغوه لأنفسهم .

ومع تعقد العلاقات الاجتماعية ، وضغط التركيب الاجتماعى المتوتر ، وتلوث البيئة ، وحياة الصخب ، وبريق الأضواء ، لا يضمن أحد ماذا يكون رد الفعل لهذا كله على سلوك الشباب .

قد يؤدي افتقاد الأسرة الى فراغ ، وقد يؤدي الفراغ الى البحث عن الأثارة .

في الوقت نفسه فان ازدحام المدارس والجامعات بالطلاب قد ادى الى انشغال الاساتذة والمعلمين عن طلابهم ، فافتقدت جموع الشباب ضوابط الأسرة ، كما افتقدت ضوابط الفصول والمدرجات في المدارس والجامعات .

وهنا يصبح الفراغ هائلا ، لا البيت يملأه ، ولا المدرسة تقلل من حجمه ، واذا النتيجة فراغ من كل جانب ، وحياة بلا رقابة ولا توجيه . وفي مثل هذا التحلل من اى قيد فان احدا لا يتوقع ان يحافظ الشباب على قيم موروثه ، أو تقاليد راسخة ، أو ضوابط من اى نوع ، تمثل المحاذير في حياة الشباب .

ومع هذا فماذا كان شباب العقد الماضى يستهدف من الظاهرة المفزعة التي راقبها العالم في اشفاق ؟

هل كان يعنى تحطيم كل القيم والقواعد والقوانين ؟

لا شك ان دراسة الوضع على هذه الصورة يؤدي بنا الى ان هذه الظاهرة قد كانت نوعا من المرض الذى تمرض له الشباب . والمرض قد يصرخ من آله ، وقد يحطم العنبر الذى ينزل فيه في احدى المستشفيات ، وقد يثير اطباءه وممرضيه بسلوكه ، وقد يستقر معالجيه بتصرفات متطرفة خارجة على ما تعارف عليه هؤلاء المعالجون .

لكن يخطئ الطبيب ، ويخطئ الممرضون ، ويخطئ المشرفون على العلاج ، لو فهموا ان هذه التصرفات مظهر من مظاهر الخصومة ، تقتضيهم ان يتخذوا منه موقف عدا . والاجدر بهم ان يعالجوه ، بدلا من ان يعادوه . حينئذ يهدأ ويستريح ويستعيد الصحة والمقدرة على ضبط النفس .

ولو حللنا هذا المرض ، كما يجب ان يكون التحليل ، لنضع له العلاج المناسب ، لأصبح على الذين يتصدون لمشكلات الشباب أن يفهموا انه لا يستهدف تحطيم القوانين ، ولا استبدال المجتمع القائم بمجتمع سواه . ان الشباب يدرك انه لا بديل لهذا المجتمع الذى يحيا فيه ، وانه اذا هدم ما بناه الانسان سيكون اول من يدفع ثمن هذا الهدم ، لأنه لن يجد المسكن ولا المشرب ولا المأكل ولا اللبس ولا الدواء .

وليس الشباب من القباء والسداجة الى هذا الحد . لكنه يريد ببساطة ان يدخل هذا المجتمع الذى أغلق دونه . أغلقه عليه أبوه حين

هجره ، واغلقته عليه أمه حين فضلت العمل على البيت ، وأغلقت عليه  
أساتذته حين انشغلوا عنه بالحياة المعقدة المركبة التي اثرت على طبيعة  
المدارس والجامعات .

والشباب الذى لم يبدأ بعد ممارسة المسؤولية ، ولم ينشغل بعد  
بأعباء الأسرة والأولاد والاضطرار الى مضاعفة الجهد ، لواجه تكاليف  
الحياة ، الشباب ، وحوله محيط من فراغ ، يصبح من حقه ان يطرق  
باب المجتمع ، متوسلا ان يدخل فيه ، ليملأ حياته بمسؤولية تنسيه  
ما هو فيه من فراغ ، يولد عنده بلا جدال شعورا بعدم الأهمية  
والضباع .

ولو عنى المجتمع بان يلتفت الى عنصر الشباب ، وأن يفتح له  
الباب ليشارك فى تحمل المسؤولية ، لانضم بدوره الى ركب البناء  
والانتعاش ، بدلا من أن يظل خارج الاسوار ، يطرق الأبواب ، والأذان  
مغلقة ، والعيون مرهفة ، والأبدان مكدودة ، لا تلتفت حتى لهذه  
الطرقات .

ولقد كانت وسيلة الشباب فى بعض الأحيان عنيفة ، بل مرفقة  
فى العنف ، فى بعض المجتمعات .

لكنها كانت خافطة فى مجتمعات أخرى .

وعندما انحسرت الموجة العنيفة ظل الشباب مع هذا يسلك  
سلوكا شاذا وغريبا ، لتظل مع هذا طرقاته على الأبواب تصيح انه  
سوجود ، وأنه يريد ان يدخل الى المجتمع ، لا ان يحطم هذا المجتمع  
ويغيره بسواه .

هذا من المجتمعات المتقدمة .

أما المجتمعات النامية فقد تعرضت بدورها لشيء من هذا القبيل .  
فلا شك أن هذه المجتمعات قد اتجهت لتنفيذ برامج للتنمية ، والتنمية  
تعتمد فى المقام الأول على الصناعة والتصنيع ، والتصنيع فى العادة يكون  
مكتفا فى المدينة . عندئذ يجد الشباب أن عليه أن يهاجر من الريف الى  
المدينة ، وفى المدينة يتعزل عن مجتمع القرية ، ويتصل بعناصر شابة  
أخرى منعزلة بدورها عن جدورها فى الريف ، بعيدة عن أسرها ، وتولد



للشباب مجتمعات خاصة ، لا تحكمها الرقابة ، ولا تشدها ما اعتادته من ولاء للأسرة وللأقارب .

وفي هذا الجو المطلق من الروابط الأسرية تبدأ تشكيلات الشباب تتجه نحو البحث عن الإثارة لتملا ما تشعر به في المدينة من فراغ .  
وتكون النتيجة بعض انحرافات .

كل هذا يؤدي بنا الى تشخيص المشكلة بأنها مشكلة فراغ في حقيقتها ، برغم اختلاف أسبابها ودوافعها والعناصر التي تتشكل منها . وكل هذا يؤدي بنا الى أن الحل الصحيح هو أن يعترف المسؤولون من أبناء هذا الجيل بأنهم هم المسؤولون عما آلت اليه أمور الشباب . هم تركوهم وحدهم ، وهم أدخلوا ما بين الشباب ومسئوليات المجتمع ، وهم تسببوا لهم في هذا الجو المفزع من الفراغ ، وعليهم وحدهم تقع المسؤولية . ولو أنهم عنوا بأن يفتحوا للشباب باب المجتمع ، ليدخلوه مشاركين في تحمل تبعاته ، لشعروا بأن العبء عليهم عسير ، وبأنهم شركاء في الخير والشر على حد سواء ، وبأنهم في النهاية جزء من المجتمع ، لا هم منفرجون ، ولا هم منتظرون على محطة من محطات الترام .

هل نستطيع بعد هذا أن نقرر أن هذه المشكلة من صنعنا ، وأن علينا أن نحلها بأيدينا ؟

إن الشباب يقف اليوم أمام الممكن والمستحيل .

إن مشاركتهم في تحمل المسؤولية يجعلهم أمام التحدي الذي يتعرض له المجتمع .

عندئذ يقبلون على مسؤولياتهم لأداء الممكن ، ولا يثورون على المجتمع ، في سبيل المستحيل .

فإذا لم يشاركوا في أداء الممكن فاعذروهم إذن إذا هم فكروا في المستحيل .

والفرق بين الممكن والمستحيل هو الفرق بين الواقع والخيال .

فلتعدوا أجيال الشباب تواجه الواقع ، بدلا من أن تحلم بالمستقبل

**عبد النعم الصاوي**

# محاولات جديدة

## دراسة المشكلات الاجتماعية للشباب

### الأوجه النظرية والمنهجية لدراسة المشكلات الاجتماعية للشباب

في أوروبا الغربية والولايات المتحدة أصابت الظواهر الحديثة لانتشار الاستياء والقلق بين الشباب الاخصائيين الاجتماعيين في شؤون الشباب بصدمة كبيرة ، ودفعهم لإعادة النظر في محاولة فهمهم نظريا ومنهجيا ، فوجدوا أنفسهم كغيرهم من خبراء مشاكل الشباب مواجهين بالتطورات السياسية التي توقعها قلة منهم . ولا شك أن أحدا منهم لم يتنبأ بالدرجة التي ستصل إليها معارضتهم .

وقد يكون من السهل أن ننسى أن الشباب قد وجه اليه انتقاد كثير ، ولكن بدرجة أقل مما كان منذ عشر سنوات مضت ، بسبب عدم تعهدهم بما يقيد الحريات :

« في المجتمع المعصرى كف الطلبة عمليا عن أن يكونوا عاملا منتجا للقلق ، ولم يعودوا يهتمون بتغيير حياتهم ، وتركوا العالم وشأنه ، ولو أنه يسعدهم أن يقبلوا ما يقدم لهم من خدمات ، فهم يتقبلون العالم كما هو ، ويتطلعون الى الوضع اللاحق بعيدا عن التورط ، ذلك أن الطلبة محافظون أكثر منهم ثوريين ، فهم يتجنبون عدم الالتزام السياسي مثلما يرفضون عدم الالتزام الاجتماعى » .

فالطلبة المعصريون « معرضون لخطر أن يصبحوا وهم في العشرين شيوخا حذرين » .

## بقم : ليو بولد روزنماير

أستاذ علم الاجتماع بجامعة فينا • كتب يتوسع عن مشكلات الشباب ، وفي كتبه مقالات عديدة ، وإسهامات في مؤلفات مرجعية ، وكتب • وله مقالات سابقة في هذه المجلة منها مقال عن « الشيخوخة والأسرة » •

## ترجمة : الدكتور أحمد عبد الرحيم أبوزيد

مدرس الأدب اللاتيني واليوناني بكلية الآداب بجامعة القاهرة •  
حاصل على الدكتوراه في الأدب اللاتيني من جامعة أدنبرة •  
من مؤلفاته « تاريخ الأدب الروماني » ، و « دراسات في التراجم اليونانية » ، و « مختارات من أشعار الشاعر اللاتيني هورس » ، و « المدخل إلى اللغة اللاتينية » •

لقد تنبأ هلموت شلسكي في ١٩٥٧ بأن الحركات الثورية سوف تنفجر على فترات لتخمد ثانية ، انه على الأقل قد عرف الظاهرة ، ولو انه قد رأى ان مثل هذه المعارضة ليست سوى « عامل مساعد للتغيير الاجتماعي » .  
وإذا كانت الأبحاث الاجتماعية قد حققت قليلا من النجاح في التنبؤ أو في تقويم السلوك الفعلي للشباب كأفراد أو كأعضاء في مجموعات المعترضين فان المعلومات المكتسبة وأساليب المقابلات المستخدمة موضعاً للتساؤل ، وبذلك يمكن استنباط عدد مناسب من الأحكام •

يجب ان ترسم الخطوط الفاصلة بين الأوضاع العامة والأوضاع المتصلة بالتصرف بما هو أكثر دقة ، ويجب ان تصبح الأبحاث الاجتماعية الخاصة باتخاذ القرارات النموذجية بين الصغار فرما مستقلا من الدراسة ، ويجب أن تدخل طريقة البحث في حساباتها المشكلات العفوية ، ودرجات الحرية التي ينعم بها الأفراد أو المجموعات المتحدث إليها والموضوعة تحت الملاحظة ، ويجب ان تبحث كل العناصر الأساسية لتعاليم الجبرية الاجتماعية الرفيعة والمفربة بطريقة متزايدة ، ذلك أن العوامل الاجتماعية الاقتصادية مسئولة عن نماذج السلوك الشخصي والتفوق الذاتي • ويجب ان تكون التغيرات التي يمكن ان تحدث في الأوضاع الاجتماعية أثناء المقابلة ( أي في غضون عملية البحث ) موضوعا لبحث أكبر الى حد أبعد من الحالة القائمة • وبدلا من التركيز على البيانات التي سردها الفرد عن نفسه ودا على أسئلة

بعلها فانه من الضروري أن تدرس بواعث القرارات والتصرفات بالنسبة للخلفية « التاريخية » ، ويتضمن ذلك تفسيراتها المبنية على أساس تاريخ حياة الأفراد .

ان علم اجتماع الشباب - سواء كان متعلقا بأى شكل بالتلاميذ المراهقين والفلمان المهنيين أو بالشباب كالطلبة - سوف يحتاج بنحو متزايد الى دراسات ممتدة لكي يحدد قواعد أساسية للنمو فيما يتعلق بدورة الحياة . هذه الطريقة التي تلاحظ وتدرس اشخاصا ومجموعات متعائلة خلال فترة متصلة من الأمن لكي نحصل على معلومات موثوق بها عن التغيرات المنسوبة لتأثيرات معينة أكثر من تلك التي تعطينا اياها الدراسات على العينات المتقطعة هي طريقة لا تخلو من المشكلات الداخلية الخاصة بها . فتقدم الطرق والاختبارات المستعملة في المراحل المختلفة من الدراسة بتأثيراتها التعليمية طاقة من المعلومات لها مميزات العمل المستنبط .

ويجب في المقام الأول أن يتوسع الى حد بعيد في التعاون الانضباطي بين التاريخ الاجتماعي وطب النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع ليسمح للاستنتاجات النظرية المناسبة بأن تستنبط بقدر من الثقة ، تلك الاستنتاجات التي سوف تكون مستحيلة بدون مثل هذه الطريقة التوفيقية . ويجب أن يكون هناك استخدام جيد للمعلومات الاجتماعية والاقتصادية الخلفية والبيانات الاجتماعية الواسعة ، وكذلك للصلات المقامة بين هذه الأشياء وبين البحث الاجتماعي التجريبي ، ومع ذلك تثير التجارب المتعلقة بالطب النفسي أو بمفاهيم التحليل النفسي مثلا مشكلة اضافية لعلم الاجتماع ، إذ هل يمكن من الناحية التاريخية أن تدرس الطرق المتغيرة بواسطة نماذج شخصية ثابتة ؟

ونحن نركز احوال الدراسات محل البناء النظري السطحي غير الوافي ، مطالبين بأن تتمثل هذه الدراسات داخل أمة معينة ، وأن تكون مدروسة على سبيل المقارنة ، مثل ما بين الأمم والثقافات المختلفة ، وتغطي من خلال خطة طويلة الأجل موضوعا محددا بدقة ومصمما في البداية كدراسة حالة اقليمية وثقافية . ولن يكون من السهل علميا أن تغطي طلب المنظمات الدولية للاستقصاء والتخطيط المقارن على مستوى خارج الاقليمية أو على مستوى « الانتشار العالمي » حتى تتيسر شبكات لهذه الدراسات ذات الكفاءة . ونسدى النصع للمنظمات الدولية كي تغطي الأسبقية لدراسات الحالات ذات الموضوع المحدد الذي ينطى مناطق ومجالات ثقافية محدودة . وبهذه الطريقة تستطيع الأبحاث العالمية للشباب أن تتقدم الى الامام تدريجا ومنطقيا . وبدون الدعم الضروري للتعاون التنظيمي الراسخ وخدمات الباحثين المدربين فانه يجب على المنظمات الدولية أن تمسك عن نشر التقارير العالمية المعدة بسرعة ، والتي ليس لها استعمال عاجل ، بل هي مشاهد فحسب ، أو ثبرة لنشاطها الخاص ، الا أننا يجب أن لا ننسى الحاجة الى المساواة الدولية الكبرى ، ويجب أن تقام الصلات مع المنظمات الدولية ومراكز التوثيق وبينها ، بقدر ما ترمي تلك المنظمات والمراكز هذا التطور .

وتمحور ما تقدم النتائج المبينة على الدراسة التي تتم في المدارس العليا الأمريكية الى ابعاد بكثر من مجال مفعولها التجريبي والثقافي ، والحقيقة التي تتجاهل - رغم أن الاخصائيين الاجتماعيين يجب أن لا يتقوا اطلاقا في مثل هذا الخطأ - هي أن الاشكال التنظيمية المختلفة في المؤسسات التعليمية لها صلات مختلفة بالأدوار المتاحة للصغار في مجتمع معين . ويتأكد النص على فئة الأعمار نجد أن البناء الطبقي للمجتمعات لم يعمل أو يستغل فحسب ، بل أن العوامل التاريخية التي تقرر التباين بين آفاق الخبرة للأجيال المتعاقبة قد صرف عنها النظر أيضا .

ومن المؤسف خاصة أن نفتقد الدراسات المقارنة التي تغطي بلاد غرب أوروبا ووسط أوروبا والدول الاشتراكية ، إذ لم نسمع مؤخرا عن أية دراسات تجريبية عن الطاقات السياسية للشباب في الدول الاشتراكية ، لأن اضطرابات وتحركات الطلاب ينظر إليها على أنها ظاهرة مميزة للنظم الرأسمالية . ونحن نجد في النظم السياسية السائدة اليوم في المجتمعات الاشتراكية أن سبل التوجيه والرقابة الاجتماعية منتشرة وفعالة بدرجة تكفي لإعطاء مثل هذا التحديد المتصور فاعلية تجريبية . أن مشكلة الاضطراب فيما بين الشباب لا تقوم من أجل البحوث التجريبية عن الشباب في الدول الاشتراكية ، ولهذا فهي تدرس ، باستثناء قلة منها . أما المشاكل الأيديولوجية والأخلاقية التي لم يؤخذ في الاعتبار تفاعلها مع الواقع الممارس ، أو التي تركز على المشاكل التي تشمل رضا الشباب عن المهنة أو الوظيفة التي يختارها ، وكذلك هجرة الشباب من الريف الى المدن ، الخ ، فهمتها الرئيسية هي « أن توفق بين الرغبات الشخصية لجموعات مختلفة من الشباب وبين صالح المجتمع » والمقصود وراء ذلك هو أن تضع الظواهر المضادة للمجتمع ( مثل الجريمة وأدمن الخمر الخ ) تحت رقابتها ، الى جانب الحصول على نتائج اقتصادية ، فإذا أمكن التقليل من تذبذب الشباب وهجرتهم واستيعاب الشباب بطريقة أكثر سرعة وفاعلية في مجالات الإنتاج فإن الإنتاج يتصاعد . وقد كان للبحث الذي قام به ف . شوبكن عن اختيار المهنة بين الشباب السوفيتي قيمة منهجية كبرى ، في حين يقوم ابجور كون الباحث الاجتماعي الأول في الاتحاد السوفيتي بدراسة الشباب من زاوية نظرية الشخصية والتطور التاريخي ( انظر كتاب *Soziologie der Personli Shkeit* برلين ١٩٧١ ) . فالمعلومات الخاصة بالأنشطة السياسية وميول الشباب السياسية ليس لها ترابط اقتصادي ، فإذا جمعت فانما تجمع على المستوى المحلي ، وغالبا تبقى دون نشر . وعلى أية حال فأننا نفتقر الى وجود معلومات تساعدنا في الوصول الى استنتاج تجريبي لوجود ظواهر خفية في الدول الاشتراكية يمكن مقارنتها بما هو معروف عموما « بقلق الشباب » في المجتمعات الصناعية الغربية .

وتوجد حاجة ملحة في بلاد العالم الثالث الى وجود رأى علمي عن الشباب . فمن ناحية نجد أن أنشطة الطلاب السياسية لها من استمرارها الدائم ، وخاصة في أمريكا اللاتينية ، ما يجعلها تفقد عنصر المفاجأة ، في حين أنه في الظروف الاجتماعية

والاقتصادية المؤلة للعالم الثالث - حتى في المناطق القريبة من أوروبا مثل شمال افريقية والشرق الأوسط - نجد الصورة العامة يشوبها النقص في أصول التربية ، مثل القراءة والكتابة ، وعدم توافر وظائف للمهرة من القوى العاملة ، ولذا تكون النتيجة خسارة فادحة في القدرة على العمل ، ويتربط على ذلك حتما نقص في التصميم الجاد التواق للتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، ورغبة فردية في التحرك الاجتماعي . فمشكلة المعارضة الكلية للنظام لا تقوم لها قائمة بمجرد القضاء على الاستعمار ، بشرط أن لا يثير هذا كفاحا قوميا أو عرقيا أو قبيلا خطيرا من أجل البقاء أو تنازع الشخصيات .

وما زالت ظروف المشاركة السياسية والابتكار السياسي للشباب في العالم الثالث غير مدروسة دراسة كافية ، ويتحسن هذا الموقف تحسنا بطيئا ، فالمشروعات التي تتفق كيفما مع مستوى الأبحاث الاجتماعية ، مثل الدراسة الهامة لشعب أوغندا الواردة في تقرير « والاس » و « ويكس » ، قلما تتقدم بل درجة تكفي لتقديم نتائج موثوق بها .

ان دراسة التاريخ وعلم الاجتماع لدلول كلمة « الشباب » في العالم الثالث لها أهمية قصوى ، ولكن هذه الدراسة لا تزال تحبو .

ونفما يلي بعض الموضوعات المهمة من الأبحاث الاجتماعية التي أجريت في العالم الثالث :

تدبير علم رمزي عام بسيط ، ولكن عملي ، عن المشاكل الاجتماعية عبر المناطق والثقافات يضم من وجهات أخرى :

١ - تفكك الأسر ، وهجر الشباب البالغين للأسرة تحت ظروف التمدن السريعة ، والهجرة من الريف الى الحضر : ينتج عنه تجمع الشباب المنبوذ وغير المسيطر عليه ، مكونا عصابات من الأحداث ، مما يؤثر تأثيرا سلبيا على أمانى الجيل الصاعد الاجتماعية والتربوية العامة .

٢ - النهوض البطيء في التعليم ، وسببه ضعف مستوى المدارس الأولية . فهناك موانع تعترض التدريب المهني في داخل الاطار الموضوع لشخصية الحدث ( يلاحظ فيه غياب حوافز الانجاز ) ، وكذلك النقص في عدد المدرسين المدربين . وبالإضافة الى هذا فان المراكز التعليمية ، كما لاحظ ريمى فان وينبرج ، عاجزة عن أن تحل محل التدريب خلال العمل ، لأن هذه المهمة تعتمد في الواقع على جهاز صناعي وحرفي ثابت .

٣ - الصعوبات التي تواجهها الشبابات عند محاولتهن الهرب من حالتهن المعنوية ومن القيود المفروضة عليهن .

٤ - « السلبية الحائرة » للجموع الحضرية من المراهقين المهاجرين من المناطق الريفية أو الجبل القديم ، الطبقة الدنيا والصغار المقلدين لسكان المدن ، وكذلك

الهوة الكائنة بين التخطيط وتطوير الأنشطة الصادرة من الهيئات العليا وبين مدى تقبل الشباب لها .

هـ - النسبة العالية من الأطفال والشباب في معظم بلدان العالم الثالث ( خمسون في المئة وأكثر قليلا منهم تبلغ أعمارهم العشرين أو أقل من ذلك ) هي التي تزيد من خطر المشاكل السابق ذكرها . وقد قامت عدة مؤسسات خلال الخمس السنوات الماضية بعدة محاولات لدراسة الشباب في مراحل تطوره ، فان من أهم واجبات الدراسات الاجتماعية عن الشباب لأغراض نظرية التقويم والتجميع للمادة المتحصلة من خلال دراسات المشاكل الاجتماعية الراسخة ، وإن انشاء علم اجتماع عام عن الشباب يجب أن يبحث على وضع النظريات ذات المقياس المتوسط والمحدد ، والتي يتحتم عليها في النهاية أن تحسن الأبحاث الراسخة عن طريق حسن اختيار الموضوع وترتيب المناهج .

وعلی هذه الأسس قد يبدو فعلا أنه من الممكن - ولو على سبيل المثال - أن نجد أثناء حركات التحرير واكتساب الحريات ومحاربة الاستعمار ( وهذه كلها تختلف في أساسها من التغييرات السياسية والاقتصادية الجبرية والفرعية للشورة الصينية مثلا ، كما تختلف حتى عن التغييرات الحاسمة التي مرت بها نظم بلدان شرق أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ) أن الجيل الجديد ان يكن واعيا ومطلعا فمن الأرجح أن يثبت أنه خميرة فعالة .

وستحتاج الدراسات الاجتماعية للشباب الى مزيد من الارتكاز على التحليل المنقح المستمر للأيديولوجيات . كما يجب أن نعلم أن المفاهيم الأيديولوجية للمضمون العاطفي الكامن في مفهوم الشباب لا تخلو من التأثير على وجهات نظر الباحث نفسه . ولذا يجب أن ينص دائما : من أجل من ؟ ولأي غرض ؟ وبأي الوسائل يتم الأبحاث الخاصة بالشباب ؟ ويجب أن لا تبقى الدراسات الاجتماعية للشباب سرا يحتفظ به للخبراء ، بل ان النشر العام لنتائج مثل هذه الأبحاث وتعميمها وإشاعتها أمر يجب أن يكون موضوع دراسة علمية ، إذ أن الأوصاف والتوضيحات التي يعم نشرها عن أنماط السلوك تميل بطبيعتها لاكتساب صفة ظاهرية من السلطة والتأثير . وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الفكرة التحليلية « لنبوءة تحقيق الذات » - التي شرحها علماء الاجتماع ، والتي بمقتضاها تصبح تدريجا أوصاف الحالات أو الاتجاهات تحديات ترمي الى كشف الحقيقة المتنبأ بها - ما زالت سائدة .

ان تعريفات الذات التي توصل اليها الشباب في الهيئات والمؤتمرات والاجتماعات والمهرجانات الخ يجب أن تؤخذ بمزيد من الاعتبار . إلا أنه يجب أن نفهم أن هذا الوجود الاجتماعي للذات ، بما في ذلك من تعبير لفظي للاهتمامات والأهداف (الاحتياجات والاستحقاقات) ، هو دائما نتاج التنظيمات التي يتجمع فيها أو يقف ضدها الشباب . فإن الظروف المركبة التي يعيشون فيها وأشكال وأجراءات الاتصالات الشخصية والجماعية لها تأثير أعظم على التلقائية المباشرة

لاشكال تعبيرهم الذاتي وعلى أوهامهم وتخيلاتهم ، اعظم مما يتصوره المشركون الصغار أنفسهم .

وهناك تكمن حاجة ملحة لتطوير وتحسين الأساليب ، وذلك عن طريق ربط وسائل التحقيق والملاحظة المباشرة بالمعلومات « غير المباشرة » وكذلك مزج « الملح » وغير « الملح » من المعلومات .

ان تخصيص التحقيقات - وذلك مثلا بتحديد علامة واضحة وعملية « إلى حد ما في مضمون الكشف عن نجاح أو فشل معايير معينة » - قد يكون مهما في المرحلة الحالية من البحث .

ويجب اعطاء مزيد من العناية للعلاقة الكائنة بين البحث والتخطيط . فالتخطيط للشباب والتخطيط مع الشباب لن يجنى فائدة ما من التحقيقات السطحية التي قد تثير مواقف متكررة على نحو لا يتغير مع نوع من التعبير عن النفس يتصف بالسطحية والتأليف من جانب الشباب . وأخذ الآراء عن طريق الاستفتاءات التي تجمع في التقارير الوطنية ووضع الافتراضات القائمة حول مواقف وأمانى الشباب يلف غالبا بغلاف سلطة ظاهرية ، وهى فى الواقع لا تعدى أن تكون كلها زائفة .

وقد أظهر تمرد الشباب وتنازعه - الظاهر منه والباطن - خلال العقد الماضى وجود آراء انتقادية كامنة . كما أحدث سخطا شديدا بين الراشدين والمراهقين من الشباب يفوق فى كثير من الوجوه ما هو مصور فى التخطيطات التقليدية .

فهناك اذن حاجة حقيقية لاعادة تقدير علمى وفاحص للمفهوم الساذج والبسيط للشباب الذى بنيت عليه أبحاث عديدة ، ولتعميم التعريفات النظرية أخذ فى الاعتبار جدبا تطبيقات الأجهزة الاقتصادية والإدارية والسياسية للتغير الاجتماعى وكذلك الصراع مع الشباب من حيث كونه صراما سياسيا .

ومن المهم بوجه خاص أن يكون هناك وعى بوسائل معينة بديلة أو مكملة لخط المعالجة ، اذا قدر للباحثين الاجتماعيين للشباب أن يتمكنوا من فتح اتجاهات جديدة .

ومن أهم هذه الوسائل ما يلى ( ويتم تحليلها فى مختصر يرد فى آخر هذا المقال ) : ( أ ) نظرية التجمع النظامى للشباب ، ( ب ) علم اجتماع للشباب مبنى على فكرة الجيل ، ( ج ) نظرية الشباب مركزة على المضمون الاجتماعى ، ( د ) نظرية الشباب كنظرية للتغير الاجتماعى نحدددها مجموعات منحرفة اجتماعية ، ( هـ ) علم اجتماع للشباب مبنى على المقارنة بين دوافع الشباب وأمانيه وبين مستقبل المجتمع وتحدياته ، ( و ) نظرية ماركسية حديثة للشباب .

### لاعادة النظر فى تعريف علم اجتماع الشباب

ان دراسة الشباب لا يمكن تسميتها دراسة اجتماعية الا اذا امكن ابداء أن بعض تصنيفات المعالم المختارة ( كمفاهيم مستقلة ) ( أ ) تنتمى نظريا لسلطة علم



الاجتماع ، وهكذا فان الحجم الجسماني والحالة الصحية أو الحالة النفسية الغالبة - حتى ولو كان لهذه الأشياء صلة بالاعتبارات الاجتماعية - لا تعتبر مقاييس لعلم الاجتماع بدرجة أكثر مما لو أخذنا في الاعتبار عوامل مثل الذكاء أو التقارير المدرسية ، (ب) ان لهذه المعالم ما تكفي دلالتة لأغراض أبحاث التخصص أو للموضوع تحت البحث .

ويمكن تعريف علم اجتماع الشباب بأنه تحليل يعتمد داخليا وخارجيا على نظام مكيف وفقا للظروف والأوضاع (بمعنى أن التحليل يكون بحجة تحديد خصائص النظام وقانونيته) . كما يعتمد التحليل ، ان أمكن ، على الارتباطات العارضة للتفاعل والعلاقات بين البالغين والشباب الى مدى ما يكونون عليه من تفاعل أو تقارب كأفراد وجماعات أو تجمعات اجتماعية ، مادامت تقرر مصيرهم وتؤثر عليهم نظم اجتماعية وتربوية .

وعلم اجتماع الشباب يدرس (أو يجب أن يدرس) العلاقات والآراء الاجتماعية المتبادلة بين الأفراد والجماعات والتجمعات (المكونة من الصغار والشباب) وبين فئات العمر الأخرى والهيئات والنظم ، والمجتمع ككل .

كما أن كلا من الخصائص الاجتماعية الملحوظة في الأفراد البالغين والبيانات «الجماعية» للفئات والنظم ومنظمات الشباب تدرس أيضا . وبهذه الطريقة يجب أن تبذل محاولة للوصول الى تركيب لعلم اجتماع يشمل كل صغيرة وكبيرة .

ويقتضي علم الاجتماع للشباب أيضا البحث في المجموعات التي تكونت من المواقف العامة أو الأحوال التشريعية المشابهة (كالتلاميذ في فصل خاص ، والفلماني المهنيين في شركة صناعية ، وكالأعضاء في منظمة للشباب ، وكطلاب علم يقرأون موضوعا واحدا) ، أو يسمو أعضاؤها الى أهداف مشتركة . كما يهتم علم الاجتماع للشباب أيضا بالتربية الأولية للشباب ، التي يجب أن تقدّر من حيث أهميتها كمحيط اجتماعي لتنمية الشخصية المثقفة اجتماعيا ، وعلى الأخص لتعلمها والتحقق منها وإمكان التعرف عليها ، لما لها من سلوك معبر ، وتحقيق الامكانيات والبواعث وهلم جرا .

ويتضمن علم الاجتماع للشباب البحث في السلوك والآراء (الآن متوسط عمر الفئات يحتم الاهتمام بالتطلعات والاماني) في المجموعات الاجتماعية ، والوحدات والتجمعات غير الرسمية للمراهقين وصغار البالغين . كما يجب دراسة البرامج والأنشطة وأنواع التجميع والاختيار والعلاقات (التنازع ، والتعاون ، أو انسداد الاتصال) التي تنمو في هذه الوحدات أو بينها ، وكذلك بين هذه الوحدات وبين المنظمات ذات المستوى الأعلى والمعاهد الاجتماعية ككل .

كما يتضمن هذا العلم البحث المبني على المقارنات الثقافية والأنثولوجية والتاريخية للبالغين وحقوقهم وواجباتهم (ويمكن اتمام هذه الدراسات بطريقة نافعة وذلك بالتحليل المقارن لأوجه سن المراهقة عند الحيوانات وبني الإنسان) . ويجب

أن يذهب علم الاجتماع للشباب الى أبعد من المقارنات الانثولوجية والتاريخية ، فيحاول أن يؤكد تفاصيل المساعدات والخدمات المادية والثقافية التي تؤدي للشباب بواسطة المعاهد والمؤسسات ، وكذلك التحقق من الروح التي تتقبل هذه الخدمات . إذ أن الاعتراض والرفض لا يمكن دراستهما فقط الا في ضوء مثل هذه التسهيلات العلمية فقط . وهذه حجة للاحتفاظ بالمفهوم العام عن «تنقيح المذهب العملي» .

والواجب اما أن يساهم علم الاجتماع للشباب مساهمة مميزة في النظرية الاجتماعية المنظمة ، أو يبني على أسس من المفهوم العام لتلك النظرية التي تقتبس من التاريخ والتحليل النفسي ونظرية الحالة الاجتماعية من حيث أفكارها ومفهومها العام . اما فيما يختص ببعض المشكلات التي يعاني منها العالم الثالث فيجب أن تؤخذ في الاعتبار الحقيقة القائلة بأنه في المراحل الاقتصادية والثقافية الاولى للتطور نجد أن المراهقة كما نعرفها في ثقافتنا المتقدمة لم توجد بين اغلبيّة أعضاء المجتمع المنتجين بطريقة مباشرة ، فهؤلاء لم يقضوا في التلمذة الصناعية غير مدة قصيرة كانت تعد في العادة فترة رمزية . ويحدث الانتقال من عدم النضج الى مرحلة النضج «حالا» خلال فترة تجريبية أو مراسم ابتدائية . وبذا يكون «الميلاد الثاني» الذي يحول الإنسان الى عضو مكتمل في المجتمع ، وهذا يحدث في الثقافات البدائية مادة فجاءة وبسرعة . وبالمقارنة بين مثل هذه الانتقالات المفاجئة والتقليدية مقارنة تفصل بوضوح حالة الشباب عن حالة المراهق أو الشخص الصغير السن يتضح امامنا حالة يمكن تسميتها «البلوغ الناضج» لصغار السن في المجتمعات الصناعية أو في المجتمعات التالية لانتشار الصناعة . والآن وقد أصبحت التربية المستمرة حيوية - بمعنى استمرار إعادة تقدير المعرفة والحصول على الجديد منها - فانه ما من فرد ليس في غير حاجة الى التطور والوصول الى نوع من الاستمرار التام مع نموه في السن . وهكذا نجد أن الوضوح المميز بين عدم النضج والنضج قد أصبح مهزوزا . ان المجتمع الذي يعد نفسه للتغيير المستمر بسبب تطور تكنولوجي أو تنظيمي وتبدل القيم يقود مبدئيا - ووفقا لمقياس إخلاقي ومعيارى معقول - الى وجود فرد متغير يبحث عن شخصيته في داخل اطار الشخصية (على المستوى الخاص) ، وذلك عن طريق التجديد المستمر ، وقد لا يوجد في مجتمع يتسم بالتغير الدائم (والتدريجي) فارق ظاهر محدد بين الفئات المختلفة الاعمار . وذلك كما في القطاع الاقتصادي تماما ، حيث كان نوع العمل يحدد بالمهارة ، فخبت الروح عندما أصبح العمل أكثر تخصصا وتداخلا ، وأصبح عنصر الزمن لا يفيد في اغراض تصنيف القوى الموجودة في مراحل مختلفة من حياتنا . ان فكرة المعرفة المستمرة يجب أن يصاحبها من حيث المفهوم الاجتماعي السيكولوجي مثاها في مراحل البلوغ التي نمارسها على مدى الحياة كلما اكتسبنا شخصيات جديدة . ولهذا يجب أن تعبر نظرية الاجتماع عن هذا الاتجاه .

ان علم اجتماع الشباب هو دراسة متداخلة نظاميا وتنظيميا ، فمهمته هي

ودنف وتوضيح أثر النظم الاجتماعية المعاصرة على الشباب من وجهتي النظر الاختلافية والتنظيمية . فإذا أردنا أن نضفي على مفهوم «المحاولة الشاملة لتحليل المجتمع» معنى أوسع من أجل أغراض علم اجتماع الشباب فإنه يمكن دراسة الشباب كدور للاعتماد المتبادل للفئات العمرية والنظم وكذلك لدورة الحياة المالية .

وقد تساعد المحاولة الشاملة لفهم المجتمع على شرح اسلوب العلاقة بين الصغار والمتنوع حتى يمكن تطبيق هذا الاسلوب الفكري كمبدأ عام لجميع أنواع العلاقات بين الصغار والمجتمع (مثل العلاقات في العمل والعائلة ، والحياة العائلية ، والمدرسة ، والحافضة على الشعائر الدينية ، الخ) . ومما يعتبر ذا أهمية خاصة من ناحية المنهج البروس ، وعلى الأقل من وجهة نظر البحث ، نقطة البداية «للمجتمع الشامل» المتخصص ، وهذه يجب أن توسع بعد ذلك تدريجاً . ويجب أن تتطور أفرع علم اجتماع الشباب الخاصة من وجهة نظر النظم والمنظمات (العائلة والمدرسة والعيش الخ) ، ولا تنحصر في حيز ساوك الحدث ، ولهذا أهمية خاصة فيما يتعلق بمشاكل الشباب في العالم الثالث .

وعند هذه النقطة يبرز سؤال : أى المفاهيم التحليلية للمجتمع (مقتضيات لتأراء العلمية الفعالة) يمكن استخدامها كمراضيع يمكن الرجوع إليها لتحديد وقتاً ، وسامدى نفوذ الساوك الفعلى للشباب وأمانيه ، وماهى أنماط ذلك السلوك . على الباحث الاجتماعى للشباب أن يرسم طبقات اجتماعية عامة (مفاهيم تحليلية عن المجتمع) حتى ينمى علم اجتماع عاماً منظماً عن الشباب . وفي هذا المضمون يجب أن تحل مشاكل الجاهات الاستراتيجية ( العمال ، الشباب ، التلاميذ ، الطلبة ، في أنحاء البلدان الصناعية أو في بلدان العالم الثالث ، سواء في الريف أو التكوينات الحضرية الخ) .

فإن لم تتم محاولة تنظيمية لتحديد المفاهيم التحليلية للمجتمع فإن علم اجتماع الشباب إن يقدر على تفادى الخضوع للتتابع السريع للمشاكل الماحقة والاتجاه إلى التعميمات المتسعة . وبناء على ذلك فإنى اتقدم بمجمل أساسى لمثل هذه المفاهيم التحليلية للمجتمع . أن تداخل العلاقة فيما بينها واحتمال تداخل انشطتها الوظيفية أمر يجب أن يكون موضعاً لمزيد من نظم نظرية لكل من المجتمع ، مكامل اتساعه ، ووحداته الفرعية ، وتكويناته ونظمه .

ومن أجل أغراض البحث يمكن لهذه الأنواع التحليلية (بل يجب) أن «ترجم» إلى أبعاد للمشكلة ، وتقود في النهاية إلى تعريفات فعالة ، قابلة للتغيير ، وتعتبر من المؤثرات .

ويبدو أنه من الضروري لتحليل مشاكل الشباب اتباع اجراء متعدد الوجوه .

فأولا : يجب تحديد الآتى :

الأنواع المقومة (أ) أسلوب الإنتاج ، توزيع الإيرادات (التكوينات الخاصة بالأسلوب التكنولوجى والاقتصادى ، وخصص الأفراد والجماعات ) . (ب) أنماط الفرص ( التعليم الثانوى والعالى ، الخدمة الاجتماعية ) ، التسهيلات البيئية والتربوية للتأمين الصحى والاجتماعى فى داخل اطار الاختيار . (ج) التمثيل السياسى واتخاذ القرارات ( التكوينات مركزية ولا مركزية وأساليب المشاركة ) .

ان الميزة الرئيسية للتكوين الطبقي والمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الكبيرة تعتمد كثيرا على تأثير هذه الأنواع .

الأنواع المنظمة : ( ١ ) التقويم والترتيب (التحديدات والمعايير الخاصة بالتمييز الاجتماعى ، والهبة والرغبة) . (ب) التكوينات القياسية (المعايير القانونية والخارجة عن نطاق القانون ، ضبط الاعتداء والشهوة ، المعايير العمومية وغير الرسمية والخاصة بالعلاقة بين الأشخاص) . (ج) تدبير المعلومات (اختيار وتحديد البرامج فى التعليم ، وطرق ابتكار المعلومات ، والحوافز ووسائل التعليم الجماعى والمنتشر ، وتشكيل وضبط الوسائل الجماعية) .

ان الأنواع المقومة والمنظمة الخاصة بالأراء العلمية تحدد محيط الأشياء المتغيرة التابعة لها .

وتحتاج الخطوة التالية الى تخطيط الأنواع «الرمزية» ، فهى تميز فى خطوط ثابتة مضمون العلاقات والتكوينات الاجتماعية ، وتحدد محيط الأشياء المتغيرة التابعة .

الأنواع الرمزية : ( ١ ) العلاقات بالنسبة للأشياء والأشخاص (أنواع الأهداف، دوافع لتداخل الأنشطة ، الشعور بالوجود الجماعى ، العلاقة بالنسبة للأشياء وتبادلها ، مظهر سلوك المستهلك ) . (ب) المثل التربوية ، رموز التعبير عن النفس (وسائل التعلم ، التعريف بواسطة الرموز والقيم ، الخلق الفنى ، النقد كوظيفة سيكولوجية واجتماعية) . (ج) مواجهة مشكلات الحياة وحل المشاكل (الخيبة ، الاحتمال ، تنظيم التحصيل ، عقلية العمل ، وتوجيه المستقبل) .

ان دراسة الشباب يجب أن تبدأ أولا باختبار سلوك البالغين والأحداث واختبار أمانهم الخ ، وذلك فى داخل اطار الأنواع الرمزية التابعة ، وكنماذج للسلوك الاجتماعى بوجه عام .

ثانيا : يجب أن يعرف الشباب بمدى ما للأنواع المقومة والمنظمة من تأثير مباشر عليه .

وزيادة على ذلك فان هذه النظرة العلمية تحدد وضع الشباب على أنه انتاج للمجتمع بتكويناته وتنظيماته الخ، ومايشمله من ابعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية

وثقافية . وتعرف حالة الترتيب الزمني (الذي يعتبر الشباب واحدا منه) في حدود المقتضيات والضغوط الراسخة في داخل المجتمع ، فهي نتاج «النظام» ، الصراع (أو الشذوذ ، أو هما معا) . ان التوتر أو الثغرات المتعاقبة جيلا بعد جيل ليست نتائج اولية أو «طبيعية» مستقلة ، اذ ان دور الزمن ، مثل دور الجنس ، كلاهما خلقته ظروف اجتماعية سياسية ، رغم ان لهما مكونات بيولوجية . وتضفي العناصر الاقتصادية والتكنولوجية المؤسسة على الشباب شكلا يتناسب مع الانواع المنظمة والانواع الرمزية . ان الابتكارات التكنولوجية السريعة «الأجيال» التي لها انتاج فني يجب ان تدرس من حيث تأثيرها على الأنماط المتغيرة ، ويجب ان يعد كلاهما من عوامل ازدياد توتر الجيل أو تغيره .

ان الخطوة الأخيرة ، الفاصلة في التحليل ، هي ان تكون دراسة الشباب دراسة لمجموعة عوامل . وهذا يتطلب دراسة الخلفية الملقنة للشباب حسب عناصر المجتمع الرمزية ومن خلالها حسب العناصر المنظمة والمقومة .

ان سلوك واماني الشباب تؤثر على سلوك واماني المجتمع بوجه شامل . فالشباب يتصرف في قدرات تكوين الرأي ونشر الأنماط . فالتغيرات في اماني المجتمع تؤثر في أنماط الفرص والمستويات التقويمية والمعارية . ومع ذلك فللشباب ، تحت ظروف معينة ، تأثيرات مباشرة على العناصر المقومة والمنظمة ، فتحديات الشباب تحاول ان تختصر اجراءات تكوين الآراء والابتكارات الاجتماعية العامة .

والى جانب هذا فالبحت ضروري للتفريق بين الدور الابتكاري والاثاري والمقوى الذي يؤديه الشباب . ونحن عادة نجتمع الدورين الآخرين معا ، ونعتبر الصفار «مجددين» فقط ، بدلا من أن نغتنم الى ان النماذج والتخطيطات للابتكار في السلوك السياسي والاقتصادي والاستهلاكي أو الجنسي لا تنبثق مع الصفار الذين (رغم أنهم من أول من يقوهم) يكونون هم المقتبسين الأوائل ويؤدون دورا خاصا في المعرفة الاجتماعية العامة والمجالات المتشعبة .

لقد أبرزنا المشاكل التي تخص علم الاجتماع العام للشباب والتي يجب ان لا نغفلها بالدراسة المتخصصة - المشار اليها آنفا - في العلاقة بين الصفار والتنظيمات الخاصة أو المؤسسات . وهكذا ، على سبيل المثال ، فان دراسة مواقف الصفار تجاه المدارس واصحاب الاعمال وامكن العمل ، ومنازل الطلبة ، والخدمة الاجتماعية ، وتنظيمات الشباب ، وكذلك الدراسات التي تشمل الروابط العائلية ، والعلاقات القائمة بين مجموعات مماثلة ، والاتصالات الجنسية ، ثم مواقفهم تجاه المؤسسات الدينية والسياسية والثقافية ، كل ذلك يتصل بمجالات اختصاص علم الاجتماع .

ويلقى الحد الفاصل بين هذه المجالات وبين علم الاجتماع العام للشباب عندما يدرس عدد من التأثيرات التأسيسية المختلفة عن طريق المقارنة والتحليل . وتستعمل الدراسات المتخصصة المتضمنة كأساس لنتائج مبنية على الوزن النسبي الذي يضفي

عوامل مثل الاشتراكية في الشباب وتكوينات مجموعات الأحداث والتجميع والتغيير  
وإدراك العمل والنزاع على تلك الأدوار .

إن الخلفية الملقنة من علم الاجتماع للشباب إلى تطور النظريات العامة لعلم  
الاجتماع لم تنزل إلى الآن غير كافية ، لأن نظرية علم الاجتماع للشباب كانت من ناحية  
مبنية لمدة طويلة على علم النفس أو الطب النفسي للشباب ، ولأن جزءا كبيرا من  
الخلفية الأيضاحية للبحوث التي أجريت تضمنت من ناحية أخرى تجميع المعلومات  
عن ميولات السلوك والمواقف ، وقد يكون أحسن وصف لها هو أن تقرن ببساطة  
بكلمة الشباب ( كقولنا مثلا : الشباب والقراءة ، الشباب والموسيقى ، الشباب  
والرياضة ، الخ ) ، غير أن الدراسات التي من هذا النوع لا ترقى إلى اعتبارها فروعاً  
من علم اجتماع للشباب ، وذلك لسبب بسيط ، هو أنها تعقد مقارنات بين سلوك  
ومواقف مجموعات مختلفة من الصفار ( في المدن وفي الريف وفي المدارس وفي المين  
التيارية ) في هذه المجالات أو ما شابهها . وقد مكث علم اجتماع الشباب طوال سنين  
عديدة ، تباطأ بمضمون الفكرة البسيطة التي سبق شرحها ، مع التركيز شبه المطلق  
على أعداد دراسات شاملة كنموذج المشار إليه ، التي حاولت بعد ذلك إلى تنقيح  
وعلمية أو دوائية .

### أبعاد مفهوم «الشباب»

إن كلمة «أشباب» تعبر عن طور من التطور الفردي من ناحية ، كما نطاق  
من ناحية أخرى على جماعة من المجتمع تحاول كيفما كان اشباع فترة معينة  
من النمو .

إن الحد الأدنى لعمر «الشباب» كجماعة اجتماعية يحدد دائما في البحث  
العادي بحدية النضج الجنسي الذي يحدث بالطبع في أعمال مختلفة . وحتى هذا  
التعريف لا يبدو مقنعا لأن الأطفال من سن ١١ سنة و ١٢ سنة مثلا قد يحتدون  
نموذج سلوك خاصا بالمرهقين ، وذلك بمرافقة الفتيات قبل بلوغهم النضج  
الجنسي . ولا يمكن إعطاء تعريف محدد لمفهوم الشباب بمدول بيولوجي أو بتحديد  
قاطع بالنسبة ، بل يجب تحديده من ناحية بالنسبة لأنواع متكررة من السلوك عن  
طريق التجربة والاختبار (وتصل إلى أبعاد تبدو قريبة) في عمر محدد على وجه  
التقريب ، ثم من ناحية بالنسبة لوجود الفرد في حدود اجتماعية واقتصادية لا يخضع  
لها الكبار .

إن تعريف الشباب من حيث الوضع يدل على أن الحد الأعلى الذي يتعلق  
بالانتقال إلى المراهقة يجب أن يشار إليه بلفظ المراهق أو البالغ الصغير ، ويعرف  
الأخر بأنه وصل بالفعل إلى مواقف لا يرقى إليها المراهقون . هذا إلى جانب أن  
البالغ الصغير ، ولا يزيد في ذلك عن المراهقين ، لا يتمتع بعد بوضع الشخص المكتمل  
من البلوغ في الوصول إلى الحقوق الكاملة من الجنس والعائلة ورعاية البيت  
والوظيفة والسياسة . و «الشباب» تحت مفهوم «المراهق» و «البالغ الصغير»

هو في هذا المضمون مفهوم ثابت . وهذه البديهيات تعقد الأمور ، لأنها تدل ، في كل مجتمع يدرس ، على أن مفهوم «المراهق» و «البالغ الصغير» يجب معرفته بدقة من حيث صلتها بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والشرعية ، وهذا يستلزم إجراءات قيمة حين يراد عمل مقارنات بين المجتمع والثقافة . وعلى أية حال فإن هذه البديهيات لازمة من أجل خواص الأفراد المصقولة والنافعة اجتماعيا أو التجمعات النظرية *Theoretical collectives* التي يجب أن تعطى فيما بعد معلومات لها رزنها عن السلوك والآراء ، الخ .

والواقع أن التأكيد النظري على أهمية هذا المدخل يثير أيضا فكرة السن في المفهوم الشامل . وتعتبر التخطيطات الديموجرافية الاجتماعية ضرورية لتقرير مدى التوزيع والتحديد مثل سن زواج النشء أو السن التي يتم فيها التدريب المهني . وإى متغيرات أخرى تدخل على نظام التصنيف يجب أن تدرس مقدما حتى يمكن توزيعها حسب ترتيبها التاريخي .

ويجب اعتبار «الشباب» كالفياق الأساسي ، أو اعتباره جيلا معرضا لظروف عامة وخبرات نتيجة لمرور الزمن ونتيجة لأنشطة عامة خلاقة . على أنه يجب التركيز دائما على وحدات الأجيال ذات التكوين المختلف من حيث طبقات المجتمع والمضمون الاجتماعي والفكري .

وأخيرا فإن كلمة « الشباب » في معناها اللغوي المعتاد والاجتماعي المتداول تبيل إلى حمل نبوة من التحدي الديني والسياسي منها ، وكذلك تستعمل بمعنى واسع نوعا لتوحي برغبة ومقدرة على التجديد ، دون اهتمام كبير بالاعتبارات البيولوجية والتاريخية الصارمة . إن القيم التي يدعو لها المجتمع المستفيد والميسرة طبيا عن طريق وجود النظم الخيرية التي تقدمها الدولة قد شجعت الناس ( وعلى الأخص النساء ) على الاستمرار في التعبد في محراب الشباب على طول رحلة قد تمتد فتصل إلى منتصف العمر بنتائج ثابتة لمواقف وأطباع فيما يخص الجنس و «التقدم في العمر» إلى غير ذلك من أوجه الحياة الأخرى . وبهذا المعنى تستعمل كلمة « الشباب » بمفهوم قيمة تعبر في المقام الأول عن نقطة فكرية متناحرة إلى المستقبل ، الخ . وإربما يكون من الأوضح أن نتكلم عن فيض الشباب بدلا من الشباب في هذا المجال .

إن هذه المحاولات المختلفة حول المفهوم يجب أن تؤخذ على أنها مجالات متداخلة باتفاق الآراء وملحوظة بمعنى أن الشباب ينظر إليه ( أ ) كظاهرة في دورة حياة الفرد، (ب) كوضع غير كامل ، ( د ) كجيل مكون اجتماعيا ( وحدة جيلية ) ، ( هـ ) مفهوم قيمة مثالي ( فيض الشباب ) .

وقد كان للاتجاه من جانب المجتمع ككل إلى تأكيد المحاولة ( هـ ) مفهوم قيمة مثالي ، في حين يتسكك بالمحاولة الثالثة (جـ) وهي «وضع غير كامل» ، آثار عميقة لسياسة التحويل الاشتراكي ووسائل نقد « الشباب الثائر » ، وكذلك من أجل

اهدافه السياسية المثالية . وقد كان لزيادة التركيز او مضاعفة الخصائص المميزة في تطوير اساليب تمثيل الذات للشباب أهمية مماثلة من أجل نمو حالة وعي معينة، ومن هنا تولدت رغبة عارمة في الالتجاء للحركة .

### نظريات بديلة ومكملة في علم اجتماع الشباب

#### نظرية الوحدة الانشائية للنشء

يرى س.ن. ايزنشتاد في انشاء وتنظيم المجموعات المكونة حسب سن الشباب انه عبارة عن دائرة اتصالية فيما بين العائلة ودوائر المجتمع الأخرى الانشائية (السياسية والاقتصادية الخ) ، وان الدائرة الاتصالية تصل بين منشآت مختلفة.

ويقرر ايزنشتاد أن هدف الأمانى المعلقة في قطاع انشائي واحد لا يمكن أن يشبع تماما في حدود قطاع آخر ، فالدائرة الاتصالية يشبع بعضها بعضا على الأقل ، كما انها تقود النشء نحو توقع أمانى جديدة من المنشآت التي بدأوا الآن الالتحاق بها . ولهذا فهو يعتقد أن « دائرة الاتصال » تؤدي دورا نحو الاستقرار الاجتماعي .

ولهذا نجد أن الجماعات المكونة حسب السن تحقق الى حد ما دور الأمانى الذي يتعلمه الطفل والمراهق في المدرسة ، وتقود المراهق والبالغ الصغير نحو عالم ملء بالنشاط الهنيء والمسئولية العامة . ووفقا لرأى ايزنشتاد تكون مهمة « شباب » الجماعة المكونة حسب السن - « الدائرة الاتصالية » المعنية هي موضع اهتمامنا هنا - هي خلق توازن بين شخصية ذاتية موحدة الاهتمامات ومعبرة وبين العلاقات المساعدة . وتساعد هذه النظرية بالتأكيد على لقاء الضوء على المجتمعات الأنثولوجية والزراعية وذات الطابع العسكري ، وكذلك تلقى الضوء الى حد ما على منظمات الشباب التقليدية ، غير أن تأثيرها أقل على الثورات والقلال التي حدثت بين النشء في أمريكا وأوروبا خلال العقد الأخير . وليس لحركات الشباب المنشق أى من الخصائص والأغراض التي يصفها ايزنشتاد بمفهومه عن « الدائرة الاتصالية » . فاليوم يعترض « الشباب السياسى الجديد » وينفعل ضد عالم البالغين وضد مؤسساتهم ومنشآتهم بصفة عامة . وبذا يمكن القول بأنهم يرفضونها أكثر مما يرتبطون بها . وتأييدا لنظرية ايزنشتاد يمكن بالطبع الإشارة الى أنه حتى الجماعات الثائرة في حركات الطلاب لها مهمة خلق ( مستترة على الأقل ) ان لم تكن مهمة اتصالية ، فهي على أية حال دائرة « انتقالية » تشجع الجماعات الثائرة في محيطها الطلبة على الانفصال عن بيئتهم التقليدية وتعطيهم شعورا معينا بالشخصية وتقدمهم لأدوارهم (حتى ولو كانوا على اعتقاد غامض بها) المتعلقة بالتغيرات الانشائية وبالمشاركة الخ ، أو بمعنى آخر تقدمهم لأدوار ذات صبغة سياسية . غير أن «دائرة انتقالية» من هذا النوع لا تفنى بالفرض الذي يربطه ايزنشتاد نظريا «بالدائرة الاتصالية» ، الا وهو تثبيت النظام . والفرض - خاصة لدوافع متطرفة - ليس لتثبيت النظام ولكن لحله . ولكن نتيجة تفاعل المحاولات الجلية ( المتطرفة ) التي



يقوم بها المصلح ازاء التغيير ومقاومة المنشآت سوف تعتبر تضرًا وتحولًا في النظام بصفة عامة . وقد سمح ايزنشتاد لنفسه بالقول بأنه توجد في أى مجتمع حديث «ظروف تكوينية» تخلق أنواعًا متباينة وتكوينات من السلوك المنحرف في النشء ، وهو يميز بين أربعة أنواع من الانحرافات : ( أ ) مجموعات غير منظمة من الشباب المنحرف تنشأ في مواقف « الاتصال الثقافي » ، ( ب ) مجموعات من الأحداث على درجات مختلفة من النظام والفوضى ، ( ج ) تنظيمات شباب الحركات الثورية والأحزاب ، ( د ) حركات الشباب الثائر ( في الأصل حركات الشباب الألماني في مظهر من مظاهرها الأساسية ) .

ويطبق على جميع أنواع هذه الانحرافات مفهوم موحد للتمرد . غير أننا نجد ان مفهوم القيادة الفاضلة ضد التكوينات الاستبدادية يضع خطأ تحت ( ج ) و ( د ) ، في حين أن ( أ ) يشرح على أنه تفهقر لنقص أو فشل في محاولة لاكتشاف الشخصية . أما عن ( ب ) فهو موجه ضد « الوسائل العادية لاجتماع لا ضد قيمة المطلقة » .

والواضح من هذا العرض المختصر أن محاولة ايزنشتاد مبنية على مفهوم لنظام ثابت للمجتمع تنبع منه انحرافات مختلفة .

### اهمية مفهوم الجيل ومشاكله المتناصلة

من الممكن مضاهاة محاولة ايزنشتاد العملية بتلك التى قام بها هلموت شيلسكى المبنية على نظرية الجيل كجزء من مفهوم التخطيط للتغيير الاجتماعى .

وحتى يمكننا توضيح علاقة مفهوم الجيل بعلم اجتماع الشباب يجب علينا الرجوع الى حركة الشباب التى ظهرت في ألمانيا في بداية القرن والتنبيه الى القيم الخاصة المرتبطة بالشباب وسط الاقلية النشيطة في الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٣٠ . ففي المنشور الذى أصدره في عام ١٩١٣ ( وهو المنشور المعروف باسم **Manifesto Vom Hoken Meissner** كان اعضاء حركة هذا النشء أو «تحالف» هذا النشء - ومعظمهم في ذلك العهد من ابناء الطبقة الموسرة المتوسطة - أول من اعترضوا جهارًا ضد مجتمع منظم من البالغين ، وطلبوا بنموذج معين من الحياة يلبي حاجة الشباب ، وتكاتف الشباب ليكون جماعة منفصلة في المجتمع . ويمكننا أن نتفق عن يقين مع هلموت شيلسكى حين ينسب في كتابه المهم الصادر تحت اسم « الجيل المرتاب » الى هذه الأقلية النشيطة ، التى ينظر اليها كجيل حركة الشباب ( حوالى ١٩٠٠ - ١٩٣٠ ) ، مجموعة معينة من المواقف والخبرات التى أسهمت جزئيا في تركية استعمال مفهوم الجيل ، وخاصة أن المجموعة التى نحن بصدها نظرت الى نفسها بوضوح على أنها جيل . وفي الحالة التى سادت من ١٩٣٠ الى ١٩٤٥ ووصفها شيلسكى بأنها جيل « الشباب السياسى » كان هناك جماعة ذات خبرات ، ولكن وجود المواقف العامة كإحساسه بالشك ، لأن طبيعة العضوية الإجبارية في « شباب هتلر » وماتالها من أعمال مختلفة واتحادات عسكرية ، لم يكن فيها مايشابه اطلاقا

نوع تكوينات مجموعات الجيل المميزة للحركات التي حدثت من قبل . وفي حالة «الجيل المرتاب» فيما بعد الحرب - وهذا الاسم لا يزال يطبقه على الشباب الألماني حين ظهر كتابه في عام ١٩٥٧ - كان من المستحيل الكلام عن المواقف العامة أو (باستثناء الفترة البطولية التي عقيت عام ١٩٥٤ مباشرة حين أصبح البلد خراباً) عن الخبرة المشتركة .

وفي الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ - وهي فترة كان وسط أوروبا يعتبر فيها مركزاً للبناء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي - تضاءلت الظروف التاريخية التي تحكم تطور الشباب ، الى أن صارت عدداً من العوامل المحيطة الحاسمة ، وازدادت أهمية اختلاف التكوين الاجتماعي (أي الطبقي) الى درجة فقد عندها مفهوم الجيل كثيراً من ارتباطه الاجتماعي .

لقد نتج عن تمييز شياكي للفترات المتتالية (١٩٥٠/١٩٣٠ ، ١٩٤٥/١٩٣٠ ، ١٩٤٥ الى أن نشر كتابه ) «حقب أو «مراحل تاريخية» تعكس أجيالاً (مثل «تعبير عن الألماني الأساسية للشباب» ) ، وتقسم محاولته هذه باستعماله أشد ما يحسن لعبارة «التكوين الحقبى الاجتماعي» . ومفهوم «حقب» عند شياكي هو فترات مميزة في تاريخ الشباب .

إن الحوادث السياسية التاريخية التي حدثت في المجتمع الألماني منذ عام ١٩١٨ بالإضافة الى الدور النشط جداً الذي أداه الشباب الألماني في تشكيلها قد نتج عنها انعكاس لمسار تشكيل السلوك الاجتماعي في نماذج محددة بوضوح - عادة متعارفة جداً - من السلوك في الأجيال الفردية التي يمكن عزائها رمزيًا كمراحل في التغيير التكويني الشامل .

وتكشف الفقرة السابقة من التباين في مفهوم «حقب» و «جيل» . فمن وجهة نظر الكاتب الحالي يجب أن توصف الأجيال وتوضح تاريخها من ناحية ولكن من ناحية أخرى من حيث علاقتها المعاصرة من ضغط وتفاعل ازاء الأجيال المتعاصرة أو الأجيال الأقدم . وببساطة فإن توكيد الاختلافات المتوالية ووضعها في شكل متجاوز ليست بكافية لتحليل المعالم العامة في تعبير جيل اجتماعي مناسب . إذ يجب وضع تمييز واضح بين الحقب كوحدة تاريخية والجيل كفياق أعظم له عديد من الخبرات المرتبطة بالمجموعات المعاصرة من مختلف الأعمار .

وقد اعتقد سيجريد بيرنفيلد أنه للدراسة الشباب كجيل يجب أن تبحث العلاقة مع فئات من أعمار أخرى أيضاً ، وأن البحث في النشء يجب أن يأخذ في الاعتبار علاقته المؤثرة مع البالغين . ووفقاً للنظرية التي تقدم بها في رسالته العلمية بفينا (١) (ولو أنها ليست بالنص المستعمل هنا تماماً) لا يمكن عمل دراسة للنشء دون بحث توتر العلاقات التي تنشأ بين الأجيال الفردية وخبرتهم وشخصيتهم التعاونية وبين المجتمع ككل .

وأخيرا يجب أن يوجه النقد الى شيلسكى لاعتقاده في ظاهرة كاملة او حقبة من شباب ما بعد الحرب دون تفرقة كافية بالنسبة لطبقات اجتماعية او لبيئة اجتماعية. وبمعنى آخر فقد فشل في تلبية المتطلبات الاخرى التي كونتها بالفعل محاولة بيرنفلد، وهى النظرية التي تنص على ان مفهوم الشباب يجب تفسيره دائما بالاشارة الى الطريقة الخاصة التي بها يصبح النشء جزءا مكملا في المجتمع ككل ، اى ( على حد التعبير الحديث) من وجهة نظرية مفهوم نظرية التحول الاشتراكي .

وقد كتب بيرنفلد يقول : « ان مفهوم علم الاجتماع عن الشباب هو التعبير العام عن القوانين التي بمقتضاها تكون هناك أشكال معينة لتوحيد النشء في نظام اجتماعى وارتباط هذه الاشكال بهذا النظام» .

وهذا يعنى أن الطريقة التي بها يصل العمال الشباب الى مرحلة البلوغ بعد فترة من التدريب والنمو تختلف اختلافا ملحوظا عن تلك التي يكمل بها النشء الذي اتم دورة التعليم الثانوية المرحلة الانتقالية الى البلوغ . والفقرة التالية مقتبسة مما كتبه بيرنفلد حول الوضع في عام ١٩١٩ :

« ان نسبة ضئيلة فقط من النشء بصورة عامة هى التي تصل الى المعاهد ، وهى القوى العقلية التي يصفها الأوربيون دوما في كلمات طيبة بأنها ضرورية ومفيدة بوجه عام . ان مجال الدراسة الكامل مفتوح فقط امام مجموعة ضئيلة من السكان . فالمدارس قد قسمت الى مراحل أولية ومتوسطة وعليا ، وتفتح المراحل الأولية أبوابها لجميع الناس، في حين يقتصر المستويان المتوسط والعالي على طبقة خاصة» .

والطريق الذي تمنح فيه حالة البلوغ امكان الوصول الى التربية في المدارس والتدريب يمثل أيضا تفرقة عميقة ضرورية من أجل تكوين الأجيال . وعلى أية حال يجب فسخ المجال لهذه التفرقة دائما عند وضع نظريتنا . وبناء عليه فانه يمكننى أن اغنص نقدى الوجه الى شيلسكى فيما يلى :

١ - أن المراحل الثلاث التي يتقدم بها شيلسكى على انها أجيال هى في الواقع حقب تاريخية : كانت بعض مقاييس الأجيال كذلك في فترة حركة الشباب الألماني فقط ( ان كانت كذلك وقتئذ ) تتم بالتضامن الضروري بين المواقف والخبرات ( وكذلك الى حد ما بالتعبير الذاتي الجماعى ) . أما عن المرحلة التي دامت من ١٩٣٠ الى ١٩٤٥ فانه من الممكن الكلام عن الخبرة الجماعية (التي لم تكن بالاختيار الشخصى) لا عن المواقف الاجتماعية ، في حين أنه في « فترة ما بعد الحرب » لم يوجد على حد تعريف شيلسكى أى من الأنواع الجماعية .

٢ - وهناك سبب آخر للتنويه بتكوين الأجيال فيما يختص بالفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٣٠ ينحصر في أن العلاقة مع مجتمع البالغين كانت الأقلية النشيطة من حركة الشباب الألماني تنظر اليها كمشكلة ، وهذا واضح في منشور هوفر ميسنر . وبناء

عليه فان بناء الأجيال يتم بواسطة علاقات المعارضة المتعددة والشاملة ، بما في ذلك التوتر مع المجموعات المعاصرة .

٣ - ان مفهوم الجيل تعقده حقيقة ان التفاوت وعدم التكافؤ في المجتمع والتكوين الطبقي « لشباب » المجموعة العليا وتكرار حدوث المعارضة السياسية والفكرية بين وحدات الأجيال لابد ان يعمل حسابها ، وهي تستلزم غالبا هذا التباين بالنسبة لجمهور الطلبة ، فقد صرح بان الطلبة لا يزالون يكونون جزءا من المجتمع ككل ، ولذلك كان لزاما عليهم دائما ان يمثلوا التجمعات السياسية الشاملة في المجتمع

### نظرية ملازمة التكوين والمضمون الاشتراكيين

#### لنماذج سلوك النشء وآرائه

ان مفهوم وحدة جيل يعنى انه في داخل فيلق معين يحدد اعضاؤه بترتيب السن (كهؤلاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ سنة و ٣٠ سنة ، ولأفراذه عدة خبرات مشتركة ، مثل الحروب ، والحروب المدنية ، وعلان الاستقلال ، والأزدهار الاقتصادي ، ونشر التعليم ، وانتشار السيارات ) توجد اختلافات وافية مبنية على أسس تكوينات اقتصادية وثقافية وسياسية لمئات أصيلة ، والتدريب الدراسي والمهني ، أو التوجيه الفكري لمنظمات الشباب لخلق آراء متباينة أو حتى متعارضة وسط المجموعات المكونة للجماعة . وهناك دراسات كثيرة تغل بوضوح على ان نظرية عامة لنزاع جيل أو « وجود ثغرة في جيل » ، كما أوضحته مارجريت ميد التي تفترض وجود وحدة منفردة مغلقة من الآراء وفقا للتركيب الرأسي للسن ، لا تستطيع شرح الأديان التي يمكن اثباتها بالبراهين وشرح المجموعات العقائدية والسياسية المتعاقبة على مر الأجيال ( ومنها على سبيل المثال الجناح الأيمن المتطرف والأحرار واليساريون ) المشروطة بدوام وجود الأسرة والمنظمات الخاصة والمعاهد التي تظهر نفسها على المستوى الأفقي المتدرج الهرمي للعمر ، وبناء عليه فان مثل هذه النظرية يجب رفضها لكونها غير قابلة للتطبيق .

وعلى ضوء الدراسات - التي قامت بها شارلوت بوهرلر مع سيجريد بيرفولد وبول ف . لازارسفيلد - قمت بخطوة للاسهام في وضع علم اجتماع للشباب الأوربي فيما بعد الحرب ، وذلك باستنباط فكرة « ربط العادات اليومية المختلفة » التي يمارسها النشء « بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية » للحصول على صورة شاملة مكونة وفقا لطبقات ومجموعات من السكان ( النمساويين ) .

وقد انحصرت فكريتي الأساسية في أن النشء كان كمثل من الجماعات الأخرى خاضعا لمجموعة عوامل اجتماعية وفي حاجة الى محاولات تختلف عما تقدمه الفكرة الشاملة عن «جيل» . وقد أفصحت مقارنة تفصيلية شملت العلاقات الأسرية وعادات شغل أوقات الفراغ والنوادي والأنشطة الثقافية والاهتمامات التربوية بين العمال الصغار والطلبة المتماثلين في السن عن السلطات الفعالة والراعدة التي تطبقها مختلف النظم الأسرية والمدرسية والتربوية في الطبقات الاجتماعية المختلفة . وقد

اتضح أيضا أن التباين ليس بين السلطات الفعالة والرادعة فحسب ، بل كان من الممكن أيضا تحديد نوعين من الاستقلال أو الانفصال عن التأثير العائلي والبيئي ، ففي حالة المتلمذين في الصناعات تبدو سهولة ملاحظة الاستقلال العملي في شغل أوقات فراغهم وعاداتهم الاستهلاكية المبينة على تساهل في الرقابة ، ولكن أيضا مع قلة التشجيع على الثقافة من جانب الآباء . أما في حالة الطلبة فالرقابة الأبوية أشد فاعلية ، ولكن يوجد أيضا استقلال شخصي أكبر ، وإلى حد ما استقلال فكري بدوافع ثقافية أكثر تشددا من جانب الآباء والمدارس .

وقد وجدنا أن مستوى الأنشطة المفتوحة والمنتجة في نطاق الرمز الثقافي يعتمد على البيئة التي ينتمي إليها الأفراد . أن كلا من اهتمامات وأنشطة البالغين داخل المدرسة وخارجها ترجع جذورها إلى مفهوم مركب عريض لخصائص أبوية : اللغة ، والتربية ، والمهنة ، والسمى المحلي في بلوغ الأمل ، والدخل ، وعادات الاستهلاك ، وماشابه ذلك . وهذه هي خلفية اختيار المستقبل المدرسي والنظراء ، رغم أن كلا من المدرسة والأصدقاء لهم أهمية متزايدة تطفئ في بعض وجوها على تأثير الآباء على البالغين كلما كبرت سنهم . ونجد في مضمون هذه الشروط العامة وحدها أن «ثقافة الشباب الفرعية» التي يفرضها جمهور البيئة أو تطبق على «دوائر اجتماعية» معينة يمكن أن تؤثر على سلوك وآراء النشء . وقد كان من أهم نتائج دراساتها عن الأنشطة الثقافية للنشء التحقق من أن التأثيرات البيئية المشار إليها آنفا لا تنفك عند تقرير الوضع في وقت معروف بل تتعداه أيضا إلى التطور في المستقبل .

وقد تمكنا من التعرف على بعض نماذج أساسية معينة تحدث بصفة منتظمة في مرحلة التربية الاجتماعية للمراهقين ، كما عرفنا أن التخطيط والرقابة وأهداف الوالدين في الأسرة والمدرسة لا تحدد مستوى معينا فحسب ، ولكنها تؤثر أيضا في التغيرات التصاعدية والتنازلية التي تطرأ على المستوى بمرور الوقت . وقد وجد أيضا على سبيل المثال أن التقدم الاجتماعي والتربوي يستلزم «تجديد دور» للطفل والبالغ . وقد أوصلنا ذلك إلى أن ندرس ، على أساس كل من البواهب النظرية والتجريبية ، خطة المعيشة التي يرسمها الوالدان والمدرسة والنظراء للبالغين . وكان ذلك مجرد خطوة قصيرة نحو مسألة الأدوار التي يختارها النشء لنفسه ، وكذلك كيف ومتى يختارها . وامتدادا للدراسات والنتائج الخاصة بمختلف أنواع النمو الاجتماعي والثقافي في فترة المراهقة اتضح أنه من المرغوب فيه بحث مختلف النماذج المرتقبة ، على أن تكون بداية للتقدم من الملاحظة حتى الإخراج إلى حيز الوجود . ولم تكن المؤثرات على الأفراد هي وحدها التي أظهرت تطلب الاهتمام ، بل كانت هناك إلى جانبها مؤثرات على أهداف الحياة التي ينميها الأفراد أنفسهم . وتعتبر الأسرة بالنسبة للنشء (الذي تتفاوت درجة احتمالات وجوده في طبقات اجتماعية مختلفة ، بمعنى أنه كلما ارتفعت الطبقة كان الاحتمال أكبر) نقطة تحول للمصادر المتاحة ، باعتبار أن الأسرة من الخصائص المميزة للطبقة ، ولهذا فهي أيضا نقطة البداية للحرك التربوي والاجتماعي .

وعلى أية حال فإن دور الأسرة في نقل قيم الرمز الثقافي يجب تقديره بحرص زائد . فقد وجد مثلا ان اختيار مسلك مدرسى معين يعتمد لدى واسع على خلفية الأسرة ، ولكن حيث يكون الانخراط في سلك الدراسات الأكثر تقدما ممكنا للنشء من الطبقات الدنيا فإن النظام المدرسى يصبح دستور الدليل الاجتماعى للتطور التربوى والثقافى .

وأنه من الصعب جدا ، من الزاوية النظرية والمنهجية في علم الاجتماع الحديث ، التمييز بين تأثير الوسط العائلى من ناحية وبين تأثير المدرسة من ناحية أخرى . غير أنه يمكن وضع قياس يصل الى الدرجة التى تسود فيها القيادة والتربية غير المباشرة في الطبقات الاجتماعية العليا ، ومن المحتمل أن يكون هذا لازما لتطوير عادة تقدير النفس المستقلة . ان مسحا لمختلف حقول تجاربنا يوحى بان الشعور بالأمان الذى يجعل الإنسان يعتمد على نفسه ويقاوم الضغوط من أجل الإصلاح ينمو من خليط من الرقابة الحكيمة من ناحية وبقطة وعناية أقوى (فيها مزيد من العاطفة) في معنى انتياده غير المباشرة من ناحية أخرى . وقد يبدو من التناقض (على سبيل المثال) أن البالغين القادمين من بيئات فيها مشاركة اجتماعية من هذا النوع يمكنهم أن يظهروا أسلوبا عقليا وتقديرا متفائلا لآمالهم في الحياة بطريقة نقدية أكثر من هؤلاء الذين تكون مشاركتهم الاجتماعية أقل تمهيدا وأكثر مباشرة ، ونعنى بذلك النشء في الأسر التى تكون فيها كفاءة الآباء قليلة من الوجهة المهنية .

ان اختلاف المشاركة الاجتماعية في الطبقة الوسطى عنها في الطبقة الدنيا يتميز فيما يتميز به من أشياء أخرى باستعداد أكبر لنقد الفكرة اننى تقول بأن للفرد وضعا خاصا في الحياة مرسوما له بالفعل . ان مزج الأهداف والتأثير غير المباشر الموجود في بيئة الطبقات الوسطى والاميا من المحتدل أن يؤثر على نماذج الامانى بطريقتين . فنجد من ناحية أن الفرد يتبنى مسلكا واعيا وسلسا نحو مجال واسع لامكانيات المستقبل ، ومن ناحية أخرى يكون وعيه بهذه الامانى أقوى بكثير منه تحت ظروف المشاركة الاجتماعية التى تفتقر الى الأهداف والأساليب غير المباشرة ، وذلك لثقته الكبرى بنفسه واعتقاده بأنه يمكن قطعا التأثير على مستقبله الخاص عن طريق موارده الخاصة .

وقد أبدت الدراسات التى أجريت مؤخرا في علم الاجتماع السياسى بشدة أهمية تحليل النشء في المفهوم الاجتماعى لتنظيم الطبقات والمراتب ، أى المشاركة الاجتماعية المتباينة . ولم يكن تأييد حركة مايو في باريس عام ١٩٦٨ قد تقرر قطعا بالنسبة فقط ، بل كذلك بالتعليم الى حد كبير . وقد حدث خلال حوادث مايو أن تطورت نماذج العلاقات التى يمكن التعرف عليها الآن في جميع بلدان أوروبا الغربية ، اذ اتضح أن تأييد تحركات الاحتجاج ذات الطابع الطلابى بلغ مدى قوته في وسط النشء الذى نال قسطا من التعليم العالى . ويوضح هذا الدليل انه من الخطأ الكلام عن الشباب «الساخطين» بصفة عامة ، مثلما خرج التعميم الذى نادى «بجيل الشك» عن الحد فأربك مصادر التعليم الاجتماعى ، في حين تمكن علم اجتماع الشباب المبسط

الذي صدر في العقد السادس من هذا القرن من تصميم نتائجه بسهولة أكبر تشمل نطاقا أبعد من الجمهور الذي من أجله وضع هذا العلم . غير أنه من الواضح اليوم أن الحال لم يعد كما كان . وزيادة على ذلك فإن المعلومات والنظريات التي ترى اليوم أن التحركات والمواقف الثورية المجددة تعتمد على التعليم تؤيد نتائج الدراسات السابقة على مجموعات المراهقين المتميزة واستقلالهم الأكبر وتحريهم المحتمل . كما تؤيد أيضا الافتراض بأنه في الحضارة العلمية والتكنولوجية يمكن أن يثبت الاتجاه نحو التجديد والثورة بخاصة نجاحه حتى بدون الاعتماد على تأييد الأغلبية مادامت له جذور بين الصفوة المثقفة .

أن الدراسة التي كتب عن نتائجها ماكس كازي تتيح عمل مقارنة بين الاتجاهات السياسية ونماذج سلوك الطلبة والمراهقين والشعب بأكمله في جمهورية إنترناشيونالية . فهي تكشف عن أن المواقف السياسية للطلاب تختلف كثيرا عن تلك الاتجاهات للمراهقين الآخرين ، وهي حقا أكثر بكثير من مواقف الفئة الأخيرة واختلافها عن تلك التي تخص الجمهور بوجه عام .

أن الأبحاث والأساليب الخاصة بعدد كبير من الدراسات التجريبية التي قام بها مارتن ليبست وكينث كينستون في الولايات المتحدة ، والتي لا يمكن فصلها بالتفصيل في هذا المجال ، تؤكد النظرية القائلة بأن درجة الاستقلالية تختلف مع مستوى الأرايا الاجتماعية ، فزبد مثلا أن الأفكار المتطرفة (وفقا لكينستون) ستكون الأتري ، حيث هبة انجاعة هي الأعلى ، والحرية التي يتمتع بها طلابها عظماء ، كما أن قواعد الانتظام بها يقوم على اختبار دقيق . وحدث في الولايات المتحدة أن وجهت أعنف الحملات ضد تلك الكليات التي اعتبرت مقصرة في كرج جماح طلابها .

وينحدر الطلبة المتطرفون لدرجة متفاوتة من أسر تعمل في الصفوف الامامية من الخدمة المدنية والإدارة الصناعية والمهن الحرة الخ ، وتبعاً لقول كينستون وجد في أمريكا أن «أولياء أمور الطلبة المتطرفين لهم نشاط سياسي ، والمديهم ميول يسارية» . ففي الولايات المتحدة على الأقل يجب أن ينظر إلى التطرف على أنه اعتراض بوجه ضد أولياء الأمور ، أكثر من كونه تصعيداً للتقاليد السياسية لبيت العائلة على مستوى أكثر تطرفاً . ويمكن الخلاف بين أولياء الأمور في الأوساط التعليمية والاجتماعية العليا وبين أولادهم ، أن الأولاد يرغبون فعلاً في أن يحيا وفق قيم يؤيدها الآباء فكراً وعاطفياً ، ولكن دون العمل بها .

ويؤكد كينستون الحقيقة القائلة بأن ثورة الطلاب في الولايات المتحدة تبذل تحدياً لكل من النظرية الاجتماعية البورجوازية والماركسية . وكلما أصبح الكفاح من أجل الرقابة على الظروف المادية والاقتصادية أقل أهمية - على الأقل بالنسبة للمجموعات الكبيرة من السكان في المجتمعات التي تم تصميمها تصنياعاً عالياً - فإن العلاقة الاجتماعية للعوامل المادية اللازمة لشرح البواعث والحركات تميل إلى النقصان . ويزداد مستوى التعليم والوعي بالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية نجد أن الباحث

على الحركة ينتقل من محيط التجربة الاقتصادية البحث الى ادراك مشاكل العدل والمساواة وتوزيعها . وقد انصفت الاعتبارات الأدبية بمزيد من الاستقلالية أكثر مما كانت عليه في الماضي حينما بدت متصلة اتصالا مباشرا بالعوامل الاقتصادية .

### الشباب (المجموعة منحرفة اجتماعيا)

وبوضع افتراض آخر ، هو فكرة الانحراف الاجتماعي ، توصل دافيد مانترا الى تعريف عن الشباب ، فقد أجرى تمييزا بين النشء المطيع للغاية ، وهم الذين يصنفهم بأنهم «حريصون» نتيجة طاعتهم الدقيقة ، وبين النشء ذي «الطموح الحماسي» ، وهؤلاء أيضا مطيعون ، ولكنهم ينزويون على هيئة زمرة ومجموعات غير رسمية كوقاية ضد الطاعة التامة والعمياء من النوع القائم في المجموعة الاولى . وبعضى مانترا يصف نوعا ثالثا من الشباب النائر ، ويقسمه الى ثلاث مجموعات فرعية : (أ) الجانح (من الأحداث) ، (ب) البوهيمي . (ج) المتطرف . وبمقارنة الجنوح والانحراف النائر يضع مانترا القاعدة العامة لثقافة فرعية لها تكوين متشابه في حالة النوعين كليهما .

ومانترا ، على عكس ايزنشتاد ، لا يأخذ بأسلوب له اكتفاء ذاتي كنقطة بداية ، ولكنه يبني تحليله على الدوافع وأهداف سلوك البالغين وصغار المراهقين . انه يعرف الشباب بأنه فترة الحياة التي فيها يصل احتمال الثورة أقصى مداه .

وهو يرى ان المتطرف صفة للنشء عندما يصل الى قمة السلم التعليمي تواقا الى المراكز الرموقة . وينتج عن ذلك النموذج الاصلى لغير المطيع . ولانجند القوى الثورية الكامنة مخرجا عن طريق الجريمة ، بل في خليط من المثالية والتهمك على هيئة «عمل سياسي غير مألوف» . والمتطرف يخالف وجهة نظر النشء البوهيمي الذي يعتقد في عبقرية الفرد ويحققها في قوالب شاذة من «حب الظهور» ، والنتيجة نوع من العزلة الرهبانية (فريدريش هير أيضا يذكر ذلك عن «الرهبان المصريين» ) .

وفي خلال السنوات الأخيرة الماضية أجرى عدد لا يستهان به من الدراسات ، أخصها تلك التي تناولت أصحاب الآراء المتطرفة . وقد قادت هذه الدراسات مانترا الى مزيد من تطوير لأبحاثه ، فسجل ان جان بلوك يميز بين الثوريين والمنشقين وأن ص.م. ليبست يتكلم عن المتطرفين والمتنكرين .

أما مشكلة الجنوح (جنوح الأحداث) فلم تدرج ضمن هذه الأبحاث ، كما حدث أيضا مع زعماء القوة السوداء من الطلبة **Black Power** ، حيث أن الدارسين لم ينحصر اهتمامهم بالثورة والتغيير المتطرف أو الرفض السلبي للحكم بقدر ما اهتموا بتحسين موقف صغار المراهقين .

ان الشباب الأبيض يبغى الحفاظ على المجتمع التقليدي ، وهم يعتقدون ان تعهداته ننتزعها الحركات التحررية ، وهو وحدة الجيل الأساسية في أمريكا ، ثم هو بعد قد اصطلح بوحدة عظمى أخرى مكونة من هؤلاء الذين يريدون تغيير المجتمع التقليدي بدرجة تسمح لهم بالدخول اليه لأول مرة ، وهم يشتغلون على أغلبية



الشباب السود . ويتضح أنه ما من استفتاء أو دراسات يطلع عليها المرء الا جوبه بان ثلاثة ارباع الشباب السود الحاقدين لايفيظهم النظام بقدر مايفيظهم فشلهم في الدخول فيه .

ولهذا فان الاهمية النظرية والعملية للتعريف بقيادة الرأى والثوريين واضحة . ورغم ان المضمون الاجتماعى للانقلاب الثورى (والكليات الكبيرة والمتحررة التى تمتلك أحدث المعدات تضمنت نسبة عالية من المتطرفين) قد وضعت له خطط على نحو واضح نسبيا فهناك رأيان عن المتطرفين قد وضعا مؤخرا موضع التساؤل الجدى على اساس القيام بمزيد من الأبحاث .

والبيانات الحديثة (التي نسجلها دون التمكن من فحصها فحصا منهجيا) تقوض الافتراضات حول التفوق العلمى للمتطرفين ، وكذلك عن صحتهم النفسية . وقد تولد انطباع دور التفوق العلمى من الدراسات التى تستعمل نسبيا من المستويات المحصلة ذاتيا ، وكانت نظرية «الصحة الأفضل أو المستوية» مبنية في اغلبيتها على اجراءات السلطة والجزمية ، وهى مقاييس لم يكن للمتطرفين فيها نصيب كبير .

وانه لمن السخرية بمكان ، كما بين جزء من بحث أجرى مؤخرا ، ان المتطرفين المحاربين (عند مقارنتهم بالمجموعات الموضوعة تحت الرقابة) كانوا مهترئين نفسيا للغاية ، وعلى قدر كبير من قلة الفاعلية ، ويكفلهم مكتب حكومى .

وكما يلاحظ ليست نجد أنه حتى دراسة معارضة السلطة والتحرر من جانب المتطرفين تصبح في غاية الصعوبة :

«ان أفكارهم (أفكار المتطرفين) ، أكثر من مشاعرهم الحقيقية ، تملئ الاجابات، ذلك أن اليساريين الذين اظهروا تعصبا ولسات من سلوك التسلط عند التطبيق قد يستخدمون من حيث المبدأ صوتهم أو أقلامهم للقيم المتحررة » .

ويجب أن يكون السياسيون في ساحتهم ، والطلبة الثوريون على وعى كبير بوسائل الاختبارات ، كما يجب على بعضهم ، وخاصة هؤلاء الذين يتخرجون من كليات الفنون والعلوم الاجتماعية والسياسية ، أن يكونوا مزودين الى أبعد مدى بما يكفل لهم الاجابة استراتيجيا و «سياسيا» على الاستفتاءات ، وكذلك مواجهة عمق الاستجابات .

ويبقى نقد واحد آخر ولكنه ذو أهمية قصوى ، وبخص نوعا نمطيا من الأبحاث المنتشرة حول الثوريين . وأغلب الأبحاث التى من هذا النوع تستبعد نظرية أوديب فيما يختص برفض الأب ، وذلك لأن الظن ينص على أن الثوريين يتحدرون غالبا من عائلات متحررة ، ويطبقون أفكار واحلام أولياء أمورهم الذين يعتبرون «فقط» متطرفين فكريا ومنشقين دون أن يصبحوا أفرادا نشيطين سياسيا وطبيعيا .

وهذا الظن الذى يسأده لك. كينستون وغيره لايعترف بما يكفى بنظرية فرويد التى تفسح المجال لاستمرار وجود الأب وتقليده مع رفضه (حتى في عنف) . وزيادة



بنيت منذ الطفولة لم تعد كافية لمواجهة هذه التحديات ، فعوامل الشخصية يجب اكتسابها لهذا الغرض كرد فعل لتحديات المواقف ، وتبنى على أساس الخبرات البيئية المباشرة ، وتستعمل لكسب مزيد من السيادة الفعالة على الوجود المتطلب ، نتيجة للتغيرات الاجتماعية .

ان اهمية المشاركة الاجتماعية التي تخلقها الصلات القريبة في محيط العائلة والتي يمكن شرحها بأنها عمق سيكولوجى ثقل بوضوح اذا قورنت برودود الفعل «لتحديات المواقف» المكتسبة خلال عمليات قصيرة المدى ، وبذا يفقد الشكل الأول للمشاركة الاجتماعية اهميته الفعلية ، وخلال التغير الاجتماعى السريع (مع ملاحظة ان هذه التغيرات غير مرضية تماما) لم تعد مكونات ومجالات أو طبقات الشخصية المتكونة في الطفولة والبلوغ وسن الشباب على أساس أنها مناهج أخلاقية تقليدية ونماذج للسلوك كافية لتمكين الفرد من انتهاز واكتشاف الفرص التي يتيحها له المجتمع أو قوانينه في المجالات المهنية والتعليمية وغيرها من المجالات الأخرى .

ونتيجة لذلك فان دورة رد الفعل بين الشخصية والأمانى الاجتماعية تقصر الى درجة كبيرة . ان الدورة المفدية تصبح أقصر . ولهذا فان تقليل المسافة بين الأفراد وبين التكوينات الاجتماعية (أو الفرص التي تتيحها الأخيرة لتلبية الاحتياجات) ، وتضييق الثغرة الاجتماعية السيكلوجية ، تساعد أيضا على القضاء على تأخر الوقت .

وبناء عليه نجد انه في فترات التغير الاجتماعى السريع والشامل تقلل امكانية التطبيق وبالتالي قوة نماذج السلوك المكتسبة ، وبذا تصبح العمليات والنظم الآلية الخاصة بالتجاوب المباشر مع المواقف المتغيرة أكثر اهمية وأكثر قوة .

وخلال هذه الفترات الانتقالية تقدر أعمال الأفراد عن طريق نظم القيم الذاتية والميزات الشخصية التقليدية بدرجة أقل مما يحدث عن طريق أكثر فاعلية وتكراراً، هو طريق تحديات المواقف مع الفرص التي تتيحها .

وهناك أيضا قلة من المعايير الاجتماعية المعترف بها، الخاصة بتحديات المواقف هذه ، وذلك لأن ارتباطها بالتقاليد غير وثيق . ان تقدير هذه الفرص والتحديات الخاصة بالمواقف وقبولها ورفضها وكذلك تفهيمها مرتبطة الى مدى محدود بعوامل اجتماعية ، ففي الفترات السريعة للتغير الاجتماعى تكون مجموعات حسب السن من الراهقين واعية لمدى التوتر بين التقاليد وامكانيات المواقف ، اى بين القيم الذاتية ونماذج النوع والرمز وبين الدوافع التي تصل اليهم ، وكأنما أنظمة المستوى تأتى مباشرة من التكوين الاجتماعى ( المتغير بسرعة ) .

ان ادراك هذه الضغوط بين ، وهو عامل جديد يريد من اضعاف تأثير نماذج السلوك المكتسبة واحكام القيم الذاتية .

ان تشعب الطرق الذى حدث بين المشاركة الاجتماعية عن طريق الأسرة

والمدرسة من ناحية وبين التطور الاجتماعى الشامل من ناحية أخرى قد خلق مستوى عاليا من التزعزع ، ونشر بين المراهقين والبالغين الصغار السن نوعا معينا من الانفتاح . ان النظام الاجتماعى الجديد هو نتيجة تغير الأوضاع المهنية لأنشطة المشاركة الاجتماعية الأساسية من أنظمة « تقليدية » الى تنظيمات جديدة ووسائل نشر . وهذا الاتجاه الجديد سيمارس حتما من الناحيتين كفجوة في جيل أو سدع بين أجيال . ونواجه بتباين كائن في المجتمع وفي قدرة هذا المجتمع المتغيرة من أجل المشاركة الاجتماعية . وينعكس هذا التباين بالطبع في فجوة في جيل ، وهى ان أعطيت مجموعة ظروف مواتية يمكن أن تصبح صلبة ، فتكون نزاع جيل

وهنا يبرز الموقف المنطقي الذى يمكن فيه مناقشة فكرة مارجريت ميد الخاصة بالثقافة السببية «التي فيها يتعلم الكبار أيضا من أطفالهم» ، اذ ان ميد تجد أن عكس مثل هذا الاتجاه للمشاركة الاجتماعية يخلق توترا ، وفي رأيها ان الخطوة الأولى لجعل هذا مقبولا هى تحليل الحقائق الجديدة وتقبلها :

« حالما ترسخ حقيقة فجوة في جيل لها ذبوع عالى ، ولم يسبق لها مثيل في اذهان كل من الصغار والكبار ، فانه يسهل انشاء الاتصال مرة أخرى » ، أما في الثقافات ذات الطابع اللاحق ، ما دامت حدثت في مجتمعات زراعية وحرفية ، فان التغير يحدد في قالب تقاليد يضعها الكبار للصغار . ووفقا لما تقوله ميد « يحاول الكبار في مجتمعنا أيضا تعقيد عناصر هذا النوع الثقافى ، ويكون ذلك مثلا بمحاولة فهم الصغار بالاستشهاد بمرحلة شبابهم الشخصى » .

وترى مارجريت ميد في الثقافة ذات الطابع المشترك أنها نظام فيه يعتبر الكبار والصغار أنه من «الطبيعى» ان يختلف سلوك كل جيل عن مثيله في الجيل السابق . ولهذا فالأطفال والبالغون يتعلمون ممن يكبرهم . وفي الثقافات السببية والمعامرة فان الكبار لا يعرفون ما يعرفه أطفالهم .

« في الماضى كان بعض الكبار يعرفون دائما أكثر من كل الأطفال ، وذلك بحكم خبرتهم ، حيث أنهم نشأوا في ظل نظام ثقافى . أما اليوم فلا وجود لهم . فلا يوجد كبار لهم من المعرفة مثل ما لهؤلاء الذين نشأوا خلال العشرين عاما الأخيرة . فالكبار منفصلون عنهم بحكم أنهم يعتبرون كذلك جيلا غريبا معزولا . ولم يوجد قط جيل قد عرف وخبر واندمج في مثل هذه التغيرات السريعة ، وشاهد مصادر القوة ، ووسائل المواصلات ، وتعريف الإنسانية ، وحدود كشف عالمهم ، وحقائق مطلقة عن عالم معروف ومحدود ، والحتمية الأساسية للحياة والموت ، جميع هذه التغيرات أمام أعينهم ، فهم يعرفون عن التغيرات أكثر مما كان يعرفه أى جيل ، ولهذا يبقون عاليا معارضين ومتباعدين للغاية عن الصغار الذين اضطروا بحكم حتمية طبيعة موقفهم الى رفض ماضى من يكبرهم . وعلينا ان نلفظ الى أنه ما من جيل آخر سيمر بالخبرة التى مارستها نحن ، وفي هذا المعنى نفسه يجب ان نعلم انه لن يكون لنا خلف ، كما انه لن يكون لأطفالنا سلف » .

وهنا يبدو من المستحيل تحليل موقف ميد بالتفصيل . فقد تقفنا به حتى يمكننا تأكيد ما نرجوه بهذا البحث ، ألا وهو أن السلوك ، في ظروف التغيير التكنولوجي التنظيمي والاجتماعي الاقتصادي المفاجيء والمستمر ، لا يمكن عموما وعلى نحو مشترك الاعتماد عليه أو تثبيت أسسه على قيم ومستويات مشكلة بتكوينات حقبة سالفة .

ويمكن استعمال رأى مارجريت ميد لتوضيح كيف انه في حالات استهلاك البضائع ، وعلى الأخص التكنولوجي منها ( فان المستهلك يؤثر عليه عاداته ، وذوقه الترفيهي ، واهواره للذات ، وعاداته الجنسية ، وتصوراته المعينة عن العلاقات الشخصية الذاتية للصدقة ) نجد انه على الصغار أن يعتمدوا على استنباط معنوياتهم الذاتية ، وقد يصبحون لمدة اعتبارات من محدثي المشاركة الاجتماعية لمن يكبرهم ولأولياء أمورهم . فعلاقاتهم الوثيقة بوسائل الاعلام والوسط الاجتماعي تهينهم لأن يصبحوا قادة رأى ، وتعمك اتجاه المشاركة الاجتماعية فيما تسميه ميد بالثقافة ذات الطابع اللاحق . غير أن هذا لا يتعرض لصعوبة كبح جماح بعض قواعد « الأنا العليا » التي لا تقبل التغيير ، ولا يتعرض بدرجة ما لصعوبة تحديد المستقبل في الطفولة المبكرة نسبيا . ولا يمكن عكس اتجاه المشاركة الاجتماعية كلية ، بل يمكن تحقيق أبعاد معينة فقط ، خاصة تلك التي تعتمد على تجديد المعرفة . وقد يضعف ويتفتت الاستمرار العاطفي والفكري خلال الأسر والقبائل والثقافات الفرعية أو الجماعات الأنثوية ، غير أن معلوماتنا عن معارضة سياسة الطلبة تظهر مرة أخرى فجوات جلية متداخلة (على هيئة اختلافات بين وحدات أجيال وتماقب فيما بين الأجيال) .

وزيادة على ذلك فان تحليل اجتماع الطلاب ، والأوربيون منهم خاصة ، وكذلك طرق التحدى في داخل الجامعات ، لا توجد بالطبع تصنيف مثل هذه الأنشطة كمجرد ردود فعل تجاه كبار فشلوا في تفهم جيل جديد . ان ما يبدو كأنه ثورة جيل يحاول بوعى كامل تقديم نفسه على أنه كذلك - من أجل صورة جذابة مليئة بحيوية الشباب في الأوساط الجماعية أمام جمهور يتصف بالسذاجة نسبيا - ما هو في الواقع الا قوى سياسية لجناح اليسار ، ومعارضة برلمانية ، واعتراضات على الاتحادات التجارية ، وتطرف « جمهورية المجالس » .

ورغم أن س . ن . إرنستاد قد بنى نظرياته حسب السن والتكوين والمهنة فانه قدم نظريات في مقال نشر حديثا يبرز بوضوح كيف أن التغييرات الاجتماعية الكبيرة في « الهيئة السياسية » تتقارب مع نزاع الأجيال .

« وعلى عكس حركات الاحتجاج الكلاسيكية في المدينة الأولى ( معظم الحركات الاجتماعية والوطنية ، وجميعها كانت تميل الى اعتقاد أن اطار ومراكز دولة الوطن كونت الجزء الأكبر من الثقافة واللامح الاجتماعية للشخصية الذاتية والتوجيه الفاضل لبعض الأنظمة الاجتماعية الثقافية . والمهمة الأساسية للمجتمعات الحديثة كانت تسهيل وصول طبقات أعرض من المجتمع الى هذه المراكز ) نجد أن حركات

الاحتجاج الجديدة امتازت بتخوفها من المراكز الحديثة وتقصيرها في الالتزام نحوها وباستعدادها لعدم الشعور بالمسئولية تجاهها وكذلك نحو أجهزة هذه المراكز الادارية والتنظيمية . ويميل مركز الاحتجاج الى الانتقال من المطالبة بمشاركة اكبر في المراكز الوطنية والسياسية او من محاولات للتأثير على سياستها الاجتماعية الاقتصادية الى اتجاهات جديدة . ويبدو ان اهم هذه الاتجاهات تنحصر أولا في محاولات «لتعرية» هذه المراكز من شرعية عمل الخير وربما من اية شرعية على الاطلاق ، وثانيا في ابحاث مستمرة عن مصادر جديدة للمشاركة بكل معانيها الى ما وراء هذه المراكز الاجتماعية السياسية القائمة والمحاولات المصاحبة لخلق مراكز جديدة تكون مستقلة عنها . وثالثا في محاولات للتعبير عن نماذج المشاركة في المراكز المناسبة لا في منطق اجتماعي سياسي او اقتصادي فحسب بل يتعداه الى رموز مشاركة اساسية او اجتماعية مباشرة » .

ويسمى ايزنشتاد الهجوم على الجامعات (الذي يرد في مضمون الميول والخطط التي وضعها) « بالتناقض الفكري » . ولذا يصبح تحليل جذور واهداف هذا التناقض الفكري واحدا من اهم الاعمال الموكولة لعلم الاجتماع لدى الشباب الاكاديمي ومعاهد التعليم العليا والصفوة الممتازة كي يحلوا جذور واهداف هذا التناقض الفكري الى مدى ابعد باعتراضهم على دولة الوطن ( وقد رفض كثير من الاكاديميين سياسة هذه الدولة الخارجية والعسكرية ) ، فان «التناقض الفكري» الأمريكي وحد الاساتذة والطلبة ، وعلى الاخص من كان منهم في المدارس الكبيرة الفكرية المجددة . وقد كان الصعيد الاوربي مختلفا جد الاختلاف في هذه الناحية . ومع ان مجموعة لها اهميتها من الماركسيين او من اعضاء بعض الكليات في فرنسا من المعارضين لديجول قد تضامنوا مع الطلبة اثناء بعض مراحل الحركات الطلابية ، وخاصة في مايو ١٩٦٨ ، فان مثيلاتها كانت اقل صدقا في ايطاليا ، وجمهورية المانيا الاتحادية ، والاراضي المنخفضة ، وبلجيكا ، وسويسرا ، واستراليا ، والمملكة المتحدة ، واسكندنافيا . اما عن العلاقات بين الرسميين وطلبة الكليات في البلدان الانجلوسكسونية والاسكندنافية فلم تقم لها قائمة قط بمثل الدرجة التي اصطبغت بها نظم التعليم العالي في وسط وغرب اوروبا . ويرجع الغياب النسبي لواجهة مترابطة للجماعة الاكاديمية في اوروبا الى ان التناقض الفكري لم يكن ضد الاعلان الصريح لحقوق الانسان او التمييز العنصري وما الى ذلك ، كما حدث في الولايات المتحدة . وقد تضمنت الموجة الاولى لاحتجاج الطلبة وأنشطتهم بعض عناصر محبة للخير والتحرر ومعارضة السلطة ، غير أنه في هذه الحركة سرعان ما حاولت عناصر متطرفة في معارضتها للحكم الغيابي الحصول على مكان داخل الجامعة من اجل ترسيخ قدمها في معهد يتصف على الاقل ببعض التحرر في مجالات معينة ( على الاخص في مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية وفن المعمار والفنون الجميلة ) ، وذلك في محاولة «لنفس نظام التعليم العالي» ، ثم تثر من تلك القاعدة سلسلة من ردود الفعل السياسية في المجتمعات التي أصبح فيها التعليم والمؤهلات وكذلك « العلوم كقوة للانتاج » هدفا استراتيجيا .

وابتداء من ١٩٦٩ قوي الاتحاد بين المتطرفين في الجامعة وبين المجموعات الماركسية اللينينية والأحزاب في السياسات الوطنية في قارة أوروبا على الرغم من وجود اختلافات معينة بين أتباع مذهب لينين والمتطرفين في مسائل «الرعب الفردي» واحترار اتحادات التجارة أو الحكم النيابي كقاعدة للعمل السياسي . وعلى أساس كل هذه التطورات يبدو أنه من المستحسن أن تحتاج صيغة « التناقض الفكري » التي ينادى بها ايزنشتاد الى اتفاق مهذب اذا كان لها أن تستخدم كتوضيح لحركات الاحتجاج والاستراتيجية التي سادت في أواخر العقد السابع وأوائل العقد الثامن الحالي . ومع استعداد مصعد لنقد السلطات ورفض نماذج الحياة التقليدية ( التي يسودها التباين بين القيم المصرح بها وتلك التي تكتسب بالخبرة ) ، وربط ذلك باستجابة دورة الخلفية المفدية للتحديات المباشرة ( نجد أن الانحراف والاحتجاج والثورة تبدأ في الظهور بمظهر « طبيعي » متزايد ، وهناك أيضا التأثير الواضح الفعال لنجاح أقلية نشيطة تجعل ، تحت ظروف متحررة ، قبول الدعوة للتحدي محبة . فاذا أصبحت الاستجابة للمواقف ، بمعنى احتجاج وثورة مثلا ، تعد من الناحية السياسية « ضرورية » ( حديثة ) أو حتى اذا خضعت لعدة تعديلات معينة « متضامنة معها » فان التنظيمات التقليدية ( أو العوامل التقليدية مثل الأسرة والكنيسة والمدرسة ) تترك بلا شيء سوى مهام رقابية مرفوضة شعوريا ولا شعوريا ، وكل ما يتبقى منها « مشاعر قيادية » وقيم ظاهرة غير صحيحة تبدو ملائمة لأغراض عملية منبائة للغاية . وهكذا تفقد ما قد يتبقى لها من دقة وتغطي الفرص والامكانيات الاجتماعية الاقتصادية القائمة النابعة من المواقف المعترف بها - من حيث كونها حقيقية وظاهرة أو هكذا تبدو - بديلا « أحسن وأكثر ضمانا » من عدة وجوه من المواقف الأساسية التي كان من الواجب استخلاصها بصفة مستمرة من المبادئ الأولى ، وهي مهمة قلما يتأني للفرد الوقت الكافي أو القوة لانجازها ، وهكذا قد تصبح الأقليات النشيطة من واضعي المبادئ ، تحت ضغط ظروف معينة ، عوامل لها خطرها في فرض تأثيرات قاطعة على القرارات ، واصدار اجراءات سياسية بل تشريعية ، رغم أن الأغلبية الصامتة متمسك بمبادئ مختلفة تماما ولكنها « تحذو حذوها » فقط تحت ضغط معايير ( دستورية ) مستحدثة .

ان التمييز بين نماذج السلوك المكتسب الكامن في داخل الأفراد نتيجة النظم وبين تلك التي تتيجها « فرص وتحديات المواقف » يقودنا الى نظرية النظم المتغيرة . فنموذج النظام المحدد هنا بتطبيقه من أجل نظرية للشباب والمشاركة الاجتماعية يقصد منه أن تكون له نظريا قوته بالنسبة لمختلف وحدات الأجيال والطبقات الخ ، اذ كلما تكررت وعمقت عملية تجديد المؤثرات ازدادت قوتها ثباتا .

وقد تستعمل نظريتنا من أجل شرح مسلك وطبيعة ما قد يرى أو يفسر بأنه ثورات أو انقلابات ، وما هو الا انعكاس لتغيرات تمت أو مبدئية (ولكنها الى حد ما لا تزال كامنة ) في مجتمعات صناعية متطورة للغاية . ويجب النظر اليها على أنها رد فعل لعوامل اقتصادية وتكنولوجية معينة ، وأنها كذلك استجابة لفرض مواقف

من جانب مجموعات أكثر استعدادا من غيرها من باقى الجماعة لاعادة التفكير في النظريات الأيدولوجية القائمة . وخلال اجراءات التغيير العامة في المستويات والقيم التى تحدث في داخل التكوينات الاجتماعية ، وخاصة ما يجرى منها على النظم ، فان النشء وفي مقدمتهم صغار البالغين يستعملون التغيير الاجتماعى عن طريق مواقفهم ازاء الفرص المتاحة . وسواء اردنا ذلك ام كرهناه فان تطرف الطلبة يستمجد التيارات اليسارية في المجتمع ويمكن من تقوية مركزهم الاجتماعى السياسى بسرعة اكبر . ان هؤلاء الطلاب يرفضون قيما ومستويات معينة ، وكذلك اساليب حياة مخصوصة وانواعا من التنظيمات السائدة في المجتمعات الفنية ، ولكنهم لا يهاجمون هذه المجتمعات الفنية لكونها كذلك ، بل على العكس يتبنون الكثير من مميزاتها - مثل مبدأ اللذة التى يمكن أن تنشأ عن فيض الثروة التى تتمتع بها الأجواء الصناعية - ويمزجون هذه العوامل بما يعتبرونه وجها جديدا «للتحرك الانسانى» .

ان ما يعتبر جديدا بشأن «الشباب السياسى» في العقد السابع خاصا بادراكهم واستغلالهم «للفرص الانتهازية» كان في الواقع هو قيامهم بالمطالبة بالسلطة ودعمها بشحنة جديدة من المثالية . وهؤلاء الشباب لم ينحصر اهتمامهم في اكتشاف الفرص المتاحة للتصعيد ، بل تعداه الى استغلال معين وشرعى لهذه الامكانيات بطريقة ايدولوجية ذات علاقة بالفاهيم ، بمعنى انها لا تنصب فقط على كسب الزايا والسلطة فقط ، بل تشمل ايضا شكلا معينا من الحكم مضافا الى ذلك مبرراته الادراكية ومقاييسه الداخلية ومعدلات نشاطه . وبمعنى آخر كان اهتمامهم بالشرعية ونظام اجتماعى وايضا باعتبارات السلطة والمنصب اكثر من المعرفة على اساس انه يمكن خلق ظروف ملائمة لنظام «صحيح» للمعرفة عن طريق تعديل النظام الاجتماعى . وهذا من وجهة نظرنا غير مقنع .

### النظرية الماركسية الحديثة عن الشباب

قدمت لنا الباحثة الاجتماعية الفرنسية نيقول عبود تفسيرها الخاص عن مغزى نظرية التغيير الاجتماعى للدراسة الاجتماعية للشباب . وتكمن القيمة النظرية لعملها في تقريرها انها قامت بدراسة أهمية الدور الذى قامت به الدولة في عزل الشباب قبل ظهور الاضرابات والثورات في اواخر العقد السابع . وكانت دعواها النهائية : انه كلما عظمت قدرة الدولة على اقامة اتفاق جماعى سياسى في المجتمع قل الانتماس السياسى للممارسة الاجتماعية في التكوينات السياسية مثل الاحزاب ، والهيئات البرلمانية ، والمؤسسات الاقتصادية والثقافية ، وكذلك يقل وجود «الشباب» كقوة اجتماعية فعالة في المضمون العام للتنظيم السياسى للمجتمع ، كما انه لا يوجد ايضا ك موضوع فكرى .

كان هذا هو الوضع السائد في فرنسا ، كما تقول نيقول عبود ، في الفترة ما بين الحربين العالميتين . فلم يوجد الشباب كعامل اجتماعى منفصل ، اذ ان جميع التنظيمات السياسية والجماعات الدينية كان لها تحركات «شبابية» ، وكلما



حاولت الدولة أن « تنظم حياة سياسية وثقافية لتنشأ حولها » قل وجود الشباب فيصبح « مجموعة وفق السن » . وكما تقول نيقول عبود كان هذا هو أصل المحاولات الحقيقية « لتغريب الشباب » . وفي الفترة ما بين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٦٧ حين ساد النظام الرأسمالي التكنوقراطي الجديد ، حيث يدار المجتمع من قبل الاختصاصيين التقنيين ، وضع العمل في طبقة من الشباب كان ينظر اليها كشيء مجرد تماما لا تعبیر له وليس له أدنى علاقة بالسياسة العملية ، وبهذه الطريقة قامت محاولة لتدعيم « شعور خاطيء » بالانتماء الى « مجموعة واحدة متوافقة في العمر » . فالتطور الفكري والتقدم الفني وكذلك الابتعاد عن الانغماس في السياسة تضافرت جميعها فجاءت قمة التكوين المميز لهذه المحاولة في ظل رقابة على الشباب من دولة تدعى الديمقراطية . ولكن عندما اتضح ان الدولة لم تتمكن من خلق اتفاق جماعي سياسي « حولها » ، وكشف النطاحن الاجتماعي عن شرعية المنظمات التي خلقتها او عضدتها الدولة ، توقف وجود « الشباب » كحقيقة اجتماعية . واليوم اصبح الشباب لا ينظرون الى انفسهم البتة على انهم مجموعة تنتمي الى فئة عمرية خاصة ( ونحن لا نجاري نيقول عبود في هذا الرأي ) ، ولكن كطبقات اجتماعية اقتصادية بحتة ، او سياسية فكرية في نظام له صبغة سياسية متصاعدة . فالاستنتاج الكامن في نظرية نيقول عبود هو ان الدولة بكونها قوة منظمة يجب ان يستبدل بها نظام تنشأ السياسة فيه من « اسفل » ، من مجالس او هيئات مماثلة يكون « الشباب » فيها هو عامل التجديدا والتلقائية ، غير انه من غير المعقول اطلاقا في المجتمع الذي يحث الدولة على توفير الخدمات الاجتماعية ان نتوقع ان تحدد السياسات فقط ومنذ البداية من « اسفل » ، اذ ان التخطيط التربوي والاجتماعي للشباب والشباب يجب ان ينظم أيضا على مستويات اعلى ، جماعية ومحلية وعالمية . ولذا فان نظرية نيقول عبود تعتبر مثالا للحماسة لنوع من الماركسية المثالية النقيابية . وحيث اننا قلنا ذلك فليس لدينا اعتراض اساسي على قيام النشاط من القاعدة . وبدلا من الاقتصار على ترديد صيغة جازمة مثل « ان امانينا السياسية الخاصة طليعية » فلنقل انه يوجد بالمجتمع نقائص كبيرة تنتج عن بعض العوامل مثل النقص في التوفيق بين تحويل المجتمع الى الاشتراكية وبين الفرص الكامنة في مكونات المجتمع . والنتيجة ان فئات عمرية معينة تواجه بمشاكل تترجمها الى مواقف جدلية ، وتضعها في اسلوب معين او نمط مثل « صراع الجيل » ، خاصة اذا ضعفت سلطة الدولة والمصادر الرسمية الأخرى ، وازداد نشاط الشباب السياسي وسعوا الى تنظيم انفسهم من « اسفل » ، وهذه حالة يحتمل أن تزداد ، ويزداد توقع حدوثها بطريقة دائمة في حالة ارتفاع مستويات التعليم والتثقيف .

### ملاحظات نحو تحليل تاريخي اجتماعي

#### عن الشباب في المجتمع

ان فشل الأبحاث الاجتماعية عن الشباب في التنبؤ بالجهود الأقصى الذي بلدته الأقلية الطلابية في الاسراع بالتغيرات التي حدثت في السياسة الوطنية

(بالولايات المتحدة وكذلك ببعض الحوادث التي تفجرت في جمهورية المانيا الاتحادية) وفي سياسة الجامعات في كثير من بلدان أوروبا الغربية ( مثلما حدث أيضا في أمريكا الجنوبية واليابان وأمريكا الشمالية) قد أدى الى الارتياح في قيمة البحث الاجتماعي التجريبي المعتمد على الملاحظة دون النظر الى الفطريات العلمية فيما يختص بالانقلابات الاجتماعية .

ان فكرة التفاضل عن الدراسات الميدانية المتباينة عن طريق الاستفتاءات والاستماعة عنها بالوسائل التاريخية لن يفي بالفرض طبعا . ان تقدم علم المنهج فيما يختص بمراعاة التقنية ، وعمق اجراء المقابلات ، ومعرفة تاريخ حياة الفرد موضوع المقابلة ، واكتشافها بطريق غير مباشر ، يعتبر مهما وضروريا معا . ومازالت الاستفتاءات وسيلة مهمة للأبحاث ، فهي تسهل دراسة ردود الفعل الجماعية ازاء السياسات الوطنية او المعايير الحيوية مثل التشريع والابتكارات التي تنعكس في آراء وسلوك المجموعات موضوع الاهتمام . غير ان هذا الاصلاح المنهجي الضروري لا يكفي من وجهة المستوى النظري .

ويجب على علم اجتماع الشباب ان يذهب الى ابعد من ذلك ليكتشف القوى الجديدة والمتجددة الكامنة في الموقف الفعالي للشباب ( قدرته على الاقتراب من الوسائل والغرض ومراكز السلطة الخ ) حتى يتسنى وضع قياس واف لجمال الدراسة (ويتضمن ذلك الدراسات المتباينة) .

ان التحليل العملي ونظرية التصنيف نبعت اصلا من عدة مضمونات منها التاريخية والبيولوجية والانثروبولوجية ، ومن فترة وجيزة شملت حتى المفاهيم الميكانيكية والرياضيات . والان اصبح من الاهمية القصوى ان تكتشف علوم الاجتماع الصلة الكائنة بين الطرق التاريخية والنظرية العملية او التصنيفية . ان استعمال انواع الاجراء النموذجي للاغراض التحليلية في عرف ماكس او تالكوت بارسونز « نماذج متغيرة » قد يسمح بنموذج معين للتصنيف المقارن ، ولو انه لا يكاد يذهب الى ابعد من ذلك .

وعلى أية حال فان الأمر يحتاج الى مقارنة بين مجموعات خاصة من القرائن الاجتماعية الشاملة وكذلك نماذج معينة من الصراع وبين أشكال من النمو التاريخي وتدوينه من أجل تحليل وضع الشباب في المجتمع وتأثيره فيه .

والنص التالي محاولة لتقديم الأمثلة ومواد الحالات . ومن الأبعاد الهامة في تحليل وضع الشباب في المجتمع ، التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار من أجل مزيد من الدراسات التاريخية ، اثنان : ( ا ) مدى تنظيم الشباب ، ويتضمن ذلك نماذج معينة من التنظيمات الذاتية ، (ب) ظهور الإدراك الذاتي ونهايته عند الشباب كظاهرة اجتماعية نموذجية ومن نوع معين ومفعول ذلك التحديد الذاتي .

ويستحيل في هذه المقالة معالجة المادة التاريخية بالتفصيل ، كما يستحيل

تطبيق هذا التصنيف خطوة بخطوة عند التحليل . وزيادة على ذلك نحن نحدد أنفسنا بالتاريخ الأوربي الذي لن يفي بالطبع لمزيد من الدراسات الشاملة .

وتحليلنا هنا لا يعنى أن مستوى تنظيمات الشباب والتنظيمات الذاتية له لا يوجد إطلاقاً بينهما وبين استقلال الشباب في المجتمع علاقة أكيدة .

فان مستوى تنظيمات الشباب الذاتية فيما قبل التاريخ كان منخفضاً خارج الوسط العائلي أو المؤسسات الاجتماعية المماثلة ، كما أن استقلال الشباب في المجتمع لم يكن له وجود .

وقد سار نمو فكرة المجتمع ونموذجه في الثقافات التالية للعصور القديمة والأوربية الأولى جنباً إلى جنب ينادى بتعريف معين للشباب ولتنظيمات الشباب غير الرسمية . أما الفترات التي لها صلة ببناء الإمبراطوريات واستمرار أنظمة سيادة السلطة فقد أنتجت تعريفات رسمية لعامل السن وتنظيمات الشباب التي تعمل كمراكز للتعبئة والاختيار .

ومن المهم ملاحظة أن الاعتراف بوضع معين للشباب وبدء الاعتراف بالمثل للحرية للشباب حدث في أوروبا ( وفي أمريكا في القرن الثامن عشر ) في داخل المجتمعات المكونة تكوناً تنظيمياً . وارتبطت التغيرات التي طرأت على تعريفات الشباب بالاستعدادات الثورية للطبقة الوسطى في القرن الثامن عشر والحركات الدستورية والسياسية والوطنية خلال حروب الاستقلال الوطني وثورات منتصف القرن التاسع عشر .

إن الحركات الخاصة بحقوق الإنسان والسلام، وكذلك الحركات ضد العنصرية في العقد الماضي ، تكرر بطريقة ما نموذج القرن التاسع عشر للقضايا التي يعرفها الشباب ومجموعات أخرى من المجتمع ، غير أن ذلك كان أقل صدقاً على الصعيد الأوربي في العقد الماضي . فهناك كان الكفاح مركزاً على وضع الشباب ( وخاصة الطلبة ) والتغيرات التي تطرأ على تشريعات الجامعة وإدارات المدارس ، وقد زاد اتساع هذا الكفاح من عهد قريب فشمل مجالس خاصة للشباب في المجالات الصناعية ، واشتكالاً جديدة لمعالجة الأحداث ، وما شابه ذلك من أمور .

إنه إن التناقض أن الكفاح في سبيل حقوق معينة للشباب وللنجاح الجزئي الذي يتحقق سيؤدي في النهاية إلى أن يفوض الشباب في داخل المجتمع ، وينتج عن ذلك أقول وعي معين ومذهب فكري للشباب .

وسيتطلب حتماً العديد من مشكلات جديدة متعلقة بالطب النفسي وعلم النفس الاجتماعي نتيجة لضعف تعريف الشباب في محيط دورة الحياة . إن حركات التحرر تؤكد وتلقى ضوءاً خاصاً على هذه الحالات كما ظهرت ، وعلى أية حال فإنه حالماً تمنح حقوق معينة للنموذج أو المشاركة فإن الحالات التي تظهر يكتنفها ما يشابه إجراء ميكانيكياً من الضغوط والنموذج .

ان المشاكل التالية لحركات التحرير الخاصة بالمجموعات والتي من اجلها قام كفاح التحرير لا تكون حتما جذابة ومحددة التعريف . ان التيارات السياسية التي تستخدم حركات الشباب لتطلعات معينة للسلطة ولسهولة حركة مرديهم يجب دراستها بدقة وتقويمها بواسطة علماء اجتماعيين يمتازون بالحساسية السياسية .

ولذا فان نظرية الاجراء الاجتماعى والسياسى يجب ان لا تتقبل أيديولوجية لتحرر أكثر بدون نقد وتمحيص ، وتتقبل بالأحرى خطة نظرية للتوازن الاجتماعى الذى يلزم تدعيمه .

وفيما يلي محاولة لدعم المفاهيم النظرية العامة الموضحة آنفا :

كان الابن فى المجتمعات القديمة خاضعا لأبيه خضوعا دائما وتاما ، كما كان مفهوم الولاء البنوى فى الثقافات الصينية نتيجة للترابط الموجود بين النظام الأسرى والدين الرسمى المعترف به ( الكونفشيوسية ) يعتبر مثالا دقيقا طيبا لذلك . وكان الرجل والمرأة فى بداية حياتهما الزوجية يخضعان لسيطرة رئيس « القبيلة » ، وكان استقلالهما الشخصى محدودا تماما . وقد سرى هذا البدا سريانا فعلا فى المجتمعات الشرقية القديمة ( ومنها اليهودية والهندية ) .

وكانت المجتمعات القديمة بتكوينها الأبوى الموقر وكذلك مناصب السلطة المحلية أو المراكز الكهنوتية ( أى قبل أن تطور المعيشة معا فى المكان الواحد ) تتطلب الخضوع التام غير المشروط من الصغار للوالد ( أو العشيرة أو لفرع القبيلة الخ ) ، ولكنها كانت تدعن دائما لهيئة قانونية . وقد أدى نشوء دولة المدينة اليونانية القديمة الى ظهور دور معين للشباب بفكرة التربية التى تحتضنها طبقة عليا حضرية على أساس ما تستحوذ عليه من ممتلكات . وكان مسموحا بقدر من الحرية ، وكانت الفضائل تفرز فى نفوس الصغار، غير أن التبعية المشار إليها آنفا كانت لاتزال قائمة .

بنشوء طبقة النبلاء والطبقة المتوسطة الموسرة فى حضارة دولة المدينة اليونانية حوالى عام ٥٠٠ قبل الميلاد نشأت ظروف تمتع فى ظلها الشباب بحريات أكبر . ان اصول التربية بالنسبة لوضع مواطن مستقل قادر على أن يبدي آراءه بجرأة مستخدما مناقشات بليغة ومنطقية وقادر على أن يحصل على مراكز قيادية فى المجتمع يعنى حتما أن يخصص جزءا من حياته لهذه التربية ، ويمثل هذا خطوة مهمة نحو تطور مفهوم الشباب . وقد فتح نظام العائلات القديمة فى بعض طبقات المجتمع العليا أبوابه لتعاليم السفسطائية وبخاصة تعاليم أرسطو وأفلاطون ، واتبع الشباب أفكار اله الحب « إيروس » والصداقة والجماعة والإصلاح السياسى والمبادرة . وهكذا زرعت بذور نوع من الفعوض حول مفهوم الشباب منذ البدء ، ولأن مجموعات خاصة من النشء وهبوا أنفسهم للتربية والتثقيف والتجديدات المتعلقة بها أو « أفكار جديدة » فقد اعتبرت مثل هذه الاهتمامات حفاظا للشباب .

ولم يكن هناك حد أعلى واضح للسن ، إذ أن كل شخص استمر في الاشتراك في الجادلات والصداقة وممارسة الحياة التي تمارسها مدرسة الفلسفة فإنه يعتبر بحكم طبيعة الحالة نفسها واحدا من النشء . وبناء عليه فإن المفهوم المعين للشباب عن فترة ما من الحياة تتبادل مع عمل ثقافي خاص كان يتحدد بالرغبة في التعليم والإصلاح الاجتماعي . وهكذا أصبحت تربية الشباب الرمز الحي للثقافة ومفهومها . وبدأ الفنانون يهتمون بتصوير أفراد النشء الذكور كرياضيين ومحاربين . وبالإضافة إلى المجموعات غير الرسمية فإن المعهد العام الخاص بالشباب كان يمثل منظمة كونت خصيصا لليافعين والمراهقين .

وبالمضاهاة نجد أن العوامل ذات الأهمية القصوى التي كان الرومان يخضعون لها في موقفهم من الشباب هي :

— تأكيد اعتبار العائلة معهدا للتأسيس التربوي .

— عدم وجود نظام المدارس الخاصة أو العامة حتى لا تقوم قائمة لنظام شبیه بمجموعات الشباب في مدن الإغريق الثقافية المميزة لآثينا أيام سقراط وأفلاطون . وقد بدأ تكوين المجموعات غير الرسمية والجماعات في أيام الإمبراطورية الأخيرة ، وذلك في المؤسسات التربوية العليا مثل مدارس الفلسفة والبلاغة التي وصفها سانت أوجستين في كتابه «الاعترافات» .

— احترام « التقدم في السن » المتوقع في مجتمع تسود فيه الخبرة العسكرية والسياسية والأعمال العظيمة التي تحظى بدرجة سامية من التقدير .

— الاتجاه إلى تنظيم تعاوني تام للجماعة . ولهذا وجدت طبقة عليا من النشء قبلت سلطة ثابتة ، وانتسبت إلى جمعية الشباب ، وأعدت نفسها لحياة سياسية .

ومع ذلك فإن فلسفة شيشيرون التربوية — مع ما لمفهوم موضوعها من توافق اجتماعي شامل وتعاون بين مجموعات العمر المختلفة (الكونة حسب مختلف الأعمار) والمدينة بالكثير لفلسفة الرواقين — عارضت بالفعل هذا الاتجاه .

وفي أثناء العصر الهيلينستي وفي الوقت الذي وصلت فيه الإمبراطورية الرومانية إلى أوج سلطتها في منطقة البحر الأبيض المتوسط ظهرت خطوط فكرية جديدة ، وبطل حصر فكرة التجديد في حيز جماعة — بلدا أو دولة معينة — وامتدت لتشمل الإنسانية بصورة عامة ، إنسانية عرف أنها كانت تن تحت ضغط القوى الهدامة ، وكان من المتوقع أن تجدد نفسها وشبابها عن طريق القدوة وبمساعدة منقذ من السماء . وفي التطورات السياسية والاقتصادية في العصر الهيلينستي اكتسبت الطبقة الوسطى والدنيا من طبقات المجتمع أهمية ، وكانت هذه الطبقات من قبل تجد الطريق الطويل والصعب للتربية والتطوير الذاتي ( على غرار أنماط الأرستقراطية اليونانية ) أقل جاذبية من أديان الخلاص التي كانت تقدم المعرفة الموحدة والأنشطة العقائدية كمعصر مساعد نحو تجديد الذات .

ركان التطلع لتجديد الشباب عظيما في عصر كان يشعر بالشيخوخة والانهالك ولم يعد يرى في حيوية الشباب مسألة « حب للحكمة » أو طريقا تصاعديا من التطوير نحو الكمال يسهل الحصول عليه عن طريق التربية والصدقة ، كما كان الاغريق القدماء يطمون . لقد أصبح يرى فيها عودة مليئة بايحاءات الخلاص واستعادة للجنة المفقودة .

وفي القرون الوسطى تسهل ملاحظة النمو المزدهر للقرى الاوروبية بعد عام ١١٠٠ ق م على انه الحقبة الحاسمة في تطور الشباب . فقد كان معنى تطور النظم الاقتصادية المعقدة مع متطلباتها التربوية الزائفة أن تطول مرحلة الشباب ثم « تصاعد » سن النضج ، اذ أن مجتمعات الطبقة البورجوازية بالحضر تطلبت ادارة وتوسعا للممتلكات التي تحتاج - أكثر بكثير مما كانت ثقافة الاقطاع الزراعي تحتاج - الى مقاومة التقلبات الديموغرافية والاقتصادية والخضوع لاجراء مستديم من التطبيق .

وكان للمؤسسات الثلاثة الآتية تأثيرها الخاص على تطور البالغين والمراهقين في عالم القرون الوسطى : ( أ ) نظام الفرسان والاقطاعيين ، ( ب ) اتحاد الجامعة بملاقتة المميزة بين الأستاذة والطلبة ، ( ج ) والنقابات .

وكان لكل هذه المؤسسات تصريحاتها الرمزية عن النضج ، مثل تقليد الفرسان والتخرج والخلاص من التلمذ في الحرف . وهذه نظرة مضيئة الى الأطفال والبالغين على أنهم « أشخاص مكتملون » أو اناس من نوع خاص ولكنه نوع تام الفاعلية قد رمز اليه من قبل في المعاملة الحازمة الرحيمة للأطفال والنشء في مدارس الرهبان في العصور الوسطى . ولأن الأطفال احباب الله فقد تقرر أن تصبح الطفولة اهلا للتقديس ، وكان هذا هو الأساس الديني للفلسفة الاجتماعية الانسانية التي سادت عصر النهضة ونهاية القرن الثامن عشر .

كان ليلاد الدولة الحديثة في القرن السادس عشر الميزة بمدارس الأمراء واكاديميات الفرسان المخصصة لتدريب موظفي الحكومة أن خلقت مجموعات الجيل من الأشخاص ذوي السلطة الادارية والسياسية من خريجي هذه المؤسسات التربوية . أما فيما يتعلق باحتفالات البلاط في ذلك الوقت فقد زود هذا النظام كثيرا من اسس الثقافة الاولى للمراهقين . فأصبحت طريقة الحياة الشجاعة والمهذبة نموذجا لشباب الطبقة العليا ، وتركت أثرا كبيرا على حياة الأعضاء الشبان من طبقة الاعيان . واستمر هذا الاتجاه الاجتماعي حتى القرن الثامن عشر . وكان أن بحثت هذه الطريقة في الحياة المقتبسة من الدولة الهيبية المستبدية بواسطة قيم للمعرفة الاخلاقية والتأثيرية بفية : ( أ ) استبدال الاستقامة الاخلاقية بالسلوك التقليدي ، ( ب ) « الجدل المعقول » للتوصل الى وعى مستنير وتحرر من الطاعة العمياء الى الحث على السيادة ، ( ج ) تشجيع « الفطرة » وتحقيق الرغبات ،

اعتقادا انه حالما يتحرر الرجال من النظام المتقن ، المهرب ، الفروسي ، الشهم ، الذي لا يخرج عن كونه تظاهرا بالطعمة ، فان طبيعة «المرح والقوة» التي للطبيعة الانسانية المتقد أنها مهذبة تصبح حرة لتزدهر . وقد وردت صورة عن الشباب النموذجي وسما كل من كريستيان فورتشيجوت جيلبرت وفردريش جوتليب كلوبستوك في قصائدهم الفنائية عن صداقة الشباب تمطى نموذجا للفنى المراهق الذى أصبح يمثل بصورة مكتملة بديلا جديدا للرجل الشهم . وكان الاتجاه الذى سلكته المعرفة فى ألمانيا بمثابة تمهيد للطريق أمام الرومانسية . وكان الشباب «المقيم بالأمم» يمكن تسميته كذلك لسببين : أنه كان قادرا على التطلع للحياة بنظرة من التفاؤل الصافي من ناحية ، وأنه أعطى المراهقين «سببا للامم» أيضا .

وهذه الفكرة الجديدة لا يمكن تفهمها بالنسبة لروسو ، اذ وفقا لروسو نجد ان المجتمع لا يمكن صيغه بالانسانية الا اذا نزع عنه القناع أولا . غير انه يجب قبل كل شيء أن يجنب الأطفال والبالغون الشقاق الداخلى والتحول الذى يتصف به الرجل الذى يعيش بالتظاهر بدلا من أن يكون كما هو . وكيف يتأتى له ذلك ؟ بالتعليم المناسب ، وفى عرف روسو بالتعليم الطويل الأمد .

« ان الانتفاع بمرحلة الطفولة لا يهم كثيرا . غير أن هذا لا ينطبق على الفترة الأولى من حياة الرجل ، اى الفترة التى يبدأ فيها الشعور بالحياة فعلا . وهذه المرحلة لا تكون عادة بالطول الكافى الذى يسمح بالانتفاع الكامل منها ، وتصل أهمية هذه المرحلة الى درجة تحتم توخى الحذر المتواصل . وقد حدا بى هذا الى تأكيد فن اطالة الأمد ، فان من أفضل مبادئ التربية الصحيحة اطالة أمد كل شيء الى أبعد ما يمكن . »

ان «الميلاد الثانى» الذى يمارسه الفرد فى مجتمع الجماعات الذى خلق بمقتضى تعاليم كتاب روسو «العقد الاجتماعى» يجب أن يصبح حقيقة تربوية لكل جيل جديد . فافكار التجديد والانعاش والخلاص تتخذ فى الحال صفة سياسية وتربوية مطابقة .

ويفسر روسو «المجتمع الجديد» بالمقارنة مع الشباب بأنه نتاج ميلاد ثان . والشباب — كتحقيق ذاتى كامل وتطور من خلال التربية — يمكن وجوده فى المجتمع الثورى فقط ، كما أنه لا يعترف به اعترافا كاملا لمجموعة متماسكة الا فى مجتمع «حديث الولادة» .

ان التحرر الأخلاقى للنشء ثلثه تلك المأساة العاطفية للشباب فى القرن الثامن عشر ، وتركز التأكيد على الفرد الصغير السن السريع التأثر المتسامح الذى يؤول العالم بطريقة جديدة وأكثر صدقا من خلال تجاربه الحزينة . وقد لا يمكن تصور قصة التطور الانسانى دون أن يكون هناك اعتماد عام لمثل هذا النوع من التحليل النفسى الاجتماعى بواسطة الفرد الصغير السن وما مر به من سنتين يتشمل فيها فى العمل ويتعلم من أسفاره .

وحتى أسلوب البطل الصغير يعتبر أيضا رسولا للخلاص :  
كثيرا ما قلت لك :

الليل والبرد يتلصصان فوق الأرض ،  
ويستمان الروح ،  
فتدبل من الفكر ،

ما لم تبعث الآلهة من وقت لآخر من فيضها .  
مثل هذا الشباب ينعش من حياة الرجل الدابلة  
فريدريش هولدرلين

وبعدها انضم الشاب « الرقيق الشعور المجدد للحياة » ، كفرد يظهر وحيدا أو  
في صحبة صديق أو مع مجموعة من الأصدقاء ، الى جماعة الشباب شبه العسكرية،  
الوطنية ، او الثائرة اجتماعيا ، المعروفة باسم الرابطة .

وجاء في مضمون نظام الطبقات الذي امتازت به مقومات مجتمع وسط أوروبا  
في ذلك الوقت أن « العواطف العنيفة » (أ.م. أرندت) التي بعثتها حروب التحرير  
ضد نابليون وصيغت في مرسوم وارنبورج لعام ١٨١٧ قد وجدت لها مخططا في  
« جمعيات الطلاب » ، وقد اقتضت الفكرة الأساسية للرابطة الآن (التي كانت قد  
احتضنت الأساتذة والطلاب على حد سواء) على الهيئة الطلابية ، فأبعدت الأساتذة ،  
وبذلك مهدت الطريق لحركات اعتراض الطلاب ذات الصبغة السياسية ، وذلك في عام  
١٨٤٨ وبعدها .

وكانت الدوافع الأساسية في تكوينات « الشباب » كفريق في المجتمع مبعثها  
الفلسفة التربوية لروسو ومن خلفه . وثمة دافع آخر حدث فيما بعد هو الاعتراف  
السياسي الذي أعلن في الفترة التي خلفت الثورات وحروب التحرير في عام ١٨٤٨ .  
هنا ارتبطت حماسة المواقف الوطنية التجريبية والانفعالية منذ البداية بالأمان  
الاجتماعية ، اذ أن الطلبة الثائرين قد تكاتفوا - وإن لم يحدث ذلك الا في خلال  
الاسبوع القليلة للثورة - مع العمال الذين انحصر همهم الأول في تلك المرحلة في  
الحصول على تحسينات لآحوالهم المادية . ولكن الرابطة - التي أسست أصلاً وفق  
نموذج شعوب العصور الوسطى - بقيت قائمة كمؤسسات اجتماعية ، أولا كمجموعات  
وطنية للبارزين ، ثم يليها كفريق معارض لها الاتحادات الكاثوليكية بالجامعات ،  
خاصة في إيطاليا والنمسا وفرنسا وإسبانيا .

وقد تأسست حركة واندرفوجل في العقد الأول للقرن العشرين كحلف صداقة  
بين الشباب ورد فعل للأسرة والمدرسة . وقد تبنت هذه الحركة ، التي جندت  
أعضائها من بين أبناء كبار الموظفين المدنيين وغيرهم من أبناء أسر الطبقة الوسطى  
الموسرة ، مختلف الشعارات والرموز التي كان يستعملها الطلبة الثائرون أثناء حركة  
الاستقلال الوطني .

وكان لحركة واندرفوجل ، التي قامت أساسا كإنفعال للطبقة المتوسطة  
(لا انفعالا لطبقة العمال) ضد نماذج حياة الطبقة المتوسطة ، صفات تاريخية معينة .  
وما أن تكونت حتى انتشرت رموزها وانتشر سلوكها في الحياة انتشر اللهب في



الهشيم وسط أكثر الجماعات الدينية والفلسفية والسياسية المختلفة ، ونشأت حركات الشباب العمالية والاشتراكية والبروتستانتية والكاثوليكية جنباً الى جنب مع الحركات الوطنية . وكان لهذه الجماعات كلها صفة مشتركة هي المطالبة باستقلال الشباب كجزء من المجتمع ، كما حاولوا جميعاً وضع حجر الأساس لهذا الاستقلال في الأوساط التربوية .

ان حركة الشباب التي قامت في العقد الأول من القرن العشرين كانت تبحث عن التجديد الروحي في هدوء الغابات والجبال ، او في الاحتفالات الليلية والمخيمات في الهواء الطلق .

ولم يكن مقدرًا لهذه الحركة أن ترى النور بدون التوسع الملحوظ في القاعدة التعليمية الذي تحقق بنمو المدارس الثانوية . وعلى كل حال فقد كان روادها الأوائل هم تلامذة المدارس الثانوية من ذوي الكفاءات النفسية الضرورية للجمع بين المعارضة الوجودية الفلسفية وبين ما جبل عليه آخر القرن من بوهيمية عبادة الطبيعة . وجاءت حركة أندرو جيل برحلاتها بعيداً عن نظام الطبقة الوسطى ( البرجوازية ) وحضارتها في منتصف الطريق بين البوهيمية والاتصادات شمه العسكرية ، فقد ارتأوا في أنفسهم قادة لمستوى من نوع ثقافي خاص كون جزءاً من النمو الثقافي العام ( منشور هوفر مينر في عام ١٩١٣ ) ، وقدر له أن يسهم في تحسين حياة النشء .

وتقول إحدى الفقرات المهمة من المنشور :

« ان النشء الذي لم يتعد الى الآن كونه ملحقاً للجيل الأقدم ، المحروم من الحياة العامة ، المقصور دوره السلبي على الدراسة والروح التافه ، قد بدأ تطوير دور خاص به ، فهو يحاول تشكيل حياته الذاتية دون التأثير بعادات من هم أكبر سناً أو بسلوكمهم أو بما يفرضه التقاليد التي يحترقونها ، وهم يطمعون في أسلوب للحياة يتماشى مع طبيعتهم الشابة ، ويمكنهم في الوقت نفسه من أخذ أنفسهم وأنشطتهم مأخذ الجد والعثور على وضعهم كعامل مرموق في المنهج الثقافي العام » .

ولقد جاءت موجة الاحتجاجات التي نادى بها طلبة المدارس الثانوية والجامعات في أواخر العقد الماضي مختلفة تماماً عن هذه الحركات السابقة :

١ - لم يعد النشء يحاول تحسين معيشته في المجتمع ، بل أصبح ينتقد المجتمع ككل ، بما في ذلك قوانينه وتنظيماته ، فهم ينادون بتغييرات لها مدى بعيد ، وخاصة في الجامعات والمدارس : يجب أن يتغير المجتمع ، لا النشء .

٢ - لم يعد النشء يبحث عن حياة تليق بالشباب ، كما كان الحال في عام ١٩١٣ ، ولكنهم يحاولون أن يحصلوا على أقصى فرصة ممكنة للتوصل الى مراكز اتخاذ القرارات في المجتمع .

٣ - ووفقاً لمنشور هوفر ميسنر يرغب النشء في أن يرتبط بالمنهج الثقافي العام ، ولم يعد يدعو للارتباط بالمجتمع ، بل انه يدعو لتطبيق آرائهم الخاصة ، وهذا في نظرهم سيؤديهم الى التحرر : فالتحرر في الثقافة والتعليم هو هدف الحركة الحديثة . غير انه على النقيض من ذلك نجد أن الخطة السياسية الكاملة هي التي تستخدم للوصول الى هذه الأهداف .

ان كفاح الشباب في العقد الماضي والآثار التي خلفها تعتبر جوهرية ، اذ ان المواجهة التي كانوا يسعون اليها ونالوها لم تكن في المجتمع بل معه ايضا . واذا نحن مواجهون بتكوين جديد لظاهرة تاريخية لم يسبق لها مثيل تمثل تجاوبا أو تحديا لتطور جديد في التربية والادارة وتجمعات القوى الدولية والمنشآت الاجتماعية التي لم تعد كقوا لتأدية مهمتها .

ان اعادة تعمير أوروبا بعد الحرب ، مع استمرار الحرب الباردة ونماذج السلطة القديمة ، وكذلك السلوك الجنسي ، تدل جميعها على انه حتى منتصف العقد الماضي كان التقدم التكنولوجي وتحسين الاستهلاك الاجتماعي الاقتصادي ومستويات الانعاش هي التي بقيت كموامل أساسية للنمو الاجتماعي .

وفي الوقت نفسه فان استمرار التجمد ، أو التوازن في الفرع بين اقطاب القوة وتأثيرها الذي قلل من حدته الألفة معه ، واضفت تأثيرا « مهدئا » ، شجع على الانحلال الداخلي للتكوينات الاجتماعية . وقد كان هذا الاجراء مفتوحا ومستمرا في الغرب ، متذبذبا ، وسرعان ما قضى عليه في براغ ووارسو وبلجراد . اما في الشرق فقد أسوء فهم هذه التكوينات الاجتماعية ، أو انكرت تماما ، واستمرت في التواجد على شكل سيكولوجي خفي ، حيث من المحتمل ان تكون عاملا دائما - ولو انه مراقب مراقبة شاملة - للتغيير في النظام الاشتراكي .

وقد بدأت الثورة على هيئة ازمات وتوترات ثقافية ترجع من ناحية الى شعبية التعليم واشتداد استياء الشباب من أوضاعهم ، كما ترجع من ناحية أخرى الى ازدياد الوعي في العالم ككل والوعي بمشاكل السلم كذلك .

وقد اسفرت الخطابة الثقافية والمناقشات العلمية في الأدب والعلوم السلوكية والاجتماعية وفي النقد الثقافي والاجتماعي وفي الصحافة الجادة عن خلق اقطاب من جناح اليسار أو « التقنيين » وتابعين لهم من الطلبة « والمريدين » . ثم ان هناك ايضا في اقصى الطرف المقابل لهذا التركيز الفكري اقلية ظلت صامدة حتى ما قبل الثورة ، ولم يكن لديها لا القوة ولا الرغبة في التعبير عن نفسها في اسلوب فكري أو سياسي مناسب ، ومهما يكن هناك من أسباب فالواقع ان المناصب السياسية للجناح الايمن والمحافظين قد جلبت الانتباه الفكري والعلمي في اواسط أوروبا خلال العقد الاخير ، وفجأة أصبحت الأقلية الفكرية في جناح اليسار - في المحيط الادبي في البداية وقتئذ ثم سياسيا ايضا عندما هبطت الثورة ( كما حدث في جمهورية ألمانيا الاتحادية ) - هي الاتجاه النشط والفعال الوحيد فعلا ، وبذلك تمكنت من الضغط على الزناد والسيطرة على مرحلة الحماسة ذات العقيدة الائتلافية التي تلتها .

وفجأة برزت مطالب ، مثل المساواة وحق الفرد في ان يحقق ذاته ، من الاطار التاريخي للقرن الثامن عشر ، وكانت هناك حاجة للصفات الانسانية في التنظيمات والمؤسسات ، واصبحت الحريات غير المباشرة وتصعيد الوعي الاجتماعي والتعاون والتصميم الجماعي هي الهدف المركزي للاشتراكية «الجماعية» التي تتصف باعتقادها في عدم المركزية وكذلك بدنياميكية المجموعة الصغيرة . ان شدة هذه الظاهرة التي لم يسبق لها مثيل قد كذبت التفاهات التي طالما ترددت عن ان النشء يسمى

دائما الى التغيير ، وأنه ثورى «أثوماتيكيا» ، وأنه يمهّد السبيل مرارا الى نزاع الأجيال ، وهلم جرا .

وفي لمحة واحدة بذرت الحركة ، رغم افتقارها للتجانس الاجتماعى والفكرى ، بذور الثورة الاشتراكية فى المجتمع العلمى فى وسط أوروبا ، ثم حدث مايمكن وصفه بحركة متعمدة للاسراع بالتطور الاجتماعى ، أو بدرجة أدق استغلال من جانب قوات جناح اليسار للتوترات التى سببها وجود مورثات عنيقة أو رجعية فى البرلمانات والجامعات والمدارس .

ونحن الآن نجد قوى متطرفة أو ثورية قد تأصلت ، يعضدها ويعارضها بالتبادل ديموقراطيون اجتماعيون أوريون . فهل من الممكن «الثورة التحرر» فى المهن الهامة ، والتراجع الى اليسار وسط الطبقة المثقفة التقنية وغيرها من الجماعات المختارة المهمة ، أن تضم قواها الى شعور التجمعات العمالية بانتظامهم كما فى وضعهم الراهن فى النقابات العمالية والنظم التى ترعى مصالحهم ؟ أنه من المحتمل أن تؤثر على طبقة ذوى الياقات البيضاء . وقد أصبح هناك صعوبة متزايدة فى الوصول الى نتائج معقولة فيما يختص بالنزاع بين تأجيل المكافآت وبين الضغوط التى يمارسها البالفون والمراهقون الصغار السن مطالبين بالاستجابة السريعة . فالشباب يعانون من التقلبات والاختلافات فى أوضاعه الراهنة معاناة مباشرة . أن مجتمع البالفين يواجه ردود الفعل التى تحدث من الشباب نتيجة لهذه التقلبات والاختلافات ، فى شكل ظواهر مثل الكفاح المتصاعد والسلوك العدوانى يصاحبه برنامج (له قاعدة فكرية) لتسوية اختلافات الوضع ، وذلك عن طريق الشباب المتآلف ، حتى ولو بلغ الوضع الراهن أقصى مداه ، مما يساعد على تخفيف توتر الصغار ، غير أن أنشطتهم سواء فى الحاضر أو فى الماضى ليست مركزة على اهتماماتهم فقط ، وذلك مثل موجات المظاهرات الشبابية وخاصة فى الولايات المتحدة .

وعلى أية حال فإن عرض برامج مجموعات المتطرفين على الشعب ينظر اليه غالبا على أنه الخطوة الأولى المهمة نحو إلغاء الاختلافات الخاصة بالوضع ، وتقديم فرص جديدة ، وضمنان لمشاركة ذات هدف فى اتخاذ القرارات الاجتماعية . وقد اكتسبت المناقشات العامة والمطالب الخاصة «بالحكومة المفتوحة» وإلغاء السرية أهمية كسلاح استراتيجى ومصدر للاكتفاء السيكولوجى والاجتماعى . وهكذا نجد أنه فى مراحل معينة من الثورات استغلت كل الامكانيات بما فى ذلك الدعاية حتى تلك التى تعد من النوع التطفلى . أن المعلومات العامة من خلال انعكاسها على الوسائل الجماعية تكتسب نفوذا يبقى تأثيره التزايد وحصيلته من الاقتناع محلا للبحث التجريبى . وعن طريق المعلومات تقوى التكوينات المعيارية ويبدأ التماسك الدولى . وقد كان هذا هو العامل الأساسى فى تكثيف ظاهرة الاحتجاج والثورة ، وكان له تأثير ضخم وواضح للغاية . أن الطريقة التى يتقرر فيها الوعى الاجتماعى للنشء بنفسه عن طريق الإجراءات المختارة لوسائل الاتصال الجماعى موضوع يحتاج الى مزيد من الدراسات المستفيضة .

# الجغرافيا الاقتصادية ... والتنمية

## الجغرافيا الاقتصادية علم اجتماعي

ان العلوم الجغرافية ذات المجالات المتسعة ، التى تنمو نموا سريعا ، تضم ميدانا متشعبا من العلاقات بين المجتمع الانسانى وبيئته الجغرافية . فمهما بلغ تقدم المجتمع علميا وتكنولوجيا لانزال الطبيعة - سواء بشكلها الفطرى او معدلة بيد الانسان - هى بيئة الناس وموطنهم والاساس الوحيد لخلق ثروتهم المادية ومصدر رزقهم . ومن ثم كانت المهمة الملقة على عاتق الانسان هى ايجاد افضل الطرق لاستخدام الطبيعة بمعاونة القوى الانتاجية التى يخلقها المجتمع ، كوسائل الابداع التى يقدمها الرجال والنساء بقدر ما لديهم من وسائل المعرفة والمهارة ووسائل الانتاج وطرقه .

هذا هو موضوع العلوم الجغرافية ، سواء من ناحية دراسة القوانين التى تحكم تطور الظاهرات الطبيعية المعقدة واكتشاف امكانات استخداماتها ( الجغرافيا الطبيعية نظريا وتطبيقيا ) او من ناحية دراسة القوانين الاجتماعية التى تحدد طرق استخدام اليد العاملة والموارد الطبيعية والشكل الخاص الذى يتخذ الانتاج ووظيفته فى المجال الجغرافى ( الجغرافيا الاقتصادية او كما تسمى احيانا جغرافية الانسان ) .

اذن فالجغرافيا الاقتصادية علم اجتماعي يدرس التوزيع المكاني ومضايف القوى الانتاجية وتداخلها فى استخدام المجتمع الانسانى للبيئة الجغرافية خلال مراحل نموه المختلفة .

## بقلم : الدكتور فيكتور فولسكى

مدير معهد الدراسات الأمريكية اللاتينية ، أكاديمية العلوم  
بالاتحاد السوفيتى بموسكو ، ورئيس قسم الجغرافيا  
الاقتصادية الخارجية بجامعة موسكو . ومن أهم أعماله ما كتبه  
عن جغرافية البترول ودول أمريكا اللاتينية . وتشمل المشاكل  
الرئيسية الإقليمية الجغرافية الاقتصادية فى البرازيل (١٩٥٨) ،  
وألمنى أمريكا اللاتينية (١٩٦٨) ، والجغرافيا الاقتصادية  
للدول المكشلة النمو (١٩٧١) .

## ترجمة : الدكتور محمد السيد غلاب

رئيس قسم الجغرافيا وعيد معهد البحوث والدراسات  
الأفريقية بجامعة القاهرة

وقد أثبتت الجغرافيا الاقتصادية بما لا يدع مجالا للشك العلاقة القائمة بين  
استخدام الموارد البشرية والطبيعية والمكان ومجموعة العوامل الإنتاجية المتداخلة من  
ناحية وبين خواص العلاقات الموجودة فى المجتمع من حيث علاقته بالأرض والموارد  
الطبيعية الأخرى ووسائل الإنتاج وطرقه من ناحية أخرى . فاستخدام الموارد  
الطبيعية يتوقف على من يمتلك الموارد ، ولمصلحة من تستخدم . إذ تختلف  
استخدامات الأرض باختلاف الذى يمتلكها ، فالفلاح الصغير يستخدمها لإنتاج قوته ،  
وصاحب العربة التقليدى يستخدم فيها اقتصادا يحتاج لأقل قدر من رأس المال  
ونيل أكبر عائد من الأرض . فبوصفها رأس مال يفكر هل يؤجرها ، أو كيف يدفع  
أجر من يستأجرهم من العمال ، الخ . والمالك الرأسمالى يوجه إنتاجه الزراعى  
توجها كاملا نحو السوق حتى يحصل على أكبر قدر من الفائدة من رأس المال الذى  
يستثمره فيها ، وفى الوقت نفسه يريد استثماراته ليحصل على ربح أفضل ، وذلك  
- فى أغلب الأحيان - على حساب مزيد من تكثيف الزراعة .

وكلما كانت القوى الإنتاجية أكثر تعقيدا كانت إمكانات استخدام البيئة  
الجغرافية أرحب وأكثر اتساعا . غير أن لكل بناء اجتماعى ولكل نمط من أنماط  
المجتمع سبيله الخاص فى وضع مقياس موضوعى معين يقيس به مدى كفاءة قواه  
الإنتاجية ومدى نجاحه فى استخدام الموارد الطبيعية . وهذا يؤدى إلى قيام أنماط

معينة من الاقتصاد بعلامه الخاصة وما يتصل به من توزيع للسكان ، وهذه الأنماط هي محل دراسة الجغرافيا الاقتصادية .

ولاستطيع هنا أن نمنع أنفسنا - دون الدخول في تفاصيل مشاكل الابنية الاقتصادية الخاصة من حيث سويتها أو ثباتها وما الى ذلك - من أن نشير الى أن أشكال الاستخدام الاقتصادي العشوائية وغير العلمية للارض ، التي لاتعني الا بمصالح جماعات معينة من السكان ، قد تؤدي الى نتائج وخيمة على كل من الطبيعة والمجتمع . وتظهر هذه النتائج السلبية على كل مسنوى ، على المستوى المحلى والاقليمى (مثل استنزاف موارد البيئة الطبيعية والاخلال الشنيع بالتوازن الطبيعى، وتخطيط الغابات وتخريبها ، وجرف التربة وانهاكها ، وتلوث المياه والجو ، والأزمات الاقتصادية ، ونزوح السكان ، وما الى ذلك ، كما تظهر هذه النتائج السلبية ايضا على المستوى القومى (مثل التخبط في انحاء اجزاء مختلفة من الوطن ، وزيادة فائض السكان ، واقساد الزراعة ، وازدياد الاعتماد على المساعدات الخارجية ، وما الى ذلك ) .

وتستطيع الجغرافيا الاقتصادية بالدراسة الموضوعية للتجارب المختلفة أن تهىء نفسها لتحليل الظواهر السلبية في تكوين الاقتصاديات المختلفة ، وأن تصل الى احسن الحلول للتغلب عليها . والجغرافيا الاقتصادية في الوقت نفسه ، وعلى خلاف العلوم المشابهة (مستخدمة معطياتها) ، تعمل على أساس التقريب بين نهجين مختلفين بقدر الامكان ، وهما : افضل توزيع مكاني لجميع القوى الانتاجية واضعة في الاعتبار حاجات المجتمع الملحة والاختناقات الموجودة فيه نتيجة تراثه التاريخي وجميع المشاكل الاقليمية والقومية المختلفة للسكان والاقتصاد من ناحية ، والتقدير الكامل لجميع خصائص وصفات البيئات الطبيعية التي يستخدمها الانسان ، مع تقدير افضل واكمل استخدام للموارد الطبيعية تقديرا قائما على معرفة هذه البيئات واسلم وسائل استغلالها .

وقد استطعنا بدراسة التوزيع المكاني للسكان على كوكبنا أن نجتمع قدرا كبيرا من المعرفة تسمح لنا بالانتقال من المنهج الوصفى والمقارن الى المنهج الكمي والنمطى والانتقال من وصف الظاهرة وتقويمها الى التنبؤ والتخطيط .

### مشاكل التنمية والجغرافيا الاقتصادية

ان عبرة التاريخ ، وخاصة في الفترة التالية للحرب ، تبين أن التطور الطبيعى لا يؤدي الى حل لمشاكل عدم المساواة الاقتصادية بين الدول . فحسبة بسيطة نستطيع أن نقول ان الدول النامية عليها أن تضاعف انتاجها السنوى بمعدلات تفوق المعدل العالمى عدة مرات حتى تستطيع ان تحافظ على نصيبها الحالي من الاقتصاد العالمى ، حيث ان نموها السكاني يفوق معدل النمو السكاني للعالم . فبالنسبة لأمريكا اللاتينية مثلا يشمو سكانها بمعدل ٣٪ سنويا ، في حين أن معدل نمو سكان

العالم هو ١.٨٨ ٪ ، ومعدل النمو الاقتصادي للعالم هو ٧ ٪ ، ومن ثم فلابد لدول أمريكا اللاتينية كي تحافظ على مركزها الاقتصادي في العالم في الوقت الحاضر من

$$\text{أن تنمي اقتصادها بهذه النسبة : } \frac{7 \times 4}{1.88} = 14.87$$

وحيث أن معدلات النمو الاقتصادي في أمريكا اللاتينية أقل من ذلك ، وليس هذا فقط ، بل هي كذلك أقل من المعدل العالمي ، فإن نصيب أمريكا اللاتينية من الاقتصاد العالمي يتدهور باطراد . وهذا أمر واضح حتى في المجال الصناعي ، وهو أحسن حظا من القطاعات الاقتصادية الأخرى في القارة . إذ أن نصيب أمريكا اللاتينية من الإنتاج الصناعي في العالم غير الإشتراكي قد انخفض من ٤٣ ٪ عام ١٩٤٨ إلى ٣٦ ٪ عام ١٩٦٦ . وهذا يعني تدهورا أكبر في متوسطات نصيب الفرد بالنسبة للمعدلات العالمية ، ويعني أيضا ازدياد الهوة بين الدول المتقدمة وبين الدول النامية .

ويرى بعض الباحثين والقادة أن سر المشكلة يكمن في فيض «السكان» وفرط نموهم في الدول النامية . وملاءمة معدل النمو السكاني مع معدل النمو الاقتصادي أسهل من العمل على زيادة معدل النمو الاقتصادي زيادة كبيرة . وهم يرون أن تنظيم الأسرة هو أفضل الحلول لهذه المشكلة . وهذا موضوع يحتاج إلى شيء من التعليق .

أولا : من دراسة السكان وملاحظة التطور السكاني خلال مئة عام قد تبين أن معدل المواليد ومتوسط حجم الأسرة يتناسبان تناسباً عكسياً مع مستوى المعيشة والحياة الثقافية للأمة وتعتمدان عليهما . فمع ارتفاع مستوى المعيشة والمستوى الثقافي ينخفض معدل المواليد ، ولا جدوى من محاربة علاج نتائج انخفاض مستوى المعيشة دون علاج أسبابها ، فهذا أمر لافائدة منه ، بل هو في النهاية أمر ضار ، لأن هذا يحول الاعتمادات المالية والجهود والوعي من أهدافها الحقيقية والجيدة التي يمكن أن تؤدي إلى نتيجة .

ثانياً : إن تجارب الأمم قد أثبتت أن معدلات المواليد المنخفضة لا تحول دون مشاكل البطالة ، ولا تحول دون تزايد فيض السكان، ولا تحول دون انخفاض معدلات التنمية إطلاقاً . ففي فرنسا مثلاً سجلت البطالة أعلى أرقامها في التاريخ خلال العقد الرابع من هذا القرن ، وهي فترة توقفت فيها فرنسا عن الزيادة السكانية . أما عن الدول النامية فإن معدلات المواليد المنخفضة في بعضها يصحبها انخفاض مواز في معدلات النمو الاقتصادي (مثل الأرجنتين وأوروغواي) .

وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى النظر إلى انخفاض معدل المواليد والزيادة الطبيعية ومايصحبها من مشاكل سكانية بشيء من الدرع (١) .

(١) انظر مثلاً « الأرجنتين عام ٢٠٠٠ أمة شبه مقفرة » برونس إيرس ١٩٩٩

ثالثا : الإنسان هو العامل المنتج الرئيسي . ومن الواضح أن عمل شخص واحد يستطيع أن يكفل لعدة أشخاص أسباب المعيشة الرئيسية . وقد أدى التقدم الكبير في انتاجية العامل واستحداث وسائل جديدة وأماكن واسعة في الصناعة بعد الحرب إلى ارتفاع قيمة انتاج العامل في كثير من الأقطار ارتفاعا مطردا كبيرا . وإى هبوط في معدلات الانتاج السنوى والعجز عن توفير العمالة في مثل هذه الظروف يشير إلى فشل في التوفيق بين نظام العمل وإدارته وبين مستوى نمو القرى الانتاجية .

ولا يقتصر الأمر مع ذلك على مجرد تغيير المؤشرات الكمية ، فهي في حد ذاتها يمكن بل يجب أن تستخدم في تحديد درجة التخلف الاجتماعى والاقتصادى ، وذلك إذا استطاعت أن تساعدنا على التعرف على القيم الكيفية والخصائص النوعية لهذه الظاهرة في الأقطار المختلفة ، وإذا ساعدتنا على اكتشاف سلسلة الأسباب والعوامل الرئيسية التى تؤثر في سير عملية التنمية . ونحن في هذا المجال لانستطيع أن نقر بفائدة المحاولات التى ترتب أقطار العالم حسب مستوى الانتاج القومى ، أو نصيب الفرد من الدخل القومى ، أو عمل مؤشر احصائى متكامل من حيث الشكل ثم نستخدمه معيارا لجميع الأقطار (١) . ولا يزال المجال متسعا للبحث عن معايير التخلف والكيفية التى يمكن تعيينها بمجرد استخدام عدد من المؤشرات الكمية .

وهذه هى بعض سمات التخلف .

التبعية الاقتصادية بأشكالها المختلفة .

التصدير غير التوحيضى لجزء من الانتاج القومى .

التخصص في انتاج مادة خام زراعية في مجال التقسيم الدولى للعمل .

تشوه البناء الداخلى للاقتصاد ووجود درجة كبيرة من الانفصالية الاقتصادية على مستوى القطاع والإقليم .

وجود اختلافات كبيرة في درجة انتاجية العامل في القطاعات والفروع المختلفة (وخاصة بين التصدير والفروع التقليدية) مع زيادة نقص الانتاجية زيادة شاملة .

ثنائية البنيان الاقتصادى الاجتماعى مع بقاء جزء كبير من الاقتصاد التقليدى والأساليب القديمة في استخدام العمل والموارد الطبيعية .

ارتفاع نصيب الفرد السريع من الدخل القومى في أقطار مثل فنزويلا وليبيا والكويت لم يحررها من الصفات اللاصقة بالدول الأقل تنمية .

---

(١) لا يستجر دليل التنمية العام الذى ابتدع على أساس مائة عشر مؤشرا احصائيا في معهد الأمم المتحدة لأبحاث التنمية الإجماعية بجنيف كاليا . وانظر :

Institute des Investigations de las Naciones Unidas para el Desarrollo social, Boletín de investigaciones, No. 2. Geneva, Julio 1969.

وقد وضع فيه المؤلفون دليلا لثمان وخمسين دولة يتدرج من ١١١ للولايات المتحدة إلى ١٠ لتايلاند .



ان حل مشكلة التخلف الاقتصادي غير ممكن الا عندما تستطيع الدول ان تختلص من معوقات سنوات طويلة من التخلف والأخذ بخطوات التغيير الجذري الشامل لتأمين :

ا - أفضل حشد للقوى العاملة في أعمال انتاجية .

ب - توجيه مصادر الدولة المادية لأغراض التنمية .

ج - رفع انتاجية العمل بسرعة واطراد في جميع مجالات الإنتاج .

د - ازالة المعوقات الاجتماعية والجغرافية .

وتستطيع الجغرافيا الاقتصادية - بوصفها علما وموضوعا ثقافيا - ان تقدم اسهامات هامة في جميع مراحل التنمية الصعبة .

### تشكيل هدف التنمية

نستطيع ان نستخلص ثلاث مراحل اساسية في تشكيل هدف التنمية لاي قطر من الاقطار :

1 - تعيين اهم المشاكل والاختناقات المتعلقة بالسكان والاقتصاد وترتيبها وتداخلها مبتدئين من المقارنات الدولية حتى وضع التعاريف على المستوى الاقليمي (تحليل الموقف ووصفه) .

2 - تعيين وتحديد كل الموارد المتاحة للتنمية وامكاناتها وتسجيلها وتقويمها (تقدير الامكانات) .

3 - وضع السياسات الطويلة الاجل ووضع خطط معينة للتنمية (وضع اهداف) .

وربما اقتضت اسهامات الجغرافيا الاقتصادية على البحث وجمع المعلومات على النحو التالي :

اولا : البحث في الاتجاهات العالمية الرئيسية والاتماط المختلفة للاستغلال الاقتصادي والمؤشرات العالمية في استخدام البيئات الجغرافية واستغلال مواردها ، والترابط بين الصناعات في الاقتصاد والتركيب الجغرافي ومدى كفاءة استخدام القوى الانتاجية (ومن الممكن استخدام نمط الانتاج في الجغرافية الاقتصادية الخاص بالدول النامية في مثل هذا البحث) ، وتقويم مدى كفاءة استخدام الموارد البشرية والتركيب الاقتصادي المعقد ، وتقدير طبيعة ومدى عدم التوازن «الرأسي» ، وتحليل التوزيع الجغرافي للسكان والاقتصاد ، ووصف الاقاليم الاقتصادية الحالية او المنبثقة ، وتقدير طبيعة ومدى عدم التوازن الجغرافي (الافقي) ، وتقدير اتجاهات التنمية الاقتصادية والاقليمية ، او التنبؤ بالتغيرات الممكنة تحت ظروف التطور الاقتصادي .

والفرض هو تحديد الاتجاهات الرئيسية وأولويات التدخل الحكومي في عملية التنمية .

ثانيا - توفير الوسائل الممكنة والمكتملة لتنشيط الكفاءة الاقتصادية للقوى الانتاجية القائمة عن طريق :

١ - تحديد الأهداف والمعايير لتقدير امكانات اكتشاف الموارد الطبيعية وأولوياتها والاشتراك في البحث عن الموارد وتنظيم مواقعها .

ب - التقييم الاقتصادي المتكامل للموارد الطبيعية ، على أن يؤخذ في الاعتبار حاجات الاستهلاك المحلي وامكانية الانتاج للسوق العالمى .

ثالثا - المساهمة في وضع الأهداف الاقتصادية الطويلة المدى (١٥ سنة - ٢٠ سنة) وخاصة في نطاق العلاقات البيئية بين الانسان والأرض ، والمساهمة في وضع أهداف متوسطة المدى (٣ سنوات - ٥ سنوات) للاستثمار المباشر لرأس المال الحكومي ، والتدخل غير المباشر في الاقتصاد ، بغرض وضع قواعد لتغيير اقتصادى شامل للمركب الاقتصادى الاجتماعى للدولة ، ووضع مشاريع التخطيط الإقليمى ، والتنبؤ بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والوضع العلمى للبدائل للملاءمة التنمية الاقتصادية الإقليمية بخطط التنمية البشرية ، وتميئة القوى الانتاجية ، ووضع توصيات تعديل الحدود الادارية حتى تنسجم مع الحدود الاقتصادية وتقريبها بالحدود السياسية لتسهيل ادارة الاستغلال الاقتصادى جغرافيا .

هذه القائمة تبين الدور الهام الذى تستطيع الجغرافيا الاقتصادية أن تؤديه في البحث العلمى ووضع البدائل للطرق المثلى المؤدية للتقدم الاجتماعى والاقتصادى .

ولابد أن تؤكد أن النتيجة التى نحصل عليها من التطبيق العلمى للجغرافيا الاقتصادية على الدول النامية يمكن أن تصبح أكبر قيمة مما نحصل عليه من تطبيقها على الدول المتقدمة . ففى حالة هذه الدول المتقدمة يقتصر عمل الجغرافى الاقتصادى على محاولة ايجاد الوسائل التى يتخلص بها من الاختناقات الآتية التى تنجم من حين الى آخر في نظام راسخ من القوى الانتاجية الموزعة توزيعا جغرافيا . فالموارد الطبيعية قد استغلت استغلالا كبيرا فعلا ، ومن غير المحتمل أن تكتشف موارد طبيعية جديدة يمكن أن تقلب الاقتصاد الإقليمى رأسا على عقب وتتيح لتلك الموارد فرصة تغيير تخصصها .

وعلى العكس من ذلك فى الدول النامية ، فإن درجة استخدام موارد البيئة الجغرافية منخفضة للغاية (فيما عدا استثناءات نادرة عندما يتعلق الأمر باستخراج المعادن للتصدير) . وليس هناك تعقيدات فى استخدام الأرض ، كما أنها أبعد ما تكون عن الاستقرار ، ومن ثم فنحن نتوقع اكتشاف مصادر رئيسية للثروة واتجاهها ، كما نتوقع أن يؤدي تنظيمها علميا الى تكوين مركبات اقتصادية جديدة ، وخاصة اذا

وضعنا في الاعتبار الاحتياجات الإقليمية ، وهذه الأقطار لم تصل بعد الى الحد الأمثل في استغلال الموارد الطبيعية .

### وسائل تنفيذ خطط التنمية

نحن نعرف من خبرتنا التاريخية ان أى دفعة نحو التنمية تأتى بعد فترة طويلة من التطور البطيء أو الركود ترتبط ارتباطا وثيقا بتغيرات كيفية في التركيب الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع . فاستخدام العمل والموارد المادية استخداما اقتصاديا كبيرا وسريعا لا يمكن أن يتم الا بعد أحداث تغييرات كبيرة المدى في استخدام القوى الانتاجية ، وهذه بدورها لا يمكن أن تحدث الا بعد أحداث تغيرات اجتماعية كبيرة ايضا . فمثلا لا يمكن أحداث تكيف في الزراعة ، مع الاحتفاظ بنظام الملكيات الخاصة الكبيرة أو الصغيرة . كما أنه من الواضح أن القرارات العلمية أو الاجراءات التى تقوم بها الأجهزة الحكومية قاصرة تماما عن أحداث تغييرات في التركيب الاجتماعى فلا بد من التأييد الإيجابى لأغلبية السكان ، فهو امر ضرورى .

من هذه الناحية يمكن أن تعتبر الجغرافيا الاقتصادية ، سواء كانت موضوعا تربويا عاما أو علما ، في غاية الأهمية في التأثير على الرأى العام . فلابد أن تبث الجغرافيا منذ عهد الدراسة الأولى اتجاهها ذكيا نحو ثروة البلاد ، وتحت الناس على أن يفكروا في إمكان تعديل الطبيعة والاقتصاد ، وتقدم لهم تجارب الأقطار الأخرى وما وصلت اليه من تقدم .

غير أنه مما يؤسف له أن تعليم الجغرافيا في معظم الأقطار النامية لا يزال متخلفا ولا يزال المنهج الوصفى التقليدى هو المتبع دون أن يدفع الطلبة الى اتخاذ مواقف نشيط نحو البيئة والموارد . فلم تدخل الطرق البنائية أو الكشفية في الدرس الا تدريجيا في الجغرافيا الاقتصادية العلمية في بعض الأقطار . ولا يوجد في معظم الدول النامية أى تدريب حقيقى للجغرافى الاقتصادى المحترف اطلاقا ، رغم الحاح الحاجة اليهم لكى يساهموا في وضع برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

والجغرافيا الاقتصادية هامة جدا في وضع وسائل الخطة ايضا . ونستطيع ان نحدد ذلك في ثلاثة امور هامة :

١ - ضوابط لفحص مدى نجاح الخطط على جميع المستويات ، من الاقتصاد الكبير الى الاقتصاد الصغير ، ودرجة ملائمة الخطط للعوامل الداخلية والخارجية .

٢ - تصحيح وتعديل النماذج الإقليمية للجغرافيا الانتاجية .

٣ - تنمية وصياغة الآراء المتعلقة بالخطط القصيرة الاجل التى يجب أن توضع في ظل الخطة العامة ويوحى منها .

كل هذه الجوانب متصلة اتصالا وثيقا بأهم مبادئ أى خطة ، وهي الاستثمار . وإى انقطاع بين النظرية والتطبيق ينتهى بها الى طريق مسدود ، وعدم وضوح

الرؤية ، والتخطيط في اتخاذ القرارات دون أساس صحيح ، كما يؤدي أولا وقبل كل شيء الى العمق في التفكير الذى لاجدوى منه .

فلا بد ان يعاون كل من النظرية والتطبيق الآخر ويشريه .

ولم تنشر بعد على نطاق واسع التجارب العلمية الدولية في الجغرافيا الاقتصادية في البحث او في اصدار التوصيات فيما يتعلق بتحديد الاهداف ووضع خطط التنمية كما وضعناها من قبل . وهذا يرجع الى ان البحث في وسائل التنمية وتنشيطها لم يحتل ما يستحقه من مكانة الا اخيرا . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى التقابل الجغرافي الاقتصادى في الافطار المتقدمة ، حيث المستوى العلمى في ذروته ، مشاكل تختلف اختلافا جذريا عن المشاكل التى تقابل الدول النامية التى لم تكد الجغرافيا البناءة فيها تخطو أولى خطواتها بعد ، بل حتى في الافطار التى تقدمت فيها الابحاث الجغرافية ، مثل البرازيل والمكسيك والارجنتين والهند ، لم تتمتع هذه الابحاث مرحلة تحليل الموقف .

وقد تجمع في الاتحاد السوفيتى قدر كبير من التجربة العملية في الجغرافيا الاقليمية بقصد تنشيط وسائل التنمية ، وهذا يرجع الى مساحة البلاد من ناحية ، وطبيعة اقتصادها القائم على التخطيط ، وضرورة الاستفادة من المبادرة ، والذاتية الاقليمية ، من ناحية اخرى . وربما استفادت الدول النامية من تجربة تنمية اقتصاد وثقافة اقطار كانت تعد من قسبل من اكثر البلاد تخلفا في ظل القيصرية ، وهى جمهوريات وسط آسيا وياقوتيا الخ .

فشعوب هذه الاقطار عبرت الهوة السحيقة بين الاقطاع ( والعلاقات القبلية احيانا ) والعزلة الى التكامل التام مع اقتصاد الاتحاد كله على مستوى عال لا يبارى من التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

### مقارنات دولية

تعد المقارنات الدولية دون شك من الوسائل الهامة التى توضح حقيقة الأمة ، وهى في الوقت نفسه تسهل كثيرا مسائل تنظيم وتنسيق التعاون الدولى في مجال التنمية .

وتهدف المقارنات الاقتصادية عادة الى قياس المستوى النسبى لتنمية الدول ومعدل هذه التنمية ، ومقدار كفاءة استخدام العمل ورأس المال ، ومجال العلاقات التجارية الخارجية وطبيعتها . وتضمن المقارنات الجغرافية الاقتصادية اختيار المؤشرات التى قد تميز - كميًا وكيفيًا - الصفة الخاصة لاستخدام الانسان للبيئة الجغرافية ومواردها في عملية الانتاج .

مثل هذا الاتجاه يكشف بشئ من الوضوح مجالات نشاط الانسان الانتاجى وحاجته الدائمة الى اعادة التنظيم واجراء تحسينات جوهرية في سبيل الوصول الى

اعلى انتاج من العمل . كما أن هذه المقارنات من شأنها تشجيع تراكم المعرفة المستمر والتعرف الى الأسباب المرضية واكتشاف المسائل التي ينبغي اجراء بحوث عنها بوسائل جديدة .

ولاتزال المقارنات الدولية محددة للغاية ، وذلك لندره الإحصاءات وخاصة في دول آسيا وأفريقيا الحديثة . كما لا بد من فحص المؤشرات الإحصائية المتاحة . كذلك على أية حال ، داخل تلك الامكانات ، لا بد من اختيار المؤشرات الضرورية للمقارنة حتى يمكن أن ننشئ صورة متعددة الجوانب للاقتصاد بوجه عام من ناحية ولقطاعاته المختلفة من ناحية أخرى ، من حيث علاقته بالموارد ومستوى التنمية ونمط الاقتصاد والمنتج الناجم عنه . وعلينا أن نميز بين المؤشرات الأساسية ، أي التي تبين الأسباب والنتائج ، وبين المؤشرات العشوائية .

ويجب على التحليل الجغرافي الاقتصادي المتعدد العناصر أن لا يشغل بجلالات فردية أو علاقات عشوائية وأن لا يركز الى تبسيط العوامل المتداخلة المعقدة باستخدام مؤشر عالمي واحد . ويهدف تحليل حالة من حالات التنمية الاقتصادية الى التعرف الى اقصى حد ممكن الى نقاط الضعف والقوة في الاقتصاد واكتشاف أسبابها من طريق تحليل معاملات الارتباط بين عوامله تحليلا ديناميا مضبوطا . ويجب أن لا نفصل الوظائف العامة التقريبية التي يمكن تطبيقها في كل دولة ، بل يجب أن نعمل على الاهتمام الى المتغيرات الأكثر دقة التي تؤثر في الانتاج وفي نمط الاقتصاد موضوع الدراسة .

ولا بد أن نبدأ بتصنيف الدول والاقتصاديات ، فهذه خطوة أولية ضرورية يجب أن نقوم بها قبل اجراء أي مقارنات دولية . ومن المهم جدا مقارنة المؤشرات التي تؤدي الى انتاج منخفض في بعض الدول والى انتاج مرتفع في دول أخرى ، لتحديد الاختناقات وامكانات التنمية الاجتماعية والاقتصادية . على أنه من الضروري فحص المقارنات ، فالمؤشرات الاقتصادية الصغيرة يمكن مقارنتها بمثيلاتها مقارنة مطلقة ( مثل الاهتمام بالاحتياجات التكنولوجية التي تفرضها الظروف الطبيعية ) . ولا يمكن عقد مقارنات اقتصادية شاملة الا بين الدول ذات الحجم الواحد . فنحن لا يمكن أن نطلب من دولة ذات ثلاثة ملايين نسمة أو خمسة ملايين نسمة أن تقيم بناء صناعيا يشبه صناعة الولايات المتحدة تنوعا ونوعا . ولكن يجب أن نقارن درجة انتاجية العامل في صناعات أو أعمال متشابهة ، ويمكن مثلا مقارنة وزن الخنزير في **أوكلاهوما** ( ٣٧ كيلو جراما ) بنظيره في **جارتها كولومبيا** ( ٦٠ كيلو جراما ) التي تسودها ظروف طبيعية مماثلة . ليس هذا فحسب ، كما يمكن أن يقارن أيضا بوزن الخنزير في **بلجيكا وإيطاليا** ( أكثر من ٨٠ كيلو جراما ) .

وتبين المقارنات الدولية المدى الشاسع بين الدول المختلفة من الناحيتين الراسية ( بناء الاقتصاد وقطاعاته المختلفة ) والجغرافية . وهذا التباين يؤدي بدوره الى تحديد طبيعته ومعاليه تحديدا دقيقا ، كما يؤدي الى أن نضع أيدينا على عدم

التوازن الاقتصادى فى كل دولة ، واكتشاف الطرق الرئيسية التى تؤدى الى تغيير  
تنميتها الاقتصادية .

### الاقليمية الاجتماعية الاقتصادية

ان البحث عن العوامل الجغرافية التى تؤثر فى الظواهر الاجتماعية الاقتصادية  
وتحدد مناطق التنمية هو من صميم منهج الجغرافيا الاقتصادية . فالتنوع فى  
الموارد الطبيعية ودرجة استخدامها وتوزيعها والتباين فى تجميع الموارد البشرية  
واستخدامها ، والاختلاف فى البنى الاجتماعية والمشاكل الاقتصادية التى تواجه كل  
مجتمع ، كل هذا يستدعى انتهاز طرق مختلفة لمعالجة مشكلات التنمية فى كل اقليم .

والاقليم الاجتماعى الاقتصادى مركب فريد قائم او فى سبيله الى الظهور يتكون  
من القوى الانتاجية التى تتحدد خصائصها المميزة بتوزيع جغرافى لبنى اجتماعى  
معين . ولا يستطيع الباحث ان يرسم حدودا حسة او سيئة لهذا الاقليم . ولكنه  
يكتفى بالحدود الاقليمية الموجودة ، سواء كانت صحيحة او غير صحيحة .

وتميز الجغرافيا الاقتصادية بين الاقاليم القطاعية (زراعية او صناعية او  
مواصلات ) وبين الاقاليم المتكاملة . وليست الاقاليم الاولى سوى اجزاء من اقليم  
اقتصادى متكامل تقع ضمن حدوده ، وقد تقع احيانا فى اخطاء فكرية معينة ،  
فنتصور ان التجانس فى الانتاج او التخصص فيه او غيرهما من الصفات تميز  
الاقليم . والواقع ان الاقليم لا يتميز بالتجانس بل بالوحدة التى تضم مختلف عناصر  
الحياة الاقتصادية ، مكونة مركبا معينا له روابطه الداخلية والخارجية الثابتة .

ويتكون الاساس الاقتصادى للاقليم من الاتجاه نحو تحقيق اكبر قدر من  
الاكتفاء الذاتى والتكامل (الذى لا يمكن الوصول اليه) من ناحية والتخصص بالنسبة  
للاقاليم الاقتصادية الاخرى من ناحية اخرى . ولا تقصد بالتخصص مجرد انتاج  
سلع معينة ، ولكن الانتاج باعلى كفاءة وانتاجية ممكنة ، بمقارنتها بمعدل الانتاجية  
لهذا القطاع فى اجزاء القطر الاخرى . ولا تختلف الاقاليم بعضها عن البعض الاخر  
فيما تنتجه ، ولكن كيف يتم هذا الانتاج ، ولاى مستهلك ، ولمصلحة من ، الخ .  
فلو ان اقليما ما سبق الاقاليم الاخرى فى درجة الانتاجية لسلعة ما فانه ، تحت  
ظروف تحكم السوق ، قد يصاب بازمة اقتصادية ، مما يؤدى الى هبوط فى الانتاج،  
واخيرا يفقد تخصصه التقليدى على مستوى الامة . وهذا هو السبب فى صعوبة  
تحديد اقليمين من اقاليم الدرة او ثلاثة لتكون مناطق منتجة للقطن فى دولة ما ،  
دون شرح الفروق الجوهرية بينها وبين صفاتها المميزة ، والا تحولت فكرة الاقليم  
الى مجرد مناطق توزيع للدرة او القطن ولا شئ غير ذلك .

فالاقليم اذن جزء متخصص من كل ، تهتم معظم القطاعات فيه بتلبية  
الاحتياجات المتبادلة بين الاقاليم وبين قطاع واحد او اكثر ، وتهتم باحتياجات الامة

داخليا وخارجيا ( والفضل في ذلك يرجع الى درجة الانتاجية للعامل التي وصل اليها الاقليم ) .

ولما كان الاقليم جزءا مكونا من كل فان الاقليم لا يمكن ان يقوم دون تفاعل جميع الاقاليم ، ويجب ان لا ينظر اليه كشيء منعزل مكتف بذاته .

ولا نحتاج ان نقول ان مقارنات مستويات انتاجية العمل اقليميا على مستوى الامة وبالتالي تكوين الاقاليم الاقتصادية المتخصصة لا تتم الا في ظل درجة كبيرة من تكامل اقتصاد جميع اجزاء الاقليم ، وبشرط ان يشارك السكان جميعهم او اغلبيتهم الكبرى في سوق وطني واحد وعلاقات سلمية نقدية نامية بشكل كاف .

ومن الممكن قياس توافر هذه الشروط ودرجة تكامل الدولة اقتصاديا بعدة مقاييس مختلفة ، مثل بيانات الاحصاءات التجارية ، والتميز الاقليمي في اجور العمال ، وطبيعة الهجرات بين الاقاليم ، ونمط شبكة السكك الحديدية ، ومدى استفادة الاقاليم والسكان والانتاج من هذه الشبكة ، الخ .

ويجب ان تؤكد ان الاقليم ليس جزءا من ارض الدولة ، ولكنه جزء من اقتصادها . وهذا هو السبب في اقتصار الاقاليم الاقتصادية في الاقطار التي تتقدم بعض اجزائها بقية ارض الدولة على تلك الاجزاء المتقدمة اقتصاديا وتترابط اجزاؤها بوسائل عديدة فحسب .

اما في الاقطار غير المتكاملة ، او الضعيفة التكامل ، فاننا لانستطيع ان نتحدث عن اقاليم محدودة . هي في احسن حالاتها اقاليم في دور التكوين ، كما انها لا تزال في دور التنمية من حيث البناء الداخلي والتخصص والعلاقة بينها وبين اجزاء الدولة الاخرى ، ويحدث غالبا ان تصل درجة عزلة بعض اجزاء الدولة عن بقية اجزائها الاخرى الى حد تصبح فيه اكثر ارتباطا بالخارج وبالسوق العالي منها بقلب الدولة الاقتصادي ، وتصبح مثل هذه الاجزاء احيانا جزءا هامشيا (بالنسبة لبقية الاقليم) ومصدرا للتمويل التوميضي .

ويتضمن وضع حدود الاقاليم الاقتصادية دراسة التوزيع الجغرافي للوحدات الاجتماعية الاقتصادية المعقدة ، اي دراسة الجغرافيا الاجتماعية . والتشابه الاجتماعي هو الذي يكمن وراء تكوين المناطق الاقتصادية ، لانه يؤدي الى تشابه مستوى انتاجية العمل ، والامل في رفع مستويات المعيشة والاستهلاك وبالتالي الامل في اقامة سوق اقليمية .

ان المربك الاقتصادي للاقليم سواء كان متقدما او متخلفا يعتمد على التركيب الاجتماعي الداخلي لبنائه . ففي كل اقليم تؤدي العلاقات الاجتماعية الاكثر تقدما الى اعلى انتاجية في العمل ( بالمقارنة مع المعدل الاقليمي العام ) في القطاعات المعينة من الاقتصاد التي تعتبر اساس التخصص الاقليمي .

وتعتبر طبيعة ملكية الارض وحياراتها افضل مؤشر في توزيع علاقات اجتماعية.

يمكن مقارنتها بعضها ببعض . وهذه المؤشرات أكثر التصاقا بالأقليم ، وتلقى الضوء على أسباب التخلف أو التنمية ، وهذا شيء هام عند وضع القرار .  
ولا بد أيضا من البحث عن مؤشرات أخرى تستخدم في الصناعة ( نوع المشروع ، معالم تركيز رأس المال المميزة ، نسبة الصناعات اليدوية للصناعات المصنعية ، رأس المال الوطنى والأجنبى ، وماشابه ذلك ) .

وتستخدم مؤشرات أخرى أيضا استخداما واسعا، مثل نتائج البناء الاجتماعى، أى نسبة الأمية فى السكان الريفيين ، ومستوى الكسب ، والدخل الفردى، والدخل الأسرى ، ونصيب الفرد من الدخل القومى ، وعدد الأطباء والمدرسين والزراعيين والمهندسين بالنسبة للسكان ، ومتوسط الأعمار ، الخ .

وتستخدم أيضا الطريقة الإقليمية فى التحليل الاقتصادى الإقليمى . وهذا منهج تجربى صرف لا علاقة له بمحاولات الوصول الى الأسباب والمسببات . وهو منهج يلجأ اليه فقط عندما تكف عن محاولة الوصول الى أفضل وأكمل اشتراطات اجتماعية للتنمية الإقليمية ، وتقع بمجرد تحسين الظروف التكنوقراطية داخل النظم الاجتماعية القائمة . وتتكون هذه الطريقة من ترتيب المراكز الحضرية ترتيبا تصاعديا وتحديد أقاليم كل مركز حضرى ونطاق نفوذه . ومنها أيضا دراسة معالم الهجرات الداخلية ومراكز الجذب الحضرى التى يتجه اليها المهاجرون من الريف ، وتدفق حركة البضائع ومراكز تجارة الجملة ومحيطها ، ومناطق الجذب للجامعات المختلفة ، الخ .

ولا بد من أن نلجأ الى جميع الوسائل فى وقت واحد لكى نرسم بدقة حدود الأقاليم الاجتماعية الاقتصادية . ومن المستحسن هنا أن نحاول الحصول على بيانات من أصغر الوحدات الإدارية ، ولا نلجأ الى الأقسام الإدارية الكبرى .

ولا بد أن نتذكر أن حدود الأقاليم الاجتماعية الاقتصادية ليست خطوطا محدودة قاطعة مثل الحدود السياسية ، ولكنها حدود متداخلة متشابكة بعضها ببعض الآخر .

أن نرسم حدود الأقاليم الاقتصادية هو خطوة ضرورية للدراسة التحليل الاقتصادية المقارن ، ويؤدى التحليل الاقتصادى عادة الى إنشاء جداول موازنة ثابتة ومتحركة عن الموارد البشرية وفوارزات بين القطاعات الاقتصادية المختلفة وبين الصناعات المختلفة فى النوع والقيمة ، وموازنة فى الاستثمارات ، الخ .

ولكن نحدد مدى كفاءة المركب الاقتصادى الإقليمى من وجهة نظر استخدام الفيل ورأس المال . يستخدم أيضا تحليل موازنة نمط الاستهلاك والإنتاج . ومهمة التحليل الجغرافى الاقتصادى هى تحديد كفاءة الاقتصاد من وجهة نظر استخدام الخام وموارد الطاقة والموارد المائية الخ ، بالنسبة للأسواق . والهدف النهائى السبى الجغرافية ومواردها ، وموطن مراكز الإنتاج بالنسبة للسند الثمالة والموارد



لئلا هذا التحليل هو إقامة العلاقات المتبادلة بين استخدام الموارد الطبيعية وتوطن مراكز الإنتاج تبعاً لنمط الاقتصاد الخاص بالأقليم من ناحية وإنتاجية العمل من ناحية أخرى .

وربما أصبح التحليل الإقليمي أساساً لتحديد اتجاهات الدولة الرئيسية في التدخل في عملية التنمية الاقتصادية الاجتماعية المحلية . وتصبح هذه الاتجاهات أكثر وضوحاً إذا استخدمت المادة التحليلية في التنبؤ بالتنمية الإقليمية . ومن أجل التنبؤ الجغرافي الاقتصادي لابد من استخدام طرق قياس اقتصادية تعتمد على الاستقرار وعلى وضع نماذج للبرمجة الموجهة ، ولا يمكن بطبيعة الحال الاعتماد على مثل هذه التنبؤات أن لم تؤخذ في الاعتبار التنبؤات المتعلقة بالسوق العالمي والتنمية الاقتصادية للقطر بأكمله .

إلا أن تحديد الاتجاهات لأجل قيادة الاقتصاد أحسن قيادة واكتافها لا يقدم لنا المقياس الصحيح لاتخاذ القرار الحاسم . وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة التي يتم فيها وضع الأهداف النهائية للتنمية لابد من أن نوضح ونقدر إمكانات الموارد المتاحة للقطر .

### تقويم الموارد والإمكانات

يقوم الاقتصاديون بأهم دور ، فعليهم أن يقدروا ويتنبأوا بالموارد ومدى إمكانات تحويل التنمية ، وهذا أمر هام في رسم الخطط المتوسطة المدى لأجل تدخل الدولة في الاقتصاد .

وستطيع الجغرافيا الاقتصادية أن تقوم بدور كبير في تحديد وسائل وحشد الإمكانات والموارد لاستمرار التدفق المالي ولتدعيم كفاءة الاقتصاد ككل .

وتسعى الأبحاث عادة على ثلاثة مبادئ :

١ - تقويم الاحتياطات لأجل تكييف الإنتاج عن طريق تغيير التركيب الاجتماعي الذي يحكم استخدام القوى الإنتاجية ( مثلاً تقدير اتجاهات وآثار الإصلاح الزراعي في المناطق المختلفة ، والتقويم المقارن لاستغلال بعض الموارد برؤوس أموال أجنبية ووطنية ، وأثر ذلك في الداخل والخارج ، واستخدام رأس المال الخاص أو العام ، الخ ) .

٢ - تقدير إمكانات الاقتصاد الأمثل بتوطين أفضل وتوزيع أحسن للقوى الإنتاجية داخل الأقليم أو خلاله ( أثر تقريب الإنتاج من موارد المواد الخام والأسواق ، وإزالة وسائل النقل غير الملائمة ، والتخصص والتعاون في الإنتاج ، وإزالة الفجوات الجغرافية بين إنتاج المواد الخام ومطبخها واستخدامها النهائي ، وخلق دوائر إنتاجية كاملة متداخلة ) .

٣ - تقويم إمكان استغلال موارد طبيعية جديدة ، ومقارنة الكفاءة الاقتصادية لوسائل استخدامها المختلفة .

وحشد الامكانات المذكورة في البندين الأولين أكثر فائدة ، لأن نسبة حاجتها الى رأس المال اقل من نسبة النتائج التي تعطيها ، ولأنها تؤدي الى عائد أسرع ، وتقدم حافزا ديناميا نحو تنمية المجتمع بأكمله ، لا نحو اقليم واحد، إلا أنها تتضمن سياسة ثابتة لادخال تغيرات أساسية متفلبة على مقاومة القوى الاجتماعية والاقتصادية المحافظة والتقليدية .

أما موضوع البند الثالث فإن كل الحكومات مستعدة عمليا أن تقوم به . إلا أن فتح مجالات للموارد الطبيعية الجديدة أمر محفوف بالأخطار والنتائج السلبية ، وهذا قد يؤدي - تحت اغراء رأس المال الخاص ولا سيما الأجنبي - الى تخصص في انتاج المواد الخام ، -والى زيادة الاعتماد على السوق العالمى ، -والى ضعف الاقتصاد القومى ضعفا شديدا . وعلى العكس من ذلك قد يكون استخدام الموارد الطبيعية استخداما شاملا على مقياس كبير ، مع مراعاة النقط المشار اليها في البندين الأولين ، آثار ايجابية جدا . وهذا هو السبب في ضرورة معالجة هذه الموضوعات بعروية وبعد نظر ، وتنظيم الدراسة الشاملة تنظيما علميا ، وتقويم الموارد الطبيعية في الأقطار الضعيفة النمو ، وذات الخطر الضئيل في هذه الموارد ، وذلك بسبب نقص العاملين . واليك الخطوات الأساسية والمشاكل الرئيسية المرتبطة بدراسة الموارد الطبيعية واستخدامها .

#### متطلبات تقدير الموارد

المهم أن تحدد أولويات في البحث عن الموارد الطبيعية ذات الطابع المعين ، ومن الضروري أن تحدد المقاييس التكنولوجية والاقتصادية والمعايير التي يجب أن تقاس بها هذه الموارد ، وتحديد الأقاليم التي هي في حاجة الى موارد معينة .

ويجب أن لا تحدد المتطلبات على أساس العرض والطلب في الوقت الحاضر ، بل يجب أن نضع في ذهننا تنبؤات عن الانتاج العالمى والسوق المالية ، وأن نقدر أيضا اتجاهات التكنولوجيا الحديثة في طرق استخدام الموارد وامكان ايجاد بدائل لها .

وعند تحديد الأولويات في دراسة الموارد من الضروري أن نذكر ما يشوب الدراسات الجغرافية في الأقطار النامية من نقص شديد وعدم تجانس وقصور في معرفة البيئة الجغرافية أو عدم التكامل فيها ، اذ لا يعرف معرفة حقيقية نسبيا الا الموارد التي تهم رأس المال الأجنبي ، مثل زيت البترول، وخامات المعادن ، الخ. أما الموارد غير القابلة للتصدير ، والقابلة للتجديد ( مثل التربة والماء والمناخ والنبات ، الخ ) ، التي كثيرا ما تقل أهميتها ، فهي غير مدروسة دراسة جيدة .

#### التقديرات العامة للموارد الطبيعية

يجب أن تشمل هذه التقديرات القطر كله ، وأن تهدف الى تحديد أولويات اقليمية لدراسات تفصيلية تالية . ولابد أن تكون هذه التقديرات عامة بشكل كبير ،

ويمكن أن تكون جهودا مشتركة من الجغرافيين الاقتصاديين والجغرافيين الطبيعيين من اصحاب النظرات الشاملة .

### الكشف عن الموارد الأساسية

تتم هذه في الجهات الأولية الخاصة . ورغم ان البحث يجب ان يتم في كل منطقة على حدة على مورد معين من الموارد الطبيعية فمن المهم بصفة خاصة ومن المجدي اقتصاديا ان يتم البحث والكشف عن جميع الموارد الطبيعية المحلية . وهذا يسهل عملية استخدام أدوات البحث استخداما شاملا ( فمن الممكن مثلا عند رسم صور جوية أن تعمل مساحة جوية مغناطيسية وقياس لدرجة الجاذبية ، الى جانب اكتشاف الموارد الكامنة المبشرة بأنها ستكون من الطراز الأول والموارد الثانوية ، واكتشاف خصائص الجمع بينها ، وأنواع الموارد « المساعدة » الأخرى الناقصة والضرورية لاستغلال الموارد الرئيسية .

### التوزيع الاقليمي للموارد وحصصها

تتم هذه عادة طبقا لمعلومات الكشف الأساسية . وهي تبدأ من المنطقة المختارة وتوسع حتى تشمل القطر كله . وتوزيع الموارد توزيعا اقليميا امر بالغ الأهمية . وهو يهدف الى معرفة الموارد الرئيسية لاقليم ما ، ورسم حدود توزيعها ، ومراكز جاذبية كل منها . الى جانب قران الموارد الرئيسية بالموارد المساعدة الاضافية . ولا يمكن حل مشاكل التخطيط الاقليمي دون أن تكون لدينا فكرة واضحة عن التوزيع الاقليمي للموارد . وعندما نحتاج لاستخدام مورد ما استخداما متكاملًا مع غيره لا بد من تعديل حدود الاقليم الاقتصادي ليلائم أغراض التخطيط ، وفي حالات أخرى يستخدم مورد الماء استخداما جزئيا في عدة أقاليم (النهر مثلا) ، وهنا لا بد من معرفة أثر استخدامه في منطقة ما على امكانات استخدامه في مناطق أخرى . وهذا التوزيع الاقليمي للموارد يجب أن يقدم المشورة حول افضل استخدام للموارد من وجهة نظر الطبيعة ، وللمورد الطبيعي في حالته السائدة ، حتى نتحاشى الآثار السلبية في مثل هذه العمليات .

وحصر الموارد يجب أن يمد المخططين ببيانات كرتوجرافية وكمية وكيفية ، لأنواع الموارد ، ولاقليم الموارد ، والاقاليم الاقتصادية والإدارية .

### الكشف شبه التفصيلي للموارد لأجل التخطيط الاقتصادي

يتم هذا بالنسبة لاقاليم مختارة . ويهدف الى اعطاء تقدير اقتصادي لطاقة الموارد الطبيعية ، وهذا قد يحدد تكاليف استغلاله . ويجب أيضا تقدير العوامل التي لا ترتبط مباشرة بالموارد ( مثل توافر اليد العاملة ) ووجود العوامل الاقتصادية المساعدة وقيمتها ، والبعد عن المستهلكين ، وامكان الحصول على موارد مساعدة ،

وتكاليف ذلك ، الخ ) . ويجب تقدير تكاليف حلول المشاكل التكنولوجية والمكانية الإضافية .

ومجرد سرد الخطوات المبدئية والأسئلة الرئيسية التى يجب أن يشملها البحث عن الموارد يبين تعقد مشاكلها وتعدد جوانبها وضرورة أن يعالجها أشخاص مدربون أخصائيون يتكونون من المتخصصين العامين والخبراء فى نواح معينة . ولا نحتاج الى أن نقول أن مثل هذا العمل لا يمكن القيام به الا من مركز واحد ، ولا يمكن أن يؤتى ثماره الا بتعاون اقسام علمية وعملية تصاونا منظما متناسقا . مثل هذه المعالجة فقط يمكن أن تتحاشى النظرة الضيقة أو غير الموضوعية التى تميل الى المغالاة فى تقدير بعض العوامل والتقليل من شأن عوامل أخرى ، وهى التى يمكن أن تمد المخطط بمادة ذات قيمة عالية غير متحيزة يمكن استخدامها .

### الجغرافية الاقتصادية ومشاكل تخطيط التنمية

يجب أن تساهم العلوم الجغرافية فى حل مشاكل التنمية ، والمتناقضات العديدة التى تواجه العلماء فيما يتعلق بتقويم مسائل التنمية وتوطين الصوامل الانتاجية وبصفة خاصة استخدام الموارد الطبيعية . ولابد من أن يعطى الاهتمام الكافى فى جميع المراحل لمسائل تقويم المتناقضات وتحديدها ، مثل ما هو موجود بين : ( أ ) وجهة النظر الحكومية ووجهة نظر القطاع الخاص ، ( ب ) المعالجة الجزئية والمعالجة الكلية ، ( ج ) وجهة النظر الاقليمية والمحلية والوطنية ، ( د ) استخراج أكبر قدر ممكن من النتائج الاقتصادية من استغلال الموارد الطبيعية وعواقب ذلك الاستغلال فى المستقبل .

وتحدد أهداف التخطيط الجغرافية الاقتصادية بالقران الفريد بين العوامل الجغرافية الثابتة ( مساحة القطر وعدد سكانه ، طبيعة البيئة الجغرافية ومواردها، التوزيع الجغرافى للسكان ، الخ ) والبنيان الاجتماعى الاقتصادى الداخلى وأثره الخارجى . ومن الواضح أن قران هذه العوامل يحدد أيضا التنمية التلقائية .

نتيجة لذلك فان استراتيجية التنمية الطويلة الأجل ينبغى أن تحدد أى العوامل يجب أن تستغل ، والى أى مدى ، وبأية وسائل ، حتى يمكن الحصول على أفضل النتائج الممكنة .

ويهدف التخطيط الاقليمى على المستويين الوطنى والاقليمى الى : ( أ ) ترابط جميع أجزاء القطر والتغلب على مشاكل النقل والعزلة الاقتصادية والحضرية التى تعانيها أجزاؤه ، ( ب ) تسوية الظروف الاجتماعية والاقتصادية للحياة فى جميع أنحاء القطر بقدر الامكان ، ( ج ) التخلص من عوامل عدم التوازن الجغرافى وأشكال السبلوذ فى التنمية وتوطين الانتاج فى الوحدات الانتاجية ، ( د ) استخدام اليد العاملة والموارد الطبيعية فى جميع أنحاء القطر أفضل استخدام ، ( هـ ) تشجيع التخصص الاقليمى والوصول بجميع أوجه التكامل الاقتصادى الى أقصى مرحلة من

التكامل والترابط ، (و) تحسين توزيع القوى الانتاجية توزيعا مكانيا لمنافسة آثار الروابط الاقتصادية الخارجية .

وقد اظهرت التجربة أن توزيع أدنى حد من الخدمات الاجتماعية بين الاقاليم (مثل مرحلة التعليم الازامى) يجب أن يكون من بين المتطلبات الاولى لحالة المعيشة بينها ، ومن ثم لا ينفق شيء من الاستثمار على تسوية الأحوال الاجتماعية فيما بينها . وأهم من ذلك انشاء مراكز للتنمية ليشتجع نمو الاقليم ويحدث ثورة في القوى الانتاجية به . وهذا هو السبب في أن تسوية القطاعات الأساسية للقوى الانتاجية وتوزيع الخدمات الرئيسية توزيعا عادلا تعتبر من صلب الخطة . ولا بد أن تراعى كل الخطط الوطنية هذه المسألة ، ولا بد أن ينبع التخطيط الاقليمى من اهداف وميزانيات الخطة الوطنية العامة ، كما لا بد أن ترسم في ضوء الاعتبارات الآتية :

— خلق مركب صناعات اقليمى مرتبط بالصناعات الوطنية الأساسية مستخدمة الى أقصى حد ممكن منتجاتها الجانبية وامكاناتها الهامشية .

— استخدام الموارد الطبيعية المحلية أفضل استخدام لتغذية القطاعات الجانبية ، وتنمية الصناعات المحلية التى لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالصناعات الرئيسية .

— المحافظة على الموارد القابلة للتجديد .

— منع تلوث الماء أو الجو أو المنظر الطبيعى .

— المحافظة على المنظر الطبيعى ، وتنظيم الاحتياطات ، وانشاء مناطق للترفيه والسياحة .

فالمعالجة الجغرافية لمشاكل التنمية تجعلها أكثر واقعية بصفة عامة . وهى تعطى خطط التنمية نظرة أوسع ، بشريا وعنصرى واجتماعيا واقتصاديا ، كما انها تحيط بالمعالم الطبيعية للاقليم وتمنحنا القدرة على حل كثير من مشاكل البيئة فى كل اقليم ، وبذلك نستطيع تحسين القطر كله عاملين على تحقيق كفاءة الاقتصاد كله ورفع مستوى المعيشة \*

# علم الاجتماع

بدأ الاهتمام بمشكلات التنمية مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويمكن تبرير هذا الاهتمام إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى جوانب ثلاثة عميقة في تأثيرها ، وأول هذه الجوانب يتمثل في التمرد العام على الأوضاع الناتجة عن التبعية الاستعمارية ، والدعوة لمناقشة التبعية والضعف الاقتصادي ، ومواجهة التغيرات الراديكالية التي اثرت في كل المجتمعات . ويتعلق الاعتبار الثاني بالاتجاهات الجديدة التي فرضت نفسها على العلوم الاجتماعية ، وأخيرا اصطلاح التنمية الذي استوجب فروعا جديدة للدراسة ، في مجالات الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة ، ويشير تعبير التنمية الى نوع عرض واسع من الأفكار وأيضا أنماط المجتمعات ، فتعبير أو اصطلاح العالم الثالث (١) الذي تشكل وفقا لوجود مقدرة أو قوة نائلة يركز على الأهمية السياسية لغايات وأنشطة هذا العالم ، وأما اصطلاحا «الدولة النامية» و «الدولة التي تمر بعملية التنمية» فهما اصطلاحان محايدان ، او يعتبران طريقة تشاؤمية للتعبير عن المواقف التي فرضتها العقبات التي تحدث اثناء عملية التنمية .

(١) بعد أن نشرت مؤلفا بهذا العنوان في سنة ١٩٥٦ كنت مستغلا عنه أصبح هذا التعبير واسع الانتشار والاستعمال ، وتبنته المجتمعات الناطقة بالانجليزية ، انظر على سبيل المثال :  
Le Tiers. Mond., Sous developpement et Developpement 1st ed., Paris. Presses universitaires de France, 1956.

## بسم : جورج بالانديه

أستاذ في السوربون ومدير مدرسة الدراسات العليا التطبيقية  
بجامعة باريس ، عمل أستاذا زائرا بجامعة ديوك . ومن  
مؤلفاته « علم الاجتماع للواقع الاجتماعي للقارة الإفريقية  
السوداء » الطبعة الثالثة ، عام ١٩٧١ ، والطبعة الأخيرة من  
كتابه « إفريقيا في الميزان » عام ١٩٦٩ ، والطبعة الثانية  
من مؤلفه « علم الأنثروبولوجيا السياسية » عام ١٩٦٩ .  
وكتابه عن « الديناميات الاجتماعية » عام ١٩٧١ .

## ترجمة : الدكتور أحمد الخشاب

أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة .

### التنمية وعلم الاجتماع

قدم لنا البحث في التنمية في فترة وجيزة جدا تراثا علميا وافرا وكبيرا ،  
فئة قائمة بيلوجرافية غير منشورة أعدت خلال عام ١٩٥٠ ، وتحتوى أكثر من  
عشرة آلاف عنوان منشور ترتبط كلها مباشرة بالانساق الاقتصادية ومجتمعات  
العالم الثالث . وهناك أيضا عمل حديث قدمه ج . فريست حول فكرة التنمية ،  
أشار فيه الى أكثر من خمسمئة دراسة ضرورية في تعريف التنمية ، كما انه يمكن  
عد التقارير المتخصصة في هذا الصدد بالآلاف .

وفيما يتعلق بالاعلام حول هذا الموضوع يبدو أنه وافر وكثير ، ويبدو أيضا  
انه يعتمد اعتمادا كبيرا على دراسات أولية وتقوييمات للمشروعات المكتملة حول  
التنمية أو التي في طريقها للاكتمال . وكل هذا في واقع الأمر يوجد القدرة على تقدير  
الصعاب والعقبات التي تتعلق بالتنمية .

ويمكن أن تعزى هذه العقبات بصفة مبدئية الى طبيعة الظروف التي أشير  
اليها في بداية تقرير بيرسون ، ومنها : الهوة الواسعة بين الدول النامية والدول  
المتقدمة ، هذا بجانب ملاحظة السكرتير العام للأمم المتحدة في سنة ١٩٦٨ وهي أن  
متوسط معدل النمو السنوي للفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ أصبح ٤.٥٪ في حوالى  
٥٤ دولة تمثل ٨٧٪ من سكان العالم الثالث ، وكان الحد الأدنى الموضوعى ثابتا

لدى نسبة ٥٪ (٢) . ولقد نظر بعض علماء السياسة والاجتماع الى هذا التفاوت بطريقة درامية ، ومن ثم اهتموا بدخول المجتمعات التى يمكن تسميتها متقدمة عصر ما بعد الصناعة أو عصر التكنيترونك ، فى اللحظة التى لازال فيها الدولة الآخذة فى التنمية تقترب أو توشك أن تقترب من العصر الصناعى . وقادر برينزينسكى مناطق الفقر التى سماها عالم الاقليات ايربان جيتوز بالاقليات الحضرية ، وضمن مقارنته : انه من الصعوبة بمكان أن نتنبأ بما سوف يكون عليه التطور الاقتصادى والسياسى للدول النامية . ولكن التوقع العام لا يدعو الى التفاؤل (١) . وأما عن الاعتراضات التى تتعلق بالمستقبل فقلما يتم تأكيدها ، ففى سنة ١٩٦٥ كان ناتج الدخل فى الدول المتقدمة أكثر من اثنى عشر مثلاً لدخل الدول النامية ، كما أن التقدير المتوقع يشير الى انه فى حوالى سنة ٢٠٠٠ سوف يكون الفرق بين النوعين من الدول ثمانى عشرة مثلاً (٢) .

وبهذا يكون السياق العام فى الوقت نفسه تطبيقياً (بالإضافة الى كونه سياسياً وعلمياً فى طابعه) . وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة الخاصة بالطابع العلمى فإن عدم النيقن قائم بالرغم من البحوث والدراسات التى تم انجازها خلال الخمسة عشر عاماً الماضية ، وخاصة ما أنجز منها فى نطاق العلوم الاجتماعية . وتمثل الدول التى تمر بعملية التنمية وتلك التى اخذت بالأساليب الحديثة أغلبية عظمى من المجتمعات وعدداً كبيراً من السكان . ولذلك فهى فى حاجة الى إقامة نوع جديد من المعرفة التى ترتبط بتنوعها وموقفها الذى يمكن أن نسميه موقفاً «انتقالياً» ، وترتبط أيضاً بمشكلاتها المباشرة . غير أن هناك صعوبة أخرى تآتى من أن العلوم الاجتماعية قامت على أساس من الخبرة المحدودة - التى تتحدد بالمجتمعات التى عرفت بأنها مجتمعات غربية - وارتبطت بنموذج خاص من المجتمعات كالمجتمع الصناعى الذى يعد أصيلاً فى أوروبا . ونتيجة لهذه الظروف برهنت المفهومات والنظريات وطرق البحث وأساليبه الفنية على أنها غير ملائمة للتطبيق فى مثل حالة مجتمعات العالم الثالث .

ونتيجة لهذا فإن علم اجتماع التنمية بالرغم من أنه نسق علمى جديد أصبح موضوعاً للشد الشديد . فإن أ. ج. فرانك ، على سبيل المثال ، يعيب على هذا العلم أنه أصبح أكثر اقتراباً للتخلف مما هو دون التنمية ، شأنه فى ذلك شأن المجتمعات التى يعنى بالتطبيق فيها . واتهم هذا العلم لأنه أصبح أقل ملائمة لهذه

(١) الأمم المتحدة « نحو استراتيجية عالية للتنمية » تقرير قدمه السكرتير العام لؤتمر التجارة والتنمية ، نيويورك ١٩٦٨ .

Z. Brzezinski, «Between Two Ages», 1970 (٢)

H. Kahn and A. Wiener, The year 2000, 1967. (٣)



المجتمعات لمبررات امبريقية ونظرية وسياسية (١) . ان هذا النقد نقد قاس ، غير انه ليس نقدا بغير اساس . فقد قام به متخصصون ينتمون الى دول العالم الثالث الذين يهتمون بالاختلافات بين الموضوعات ( الخاصة بالمجتمعات الغربية والمجتمعات غير الغربية ) وعدم ملائمة المناهج أو المداخل العلمية ، فقد حاول ١ . عبد الملك أن يحدد مستقبل النظرية الاجتماعية ، بل نقد هذه النظرية بناء على موقفها الراهن ، وذلك على اساس أن عمومية النموذج التصوري الميكانيكي للعلوم الاجتماعية تدعو الى التساؤل والمراجعة ، كما ان النتيجة التي تتلقتان بعدم ملائمة هذا النموذج والاختلافات بين المجتمعات يجب أن تعرف كحقيقة قائمة ، أو تعد واضح على جزء من العالم الواقعي (٢) . ولواجهة هذه الصعوبة جزئيا أو مرحليا حاول بعض المؤلفين أن يميزوا بين الانثروبولوجيا التطبيقية وعلم اجتماع التنمية . فباستيد يقارن كلا منهما بالآخر ، على اعتبار انهما نوعان من المنطق متعارضان في طابعهما . وفي هذه الواجهة من النظر تميل الاولى الى تأكيد اهمية العوامل الثقافية والنظرة العامة ، التي يجب أن تتغير أولا ، حتى يترتب عليها تغيرات في الأبنية الاجتماعية ، واما الثاني ( علم اجتماع التنمية ) فيركز من جانب آخر على التغيرات الاقتصادية التي تفضي الى تغيرات في البناء الاجتماعي . ومن خلال هذه التغيرات الاقتصادية تحدث تغيرات في النظرة العامة . فواحد منهما يعني بما هو جوهري كينفي والاخر كمي ولكنه يرتبط بالتصور النوعي للتنمية .

وقد ذهب ر . باستيد الى ابعاد من مجرد المقارنة بين النسقين العلميين ، باقتراحه قائمة بالمهام التي تعد مهمة لعلم اجتماع التنمية ، والتي تتمثل في : ( أ ) تحديد معيار للمجتمع الذي يكون في حالة دون التنمية ، والذي قد يكون معيارا اقتصاديا أو ديموجرافيا أو مرتبطا بطابع اجتماعي . ( ب ) تعيين المواقف الداخلية والبنائية للتنمية الاقتصادية . ( ج ) تحديد معيار التنمية الاجتماعية ، أو بمقاربة اخرى تأثيرات التغيرات الاقتصادية على الأبنية الاجتماعية . ( د ) الاعلام المنسق حول الهيئات الاجتماعية (الفردية والجماعية) ، وبالنظر الى احتياجاتها وتطلعاتها وتصوراتها للمستقبل وقدرتها على العمل من خلال اطار المجتمع ككل . ( هـ ) صوغ استراتيجية التنمية . ( و ) دراسة المشكلات المتضمنة في التخطيط للتنمية وملاحظتها . ( ز ) تحديد المدى الذي ترتبط وفقا له التنمية بالعلاقات الدولية ، وبذلك يعطى البرنامج مجالا واسما ، كما ان متضمناته ومشتملاته التطبيقية واضحة (٣) .

A. G. Frank, «Sociology of Development and Underdevelopment of Sociology». (١)  
Catalyst (Univ. Buffalo vol. 3-1967, p. 20-73

A. Abdel Malek, L'Avenir de la Théorie Sociale, Cahiers Internationaux de Sociologie, vol. L. P., 23-40. (٢)

R. Bastide, Anthropologie Appliquée, Paris, Payot, 1971. (٣)

ومما يمكننا من القيام بسلسلة من الملاحظات النهائية المتقدمة أن نهتم ، قبل اهتمامنا بفعل محدد حول الجزء الخاص بعلم اجتماع التنمية ، بأن نحدد بدقة الظروف والمتطلبات التي تحدد الفاعلية العلمية لهذا العلم . فهناك أربعة من هذه الظروف والمتطلبات . وإى دراسة تظطلع بمجتمعات العالم الثالث تهتم بما يأتى :

أ - بحث الخصائص البنائية التى تميز هذه المجموعة من المجتمعات ، والتى بالنسبة لها تبنى الانثروبولوجيون والسوسيولوجيون اصطلاح «المجتمع التقليدى» نتيجة لتأثرهم « بماكس فير » الذى لم يقدم تعريفا دقيقا لهذا الاصطلاح (١) .

ب - تعيين الديناميات والقوى ، التى تحدث داخل هذه الأبنية ، وتكون قادرة أساسا على أحداث التغييرات فيها .

ج - توضيح وتعيين العمليات المستمرة التى تعمل على التغيير فى الأنماط الاجتماعية والثقافية .

د - وأخيرا تحديد العلاقات الخارجية التى تؤثر فى النمو التدريجى للمجتمعات التى تمر بعملية التنمية والتحديث ، وخاصة علاقات التبعية (التي تتضمن التبعية التكنولوجية) التى يعزى إليها أن هذه المجتمعات غير قادرة تماما على التحكم فى مستقبلها المباشر . وفى الحقيقة يبدو علم اجتماع التنمية علم اجتماع يمر بعملية التكوين والتشكيل ، فهو غير قادر بعبارة أخرى على النظر الى عدد من المجتمعات المتنوعة وغير قادر أيضا على الالتزام بدراسة هذه المجتمعات بصفة أساسية من وجهة نظر تغيراتها البنائية ، فهذه المجتمعات تواجهنا بأنماط لم نزل فى مرحلة التشكيل والبلورة ، ومن ثم فبواسطة هذه المجتمعات تتشكل دواع من أنواع مختلفة ، تجعل من غير الممكن أن نتهرب من الالتزام ببناء علم اجتماع جديد وعلم اجتماع يكون فى وقت واحد ديناميا وفعالا ومثمرا .

## الداخل

يشتمل غرض المدخل الأول بصفة أساسية فى توضيح وتعيين وتحديد معيار خاص بمجتمعات العالم الثالث ، وتحديد المؤشرات التى تجعل من الممكن قياس الحالات التى دون التنمية . وتحدد هذه الحالات فى المقام الأول بعلاماتها الظاهرة المميزة الديموجرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى يضاف إليها غالبا العلامات التى ترتبط بطريقة عامة بأنما الأبنية الاجتماعية وأنماط السلوك . وهذه

The work by E. Hagen, Centred on the definition of a state of Society (and type (١) of outlook and personality) Known as traditional, provides implicit evidence of this inadequacy. C.I.E.E. Hagen on the theory of Social Change, London, Tavistack, publications. 1964.

المقادير ترتبط بوضع معيار علمي ، غير انه يبدو أن طريقة تركيب المعيار غير ملائمة  
دقيقة ومشكوك في صدقها ، ويتحدد هذا المقياس بإضافة معايير متباينة ، مثل  
البيانات الإحصائية (كمعدلات نمو السكان ، والدخل ، الخ) والخصائص البنائية  
(البناءات التفصيلية الفرعية والازدواج البنائي الخ) والمظاهر التي تعتبر عامة مشتركة  
والتي تعتبر خاصة . والنتيجة لهذا المدخل تصور استاتيكي لحد ما - لأنه يشير  
إلى حالة خاصة من مجتمعات العالم الثالث - في الوقت الذي تتطلب فيه التنمية  
دراسة دينامية ومعرفة بالعمليات التي يمكن أن يدعم بها الانتقال من تكوين اجتماعي  
إلى آخر . ويجعل اعتبار المركب من السهل توضيح حالات دون التنمية ، كما أنه  
يساعد على وصف مظاهرها وأغراضها أكثر من توضيحها ، ويمكن أن يسهم هذا  
النهج في معرفة أشكال حالات دون التنمية ، غير أنه لا يقدم سوى اعلام قليل إذا نظر  
إلى ميكانيزمه . وعلى هذا يكون من الصواب القول بأن وضع مقياس علمي ليس أكثر  
من اهتمام بالأبعاد المورفولوجية ، في الوقت الذي تتطلب فيه دراسة الدول النامية  
أكثر من أي دراسة أخرى توضح الأبعاد الفسيولوجية .

وأما المدخل الثاني فيرتبط بالتخطيط القائم على الفروق والاختلافات .  
فلتسهيل ضبط التفسير السوسولوجي حاول عدد من المؤلفين اختزال تنوع  
المجتمعات الأخذة بالتنمية إلى نموذج أو نمط واحد ، كنموذج للمجتمع التقليدي ،  
أو مجتمع ما قبل التنمية . ولقد تم بناء هذا النموذج على أساس الاختلافات أو  
الفروق لينظر نموذج المجتمع الحديث الذي يشير إلى المجتمعات الصناعية  
والتكنولوجية المتقدمة ككل ، وقد ظهر بذلك أن المجتمع التقليدي تصور عكسي  
للمجتمع الحديث . وعادة يتم التعبير عن هذه الرؤية من خلال ثلاثة مستويات ،  
المسوى الثقافي (العالم/والخاص) ، والمسوى النفسي الاجتماعي (الانتقال/عدم  
الانتقال والفاعلية) ، والمسوى الاجتماعي الاقتصادي (التوزيع الوظيفي العام/  
والتخصص الوظيفي) . ولقد ظل التضاد تصوريا ، بالإضافة إلى أنه أصبح محرفا  
وقليل الصدق .

ولقد بذلت محاولات أخيرة للوصول إلى تصور مبسط حول المجتمع التقليدي،  
وينطبق هذا على العمل الذي وضع به أ. هاجن نظريته حول التغير الاجتماعي التي  
دعمها بدراسات الحالة . فبينما لاحظ أن هذه المجتمعات محكومة بالاتجاه  
التقليدي من جانب فإنه يرى أنها متباينة من جانب آخر ، لأن هناك عدة مظاهر في  
كل مجتمع تتميز بالاتجاه التقليدي . ومع ذلك فإن هاجن جد في وضع تعريف  
للمجتمع التقليدي . لقد لاحظ خمس خصائص أساسية أو ذات ملامح محددة :  
(أ) طرق السلوك التي تستمر بتغير قليل وتنتقل من جيل إلى جيل . (ب) السلوك  
الذي يكون محكوما بالعرف لا بالقانون . (ج) النسق الاجتماعي الذي يؤثر بالتدرج  
الثابت في العلاقات الاجتماعية الأساسية . (د) يكون وضع الفرد في المجتمع عادة  
موروثا أكثر منه مكتسبا . (هـ) انخفاض الانتاجية الاقتصادية .

وبعد حصر هذه النقاط اوضح هاجن ان نظام المجتمع التقليدى لا يمكن فله الا عن طريق نقل القوى التى تحدث اضطرابا قويا ، والتى تتعادل مع معرفة ان التغيرات التى تعمل في اتجاه التحديث والتمدين هى تغيرات ثورية في طابعها . ووجد قدر من مقاومة التغير في الارتباط بالمعوقات الاساسية (التي تتضمن سيطرة البيئة وما وراء الطبيعة) ، وبالابنية الاجتماعية من النوع الجماعى التسلسلى ، وبناء الشخصية الذى يكون في ذاته بناء تسلطيا معتمدا في طابعه . فهناك تناظر وتماثل في العلاقة بين هذه النظم البنائية الثلاثة التى تساعد على الحفاظ على علاقة السيطرة والامتثال ، فهى تترايط معا لمقاومة قوى الحفاظ والتغير . وهذا التصور ملموس للمجتمع التقليدى بين بعض الجوانب التى تكون مميزة للمجتمعات في حالة ما قبل التنمية ، غير انها تظل خصائص تصويرية (١) .

واما المدخل الثالث فهو الذى يهتم بعرض المشكلات المتصلة في التنمية من خلال اصطلاحات العمليات او المراحل المتتابعة في سلسلة تطويرية واحدة (او عدة سلاسل وحلقات) . وهذا المدخل هو ما يسمى بالتطويرية الحديثة ، ولعل من المحاولات المعروفة في هذا الصدد تلك التى قام بها و.و. روستو ، وهى وان كانت تقوم على التفسير العام من خلال لغة الاقتصاد تتضمن بصفة خاصة بيانات سوسيولوجية (٢) . وتميز محاولة روستو بين خمس مراحل يمر بها كل مجتمع بنظام لا مفر منه : المرحلة الاولى التى تتطابق مع حالة المجتمع التقليدى ، حيث يمكن التعبير عن النمو فيها بمسافة تبدأ من حالة صفرية ، واما المرحلة الاخيرة فهى التى تتميز باستهلاك جماهيرى عال . واما المراحل الثلاث الاولى في تتابعها التاريخي فهى : مرحلة التقليد ومرحلة الانتقال ، ومرحلة قلع القديم *Take-off* او الانطلاق . ويترتب على ذلك ان يصبح النسق الاجتماعى ديناميكيا ميكانيكيا يتجه نحو مراحل النضج والاستهلاك المرتفع . ويتسمك روستو بنوع من التطورية يسير في خط واحد ، ويحكم على المجتمعات النامية بتكرار العمليات والمسارات التى دعمت تقدم مجتمعات متقدمة معينة في هذه الأيام . هذا بالإضافة الى ان نظرية روستو لم تتبين امكان ظهور مجتمعات واتساق اقتصادية لم تعرف حتى الآن . وعلى نقىض من نظرية روستو هناك بعض البحوث السوسيولوجية الأكثر تحديدا ، وقد اهتمت بتوضيح الاختلافات والفروق بين المجتمعات ، ومنها على سبيل المثال ملاحظة س.ن. اسيزناتس التى مؤداها ان عملية التحديث من المحتمل أن تضعف ويصيبها الوهن ، فقد توى هذه العملية الى ابنية متنوعة ، وقد تحدث وفقا لخطوط أو مراحل مختلفة وفقا لحقب التاريخ (٣) ، ففي حالة تلك المجتمعات تمر الآن بعملية التنمية والتحديث قد يحدث التغير بطريقة مغايرة لتلك التى افضت لنمو الجيل الاول من الدول الصناعية .

(١) R.B. Hagen, *Op. Cit.*, (١)

(٢) W.W. Raslow, *Stages of Economic Growth*, Cambridge University, Press 1960.

(٣) S.N. Eisenstadt, *Modernization: Protest and Changes* Englewood cliffs, N.J., (٢) Prentice-Hall, 1967.

فالتحضر السريع ، والتطلعات الجديدة ، والاحتياجات ، والنظام السياسى والإدارى الحديث ، والالتزامات الدولية ، كل تلك العوامل مجتمعة تفرض ضرورتها ، ووضع آثارها أمام الأبنية الاقتصادية والثقافية للدولة النامية حتى تكون ابنية متماسكة ، كما إنها أمام اتجاهها الدينامى يمكن أن تقوم بدورها أوتوماتيكيا ، أو بفعل تسخير ذاتى ، وعلى هذا يكون الناتج تحديثا غير كامل فى نشأته وانتشاره ، ويظل مشتمتا ، ويكون محكوما عليه بالضعف والوهن . ويبدو أن المقارنة بين أشكال التنمية وفقا للمرحلة التى تحدث من خلالها التنمية مشعرة ومفيدة ، لأنها تفتح آفاقا جديدة وتقدم فرصا أمام علم اجتماع التنمية .

ولقد شهدت السنوات القليلة الأخيرة نشر دراسات متتابعة حول التحديث ، مما أدى فى أنساق نظرية مختلفة الى زيادة التحليلات الدبنامية والمقارنة ، فقلل من قيمة أو كفاءة الاتجاه الوظيفى أو التحليل البنائى الوظيفى . فالتحليل البنائى الوظيفى كما لاحظ س. بلاك يتضمن تحيزا أصيلا فى اتجاه التوازن ، وتحليل المجتمع فى ضوء التوازن سوف يؤدى بالضرورة الى نتائج محدودة ، لأن المجتمعات ليست فى حالة من التوازن ، بل هى دائما تمر بعملية التغير ، الذى بعد سمة مميزة للعصر الحديث الذى يعتبر التغير فيه أكثر سرعة واستمرارا منه فى أى فترة أخرى من فترات التاريخ (١) ، وفى الوقت الذى تم فيه صوغ هذه الملاحظة أعاد ماريون ج . ليفى تنظيم نظريته «التراث البارسونى» مستعينا بأساليب المقارنة بين المجتمعات النسبية التحديث والمجتمعات التى لم يتم تحديثها (٢) . وكان الموضوع الرئيسى والمحورى للدراسة بطبيعة الحال هو مقارنة المشكلات التى تواجهها مشكلات التحديث بتلك التى يواجهها الثبات .

وأدت البحوث التى أنجزت فى فترات تاريخ الأثروبولوجيا غير الملتزمة (الامبريقية) الى الاهتمام بالجدل بين التقليد والتحديث . وينعكس هذا على دراسات حديثة لمؤلفين مختلفين مثل : د. أبتر ، و : ج. جيرتز ، و : و. ويرتيم . وفى دراسة حول التنمية السياسية فى الهند لفت رودلف الاهتمام الى الحاجة لتحطيم الثنائية بين التقليد والحداثة ، فلو أن التقليد والحداثة - كما تشير الحال - اعتبرا متصلا واحدا ، لا امرين منفصلين انفصالا تاما وعلاقتهما جدلية لا ثنائية ، لكان من المهم فهم عمليات التحديث فى قطاعات من المجتمع التقليدى تحمل مقتضيات التغير عن المعايير والأبنية القائمة .

وتجعل الاعتبارات السابقة من واجبا أن نهتم بمدخل آخر ، هو المدخل الذى حاولت أن أصوغه وأحلده ليتسق مع علم الاجتماع الدينامى الفعال . وفى المجتمعات

---

C.E. Black, The Dynamics of Modernization : A Study Comparative History, N.Y. (١)  
Harper and Row, 1966.

Marion J. Levy Jr. Modernization and the Structure of Societies : A setting for (٢)  
International Affairs Princeton. NKJ. Princeton Uni., Press. 1966. 2 vol.

النامية تبرز المشكلات المرتبطة بتساوق التكوينات الاجتماعية الخاصة بمصو  
مختلفة مرتبطة بوضوح بطريقة عملية . وتواجهنا هذه المشكلات بأنماط تمر بعملية  
التكوين والبلورة ، وتظهر كلها في هذه العملية أهمية وجود مستويين تعمل من خلالهما  
القوى المختلفة ، كل في المستوى الذى ترتبط به . وهذان المستويان هما المستوى  
السياسى (بمعناه الواسع) والقيم المستحدثة (المستوى الثقافى بمعناه الواسع) .  
فالمشكلات التى تواجه المجتمعات النامية فى الوقت الحاضر تلقى ضوءا على تلك  
المشكلات التى تتعلق بالمجتمعات الأكثر تقدما ، والعكس صحيح . ففى كلتا الحالتين  
يدرك المجتمع نفسه من خلال الجدل بين الاستمرار وعدم الاستمرار أو التقطع ،  
كخلق منصل مستمر ، قائم فى الحاضر ، ومتطلع الى المستقبل (١) .

### التطبيقات

اتى علم اجتماع التنمية الى الوجود فى الوقت الذى نجح فيه علماء الاجتماع  
فى الاشتراك عمليا فى عدة مشروعات (أو برامج) تتعلق بدول العالم الثالث . وبسبب  
الحاج المشكلات لم يكن من الممكن الانتظار لصوغ نظريات للتنمية الاقتصادية  
والاجتماعية (ومناهج بحثها) . فسياسة التنمية ، التى تم اشتقاقها من بناء اعلامى  
موفق ومن عمليات نظرية مستحدثة ، قامت على اتجاه امبريقى (تجريبى) فرضته  
الظروف ، بالمعنى الذى يتقدم فيه التطبيق صوغ نظام جديد وتكوينه . وهذا يوضح  
لماذا ضبط علماء الاجتماع فى البداية بحوثهم فى ضوء معرفتهم بالمجتمعات الصناعية  
المتقدمة .

ومهما يكن الأمر فهناك صعوبات من نوع آخر ، فقد اصبح من الشائع القول  
بان مشكلات دول العالم الثالث ليست مقصورة عليها ، فبين المجتمعات الواقعة على  
الدرجات المختلفة من سلم التقدم المادى تظهر العلاقات القائمة بعضا من هذه المشكلات .  
فحالة ما دون التنمية لها مظهر علائقى ، ينظر اليه احيانا نظرة مسببة تستتر على  
الاستعمار والاستعمار الجديد ، وهذا مالا يمكن انكاره أو التقليل من قيمته . ففى  
هذه الحالة تتجه العلاقات الخارجية وما تقتضيه من ديناميات الى التأثير فى الديناميات  
الداخلية وقيادتها . فالاقتصاديون - داخل اطار نسقهم العلمى - كانوا اول من  
حاول صوغ نظرية حول هذه العلاقات ، عندما اهتموا بالاقتصاد الدولى ودور  
المنظمات الدولية للاعمال . ووفقا للتقويم النقدى عرفوا الاقتصاديات النامية  
كاقتصاديات مزدوجة ، مثل الاقتصاديات المحكومة بأثار السيطرة العاكسة  
والاقتصاديات المحكومة بأثار السيطرة ، أو بنتائج التبادل غير المتساوى ، وأشكال  
الرأسمالية الخارجية ، وما الى ذلك . وفى هذا السياق الأخير ينظر الى العلاقات  
بين المركز والخارج أو البؤرة والخارج كتكبير للخصائص البنائية لحالة ما دون التنمية،  
ومثل هذا قد يقال بالنسبة للنمو ، ويكون تحليل الأشكال السوسولوجية الكبرى

(١) ولدى هذا الصدد هناك توثيق حول دراسات تمت اشراف اليونسكو ، ومن اجل مناهج البحث انظر :  
R. Carleand J. C. Passeron, Education, Development et Démocratie, Paris, Mouton, 1967.

لهذه العلاقات ومتضمناتها التطبيقية والسياسية غير مستفيض أو قاصر بالرغم من تركيز الاهتمام عليها مبكرا منذ ١٩٥٠ . وأخيرا فان ج.ب. نيتل ، و.ز. روبرتسون قد ذكرانا بهذه الحاجة ، وقاما بأول اسهام في هذا الصدد يوضح نظرية حول النسق الدولي . وتتضمن المناقشات الأخيرة للتطور والتصنيع والتنمية والتحديث وما الى ذلك اشارات ضمنية (قلما كانت واضحة) للعلاقات بين المجتمعات الدولية التي أصبحت ذات ضرورة مطلقة لعالم الاجتماع ، كى يضمن العلاقات الدولية داخل اطار ادراكه ، باعتبارها قسما عاديا مؤلفا من اطاره المرجعى ، ففى هذا المجال الهام يجب أن يستمر العمل النظرى ، ولكن مع ادراك أن المهام التطبيقية التي يمارسها عالم الاجتماع هي في مستوى أقل استقطابا .

ولو سلمنا بأن أى تنمية ( كما هي مميزة عن النمو ) ثورية في طابعها أكثر منها تطورية ارتقائية فيجب أن نعرف أيضا أن ذلك يبنى على الأقل ثلاث ثورات : واحدة تكنولوجية اقتصادية ، وأخرى سياسية ، والثالثة ثقافية . ولعلم الاجتماع دور تطبيقي يقوم به على هذه المستويات الثلاثة ، وذلك بالاسهام في بناء نسق اعلامى أو صوغه ، وتحديد الظروف والآثار الاجتماعية ، وتقويم الخطط التامة ونتائجها . .

والستوى الأول من هذه المستويات يهتم أكثر ما يهتم بالطابع الرياضى لهذا الفرع التخصص من فروع علم الاجتماع ، هذا في الوقت الذى يبين فيه حدود للدخل أو المنهج . ويتم تحقيق هذا بصفة خاصة عندما يدرس المتخصصون برامج مختلفة توضع بقصد الوصول الى استنتاجات واستدلالات منها ، او عندما يصوغ هؤلاء المتخصصون حيكات تتسق والمستقبل الممكن ، وبهذا يقدمون للحكومات الوسائل التى تجعل اختيارهم مستندا الى معرفة كاملة بالوقائع . غير أن أى سياسة طوعية تبدو غير قادرة على الدفاع عن نفسها في مواجهة مقاومة الجماهير ، ولذلك فدراسة هذه القوى المفروضة (او ذات التوجيه المختلف) تاتى داخل اطار البحث أو الدراسة الكيفية . ويعمل المدخل الكمي أيضا الى أن يكون ملائما لوضع استراتيجية للتنمية . ويتضح ذلك في الانتاج والاجور وديناميات الحاجات والدخول ، والتوافق مع التنمى ومستوى التدريب ، وردود فعل الرأى العام للاختراعات التكنولوجية أو الاقتصادية، الخ . وفى هذه المجالات أيضا يكون التحليل الكيفى ضروريا ، لا لتقدير المعوقات الداخلية التى تؤثر في المشروعات فقط ، ولكن كذلك لتحديد الدور الذى تؤديه الظروف الثقافية ومتطلبات النظرة الجمعية .

وقد حقق المتخصصون في علم اجتماع التنمية ، في بعض القطاعات الخاصة وبالتعاون مع الدراسات الانثروبولوجية ، نتائج ذات أهمية تطبيقية مباشرة ، كما هو مثلا في حالة الارتباط بين التنمية الاقتصادية (والتصنيع) والتغير في أبنية السكان وتوزيعهم ، وبناء الجماعة الاجتماعية الأولية (الأسرة والقرابة) وتنظيمها ، والعلاقة بين جماعات النوع والسن أو الأجيال الخ . ف نماذج التغير يمكن صوغها على أساس البحوث الوصفية أو تلك التى من النوع المسحي .

ووفقا للمدى الذى يصبح فيه العالم الثالث فى نضال من أجل التجرّد الريفى تكون القرى هى المجال الذى تجد فيه المشكلات أصدق تعبير ، ويمكن ادراكها بكل شدتها . ويهتم السوسيوولوجيون والأنثروبولوجيون ، بالإضافة الى ذلك ، بدinاميات مجتمعات القرية (١) ، وبالمسألة الزراعية ، وتبنى الوسائل الفنية الجديدة ، وإعادة تنظيم الأنشطة الزراعية ، وخاصة أشكال التعاون وما الى ذلك . وتساعد دراسة البطالة الريفية المنفعة والواضحة بجانب دراسة طرق الحراك للقروى على فحص مشكلة استثمارات المصادر البشرية . نتيجة استثمارات معينة ينظر اليها كوسائل لتعديل الموقف السلبي (النمو السكانى والبطالة الريفية الى آخر ايجابى (تكوين رأس المال وبناء دينامية التنمية) . وقد أوضحت المسوح الحديثة أنه من المهم تجنب اتجاهاين على درجة من الخطورة : الأول المبالغة فى تبسيط المشكلة التى تعزى الى عدم دقة ادراك المشكلات ، والثانى عدم كفاءة التقويم النقدى للوسائل من جانب ، وسوء تقدير الممكنات التى يقدمها هذا الاسلوب للاستثمار ، الذى يصاحبه غالبا سوء تقدير للممكنات التى يقدمها التصنيع ، من جانب آخر ، وبالموافقة على هذا البحث يجب الاهتمام ببحث تقدير الوقت تصورا وتناولا ، فمن مثل هذا البحث نستطيع أن نتيين الى أى مدى تتحدد هذه التصورات وهذا التناول بالثقافة ، وبأى سياسة للتنمية تدعو الى تبني اتجاه جديد نحو الوقت .

وهناك أيضا عدة دراسات عن التصنيع والتحضّر : الظروف السابقة لهما ، والآثار المترتبة عليهما ، وبعض من هذه الدراسات ذو طابع عام ، فهى تهتم بعوامل التحديث وهيئاته ، التى ترتبط بالصناعة والبيئة الحضرية ، وبدور الهيئات المختلفة ، تبعا لمراحل التنمية ، وتهتم أيضا باستراتيجيات استغلال المصادر البشرية الخ . وهناك دراسات أخرى أكثر تحديدا فى طابعها ، فهى تهتم بالصفوة من رجال الاقتصاد والاختيارات التى امامهم وعلاقتهم بالدولة ، وتهتم بصفوة رجال المقاولات ، والتدرجات الاجتماعية الجديدة ، وإعادة توزيع القوى السياسية ، الخ . وأخيرا ينبغي أن نذكر - من أجل قطاعات عامة وتحليلات منفصلة - الدراسات التى تم اجراءها حول مشروعات التعليم والتنمية والسياسة والتنمية ، وبالنظر الى المشروعات الأخيرة هناك قدر كبير من التوثيق قائم فى شكل دراسات عامة تقترح تفسيراً نظريا للتنمية السياسية (عمليات وأشكال ووظائف الدولة الحديثة والبيروقراطية) ودراسات خاصة (منها أمثلة حول الابنية الدولية) . وبغض من هذه الدراسات يقع على المنطقة أو الخط المشترك بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسى وذلك بفحصها للعلاقات بين التقليد والحداثة ، ومشكلات تكيف سلطة القرية مع نسق الإدارة ، الذى وضعه حكام الدول الجديدة .

(١) ثم تجاوزت دراسات عدة فى مسلم نماذج للمجتمع بما فى ذلك المجتمعات الاشتراكية . ومنها على

سبيل المثال:

J. Myrdal, Report from a chinese Village, N.Y. Pantheon Books 1969 and 1965, N.T. American Library, 1960, London Penguin Books 1967.



وباختصار فإن مقتضيات التنمية - لا مجرد النمو - تضع أمامنا سؤالاً ذا أهمية مبدئية : كيف يمكن تحقيق تغير إيجابي في النسق الاجتماعي والاقتصادي بأقل تكلفة ؟ لقد قلمت بعض الدراسات السوسولوجية بناءً للأعلام حول إجابة هذا السؤال وعناصره . فقد بدأت لهم بمعرفة أفضل حول المشكلات المتضمنة في مرحلة الانتقال ، وحول الحركات الاجتماعية المعبرة عن الحاجة إلى العلاقات الاجتماعية المتغيرة ، أو الفشل في مواجهة التغير (أو الثورة) الذي لا يتم بنمو أفضل ، وحول آثار خلل التنظيم الاجتماعي الناتج عن التنمية الاقتصادية . فخلف هذه المشكلات العظيمة يكمن الشك الأساسي القائم داخل كل مجتمع ، وهو يتضح من الفهم (الوسائل التي يحدد بها المجتمع هويتها ويحافظ عليها) ومن القوة (الوسائل التي يحقق بها المجتمع نجاحه المادي ويستغل هذا النجاح) ، فدول العالم الثالث في حاجة إلى وسائل القوة المادية (نمو الإنتاج) في الوقت الذي تتنازل فيه من أجل الحفاظ على الشخصية الجماعية - بمعنى الفعل الجمعي - التي لم تنزل غريبة على هذه المجتمعات \*

# التغير السّياسى

## فى المجتمعات الجمعيّة

### مشكلات فى الجمعية العنصرية

ان النظريات الاساسية الملائمة للتغير السّياسى فى نطاق المجتمعات الجمعية عنصريا ، وهى المجتمعات التى اهتم بها هنا بصفة خاصة ، هى النظريات الماركسية عن الصراع الطبقي ، وتطبيقات نظرية دوركايم عن التغير التطورى من التضامن الميكانيكى الى التضامن العنصرى ، ونظريات المجتمع الجمعى او الجمعية ، ودفع كل منها الى استعمالات ايدىولوجية مختلفة ، ليست بالضرورة متضمنة فى النظريات نفسها .

ان النظرية الماركسية فى تأكيدها على الصراع الطبقي ، باعتباره المحدد الكبير للتغير السّياسى ، ترى فى الاستقلال والتمييز العنصرى خاصية للعلاقات الطبقيّة . وفى اطار هذا الاتفاق سوف يكون من المحتمل حل الصراع العنصرى واقامة المساواة العنصرية كجزء من الثورة البروليتارية العالمية . وعلى أية حال فان تطبيق هذه النظرية فى صورتها البحتة على مواقف معينة للصراع العنصرى يثير صعوبات خطيرة . فليس هناك اخفاق فقط فى التضامن بين العمال ذوى الأجناس المختلفة ، ولكن كثيرا ما مطالب عمال الجنس المسيطر بأقصى أشكال التمييز العنصرى تطرفا ، وفضلا عن ذلك يكون أفراد الجنس التابع بصفة عامة مميزين اقتصاديا ، ولا يكونون طبقة بعينها ، ولذلك تضم فى صراعاتها الثورية ضد السيطرة .

وتهتم نماذج دوركايم بالعلاقة الداخلة بين أعضاء القطاعات الجزاء باعتبارها الأساس لأشكال جديدة من التضامن تتجاوز الانقسامات القديمة . ويمكن أن تكون

## بقلم : لـيـو كـوـبـير

أستاذ علم الاجتماع ومدير مركز الدراسات الأفريقية بجامعة  
كاليفورنيا بـلوس انجيلس . وهو متخصص في علم الاجتماع  
السياسي والعلاقات بين الأجناس . ومن مؤلفاته الحديثة :  
انثروبولوجيا الأفريقية (١٩٦٥) ، والجمعية في افريقيا  
( بالاشتراك مع م . ج . سميت ) ( ١٩٧٠ )

## تجمة : الدكتور محمود إسماعيل

مدرس العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية  
بجامعة القاهرة . تشمل مؤلفاته كتاب : دراسات في العلوم  
السياسية (١٩٧٢) ، وبحثا عن استخدام القوة المسلحة في  
العصر النووي بـمجلة السياسة الدولية (عداد إبريل ١٩٧٢)

الأجزاء بواسطة مجموعات منزلة طبيعيا بعضها عن بعض في اقاليمها الدائرية ، أو  
المنفصلة هرميا ، من طريق التمييز في المهنة وعن طريق العزل النظامي . ان نموذج  
دوركايم هو أساسا نموذج التفرع التطوري ، ولكن النظرية الأساسية تبلورت في  
مجتمعات متجانسة عنصريا في عملية التصنيع ، وبصفة عامة فان مدى امكان تطبيقها  
على مجتمعات جمعية عنصريا قد يكون موضع شك نوعا ما . ومن الصعوبة بمكان  
معرفة الأهمية التي تعزى للعلاقات بين الأشخاص وصور التضامن بين أعضاء  
القطاعات العنصرية المختلفة حينما يوجد ادماج سياسي غير متكافئ للقطاعات العنصرية  
كمجتمعات . وفضلا عن ذلك فان قابلية الانتماء الطبيعي في مجتمع جمعي عنصريا  
بمثابة هوية أكثر بقاء من عضوية الطبقة في مجتمع متجانس صناعيا ، وقد يكون  
للحرارة نتائج مختلفة تماما .

وتشدد نظريات المجتمع الجمعي أو الجمعية على الانشقاقات أو الانقطاعات بين  
القطاعات المرفقة بواسطة العنصر أو العرقية أو الدين أو الثقافة ، ولا ينظر الى أسس  
التفرقة هذه على أنها أصلية ؛ انها تتكون اجتماعيا في عملية التفاعل . فالاختلاف  
العنصري ليس له أهمية اجتماعية أولية . انه لا يكتسب أهميته الاجتماعية الا عندما  
يتبلور في نظم القمم السياسي التفضيلي ، والتمييز الاقتصادي ، والعزل العنصري .  
وبما ان نظرية المجتمعات الجمعية مشتقة من تحليل الانشقاق الحاد المستمر فانها

تتجه الى تأكيد الطبيعة الدائمة للانقسامات الجمعية والاحتمال الكبير للعنف في عملية التغير السياسى .

وعلى المستوى الابديولوجى تؤكد نظريتنا ماركس ودوركايم التضامن بين الاجناس . وفي حالة النظرية الماركسية يكون التضامن بين الاجناس بين اشخاص مختلفين في المنصر يؤدون وظائف متماثلة في عملية الانتاج . وفي نظرية دوركايم ينبع التضامن بين الاجناس من تنوع كبير للعلاقات التى تدخل في كافة القطاعات . ورغم ان الصعوبات في تطبيق نظرية الطبقة على مجتمعات جمعية عنصريا تكمن بكل دقة في فشل التضامن الطبقي ، ورغم ان نظرية الطبقة قد تستعمل لتصعيد الصراع عن طريق تحديد الاجناس بطبقات مختلفة ، فان النظرية نفسها ، مع ذلك ، تقدم ابيولوجية لتداخل الاجناس ، تقيد التعبير عن العنصرية وتوجه التحرك نحو التعاون العنصرى . وبالمثل فان نظرية دوركايم تشجع ابيولوجيات التضامن بين الاجناس ، رغم التأكد من ان خشية عواقب العلاقات المتقاطعة قد تدفع بمجموعة مسيطرة الى تطبيق سياسة التمييز والعزل العنصرى الشمولى النظامى ، كما هو شأن سياسة الابرتيد في جنوب افريقيا . ويعد الادراك الخلقى حقيقة أصلية في كل من نظرية ماركس ونظرية دوركايم ، ففى النظرية الماركسية ادراك السير نحو المساواة عن طريق دياكتيكية التغير الثورى ، وفي نظرية دوركايم ادراك اللاتحام المتزايد والارتباط المتناسق والزوال المبرر لعدم المساواة العنصرية ، عن طريق عملية التغير التطورى . وعلى المستوى السياسى تطابق هذه النظريات ابيولوجيات في الشيوعية والليبرالية .

ومن الناحية الاخرى لا يوجد في نظريات المجتمع الجمعى عنصريا وعد بالتحرك نحو التضامن العنصرى او الى المساواة العنصرية . ان الافاق مظلمة نوعا ما ، والنظريات تسلم نفسها بسرعة للتحريف ابيولوجى . ويمكن ان تركز المجموعات العنصرية المسيطرة على انتشار الصراع العنصرى والعرقى باعتباره أساسا لتأكيد ان الجمعية العنصرية جزء من النظام الطبيعى ، ويمكنها ان تخرج من هذا بنتيجة مؤداها تبرير السيطرة العنصرية . وقد تجد المجموعات العنصرية التابعة في المذهب بعض التشجيع على تعبير غير مقيد للتناقض العنصرى . وقد تسمى ابيولوجيات الاغراء المتباين لتفسير النظرية على انها تفترض تناقضا عنصريا او عرقيا فطريا وشديدا . وكافة هذه التفسيرات غريبة تماما على نظريات المجتمعات الجمعية . وفي الحقيقة تحرفها بالكامل . ولكنها تنشأ من الاهتمام في هذه النظريات بالانشقاق والصراع ، ومن حقيقة ان النظريات لاتتضمن أية مدركات معنوية . والواقع ان الانهماج بالمجتمعات الجمعية يمكن ان ينمو من التزام خلقى قوى يتجنب الصراعات الاجتماعية المدمرة ، وبالبحت عن وسائل التغير السلبى الى التناسق والمساواة . الا ان الالتزام الخلقى ليس اصيلا في النظريات التى لاستطيع الا ان تدعى انها ربما تقدم مسلكا اكثر واقعية لدراسة المجتمعات الجمعية .

ان مفهوم المجتمع الجمعى أو الجمعية ذو تفسيرات متنوعة . وكذلك تستعمل مصطلحات اخرى لوصف ظاهرة المجتمع الجمعى ، مثل المجتمعات المركبة ، والمجتمعات الاقلامية ذات الشعب الحضارى ، والمجتمعات المتنوعة ، والمجتمعات الجزاء ، والمجتمعات المقطعة ، والازدواجية الاحتمالية ، والمجتمعات ذات التجمعات المتنوعة . ويشير هذا التنوع الكبير للمفاهيم والتفسيرات الى وجود ظاهرة متميزة تدعو المحلل الى صياغات نظرية جديدة ، وتحتوى الحالة الاولى نوعا ما للنظرية فى هذا الميدان . وفى تطور نظرية المجتمع الجمعى كان هناك تحرك نحو صياغات اكثر شوعلا ومرونة . وبما ان فورنيغال قد طور النظرية فى مؤلفه « الممارسة والسياسة الاستعمارية : دراسة مقارنة لبورما واندونيسيا » فانها تطبق على المجتمعات الاستوائية الاستعمارية . وتفرض السيطرة الاستعمارية بناء علويا غربيا للاعمال والادارة يطلق العنان نسبيا للتنافس الاقتصادى فى وضع يتميز بتباين حضارى اجتماعى وعنصرى . وليس ثمة ارادة عامة أو اجتماعية تربط مختلف الشعوب الترى تحيا بواسطة عقيدتها وثقافتها أو لغتها . وبدلا من ذلك فانها تتجمع عن طريق الضغط الذى تمارسه من الخارج القوة الاستعمارية ، وقوة الظروف الاقتصادية . وتميز العلاقات بين القطاعات المختلفة بالخصام وعدم الاستقرار المتوارث ، ويشم التحرر من الحكم الاستعمارى مشكلة ايجاد مبدأ خلقى ، ذى شرعية سامية على المصلحة الاقتصادية كاساس للاجماع والاندماج .

وانتزع م . ج . سميت مفهوم فورنيغال عن المجتمع الجمعى من قالبه الاستعمارى لبعطيه اهمية اكثر شوعلا . وفى الوقت نفسه يخفى من النظرية نقد فورنيغال للظواهر التاريخية للاستعمار الراسمالى . فضلا عن ذلك فانه فى عملية اختفاء صفة النسول على المفهوم ينعدم عنصره المعنوى . ويختفى من النظرية ايضا التركيز على العلاقات العنصرية . ويحل محله ، فى صياغة م . ج . سميت الأولى ، تركيز على الجمعية الثقافية ، والاختلافات العنصرية التى تشتق مغزاها من الجمعية الثقافية ، وفى الصياغات الاخيرة يحل محله تكافؤ على المستوى التحليلى ، بين الجمعية العنصرية والجمعيات الاخرى .

ان صياغة م . ج . سميت الأولى لنظرية المجتمع الجمعى والجدل الذى ولدته خاصة بين علماء الكاربى لهما اهمية تاريخية كبيرة . وفى هذه الصياغة يحيل الاولوية الى الجمعية الثقافية ، ويقصد بها ممارسة صور مختلفة ومتباينة من المؤسسات الاجبارية بواسطة القطاعات المكونة للمجتمع الجمعى ، ويرى ان الجمعية الثقافية تفرض ضرورة السيطرة الجزئية بواسطة قطاع ثقافى . ان المجتمع الجمعى يتكون حينما يكون القطاع الثقافى بمثابة اقلية ، وهذا موقف تجد فيه الدلالات الهيكلية للجمعية الثقافية تعبيرها الاكثر تطرفا . وتربط المجتمعات عن طريق الامر اكثر من ارتباطها عن طريق الاجماع . وتفترض التغيرات فى الهيكل الاجتماعى تغيرات سياسية ، وتتخذ فى العادة صورة عنيفة .

وقد انتقدت نظرية دوركايم هذه الصياغة على أساس أنها تقلل الى ادنى حد من أهمية المؤسسات المشتركة والعلاقات الداخلة التي تنمو في التلاحم بين القطاعات، وتنتقدها النظرية الماركسية ، أو نظرية الطبقة ، على أنها تغفل روابط المصلحة المشتركة التي تنشأ استنادا الى المشابهات في الوضع الطبقي ، وينتقدها التحليل الداخلي للنظرية نفسها على اعتبار أنها لا تقدم أساسا كافيا لتحديد وجود الجمعية الثقافية أو أبعادها ، وتبالغ في تأكيد أهمية الاختلافات والقيم الثقافية . ومهما يكن من أمر فإن الصياغة تهتم بقيمتها كأساس للجمعية الثقافية على الرغم من تجاوزها في نظرية المجتمع الجمعي .

إن صياغة م . ج . سميث الأخيرة للنظرية أكثر مرونة ، وهي تهتم بالهيكل السياسي أكثر من اهتمامها بالاختلاف الثقافي . فهو يدخل أسلوب الضم السياسي كمفهوم أساسي . وفي ظل الضم الشامل أو التماثل يكتسب الأفراد مواطنهم مباشرة ، لا عن طريق الانتماء القطاعي ، بل على أساس المساواة ، في حين أنه في ظل الضم المتكافئ أو المكمل ، وفي ظل الضم التفضيلي ، يربط الأفراد بالكيان السياسي ، وتحدد حقوقهم وواجباتهم من خلال عضويتهم القطاعية . وفي الضم المتكافئ ( أو التام ) يتكون المجتمع كمجموعة من الفصائل المنضمة المكمل أو المتكافئة ، ولكنها متضادة تبادليا ، والعضوية في أحدها مطلب مسبق للمواطنة في وحدة أوسع . وفي الضم التفضيلي يتكون المجتمع كنظام من القطاعات المنضمة المتضادة وغير المتكافئة هيكليا ، أي كنظام جمعي واضح .

ويرتبط مفهوم أسلوب الضم بالتمييز بين مستويات ثلاثة للجمعية : الجمعية الثقافية ، والاجتماعية ، والهيكلية . وتشير الجمعية الثقافية ببساطة الى الخلافات التأسيسية دون تفرقة جماعية مماثلة ، ويمكن أن توجد في مجتمعات مكونة على أساس أسلوب الضم التماثل . والجمعية الاجتماعية هي الحالة التي فيها تتوافق التفرقة التأسيسية مع ضم المجتمع في سلسلة من القطاعات والأقسام الاجتماعية الملفقة فعليا والمحددة بصراحة . وتتكون الجمعية الهيكلية من ربط الجمعية الثقافية والاجتماعية بالضم التفضيلي . إن المجتمع الجمعي في الشكل الكلاسيكي الذي وصفه تورنباوم مجتمع يتميز بجمعية هيكلية ، فيها تكون المجموعة المسيطرة أقلية عددية .

وتستند الصياغات الأكثر مرونة على مفهوم الجمعية منظورا اليها كمتغير مستمر لا كمتغير منقطع .

ومن الأبعاد الكبرى للجمعية يحدد فان برجي ( ١٩٦٩ ، ص ٦٩ - ٧٢ ) المتغيرات الديمقراطية الثقافية والأيديولوجية ، والنماذج المتغيرة للجمعية الاجتماعية على مستوى المجموعة والمستوى التأسيسي والمستوى الفردي .

وفي صياغتي الخاصة ( ١٩٦٩ ب ، ص ٤٦٩ - ٤٧٩ ) أميز بين أربعة أبعاد للجمعية ، وهي : ( أ ) التخصيص والشمول ، وهما أساسا بمثابة أسلوب الضم ،

وقد فسر بشكل واسع ليشمل التفرقة لا في الهيكل السياسي العام للمجتمع فقط ، وإنما أيضا في سلطة الهياكل التأسيسية مثل المنشآت الصناعية التعليمية والدينية ، (ب) العزل والتدوين ، وهو مطابقة لمدار الجمعية الثقافية والاجتماعية ، (ج) التنوع الثقافي والتجانس الثقافي ، وهو مطابق لمدار الجمعية الثقافية ، (د) عدم المساواة والمساواة في الحصول على التوزيع التفضيلي للسلطة والمركز والموارد المادية .

ويمكن استنادا الى هذه المتغيرات اقتراح مقياسين مختصرين للجمعية . فالانقطاع والاستمرارية مقياس للدرجة عدم المساواة في الضم ، لمدى العزل والاختلافات في الثقافة ، وفي ملكية القوة والموارد ، فالانقطاعات كمية كما في حالة الأجور الصناعية التفضيلية المدفوعة للعمال ذوى الاجناس المختلفة ، وكيفية كما هو شأن الادوار المتميزة المسندة لأعضاء القطاعات المختلفة . ان «الفرض» و «الفصل» ( المشتق من داهرنودورف ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٣ وما بعدها و ٢١٣ - ٢١٧ ) مقياس للحد الذى عنده تتوافق أو تتباعد خطوط الانشقاق داخل هياكل المجتمع . وحتى حينما يعتمد المسلك على الجمعية كمتغير مستمر فإنه من المفيد أن تحتفظ بمفهوم الجتمع الجمعى على أساس أنه يمثل صورة متطرفة للجمعية .

والقاسم المشترك بين هذه الدولوات للمجتمع الجمعى والجمعية هو أنها تطبق على أى مجتمع متحد سياسيا عن طريق خضوعه لسلطة سياسية عليا واحدة أو لديه تنظيم موحد في العلاقة بالعالم عن طريق أية اجراءات هيكلية أخرى ، ولكنه مكون داخليا من مجموعات متباينة عنصريا أو عرقيا أو ثقافيا تحتفظ بأساليب حياة منفصلة بشكل متميز .

ويمكن أن ينظر الى المجتمعات الجمعية على أنها أصلية ، أو على أنها تتسم في صورة أكثر تطرفا بظواهر الانشقاق أو الانقطاع الموجودة في كافة المجتمعات . وسواء أخذنا بوجهة النظر الأولى أو الثانية فإن تحليل المجتمعات الجمعية يشير تساؤلات عن نظريات التغيير السياسى التى تحظى عموما بمزيد من القبول .

ان هناك مشكلات عديدة في تطبيق النظريات الماركسية على المجتمعات الجمعية عنصريا ، تلك النظريات التى تتناول العلاقة بين النظم الاقتصادية والسياسية ، وعالية الصراع الطبقي ، وديالكتيكية التغيير الثورى . وتتولد هذه المشكلات جزئيا من حقيقة أنه على حين تتميز المجتمعات الجمعية عنصريا بالتفرقة الاقتصادية والتقسيم العنصرى لا تتفق حدود العنصر والطبقة بدقة ، ولذلك يظهر الفموض في الوضع الاجتماعى . وفي هذا السياق تتجه نظرية المجتمع الجمعى الى تأكيد الهيكل العنصرى نفسه وأسلوب الضم التفضيلى ، سواء كان قانونيا كما في جنوب افريقيا ، واقصيا كما في الولايات المتحدة ، والى التشكيك في الأولوية لا في الأهمية ، وبخاصة العوامل الاقتصادية .

وليست المؤسسات السياسية في المجتمعات الجمعية بنيانا علويا قائما على علاقات الإنتاج ، وعلى العكس فان القوى المشتقة من المؤسسات السياسية هي التي تحدد تحديدا كبيرا قيم الارتباط بوسائل الإنتاج . ولعل الفشل في التضامن بين عمال الأجناس المسيطرة والخاضعة ، الذي كان مصدرا للارتياح بين الثوريين السود ( كروز ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٩ - ١٥٥ ، سيمونز وسيمونز ، ١٩٦٩ ص ٦٢١ ) قد يمكن التوفيق بينه وبين النظرية الماركسية عن طريق مط مذهب أرستقراطية العمل ، الا ان كثيرا من عمال الجنس السائد في مجتمع جمعي عنصريا يكونون في الحقيقة أرستقراطية عمالية ، وهم يفعلون ذلك بفضل اتحادهم العنصري التفضيلي ، وموقعهم السياسي المسيطر ، لا بفضل ارتباط واضح بوسائل الإنتاج .

لقد وهن الالتزام بعبء عالية الصراع الطبقي نوعا ما تحت وطأة النقد الذي وجهه زعماء حركات التحرر الوطني . ويشير كابرال ( ١٩٦٩ ص ٧٧ ) القضية من زاوية واحدة حينما يعلق بأن تصور التاريخ بادنا بالصراع الطبقي يعني اعتبارا ان المجموعات البشرية المختلفة في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية عندما أخضعت لنير الاستعمار كانت تحيا دون تاريخ أو خارج التاريخ .

ويجد كثير من زعماء حركات التحرر في المجتمعات الجمعية الاستعمارية ، والمجتمعات التي استقر فيها البيض ، من الصعب ان يوفقوا بين صراهم والصراع الطبقي ، في موقف يتميز بفضل التضامن بين عمال الأجناس المختلفة ، وفيه يستدعي الصراع تعبئة كل القطاعات في المجموعة الخاضعة ، وفيه يتحدد الخصوم بشكل قيم بواسطة معايير سياسية ، مثل المستعمر والمستعمر ، أو الجنس الحاكم والجنس الخاضع .

وفي التوفيق بين النظرية المركزية والواقع ، لان الأولوية ربما ماتزال تعطر للصراع الطبقي في مرحلة التحرك الوطني ، عن طريق تأكيد الدور التقدمي أو الثوري لطبقات معينة داخل حركة التحرر ، وهذا مسلك أدى الى ظهور مؤلفات لها قيمتها جدليا . أو قد يكون الالتجاء الى مدلولي الثورة الثنائية المراحل ، فالبورجوازية الوطنية أو الثورة الديمقراطية ، وتعقبها الثورة الاشتراكية ، ومن ثم تنحول العلاقة بين الطبقة والجنس في المجتمعات الجمعية عنصرية بحيث أنه بدلا من أن تكون الثورة الطبقة هي الشرط المسبق لمساواة العنصرية ، فان الثورة الديمقراطية الاجتماعية هي الشرط المصالح للثورة الاشتراكية ، أو أخيرا قد يفهم الصراع الطبقي في اطار عالمي كصراع بين الأمم الاستعمارية والأمم المظلومة ، أو بين عمال الأمم الاستعمارية وشعوب العالم المظلومة والبلدان الاشتراكية من ناحية ، والملاك البورجوازيين الدوليين لوسائل الإنتاج من ناحية أخرى .

ويتضمن كل من هذه المسالك التسليم بقدر له قيمته من التضامن بين الطبقات في الامم المظلومة ، عند أي معدل في الصراع الداخلي المباشر ، ولهذا دلالات بالنسبة



لنظرية الثورية الماركسية عن استقطاب الطبقات في الارتباط بوسائل الإنتاج . ومن افق المجتمع الجمعي يمكن النظر الى الخاصية المحددة في دياكتيكية الصراع في اطار سياسي على انها الارتباط بوسائل القوة ، ومثيرات الثورة بمثابة اى عوامل تؤثر على هيئة العلاقات . هذا وانها ليست بالضرورة تغييرا او عملية اقتصادية .

ان استمرار علاقات النمط الاقطاعي في مجتمع صناعي ، والتغير الجذري في المؤسسات الاقتصادية مع بقاء المؤسسات السياسية نسبيا دون تغير ، ومواصلة المرفق الثوري ، وفق المصطلحات الماركسية دون تغير ثوري : ان هذه كلها تتسق مع نظريات المجتمع الجمعي اكثر من اتساقها مع النظرية الماركسية ( كوبر ، ١٩٧١ ، ا ، ب ) .

وتظهر صعوبات مماثلة في تطبيق نظريات دوركايم على المجتمعات الجمعية غنصريا . والعنصر المشترك في هذه النظريات هو التأكيد على التغير المبرود عن طريق تنمية العلاقات التي تخترق التقسيمات القطاعية الاساسية . والاساس الاجتماعي لهذه العلاقات القطاعية المتداخلة يمكن ان يكون قاسما كبيرا من ثقافة مشتركة ، او مشاركة في مؤسسات متماثلة ، او علاقات اجتماعية متباينة بين افراد ذوى خلفية عرقية او عنصرية مختلفة . وتعلق الاهمية على العلاقات التي تخترق مختلف القطاعات باعتبار انها تؤدي الى الاندماج او الاستقرار او التحول نحو الديمقراطية .

ولعل الاشتراك في عناصر كثيرة من ثقافة عامة يؤدي في الغالب الى الاندماج والاستقرار ، رغم انه من الواضح انه قد توجد تقسيمات حادة وصراع ثوري في مجتمعات متجانسة نسبيا في الثقافة ، كما يمكن ان يكون السعى نحو مبادئ مشتركة مسددا للصراع ( ماكنزي ، ١٩٦٦ ص ٥٩ ) . وفي المجتمعات الجمعية تصبح كل من الاختلافات الثقافية والنزوب الثقافية بؤرة صراع . وفي المجتمعات الاستعمارية وتلك التي يستقر فيها البيض تستعمل ايدولوجيات الاختلاف الثقافي لترشيد السيطرة . وفي الوقت نفسه فان فرصة اكتساب ثقافة القطاع المسيطر مقيدة بعناية ، والوعد بالساواة في المشاركة بالنسبة لمن يتم تدويرهم ثقافيا وعد اجرف . وعلى ذلك قد يجد الصراع تغييرا جزئيا في الطالب والمطالب المضادة للسمو الثقافي وفي احياء الثقافة التقليدية وتصبح السياسة التعليمية مسألة سياسية . وقد يندفع من تم تدويرهم ثقافيا الى قيادة شعبيهم في الصراع الثوري .

وسوف تختلف نتائج المشاركة في المؤسسات باختلاف طبيعة المؤسسة وعلاقاتها القطاعية المتداخلة ، واسلوب تعبيرها داخل المجتمع . ويعلق كولبي وفان دين برجى ( ١٩٦٩ ص ١٨٣ ) بأنه من ناحية تعد المؤسسات المشتركة بمثابة الركائز الفعلية لاندماج المجتمع الجمعي ، ومن ناحية اخرى يؤدي عدم التناسق في كثير من العلاقات العرقية المتدخلة الى توليد الصراعات . وفي المجتمعات الجمعية ، بصفة

خاصة ، تكون العلاقات داخل النظام الاقتصادي غير متناسقة بشكل ملحوظ . ويمكن أن يكون التداخل الاقتصادي باعثا على الاستقرار والاندماج في ظل ظروف معينة ، ولكن توقع ان النمو الاقتصادي الصناعى في المجتمعات الجمعية سوف يؤدي تلقائيا الى الاندماج والتغيير الديمقراطي هو توقع غير حقيقى بشكل واضح ، مع العلم باستمرار صور التباين العنصرى في الولايات المتحدة ، وفي جنوب افريقيا ( انظر بلومر ، ١٩٥٦ ، كوبر ، ١٩٦٩ ج ، فوترز ، ١٩٧٠ ) وفي المجتمعات الجمعية قد تكون الاستجابة للضغوط الرامية الى مزيد من التكافؤ في المشاركة ، وهى ضغوط يولدها النمو الاقتصادي ، مزيدا من القمع السياسى ، كما في جنوب افريقية .

وبالتأكيد يمكن ان تكون الزيادة في شبكات العلاقة الشخصية المتداخلة بين افراد مجموعة عرقية او عنصرية مختلفة ركيزة لاعادة بناء المجتمع ، الا ان الصعوبات تظهر من جديد في المجتمعات الجمعية حيثما يكون هناك ضم تفضيلى للاجناس . ويذهب م . ج . سميت ( ١٩٦٩ ب ، ص ٥١ ) الى انه في ظل هذه الظروف الهيكلية لا يستطيع خطوط التنظيم او التصرفات الفردية او تغير التقسيمات الاجتماعية . وقد انتهى محللون آخرون للمجتمع الاستعماري الى ملاحظات مماثلة . وبالفعل تسم روابط التضامن الشخصى المتداخل بعدم الفاعلية في مواقع الجمعية المتطرفة والصراع العنيف كما كان سائدا في الجزائر .

ان التقسيم العنصرى والعرقى في المجتمعات الجمعية هو ظاهرة اجتماعية مختلفة تماما عن التقسيم الجزئى في المجتمعات المتجانسة التى تصفها نظرية دوركايم . وفي المجتمعات الجمعية فان العلاقات الجديدة الناتجة من التقسيم المطرد للعمل قد تفرض بدرجة كبيرة فوق التقسيمات القديمة ، ومن ثم تؤدي الى بلورة الهيكل الجمعى للمجتمع أكثر من تغييره .

وفي ظل هذه الظروف فان الاستيعاب الحضارى والمشاركة في المؤسسات المتماثلة والعلاقات الداخلة قد تؤدي الى التضامن القطاعى المتداخل ، ولكنها ايضا بمثابة مناطق صرع بين القطاعات الجمعية . ان النماذج المشتقة من نظرية دوركايم المتعلقة بالتحرك من التضامن الميكانيكى الى التضامن العضوى يمكن استعمالها فقط مع عديد من التعديلات والتحفظات في تحليل التغير السياسى في المجتمعات الجمعية .

ردون اثار تساؤلات جوهرية في تطبيق نظريتي ماركس ودوركايم يقدم منظور المجتمع الجمعى نظرياتهم الدائية المتميزة . وتنتج هذه النظريات من التأكيد على الانقطاعات او الانشقاقات بين القطاعات المختلفة ، وتؤكد دور المؤسسات السياسية ، بما في ذلك أسلوب الضم التفضيلى . وهذه النظريات صالحة الى حد كبير في مناطق الجمعية العنصرية او العرقية ، وهى المناطق التى تشكل الاغلبية العظمى من المجتمعات الجمعية .

ولا ينظر الى الانقطاعات على أنها تقوم على المغطيات المفترضة للوجود الاجتماعى ، ولكن ينظر اليها على أنها تنشأ فى عملية التفاعل داخل المجتمع . وفى حالة الدولة غير القومية ( ناش ، ١٩٥٨ ) يكون القطاع المسيطر فقط منظما منذ البداية على نطاق قومى ، بينما يتكون القطاع او القطاعات الخاضعة من مجموعات محلية كثيرة . وقد يتحقق اندماج هذه المجموعات المحلية فى قطاع قومى من نشاطات المؤسسات الوسيطة مثل الاتحادات العرقية والاحزاب السياسية ( دسريس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢ - ٢٧ ) ، او قد تتحول الطبقات العرقية الى كتل عرقية عن طريق القومية والاستقلال السياسى ( فريدمان ، ١٩٦٠ ، ص ١٩٦٧ ) ، او قد تدفع عملية التحديث الى امتدادات ولاءات المجموعة المحلية الى المستوى العرقى القومى .

ويمكن ان يثير وجود الانقطاعات الشاملة مشكلات حادة بالنسبة لحفظ التماسك الذى يعتمد ، لا على قيم مشتركة ، وانما على الرقابة السياسية التى يمارسها القطاع المسيطر ، وعلى التداخل الاقتصادى بين القطاعات المختلفة (كولبى وفان دن برجى ، ١٩٦٩ ، ص ١٠ - ١٣) . ورغم توافر عناصر الاجماع التى قد تكون ذات قيمة كبيرة لايتدمج المجتمع عن طريق الاجماع ، ولايستيقظ الاجماع من الهدوء . وفى المجتمعات الجمعية يمكن أن يكون الصراع المحتمل بين القطاعات المختلفة دافعا او مبررا لدولة الحزب الواحد او للحكم الاستبدادى او العسكرى ( انظر مناقشات فورس ، ١٩٧٠ ، ص ١٦ - ١٨ ، وفان دن برجى ، ١٩٦٩ ، ص ٦٧ - ٨١ ) .

ورغم مشكلات التماسك والترابط التى تثيرها الانقطاعات المتغلغلة يمكن ان تكون المجتمعات الجمعية مستقرة نسبيا لفترات طويلة من الزمن . وعلى اية حال حينما تحدث حركة التغيير السياسى تنجبه العمليات الى أن تكون صارمة وعنيفة . ويساعد عدد من العوامل على هذا الاتجاه . فاعضاء القطاع العنصرى الواحد يتبعون عديدا من الهياكل التأسيسية المختلفة ، بحيث يمكن أن يتحرك الصراع بسرعة من قطاع الى آخر بطريقة تبدو غير معقولة وغير محسوبة . وهكذا قد يكون للاحداث الصغيرة المنزوية دوى كبير ، وقد تؤدي الى اثارة صراعات قطاعية متداخلة مجتمعة وهكذا ايضا تم بسرعة قضايا الصراع بشكل يساعد على احتمال اندلاع العنف على زيادة حدته . وفوق ذلك كله فانه بما أن هناك ارتباطا وثيقا بين التنظيم السياسى والعملية الاجتماعية يكون للاضطراب والتغيير الاجتماعى انعكاساتهما على النظام السياسى المركزى .

وباتباع خطوط نموذج الاستقطاب الماركسي ، ولكن مع احلال التناقض العنصرى ( أو العرقى ) محل التناقض الطبقي ، قد يتخذ نموذج التغيير الثورى فى المجتمعات من الضم التفضيلى للقطاعات فى نظم التفاوت السياسى أساسا له . وعلى أساس هذا الضم السياسى التفضيلى تنتشعب صور عدم المساواة داخل مؤسسات المجتمع ، وبشكل خاص فى المؤسسات الاقتصادية والتعليمية . وهكذا يشيد بنيان علوى شامل يؤدى الى قيام وضع عنصرى عام . ان أى حدث يؤثر على هذا الوضع العنصرى يمكن ان يشعل الصراع . وبما أن البنيان العلوى بأكمله يسان عن طريق السيطرة السياسية فان القطاع الحاكم يستجيب لاية ضغوط ترمى الى التغيير بالسعى الى زيادة قدرته السياسية لكى يحافظ على الوضع الراهن . وهكذا توجد علاقة ديباليكتيكية بين الاجناس بخصوص مدى القدرة السياسية . ان الوعى العنصرى أو العرقى الذى يقوم وينمو هو بمثابة ظاهرة مختلفة تماما عن الوعى الطبقي ، فله جذور اجتماعية مختلفة ، وهو استجابة لتطلعات مختلفة ، ويتجسد فى مطامح مختلفة . ويحتمل أن تتغير اهدافه فى تقلد مراكز السلطة والثراء بصورة أكثر من احتمال التغيير الجذرى لأسلوب امتلاك وسائل الانتاج .

وينبنى هذا النموذج المتعلق بالتغير الثورى على افتراض ان القطاعات العنصرية أو العرقية يواجه بعضها بعضا ككتل متعارضة فى سباق شامل من الانقطاع المتطرف . ولكن توجد دوما الاستمرارية والتقطع فى المجتمعات الجمعية ، كما تشير الى ذلك بوضوح طريقة تحول العنف الثورى نحو الداخل ونحو الخارج ، وأمثلة ذلك الجزائر ( فىراؤدن ١٩٦٢ ) ، وكينيا ( بيوتنهويجس ، ١٩٦٩ ) ، الفصل الثانى عشر ) . ان الجمع بين الاستمرارية والتقطع يؤدى الى غموض فى علاقات الاجناس أو القطاعات العرقية ، فليس ثمة استقطاب تلقائى . ومن ناحية أخرى فان الصراع ليس ببساطة نتاج دسائس الزعماء السياسيين ، على نحو ما تؤكد بعض النظريات الكيفيالية عن الصراع العرقى فى افريقيا . وتوجد قوى اجتماعية تبث على الصراع العنصرى أو العرقى ، ولكنها ايضا تبث فى ظل ظروف معينة على امكانية التغير الثورى المطرد . وبهذا تقدم امكانية الاختيار السياسى ، ولهذا السبب يقترح نموذجان للتغيير السياسى فى المجتمعات الجمعية ، موافقان للاتجاهات السياسية المختلفة فى القطاعات الجمعية التابعة . ويؤكد الأول على المصالحة والتفكير الثورى وعن طريق الضم المطرد على أساس المساواة ، ، بينما ينشد الآخر حلا عن طريق توضيح الهوية القطاعية فى معارضة ديباليكتيكية وتحد ثورى ( كوبر ١٩٦٩ب ) .

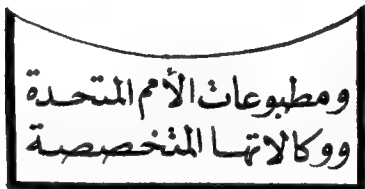
وفى محاولة تقدير امكانية التغيير السياسى الثورى لايمكن افتراض احتمال

التغير السياسى يزداد تلقائيا بتزايد الارتباطات بين القطاعات المختلفة فى الهيكل والثقافة وبصفة خاصة فان بعض توليفات الاستمرارية والتقطع قد تكون مثيرة للصراع . وفضلا عن ذلك فانه فى المجتمعات الجمعية العنصرية ، وبدرجة اقل فى المجتمعات الجمعية العرقية ، تكون الحركة الصاعدة للقطاع التابع قابلة للاسترداد فى الحال . وفى المجتمعات الجمعية بصفة عامة يكون العنف القطاعى المتداخل دافعا قويا للاستقطاب .

وقد يفيد الاطار الذى اقترجه بيلتران ( ١٩٦٩ ، ص ٩٣ - ١١٨ ) فى البحث عن امكانيات العنف الثورى او التغير الثورى المطرد . ويميز بيلتران الازدواج بين القطاعات التقليدية والحديثة ، الجمعية الاساسية او الحضرية العرقية والجمعيات الثانوية التى تشمل الجمعية السياسية ، جمعية التقسيم الطبقي ، الجمعية الدينية والجمعية اللغوية . كما يحلل التفاعل بين الازدواجية والجمعيات ، قائلا بان فرضها يساعد على الاستقطاب منبها الى امكانية تحقيق مستويات عليا من الاندماج بواسطة تقنين عند القاعدة يضمن لكل افراد المجتمع مشاركة متكافئة تقريبا .

وابا ما كان المسلك فان عمليات التغير السياسى فى المجتمعات الجمعية يجب ان ينظر اليها على انها غير محددة . فهى تتأثر بالاختيارات السياسية التى يقوم بها رجال الحركة انفسهم داخل المجتمع ، كما تتأثر بالتدخل الخارجى . وفى الفترة المعاصرة ، مع ان هذا التدخل اثار الصراع ، وصعد العنف بين القطاعات الجمعية، مع قيام الدول الكبرى بشن صراعاتها من اجل السيطرة السياسية فى بلدان الامم الصغيرة ، فانه فى المستقبل ، ومع تطور مجتمع الامم ، ربما يحرك او يعضد عمليات التغير السياسى السلمى نحو المساواة فى المشاركة \*

# المؤتمرات الدولية القادمة



١٩٧٤

أوروبا : الاتحاد العالمي للبريفين عن السلام العالمي ، أول مؤتمر عالمي •  
IAEWP, International Secretariat, Huntsville, Alabama 35762 (United States)

يوغوسلافيا : الاتحاد الدولي للدراسات شرقى أوروبا : المؤتمر الثالث •  
IASERS, 9, Rue I.C. Frimu, Bucharest (Romania).

١٨ - ٢٤ أبريل : الاتحاد الأمريكى للسكان • الاجتماع السنوى :

نيويورك :

Mr. J.W. Bracket, FAA, Box 14182, Benjamin Franklin :  
Station, Washington, D.C. 20044 (United States).

٠ - ٢٧ يونيو : منظمة العمل الدولية : المؤتمر العمل الدولى ، الدورة التاسعة والخمسون

جنيف :

TLO, 1211 Geneva 22 (Switzerland).

يوليه : المجلس الدولى للرعاية الاجتماعية : المؤتمر الدولى السابع عشر •

نيويورك :

MaKnee Katzki, ICSW, 345 East 46th Street, New York,  
N.Y. 10017 (United States)

أغسطس : كوبنهاجن : الاتحاد الدولي للتاريخ الاقتصادي : المؤتمر السادس \*

Professor Dr. J.F. Bergier, Rindlermarkt 6, 8001 Zurich  
(Switzerland)

١٨ - ٢٤ أغسطس : الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع : المؤتمر المالي الثامن لعلم الاجتماع (الموضوع : علم  
توتسو : الاجتماع والثورة في المجتمعات الراحنة ) \*  
ISA, Via Daverio 7, 20122, Milan (Italy)

١٩ - ٣٠ أغسطس : ادارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة : المؤتمر المالي  
نيويورك : الثالث للسكان \*

Department of Economic and Social Affairs, United Nations, New York,  
N.Y. 10017 (United States)

٢٦ - ٢٩ أغسطس : الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي

مونتريال :  
U.S.A, 1001 Connecticut Avenue, N.W., Washington D.C. 20036  
(United States).

سبتمبر : الجمعية الاقتصادية \* المؤتمر المالي الثالث

الولايات المتحدة :  
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 :  
(United States)

١٩٧٥ : المجلس الدولي للرفاهية الاجتماعية : الحلقة الدراسية الإقليمية لآسيا وغرب المحيط الهادئ \*

هونغ كونج :  
Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee ICSW, Ann :  
Black Red Cross Building, Harcourt Road P.O. Box 474 Hong Kong.

٢٥ - ٢٨ أغسطس : الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي \*

سان فرانسيسكو :  
ASA, 1001 Connecticut Avenue, N.W., Washington  
D.C. 20036 (United States)

ديسمبر : الجمعية الاقتصادية : المؤتمر السنوي \*

الولايات المتحدة :  
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520  
(United States)

١٩٧٦ :

فرنسا : الاتحاد الدولي لعلم النفس : المؤتمر الحادي عشر \*

Professor E. Jacobson, Secretary-General, Department of  
Psychology, Michigan State University, East Lansing,  
Michigan (United States)

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسي : مؤتمر

الولايات المتحدة :  
P.B. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520  
(United States)

## مطبوعات الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة

### السكان والصحة والطعام :

#### السكان :

**Methods of projecting the economically active population.**

Manual v. (UN.ST/SOA/SER. A46)

أغسطس ١٩٧١ ، ١١٩ ص

د يمالج هذا المجلد الطرق الأساسية لتخطيط العرض والطلب للقوة البشرية . التكهن بالصعب النشط . الطلب ، ومن ثمة مطالب اقتصاد القوة البشرية . مقارنة بين العرض والطلب .

**Ad Hoc Committee of Experts on Methods of Revising of United Nations Model Life Tables : Morality models and demographic projections (UN/E/CN.9/AC.14/L2).**

مارس ١٩٧٢ ، ٢٧ ص

لم تستخدم الجمعية عند اجتماعها هذه الوثيقة وحدها ، بل وثائق أخرى عدة ، وكذلك ما يتصل بالمشكلات التي ينطوي عليها تحسين محتوى وتطبيقات جداول الوفيات ( وبخاصة دورها في سياسات الصحة ) .

**Report of the joint ECAFE/ILO Regional Seminar on Interrelation between Population and Manpower Problems. (UN/E/CN.11/L.317).**

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٥٣ ص.

السكان وتخطيط التنمية . السكان وسياسات القوى البشرية . تأثير أداء السلطات الشعبية على الوفيات ، والهجرة والنمو السكاني . تأثير التغيرات في الوفيات والمواليد والهجرة على تركيب السكان على أساس العمر والقوة العاملة . التغيرات في معدل النشاط على أساس العمر والجنس وفقا لمستوى التعليم والتدريب .

**The Asian Population Programme : Report on activities, with particular reference to preparations for the second Asian Population Conference. (UN/E/CN.11/L.328).**

فبراير ١٩٧٢ ، ٣٠ ص.

موقف السكان بإقليم اللجنة الاقتصادية لآسيا والشرق الأقصى . تنفيذ البرنامج : الاجتماعات ، الحلفاء التدريبية ، والرحلات الدراسية ، والبحث والدراسات ، والتشرات ، والخدمات الاستشارية ، وخطط عام ١٩٧٢ - ١٩٧٣ .

#### المسحة :

**Control and prevention of occupational cancer, 1972.**

٣٦ ص (منظمة العمل الدولية)

لؤثر العمل الدولي ( الانقاذ الثامن والخمسون، جنيف ١٩٧٣ ) ملخص للتشريع والتطبيق في دول مختلفة . امكانيات التنظيم الدولي . استفتاء يعقب الصياغة بقصد اعداد لاداة دولية تدعى الحكومات للاجابة عليها وابداء الاسباب عن اجاباتها .



## Organization of local and intermediate health administrations.

١٩٧٢ ، ٢٦ ص ( منظمة الصحة العالمية )

(ق م) المبادئ التي تشكل هذه الإدارات • الأغراض والوظائف • خدمات صحية كاملة على المستوى المحلي والمتوسط • إعادة تنظيم الخدمات الصحية • التوصيات •

## Pesticide residues in food.

١٩٧٢ ، ٤٦ ص (WHO) = منظمة الصحة العالمية •

معلومات عن المبيدات ومتخلفاتها • تعيين الجرعات اليومية المرافقة للإنسان • التوصيات •

## World Health Statistics Report.

المجموعة رقم ٥ لسنة ١٩٧٢ ٩٣ ص والمجلد ٢٥ رقم ٦ لسنة ١٩٧٢ ٥٠ ص •

(أ هـ) حلقة من سلسلة متصلة من الإحصاءات عن مدى حدوث مختلف الأمراض وهي تغطي كل العالم ، بالإضافة إلى جداول أسبوعية المتكررة بانتظام ، وتغطي كل حلقة دراسات خاصة ، ومن بينها يجب ذكر الإحصاءات الخاصة بانتشار الحالات المرضية وجدول البقاء على قيد الحياة في رقم ٥ ، وعلى دراسة عن شلل الأطفال من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٧٠ في رقم ٦ •

## الطعام :

### Nutrition, a review of the WHO programme, 1965-1971.

١٩٧٢ ، ٣٥ ص (WHO) = منظمة الصحة العالمية •

(ق م) الأمراض الرئيسية المرتبطة بالذئ ، ومعاونة منظمة الصحة العالمية في هذا المجال • مشكلات التنسيق • البحث • التوقعات •

## Planning and evaluation of applied nutrition programmes.

١٩٧٢ - ١٢٥ ص • منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة •

مضمون هذه البرامج ، وتحديد الأغراض ، تجميع بيانات المراجع ، والتخطيط التخصصي • توسيع البرامج • والتطبيق •

## البيئة :

### Planet in peril ? Man and the biosphere today.

تأليف ر. ف. داسمان ١٩٧٢ ص ، مجموعة بنجوين/يونسكو

لنمو السكان والصناعة أثر قوى على المحيط الحيوي ، أي الطبقة الأرضية الرقيقة نسبياً ، الهواء والماء حيث توجد الحياة • أشكال التلوث والتلوث • الحاجة إلى معرفة جديدة • نحو برنامج دول •

In partnership with nature : UNESCO and the environment. (UNESCO/SC.72/D.81).

- تأليف دانييل بهرام ١٩٧٢ ص ، ١٩٧٢
- مانقوم به اليونسكو لحماية البيئة ، لفقارىء بوجه عام .

#### الاقتصاديات :

- الاحصاءات ، طرق الاحصاء .

A draft system of statistics of the distribution of income, consumption and accumulation. (UN/E/CN.3/425).

- فبراير ١٩٧٢ - ١٩٧٢ ص

هدف وطبيعة الاحصاءات الضرورية فى هذه المجالات • خطوط تمهيدية دولية موجهة • العلاقات بالحسابات القومية وتوازن الاقطاب الورقية • التعريفات والتصنيفات المقترحة • جداول نموذجية •

Handbook of international trade and development statistics, 1972. (UN/TD/Stat/4).

- ٣٧٦ ص ١٩٧٢

كتب عن التجارة الدولية ، يتضمن جداول وفهارس •

A short manual on sampling. Vol. 1. Elements of sample survey theory. (UN/ST/STAT/SER.F/9 Rev. 1).

- ٣٢٥ ص ١٩٧٢

مبادئ • العمليات النظرية التي يتضمنها اخذ العينات • امثلة توضح المجموعات المنوعة للاجراءات • طريقة تنفيذ الحسابات •

Foreign trade statistics of Asia and the Far East 1967. (UN/E/CN.11/939).

- ١٩٦٧ - ١٩٧١ ص ٦٤٧

احصاءات التجارة الخارجية لاسيا والشرق الاقصى •

Economic Commission for Asia and the Far East : Guid lines for children and Youth. (UN/E/CN.11/995).

- ٨٢ ص ١٩٧١

المراد المتبادلة لهذه الاحصاءات • الطرق ( المجموعة والفائدة ) •

Development of Statistics in the ECAFE region : Report of the Acting Project Manager/Director, Asian Statistical Institute. (UN/E/CN.11/L332).

- فبراير سنة ١٩٧٢ - ١٠ ص

يفطى عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، المقررات التطعيمية المطانة - المنح الدراسية • العلاقات الدراسية • الاقليمية ، المطبوعات •

أغسطس سنة ١٩٧١ ، ١٩ ص

يشير هذا الملحق الى تلك المطبوعات التي تبحث في باسوتولاند ، وجنسوانا ، وتشاد واثيوبيا وغانا وليبيريا . الاقتصاد والمشروعات الاجتماعية ، والسكان، والزراعة والتجارة الخارجية والصحة العامة والقوة البشرية والصناعة والمالية العامة والتعليم والنقل .

Collection of tourism in Africa (UN/E/CN. 14/Tras/47).

سبتمبر سنة ١٩٧١ ، ٧٣ ص.

جنول عام للاحصاءات السياحية المنساحة في الدول الافريقية والفروق بينها وبين المبادئ التي نوصى بها الأمم المتحدة والاتحاد الدول ومنظمات السياحة الرسمية ، و به ملحق يتضمن معلومات عن بلاد معينة : الجزائر وبتشوانا وبوروندى والكرونوالكنزو وداهومى ، وجمهورية مصر العربية واليوبيا وجابون وغانا وساحل العاج وكينيا ، ومالاوى ومالى وموريتانيا والمغرب ونيجير ونيجيريا ورواندا والسنتغال وسيراليون والسودان وسوريا وأوغنده ، وفولتا العليا وتنزانيا وتونس وزامبيا .

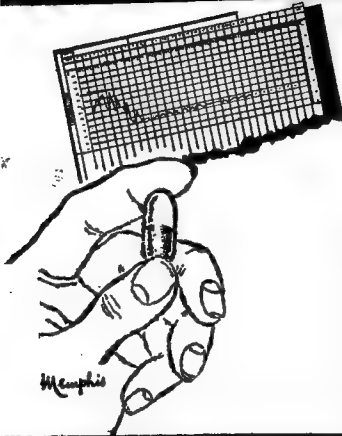
# تَبَيَّنَ

المقال واسم الكاتب	العنوان الاجنبى واسم الكاتب	رقم العدد وتاريخه
♦ محاولات جديدة فى دراسة المشكلات الاجتماعية للشباب بقلم : ليوبولد روزنماير	New theoretical approach to the sociological study of young people by Leopold Rosenmayer	المجلد : ٢٤ العدد الثانى ١٩٧٢
♦ الجغرافيا الاقتصادية والتنمية بقلم : فكتور فولسكى	Economic geography by Victor Volsky	المجلد : ٢٤ العدد الاول ١٩٧٢
♦ علم الاجتماع بقلم جورج بالانديه	Sociology by Georges Balandier	المجلد : ٢٤ العدد الاول ١٩٧٢
♦ التغير السياسى فى المجتمعات الجمعية مشكلات فى الجمعية المنصيرية بقلم : ليوكوپى	Political change in plural societies : Problems in racial pluralism by Leo Kuper	المجلد : ٢٣ العدد الرابع ١٩٧١

## شركة ممفيس الكيماوية

THE MEMPHIS CHEMICAL CO.

THE STAMP OF  
DEPENDABILITY



- تقوم الشركة بإنتاج أحدث مصنع للأدوية  
والمنتجات على مساحة ٣٠ فدان بمنطقة  
الأميرية بالقاهرة .
- تستخلص المواد الفعالة من النباتات الطبية  
المصرية ويصدرها إلى جميع أنحاء العالم مثل  
مواد الحليب من نبات الفول ومواد الأفيونيين  
والأموبيرين من نبات الفلح الشفاف ومادة  
السولاسودين من نبات السولانوم ومادة  
إليكثرين من قشر البرتقال ومادة الروتين  
من نبات الفلح السوداء .
- تنتشر أبحاثها العلمية في كبرى  
المجلات العلمية العالمية .

الفضل لمعجون الأسنان

سيت

أسنان  
بيضاء  
ناضجة

بفضل استخدام معجون الأسنان

سيت

طهر للفم  
منزل للرائحة

إنتاج : شركة تنمية الصناعات الكيماوية « س »  
إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للأدوية

وزارة الصحة العامة والكتب العلمية : شارع شريف كينون : ٧٤٠١٥ - المصانع والإدارة : الطابية شارع البرد بالبحيرة - تلبرك : ٨٥٠٩٢٢



# مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأقل من كتاب  
مخصصة وأمانة باريس.  
ويقيم باختيارها وتخطيطها العربية ثمة متخصصة  
من الامانة العرب، لتتبع إضافة إلى المكتبة العربية  
تساهم في إثراء الفكر العرب، وتحتوي من ملامح  
البحث في قضايا العصر.

تصدر شهرياً

مجلة رسالة اليونسكو

يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

مستقبل البشرية

فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

مجلة اليونسكو للكتبات

مجلة (ديوجين)

مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

العلم والمجتمع

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغات  
الدولية، وتصدر طبعا بالعربية بالانفاق مع الشعب القومية  
للونسكو، ومما تفتت الشعب القومية العربية، ووزارة  
الثقافة والإعلام بمجموعات من العربيه.

التمن ١٠ قروش



المجلة الدولية

للعالم الاجتماعي



• الحاسب الألكتروني  
يتدخل في علم الآثار.

العدد الرابع عشر - السنة الرابعة

يناير - حزيران ١٩٧١

تصدر عن مجلة رسالة اليسكو



مركز الدراسات والبحوث



# المجلة الدولية

## للعالم الاجتماعي

العدد الرابع عشر

السنة الخامسة

١٢ ذي الحجة ١٣٩٣

٥ يناير ١٩٧٤

٥ كانون الثاني ١٩٧٤

### محتويات العدد

- ♦ نهو بيئة حضرية مخططة  
بقلم : وليم س. و. ليم  
ترجمة : الدكتور محمد زكي حواس
- ♦ الصحافة الشعبية والتعدد العنصري  
دراسة للموقف في فرنسا  
بقلم : كوليت جيومان  
ترجمة : الدكتور ابراهيم امام
- ♦ علم الآثار والحاسب الآلي  
نظرة جديدة  
بقلم : جان كلود جاردان  
ترجمة : الدكتور زكي اسكندر
- ♦ الديموجرافيا  
بقلم : ألفريد سوتيه  
ترجمة : الدكتور محمد خليل برعى
- ♦ الاخلاقيات علم اجتماعي نظري  
بقلم : ميهيلو ماركوفاك  
ترجمة : الدكتور محمد قصي الشطي

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

١ شارع طلعت حرب ببيدات التحرير

بالقاهرة

تليفون : ٢٢٤٠٢

رئيس التحرير : عبد المنعم الصاوي

هيئة التحرير : د. مصطفى كمال طلبة

د. محمود الشنيطي

عثمان نوييه

محمود فؤاد عمران

الإشراف الفني : عبد السلام الشريف

# وسائل الاتصال الجماهيرية

اننا محتاجون في بداية هذا الحديث الى الاتفاق على تحديد وسائل الاتصال الجماهيرية ، والتعرف على طبيعتها ، وتحديد وظيفتها ، لنستطيع من خلال ذلك أن نقف على مدى قدرتها على مواجهة تحديات العصر الذي نعيش فيه .

والذي لا شك فيه ان هذه الوسائل قد حملت أكثر من اسم تعارف عليه الناس ، فهي مرة وسائل الإعلام ، وهي مرة طريق للأرشاد القومى ، وهي فى بعض الأحيان نوع من توزيع المعلومات عن طريق مراكز الثقافة الجماهيرية .

ولو أننا استعرضنا هذه المسميات جميعها لوجدنا أنها لا تستطيع أن تستوعب كل المقصود بوسائل الاتصال الجماهيرية . فالإعلام يقتصر على امداد المواطنين بالمعلومات التى تراها وسائل الإعلام لازمة لهم . وطرق الارشاد القومى تكفى بما يتصل بالقضايا القومية ، فتركز اهتمامها عليه . ومراكز الثقافة الجماهيرية تستبعد من دائرة اهتمامها كل ما يتصل بالأحداث الجارية ، وتقدم للمواطنين المواد الثقافية التى لا ترتبط بهذه الأحداث .

وقد تكون هناك مسميات أخرى تطلق على الوسائل المختلفة التى تؤدى هذه الواجبات . ومع هذا فإن هذه الوسائل ، بكل ما تحويه من اختلاف فى التسمية ، لا تعطينا المفهوم الواسع لوسائل الاتصال الجماهيرية . ذلك أن كل وسيلة من الوسائل السابقة ، تعتبر جزءا من وسائل الاتصال الجماهيرية ، لكن كلا منها لا تكفى للدلالة على سمعتها وشمولها .

وسائل الإعلام مثلا تقتصر على الأخبار الجارية ، تمد بها المواطنين ، من طريق الصحف والإذاعة المسموعة أو المرئية .

# في مواجهة تحدّيات العصر

والارشاد القومي يعنى اول ما يعنى بارشاد المواطنين الى قضاياهم القومية عن طريق الاخبار والمعلومات ، وأن يكن الأساس الذي تقوم عليه هو في تفسير الاخبار ، وشرح المعلومات ، وشجذ المواطنين للسير في طريق يراه المشرفون على هذه الوسائل أكفل طريق لتحقيق المصلحة القومية .

أما الثقافة الجماهيرية فان اهتمامها الأول بالمادة الثقافية التي تراها أنسب لتكوين وجدان العام ، وبهذا المفهوم لا تشعر أن مهمتها تتصل بالمعلومات الجارية ، ولا بتفسير هذه المعلومات ، في حين أن وسائل الاتصال الجماهيرية أوسع وأشمل وأعم ، فهي تشمل كل وسائل الاعلام والارشاد القومي والثقافة الجماهيرية .

ولو أردنا أن نحصى هذه الوسائل لوجدنا أنها تشمل كل وسيلة من وسائل الربط بين أجزاء المجتمع ، بالكلمة المكتوبة أو المنطوقة أو المشكلة في صور فنية مختلفة .

والذي لا شك فيه أن الحضارة الانسانية قد بدأت عندما صار الإنسان قادرا على التعبير . وإذا كان التعبير قد مر بأكثر من صورة ، عبر مراحل التطور الحضاري ، فان التعبير بالكلمة قد كان هو الصورة المتطورة لقدرات الإنسان .

ذلك أن التعبير بالكلمة ما كان ليقوم بغير اعتناء الإنسان الى لغة يتفاهم بها . والوصول الى اللغة ظاهرة اجتماعية تدل على وصول الإنسان الى تكوين المجتمع ، والفردية والعزلة والاعتزاب ليست في حاجة الى لغة ، لأن الإنسان يتفاهم باللغة مع سواء ، لا مع نفسه ، ويوم تنشأ ضرورة التفاهم مع الغير فمعنى ذلك أن الإنسان لم يعد وحيدا في هذا الكون ، وإن حياته قد تطورت بالقدر الذي يلزمه

باستعمال لغة مخاطب ، يتعارف عليها مع أفراد آخرين ، يفهمون عنه ما يقوله ، ويفهم عنهم بالتالى ما يقولون .

وعندما تنتقل اللفة من مرحلة المشافهة الى مرحلة التسجيل ، فنلك خطوة أخرى جديدة ، على طريق التقدم .

وتنشأ وسائل نشر الكلمة المكتوبة مع اتساع المجتمع ، والشعور بعدم قدرة اللفة الشفهية على الانتشار فى المجتمع الجديد .

ومع كل اختراع جديد تتطور وسائل نشر الكلمة بين أفراد المجتمع ، حتى نصل فى النهاية الى تعدد هذه الوسائل ، مع تعدد المختبرات الجديدة .

والذى لا شك فيه أن كل وسيلة جديدة من وسائل التعبير بالكلمة تحدث تغييرات فى شكلها ومضمونها مما

لكن تبقى الكلمة - مع هذا - فى اية صورة من صورها ، وبأى مضمون تحملها ، وعاء لفكر الانسان .

على أن الكلام فى هذا بطول ، ولعلنا مضطرون لأن نحصر الحديث فيما انتهت اليه وسائل الاتصال الجماهيرية ، لتبين وظيفتها فى مواجهة تحديات العصر .

وإذا كانت وسائل الاتصال الجماهيرية تشمل كل الأدوات القادرة على نشر الكلمة ، أو نشر الفكر الانسانى من خلال الكلمة ، وأنها بهذا الفهم أوسع وأشمل وأعم من أن تقتصر على وسيلة واحدة ، أو عدد من الوسائل محدوده ، فإن تحديات العصر تتسم بمشغل هذا القدر من السعة والشمول والعمومية .

ولعلنا فى هذا الحديث أن نكتفى ببعض نماذج للتدليل على الواقع الذى نعيش فيه ، وما يواجهنا فيه من تحديات .

ولسنا نتجاوز الواقع اذا قرنا ان التزايد الهائل فى عدد سكان هذا الكوكب قد بات يشكل أكبر التحديات فى عصرنا .

ومع تزايد السكان تزداد أهمية وسائل الاتصال الجماهيرية ، للربط بين الملايين العديدة من المواطنين ، بفهم مشترك للقضايا العامة ، وتقدير مشترك لواجبات المواطنين فى هذا العصر ، وتبادل العلم بالمشكلات الأساسية التى لا يجوز الجهل بها .

واذا كان المسلم قد فرض بتطوره نوعا من التخصص ، تختلف درجاته باختلاف المجتمعات ودرجات تطورها ، فإن دور وسائل الاتصال الجماهيرية يصبح أهم ، فى مواجهة نوع جديد من التحدى .

ان التخصص معناه ان يتخصص كل انسان بجانب من جوانب الانتاج . وفى مصنع واحد للسيارات مثلا قد يصل عدد التخصصات التى يشهدها المصنع الواحد الى أكثر من مئة تخصص . وقد يكون صاحب تخصص فى انتاج جزء من أجزاء السيارة لا يدري شيئا عن صاحب تخصص آخر فى انتاج جزء آخر . وقد يكونان متجاورين فى طابق واحد .

معنى هذا أن كل فرد قد صار منتجا لنوع معين ومحدود من انتاج ما .

لكنه - مع هذا - فرد فى مجتمع ، يحيا حياته الخاصة ، ويحتاج الى استهلاك كل أنواع الانتاج الأخرى .

هو من ناحية منتج لنوع معين من الانتاج . لكنه مستهلك لسانر أنواع الانتاج الأخرى .

ولعل هذا التخصص ، بمختلف صورته ودرجته ، يضع الانسان امام أحد تحديات العصر .

فهو محتاج الى أن يتعرف على جوانب الانتاج ، ليحدد موقفه منها بصفته مستهلكا لها .

عندئذ لا نجد صيغة أخرى أنسب من وسائل الاتصال الجماهيرية،  
لتؤدي دور تقديم ثمرات العلم ، وشرحها ، وبيان استعمالاتها ،  
للمستهلكين جميعا .

ان التكاثر السكاني من ناحية ، والتخصص الدقيق من ناحية ،  
قد فرضا على وسائل الاتصال الجماهيرية واجبات واضحة فى ربط  
الملايين بحد أدنى من المعلومات الضرورية لتكوين الرأى العام . كذلك  
فرض التطور العلمى ، وتخصصاته الدقيقة ، على هذه الوسائل أن تؤدي  
دور التعريف بإنجازات العلم ، حتى يتم استهلاكها على أساس من العلم  
بها وبفائدتها لحياته الخاصة .

هناك بعد هذا نوع من التحدى اسفر عنه التطور .  
ان العلم يتقدم فى عصرنا تقدما مذهلا ، ولكن هذا التقدم قد يفرى  
علماء العالم ، تحت ضغط السياسة ، او استعراضا لقدراتهم ،  
باتجاهات مدمرة .

ان العالم الذى اخترع الطائرة ، لتيسير الانتقالات بين المسافات،  
هو نفسه الذى اخترع قاذفات القنابل ، والعالم الذى اكتشف الميكروبات  
ليقضى عليها حماية للانسان ، هو نفسه القادر على تكثيف هذه الميكروبات  
ليقضى بها على مجتمع آخر ، فى حالات الحرب المدمرة وغير الأخلاقية .

معنى هذا أن التطور العلمى محتاج الى نسوع من الأخلاقيات ،  
يضبط هذا التطور ، ويحول بينه وبين الانحراف عن القصد .

والاخلاق ظاهرة اجتماعية . وعندما يسقط النور فى المجتمع  
الانسانى فان خط الجريمة يصبح أقل . ان اللص يسرق فى الظلام ،  
فاذا اضاء النور خاف أن يضبط متلبسا بما يسرق .

وهنا يتحتم على وسائل الاتصال الجماهيرية أن تعمل بجهد  
لتثبيت نوازع الخير فى ضمائر العلماء .

والعلماء قبل أى شئ هم جزء من المجتمع ، فاذا نجحت وسائل  
الاتصال الجماهيرية فى ان تشيع ايمانا بأخلاقيات ثابتة ومقدسة فى



المجتمع فان العلماء سيجدون انفسهم متجهين نحو هذه الاخلاقيات  
التي تكفل للعلم قدره وتوجهه نحو خير الانسانية ، لا نحو تدمير  
الحضارة .

ومع هذا فنحن نعلم ان الذي ينفق على العلم هو الدول ، والذين  
يديرول الدول ساسة قد ينحرون او يتمصبولون او تعميولهم اطماعول ،  
فيرغولون العلماء على انجازات مدمرة .

لكن وسائل الاتصال الجماهيرية قادرة مع هذا على التاثير على  
الساسة انفسولهم ، ليصدولوا قراراتولهم متفقة مع ما تؤكده وسائل  
الاتصال الجماهيرية من القيم .

وهكذا فان وسائل الاتصال الجماهيرية تتحمل مسؤولية كبرى فى  
العمل الاجتماعى ، وعليها ان تنهيا لتحمل مزيد من المسؤولية ، يرضها  
تطور العلم والمجتمعات .

ان هذه الوسائل قد صارت تشكل كيانا له تاثيره على الجماهير فى  
كل مكان . ومن صالح الانسان ان يحيطها المجتمع بكل ضمانات الحرية ،  
لتؤدى دورها فى صدق وامانة ، لتثبت الاخلاقيات اللازمة لمنع  
الكوارث فى عالنا .

**عبد النعم الصاوى**

# نحو بيئة حضارية مخططة

يحتاج التعمير الى تنظيم • ويؤدي التعمير السريع بدون تخطيط الى تخبط ، ويؤدي التصنيع والانفجار السكاني كعنصرين أساسيين الى النمو العمراني السريع وغير المنظم • وفي العقود القادمة سيبلغ معدل التعمير المخطط (١) وخاصة في البلاد النامية ما سيؤدي الى امتداد أبعد من كل قياس للاضافة المحتملة لبؤس الانسانية ما لم تبذل جهود كبيرة وتعاون لدراسة هذه المشكلة والتمكن منها •

## المفهوم العالي للتخطيط

ان الجهود المبذولة حتى الآن للتحكم وتنظيم واعادة بناء المدن القائمة غير كافية • وهناك مدن عديدة لها تخطيط شامل ، ولكن لم تتح لمعظم هذه المخططات حلول مرضية او فعالة (٢) •

---

(١) الأمم المتحدة ، قسم الاقتصاد والشؤون الاجتماعية « النمو السكاني الحضري والريفي » ١٩٢٠ - ٢٠٠٠ ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، ١٩٦٩ « دراسات سكانية رقم ٤٤ الفصل الرابع » •  
(٢) ت.ت.ب. كوه ، ووليم س.و. ليم « قوانين ولوائح التخطيط باستغاورة » النشرة القانونية باللاير • المجلد ٢ لسنة ١٩٦٩ •

## بقلم : وليم . س . و . ليم

مهندس معماري ، وخبير في تخطيط المدن ، ومستشار تنمية .  
محاضر غير منفرغ في العمارة وتخطيط المدن في كلية الهندسة  
المعمارية وكلية الحقوق بجامعة سندافورة . له عدة مؤلفات  
في مشاكل التعمير والتخطيط .

## ترجمة : الدكتور محمد زكي حواس

أستاذ العمارة المساعد بكلية الهندسة بجامعة عين شمس .  
حاصل على دكتوراه التخطيط والعمارة من زيورخ بسويسرا  
في ١٩٦٢ في تخطيط المراكز الصناعية ، يقوم بعمل عدة  
مشروعات تخطيطية ومعمارية بجمهورية مصر العربية ، من  
مؤلفاته : فن البناء ، الكميات والمواصفات وشفرات التنفيذ ،  
كتاب ألجيب للمهندسين . جداول حواس الهندسية ، الجداول  
التنفيذية ، المسطرة المعمارية الحاصية ، مدخل في الانشاء  
المعماري ( تحت الطبع ) .

ومع ذلك فإن هذه المخططات الشاملة قد منعت في حالات كثيرة حدوث ما هو  
أسوأ، وذلك بتنظيم أنواع النمو وشدته وبالإبقاء على الأراضي الفضاء . وتختنق المدن  
بالسيارات اختناقاً شديداً . وتحتاج اللوحات التخطيطية لاستعمالات الأراضي وتوزيع  
المناطق لإعادة تقويمها ، كما أن قيمة الحياة لم تتحسن ، وتعفت كل البيئة المحيطة ،  
وأصبح الانتقال إلى العمل ومنه يحتاج إلى وقت أكثر ومسافات أطول . كما أن تلوث  
الهواء وحوادث المرور في ازدياد مطرد . وعموماً فإن مناطق المدن الأكثر انسانية  
وأهمية تتآكل أو تستبدل شيئاً فشيئاً . ومعظم المدن الجديدة المخططة والتي تم  
تنفيذها في العقدين الآخرين صغيرة نسبياً ، ولم تتطور بشكل كاف يسمح بتقويم  
صحيح لها . وقد يساعد الأسلوب الفني ( التكتيكي ) المعاصر تركيبه على جمع  
المعلومات وعمليات العقول الالكترونية على تصحيح بعض من عدم الدقة الإحصائية في  
المشروعات التخطيطية . ومع ذلك فإنه من المشكوك فيه أن تكون النتيجة الملموسة  
تحسيناً محققاً في مفهوم التخطيط الحى ، حيث إن النظرية الأساسية للفكرة قد تصبغ  
قديمة بتغير الظروف . ونقص المدارس اللازمة ومشروعات الإسكان والمناطق المفتوحة  
وتفاقم مشكلة المواصلات والاستخدام غير الاقتصادي للأراضي المتاحة هي النتائج

المباشرة في المدن غير المخططة أو المخططة تخطيطا سيئا . ونظريات النمو الشريطي ( الحطى ) المختلفة ومفهوم التروبوليتان المركزية (١) قد تبدو هي النتيجة الحتمية والنطقية لأسلوب النمو العمراني في المجتمعات الصناعية التي تقبل تحكم وسيطرة السيارة والاسكان ذي المرافق البسيطة نسبيا .

### السيارات الخاصة / الضواحي

ان السؤال هو : أولا ، هل علينا أن نقبل دون مناقشة الاعتماد على السيارات الخاصة للانتقال بها الى العمل والعودة بها منه ؟ وثانيا ، هل الاسكان المنخفض الكثافة أساسى للطبيعة البشرية بدرجة يستحيل معها تنمية الاسكان بشكل أكثر تركيزا ؟

لقد واجهت المدن الاقبال المطرد البشرى على اقتناء السيارات الخاصة بمشاكل لا حل لها . والمحاولة التي لا بأس بها لحل هذه المشاكل وخاصة في مناطق وسط المدينة أصبحت تجربة تحمل الفشل في طياتها . ومع أن هذه المحاولات قاصرة عن ارضاء أصحاب السيارات الخاصة فانها كذلك قد أدت الى اتلاف عام في وظيفة وسط المدينة وبيئتها المحيطة ، كما أن لها تأثيرا مضادا على الدخل وعلى كفاءة أداء النقل العام . ومن المشكوك فيه قدرة المدن على البقاء ، اذا استخدمت السيارات الخاصة وسيلة أساسية لنقل السواد الأعظم من الناس الى العمل ومنه . وامتداد الضواحي ونموها أمر يلقي تشجيعا بسبب الظروف المعيشية غير المرضية في داخل المدينة ( المناطق الحضرية ) . وفي الوقت نفسه فان الاسكان المنخفض الكثافة كخاصية لنمو الضواحي يتطلب مزيدا من الطرق الأكثر اتساعا لاستيعاب السيارات الخاصة .

ان الضاحية لدى الهروب . وقد أثر انتشار الضواحي المستمر بشدة على وصول سكان المدن بسهولة الى الريف ، وعلى وقت الانتقال المتزايد ، والتصاعد المستمر في نفقات المرافق ، والامتصاص المستمر لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية . وان التهاافت على الضواحي لهو نتيجة حديثة لسهولة قدرة الحصول على سيارة خاصة في مجتمع مزدهر . وأساسا فان الناس قد انتقلوا الى الضواحي ليكسبوا اتصالا سهلا بالريف . وقد خلقت الهجرة الجماعية للجماعات المتوسطة الدخل الى الضواحي نوعا معينا من الطبقة التي تخلو من الميزات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة .

**الحل الممكن :** يقدم تقرير باخانان (٢) كمستند مفيد تعريفا واضحا لسيادة وأهمية الطرق ، ومشاكل المرور بالمدن والمناطق المتاخمة . ومع ذلك فان أحسن وجهة

(١) بيتر هول ومدن العالم لندن . مكتبة الجامعة العالمية ، ١٩٦٧ .

(٢) حركة المرور في المدن : دراسة في مشاكل المرور بميزة المدى في المناطق الحضرية ، لندن

هيمس . ١٩٦٣ وتقارير عن قائد السيارات والعاملين صادرة عن وزير النقل .

نظر في التخطيط الطبيعي قد قدمها إيكستيكس (١) متبلورة في نظريات الانتوبيا (٢) والايكومينوبوليس (٣) : وقد صنف إيكستيكس بدراسة شاملة المستوطنات البشرية نوعيا وقياسيا ، وقد تبدى ناتجا حتميا غير قابل للمناقشة للتطور العالمى فى المستقبل . فقد عزلت السيارات وغيرها من وسائل الانتقال السريعة عن حركة المشاة ولم تعط أى تحديد بالنسبة لدرجة تطور أو نمو مرفق الاسكان . وقد اعتبرت أن التكنولوجيا والازدهار سوف يكونان عالميين على درجة كافية من التقدم لتيسير تحركات سريعة للاتصالات على مدى المسافات البعيدة . وعلى كل حال فقد اعترفت النظرية بأن نهج مخطط النمو يعتمد على المدينة الديناميكية ذات الخلايا الاستاتيكية ، وان تناول الحل انما هو بأسلوب التجربة والخطأ ، محددة نفسها بالتفكير فى خطوط مستقيمة فى حين ان التطور يتخذ مساره فى منحنيات (٤) .

ومن الضروري أن نبين هل اساسات مفهوم ايكستيكس تقدم حلا مرضيا يمكن تطبيقه عالميا ، فحتى مع ادخال معدل التعمير السريع فى الاعتبار فانه من المشكوك فيه أن تكون الشبكة المستمرة والشاسعة للتجمعات العمرانية ضرورية أو حتى مرغوبا فيها ، الا اذا كان الهدف هو تقديم مرافق اسكانية منخفضة الكثافة . اذ أن تكاليف المرافق الاسكانية باهظة وتتطلب اشرافا قويا وتعاوننا وجهدا من السلطات . وسيكون من الصعب التنبؤ بالتقدم الاقتصادى على النطاق العالمى بالقدر الذى ييسر الحصول على المواد الضرورية . وعلاوة على ذلك فان شبكة التعمير الكثيفة لن تؤدي الا الى خلق مراكز ثانوية متعددة الى لامركزية حتمية والى تحقيق مفهوم اللامدينة . وليس للبلاد النامية بديل لمواجهة التحدى فى عمليات التعمير فى العقود القادمة سوى البحث عن حلول اخرى فى المدى الذى يصل اليه مستوى المراحل المخططة والموارد المتاحة .

### المدن/القطاع البيئى

هل يقدر للمدن بقاء ؟ ان المدينة مكان للمعاملات الانسانية ، كما أنها تعطى طاقة التغيير الدافعة ، وخاصة فى دولة نامية . وهى تعطى التعبير عن حبنا وكرهنا ، عن قوتنا ، عن خمولنا وعن قصورنا . وهى تظهر أحسن وأسوأ ما فىنا ، وهى مكان للمحافظين والرهبان والهيبيز وآخرين غيرهم . انها مكان تخلق فيه الأفكار وتدور المناقشات الدسمة المتعددة على مختلف المستويات ، ويعبر عن الأفكار المتطرفة المنحرفة فى صورة ذات معالم حادة الرضوح .

(١) إيكستيكس : نشرة عن مشاكل وعلم المستوطنات البشرية .

(٢) س ٠ ١٠ دوكسيادس ، بين ديستوبيا ويوتوبيا ص ٥١ - ٥٢ ، لندن ، فاير ، ١٩٦٨ .

(٣) س ٠ ١٠ دوكسيادس إيكومينوبوليس «تجمعات المستقبل» اثينا مركز اثينا لايكسنس ١٩٦٨ ،

فصل ١ ، المقدمة (أسى تقرير مجموعة مطبوعات أسى رقم ١) .

(٤) س ١ دوكسيادس بين ديستوبيا ولوتوبيا .

هذه الصورة الضرورية للمدينة يجب أن نقرها وأن نحافظ عليها ، ولا ريب أن هناك تغييرات يجب أن تأخذ مجراها . ومهما يكن من عملية التغيير فيجب أن لا ندمر ما هو أحسن فعلا ، ويجب أن يكون لكل مدينة طابعها المميز ، فإن المدن يمكنها أن تبقى في هذا العالم السريع العمران إذا كانت مخططة بمقومات نمو ديناميكية . ولن يكون التخطيط كافيا لمواجهة المتطلبات المتغيرة . ويجب أن تظل المدينة في حالة تجديد ذاتي دائم الاستمرار ، ومتطورة بشتات لمواجهة العوامل المتغيرة . ويستلزم ذلك إصدار قوانين ولوائح التخطيط اللازمة ، كما يتعين أن يكون فهم مبدأ اقتصاديات الأراضي أكثر وضوحا ، وخاصة في الدول غير الاشتراكية ، فقد أصبح التحكم في توزيع المناطق الفاصلة طبقا لتخصصات مختلفة أمرا عفى عليه الزمن .

ويجب أن تكون الفواصل محددة في نطاق كل قطاع يبنى بواسطة طرق مرور رئيسية ، وتنظيم استعمالاتها المسموح بها بالحساب طبقا لحجم المرور النابع من قلب القطاع ، وكذلك طبقا للعوامل البيئية الأخرى ، يعني هذا أن قدرا خاصا من المرافق سيسمح به في داخل كل قطاع لخدمة التقدم التجاري والسكني وحتى الصناعي . وسيكفل ذلك مرونة كبيرة في نماذج ومعايير التقسيم في كل قطاع ، كما ستتغير طبيعة الاستعمالات في القطاعات وقيمتها . وستكون القطاعات الواقعة في المنطقة المركزية للتجارة ، كما سيكون تغلب الاستعمالات السكنية في المناطق البعيدة عن المنطقة المركزية ، وسوف يزيد التركيز في كل قطاع تبعا للتجديد والتطور في النقل ، مثل نقل وسائل الجماهير بالجملة والنقل العام .

## التصنيع

يؤثر التصنيع على القيمة الانسانية وعلى التغيير الثقافي وعلى طبيعة التصرفات ومنهجها . كما يخلق النمو التكنولوجي الازدهار الذي يخلق بدوره متغيرات أبعد . وبصفة عامة فإن التغيير يحدث في البلاد النامية متمشيا مع معدل النمو الصناعي والتكنولوجي . وسوف يكون علينا تعديل وتوفيق القيم الثقافية والتاريخية لتلائم الظروف الجديدة ، فلا يمكن الاستمرار فيها بلا تغيير . وقد يكون لزاما علينا تدهيها قبل أن تثبت بقصد أو بغير قصد . فللتكنولوجيا مقاييرها وقيمتها الخاصة ، وكلها مؤثرة .

وإذا كانت القيم الحضارية متعارضة مع المتطلبات التكنولوجية فإن هذا سيتطلب تغييرها ، والا فإن معدل التطور سوف يتأثر بصورة عكسية . ومما لا مراء فيه أن البلاد النامية لا تستطيع التمسك لأى مدى زمني بقيمتها الثقافية والتاريخية على حساب تقدمها وتطورها . وسوف تجد كل ثقافة طريقها للتعبير خلال دلائل وأساليب التطور التكنولوجي والصناعي ونتائج هذا التطور .

ان الأساس النظرى لتناول مشاكل أمراض المدن هو أساس عالمى مشترك . ولا بد أن يعتمد التنفيذ الواقعى على الموارد المتاحة وعلى المعرفة التكنولوجية لتصريف الأمور فى البلاد المختلفة . وتؤثر العوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية والمناخية بلا شك على مفهوم التخطيط والعمارة فى تفاصيلها الدقيقة . كما أن أسلوب التقدم فى النقل ومستواه سوف يؤثران جذريا فى قوة التطور ونوعياته واستعمالاته ، كما يؤثران فى نمط السكن والبناء وأسلوبه ، وفى النهج الاقتصادى لاستثمارات الأراضى بداخل القطاعات . ولعله صحيح أن الموارد المحددة للبلاد النامية لا تتيح لها إلا الحد الأدنى من الوحدات السكنية . وعلى أى حال فإن قيمة البيئة سوف تعتمد بالضرورة على قدرة المصمم على خلق ما يتفاعل ويذوب فى الهيكل الاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

### التجديد العمرانى

يعتمد الى عمليات التجديد العمرانى كوسيلة لاعادة بعث الحياة فى المدن . وبالرغم من بلوغ أهداف محددة أحيانا كتوطين النمو التجارى فى المنطقة المركزية بالمدينة واعادة تبني مشروعات الاسكان لتوسيط الدخل فقد فشل التجديد العمرانى فشلا ذريعا فى حل أزمة الاسكان بالنسبة لمحدودى الدخل حتى فى المجتمعات المزدهرة ، وأنه ليطين أنه اذا استمر برنامج التجديد العمرانى فى عمليات الهدم حتى آخر عشة أو خربة فإن مشكلة الاسكان سوف تصبح أسوأ بشكل ليس له مثيل ، كما أن الظروف المعيشية السكنية لمحدودى الدخل ستزيد بؤسا مع كل عملية هدم (١) . وأنها لضرورة اقتصادية أن يكون لدينا برنامج تجديدى للتمكن من اعادة احياء المنطقة المركزية بالمدينة كى تقدم الأراضى اللازمة للتقدم التجارى ولتحسين الطرق والخدمات . ولكن من المشكوك فيه أن انشاء أعداد كبيرة من الوحدات السكنية الشعبية فى مكان المساكن العتيقة سوف يحقق أهدافا سياسية واجتماعية بسبب انخفاض مستوى الدخل نسبيا لسكانى الأحياء القديمة ، وخاصة فى الدول النامية . ويجب تفهم الواقع الاقتصادى لسكانى الأحياء العتيقة ، وأن يوضع ذلك فى الاعتبار لأن الناس لا يقطنون الأحياء العتيقة عموما إلا لأنهم فقراء وليس فى مقدورهم سبيل آخر (٢) .

وسيكون من المستحيل تنفيذ أى مشروع ببرنامج تجديدى عمرانى شامل يقتضى ويتضمن انفاق مبالغ طائلة فى البلاد النامية ذات الموارد المالية المحدودة والدخول

(١) م. ابراهيم والمدينة فى الحد الفاصل، ص. ١٧٩ ، نيويورك ، هابر ، دو ، ١٩٦٥ .

(٢) وليم . س . و . ليم «اعادة الاسكان : حل ممكن للأحياء العتيقة فى البلاد النامية» ، مجلة معهد المهندسين الحضاريين بسنغافورة ، نوفمبر/ديسمبر ١٩٦٧ ، بحث مقدم للمؤتمر الأفرىقي الآسيوى للابيسكان بسنغافورة فى أكتوبر ١٩٦٧ .

الفردية المنخفضة . ومن الواضح أن الدول النامية ستواجه بشكل مستمر مشكلة الأحياء العتيقة لعدة سنوات . والتجديد العمراني الذي يتضمن إزالة تلك الأحياء على نطاق واسع وإعادة التطوير والإصلاح بطريقة شاملة لا يصلح أن يكون أسلوبا مقبولا لتحسين حالة تلك الأحياء العتيقة في الدول النامية . وما دمنا نتناول موضوع المتخلفين اجتماعيا وسياسيا ، وهم ليسوا بالضرورة أكثر أعضاء المجتمع الآن نشاطا وأصواتا ، فإن هناك اتجاهًا قويا لعدم عمل أي شيء على الإطلاق لهؤلاء الناس في فترة ما قبل التطوير الصناعي الكامل ، وبالتعبية زيادة نسبة دخل الفرد . وانه من المريح دائما اعتبار أنه لا يمكن أو لا يجوز عمل شيء بالمرّة في هذه اللحظة لتقويم تحسينات على الهامش نحو البيئة المعيشية في الأحياء العتيقة .

### التعمير بلا تصنيع

وتواجه عدة بلاد نامية لسوء الحظ معدلا سريعا من التعمير لا سابقة له ، وذلك بلا درجة مقابلة من التطوير أو التصنيع . ولا تخلق فرص العمل هنا بسرعة كافية في المدن ، كما أن الانفجار السكاني قد حدث بفضل تطبيق العلوم الطبيعية وهبوط نسبة الوفيات . كما زادت كذلك الهجرة من المناطق الريفية الى المدن ، ومعظم المهاجرين بلا أعمال وبدون وسائل عاشة ، ومن ثم تتفاقم حالة الأحياء العتيقة . وأسوأ من ذلك بالبلاد النامية حالة اللا مأوى في عديد من مدنها الكبيرة . وهؤلاء الناس لا يستطيعون حتى الحصول على الحد الأدنى من المأوى ، وإن محاولة تقديم مأوى لهؤلاء الناس لتتعدى نطاق الموارد الاقتصادية للحكومات وامكانياتها (١) .

وبعد عشرات السنين من الفكر المشوش عن الأزمات العمرانية في البلاد النامية فانه من الممكن الآن تحديد المشاكل بصورة أكثر وضوحا . فيجب أن نحفظ بالأحياء العتيقة ، كما يجب أن نحسن مناطق العشش ولا نزيلها . ويجب أن نقصد في الموارد ، وأن نعطي الأولوية لإنشاء الحد الأدنى من المساكن ، مع تشجيع التمويل السليم (٢) .

وعلى أية حال فلن يكون واقعيًا افتراض أنه في الامكان التغلب على أزمة الاسكان ، حتى إذا كانت الموارد المالية والمساعدات الخارجية متاحة ويمكن الحصول عليها . ويجب أن يكون معلوما أنه لا حل لإزمة الاسكان في البلاد النامية بدون حل مشكلة البطالة أولا . فما هو الواجب عمله الآن ؟

قد يكون من الممكن تقديم حد أدنى من الخدمات والمرافق مع شبكات الطرق

(١) الفريد ب. فان هايك «عمليات الاسكان للجماعات ذات الدخل الدنيا» .

(٢) تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة عن الاسكان ، البناء والتخطيط في المرحلة الثانية للتنمية لهيئة الأمم المتحدة ( وثيقة الأمم المتحدة E/C.19.6 ) .



اللازمة وادخال المشروعات الذاتية المساعدة • وقد تكون أية محاولة لتصميم وبناء المأوى الأكثر بدائية أبعد من نطاق الامكانيات والموارد المتاحة • وقد يصمم المشروع لتيسير الحد الأدنى من الخدمات الصحية ومنع نشوب الحرائق ، كما قد توضع المخططات التى تتيح لهذه المناطق تكاملا من المجتمع ، وترفع من مستوى تطورها بالتدريج على فترة زمنية •

ولقد يكون حتى هذا المدخل أبعد من قدرات بعض الحكومات وامكانياتها • ولما كان هناك ميل من الناس للتدفق الى المدن الكبرى القائمة فيجب أن تفرض الرقابة لتنظيم معدل الهجرة ، كما يجب بذل الجهود لتشجيع الهجرة للمدن الصغيرة؛ حيث أن إنشاء المرافق للمدن الكبرى بلا شك باهظ التكاليف • فإذا كان هذا كله ما زال غير كاف فإنه سيصبح من الضروري التحكم تماما فى الهجرة الى المناطق الحضرية برمتها •

### المشاركة العامة

تحضر المخططات وتعتمد كذلك وتنفذ بواسطة التكنولوجيين المتخصصين والسياسيين والاداريين • ومع تطور المجتمع فإن تأثير التخطيط يتناول ويشمل عدة مجالات متعددة من الحياة العادية •

قد يكون هذا ممكنا اذا أصبحت عملية التخطيط أكثر شمولاً ؟ يجب أن تكون المعلومات متاحة بلا قيود ، كما يجب أن تناقش المخططات والاتجاهات ، وأن تشجع المؤسسات المحلية على التجاوب مع التنمية فى برامج التنمية الصغيرة «الميكروبرامج» - ويمكن للمتخصصين المحترفين وللمجموعات المتعددة النشاط خارج السلطة الادارية تقديم التحليل والنقد اللازم ، لنكون مستندين الى قاعدة أكثر اتساعاً • ولكن أيا كان ذلك كافيا ؟ ربما لا ••• ولكن على أية حال فإن الحكومات يجب أن تكون على بينة من ضرورة النقاش التخطيطى المستمر وفائدته ، وأن تقدم سبل اتصال مناسبة مع الجماهير ، بل تقدم ما هو أكثر من مجرد النصيح للاحتياجات الواقعية • وألا فإن عملية التخطيط سوف تعفى قديما فى انهزالية متزايدة على أيدي المسؤولين ، منفصلة عن الأساس والمشارع الجماهيرية ، كبعبها عن التأييد الممكن من المهنيين المتخصصين من الخارج ومن المجموعات المتعددة النشاط •

### مفهوم التخطيط

لا يمكن خلق العماره من فراغ • ان عمارتنا هى نحن أنفسنا ، فان كرمناها فانما ذلك لأننا نكره أنفسنا (١) • ويجب أن تصمم المباني على أرفع مستوى معاصر من الأساليب والإفكار ، ويجب أن يكون ذلك مصحوبا بتسهيلات اجتماعية وترفيهية

أخرى . فاذا كان على المهندس المعماري أن يركز جهده كله في انتاج مبان شخصية أو فردية فان تأثيره وتداخله في انبيئة العمرانية سيكون محدودا وغير فعال وستصبح المحاولات الواعية ضرورية لتدريب المهنيين واتاحة الفرص لهم لكي يعملوا في مجموعات متعددة النشاط .

والبيئة العمرانية المرضية لا يمكن خلقها بال تكرار اللانهائي للنماذج العادية للمباني ، وان كان هذا الأسلوب قد يقدم حلا مقبولا في حالة المواجهة مع احتياجات انتفاعية محددة .

وفي حالة التطور الشامل ستنشأ الحاجة الى أساليب جديدة لمواجهة متطلبات أشد تعقدا . وسوف ينسب مدى التعقد ودرجة التطور الى الموارد التكنولوجية والاقتصادية المتوفرة . كما سيحتاج ذلك الى المجموعات المتعددة النشاط والتكاملة من المهنيين لمواجهة هذا التحدي . وسوف يحتاج لمثل هذا الفريق ليلقي نظرة فاحصة على الامكانيات المعمارية ، كما يجب أن يتحرروا من التحكم في التطور وتقييده في حدود نماذج المباني النمطية . وليس عليهم الا أن يقدموا الهيكل اللازم بأركان واضحة عن نوعية الاستعمال وكثافة التطور ، كوجوب توضيح المتطلبات الناتجة عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة في مشروعات اسكان الجماعات الكبيرة ، حيث تقام بلوكات انتفاعية متكررة ، فان هذا الأمر هام حتى لو استخدمت طرق انشائية حديثة ، والا نتجت بيئة مملة وغير انسانية وغير جذابة كمساكن علب السردين الموجودة بالضواحي .

ان المعرفة عالية ، ومع ذلك فان النقص في الفنيين المهرة ذوي المستوى العالي الكافي في الدول النامية هو السبب الأوحده والخطير في مجهودات مواجهة مشاكل التعمير . والدراسة العلمية والتحليلات وقوانين التخطيط والاطار الاداري لعملية التخطيط هي أمور في غاية الأهمية . ومع ذلك فان مجموعات المحترفين المتعددة النشاط والمتحمسة وعلى مستوى عال من المعرفة مطلوبون لاستيعاب المشاكل واتخاذ الحركة المطلوبة .

ويجب على كل دولة البحث عن الحل الخاص بها ، وهناك احساس بالياس وفقدان الأمل بسبب الامكانيات المحدودة الممكن الحصول عليها بالدول النامية ، وكذلك لأن من

(١) روبرت فوردنو جورداني : « آفاق مصرية » ، القرن العشرين ، صيف ١٩٦٢ .

المستولين من لا يقدمون على اتخاذ قرار له خطورته ، تفاديا منهم لمواجهة التحدى وتحمل المسئولية .

وفى حالات كثيرة قدمت حلول غير عملية - قد يكون بعضها أحيانا من عمل خبراء من دول أجنبية - ولكنها قدمت كاقتراحات لا توجد امكانيات تنفيذها وتحقيقها .

وبدون التعرض لنظريات التخطيط التحليل والمؤتمرات والندوات الملحقة بالتدريب فى معظم المدارس المعمارية فى المناطق الحارة فانه لم يبدل حتى الآن أى مجهود شامل لتكوين نظرية تخطيطية فى مفهوم مواجهة لمعالجة أزمة التعمير فى البلاد النامية .

### الخلاصة

والخلاصة أنه لمواجهة تحدى مشكلة التعمير الحضري المتفاقمة يجب أن تبدل مجهودات عاجلة لاقامة فكرة أساسية للتخطيط وخاصة فى البلاد النامية .

أما اذا كانت فكرة التخطيط هذه قابلة للتطبيق عالميا فهذه مسألة تستحق البحث . وعلى الحكومات أن تعبر مشاكل التخطيط العمرانى اهتماما أكبر ، وأن تخطو خطوات واضحة فى سبيل التطبيق . والمدخل المتمدد الجوانب سيكون هاما جدا فى محاولة الوصول الى حلول مناسبة لبيئة عمرانية مخططة .

ان الجهود العالمية والتعاون مطلوبان لتحريك برامج الأبحاث ، ولتقديم المعلومات الممكنة ، وزيادة فاعلية الخبرة والمعرفة . وقد يكون من الممكن بل يجب تشجيع المشاركة العامة فى التخطيط . وسيمكن تحدى الأزمات الحضرية فى العقود القادمة اذا ما وجدت الجهود الكبرى والعزيمة المخلصة الكافية .

# الصحافة الشعبية والعدد العنصري

## دراسة للموقف في فرنسا

هذا المقال هو المعاونة في القاء الضوء على العلاقة بين لغة الصحافة والمجتمع التي يتحدث تلك اللغة ، وهو مدخل غير عادي الى حد ما لدراسة العلاقات العنصرية ، ذلك أن الحاح المشكلات المدروسة يحول الانتباه بصفة عامة بعيدا عما يسمى باعتبارات الشكل ، ومع ذلك فأنني أرى أنه من الممكن القيام بمساهمة جديدة للبحث في الموضوع عن طريق النظر في المعاني ، لأن العلاقة بين اللغة والمجتمع ليست مجرد علاقة ارتباط ميكانيكي ، فعندما نتعمق تحت السطح نتكشف معنى للعلاقات بين الجهات . ففي مجتمعات عصرنا الصناعي تتخذ هذه الصلات زاوية معينة ، كما أنها تكتسب مضمونا عنصريا ، يكون فيه العنصر عاملا رئيسيا ضمن مجموعة مركبة من المعاني ، ولا تكون الحقيقة الاجتماعية الخام هي العنصر كخاصية طبيعية وإنما كعلاقات عنصرية ، فليس العنصر سوى عامل دلالي ضمن موقف اجتماعي ، ولهذا السبب يمكن أن نأمل في أن يسفر التحليل اللغوي ، بطريقة ايضاح خصائص العلاقات الاجتماعية من

## بقلم : كولينت جيومان

الباحث بالمركز القومي للبحث العلمي بباريس • له مؤلفات  
عديدة في العنصرية وعلم الاجتماع •

## ترجمة : الدكتور إبراهيم إمام

عميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة • خريج جامعات القاهرة ،  
واكستر ، وبرمنجهام ، واكسفورد • زميل معهد الصحافة  
الدول باستراسبرج • عضو جماعة العلاقات العامة بلندن •  
نولى منصب رئيس مجلس إدارة وكالة أنباء الشرق الأوسط  
( ١٩٦٣ - ١٩٦٦ ) • عمل رئيساً لقسم الصحافة بجامعة  
القاهرة • ثم عميداً لمعهد الإعلام الذى تحول هذا العام الى  
كلية • له مؤلفات أهمها : تطور الصحافة الانجليزية ، فن  
الإخراج الصحفى ، فن العلاقات العامة والإعلام ، العلاقات  
العامة والمجتمع ، الإعلام والاتصال بالجمهور ، دراسات فى  
الفن الصحفى ، وكالات الأنباء •

---

### حيث اتصالها بالعانى ، عن معلومات جديدة ، مما يساعد على تبديد بعض نواحي الخاط الشائعة بين الظواهر الطبيعية والظواهر الدلالية •

ومن الواضح أن فكرة العنصر موجودة فى عالم اليوم ، كما أن مضمونها مستقر  
فى كل المجتمعات المتأثرة بالتوسع الصناعى الغربى على الأقل ، ولكنها تستخدم بطرق  
متنوعة ، فهى قد تغطى كل الجماعات العنصرية الكثيرة فى مجتمع ما ، وهو أكثر  
الاستخدامات شيوعاً ، ولكنها قد تستخدم بالنسبة لحالات محددة ، كما سيوضح من  
دراستنا للمعنى ، وسنرى أن ذلك يتضمن اختلافات فى النتائج العملية وفى العلاقات  
بين الجماعات •

أما الأسباب التى جعلتنا نفضل الصحف اليومية الكبرى على أى نوع آخر من  
الطبوعات للقيام بهذه الدراسة فيمكن تلخيصها فى أنها ترتبط بطبيعة الصحافة  
الفرنسية • وسوف نبدأ أولاً بمعرفة خصائص المجتمع الفرنسى المعاصر من الزاوية  
العنصرية ، دون أن يغيب عن بالنا أن الحالات العنصرية الاجتماعية تختلف فيما بينها  
كثيراً ، كما أن العلاقات تتأثر بعدة عوامل كالتفوق العدى والتركيب الاقتصادى

الاجتماعى والسوابق التاريخية المختلفة فى كل مجتمع من المجتمعات . ومن خلال ذلك كله نجد أن الصفات والملامح العنصرية تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا .

### ما نوع المجتمع ذى العناصر المتعددة

أن التعدد العنصرى هو من المفاهيم التى تتضمن أكثر من معنى . فالمجتمع بتركيبه السكانى والاجتماعى والاقتصادى يعطى لتعدد العنصرى شكلا محددا بلا شك ، غير أن الأساس السياسى يعطى ذلك أيضا ، ولذلك فانه من الضرورى أن نبدأ بتوضيح أى نوع من المجتمعات نتحدث عنه هنا .

فالمجتمع الفرنسى غير عادى تماما بالنسبة لتنوعه العنصرى ، فهو يتكون من جماعة الأغلبية التى تزيد زيادة كبيرة عن أى جماعة أخرى ، بالإضافة الى عدد من الجماعات الأخرى الصغيرة غير المحددة نسبيا ولا تشكل فى مجموعها جبهة متحدة فى مواجهة جماعة الأغلبية السائدة . وقد استمر الحال على هذا المنوال لمدة طويلة من الزمن ، وذلك فيما يبدو منذ مولد المجتمع الصناعى (١) . ويتجه العرف الى اعتبار المجتمع كله قطعة واحدة بقليل من التنوع أو بلا تنوع بالمرّة ، فهو مجتمع يتكون من أفراد أكثر منه مجتمعا يتكون من جماعات عنصرية اجتماعية . وعبارة « الشعب الفرنسى » تعنى جميع المواطنين ذوى الجنسية الفرنسية ، دون تمييز من حيث اللون أو الدين ، الخ . ومن الناحية النظرية يتمتع كل فرد بالحقوق السياسية والقانونية ، وهذه هى النظرة الغالبة مع شىء من التنوع فى درجات النجاح وبعض النكسات المؤقتة (٢) ، وهى الصورة التى كونها المجتمع الفرنسى عن نفسه ، بالرغم من تناقضها مع الحقائق . ولا تخلو هذه الصورة من الأهمية ، رغم أنها لا تجد التعبير عنها فى الواقع ، فهى على الأقل تفسر المبدأ المرشده للمجتمع الفرنسى ، وكذلك الفكرة عنه التى يمكن أن يكتسبها المواطنون من الشباب اثناء سنوات تكوينهم .

وفى الواقع توجد مساواة قليلة بين حالة الجماعات الوطنية والجماعات الأجنبية التى يتكون منها المجتمع ، سواء بالنسبة للظروف المعيشية أو القوة العددية .

---

(١) كان المجتمع قبل ذلك متجانسا كوحدة واحدة ، لا عن طريق الاستيعاب وانما عن طريق الاستبعاد . فقد كان الولاء الدنى والولاء الدينى للفرد متداخلين متكاملين ( أما العنصر - بالمعنى المفهوم اليوم - فلم يكن له وجود ) . وكان يرى فى الجماعات التى تمارس ديانات غير كاثوليكية كاليهود والبروتستانت أنها خارج المجتمع قانونا . أما الفجر الذين كانوا يدينون بالكاثوليكية فلم ير فيهم بوضوح جماعة متميزة ، ويتضح لنا ذلك من الصعوبة التى تواجهنا اليوم عندما نريد أن نتعرف عليهم فى الوثائق القديمة ، حيث يشار إليهم بأسماء كثيرة مختلفة .

(٢) بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٤ - مثلا - أصدر نظام الحكم الذى عرف باسم «الدولة الفرنسية» قوانين عنصرية .

ففى فرنسا يوجد الى جانب المواطنين الفرنسيين جماعات اجنبية تمثل نحو ٦٪ من جميع السكان (١) ، وتختلف التقديرات اختلافا كبيرا باختلاف المصادر ، وعند القيام بالتعداد الرسمى لا يدخل جميع الاجانب ضمن هذا التعداد ، كما ان التقديرات الأخرى تختلف باختلاف درجة الكراهية التى يشعر بها المؤلفون نحو الاجانب . ومع ذلك فعند أخذ متوسط هذه التقديرات المختلفة يمكن افتراض وجود نحو ثلاثة ملايين شخص من غير ذوى الجنسية الفرنسية يعيشون فى فرنسا سنة ١٩٧١ .

وفى حقيقة الأمر يتكون السكان الاجانب من جماعات مختلفة افرقية واوروبية اساسا ، وهى غير متجانسة من حيث الثقافة والدين والأصل الجغرافى ، كما انها - كقاعدة عامة - ليس لديها نية البقاء فى البلاد او الاستقرار فيها . والأغلبية العظمى تاتى الى فرنسا للعمل بصفة مؤقتة ، وتعود الى المجتمعات التى جاءت منها بعد بضعة شهور او بضع سنوات . وبعض المهاجرين الأوربيين يستقروا فى فرنسا ، وبعد ثلاثة اجيال ينظر اليهم على أنهم قد اندمجوا ولم يصبحوا جماعة متميزة داخل المجتمع (٢) . ونلاحظ فى هذا الصدد أن أعضاء الجماعات الأجنبية يندمجون بلا شك سريعا فى المجتمع الفرنسى كافراد ، بدلا من بقائهم كجماعات وفقا لأصولهم ، كما يحدث فى بلاد كثيرة كالولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، ومع ذلك فإن هذا لا يصدق الا فى حالة الأشخاص المرتبطين ثقافيا ، وقد أوضحت البحوث التى أجريت على الأوربيين من البلجيك والاسبان والىطاليين والبولنديين ذلك الاتجاه بصورة جيدة ، وقد يصدق ذلك أيضا بالنسبة للأشخاص من غير الأصول الأوروبية ، ممن استبقروا فى فرنسا خلال الفترة نفسها ، أى أثناء العقدين الأولين من هذا القرن .

وقد أسفرت المواجهة بين جماعة الأغلبية فى المجتمع والجماعات الأجنبية عن أمرين : اما أن تعود هذه الجماعات الأخيرة الى الأماكن التى جاءت منها ، واما أن تندمج فى المجتمع ، وذلك بنسبة قليلة من الحالات . وينبغى ملاحظة أن هذه الجماعات هى أشد الجماعات تأثرا فى الوقت الحاضر بالتمييز والعدوان . مثال ذلك أنه بعد قطع العلاقات البترولية بين فرنسا والجزائر وقعت فى سنة ١٩٧١ عدة حوادث من الاعتداء المادى ، بما فى ذلك القتل ، ضد الأشخاص ذوى الجنسية الجزائرية ، كما أن صحافة

---

(١) هذه النسبة ثابتة بدرجة ملحوظة ، وكانت هى النسبة قبل الحرب العالمية الثانية ، أى قبل خمس وثلاثين سنة مضت .

(٢) راجع مثلا ماكنيه -الآن جيرار وجان ستوتزل- بعنوان « فرنسيون ومهاجرون » الاتجاه الفرنسى . تكيف الجزائريين والىطاليين والبولنديين » ، طبعة باريس ، المطابع الجامعية بفرنسا سنة ١٩٥٣/١٩٥٤ (جزءان) . وكذلك كتاب كريستيان بينيدي بعنوان: « طراز من الهجرة السياسية فى وسط الاكويتين ، اللاجئين الاسبان فى القرن التاسع عشر » بمجلة الوقائع الجغرافية ، المجلد ٣٠ ، سنة ١٩٥٩ . وكتاب شارلوت رولان « من الجيتو الى الغرب » ، طبعة باريس ( دى بليوى ) ١٩٦٢ .

الجناح اليميني أخذت تصعد حملتها العنصرية المعادية للعرب ، وكانت بعض أنواع هذه المشاعر المعادية قد بدت زمن حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ (١) . وقد كانت أهمية مبدأ الجنسية ملحوظة في رد الفعل عند الحكومة ازاء احتجاجات الجزائر ، فالحماية الممنوحة يجب أن تكون تلك التي يتمتع بها « المواطنون الفرنسيون » . والحساسية للجنسية تشتد كثيرا في بلد له تقاليده الثورية والاندماجية ، ويصعب الاعتراض القالب ضد أى شخص من الوجهة العنصرية أنه غير فرنسي ، وهذا مايعبر به المواطنون الفرنسيون من الزنوج واليهود ، وهو رد فعل مألوف ازاء أى ادراك للاختلاف .

واذا كان الطابع الأجنبي يختفى في غضون جيلين أو ثلاثة فإن هذه العملية تتم عن طريق الاندماج الدقيق ، ذلك أن صفة الاختلاف تظل باقية حتى يتم التكامل نهائيا ، ومن الأفضل أن يأتي التزاوج بمثابة اقرار بذلك التكامل ، وإى شيء يبقى من رواسب الماضي يصبح متناقضا مع الجنسية الفرنسية .

وهكذا تكون الجنسية عاملا جوهريا محسوسا في العلاقات العنصرية ، ومع ذلك توجد جماعات من الأقليات الوطنية أيضا ، وهي أصغر من بعض الجماعات الأجنبية ، كما أنه من الصعب تقدير حجمها ، وذلك لأن المجتمع المدني القائم دستوريا على عدم التمييز لايقوم بإحصاء على أساس لون الجلد أو العقيدة الدينية ، وباختصار على أساس الاختلافات العنصرية والاجتماعية . غير أن عددا من التقديرات التي كثيرا ماتقوم بها الجماعات نفسها تعطى فكرة تقريبية عن الجماعات الرئيسية . وبفرض أن هناك ثلاثا من تلك الجماعات ( مع استبعاد البروتستانت الذين لايشكلون جماعة عنصرية اجتماعية وانما يشكلون جماعة خاصة من الناحية الدينية فقط ) هي : الأشخاص القادمون من الأقاليم الفرنسية عبر البحار ، واليهود ، والفجر (٢) . ويحتمل أن يكون عددهم نحو ٥٠٠ر٠٠٠ من الزنوج ذوى الجنسية الفرنسية ( بما فى ذلك ٢٠٠ر٠٠٠ من مواطني جزر المارتنيك ، و١٥٠ر٠٠٠ من مواطني جوادلوب ، و٨٥٠ر٠٠٠ من مواطني روينيون ، و٢٥٠٠٠ من غيانا ) ، وموقف هؤلاء يختلف اختلافا كبيرا وفقا للمكان الذي يقطنونه في فرنسا وكذلك الأقاليم الأصلية التي أتوا منها . ولا تذكر الحولية الإحصائية لفرنسا أرقاما عن الهجرات الداخلية ، ولكن يمكن أن نفترض وجود عشرات الآلاف من هؤلاء الناس الذين يعيشون في فرنسا ( أما الرقم الرسمي وهو

(١) ومع أن الجماعة الجزائرية ليست أكبر الجماعات فقد كانت بلاشك أكثر الجماعات تعرضا للمعوان والعداء العنصرى ، ويتضح ذلك من الدراسات الميدانية والحوادث اليومية .

(٢) وهي جماعات تعتبر عنصرية من ناحية الثقافة ككل ، ولكن ذلك لا ينطبق على البروتستانت . وهناك أقليات أخرى ولكنها صغيرة للغاية ، كتلك التي تتكون من أشخاص قادمين من المستعمرات السابقة واكتسبوا الجنسية الفرنسية واستقروا في فرنسا .



٦٠٠.٠٠٠ فهو اقل بكثير من الرقم الحقيقي (١) . ويبلغ عدد اليهود ٥٠٠.٠٠٠ ، اما تقديرات عدد الفجر فتتذبذب بين ٢٠٠.٠٠٠ وضعف هذا الرقم . وباختصار لا يتجاوز عدد اى جماعة من هذه الجماعات أكثر من نصف مليون شخص ، مقارنة بنحو خمسين مليون شخص يكونون جماعة الاغلبية . ويجدر بنا ان نتأمل النسبة لانها تعطى للتعدد العنصرى صفة خاصة .

وتتكون جماعة الاغلبية من أكثر من ٩٥٪ من الوطنيين ذوى اللون الواحد ، كما انهم يدينون أساسا بدين واحد (ففى فرنسا يعمد ٨٣٪ من السكان تعميدا كاثوليكيا) وكذلك يشتركون فى الثقافة واللغة (٢) . اما جماعات الاقلية وهى جماعات صغيرة جدا بالمقارنة مع الاغلبية فهى لا تبرز تماسكها الا كنتيجة للتمييز الذى تشعر به الاغلبية نحوها . والجماعة التى يمكن ان تبلغ أقصى درجات الاتحاد نتيجة لتمسكها انشدبد بثقافتها - وهى الجماعة اليهودية - لها على الأقل اطاران مرجعيان مختلفان ، أو ثقافتان ، اذا ما اعتبرنا أن طقوس الاشكناز والسفاراديم وتقاليدهما مختلفة . وقد كانت نتائج هذا الموقف أشد وضوحا فى التاريخ المعاصر بسبب وصول ذوى الاقدام السود (٣) ، وبعضهم من اليهود السفاراديم ، مما أكد حدة الاختلاف . اما القادمون من جزر الهند الغربية والمارتنيك وجوادلوب وغيانا فانهم لا يشتركون فى شيء مع القادمين من روينيون ، ومع ذلك فان جماعة الاغلبية ترى فيهم جميعا أنهم زنوج . وهناك الجماعات الأفريقية القادمة من دول أخرى ، وهم الزنوج أيضا ، مما يضيف نوعا من الغموض حول المسميات العنصرية . وقد تحمل لغة أهالى جزر الهند الغربية وثقافتهم وتطورهم السياسى على توقع أن يقوى التماسك بين جماعات الهند الغربية ، وربما الجماعات الفينانية والهندية الغربية ، لا بين جميع السكان الذين يعتبرون زنوجا . وكذلك نجد أن اصلاح النور أو الفجر يشتمل فى الحقيقة على ثلاث جماعات ( الروم ، والكال ، والمائوش ) (٤) الذين يقطنون ، بالإضافة الى ذلك ، فى مناطق مختلفة .

---

(١) جميع الأرقام المذكورة فى تواريخ بين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧١ ، وكذلك الأرقام المأخوذة من مصادر مختلفة (د كالمعهد القومى للاحصاء ، وتقديرات الجاليات والحركات المناهضة للعنصرية وغيرها ) ، هى أرقام تقريبية . ولم تذكر هنا الا لأنها تشير الى النسب المدنية بين الجماعات ، ولا يمكن القول بأنها دقيقة حسابيا .

(٢) بحث اللغات الاقليمية ظاهرة جديدة مؤخرا ، وفى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان معظم هذه اللغات قد اندثر ، وفى الوقت الحاضر لا تؤثر حركة البحث الا فى عدد قليل من الناس .

(٣) يستخدم هذا الاصطلاح عادة للإشارة الى الرعايا الفرنسيين المائدين من شمال أفريقيا .

(٤) اصطلاح الفجر يستخدم أيضا بالتسمية للتسيجان ، وهؤلاء مثل الروم والكال ينتسبون الى منطقة جغرافية وأصول ثقافية . فالتسيجان والروم ينتسبون الى أواسط أوروبا ، أما الكال فينتسبون الى حوض البحر الأبيض المتوسط . وينطبق هذا أيضا على الاصطلاحين المبرزين الاشكناز نسبة الى أوروبا الشرقية والبلاد الجرمانية والسفاراديم نسبة لحوض البحر الأبيض المتوسط .

ولا شك أنه لا يوجد انفصال كامل بين جماعة الأغلبية في فرنسا وجماعات الأقلية ، ذلك أن التعليم الإلزامي لجميع المواطنين يؤدي دورا هاما ، بالرغم من أنه لا يصل الى جميع الفجر ، كما أن له صفات خاصة في الأقاليم عبر البحار ، وتبقى الحقيقة قائمة وهي أن جماعات الأقلية الثلاث لها الى حد ما توجه شبه في المجالين الثقافي واللغوي ، مقارنة بالتجانس الثقافي في جماعة الأغلبية (١) . ومع ذلك فهناك اختلافات أخرى واقعية بين جماعات الأغلبية والأقلية ، وهي اختلافات لها من الوزن أكثر مما للاختلافات الاجتماعية الثقافية ، كما سنرى فيما بعد .

وهناك نقطة هامة حول الانتماء الى جماعة معينة ، وهي مسألة الوضع القانوني . فأغلبية أعضاء جماعات الأقلية ( لا جميعها ، وهذا أمر هام أيضا ) يخضعون للوائح خاصة ، ذلك أن حقوقها وأوضاعها ليست هي الحقوق والأوضاع العادية التي يحق للأغلبية أن تتمتع بها بحكم وضعها القانوني . فمن بين الفجر قوم رحل ( ٣٥ ٪ ) يخضعون لنظام تسجيل خاص ولوائح تحكم الإقامة ووقوف المركبات وغيرها . وفي الأقاليم عبر البحار يوجد نظام خاص للمرتبات والتأمين ، كما أن هناك لوائح تشبه اللوائح الجمركية تحكم التبادلات الاقتصادية مع فرنسا ، وهكذا . ومن الناحية النظرية لا يشكل كون الشخص يهوديا أى عوائق قانونية ، ولكن الجمارك المقيدة التي يعمل بها ضد جماعات الأقلية ، مثل فقرة العدد ، لا ينجو منها اليهود ، وخاصة أنه لا توجد عقبات قانونية ، فالقيود القانونية ، فوق ذلك ، ليست سوى واحدة من أشكال كثيرة من السلوك العنصري الذي يؤكد التمييز الواقعي .

يضاف الى ذلك أن التركيب السكاني لكل من جماعات الأقلية الأجنبية والأقلية الوطنية ليس مماثلا في العادة لجماعة الأغلبية ، فهذا الأخير يشتمل على متنوع الأجيال من الأطفال والراشدين والشيوخ ومن الجنسين فيما يمكن اعتباره نسبيا عادية (٢) . ويختلف الأمر عن هذا بالنسبة للجماعات الأخرى . فالأجانب ، من أى أصول كانت ، لهم خاصية سكانية ، ربما ترجع الى الفترة المحيطة التي يقضونها في البلاد ، والأغلبية العظمى منهم من الرجال . وكلما كانت بلادهم الأصلية بعيدة أصبحت الخصائص المميزة لهم أكثر وضوحا ، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك الملايين والموريتانيين والسفاليين والأتراك ، فهذه الجماعات يمكن اعتبارها متجانسة من حيث قلة عدد الشيوخ والنساء والأطفال ، وهي جماعات تتكون من رجال غير متزوجين . ويصدق

---

(١) اللغات الخاصة بجماعات الأقلية مثل الكريول والرومانس واليديش وغيرها لا تستخدم في الحياة اليومية الا في بعض المناطق الجغرافية المحدودة ، ولكنها لا تزال لغات حية . ومع ذلك فهناك اختلاف كبير بين الأجيال . ففي حين أن الكثير من كبار السن يتحدثون لغة الأقلية أفضل من اللغة الفرنسية نجد أن جيل الشباب يفهمها ولكنها قلما يتحدث بها .

(٢) المقصود بالعادية او الطبيعية المعنى الاحصائي طيبا .

ذلك أيضا الى حد ما على الأهلالي القادمين من الأقاليم الفرنسية عبر البحار ، فيما عدا النسبة بين الجنسين فهي قريبة من النسبة العادية ، كما أن فيها رجالا ونساء . وقد يكون الأمر متشابها بالنسبة للجماعات الأجنبية القادمة من بلاد قريبة كالاسبان مثلا . أما جماعات الفجر واليهود فلا تتصف بتلك الخصائص المميزة ، إذ أن بناءها السكاني يشبه كثيرا بناء جماعة الأغلبية ، بالرغم من أنه يحتمل أن يكون متوسط العمر بين الفجر أقل منه بين جماعة الأغلبية . ومن هذه الناحية يمكن اعتبار الجماعة القادمة من جزر الهند الغربية جماعة مختلطة . ففي اقليم المارتنيك وجوادلوب نجد أن البناء السكاني قريب من البناء السكاني في بلاد العالم الثالث ، كما أن الأهلالي صفار السن جدا ، أما في فرنسا نفسها فإن البناء السكاني لهذه الجماعة يشبه البناء السكاني للمهاجرين الأجانب .

يضاف الى ذلك أن البناء الاقتصادي الاجتماعي يختلف بعق من جماعة الى أخرى . فجماعة الأغلبية تختلف في تركيبها الطبقي اجتماعيا واقتصاديا اختلافا كبيرا ، على الرغم من التشابه الكبير بينها لغويا وعنصريا وثقافيا . ولما كانت هذه الجماعة تمثل الشعب كله تقريبا فإنه من الصعب أن يكون الأمر غير ذلك ، ولو أنه من الممكن أن تصور هذه الجماعة غير ممثلة في طبقات معينة ، إلا أن هذا ليس صحيحا في واقع الأمر ، لأن هذه الجماعة تدخل في كافة الطبقات والقطاعات الاقتصادية والأعمال والمستويات .

وإذا كان التنوع الاقتصادي والاجتماعي في الجماعة اليهودية يقترب الى حد كبير من تنوع جماعة الأغلبية دون أن يكون مساويا له تماما ( فنسبة الحرفيين وتجار التجزئة أكبر في حين أن نسبة المزارعين أقل ) فإن ذلك لا يصدق على الأقليات الأخرى . وجماعة الفجر تشتمل على نسبة مرتفعة من الباعة المتجولين ( ٣٧ ٪ ) والحرفيين ( ٣٢ ٪ ) وعدد قليل جدا من عمال الصناعة وأعضاء المهن الحرة ( ٥ ٪ و ٣ ٪ على التوالي ) ( ١ ) ، أما أهالي الأقاليم الفرنسية عبر البحار الذين يعيشون في فرنسا نفسها فهم يعملون أساسا في قطاعات معينة كمرافق المواصلات وخدمات البريد والصحة ، وبمعنى آخر في قطاعات من الدرجة الثالثة .

وتنحصر الجماعات الأجنبية من جميع الجنسيات في نطاق صغير من الأعمال : منها أولا أعمال القطاع الثانوي وخاصة صناعة البناء ( ٤٠ ٪ ) وصناعة التعدين ( ٢٠ ٪ )

(١) لا يسمح المقام هنا بالدخول في موضوع الأصول التاريخية والاقتصادية لهذه الخصائص التي تميز جماعات اليهود والنجر ، ولكن الإشارة الى أن هذا البناء يرجع في الأصل الى طائفة من القيود الاقتصادية والاجتماعية والمهنية التي ترجع الى الماضي والتي لم تترك لهم أي امكانية للعمل في غير الحرف أو التجارة . ولذلك فإن الطرز النمطية لهذه الجماعات قد تأثرت بهذه القيود والمحظورات تأثيرا عميقا .

— ولا يوجد سوى ١٠٪ فقط في الخدمات العامة والزراعة — ثم يأتي في المكان الثاني بعض الأعمال في المجالات التي تعكس فيها مستويات الأجور ضعف المؤهلات ، ذلك أن ٨٨٪ من الأجانب هم من العمال العاديين أو المهرة (١) .

ومن النتائج الرئيسية لذلك الاختلاف بين التكوين الاقتصادي والاجتماعي للجماعات أن معظم أفراد جماعات الأقلية ينقصهم المأوى المناسب ، فظروف الاسكان يرثى لها ، وهي تسهم الى حد كبير في وصم هذه الجماعات ، على الطريقة التي يلام فيها ضحايا موقف معين للظروف الشائنة التي كتب عليهم أن يتحملوها (٢) . وقد ينجح البعض في الحصول على ظروف أفضل في المساكن العامة من نوع أو آخر ( المساكن أو الفنادق المريحة أو الحجرات المفروشة ) ، ولكن الأغلبية الساحقة منهم يسكنون في العشش والأكواخ حيث يعيش البرتغاليون والجزائريون في بنايات مؤقتة أو ورش مهجورة أو غيرها من المباني التي يقطنها الملاويون والموريتانيون والسنغاليون ، وأحيانا في الأراضي العامة مع قلة المرافق أو انعدامها ، وأحيانا أخرى بين أكوام القمامة ، حيث يضرب الفجر خيامهم . ومن وقت لآخر تبلغ أخبار الوفيات الناجمة عن هذه الظروف اسماع الأغلبية التي قد تكون عاطفة أو كارهة أو غير مبالية ، وهي ظاهرة إقتصادية اجتماعية غير جديدة ، وقد كان اسكان الفقراء فاجعا منذ بداية نشأة الحضرة في البلاد الصناعية ، وعندما نقرا أنه « لمدة سنوات كان ٥٤١ عاملا أفريقيا يعيشون محشورين في إحدى عشرة حجرة ٠٠٠٠ وأن كل شيء عفن ، وأن أحدا لا يستطيع أن يتحرك الا بصعوبة بين الأسرة المكدمة بعضها فوق بعض » (٣) فانما نقرا عن المهاجرين من الأقاليم في القرن التاسع عشر « انهم محشورون معا ، ينام كل ثلاثة أو أربعة منهم على سرير ، ويوجد في الحجرة الواحدة أربعة أسرة أو خمسة . أما الحجرات فصفيرة رديئة التهوية . وقد قدموا من كروز أو فيين العليا ٠٠٠ وهم يمكنون سنوات قليلة ثم يعودون ٠٠٠٠ » (٤) .

ولا يسع المرء الا أن يدهش لهذه العلاقة الثابتة المطردة بين الهجرة وانخفاض مستوى الاسكان .

(١) في تصنيف العمال وفقا لمراتبهم في فرنسا تستخدم عبارة « العمال المهرة » للدلالة على أدنى مستوى من المؤهلات على العمال غير المهرة مباشرة .

(٢) وقد أكد ذلك جان بيير بيتر بالنسبة للفلاحين في القرن الثامن عشر بقوله : «في كل مكان نجد البطالة والبؤس والموت . وذلك — على حد قول الأطباء — نتيجة قرون الظلام التي كان فيها الظلم يخيم على الانسان ويصر صميم إنسانيته . ثم انهم يمرون عيشا عن ضيقهم بما يمتدرونه بحق نتيجة للظلم ، ولكنهم يردونه ضد الضحايا ويتسككون به كشكوى ضدهم » ( « جسم الجريمة » في المجلة الجديدة للتحليل النفسي ، للمجلد الثالث ، ١٩٧١ ) .

(٣) جاك تينسي في « الحق والحريّة » العدد ٢٨٤ .

(٤) فيليب أريسي ، تاريخ الشعوب الفرنسية ، صفحة ١٤٣ - ١٤٤ ، مطبوعات دو سوى ، ١٩٧١ .

فجماعات الأقلية ، اذن ، يتميزون بخصائص اجتماعية أكثر من تميزهم بلامع عنصرية . ومن الواضح أنه باستثناء اليهود الذين لهم بناء اقتصادى واجتماعى يقترب كثيرا من بناء الأغلبية ، دون أن يكون مطابقا له تماما ، فإن الأقليات سواء الوطنية أو الأجنبية معزولة بفعل العوامل السكانية والاجتماعية والاقتصادية ونوع العمل . وهكذا تختلط المسميات العنصرية بهذه التقسيمات ، فكلما كانت الجماعة مغلقة على نفسها كان من المرجح أن ينظر اليها كعنصر . ويجدر بنا أن نذكر أن أوجه الاختلاف الواقعية فى الحياة العملية أكثر دلالة من لون الجلد أو بعض الفروق العنصرية الافتراضية (١) .

## أنواع الصحف

وبالرغم من أن فرنسا من البلاد التى تتمتع بنسبة مرتفعة من التعليم نجد أن استهلاك الصحف فيها ليس مرتفعا ارتفاعا كبيرا . وفى هذا المجال تأتي فرنسا فى المرتبة الثانية بعد البلاد المتحدثة بالانجليزية . ومع ذلك فتوزيع الصحف اليومية الكبرى مرتفع ، وأكثر الصحف توزيعا « فرانس سوار » ، وهى منتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وتوزيعها ١٢٥٠.٠٠٠ نسخة ، وأما « لوموند » فهى أرفع الصحف ثقافة ، ويعتبر البعض أن قراءتها صعبة ، وهى تباع ٤٥٠.٠٠٠ نسخة . وهناك عدد كبير من الصحف الإقليمية التى يتحصر قراؤها فى مناطق جغرافية أصغر .

وتتضمن الصحف أيضا دوريات أسبوعية لها نوعها السياسى المتميز وتوزيعها الصغير ، مثل « الأكسبريس » ( ٦٥٠.٠٠٠ نسخة ) ، « وفرانس ايزرفاتور » ( ٢٥٠.٠٠٠ نسخة ) ، و « مينوت » ( ٢٢٥.٠٠٠ نسخة ) ، و « كارفور » ( ٤٥.٠٠٠ نسخة ) . وهى صحف تعبر عن الآراء ولكنها تركز اهتمامها على الأنباء . وبعض الصحف الأسبوعية الأخرى لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالأخبار ، ولكنها تركز جهودها للتصوير الفوتوغرافى لأحداث الساعة ، أو بعض الزوايا الخاصة من الحياة اليومية . وبعض هذه الصحف ذات توزيع كبير ، ولكنها محدودة الاهتمام بالنسبة لفرضنا ، ففيها اشارات الى العلاقات العنصرية أحيانا ، ولكنها غالبا نمطية للغاية .

ومن ناحية أخرى يوجد عدد كبير من الدوريات التى يصل توزيعها الى بضع مئات من الآلاف ، ولكن ليس لها أقل اتصال بالأخبار أو قضايا الساعة .

---

(١) ويظهر الميپ فى الحجة القائلة بأن الجنس واضح فى الإدراك المشوش ولكنه مؤكد عند التحديد الاقتصادى والاجتماعى للجماعات العنصرية من أهالى جزر الهند الغربية وأفريقية . فبالرغم من أنهم جميعا زوج من الناحية النظرية فإن حرفهم التى يشتغلون بها تجعل الناس ينظرون اليهم أحيانا بطريقة مختلفة . فبالرغم من وجود التشويش فالنتيجة هى حدوث بعض التشكك .

وقبل أن تنتقل إلى الصحافة الشعبية يجب أن نذكر شيئا عن هذه الصحف التي تبدو ظاهرة عامة في البلاد اللاتينية وتقرأها الجماهير . فهي تحتوي على القصص الغرامية والرومانسية والبوليسية وغيرها من القصص الخيالية ، وهي تعلق أهمية كبيرة على العنصر الذي تنتمي إليه كل شخصية (١) .

فموضوعات هذه الصحف بعيدة عن المواقف الواقعية ، ولذلك فانا يمكن أن نفترض أنها تعالج عالما خاليا يعيش فيه الآخرون على المستوى الدلالي فقط . فمن الواضح أنها قصص قريبة من القصص الأسطورية . وفي هذه الدوريات والمجلات الشعبية من هذا الطراز تقدم العلاقات العنصرية في شكل غير محدد الزمان أو المكان ( وإذا حدد المكان فانه يكون في أراض بعيدة غير معروفة للقراء ) ، وبذلك تختزل في نوع من الهيكل الرمزي . ومن ناحية أخرى نجد أن صحف الرأي تضع العلاقات العنصرية في إطار مفصل زمانا ومكانا ، وهي تفاصيل مألوفة ومعروفة للقارئ . وتبدو هذه العلاقات كحقائق لا أحلام . ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن هذا النوع الثاني من الصحف يصف حقائق واقعية ( فالحقائق ليست أكثر واقعية منها في النوع الأول من المجلات ) ، ولكنها تقدم وتتقبل على هذا الأساس . ولكل رسالة من الرسالتين معناها الاجتماعي المختلف : فالأولى تعالج القصة والأخرى تعالج المعلومات ، أما الأثر الذي يحدثه كل منهما فيختلف كما وكيف ، والمعلومات أشد انفجارا من القصة على المدى القصير (٢) .

### الصحافة الشعبية والتعدد العنصري

وبعد أن قدمنا عرضا سريعا للمجتمع والصحافة نحاول بيان شيء عن العلاقة بينهما .

ويحاول الباحثون في هذا الميدان عادة أن يقفوا على التأثير الذي قد تحدثه وسائل الإعلام على العلاقات بين الجماعات ، أو بالأحرى - على نطاق أضيق - معرفة اتجاهات جماعة الأغلبية نحو الجماعات الأخرى . ومن خلال الدراسات التي أجريت على هذا

(١) راجع كتاب ولثيم ماككين « التصوير الضميري للحب » باريس ( ميزوتيف ولاروس ) ، ١٩٧٠ ، وكذلك مقال إيفيلين سيليرو بعنوان « الصورة القصصية » في كتاب « العنصرية والمجتمع » - باريس ( ماسيرو ) ، ١٩٦٩ ، حيث يبرز سيليرو التناقض بين الاتجاهات الظاهرة المادية للعنصرية في هذه المطبوعات وبين مضمونها الحقيقي الذي يبدو عند التحليل أنه عنصري بلا شك فتجد تأكيدا على التدرج الهرمي وعلى السيطرة في الحكم وعلى الاعتقاد بأن لكل شخص مكانه المناسب له وهكذا .

(٢) في أثناء حديث لي مع جوليت داب عن مقال بعنوان « قصص الجاسوسية » ، وهو مقال كتبه المؤلف في مؤلف عنوانه « العنصرية والمجتمع » ، نجد أنها تقدم نظرية شائمة تقول أن للقصص الخيالية وظيفة قانونية أو اشتقاقية ، ومع أنني لا أوافق على هذا التفسير فأنني أعتقد أنه من الضروري للغاية إبراز الطبيعة الخاصة للنص الخيالية بعكس الشيء الذي يقدم كواقع أو حقيقة .

الموضوع ، وخاصة تلك التى أجريت فى البلاد المتحدثة بالانجليزية (١) ، نرى أن مفهوم التأثير الذى تحدثه وسائل الاعلام يصعب تحديده ، وأن ما يحدث فى نهاية الأمر هو أن وسائل الاعلام تقوم بدعم الاتجاهات القائمة ولا تغيرها تغييرا جوهريا .

غير أن هناك مدخلا آخر للبحث ، اذ نستطيع أن ندرس مضمون مثل هذه الوسائل ، وخاصة الصحافة ، لأسباب تتعلق باليسر الفنى ، وذلك بالنسبة لواحدة أو أكثر من جماعات معينة من الأقلية . وإذا ما فعلنا ذلك فأننا نستطيع بيان الصفات التى تعزى للجماعة موضوع الدراسة ، كما يمكن قياس حجم الاعلام أو الأخبار التى تخصص لهذه الجماعة فى وقت معين ، وفى النهاية - وربما يكون ذلك أهم مزايا هذا النوع من التحليل -لقاء الضوء على الصورة الخاصة بهذه الجماعة .

وأخيرا هناك اتجاه فى تحليل المضمون - وهو اتجاه أوربى على وجه التحديد وقد استحدث مؤخرا - وهو يسمى لتحليل شكل الاعلام (٢) . وتحاول هذه الطريقة أن تستخرج من الصور الأيديولوجية الكامنة وراء الإنتاج الاعلامى العلاقات بين الجماعات ومجالها المرجعى ، وبعبارة أخرى التعرف عليها من خلال العبارات المستخدمة .

والى أى مدى ينعكس التعدد العنصرى فى المجتمعات فى وسائل الاعلام ؟ يندر أن نفكر فى النظر الى هذه الوسائل على أنها اعراض ، غير أنها ميدان ممتاز للملاحظة ، وهى تتعرض باستمرار لضغط الأحداث ، وتعتبر عن اتجاهات الجماعات عندما يواجه بعضها البعض ، ولا يتم ذلك عن طريق الأخبار التى تنشر والصور التى تستخدم ، وإنما عن طريق المداخل أو طريقة معالجة المشكلات والطريقة التى تروى بها الأحداث . فالصحف اليومية الكبرى تصور المجتمع ، وتحدث باسمه ، ولا تقتصر دوافعها على التطورات السياسية ، وإنما تشتمل على مراحل هامة من التطور الثقافى والاقتصادى . ففي أعمدها نجد تقارير عن البطالة ، وبعض الفقرات من الأخبار القصيرة ، وبيانات عن مطالب الناس ورفضها جنبا الى جنب مع التفرات الطفيفة أو السميكة التى يحدثها تطور التاريخ بأحداثه الضخمة ومتناقضاته أيضا . فالصحافة مرآة -

(١) راجع بالنسبة لفرنسا الدراسات العامة التالية : كتاب أولفيه بيرجلان بعنوان « الاتصال بالجامع » ( باريس ) ١٩٧٠ . وكتاب جان كازنيف بعنوان « طاقات التلفزيون » ( باريس ) الناشر جاليمار سنة ١٩٧٠ . ومقالة آلان جيرار بعنوان « علم الاجتماع الاعلامى فى فرنسا ، المرحلة الحاضرة من البحث » المنشورة فى « المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية » ، الجزء الرابع عشر ، العدد الثانى ، سنة ١٩٦٢ .

(٢) راجع التحليل والعرض الذى قامت به مارى كريستين ديتروج عن الطرق المختلفة لتحليل المضمون بعنوان « تحليل المضمون » ، وهو من مطبوعات دار النشر الجامعية فى باريس .

ولا شك انها مرآة تحريفية - غير ان التحريف هو الذى يجعلها تحمل أعراض العلاقات بين الجماعات (1) .

وأول نقطة فى الموضوع هى الاتجاهات الصريحة لمختلف الصحف التى تتباين كثيرا وفقا لعدد مرات الصدور . فالصحف اليومية تختلف عن الصحف الأسبوعية من ناحية درجة اهتمامها بالمسائل العنصرية ، وربما يرجع ذلك الى درجة التزامها السياسى الذى يزيد بالنسبة للصحف الأسبوعية عنه فى الصحف اليومية ، كما سبق ان لاحظنا من قبل .

وعلى الرغم من تعدد الاتجاهات فقلما تتحمس الصحف اليومية للمسائل العنصرية الاجتماعية ، وذلك على المستوى الشعورى الصريح على الأقل ، بل انه يمكن القول بأنها لا تكثر مثل هذه المسائل . وتقوم الصحف اليومية ذات التوزيع المرتفع بدعم الاتجاهات الرسمية فى المجتمع ، وذلك من حيث المبدأ ، لا بصفة مطلقة . وأكثر الصحف حيادا ، أى تلك الصحيفة التى تظل أشد قربا الى المعايير الواعية من المثل الأعلى قوميا ، قد تكون أعلى الصحف توزيعا ، وهى « فرانسى سوار » ، غير ان هناك محاولات على نطاق أوسع للتحليل والاعلام تقوم بها صحيفة ذات مكانة رفيعة ، وهى « لوموند » . والصحافة اليومية على العموم ليست صحافة عنصرية عن قصد ، ولا تعتبر نفسها كذلك ، ولكنها لا تنظر الى نفسها على أنها فوق مستوى تلك الأشياء ، وانما هى فتتخبر بأنها تتصف بالانفتاح والذوق السليم ، أما فيما عدا ذلك فهى حريصة أشد الحرص فى تحريرها الذى تعتنى به ، وأكثر ما يتضح ذلك فى حالة الصحف الجادة .

أما الصحف الأسبوعية فليست كذلك ، كما أن آراءها عن العلاقات بين الجماعات أكثر تحديدا . ولما كانت صحفا أكثر التزاما وعناية بالمجادلات فهى أشد صراحة فى اتجاهاتها العنصرية أو المعادية للعنصرية . غير أن هذه الاتجاهات ثمرة لاختلاف السياسات العامة . وتتحدث الصحف العنصرية عن الموقف الراهن هنا أكثر مما تهتفت عن الموقف فى البلاد الأخرى ( وقد تذهب الى أبعد مدى عند الإشارة بتأييد المجتمعات التى تتخذ موقفا عنصريا رسميا ) ، ويظل اهتمامها الرئيسى حول مهاجمة الأقليات أو

---

(1) وفى هذه النقطة يمكن أن نلاحظ مشكلة طبيعية الجانب الواحد فى الانتساج الصحفى . فلا يمكن إنكار ان جماعة الأغلبية وحدها هى التى تصنع الصحف الكبرى ، من حيث أن صوت جماعة الأغلبية وحده هو الذى يسمع ، ولكن ذلك لا يبنى ، كما قد يظن أن النظام الذى يتمكس من خلال الصحافة لا يهم جماعات الأقلية بأية حال . إذ انه لا كان الشكل الغالب للتعبير هو الشكل المناسب للموقف كما هو ، أو ببساطة أخرى اذا حاول هؤلاء المفلوون على أمرهم أن يقيموا نظاما خاصا بهم ، بقدر ما تسمح به الظروف ، فان أول خطوة لهم هى القيام بهجوم مضاد ضد النظام الغالب ، وهكذا يظلون أسرى الأيديولوجية التى يقيمها المجتمع كما هو .



أولئك الذين يعيشون في فرنسا في الوقت الحاضر ، أما الصحف المعادية للعناصر الأخرى فهي تتناول الحوادث العنصرية في فرنسا وظروف معيشة الأقليات ، وحين تفعل ذلك نجد أنها تنفق أكثر وقتها في شجب العنصرية الأجنبية ، فهل يصدر ذلك عن غباء يجعلها لا تستطيع أن ترى أو تسمع هنا في الداخل تلك العنصرية التي لا تزال تستنكرها من حيث المبدأ ؟

ومهما يكن من شيء فإن هذا النوع من الصحف يفضل الحديث عن الآخرين نظرا لاهتماماتها الأيديولوجية . ولذلك فإن الصحف اليومية الأكثر حيادا من الوجهة النظرية هي التي تهمن أكثر مما تهمن الصحف الملتزمة صراحة ، لأن الصحف الملتزمة تركز اهتمامها أحيانا على الآخرين بطريقة لا تمكنها من القاء الضوء الكثير على الأشكال اليومية بين الجماعات ، إذ أنه لكي نفهم هذه العلاقات لا يكفي أن نعرف ماذا يعتقد المجتمع بالنسبة للآخرين وإنما يجب أن نعرف أيضا ما يعتقد بالنسبة لنفسه ، وقد يكون بصفة خاصة ما يعتقد المجتمع في نفسه عندما لا يركز على الآخرين . وإذا ما بدأنا بحقيقة واضحة وهي أن جماعات الأقلية ليست بمنعزلة في وسط صحراء كما أنها لا تشكل جماعات عديمة الروابط بالمجتمع الذي تعيش فيه - بل أنها على العكس من ذلك جزء لا يتجزأ من المجتمع - فأننا لا نستطيع دراسة ما تقوله جماعة الأغلبية عن الأقليات دون أن نحاول معرفة ما تقوله هذه الجماعة عن نفسها .

فأية معلومة أو أي خبر يمكن أن يمرض بطرق مختلفة ، وفقا لأصلته بجماعة الأغلبية أو بأحدى جماعات الأقلية (١) . ويتخذ هذا الاختلاف في معالجة الأخبار أشكالا مختلفة :

١ - في حالة الأخبار المتصلة بأفراد من الأقليات يذكر الأصل القومي أو العنصري بانتظام . أما في حالة الأفراد من جماعة الأغلبية فلا يذكر الأصل . وهذه نقطة تلفت النظر ، ولعلها ذات مغزى عميق ، إذا ما تذكرنا أهمية الجنسية كمعيار للعلاقات بين أعضاء جماعة الأغلبية وجماعات الأقلية .

وفي القصص الاخبارية يشار الى جنسية الشخص إذا كان أجنبيا فيقال مثلا

---

(١) الملاحظات التالية مبنية على ثلاث دراسات ميدانية عن الصحافة . أما الدراسة الرئيسية الأولى فهي تتناول أكبر صحيفة يومية في الفترة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦٠ ، وأما الدراستان الأخريان فهما تحليل للصحافة اليومية كلها في يوم واحد يوم ٣١ مايو سنة ١٩٦٦ وتحليل مجلة شهرية معادية عنصريا لمدة ثلاث سنوات من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٠ . غير أنه استُخدمت مصادر أخرى تستعمل على مواد من الماضي لأغراض المقارنة . وأما تحليل المواد الصحفية فهو مبني على مناهج لا نستطيع أن نشرحها بالتفصيل في هذا المقام . ومع ذلك فلكي ننطلي للمقارنة فكرة عن العملية يمكن أن نقول أن تحليل الشكل يتناول : (أ) ترتيب التسلسل بالألفاظ ، (ب) تحليل الرقابة وقشلها ، (ج) جمع الجمل التي ليس بينها صلة منطقية ، (د) التكرار واللغو ، (هـ) الحيز الذي يخصص لمختلف المعلومات ، (و) الطرز النبطية وغيرها .

« الايطالى سانيتيرينى ٠٠٠٠ » ، ولكن لا يذكر ذلك فى حالة الفرنسى ، ولا توجد مثلاً عبارة « الفرنسى دوران ٠٠٠٠ » (١) ، واللون أيضاً يذكر دائماً فى حالة أفراد الأقليات ، ولكنه يحذف بالنسبة لأعضاء جماعة الأغلبية ، فيقال مثلاً « المبنى الزنجى جون وليم ٠٠٠٠ » ، « الأعضاء الزوج فى الحكومة » ، ولا يقال « الوزير الأبيض جيسكار ديستانج » أو « الممثل الأبيض الان ديلون » ، وعلينا أن نؤكد أن هذه التفاصيل لا صلة لها بمضمون المقال ، كما قد يتصور المرء .

وتحاول الرقابة حذف هذه العبارة الغليظة ، ولكن هناك حداً لقدرتها على التأثير ، وتبدو الإشارة الى اللون فى شكل آخر ، وكلمة « زنجى » تتغير الى ذكر للأصل الجغرافى « الهندى الغربى ادوار جليسان ٠٠٠ » ، أو كلمة « يهودى » . يعبر عنها بتكرار التأكيد أن الشخص فرنسى ، وقد يثير ذلك انتباه القارئ المتشكك دائماً ، ومثال ذلك « اميل جان المولود فى باريس من أسرة باريسية وتلقى تعليمه فى باريس .. » .

وتظهر هذه التفاصيل دائماً فى بداية المقال ، وهى الحقائق الأولى التى تجابه القارئ ، وهى تقدم ملاحظات عن الاختلافات العنصرية .

٢ - أما المعلومات عن الآخرين فتقدم دائماً فى عبارات قوية ، وتلخص فى أسطر بسيطة ودوافع ساذجة ، فى حين أنها اذا كانت تتصل بأفراد جماعة الأغلبية تقدم برقة وبراعة . وسواء كانت الأخبار قصيرة أو سياسية طويلة تعالج الدوافع عادة بتحليل تفصيلى عندما يكون أفراد جماعة الأغلبية موضع المناقشة ، وتستخدم التنويعات التاريخية والتفسيرات النفسية وجميع الوسائل الأخرى لبيان العوامل التى تعطى لونا للتحرير . وعلى النقيض من ذلك نجد أن الأخبار التى تتصل بجماعات الأقلية تهمل دائماً السوابق التاريخية للموقف والجوانب النفسية أو الظروف المحددة للحدث موضوع الخبر ، هذا اذا لم تختزل الى حقائق فجأة ، كالقول بأن شيئاً ما قد وقع فى وقت ما فى يوم من الأيام ، وهى الصيغة العادية للأخبار ، ومثال ذلك :

« لقد كانت ظروفها غير عادية تماماً وغريبة حقاً تلك التى حدث فيها الانقلاب الذى كان المتآمرون يعدون له منذ شهر مارس ... وأمس فى الساعة الواحدة صباحاً ... بعد اعلان بيان الحكومة الجديدة ، لكى يذاع بالراديو ... فى تلك اللحظة اندفع الشرطة من خلال الأبواب واعتقلوا المتآمرين بعد مفاجاتهم » ، (٢) .

٣ - وهذا الاختلاف فى معالجة الأخبار يرتبط منطقياً باتجاه شعورى يمكن التنبؤ

(١) وذلك باستثناء تلك الأحداث التى تقع فى بلاد أجنبية كالأخبار حول جماعات أخرى من الأقليات .

(٢) خبر مقتبس عن الكونفو ، والأمثلة الأخرى مأخوذة من الأخبار ٢٢ حول جماعات أخرى من الأقليات .

به تماما ، ففى حين أن جميع أنواع السلوك التى يقوم بها أفراد جماعة الأغلبية تعد مفهومة نجد أن سلوك الجماعات الأخرى يعتبر غير مفهوم . ومن الشواهد على ذلك الاستخدام المتكرر كثيرا جدا لصيغة الاستفهام ، كما أن الملاحظات المفككة عن الآخرين تؤكد الاحساس بالسخف . ومثال ذلك :

« ثم يوما من الأيام ، كما لو كان مصادفة .. ستبدأ المحادثة الشخصية مرة أخرى . ونستطيع فقط أن نتصور أن الأول لن يحمل الزمالة الى حد اتخاذ المبادرة ( مرة أخرى ) . ولكن من يدري ؟ »

« من هم أولئك بالضبط الذين يعملون من أجلهم ؟ »

ان « بن شو » ... الذى تسميه الصحيفة تحريفيا ... كان الى الآن بطل « مناهضة التحريفية » .

وليحاول القارىء أن يفهم شيئا ، اذا استطاع !

٤ - وقد تذهب الصحف الى أبعد من ذلك فى هذا الاتجاه . فغرابية الآخرين وسخافتهم تؤكدان الغرابية والفوضى والبعد المكاني والزمني ، كما يلفت النظر الى هذه الصفات عن طريق الاشارات المتكررة . ولكن ذلك لا يحدث عند وصف حادث يتصل بجماعة الأغلبية . مثال ذلك :

« اقطاعى قوى غامض ... يظهر أمام الناس متدثرا فى جلباب واسع مطرز بالحرير ، يغطي رأسه بعمامة سمكية . وهو يتجول فى سيارة أمريكية ضخمة فى حراسة فرسان يبدوون من أهل العصور الوسطى » .

وفى الأمم المتحدة : « أما جائزة الغرابية هذا العام فيستحقها مندوب عمان ... مرتديا « برنسا » لونه بنى داكن وعمامة ، انه يبدو شيئا غريبا جدا أمام خلفية من ناطحات السحاب » .

« وأما آخر شائعة عن ماوتسى تونج فهو أنه قد دس له السم على أفضل طريقة اشتهر بها بوجيا ... » .

والعجيب أنه عندما يذكر عن شخص أنه أجنبي يستنتج أنه غريب لمجرد ذكر أنه من خارج البلاد . فاخلاق الغرابية ثم استغلالها لاثارة الدهشة من الخصائص الرئيسية التى تتصف بها الأخبار عن الآخرين . وعلى العكس من ذلك نجد أن أخبار أفراد جماعة الأغلبية تكون قابلة للتوضيح والتفسير . وتختلف الأساليب فى هذه الحالة ، فبعض الناس يصورون تصويرا عن طريق اثاره الانتباه للتفاصيل العادية أو التافهة ، فى حين يصور آخرون بأنهم يسلكون مسلكا فطنا معقولا عن طريق ذكر معلومات ليس فيها شيء من الغفنة أو المعقولة .

٥ - وأخيرا - وهذه نقطة مترتبة على الملاحظات السابقة - يعامل الناس بطرق مختلفة على أساس انتمائهم الى جماعة الأغلبية أو الى إحدى جماعات الأقلية . أما أعضاء جماعة الأغلبية فيعاملون كاشخاص ، ولا يعاملون ببساطة باعتبار أنهم أعضاء فى

جماعة عنصرية اجتماعية ، بل ان جماعتهم لا تذكر مطلقا ، ولا يعلى سلوكهم على أساس عضويتهم لتلك الجماعة ، ومن الصعب جدا أن يتم ذلك ما لم يبد أن هناك وجودا لمثل تلك الجماعة . أما قضية الأفراد الذين ينتمون الى جماعة الاقلية فهي مختلفة عن هذا اشد الاختلاف « فكما رأينا من قبل لا يكتفى بذكر عضويتهم لجماعة ما بصفة دائمة ، وانما تبدو هذه الحقيقة كأنها اهم المعلومات عنهم وأبرز الخصائص التي تميزهم ، وحتى عند ذكر بعض التفاصيل الشخصية في حالة المشاهير شهرة كبيرة يعامل الفرد معاملة من هو مجرد عضو في جماعة .

وهذه العادة التي تنطوي على معاملة شخص ينتمي الى جماعة الاقلية معاملة عضو في جماعة عنصرية اجتماعية ترتبط بظاهرة أخرى هي التعميم الإدراكي ، أو الميل الى اختزال الجماعات المختلفة الى قاسم مشترك عام . ويحدث ذلك في المحادثة أكثر مما يحدث في الكتابة الصحفية ، لأنها تنطوي على الكثير من التقريب وعدم الدقة اللذين يندر أن يسمح المحررون الصحفيون بالتفاضي عنهما . ومع ذلك فهذا موجود في الصحف ، كالحديث عن أهالي مالي أو موريشيوس أو السنغال وقد جمعوا معا تحت عبارة « الأفريقيون » ، ويضم الجزائريون والمغاربة والتونسيون معا ويطلق عليهم « الأفريقيون الشماليون » . ويسمى أهالي جواذلوب والمارتنيك « بالهنود الغربيين » . وحقيقة أن هذه الاصطلاحات تشير الى أماكن حقيقة ، وفي بعض الأحوال تشير الى وحدات سياسية اجتماعية واقعية لا تغير شيئا من أثر التجميع من أجل تجنب التعقيد ، وهكذا تستخدم الاصطلاحات .

ويلاحظ هذا الاتجاه بصورة أوضح في المحادثة اليومية التي تتخذ صورا أقل منطقية . ومثل هذه الظروف اليومية تبرز أهمال الاختلافات الفردية أو الاجتماعية بين الآخرين ، ويكمن ذلك وراء الرغبة في اختزال أي مجموعة غير متجانسة من الناس الى جماعة نمطية ، وهكذا يستخدم اصطلاح « الجزائريين » عمليا للدلالة على رعاية بلاد المغرب الثلاثة ، ويستخدم اصطلاح « الزنوج » لجميع الأفريقيين كما يستخدم أحيانا - ولكن ليس دائما - للإشارة الى أهالي الأقاليم الفرنسية الأربعة فيما وراء البحار أو العكس . ونجد هذا الاتجاه الى حشد الشعوب الأخرى معا في بعض الأحيان - ولكن بنسبة أقل - عند ما يدور الموضوع حول بلاد قريبة من فرنسا ، ومثال ذلك أنه بالرغم من أن تمييز الأسباب عن البرتغاليين صعب بالنسبة للفرنسيين فلا يوجد اصطلاح واحد يشمل هذين الشعبين معا .

وفي نهاية التحليل يبدو أن هناك فئتين من الناس : أما الفئة الأولى فيكون الفرد فيها عضوا في جماعة الأغلبية ، وهو يعامل كشخص ، وينظر اليه في موقف شخص ملون بصفاته النفسية وتاريخ حياته ولا يعتبر مجرد عضو في جماعة عنصرية اجتماعية ، وأما الفئة الثانية فتتكون من « شطايا » جماعة ذات خصائص عنصرية اجتماعية ، والمرء فيها وحدة من « كل » اجتماعي يمثل تمثيلا غامضا . فهو أولا وقبل كل شيء زنجي أو يهودي أو جزائري ، ويشار اليه على هذا النحو ، يضاف الى ذلك تأكيد الصفات الشاذة والغريبة ، مما يضيف وزنا الى طريقة التحدث عنه ، وتأتي

اللمسة الأخيرة في تقديم سلوكه غير المنطقي ، ويبدو أنه شيء متوقع تماما ، وإن كان غير مفهوم .

والى جانب هذه الدلائل على التمييز في المعاملة يتغير وعي المجتمع بالجماعات الأخرى مع مضي الزمن ، وتصبح الصفات التي تنسب للناس - وخاصة الأقليات - موضع تغيير .

فعلى طول فترات زمنية ، كالقرن مثلا ، نجد أن الصفات المنسوبة الى جماعة بعينها قد تنتقل من هذه الجماعة الى جماعة أخرى تؤدي في المجتمع مثل دورها . وهكذا نجد أن الفلاحين في القرنين السابع عشر والثامن عشر والعامل في القرن التاسع عشر وأهالي شمال أفريقيا في القرن العشرين يوصفون بعبارات تكاد تكون واحدة ، وفي كل حالة من هذه الأحوال الثلاث نجد أن الجماعة المعنية في المجتمع هي الجماعة التي تقوم بالعمل الأساسي لاهم قطاع اقتصادي ، كالزراعة قبل القرن التاسع عشر والصناعة منذ ذلك القرن نفسه . غير أن صفات جديدة متناقضة يمكن أن تضاف أحيانا الى الصفات الأولى علاوة عليها . ومثال ذلك « الجناة العسكرية » التي يوصف بها اليهود منذ اقامة دولة إسرائيل (١٩٤٨) بعد قرون من « الجبن » ، وكذلك نبوغهم الزراعي الذي ظهر بعد طول اتهام بأنهم متاصلون في سكنى الحضر ، وهذه كلها تدل على أن الآراء يمكن أن تتغير الى حد أن تصبح عكس ما كانت عليه من قبل ، فقد انعكست آية شجاعة الجزائريين التي اشتهروا بها في القرن الماضي لينمتوا بصفة الجبن الدفين في القرن العشرين ، وظلت هذه الصفة تنسب اليهم حتى حرب التحرير أو الاستقلال ( ١٩٥٤ - ١٩٦٢ ) .

ولكن حتى على المدى القصير من الزمن - خمس سنوات أو عشر أو عشرين سنة مثلا - حدث تطور حقيقي في عرض الأخبار ، وقد غيرت حروب التحرير النظرة التي كان ينظر بها الى أهالي المستعمرات ، سواء نظرة هؤلاء الى أنفسهم أو نظرة جماعة الأغلبية اليهم (١) . وقد أدت حرب الهند الصينية ( لاحظ تكتيل بضع دول معا ) والحرب الجزائرية دورا واضحا في تغيير العادات المكتسبة . وقد تغيرت بالتدريج تلك العبارات المعينة ( الدالة على الإهانة أو التعالي أو السيطرة ) التي كانت تستخدم لوصف أي فرد من « هؤلاء الجزائريين » مع تطور الحرب . ففي الفترة من سنة ١٩٦٠ الى سنة ١٩٦٢ أخذت عبارات « الارهابيون والعصابات والقتلة » تختفي ليحل محلها لفظ « الجيش » ، ولم يعد الجنود الجزائريون « يضربون » بالرصاص وإنما « يقتلون » . وكذلك أخذت التفسيرات عن الدوافع والأهداف تقوم ضمن الأخبار مع تحليلات - عن الوضع العسكري أولا ثم الوضع السياسي بعد ذلك - عندما اقترب الاستقلال . وقد كان هذا الاتجاه أكثر وضوحا في السنوات القليلة التالية ، غير أنه بعد مرور خمس

(١) أكد فرانز فانون ذلك ، كما لوحظ ذلك من قبل في سنة ١٩٥٢ وفي الحرب الجزائرية ( راجع مؤلفه السابق الذكر بعنوان « فرنسيون ومهاجرون » ، وقد علق الجزائري على أهمية أن تكون للجماعة رأيها الخاصة بها في الحياة اليومية .

سنوات ، أى فى سنة ١٩٦٧ ، وضعت حرب الأيام الستة نهاية لهذه العملية ، وبالرغم من أنه لم تحدث عودة الى الأحوال السابقة كان هناك شيء من الانعكاس الذى زادت حدته وقت كتابة هذا المقال بسبب مشكلة البترول (١) . وقد لا يكون الكفاح السياسى والعسكرى هو العامل الوحيد فى التغيير الذى حدث فى العقد السابع ، لأن موجة جديدة من العمال قد أخذت تدخل فرنسا نفسها ، وتشتغل بالأعمال الدنيا ، مما أكسبها تلك الحقوق المحفوظة فى الوصمة الكريهة التى كان العمال الجزائريون يوصفون بها من قبل .

وقد ظهر التطور بمرور الوقت على مستويين ، فعلى المستوى الأول الذى يمكن التنبؤ به نسبيا يرتبط حجم الأخبار بالموقف العام ، وبمعنى آخر يرتبط بظهور « المشكلات » ، فمن الواضح مثلا أن عدد المرات التى تذكر فيها الأقلية اليهودية والتعليق عليها كان يرتفع كثيرا نتيجة للتوتر بين دولة اسرائيل وفرنسا بعد حرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧ ( مرة أخرى نلاحظ ظاهرة التجميع عند استيعاب اسرائيل فى الجماعة اليهودية ! ) .

أما على المستوى الثانى فنجد تغييرا فى العبارات وفى الأحكام ، ومن الواضح أن ذلك كان نتيجة للموقف الأيديولوجى ، غير أنه يمكن عند اجراء التحليل أن يعزى سببه الى التغير التاريخى ، فعندما يوشك حل صراع ما بالانتصار الكامل أو الجزئى لجماعة الأقلية فإن أفرادها لا يوصفون بالمجانين أو المعردين أو العصابات ، وإنما يطلق عليهم المتحدثون الرسميون أو الرفقاء .

ويلاحظ أن هذا التطور يمكن أن يتجلى فى الاهتمام بموضوعات علمية معينة ، وباللغة المستخدمة فى التعبير عنها ، فالبحوث تاتى فى أعقاب التغييرات الأيديولوجية فى المجتمع الذى تجرى فيه هذه البحوث (٢) . فالدراسات التى أجريت عن جماعات الأقلية من الوطنيين أو المهاجرين تمكس التطورات التى طرأت على مكانتهم ، فالجماعات الجديدة ، أو الزيادة العددية فى السكان ، أو التوتر السياسى والاقتصادى . هذه العوامل لا تؤثر على حجم البحث فحسب ، وإنما تؤثر كذلك على شكله والنظريات المتصلة به . وقد لاحظ روجر باستيد فى دراسته للبحوث (٣) حول الجماعات العنصرية أن هناك ذبذبات تؤكد ذلك . فالدراسات عن الأفريقيين الشماليين بلغت ذروتها فى السنوات من ١٩٥٠ الى ١٩٦٤ ، ومع ذلك فإن عدد الذين عادوا من بلاد المغرب لم يرتفع أو ينقص عنه فى الفترة السابقة أو اللاحقة لهذا التاريخ ، ولكن تلك الفترة كانت عصر حركات الاستقلال وحروبه . ويظل حجم الدراسات عن الأفريقيين صغيرا

(١) فى مطبوعات اليمين المتطرف عودة الى العنف الذى كان متفشيا قبل استقلال الجزائر . غير أننا معتنون بدراسة المطبوعات فى متوسطاتها .

(٢) قام نيكول كلود ماتيرو بملاحظة ذلك وتحليله عند دراسته العلمية عن الجنس . راجع مذكرات ٥٥ لتعريف اجتماعى لفتى الجنس ( مجلة فلسفة للمرفة الاجتماعية ، العدد ١١ النصف الأول من سنة ١٩٧١ )

(٣) روجر باستيد : الدراسات والبحوث العنصرية فى فرنسا من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٦٨ ، نشرة سيران ، العدد الأول سنة ١٩٦٨ ( منسوخة ) .

حتى سنة ١٩٦٠ حين بدأ يزداد في فرنسا ، وقد كانت تلك السنة تاريخ حصول البلاد الافريقية المتحدة بالفرنسية على الاستقلال . وعلى العكس من ذلك فان عددا كبيرا من الدراسات حول العائدين من شمال افريقيا الى فرنسا قد أجرى بين سنة ١٩٦٣ وسنة ١٩٦٥ ، وهي فترة العودة ، وبعدها لم تجر أية دراسات تقريبا ، وذلك دليل على أن تأثير الموقف في ذلك الوقت كان هو العامل الوحيد ، ولم تكن هناك آثار ايديولوجية ، ولكن لاحظ ايضا أن جماعة الاقلية قد بدأت تتحدث باسمها ، وربما كان ذلك نتيجة للواقع ، وهكذا نرى انه بينما كان ميدان البحث في المرحلة الأولى لا يكاد يتناول غير الجوانب القانونية والاقتصادية والعلاقات العنصرية نجد انه يصبح سياسيا حوالى سنة ١٩٦٠ . وأخيرا نجد أن الباحثين لا يكادون يعيرون انتباها لجماعة الأغلبية كجماعة أغلبية . وفي هذا الصدد يظل البحث أسرا للضغوط الناجمة عن العبارات المستخدمة ، وبالرغم من أن جماعة الأغلبية هي جماعة السواد الأعظم - وربما لهذا السبب نفسه - فانها لا وجود لها شعوريا في عين الجماعة نفسها ، ولا في الصحافة ، أو الحديث اليومي . فالتناس الآخرون فقط هم الذين يثيرون المشاكل ، وهم الذين يكونون موضع دراسة . ففي حين أن الدراسات عن جماعة الأغلبية يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة نجد أن عدد هذه الدراسات عن جماعة الاقلية يعد بالمئات .

ومن الصعب معرفة تطور طريقة ادراك جماعة الأغلبية لنفسها ، فالحديث عنها قليل ، ومن الصعب تحديدها الا عن طريق الاستنتاج ، وهي عبارة عن جماعة من الأفراد ليس لها خصائص اجتماعية . ومع ذلك فمن الجدير بالذكر أن اصطلاح « العنصر » يزداد استخدامه في كل من المطبوعات العلمية والمطبوعات الموجهة الى القارئ العادي في خلال السنوات الأخيرة من سنة ١٩٦٥ الى سنة ١٩٧٠ ، وخاصة في الاعلانات . ومعنى ذلك أن هذا الاصطلاح لن يستخدم بالنسبة للآخرين فقط ، فهل تستطيع جماعة الأغلبية السائدة أن تصل الى ادراك نفسها كعنصر ، ولو ادراكا غامضا ؟ ان هذا التطور يتجه الى أن تسائر فرنسا البلاد المتحدة بالانجليزية ، ويجدر بنا أن نتبع جذور هذا التطور .

ان مثل هذه التطورات ليست واعية شعوريا ، ومن الغريب أن صورة « الآخر » يعتقد أنها ثابتة بالرغم من أنها تتغير باستمرار . « الآخرون » لا يزال ينظر اليهم على أنهم ثابتون غير متغيرين ، كما يشار اليهم قبل كل شيء على أنهم مختلفون ، ويظلون أسرى لمطابقة أنفسهم مع جماعتهم ، وليس هناك أدنى احتمال للشك في حالة الثبات التي تتمثل في أنفسهم ، وهكذا فان أي تغير ادراكي مهما كان ظاهرا يضيء دون أن يلاحظ ، وهنا يربط منطق اللاشعور بين التناقضات بمنتهى اليسر .

وهناك نقطة هامة للغاية ، وهي أن التغير لا يتخذ تلك الاشكال الإدراكية التي أوردناها باختصار ، وإنما يكون في المضمون سواء كان كلمات أو طرزا نمطية . وليس هذا بالأمر الهين ، ولكنه ليس كافيا . ومن المهم بالتأكيد أن نلفت النظر الى التغيرات التي تؤثر فيما يقوله الناس عن الآخرين مع تأكيد اعتمادها على عوامل

تاريخية ، ولكن من المهم أيضا أن لا تغيب عن بالنا حقيقة أن ذلك لا يرتبط الا بالصورة الصريحة للآخرين أى بمجموعة من الطرز النمطية ، فتلك الصور العدائية والملوثة تلونا صارخا تكاد تصاحب دائما تلك الأخبار عن الآخرين من أعضاء جماعات الأقلية ، بالرغم من أنها لا تستخدم فى هذه الموضوعات فقط . وكلما كانت الأغلبية تنظر الى جماعة على أنها عنصرية أو غريبة كانت تلك الصور مسرحية وبارزة ، كما هو الحال بالنسبة للفجر والأفريقيين . ومثل هذه العبارات الغريبة تتعرض للنقد الشديد أو الحذف اذا كانت هذه الجماعات تتحدث عن نفسها بطريقة أو بأخرى . فقد قلت النظرة الى الهنود الغربيين واليهود على أنهم يتصفون بالغرابة . وليست الصور سوى جزء صغير من ادراك الناس للآخرين ، ويقع لب الموضوع فى الثنائية الشكلية للادراك فى التعبير اللفظي عند تحليله . فالمعلومات تقدم شفويا وتروجها جماعة الأغلبية بمعنى أن كل شيء يتصل بتلك الجماعة يشكل كل المتن الاجتماعي الذى تحدث فيه الأفعال العديدة والمتنوعة لكل عضو من أعضاء المجتمع الذى ينتمى الى تلك الجماعة . فالسياسة والاقتصاد والترفيه تدلنا جميعا على حياة جماعة الأغلبية ، وذلك من خلال الشخصيات الفردية والتفرعات الطفيفة فى معنى الأمور الاجتماعية والتاريخية ، والعكس بالعكس ، فبعض المعلومات الهامشية تعنى جماعات الأقلية ، وهى تكتب بأسلوب آخر يرمز الى أولئك الذين يكتب عنهم ويمتاز بالعبارات التمهيدية والنظر الى الناس ككتل جماهيرية مع استخدام أسلوب التقرير بدلا من التحليل ، كما نجد أن شخصية الأفراد متاكلة .

وبعبارة أخرى نجد أن جماعة الأغلبية توصف بعبارات سلسلة وكلمات هادئة ملاطفة مفصلة . أما جماعات الأقلية فتوصف بعبارات مقطعة الأوصال ناقصة واعتراضية ، وفى هذا السياق نستخدم الصور المتبادلة والصور الخاطوية فى أى معنى .

## خاتمة

نخلص من ذلك الى أن الادراك - كما يفهم من التعبير اللفظي - يأخذ مسلكين مختلفين باختلاف الجماعة المدروسة أى جماعة الأغلبية أم جماعة الأقلية . فجماعة الأغلبية لا يشار اليها باعتبارها جماعة ولا تعرف بأنها تنتمى الى جماعة معينة أو جماعة عنصرية اجتماعية محددة ، فهى ينظر اليها على أنها جماعة بغير عنصر . وعلى العكس من ذلك توصف جماعات الأقلية وتذكر على أنها عنصرية قبل كل شيء ، كما أن أى خصائص اقتصادية واجتماعية لهذه الجماعات - أو للأشخاص الذين ينتمون اليها - ينظر اليها على أنها ذات أهمية ثانوية ، فحقيقة كون الشخص خادما أو تاجرا أو عاملا تبدو وتحس على أنها افتراض أو حالة من نوع خاص تتعلق بخاصية طبيعية ، وليست نتيجة لعملية اقتصادية أو تاريخية اجتماعية .

وتذكر جماعة الأغلبية على أنها مجتمع يشبه الساحة المفتوحة للجميع ، حيث يستطيع كل شخص (ينتمى الى جماعة الأغلبية) - غير مقيد بقيود عنصرية اجتماعية -

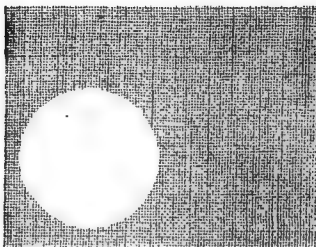


أن يمضى حيث يشاء أو يرغب وفقا لمواهبه ورغبته أو الحدود التى يفرضها تاريخه الشخصى (١) . ولذلك فإن المجتمع يختلف تماما باختلاف نظرة عضو جماعة الأغلبية الى نفسه أو الى الآخرين . وهو صاحب الحق فى التحرك بحرية فى هذا المجتمع ، فى حين أن الآخرين لهم وضع معين حددته الطبيعة منذ زمن مرقى فى القدم . أما عضو جماعة الأغلبية فإنه يقع خارج نطاق النظم العنصرية ، ولكن عضو جماعة الأقلية يقع داخل النظام العنصرى .

وتؤكد جماعة الأغلبية أن هذا المجتمع ليس عنصريا ، فى حين تؤكد جماعات الأقلية الرأى المخالف . ويرجع السبب فى تلك الغشاوة التى تضرب على بصر جماعة الأغلبية الى البناء الأيديولوجى ، فالمجتمع الفرنسى مجتمع عنصري ، ولكن جزئيا فقط . فالجماعات الأخرى هى التى ينظر إليها نظرة عنصرية كما هو الحال فى جميع البلاد العنصرية ، غير أنه على النقيض من معظم تلك البلاد العنصرية ( كالمانيا النازية وجنوسوب أفريقيا مثلا ) لا تتسم الذات الاجتماعية - جماعة الأغلبية السائدة - بالعنصرية ، ولا تدرك نفسها على أنها من أى عنصر معين ، وهى تنظر الى نفسها على أنها فوق العنصرية . فهو مجتمع ينتقل فيه الانشغال بالعنصر الى الآخرين ، دون أن يمس الوعى بالذات .

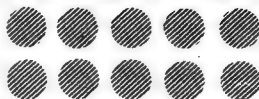
وبعد ، فهل ذلك يدعو للكثير من الدهشة ؟ أن جماعة الأغلبية التى تمثل ٩٥٪ من الأهالى تستمد من هذه الحقيقة شعورا بالجماعية التى لا يمكن لأفراد جماعات الأقلية - بتنعوها - أن يشاركوا فيها أو يعكرونها صفوها ، إذ أن نسبة أى جماعة من الأقلية لا تزيد عن ١٪ على الأكثر ، يضاف الى ذلك أن أعضاء جماعات الأقلية منعزلون بعضهم عن بعض ، بخلاف أعضاء جماعة الأغلبية ، فعلى الرغم من أنهم محدودون سكانيا وبيكولوجيا وحرافيا فهم لا يمثلون أى احتكار لخصائصهم الاجتماعية ، فإى شئ يبلغونه يستطيع أن يبلغه أفراد جماعة الأغلبية أيضا . ويختلف هذا الوضع اختلافا كبيرا عن المجتمعات ذات العناصر المتعددة حيث تكون كل جماعة من الجماعات ذات صفة خاصة وموجودة وراء حدود معينة . فعنصر جماعة الأغلبية يمكن أن يكون موظفا صغيرا فى مجلس الدولة ، كما أنه يمكن أن يكون سمكريا ، فى حين أن العجوز يمكن أن يكون سمكريا فقط ، ومع ذلك فهو ليس الوحيد الذى يمكن أن يقوم بهذا العمل . وهكذا يضاف الى شعور أعضاء جماعة الأغلبية بالجماعية احساس بالأمن والسلطة العليا فى المسائل الاجتماعية ، بحيث لا يمكن إثارة الوعى الاجتماعى فى الجماعة نفسها ، إذا ما نظر الى العنصر على أنه بمثابة ربطة تلف حول العنق أو شارة من الشارات المميزة التى يشعر صاحبها بالفخر أو المهانة . وانما يصبح - على كل حال - ادراكا بخصوصية المرء .

(١) ان افترض وجود اختلافات طبيعية أو بيولوجية أكثر انتشارا مما يظن لأول وهلة . وهى تتعلق باعتقاد كان سائدا على الأقل فى القرن التاسع عشر ، وهو أن هناك اختلافات عنصرية بين الطبقات الاجتماعية . وفى نطاق هذا المقال لم أتمكن من معالجة هذا الموضوع بالتفصيل ، ولذلك تناولته باختصار شديد .



# علم الآثار

## والحاسب الألكترونى



## نظرة جديدة

لم يعد الربط بين علم الآثار والحاسب الألكترونى امرا حدثا ،  
ولعلنا نذكر أنه منذ سنوات قليلة فقط كان الناس يتهلون الى الله  
ويجسبون فى البحث كى يربطوا بين اى فرع من فروع العلوم المتصلة  
الراسخة الجذور وبين أحدث ما ابتدعه العلم من الوسائل التكنولوجية  
المعاصرة ، ولكن الوضع الآن قد تغير تغيرا كاملا بحيث اصبح يحتم  
علينا ان ننظر الى ما هو أبعد من الربط بين هذه الوسائل العلمية  
الحديثة وبين فروع العلم الشائعة ، كى تتضح لنا الصورة الحقيقية  
لهذه الثورة العلمية الجديدة ، وليس ثمة أصح لهذا الغرض من  
محاولة تطبيق الحاسب الألكترونى على الوسائل الفنية فى العلوم  
الأثرية .

### التطبيقات الإحصائية

قد يبدو لكثير من الباحثين الذين لا يعلمون الا القليل عن هذا الموضوع أن  
الحاسب الألكترونى ليس الاحسابا يجرى بأبسط الطرق المدرسية ، وأن الحاسب  
الألكترونى ليس الا آلة حاسبة تعمل بسرعة وبدقة أكثر مما يعمل العقل البشرى،

## بقلم : چان - كلود جاردان

مدير الدراسات بالمدرسة العلمية للدراسات العليا ومدير  
مركز التحليل التسجيل لعلم الآثار بالمركز القومي للبحوث  
بفرنسا • اشترك لعدة سنوات في البعثات الأثرية في  
أفغانستان وإيران ، وهو مؤلف لكتب أثرية •

## ترجمة : الدكتور زكي إسكندر

مدير عام الشؤون الفنية بصلحة الآثار ، وأستاذ تكنولوجيا  
التصوير بكليتي الفنون الجميلة بالقاهرة والاسكندرية ،  
وأستاذ مادة العلم والتكنولوجيا في مصر القديمة بالجامعة  
الأمريكية بالقاهرة • وهو متخصص في الكيمياء والآثار  
الحجرية وله فيهما نحو ٢٥ بحثا ، وخاصة في استخدام  
العلوم الطبيعية في الميدان الأثري ، وهو أيضا مؤلف لبعض  
الكتب العلمية في الآثار ، كما ترجم بعض الكتب عن الآثار  
في مصر وفلسطين ، والموسوعة الأثرية المختصرة • وهو عضو  
في الجمعية الكيميائية المصرية ، وزميل في المعهد الدولي  
لحفظ وصيانة الآثار والتراث الفني بلندن ، وعضو في معهد  
كسر للدراسات العلمية الأثرية بسويسرا

---

فاذا كان الأمر كذلك فما هي حاجة علم الآثار للحساب والاحصاء ، وإذا كانت فعلا  
في حاجة لهما فلماذا وكيف ؟

وتختلف الآراء في كيفية الإجابة على كل من هذه الأسئلة . يقول البرت  
سبولدينج وهو أحد المتحمسين لاستخدام الطرق الإحصائية في علم الآثار أن علماء  
الآثار يوجهون عنايتهم الى مجموعات المشغولات (القطع الفنية التي صنعها الإنسان)  
لا الى قطع فردية ، وهذا يختلف تماما عن موقف الباحثين في العلوم الانسانية .  
ولعل معظم علماء ما قبل التاريخ يجمعون على أن الأشياء التي يعتمدون عليها في  
دراساتهم ، مثل الشظايا الحجرية وقطع الشقف ، توجد بالآلاف أو بعشرات  
الآلاف ، وقد يكون هذا في حقل واحد ، ومن ثم يكون من المريح والملائم لهم  
استخدام القياسات الإحصائية في وصف القطع التي توجد في منطقة معينة أو في  
موقع معين أو تنتمي الى حضارة معينة . وفي مثل هذه الحالات ليس العامل  
الأساسي لأغراض التعريف والتمييز هو وجود طراز معين من الأشياء أو عدم  
وجوده ، أو وجود ملامح مشتركة مميزة لهذا الطراز في الطبقة (مثل طريقة الصنع،  
أو المادة المصنوع منها الشيء ، أو شكله ) ، بل يكون العامل الأساسي لهذه الأغراض  
هو الكثرة النسبية لمثل هذه الطرز أو الملامح أو أي قياسات دقيقة تحسب من

كميات الأشياء المختلفة في الطبقات ، منه المتوسطات والتنوعات والاختلافات ، وغير ذلك . وتمدنا الدراسة التي قام بها سيولدينج في هذا الموضوع والدراسات الشاملة الأخرى المنشورة في كتاب هايزر وكوك بمعلومات ومراجع حديثة جدا عن التطبيقات العيادية للطرق الإحصائية في ميدان الآثار ، كما تمدنا مجموعة الدراسات التي نشرها كولشين باللغة الروسية بمراجع طائلة عن هذا الموضوع ، نذكر منها بصفة خاصة تلك الدراسات التي قام بها كامتنسكي ، وكوفالسكاجا ، وكروج ، ومارشاك ، وشر .

ومن الأسباب التي جعلتنا نمر مرورا سريعا على هذه الطرق ، اذ لم نفعل غير إحالة انقاريء الى بعض المراجع التي قد تبدو عتيقة ، أن مثل هذه الطرق التي يستخدمها مؤرخو ما قبل التاريخ لا تكاد تختلف عن تلك التي استخدمها الباحثون في علم النفس وعلم الاجتماع سنوات عديدة ، وهي موصوفة في عدة كتب ممتازة باللغتين الفرنسية والانجليزية يستعملها الطلبة والباحثون في العلوم الإنسانية . ومن أسباب مرورنا السريع على هذه الطرق أيضا أن استخدام الوسائل الإحصائية لا صلة له أساسيا ولا تاريخيا باستخدام الحاسب الإلكتروني في الميدان الأثري كما يتضح من التواريخ المذكورة في كثير من المراجع التي أشرنا إليها آنفا . ومع ذلك فإن الحاسب الإلكتروني قد عمل على إجراء هذه العمليات بسرعة عظيمة ، مثلما عمل استخدام الآلات الحاسبة الإلكترونية في إجراء حسابات - تعطي أحيانا نتائج مثيرة - لم يكن يجري في الماضي أن يقوم بحسابها بالطرق العادية أكثر علماء الآثار طموحا وصبرا . وتحوى مؤلفات كاوجيل وتشينال ورايين معلومات قيمة وتعليقات مختلفة عن التطبيقات الرئيسية لعلم الحساب الإلكتروني في عمليات الإحصاء في مجال الآثار في العشر السنوات الأخيرة .

غير أن التقدم في هذه التطبيقات العلمية قد أوضح كثيرا مسألة نظرية كان الآثاريون يميلون الى اغفالها ، تلك هي مسألة اختيار العينات أو النماذج ، ولدينا في هذا الخصوص سؤالان عامان :

**السؤال الأول :** هل طبيعة السكان وأعدادهم ( طبقا لما يتبين من دراسة ما عثر عليه في تنقيب أثري معين أو في منطقة أثرية معينة ، وترتيبها التاريخي ، الخ ) تبرر استخدام آلة إحصائية معينة .

**والسؤال الثاني :** ما هي الأسس التي اعتمد عليها لاعتبار هؤلاء السكان عينات مثالية للدراسة حتى يمكن أن تستخلص منها البيانات الصحيحة التي نفكر فيها عنهم ، مثل أجناسهم ، وتجمعاتهم ، وحضاراتهم ، الخ .

من الواضح أنه لا يمكن الإجابة على هذين السؤالين في نطاق الحدود الضيقة لهذا المقال الموجز ، ويمكن الرجوع في ذلك الى بعض المراجع ( بينفورد ، - ويتبيرج ، نجبي ، كاوجيل ) . غير أنه يجدر بنا أن نؤكد هنا أن كلا من السؤالين ، وخاصة السؤال الثاني ، على درجة قصوى من الأهمية في استنتاج الأسس التي تنبنى عليها النظريات

الأثرية ، بصرف النظر عن أى استعانة بعلوم الاحصاء والحساب الإلكتروني ، فسواء كانت الطرق الحسابية « ملائمة » أو غير ملائمة ، أو كانت النتائج « ممثلة » أو غير ممثلة ، فهي فى الواقع مسائل تتعلق بمدى صلاحية احدى الطرق أكثر من غيرها من وجهة نظر المعرفة العلمية لاختيار هذه الطرق . وليست هذه الرغبة فى تقرير صلاحية علمية معينة مقصورة ، بل يجب أن لا تكون مقصورة ، على الحصول على النتائج الاحصائية فقط ، وهو ما نبغى الآن أن نثبت فيما يتعلق بتطبيقات أخرى لعلوم ( الحساب الإلكتروني ) فى الميدان الأثرى .

## التصنيف الأثرى

ويذكر سيولدنج فى كتابه السابق الذكر أن علماء الآثار يدرسون مجموعات الأشياء لا أشياء فردية ، وهو موقف يتباين مع موقف الباحثين فى العلوم الإنسانية . على أن هنا التباين المزعوم لا يصبح إلا اذا افترضنا وجود اختلاف بين علم الآثار والعلوم الإنسانية ، بأن يعتبر علم الآثار ضمن علوم ما قبل التاريخ - كما ذكرنا فى الجزء الأول من هذا المقال - وأن تضم العلوم الإنسانية ميادين بحوث بعض فنون اضافية مثل تاريخ الفن ودراسة الآثار اليونانية والرومانية . غير أن أسلوب التمييز هذا لم يعد مقبولا ، والرأى الأصح أن الأثرين يمثلون دائما لاتباع أسلوب عام واحد مهما كان ما يدرسهونه ، سواء كان هذا فخارا أو تمثالا أو نقشا منحوتا من العصر الحجري الحديث أو العصر اليونانى الرومانى أو شيئا يستخدم فى الحياة اليومية أو عملا فنيا ( اذا أمكن الاهتمام الى تعريف دقيق للعمل الفنى ) .

ولا شك أنه يصعب إعطاء وصف مختصر للطريقة التى تستخدم فى كل هذه الحالات ، غير أن شأنج قد نجح فى الوصول الى تعريف يبدو لنا أنه تعريف سليم جدا ، وهو : « اذا سمح لى أن أركز اهتمامى على شىء واحد وأعتبره النقطة المركزية للمجموعة التى نستنتج منها النظرية الأثرية المعقدة وطريق التطور الذى حدث فيها ، فيجب على فى هذه الحالة أن ألقى فكرة التصنيف وعملياتها » . ولما كان صحيحا أن ليس كل الآثاريين محاسنين . وبالتالى ليسوا اخصائيين ، فانهم مع ذلك يصنفون المواد التى يقومون بدراساتها بطريقة أو أخرى ، سواء تعلقت دراساتهم بأشياء مفردة أو بمجموعات من هذه الأشياء تعد بالآلاف أو بالآلات الاحصاء التى سبق ذكرها فهي تستخدم فى المكان الأول للتصنيف ، بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، فعلى سبيل المثال لتحديد « الطرز » على أساس صفات مترابطة مثل الملامح المميزة والخواص ، فى حين تحدد « الجماعات » على أساس مجموعات معينة من الطرز وتحدد الحضارات على أساس تكرار طوائف معينة من الجماعات ، وهكذا . لكن العالم الأثرى يصنف أيضا ، دون القيام بأى عمليات حساسية حقيقية ، عندما يعطى بيانات من النوع التالى ، وهى بيانات شائعة جدا فى المؤلفات المتخصصة الى درجة أنها تظهر لنا كأنها من نافذة القول ، وهى : غ تشابه مع س ( أ و ع ، ف ، ص ، ق ..... ظ ، ز ، أو إن « متشابهات غ هى س ع ، ف ، ص ..... » أو « قارن

غ بكل من س ( ع ٠٠٠٠٠ ) ، ، الخ . وتؤلف كل سلسلة من هذه العلاقات فئة معينة بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، أى مجموعة من العناصر ( س ، ع ) أو ( س ، ع ، ف ) أو ( س ، ع ، ف ، ص ) ، الخ ، مجمعة معا على أساس أنها تشترك فى خاصية معينة أو خواص معينة . وقد تكون مثل هذه الخواص معرفة تعريفا واضحا الى حد ما ( وفى واقع الأمر كثيرا ما يكون هذا التحديد خاطئا ) ، وقد يكون الوصف الموضوع لهذه المجموعات وصفا خاطئا ( ويوصف أحيانا بطريقة واحدة بأسلوب غير متغير ، وأحيانا بطريقة متغيرة متعددة الأسلوب ، ( انظر سوكال ، وسنيث ، ص ١٣ - ١٥ ) . وبالرغم من ذلك فالبيانات المقدمة عن المسألة هى صورة من صور التصنيف ، ويمكن تطبيقها على تصنيف أى مجموعة من الأشياء ، أو حتى على شيئين فقط قد يمكن ربطهما معا وقد لا يمكن ربطهما .

ويمكن أيضا الطريقة المشار إليها طبقا للنظام الصحيح لها هكذا : أعد « جدول معلومات » ( شكل ١ ) حيث تبين فى الصفوف الأفقية الآثار المراد تصنيفها ( سواء كانت أدوات ، أو أسلحة ، أو أواني ، أو حليا ، أو نصوصا ، أو قطعاً فنية ، الخ ) فى حين تبين فى الأعمدة الرأسية الصفات أو الخواص التى استخدمت فى وصف هذه الآثار أو بآى تعبير أشمل فى التحدث عنها ( وليس هذان الأسلوبان فى الوصف

الآثار	الخواص					
	أ	ب	ج	د	هـ	ن
س	١	١	١	٠	٠	١
ع			١	٠	١	
ف			١	٠	١	١
ص	٠	٠	٠	١	٠	٠
ع	١	١	١	١	٠	١

شكل (١)

« جدول معلومات » أركيولوجية يبين خواص المجموعة الأثرية ، فإذا كان للأثر فى الصفوف الأفقية ( س ، ع ، ف ، ص ، ق ، و ، ش ، ث ، ح ، ذ ، ز ، ط ، غ ) خاصية معينة فى الأعمدة الرأسية ( أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ي ، ك ، ل ، م ، ن ) أعطى رقم ١ وإذا لم تكن لديه هذه الخاصية أعطى رقم صفر .

مع الأسف متعادلين ، أنظر المرجعين ٥ ، ٦ ) . فإذا قيل ان « غ تشابه مع س » فإن هذا يعني أنه في مجموعه الآثار التي تجرى دراستها (وهي س ، ع ، ف ، ص ٠٠٠) باستخدام عدد غير محدود من الخواص (أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ٠٠٠٠٠٠ ن) ، لاحظ العالم الأنثري تمانلا بين غ ، س أكثر وضوحا مما بين غ وأى أثر آخر في المجموعة (ع ، ف الخ ٠٠٠) ، ومن الواضح أن التشابه في هذه الحالة يمكن التعبير عنه بعبارات من المفروض أنه يمكن تحقيقها ، ومن ثم يمكن تقدير هذا التشابه تقديرا كميًا يتضمن سردا صادقا للخواص المشتركة والخواص المختلفة لكل اثنين من الآثار (غ ، س) أو (غ ، ع) ، وهكذا (١) .

وعبارة « ومن ثم يمكن تقدير هذا التشابه تقديرا كميًا » في شرحنا هذا عبارة أساسية لفهم موضوعنا ، فإذا قدمت تصنيفات الأثرى هذه لعمليات الحساب الآلي ، وبالتالي الى الحاسب الإلكتروني ، فإنه يتحتم علينا أن نفترض أن هذه التصنيفات تُرَوض اعتبارًا ، ولكنها تتبع قواعد معينة، حتى ولو بدت لنا في غاية الأهمية وتحدث أى محاولة لاعطائها صيغة علمية مقبولة . وعند افتراضنا وجود بيانات «يمكن اثباتها» عن الخواص المتطابقة والخواص المختلفة للأثر في جدول المعلومات فإن كل مانعله هو أن نسلم بوجود مثل هذه القواعد في تناولنا لطريقة المقارنة في علم الآثار ، و « إمكانية التقدير الكلي » للتصنيف ما هي الا إحدى الطرق التي تؤدي الى هذا الغرض نفسه .

ولن نشغل أنفسنا هنا بالمناقشات الماضية التي لايزال يثيرها مبدأ التزاوج بين طرق البحث الأركيولوجية والطرق التي تعتمد على الأرقام والعقل الإلكتروني، وهو التزاوج الذي اعتبره البعض عارا واعتبره البعض الآخر ببساطة زواجا غير منجب . ولكننى أرجو أن أبين فقط أن هذا التزاوج قد أجرى ببطء وأحكام منذ أكثر من عشر سنوات (٢)، وليس في الأفق البعيد أى اشارات تدل على أى مصاعب أو اجهاد نتيجة لقيام هذا التزاوج . وجدير بالذكر أن استخدام الطرق الرياضية ، بما في ذلك الحاسب الإلكتروني لاجراء التصنيفات الأركيولوجية ، ليس بالأمر غير العادى الآن . ويمكن ذكر عشرات المقالات التي نشرت عن هذا الموضوع ، وأحدثها مقالات كوجيل وفرناندى دى لافيغا وهودسون . وليس انهماء علماء الآثار بهذه الطرق الا مظهرا من مظاهر النجاح الكبير الذي صادفته هذه الطرق خلال العشر السنين الأخيرة في تطبيقها على كل فروع العلم الأخرى وخاصة علم تصنيف الأحياء الذي يؤدي دورا هاما مماثلا في علوم التازينج الطبيعي والحيوان والنبات ، ومن ثم فإن اصطلاح « التصنيف العددي للأحياء » الذي أطلق على هذه الطرق وتسمية تبدل على المعنى الصحيح لها .

(١) في هذا المقال المبسط جدا عن موضوعنا سنعالج فقط الحالة التي تصنف فيها الآثار طبقا لخواصها . غير انه يمكن استخدام جدول المعلومات أيضا لتصنيف الخواص طبقا لوجودها في الآثار المختلفة في مجموعة الآثار التي تجرى دراستها .

(٢) كان هذا عام ١٩٥٩ حينما حدث لأول مرة حينما تعلم أن استخدم بيتر إيم Peter Ihm جهاز الحاسب الإلكتروني المعروف باسم Baratom IBM GSO Computer في ايسيرا بإيطاليا طريقة التصنيف الذاتي الآلي التي ابتكرها هو لدراسة مجموعة من فؤوس أوراسيه يرجع تاريخها الى العصر البرونزي بحث بها اليه اليسيف .

ولما كانت هذه الدراسات حديثة ، وتعالج الموضوع بصفة شاملة ، فأننى لست فى حاجة هنا الى أن أتناولها بعين مرة أخرى ، وأفضل فى هذا المقال أن أهتم اهتماما خاصا بحدود استخدام طرق التصنيف الآلى فى الميدان الأثرى ، أو بمعنى أصح المشاكل الرئيسية التى تقابلها فى هذا الميدان .

وأول هذه المشاكل متعلق بعمل جدول المعلومات عند بدء إجراء حسابات التصنيف ( شكل ١ ) ، كيف يتم اختيار ( خواص ) مجموعة الآثار التى ستجرى دراستها ، وكيف توصف ، وكيف ترتب ؟

ومع أن هذه المسألة ذات أهمية قصوى إلا أنها تعالج بكيفية ناقصة فى تقارير علماء الآثار ، بل قد يتجاهلونها تماما ولا يخصصون لها فقرة مستقلة فى التقرير . ومن الجلى فى التصنيف أو تقسيم المجموعة الأثرية الى أقسام حسب طرز القطع التى تشملها ، مهما كانت الطريقة التى تتبع فى ذلك ، سواء كانت هذه الطريقة بدائية أو رياضية ، هو أولا وقبل كل شيء نتيجة للاختيار الأول فيما يختص بكيفية « النظر » الى هذه الآثار بوصف معين يختار من بين عدد يكاد يكون لانهاثيا من الأوصاف ، وبتعبير آخر يمكن أن يقال أن الوصف الأول للآثار ، أى ترتيبها طبقا لقائمة الخواص ( شكل ١ ) ، هو ولا شك الذى يحكم نتائج أى تصنيف لاحق مهما كانت الطريقة المستخدمة فى هذا التصنيف . وقد يبدو أمرا غريبا أن هذه الحقيقة الأولية لاتزال غائبة عن ادراك علماء الآثار ، أو أنهم بدأوا الآن فقط يدركون أهميتها بالنسبة لصحة النتائج التى يرقبونها ، لكن لمحة الى المؤلفات الأركيولوجية ستقنع أى قارئ بأن الأمر كذلك ، ففي هذه المؤلفات توصف الآثار بطريقة « طبيعية » للغاية ، أى أنها توصف ، ثم يقارن بعضها ببعض ، ثم تبوب ، ثم تصنف لى « طرز » ، مع استخدام اصطلاحات من اللغة الدارجة التى تغذى قليلا ببعض كلمات تخصصية ، وهذه الكلمات نفسها ( مثل المقرنس ، دسستور ، مشقوق المقبض ) تعكس اختيارات تدل على كيفية النظر إليها ، ويبدو أنها معتبرة لديهم كأنها مصطلحات دارجة « طبيعية » حتى أنهم لا يوضحون فى كتابتهم المعنى المقصود منها أو يبررون وجهة نظرهم فى استعمالها . ومع ذلك فليس ثمة شيء أقل طبيعية من لغة العلوم ، فالتجارب العلمية التى تمكننا وحدها من تكوين هذه اللغة تأخذ عادة بعيدا عن موقف ادراكنا المفاسحي الذى كنا فيه عند البداية . وإزاء هذا أريد أن أقدر القارئ لماذا لم نقف طويلا عند هذه الحقائق الواضحة التى عولجت مرارا فى كثير من المؤلفات الحديثة عن علم الآثار . وأود فقط أن أبين بوضوح كامل أن استخدام الحساب الالكترونى ، بل الحاسب الالكترونى إنما ينحصر أثره الوحيد حتى الآن فى أنه أثار لنا السبيل ووجه اهتمامنا نحو مسألة مهلة من جهة طريقة العمل ، وهى المسألة التى تعتمد عليها كل التصنيفات الأركيولوجية .

وينطبق هذا بالنسبة للمشكلة الثانية ، التى تتعلق بصفة مباشرة بعمليات التصنيف الآلية ، وهى « موضوعية » مفهوم الاصطلاح « تشابه » الذى تتضمنه كل البيانات الأولية التى سبق ذكرها ، مثل « تشابه مع ص » و « متشابهات غ » من



( ع ، ف ..... ) . النح • وأود هنا أن أبين ثلاث حقائق : الأولى أنه من السهل أن نرى أنه لا يمكن تنظيم أصناف أو مجموعات من أي نوع في جدول معلومات (شكل ١) تنظيماً سليماً إلا إذا أمكن استبدال هذه المقترحات الغامضة بتعابير يمكن تقديرها تقديراً كمياً ، أى يمكن قياسها بواسطة « مقاييس » بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى • فإذا رمزنا للخواص بأعداد فإن إيجاد مفهوم الأعداد المجاورة وحساب المجموعات يتم باستخدام طرق فنية معروفة حق المعرفة- يمكن الآن تحليلها بالحاسب الإلكتروني ، ومن أمثلة هذه الطرق التحليل إلى عوامل • ومع ذلك ، على خلاف الرأى الذى لا يزال يسلم به عدد من الأركيولوجيين ، لا يعنى قياس التشابه أن تكون الخواص قياسية ، بل على العكس ، فى معظم المراجع وصفت الآثار التى تدرس بواسطة عامل ثنائى موجه ، أى بتعابير مماثلة لتلك المستخدمة فى ( شكل ١ ) توضيح كيفيا فقط وجود أو عدم وجود ملامح متنوعة معينة فى آثار المجموعة الواحدة • ومن ثم نرى أنه توجد عدة طرق لقياس أوجه التشابه أو « المسافات » فى جدول المعلومات ، وسيجد القارئ، الذى تهمة مثل هذه الطرق فى المراجع الأركيولوجية عدداً كبيراً من الأمثلة مع عواملها المختلفة واستخداماتها فى بحوث التصنيف التى جرت باستخدام الحاسب الإلكتروني أو بدون استخدامه • وليس يهمنى فى هذا المقال أن نبين عدد هذه البحوث أو أن ننوه بالنجاح النسبى الذى حققته فيما يتعلق بإيضاح مفهوم المعلومات الأولية لعلماء الآثار ، لكن المهم هو أيضاً حقيقة تجاهلها الكثيرون ، وهى أن هذا التقدير الأولى للنتائج هو فى التحليل النهائى الاختيار الحقيقى الوحيد لطبيعة الطريقة الرياضية للتصنيف وللتقاييس التى اعتمدت عليها ( وكما رأينا كان وصف القطعة هو أول هذه القياسات قبل حساب أى مسافات أو تشابهات ) .

وبهذا نأتى إلى البديهية الثالثة التى يجب فى تقديرنا أن نوجه النظر إليها فيما يتعلق بالتصنيف الآتى ، وهى : أنه لا استخدام الآلات الحاسبة ولا حتى الحاسب الإلكتروني يضيف نتائج أعظم فى قيمتها من النتائج الأولى لأدراك المفهوم العام للحالة الحضارية التى تجرى دراستها أكثر مما أدركناه من جدول المعلومات الأولية ، ولكن استخدامها هو من طرق إيضاح موضوعية العمليات التى اعتمد عليها الوصف والتصنيف ، وهو بالتأكيد شئ طيب نجربه ، ولكن يجب أن لا نستنتج أن الطرق التى وصلنا إليها صائبة لأنه أمكن وضعها فى صيغة رياضية أو فى صيغة واضحة ويمكن أن يحدث ، بل أنه يحدث فعلاً ، أن يعطى الوصف البديهي ، الذى يضعه العالم الأثرى لطرز المجموعة الأثرية ، مفهوماً أوضح وأجدى من المفهوم الذى ندركه من الفئات التى قسمت المجموعة إليها بالحاسب الإلكتروني باستخدام البيانات والأوصاف التى وضعها الأثرى . وفى هذا الشأن يقدم هودسون تحليلاً معقولاً ، إذ يقول « قد يبدو سابقاً لأوانه أن ندعى أن طريقة للتصنيف قد ثبت أنها بفردتها أداة صالحة تماماً فى الحقل الأثرى ، ومن الغباء أن نستعثر بالصعوبات التى تواجه أى محاولة جديدة للتصنيف الأركيولوجى بطريقة حسابية أو بأى طريقة أخرى » وأكثر من ذلك يكون من العبث ، فى رأى ، أن نأمل أننا يوماً ما نكتشف طريقة خصائية « فريدة » واحدة تعطى دائماً نتائج « مرضية » وذلك نظراً لتنوع أهداف العالم

الأثرى طبقا لما يفرضه عليه البحث ، ونظرا لتنوع الطرق التى يختارها عند ترتيبه للآثار القديمة بكيفيات لا تعد ولا تحصى ، لكل منها عنصرها الخاص للدلالة التاريخية أو للدلالة على السلالات البشرية . ومنذ أكثر من عشرين سنة كان العالم الأمريكى اللامع الدكتور برو يدعو لاستخدام طرق متعددة فى تصنيف مجموعة واحدة ، وما يدعو للسرور أن رأيه هذا يلقى تأييدا الآن بالرغم من المقاومة التى يلقاها من « التيبولوجيين » ( الطرازين ) أشد المعارضين للنسبية ، ومن الواضح أن هذا الرأى يجب تطبيقه على كل من طريقتى التصنيف الرياضية وغير الرياضية ، وعلى نتائجهما .

## التنظيم التسلسلى حالة خاصة

يرى بعض الباحثين أنه ، لتلقى بعض مشاكل التصنيف ، يمكن الكف عن البحث عن المجموعات المتشابهة فى جدول المعلومات ( شكل ١ ) والاستعاضة عن ذلك بتمثيلها على شكل نظام تسلسلى يعدل فيه ترتيب قطع المجموعة وخواصها ( فى الصفوف الأفقية والأعمدة الرأسية ) بحيث نحصل على تمثيل قطرى تقريبا من النوع المبين فى ( شكل ٢ ) ، وبذلك تكون القطع المتشابهة مقترنة بعضها ببعض ، ولا تكون هناك حاجة لتقرير عدد الأصناف التى تتكون منها المجموعة ، ويكون العالم الأثرى حرا فى تنظيمها بالطريقة التى يراها مناسبة لدراسته ، مع ترك فراغات فى الجدول لإضافة معايير داخلية أو خارجية حسب اختياره .

وبهذا التعريف يكون التنظيم التسلسلى أداة نافعة لدراسة الآثار إذا كانت لدينا أسباب تجعلنا نرى أنه يمكن تمثيلها تخطيطيا على طول محور واحد . ويمكن تفسير هذا الترتيب زمنيا ( لاستنتاج التطور ) أو جغرافيا ( لاستنتاج التوزيع ) . وقد ابتكر أليسييف طريقة فئة لتكوين مثل هذه النظم التسلسلية بدويا (١) ، ويبدو أنه استخدمها بنجاح لتحقيق النتائج التاريخى لقطع من البرونز الصينى أو لتأريخها بما هو أكثر دقة ، وهكذا .

(١) استخدمت هذه الطرق البيومية على الأقل فى الحالات التى لا يزيد فيها عدد قطع المجموعة على عشرين قطعة، وقد صمم فرناندى دى لافيغا برنامجا استخدم فيه هذا النظام نفسه لتطبيقه على المجموعات الكبيرة المدد فى الحاسب الالكترونى ( ويمكن طلبه من مركز التحليل التسجيلى للآثار بالمركز القومى للبحوث العلمية )

الخواص											الآثار	
م	ا	ي	د	ط		ب	ن	ج	ا	ح	و	
•	•	•	•	•		•	•	ا	ا	ا	ا	ت
•	•	•	ا	•		ا	ا	ا	ا	ا	•	س
•	•	•	•	•		ا	ا	ا	ا	•	•	ع
•	•	•	•	•		ا	ا	ا	ا	•	•	ق
•	•	•	•	•		ا	ا	ا	•	•	•	ف
•	•	ا	ا	ا		•	•	•	•	•	•	ص
•	ا	•	ا	ا		•	•	•	•	•	•	ع
ا	ا	•	•	•		•	•	•	•	•	•	ض

شكل (٢)

### مثال عن التنظيم التسلسلي

وكذلك أشار لاجرانج الى نموذج جديد من التنظيم التسلسلي الجبري (١) كان قد ابتكره ف. تونلييه F. Tonnelier واستخدمه لايضاح أوجه التشابه وأوجه الاختلاف التي لاحظها أحد المتخصصين في تخطيط أديرة الرهبان البندكتيين ، كما توجد أمثلة أخرى كثيرة . وقد أشارت عدة مراجع انجليزية الى بعض طرق مماثلة ( أنظر برينرد - وينسون ، تجبي ، كلارك ) تستعمل الآن في الحاسب الالكتروني ويمكن تطبيقها لدراسة المجموعات الأثرية الكبيرة . ومع ذلك ، سواء كانت طرق التنظيم التسلسلي آلية أو غير آلية ، فإنها تثير هذا النوع من المشاكل التي أشرنا اليها بالنسبة لطرق التصنيف ، وهي :

- ١ - التنظيمات المبينة في جدول على شكل قطري تتألف من كل من الآثار وخواصها ، أو بتعبير آخر ما دامت الأشياء هي مجموعة من خواصها فإن معقولة الطريقة الوصفية المختارة من البداية هي على نفس مستوى الأهمية التي عليها طريقة التنظيم التسلسلي التي سيتبع في دراستها .

(١) الجورينم Algorithm طريقة لتحديد مدى معين في سلسلة المعلومات باستخدام معادلة خاصة استعملها مباشرة .

٢ - بالرغم من أن التنظيم التسلسلي لا يعطى تصنيفاً بالمعنى الصحيح فإنه كذلك يحتاج الى ايضاح موضوعية التشابه حتى حينما تستخدم طرق لم يعد فيها من قبل جدول بالخواص المتشابهة .

٣ - لا توجد هنا أيضاً أسس للاعتقاد بأنه يوجد لدينا معيار واحد صحيح لكل الحالات ، كما أنه ليس لدينا طريقة مثالية واحدة للتنظيم التسلسلي ينتج عن تطبيقها على جميع جداول المعلومات تمثيل قطري له مفهوم واضح وفائدة كبرى في استنتاج الحقائق التاريخية وتسلسل السلالات البشرية . وإذا أضفنا الى هذا التحديدات الملزمة لمبدأ التنظيم التسلسلي - مثل فرض مراعاة تجانس البيانات ، وتمثيلها خطياً بالنسبة للتوزيع الجغرافي والتاريخي ، واستقلال التوزيع الجغرافي عن التطور ، أو على الأقل امكان الفصل بينهما ( كلارك ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥٧ - ٤٦٣ ) - فإنه يمكن أن ندرك أنه يجب اتخاذ احتياطات أكثر ، وأنه يجب وضع تمييز بين التمثيل الجغري للمجموعات لهذه العملية وبين قيمة نتائجها العلمية ، وستعالج هذه النقطة في الفقرة الأخيرة من هذا المقال .

### التطبيق التسجيلي

إذا اعتبرنا كلا من التصنيف العددي والتنظيم التسلسلي خطراً في استخدامه، نظراً لعدم الاطمئنان للأساس الذي نقيم عليه منهج الطريقة المستخدمة ، أفلا يمكننا على الأقل أن نستخدم الحاسب الإلكتروني لفرز البيانات الأركيولوجية دون أن نعرض لخطر الوقوع في خطأ منهجي ؟ لاشك أن هذا إجراء يمكن عمله ، فقد طبقت أسس علوم الحاسب الإلكتروني في التسجيل الآتري قبل أن يولد علم الحاسب الإلكتروني ويسمى بهذا الاسم بوقت طويل ، غير أنه من جهة أخرى ليس من المؤكد أن لا تحدث صعوبات منهجية ، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار الموارد المتواضعة نسبياً التي في متناول أيدينا للحصول على المعلومات الأساسية الأولى . وإذا عدنا مرة أخرى الى جدول المعلومات (شكل ١) فإنه يصعب علينا أن نرى مانعاً يحول دون توجيه أسئلة للحاسب الإلكتروني لكي يتعرف لنا من مجموعة الآثار س ، ع ، ف ، ٥٥ ، على القطع التي لها الخواص هـ ، و ، ز ٥٥ من جملة الخواص (أ ، ب ، ج ؛ ٥٥ - ن) التي يشتملها الوصف الآتري ؛ إذ أن هذا هو أبسط مبدأ ، بل هو العمل اليومي ، للفرز الآلي ، أو بمعنى أصح لاسترداد المعلومات مهما كان نوع المعلومات المخزونة (أثرية ، خطية ، لفظية ، مكتوبة ، الخ) ومهما كان نوع الآلات المستخدمة لذلك ، ابتداء من الفرز اليدوي الى أقوى الحاسبات الإلكترونية . والعملية شائعة لدرجة لا تحتاج معها لأن نصفها بالتفصيل أو أن نورد هنا قائمة بكل الحالات التي استخدم من أجلها في الأبحاث الأركيولوجية . وعلى أي حال فقيمة هذه القائمة - ويمكن للقارئ أن يجدها في أي وقت في المراجع الأثرية - ليست في محتواها بقدر ما هي في إيجازها . وبخلاف عمليات الحاسب الإلكتروني التي تهدف أساساً الى إجراء الإحصاء الحسابي بأوسع معنى لهذا الاصطلاح (مثل التوزيع ، والتصنيف،

والتنظيم التسلسلي « الخ ) فإنه يجرى الآن العمل في نحو اثني عشر مشروعا تتناول بصفة خاصة البحث التسجيلي بالمعنى الذى عرفناه به هنا . وفى تقديرى لا يرجع السبب فى الاحجام عن القيام بهذه المشروعات الى حداقتها ولا الى النفقات التى تتطلبها ، اذ ان تكاليف الحساب الآلى أصبحت الآن فى مقدور كثير من جماعات البحث الأثرى ، ولكنه يرجع أكثر ما يرجع - الآن خاصة - اذ قل كثيرا القيام بمثل هذه المشروعات - الى الحالة الواقعية لنظام العمل فى الحقل الأثرى ، وعادات العمل القديمة التى ظل الأثريون يتبعونها قرونا دون أى تغيير حتى اليوم .

ففى المكان الاول يأتى نظام العمل ، ففى تكوين بنك (١) المعلومات يفترض مقدما درجة معينة من الاتفاق بين المتخصصين بالنسبة لطبيعة المعلومات ، مثل اختيار برنامج العمل الذى سيتبع فى حالة «الأثار» ، واختيار لغة الوصف فى حالة «الخواص» التى ستؤخذ فى الاعتبار (شكل ١) . وقد أمكن الوصول الى مثل هذا الاتفاق فى فروع كثيرة جدا من العلوم البحتة وحتى فى فروع العلوم الاجتماعية (انظر المراجع المذكورة فى الحاشية) ، لكن يبدو أن علم الأثار لايسمح بمثل هذا الاتفاق .

وفى المكان الثانى تأتى عادات العمل ، وهى فى الغالب التى اتبعها العلماء القدماء الذين ظلوا عدة سنوات يجمعون بصبر واثانة مجموعة لاحصر لها من المعلومات ، ويحفظون بحمس شديد هذه المادة العلمية لنفوسهم فى مذكراتهم وملفاتهم حتى يحين الوقت الذى يمكنهم فيه طبعها ونشرها على نفقتهم الخاصة ، ومن هذا نرى أنه ليس ثمة شيء أبغض عند أمثال هؤلاء الأثريين من مبدأ بنك المعلومات ، حيث تجرى عادة أعمال البحث والتحليل التسجيلي دون معرفة اسم صاحبها ، وتوكل رسميا الى معاهد (٢) لا الى أفراد خصوصيين ، ومن ثم يمكن أن تصل نتائج البحوث فى الحال الى الجمهور ، وأن « تنشر » فى بحوث الحاسب الألكترونى قبل أن يقوم العالم الأثرى بطبع بحوثه ونشرها .

(١) هذا هو الاسم الذى أعطى منذ مدة لل ملفات اكبرواكفا الحاسبات الألكترونية لكل من العلوم الاجتماعية ( على سبيل المثال انظر

S. Rokkan (ed.), Data archives for the Social Sciences, Paris and The Hague, Mouton. 1966.

والعلوم الطبيعية ( وعلى سبيل المثال انظر

R. Cole (ed.), Data Information Availability, Washington, by the Committee on Data for Science and Technology (CODATA), the International Council of Scientific Unions, Munich).

(٢) هذه المساهد هى مراكز لتحليل المعلومات أو البيانات ، تمد وتجهز تجهيزا خاصا لكل نظام معين طبقا للاتفاقات الدولية :

UNISIST-Study Report on the Feasibility of a World Science Information System by the United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization and the International Council of Scientific Unions, final report by J.C. Gardin, paragraph 4.3.4, Paris, UNESCO, 1971.

ولهذا يجب أولا أن تتغير طرق الاحتراف الاثرى وأن تتغير العادات في العمل الأركيولوجي تغيرا جذريا قبل أن يمكن استغلال علم الحاسب الإلكتروني استغلالا كاملا في العلوم الأثرية لكي نربح علماء الآثار من العناء المتكرر الدائم الذي يقاسونه في جمع المعلومات مابأخذ الآن معظم وقتهم . ومن الجلى أن مثل هذا التغير قد يتمطل بسبب المعارضة التي يهر عليها علماء الآثار اللامعون تجاهه . على أنه من جهة أخرى يستحيل أن يعارضوه الى الأبد بسبب مايدعونه من الطبيعة «الخاصة» لعلمهم ، وسنرى قبل أن يمر عشرون عاما تكاثرا سريعا وعلى نطاق واسع للبنسوك الدولية للمعلومات الأثرية ، مثل تلك التي بدأت تشق طريقها في بعض الدول لتنظيم مجموعات المتاحف (مثل متحف المتروبوليتان بنيويورك ، ١٩٦٨) ، أو لحصر الآثار التاريخية (مثل الحصر الذي قامت به وزارة الثقافة في فرنسا عام ١٩٧٠ ، ص ٥٣ - ٥٨) .

### المحاكاة واثبات الصلاحية

حيث أن طرق محاكاة الحاسب الإلكتروني قد عالجهها جريمي في مقال آخر فإن أمالج في مقالى هذا المبدأ الذي تعتمد عليه هذه الطرق (١) ، والطريقة العامة لمحاكاة في علم الآثار هي الطريقة المتبعة في علم الاجتماع ، وليس من الصعب أن نطبق على علم الآثار ماأوضحه جريمي بالنسبة لعلم الاجتماع . غير أنه لم تنش حتى الآن أية بيانات عن أى حالة معينة حتى يمكن أن نفهم منها طبيعة طرق المحاكاة التي تستخدم في الآثار وفوائدها ، ومن ثم لايسعنا الا أن نوجه نظر القارئ هنا للرجوع الى بعض دراسات تبشر بالنجاح في هذا السبيل (أنظر دوران) والى بعض التجارب التي أجريت على نماذج بيئية في علم الاجتماع لكنها تدخل في علم التطور الحضارى للسلاسل البشرية أكثر مما تدخل في علم الآثار بالمعنى الصحيح .

ومع ذلك فاني أرى أنه من المفيد لنا في هذا المقال أن نوسع دائرة دراسات المحاكاة حتى لاتقف عند المحاولات التي بذلت لوضع نماذج لتطبيقها على الحضارات القديمة فحسب ، بل لكي تشمل أيضا ما هو أهم من ذلك وهو الاحتيال اوضع نماذج لتطبيقها على طرق العمل الأثرية باعتبارها الظاهرة التي يراد محاكاتها مهما كانت البيانات المطلوبة لهذه العملية (سواء كانت أوصافا جسدية ، أو بيئية ، أو خاصة بالعمران الحضارى ، الخ) . وبهذا المعنى الواسع تكون كل الدراسات التي ذكرناها في الفقرات السابقة في هذا المقال دراسات محاكاة . والاستعاضة عن

(١) رجعت الى مقال جريمي المذكور

( ear-Paul Grémy, The Use of Computer Simulation Technique in Sociology).

ويمكن تلخيص تعريف المبدأ الذي تعتمد عليه طرق المحاكاة في عمل نموذج مصغر للظاهرة التي يجري بحثها ، وبذلك يجوز أن تجرى على هذا النموذج تجارب متنوعة يتمثل اجراؤها أثناء القيام بأجراء التجربة الحقيقية نفسها (المترجم) .

الإنسان بالآلة في عمليات الإحصاء أو التصنيف أو التسجيل يمكن أن يقال فيها أنها قيام الآلة بمحاكاة الطريقة التي يفكر بها الإنسان حينما يقوم بعد أو ترتيب أو تصنيف الآثار وخواصها ، وبهذا تتضح الأهمية الحقيقية لعملية المحاكاة التي نبه اليها جريسي ، وهي طريقة العمل التي تستلزم منا أن نكون قادرين بل تجعلنا حقا قادرين ، على أن نوضح توضيحا جوهريا بعض أسس المعرفة في علم الآثار وغيره من العلوم ، في حين أننا نعلم جيدا أنها لا تعتمد على غير أصول منطقية واهية ، ولو أننا عادة لانعير ذلك اهتماما ، ونأخذها قضية مسلمة . وبناء على ذلك فإن عمل نماذج للدلالة اللغوية - بفرض اظهار درجة كفاية تعبيرات التمييز والمفاضلة المستخدمة فعلا في لغة الأركيولوجيين ، لا في التعريف المعنوي بل عمليا - هو من الوسائل الفعالة جدا لبيان عدم قدرة هذه اللغة لمقابلة الاحتياجات الأولية للتعبير عن الفكر العلمي . كما أن المبادئ والطرق المستخدمة هي مبادئ وطرق عادية . وإذا كانت بعض الاصطلاحات الغامضة (مثل التحليل التركيبي ، التحليل شبه المنطقي ، الخ ، انظر جاردان ١٩٦٥ ، ١٩٦٧ ) تستخدم أحيانا فإن تطبيقاتها الحديثة على علم الآثار « بوريلو ١٩٧٠ وتاريخ الفن ( لاجرانج ) تبين بكيفية شديدة الوضوح البون الشاسع الذي يفصل بين أرسخ طرق التصنيف الأولية وبين أي تفسير نظري يتطابق مع أبسط القواعد المنطقية العامة التي وجدت حتى قبل اصدار كتاب « منطق الباب الملكي » .

ومن البديهي أننا لانقصد من هذه المحاولة للتحليل والتشخيص أن نوجه النظر الى العصور أو الخلل في تفكير الناس الآخرين ، ولكن قد تؤدي هذه المحاولة الى أن يسأل الآثريون أنفسهم بتمن ، فيحاول كل منهم أن يوضح بفكر استطاعته ماهي البيانات التي يعمل بها ، وماهو الغرض من بحثه ، وماهي الفروض التي يعتمد عليها في تحليله وتفكيره ، وماهو الاسلوب المنطقي الذي اتبعه ، وهكذا (انظر الأمثلة المبينة في جاردان وجاريللي ، وهيل) . وعندما يفعل الآثري هذا فإنه لا يعدو أن يعود الى الطريق الذي بدأ منه واتبعه كل العلماء الآخرين ، وليس ثمة ضرر في توجيه الآثري الى الطريق الصحيح بفضل علم الحاسب الالكتروني ، وتشمل « النظرة الجديدة » التي انفتحت امامه اولا التفكير المنطقي (بينفورد ، ص ١٦ - ٢٧) ، وتشمل ثانيا الاسلوب التكنولوجي للحاسب الالكتروني . ويمكننا بسهولة اختبار صدق هذه النظرة ، اذا اقتضى الامر ، بفحص النتائج التي نحصل عليها من الحاسب الالكتروني بعين ناقدة ، وحيثما يستخدم الحاسب الالكتروني ليس ثمة دليل على أن هذه النتائج لها أي دلالة بالنسبة للمعرفة الأثرية ، إذ أن الطبيعة « الموضوعية » لطريقة العمل التي اتبعت للوصول الى هذه النتائج لاتضمن صلاحيتها أو نفعها العلمي .

وقد يبدو أيضا أن هذا القول بديهي غنى عن البيان ولا يرتبط ارتباطا مباشرا بطرق المحاكاة . وليس ثمة ماهو أصدق من القول بأن عمليتي الموضوعية والتنسيق اللازمتين لفكرة الأساسية « للنموذج » غير مفيدتين الا اذا كان لدينا دليل على مفعولية

النموذج في تفهم حقائق أولية جديدة ، وأقل ما يمكن قوله هو أن مثل هذه الدلائل غير شائعة في البحوث الأثرية ولا حتى في بحوث العلوم الأساسية التي تناقش الحساب الآلي والحاسب الإلكتروني . ولنأخذ مثلا مجموعة من أشياء يبلغ عددها س ، فإذا حاولنا تصنيفها باستخدام نظام غير محدد المواصفات فإنه يمكن أن نميز في هذه المجموعة عددا من الأنواع يختص كل منها بعلام معينة مميزة (خواص ، صفات ، الخ) . ولاتبات صلاحية هذه النتيجة وشرعيتها لايتحتم علينا أن نكتفى أن نوضحها بتفسير تاريخي أو أثولوجي لهذه الأنواع (مثل تناسب الفروقات بينها، مع اختلافها في التاريخ ، أو النشأة ، أو الوظيفة الرمزية لها ، أو بدنى ، الخ) ، بل يجب علينا مع هذا أيضا أن نبين أن التوصيف (أو الصيغة) المعطى لها صحيح باحدى الكيفيتين الآتيتين أو بكتليهما :

أ - إذا أخذت قطعة ما ، ولتكن ( س + ١ ) ، تنتمى الى المجال الذى فرض أن المجموعة تمثله ( مثل الخزف الاسلامى من عصر ما قبل المغول ) ، فإن النموذج يحمل في الامكان أن نحسب النوع الذى تقع هذه القطعة فيه (مثل النوع العراقى . أو النوع السامانى ، أو النوع المزجج غير المحروق) ، ووضعها هذا الذى حسب عن طريق النموذج تثبته الحقائق الأولية الثابتة .

ب - انه يمكن بالاستعانة بالنموذج تخليق قطعة س + ١ تخليقا « صناعيا » مطابقا تماما لأوصاف أحد هذه الأنواع بحيث لا يكون في وسع الاخصائيين أن يميزوها من القطع «الطبيعية» التى تنتمى الى النوع الذى هى منه .

اذن لدينا هنا أسلوبان للاختبار - مثل الاختبارات النمطية في العلوم التجريبية - لاستعمل فيهما اى معادلات أو نظريات موضوعة الا اذا كان يمكن حقيقة استخدامها في التنبؤ أو التعرف أو التشخيص الخ . تحليليا (الحالة أ المذكورة أعلاه) ، أو في التخليق أو التكرار أو المحاكاة الخ . صناعيا (الحالة ب) . فالنظريات في علم الآثار أو تاريخ الفن غير قابلة للتنفيذ بالمقارنة بالعلوم التجريبية، مادام مجرد التخاطب بين الاخصائيين ، حتى اذا صيغ صياغة شكلية ، لايفى بصفة عامة لنشر علم لايزال الجزء الجوهرى منه ينقل أو يكتسب عن طريق الرؤية، سواء اعتمدت طريقة الاختبار على كفاءة تشخيص الاخصائيين وقوة تعبيرهم (الاختبار أ) أو على مهارة التقليد في المحاكاة (الاختبار ب) .

وبالرغم من أن هذه المناقشة الاخيرة قد تكون مفاجأة غير متوقعة أو مملعة



للقارئ فإنه يمكن اثبات صحتها بعمل تجارب متنوعة قليلة التكاليف مما يطرأ في الحال على العقل . على أن قيمتها - كنوع من التحدى والمناهضة ، من وجهة النظر المنهجية فقط (أى باستبعاد الاستدلالات الاجتماعية أو القانونية التى لها مثل أهميتها) - تتعدى أيضاً سياق التحدث عن الآثار ، فطرق العمل التى شرحناها فى هذه الدراسة ليست ذات قيمة تذكر الا اذا أمكن تأييدها باختبارات صلاحية من النوع الذى اشرنا اليه هنا بحيث تتفق وتناسب مع ميدان البحث الذى يراد دراسته ، مثل التحليل الاستعلامى ، والتحليل التخيلى ، الخ (انظر جاردان ١٩٦٧ ، ١٩٦٩) . ولاشك أن البساطة النسبية للنماذج المقترحة هى مما يمكن القارئ من أن يثبت صلاحيتها بنفسه ، اذا استلزم الامر ، باختبارات تشخيصية أو اختبارات محاكاة ، وهى اختبارات سهلة التصميم فى علم الاجتماع أو علم الأساطير ، بقدر ما هى صعبة التصميم فى علم الآثار .



ان التعرف على التغيرات السكانية في المستقبل هو من الامور الحيوية لاي دولة من الدول مقدمة على التخطيط لعملية تنمية اقتصادية ، وسواء ارادت الدولة أو لم ترد أن تتبنى سياسة سكانية ( تتمثل في اتخاذ اجراءات لتشجيع النسل والهجرة أو عدم تشجيعهما ) فإن عليها :

١ - ان تتنبأ بالتغيرات السكانية في المستقبل ( سواء حجم السكان بصفة عامة أو حجم الذين ينتمون للفئات المختلفة ، كعدد الذين سيدخلون المدارس والجامعات ، وعدد الموجودين في قوة العمل ) .

(ب) ان ضمن الاستخدام الكامل للمستويات المختلفة لقوة العمل التي يظهرها هذا التنبؤ ، سواء كان ذلك لدوافع اقتصادية (انتاج) أو لدوافع اجتماعية ( تمكين كل فرد في سن العمل من كسب عيشه ، أو اعادة عائلته ) .

والاستخدام الكامل يجب أن يكون من الناحيتين الكمية والنوعية . والناحية الكمية تتمثل في تحقيق التشغيل الكامل ، والناحية النوعية تتمثل في تحقيق أقصى كفاءة انتاجية ممكنة .

ودراسة التغيرات السكانية وتنظيمها أمر ضروري ، حتى بالنسبة للدول التي لا تهدف الى احداث تغيرات كمية في السكان ، اذ لا تضمن هذه الدول استمرار المعدل السائد للنمو السكاني ، وتجاهل الآثار الاقتصادية لاي معدل أعلى أو أقل .

## بقلم : ألفريد سوقيه

بعد أن تقلد عددا من المناصب الحكومية أسس المركز القومي للدراسات الديموجرافية عام ١٩٤٥ • وكان أستاذا بالكلية الفرنسية من ١٩٥٩ الى ١٩٦٦ • ومن مؤلفاته : النظرية العامة للسكان ، الرأي العام ، حدود الحياة البشرية ، الانفجار السكاني ، مالتوس والاقتصاد الماركسي ، التاريخ الاقتصادي لفرنسا بين الحربين العالميتين ، ثورة الشباب •

## ترجمة : الدكتور محمد خليل برعي

مدرس بكلية الاقتصاد والمعلوم السياسية بجامعة القاهرة

ولا يشترط تنظيم السكان اتخاذ اجراءات صريحة لتنظيم النسل والهجرة ، اذ أنه يمكن التأثير عليها عن طريق التشريعات الخاصة بالضرائب والإعانات الاجتماعية وفوائين الزواج ، الخ • ومن هنا تبسّد أهمية التعرف على كيفية تأثير الظروف الديموجرافية على التنمية •

وسوف نفترض هنا ، للتبسيط ، أن الهدف العام ( التنمية الاقتصادية ) إنما يتمثل في تحقيق أعلى مستوى لنصيب الفرد من الناتج القومي أو الدخل القومي • وعلى الرغم من أنه يمكن ادخال الكثير من الاعتبارات هنا فإن هذه الاعتبارات قد تؤدى الى تعقيدات لا داعي لها •

وسنقوم هنا بترتيب الموضوعات التى تدخل فى هذا البحث كما يلى :

أولا : العلاقة العامة التى تربط بين الظروف الديموجرافية والتنمية الاقتصادية فى بلد معين •

ثانيا : تبني أهداف السياسة السكانية • تطبيق السياسة العامة على البلد موضوع الدراسة ، التنبؤات السكانية فى ظل غياب معايير خاصة بالأهداف الاقتصادية : التناقضات المحتملة ، والتوفيق بينها ، تبني الأهداف الخاصة بالسياسة السكانية •

ثالثا : وسائل تحقيق هذه الأهداف • تبني سياسة سكانية وتعديل التنبؤات السكانية •

رابعا : الحصر العام للموارد البشرية كقوة انتاج ، التوزيع الجغرافي ، القدرات المهنية ، القدرة على الانتاج •

خامسا : عمل نموذج للمحاسبة القومية : معادلة عمل - انتاج •

سادسا : موازنة اقتصادية ومالية ميدانية : الموارد الكلية المتاحة للاستثمار ؛ الاستثمارات الديموجرافية ، العلاقة بين الاستثمار والانتاج والتشغيل ، الاختيار بين هذين الهدفين •

سابعاً : الزراعة أو الصناعة ، الريف والحضر : اذا لم يكونا متطابقين فان هاتين المشكلتين تكونان مرتبطتين من أكثر من ناحية ، استغلال الأراضي ، حماية الموارد الطبيعية •

ثامنا : السياسة العامة للتعليم والتدريب •

تاسعا : السياسة الصحية والاجتماعية •

عاشرًا : العودة الى الموازنة العامة ، تعديلات ونتائج •

وتحت كل موضوع من هذه الموضوعات سوف نلخص الاختيارات المختلفة التي يجب أن نأخذها في الاعتبار ، وهذا بالطبع دون تقديم أي حلول معينة حيث ان ذلك يتوقف على الظروف الموجودة لكل حالة • وسوف نحاول ، على كل حال ، أن ننسج على أنواع البيانات التي يمكن استخدامها أساسا لاتخاذ القرارات •

## العلاقة العامة

### بين الظروف الديموجرافية والتنمية الاقتصادية

مما لا شك فيه أن تعرضنا للتنمية الاقتصادية وما تهدف اليه من اتاحة أكبر قدر من الموارد للفرد في المتوسط يجعلنا نتعرض لفكرة الحجم الأمثل للسكان أو المعدل الأمثل للنمو السكاني •

### الحجم الأمثل الاستاتيكي للسكان

ويقصد بالحجم الأمثل للسكان وجود ذلك العدد الذي يعد مثاليا من الناحية الاقتصادية بالنسبة لمنطقة معينة • وهو حجم يتوسط حالتين ؛ كل منهما ذات تأثير عكسي على مستوى المعيشة ، وهما حالة قلة السكان وحالة اكتظاظ السكان •

وهذا الأسلوب الاستاتيكي ، على الرغم من شيوعه ، غير ذي قيمة من الناحية العملية ؛ وذلك للأسباب الآتية :

١ - لا يوجد فى مجتمعاتنا الآن شىء يسمى المجتمع الاستائكى ، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الديموجرافية .

٢ - أن حساب الحجم الأمثل للسكان لائ مجتمع من المجتمعات بطريقة علمية ليس من الأمور المتيسرة ، وذلك لأن هذا الحجم يتوقف على الظروف الفنية السائدة ، وبالتالي يتغير مع تطور المجتمع .

٣ - حتى اذا أمكن حساب الحجم الأمثل للسكان بطريقة تقريبية فاننا سنواجه بأحد احتمالين :

١ - أما أن يكون الحجم الأمثل المحسوب أصغر من الحجم الفعلى للسكان ، وهنا قد يبدو أن الحل يتمثل فى تنقيص عدد السكان . وهذا يؤدى ، كما سنرى ؛ الى العديد من المشاكل الفنية والسياسية غير المناسبة .

ب - واما أن يكون الحجم الأمثل المحسوب أكبر من الحجم الفعلى ، وهنا لن يكون لحسابنا أهمية تذكر ، إذ سنكون بذلك قد حددنا هدفا غير مرتبط بتوقيت معين . وفى كلتا الحالتين نواجه مشكلة تحديد اتجاه التغير المطلوب فى معدل الزيادة السكانية دون أن نكون قد حددنا مقدار هذا التغير .

وهناك حالة من الحالات يكون فيها التعرف على الحجم الأمثل للسكان ذا قيمة ، فالأمة أو الحكومة المثقلة بالالتزامات المالية تحتاج الى حجم كبير للسكان - مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها - إذ أن ذلك سيؤدى الى توزيع الأعباء على عدد أكبر من السكان . ولكن يجب أن نميز هنا بين الالتزامات الداخلية والالتزامات الخارجية ، وبين التزامات الأمة والالتزامات الحكومية . وهذا مضمنا وجود أربع حالات :

**حالة الالتزامات الخارجية للحكومة :** وهذه الحالة أكثر الحالات تطرفا ، إذ أن الزيادة فى السكان تكون موافقة بالنسبة لتوزيع عبء الالتزام المالى ، مع أنها تكون احدى دواعي الافقار للأمة .

**حالة الالتزامات الخارجية للأمة ( وتمثل فى القروض الخارجية الخاصة ) :** فى هذه الحالة لا تتأثر الميزانية المحلية للحكومة ، ولكن ذلك يتطلب الحصول على المزيد من الصلات الأجنبية ؛ والاستنتاج فى هذه الحالة أقل وضوحا من الحالة السابقة ، ولكن يبدو أنه يكون فى الاتجاه نفسه .

**حالة الالتزامات الداخلية للحكومة :** وحيث أن هذه الالتزامات هى من قبيل التحويلات الداخلية فقد يبدو أن عنصر السكان غير ذو أهمية ، الا أن الصعوبات التى تواجهها الحكومات دائما بالنسبة لتمويل الاستثمارات تجعلنا نميل الى اعتقاد أن الالتزامات ستكون أخف اذا زاد عدد السكان ( لأن عبء الضريبة على الفرد سيكون أقل ) ، وببدو ذلك واضحا أيضا فى حالة النفقات العسكرية الكبيرة .

**حالة الالتزامات الداخلية الخاصة :** يلاحظ انه فى حالة الديون المستحقة من فرد الى آخر لا يكون لعنصر السكان أى تأثير ؛ أما فى حالة المؤسسات وخاصة الشركات الكبيرة فإن الزيادة فى السكان قد تكون مرغوبا فيها .

## الكثافة السكانية

إذا كان اهتمامنا منصبا على الكثافة السكانية المتوسطة بالنسبة للدولة ككل فإن فكرة الكثافة السكانية المثل تكون متطابقة مع فكرة الحجم الأمثل للسكن . - ولكن يلاحظ بصفة عامة أن توزيع السكان جغرافيا في داخل أى بلد من البلدان لا يكون متساويا بنسبة واحدة في المناطق المختلفة ( على الأقل بالنسبة لتوزيع السكان حسب الريف والحضر ) .

ففي المناطق الزراعية نجد ان الكثافة السكانية يحددها بصفة أساسية نوع التربة والفن الانتاجي المستخدم . كما يوجد عاملان آخران يزداد تأثيرهما مع المضي في عملية التنمية ومع مرور الوقت ، وهذان العاملان هما : ( أ ) الخدمات التعليمية ، ( ب ) والخدمات الصحية والاجتماعية .

## معدل النمو السكاني

ان فكرة معدل النمو السكاني أكثر واقعية من الناحية التطبيقية : ويمكن ان نناقش هذه الفكرة هكذا : هل النمو - سواء كان مقصودا أو غير مقصود - يعد مفيدا ؟ وان كان كذلك فبأى معدل ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال يجب الإشارة الى نقطة هامة : وهي أن النقص في السكان ، أو حتى في معدل نمو السكان ، يعد دائما مفيدا من الناحية الاقتصادية في الأجل القصير . وذلك بسبب تأثيره على صغار السن ، وهي فئة من السكان تستهلك ولا تنتج ( ١ ) .

فلمدة من الزمن قد تصل الى ١٥ سنة ستكون الحاجة أقل للمدارس والمستشفيات والمساكن وغير ذلك ، وذلك بسبب قلة عدد الأطفال الذين سيكبرون . وبذلك سوف يتأثر الادخار الخاص والعام بحيث يمكن استخدامه في أغراض أخرى وبصفة خاصة لتسريع التنمية الاقتصادية .

ومثل هذا الكسب من الضروري أخذه في الحسبان ، إلا أنه من الضروري أيضا أن ننظر الى ما هو أبعد من ذلك ، حيث أن تربية الأطفال هي في الحقيقة استثمار طويل الأجل ، وحتى تنقلب على هذه الصعوبة فإننا نحتاج الى أن نأخذ نموذجا نظريا ، ونجرى حساباتنا على أساس توزيع ثابت للسكان ، بمعنى أنهم سكان يتزايدون أو يتناقصون كل عام بنسبة واحدة لجميع فئات العمر ؛ وبذلك نستبعد الآثار القصيرة الأجل ، سواء كانت موافقة أو غير موافقة .

والنموذج الآتي هو أبسط نموذج يمكن أن يخدم هذا الغرض :  
إذا كانت « ر » تشير الى الدخل القومي ، وكانت « ا » تشير الى كمية

(١) نحن نعلم امكان أن يكون التغير واجبا لانخفاض معدل الوفيات .

الاستثمارات التي تمت خلال السنة ، و « ت » معامل الدخل الى رأس المال (٢) ؛  
فان الزيادة في الدخل تصبح  $\Delta \cdot R = 1 \times \Delta$   
فان الزيادة في الدخل تصبح  $\Delta \cdot R = 1 \times \Delta$

ومن ذلك يتضح أن الزيادة في الدخل القومي انما تتوقف على حجم الاستثمار من ناحية ، وعلى معامل الدخل الى رأس المال من ناحية أخرى .

فاذا كان السكان في حالة تزايد فيجب أن يكون - بالإضافة الى الاستثمار الاقتصادي اللازم لرفع الانتاجية ، وبالتالي لرفع مستوى المعيشة - استثمارة ديموجرافيا ، وذلك للإبقاء على مستوى المعيشة . وهذا يتطلب المزيد من المساكن والمصانع والأراضي ، فاذا كانت الدولة تمتلك كمية معينة من الأموال والممتلكات ، سواء على شكل أموال انتاج أو استهلاك ، فان المزيد من الأموال يجب أن يوفر لمقابلة الزيادة في السكان حتى نتجنب الافقار المادي . فاذا كان هذا الاستثمار الديموجرافى يتم على حساب الاستثمار الاقتصادى فان ذلك سوف يخفض من معدل التنمية . واذا كان يتم بالإضافة الى الاستثمار الاقتصادى القائم فان ذلك يتطلب المزيد من الجهد القومى .

وفى حالة التوزيع الثابت للسكان فان التقديرات تدل على أن الزيادة فى الاستثمار بالنسبة للفرد الواحد فى المتوسط اللازمة لمقابلة زيادة فى السكان قدرها  $\frac{R}{100}$  ، يمكن التعبير عنها بالمعادلة الآتية :

$$\frac{J}{P} = K \cdot \frac{R}{100} \cdot \frac{e^{ar}}{e^{ar}-1}$$

حيث A و K معاملات يحددها على التوالى فترة استهلاك رأس المال (A) وحجم الاستثمار الأساسى (K) .

ويجب أن يضاف الى هذا الاستثمار المادى ذلك الانفاق اللازم لرعاية الطفل ونعليه ، وان كان من الممكن أن نتصور - فى حالة المجتمع ذات التوزيع الثابت - أن مثل هذه النفقات سيعوضها - بالتقريب - النقص فى مدفوعات الاعانة الاجتماعية .

فاذا ما نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية فقد يبدو لنا أن الزيادة فى السكان بصفة عامة معوقة للتنمية الاقتصادية .

ولكن هذا لم يثبت بالتجربة العملية . فعلى سبيل المثال نجد أن معامل الارتباط بين الزيادة فى السكان وبين الزيادة فى الناتج القومى الاجمالى للفرد ، خلال الفترة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٨ ؛ يظهر عكس ذلك .

(١) اذا كان استثمار قدره ١٠٠٠٠٠ مليون يؤدى الى زيادة فى الدخل القومى قدرها ٣٠٠٠٠ مليون فان معامل الدخل لرأس المال يكون ٣٠٪ ، وهذا المعامل هو مقلوب معامل رأس المال .

ففي حالة ثمانى عشرة دولة متقدمة أظهر معامل الارتباط قيمة سالبة صغيرة ، وهذا يتفق مع النظرية التى تناقشها ، ولكن إذا استبعدنا الدول الثلاث التى يزيد فيها معدل النمو السكاني عن ١.٢٪ سنويا فان معامل الارتباط يصبح ذا قيمة مرتفعة موجبة .

وفى حالة ثلاث وثلاثين دولة متخلفة نسبيا كان معامل الارتباط + ٠.١١ ، وهذا المعامل : زان كان غير معنوى ، يعتبر عكس نظريتنا ، التى تبين ضرورة وجود ارتباط عكسى قوى .

ومن هذه الدراسة الوجيزة للسؤال الذى سبق اثارته ، ومن دراسات أخرى أكثر تفصيلا ، يمكن أن نصل الى النتائج الآتية :

١ - ان المزايا الاقتصادية للزيادة السكانية تبدو أقل وضوحا من اعبائها . حتى فى النماذج النظرية .

٢ - هذه المزايا الاقتصادية تنبع بصفة جزئية من عوامل اقتصادية ( توزيع الأعباء على عدد أكبر من السكان ، احتمالات الانتاج الكبير ، التغير فى الهيكل الوظيفى والجغرافى ) ، كما تنبع أيضا من عوامل اجتماعية أقل قابلية للقياس ؛ وان كانت أكثر أهمية .

٣ - إذا كان السكان يتزايدون بمعدل متزايد فان المزايا الناشئة عن زيادة السكان تنمو بمعدل أقل من الزيادة فى الأعباء . وهذا يقودنا الى فكرة المعدل الأمثل للزيادة السكانية .

وهذا المعدل الأمثل للنمو السكاني يعتمد على خصائص الدولة ، وبصفة خاصة على درجة تقدمها أو نموها ، وعلى كمية الموارد الطبيعية غير المستغلة ، وعلى الظروف الاجتماعية والسياسية ، وهكذا .

ففى حالة دول أوروبا الغربية نجد أن معدل النمو الأمثل للسكان يمكن أن يكون أقل قليلا من ١٪ ، وهذا الرقم تقريبي . وحتى إذا أمكننا أن نقيس معدل النمو الأمثل بدقة كاملة فانه لن يكون العامل الوحيد المؤثر ، إذ يجب أن نأخذ فى الحسبان الآثار الثانوية المتركمة ، وبصفة خاصة بالنسبة لمضاعفاتها على التكوين العمرى للسكان .

### اختيار الأهداف للسياسة السكانية

يجب أولا القيام بعملية تنبؤ لديموجرافية البلد موضوع الدراسة . ويمكن فى هذا الصدد الاستعانة بصفة مبدئية بالحسابات التى قامت بها الأمم المتحدة . وإذا استعرضنا المبادئ الأساسية التى يجب مراعاتها عند القيام بالتنبؤ ، وذلك



دون الدخول في تفصيلاتها (١) ، فانه يمكن إيجازها فيما يلي :

١ - إن النتائج التي نحصل عليها تعتمد بصفة مبدئية على الفروض التي وضعت :

ب - يجب أن لا يكون هناك مفاضلة في اختيار الفروض ، إذ أن الهدف الرئيسي في هذه المرحلة يكون مجرد التعرف على الاتجاهات العامة السائدة .  
ج - اتجاهات المواليد هي المجهول الرئيسي ( بغض النظر عن الهجرة ؛ التي تستبعد من الحسابات بصفة عامة ) .

د - يجب أن يكون التنبؤ بمدى ، بمعنى وضع حدود عليا ودنيا للقيم المتنبأ بها ، مع مراعاة أن لا يكون هذا المدى على درجة كبيرة من الاتساع .

بعد أن نحصل على تقديرات للمتغيرات الديموجرافية في المستقبل يجب مقارنة هذه التقديرات بالأهداف الموضوعية للتنمية . فان أظهرت نتيجة هذه المقارنة أن مستويات الاستثمار الديموجرافي ستتناقص دل ذلك على أن السكان يتزايدون بمعدل أكبر مما يجب ، وبالتالي يجب وقف الزيادة السكانية أو على الأقل تخفيض معدل الاحلال الصافي الى ١ .

وعلى كل حال فإن هذا الأسلوب يتسم بالصرامة ، إذ أن أي حسابات منطقية في هذا المجال قد تقودنا الى نظرة تشاؤمية لا داعي لها ، ويبدو ذلك من كل التنبؤات التي قام بها الخبراء حتى الآن ، بما في ذلك تنبؤات خبراء هيئة الأمم سنة ١٩٥١ ، إذ اتضح أنها جميعها قد جانبها الصواب .

وإذا ما استخدمنا المعادلة التقليدية  $\frac{1}{r} = \frac{\Delta}{r} \times$  فاننا نلاحظ أنه

في ظل وجود معامل (دخل - الراسمال) قيمته ٣٠٪ ، يكون معدل استثمار قدره ١٥٪ ، وهذا من شأنه أن يؤدي الى زيادة في الدخل القومي قدرها ٥٪ سنويا . ولكن اذا كان هناك زيادة في للسكان قدرها ١٪ فيجب أن نختار قيمة أعلى للمقدار ت ( وليكن ٤٠٪ مثلا ) حتى يمكن تحقيق الميزة المذكورة . وفي حقيقة الأمر لا يوجد لدينا معادلة صحيحة تماما يمكن أن تأخذ في الحسبان كلا من الزيادة في السكان والعوامل الاجتماعية المختلفة المصاحبة لها في الوقت نفسه .

فاذا كان الأمر كذلك فما هي النتائج التي يمكن أن نخرج بها من هذه المقارنة ؟

أولا : اذا كان السكان يتزايدون بمعدل أعلى مما يجب فإن هذا يعتبر معوقا للتنمية الاقتصادية ، حتى لو أخذنا في الاعتبار الآثار الطويلة الأجل التي يمكن أن تنشأ عن الزيادة في السكان بعد فترة الخمس عشرة سنة التي سبقت الإشارة إليها وفي هذه الحالة سيكون هناك تضارب بين عوامل ثلاثة هي : معدل التنمية المستهدف ، ونسبة الاستثمار ، ومعدل النمو السكاني . والسؤال الذي يجب إثارته هنا هو : أي هذه العوامل يمكن تعديله ؟ والحلول الثلاثة التي يمكن وضعها هي :

## ١ - تخفيض الأهداف الاقتصادية المستهدفة .

ب - زيادة معدل الاستثمار ، وبالتالي الحد من الاستهلاك .

ج - تخفيض معدل النمو السكاني . واتخاذ القرار بشأن أى من هذه الحلول لا يمكن البت فيه بحرية مطلقة ، إذ أن هناك حدا لا يمكن أن تتعداه بالنسبة لتخفيض معدل الزيادة السكانية ، كما أن هناك حدا لا يمكن أن تتعداه بالنسبة لزيادة معدل الاستثمار .

ثانيا : أما إذا كان السكان يتزايدون بمعدل أقل مما يجب ففي هذه الحالة يتوقف حل المشكلة على طبيعة الأهداف الاقتصادية من حيث آجالها . فإذا كانت أهدافا قصيرة الأجل ( من أربع سنوات الى ست سنوات ) فيمكن الاعتماد على الهجرة لزيادة السكان مع تخفيض الأهداف الاقتصادية . أما إذا كانت أهدافا طويلة الأجل فيجب أن يؤخذ فى الاعتبار الأعباء التي يمكن أن تنشأ لعدة سنوات نتيجة لزيادة معدل السكان .

## السياسة السكانية

ما ان يتم اختيار أهداف السياسة السكانية حتى يتحتم تحديد الوسائل التي يمكن استخدامها لتحقيق هذه الأهداف . وسوف نركز هنا على مشكلة النمو السكاني المفرط فى السرعة ، حيث ان المشكلة الأخرى ( النمو السكاني المفرط فى البطء ) أقل شيوعا فى عالم اليوم .

### النمو السكاني المفرط فى السرعة

على الرغم مما قيل فى الآونة الأخيرة فإنه يجب علينا أن نقرر فى البداية أنه لا يوجد أى أمل ، مهما كان ، لحدوث توقف فجائى للنمو السكاني حتى فى الدول المتقدمة . إذ أن مثل هذا التوقف الفجائى فى النمو السكاني لا يعتبر صعب التحقيق فحسب ، بل سيقترتب عليه تغيرات خطيرة فى الهيكل العمرى للسكان وفى الصفات الديموجرافية المرتبطة به ( معدل المواليد ، معدل الوفيات ، عدد الموجودين فى المدارس والجامعات . قوة العمل ) ، وذلك لفترة من الزمن قد تمتد لقرنين أو ثلاثة قرون .

فمن النادر فى هذه الأيام أن نجسد دولة نامية ذات معدل مواليد قريب من ٤٥ فى الألف ، ومعدل وفيات يتناقص من ١٥ الى ١٢ فى الألف خلال سنوات قليلة، تستطيع أن تتبنى سياسة لتخفيض معدل نمو السكان الى ٢٪ أو ١٪ سنويا ، إذ أن ذلك يعنى تخفيض معدل المواليد الى ٣٢ أو ٢٢ فى الألف .

ولسوء الحظ لا يوجد أى قانون يحكم العلاقة - ولو بصورة تقريبية - بين جهد معين والنتيجة المتوقعة من هذا الجهد . فنجد مثلا أن فوروهوا وبرتوريكو

«نهران نموذجاً مختلفاً» . فمن الناحية العملية تتبنى الحكومات كثيراً من الإجراءات التي ترى أنها مناسبة وممكنة بالنسبة لمواردها البشرية والمالية ، فتقوم بتحديد معدل مستهدف للمواليد يكون نتيجة لعمل تخميني يشسوه الكثير من التفاوض ، وهذا بالطبع ليس مجالاً يمكن فيه للتفاوض أن يؤتى ثماره ، ومن الأفضل للحكومات أن تواجه الحقائق بصراحة .

وسوف نستعرض هنا بعض الملاحظات على الأساليب الفنية لتحديد النسل بالطرق التي يمكن اتباعها دون الدخول في وصف تفصيلي لمثل هذه الأساليب .

### اختيار مبدئي

هذا الاختيار خاص بتبني فكرة الاجهاض أو رفضها . فالاجهاض يعتبر بالنسبة للمجتمعات المختلفة - وحتى بالنسبة للمجتمعات المتقدمة - أكثر الوسائل فعالية . فمن السهل القول ( نعم ) مرة واحدة عن القول ( لا ) في كل يوم ، كما هو الحال بالنسبة لوسائل منع الحمل الأخرى ( باستثناء اللولب ) . وحيث ان الأسباب التي تسمح أو تمنع فكرة الاجهاض في مجتمع ما تكون عادة ذات صبغة أخلاقية

### ملاحظات خاصة بوسائل منع الحمل

يلاحظ أن الحد الأدنى لتكلفة منع الحمل اللازمة لمنع ميلاد طفل يقارن عادة بالتكلفة الكبيرة اللازمة لتربيته وتعليمه . والفرق بين التلفتين فرق شاسع ، ولكن المقارنة بينها لا قيمة لها . ففي البداية ، وحتى يمكن أن نكون حكماً نستطيع من خلاله الوصول الى نتائج عملية ، يجب أن نقيم وسيلة منع الحمل موضع التساؤل ، ونحدد فاعليتها . فإذا كانت هذه الوسيلة غير فعالة على وجه الإطلاق - وهذه حالة متطرفة - فإن قوة المقارنة تصبح عكسية ، فمن الناحية المالية نجد أن سياسة تنظيم الأسرة تخضع لقانون الغلة ، بل لقانون تلاشي الغلة . ثم ان مثل هذا الأسلوب في المقارنة ، اذا أخذ من الناحية المنطقية البحتة ، سوف يؤدي بنا الى فكرة منع الانجاب نهائياً ، حيث انه يتجاهل ما يمكن أن يسهم به الطفل في المجتمع بعد تدريبه ، وعلى ذلك فإن مثل هذه الحسابات لا تصبح سلبية الا في حدود معينة .

كما يلاحظ انه بالنسبة للطبقات الفقيرة للمجتمع ، التي يعاني فيها الزوجان من سوء المسكن ومن الجهل ، يعتبر اللولب ( الذي يوضع داخل الرحم ) أفضل من حبوب منع الحمل ، وذلك لأنه بمجرد أن يوضع لن يحتاج الى أي جهد اضافي أو أي مصاريف أخرى يتحملها الزوجان . ولكن يجب أن نقلل الى أدنى حد ممكن من المخاطر التي قد تنشأ عن الالتهابات التي قد يسببها ، أو عن عدم نجاحه ، وذلك عن طريق الاشراف الطبي . فإذا لم يتوافر العدذ الكافي من الموارد الطبية ومن الأشخاص المدربين فقد يكون من الأفضل قصر الدعاية على منطقة جغرافية محدودة ،

وعدم المخاطرة باستخدام الاعلام فى ذلك على نطاق واسع ، اذ أن أى فشل فى نتائج هذا الاسلوب قد يؤدى الى تحطيم الفكرة لسنوات عديدة .

ولئن كان من الأفضل - من الناحية المنطقية والانسانية - التركيز بصفة مبدئية على الطبقات الفقيرة فى المجتمع ، فانه يلاحظ من ناحية عدد المواليد أن مثل هذه الحملات الاعلامية تكون ذات تأثير أقل ، حيث أن الحملات الاعلامية التى توجه الى الطبقات المتوسطة يكون لها فرصة أكبر فى النجاح ، بالإضافة الى أن نتائجها سوف تمتد الى الطبقات الأدنى عن طريق المحاكاة والنصائح الشخصية ، التى تكون أكثر اقناعا من الدعاية الرسمية .

اما فى الحالات التى تتعارض فيها الاخلاقيات مع الفاعلية فإن الاختيار يصبح بصفة أساسية اختيارا سياسيا .

إن الرغبة فى العمل على نجاح سياسة تنظيم النسل كثيرا ما تدفع القائمين بها الى فرض عقوبة - مالية أو غير مالية - على العائلات التى تزيد عن حجم معين . وبذلك تصبح هذه السياسة وسيلة للحصول على إيرادات بدلا من أن تكون سببا فى تحمل نفقات . وهنا قد يظهر تعارض خطير بين فاعلية الوسيلة وبين مدى ملاءمتها للأخلاقيات . اذ انه من غير المقبول أن تعاقب الأطفال لمجرد أنهم ولدوا ، وليس الأمر كذلك فحسب ، بل إن هذه السياسة يمتد فيها العقاب ليشمل الكبار أيضا . وعلى كل حال فإن فاعلية هذا الاسلوب هى موضع تساؤل ، وبصفة خاصة بالنسبة للعائلات الفقيرة ، هذا بالإضافة الى انه قد ينشأ عنه مضاعفات سيئة على الصحة بحيث تفوق فى آثارها أى مزايا له .

كما يعاب على الحملات الاعلامية الخاصة بتنظيم النسل أنها تكون مباشرة أكثر من اللازم ، بل أنها فى بعض الأحيان تأتى بعكس نتائجها .

ومن الحقائق المشاهدة أن البلاد التى يتناقص فيها معدل المواليد (مثل فورموزا وسنغافورة) يكون معدل وفيات الأطفال فيها منخفضا ، وهذا لا يتأتى الا اذا كان أطفالهم يلقون عناية كافية ، وهذا يثبت أن تعليم الأمهات كيفية العناية بأطفالهن يعتبر وسيلة فعالة وانسانية لتشجيعهن على ايجاد فوارق زمنية بين مولد كل طفل والذى يليه ، وبذلك يقل عدد المواليد . ومثل هذا الاسلوب يعمل على اشاعة حب الأطفال بين الناس . وهو أفضل من أسلوب منع الحمل الذى يعمل على إثارة نفور الناس منهم .

### معدل النمو غير الكافى

من الواضح أن أى دولة يكون معدل صافى الترميض فيها مساويا للواحد الصحيح سوف تعاني ، بمرور الزمن ، من زيادة الحجم الكلى للسكان ، وذلك بسبب زيادة فئة كبار السن . ومن ذلك نرى أن الإبقاء على حجم ثابت للسكان يعنى أن الأجيال لا تعوض نفسها .

• وأى سياسة تهدف لزيادة السكان لا بد أن تعتمد على التأثير على الهجرة والمواليد ، حيث أن أى دولة تحاول دائما أن تخفض من معدل الوفيات بطبيعة الحال .

وسياسة تشجيع الهجرة ( الحد من المهاجرين من الدولة ، أو العمل على اجتذاب مهاجرين الى الدولة ) لا تصلح-الا فى حالات معينة • اذ يجب أن لا ننسى أن السماح بدخول مهاجرين يزيد سنهم عن ٤٥ سنة أو ٥٠ سنة يعتبر غير مناسب من الناحية الاقتصادية ( هذا الرقم يختلف حسب الظروف ويتفاوت من دولة لأخرى ) ، وذلك لأنه بعد هذه السن لا يمثل الشخص قيمة رأسمالية للمجتمع ( على اعتبار أن سن الاحالة للمعاش هي ٦٥ سنة ) •

• أما سياسة زيادة معدل المواليد فيمكن أن نأخذ أحد شكلين : ( أ ) اجراءات لعدم تشجيع منع الحمل والاباض ، ( ب ) الاعانات العائلية • وهذا الشكل الأخير يجب ، ليكون أكثر فاعلية ، أن يعتمد على سياسة تفاضلية لا سياسة عامة كما هو متبع عادة • فعلى سبيل المثال يجب أن تكون التسهيلات السكنية مشروطة ( كأن يكون بعد المولود الثانى أو الثالث ) ، اذ أن الاعانات التي تمنح للطفل الاول قد يكون لها قيمة من الناحية الاجتماعية لا من ناحية التشجيع على النسل •

### مراجعة التنبؤات السكانية

• ما أن يتم اختيار السياسة السكانية وربطها بالخطة حتى تنشأ الحاجة لتقويم آثارها تقويما دقيقاً وبدون أى مبالغة • ثم تعدل التنبؤات السكانية بناء على ذلك لايجاد قاعدة أساسية للخطة ككل •

### التحضر العام للموارد البشرية

• ان الفئتين اللتين نهتم بهما هنا هما :

١ - فئة قوة العمل ، أى فئة الذين لهم القدرة على الانتاج •

ب - فئة الموجودين فى المدارس والجامعات ، وهم الذين يحتاجون الى التدريب ، ويمكننا أن نأخذ فى الحسبان أيضا تدريب الكبار ، حيث أن الأشخاص الداخلين فى قوة العمل يمكن أن تتضمنهم الخطة التعليمية •

وفى هذه المرحلة ، حيث لا يكون قد تم الاتفاق بعد على الخطة التعليمية ، يمكننا اتباع الخطوات السابق اتباعها بالنسبة لمجموع السكان ، وهذه الخطوات هي :

١ - القيام بتنبؤ مبدئى منبثق من القيم والأوضاع السائدة فعلا •

ب - مقارنة هذه التنبؤات بالبيانات المختلفة . سواء كانت اقتصادية أو غير اقتصادية •

ج - التوفيق بين الأرقام فى حالة وجود تعارض •

وعلى ذلك تكون الخطوة الأولى هي القيام بالتنبؤات اللازمة ، وذلك باستخدام  
البيانات الطبيعية الموجودة فعلا ، ومعرفة الذين ينتمون الى كل فئة من فئات العمر  
المتنوعة ومساهماتهم في قوة العمل أو في النشاط التعليمي . مع مراعاة أن تعديل  
هذه التنبؤات بالنسبة لبعض فئات العمر للحصول على اتجاهات عامة ، ومراعاة  
التغيرات التي يمكن أن تحدث ، مثل رفع سن ترك المدرسة ، أو ادخال تغييرات على  
نظام الاحالة للعاش ؛ أو تغيير الظروف الخاصة باشتغال المرأة . ولا توجد أى  
صعوبة في تطبيق الوسائل الفنية المستخدمة في هذه الحالات ما دام هناك بيانات  
عن تعدادين متتاليين .

أما من ناحية التوزيع الجغرافي للسكان فان التنبؤ به تعتبره بعض  
الصعوبات ؛ حيث أنه لا توجد طريقة معينة لمراجعة التحركات السكانية . حقيقة  
أنه من الممكن ( ومن المفيد أيضا ) القيام بتنبؤات سكانية محلية أو اقليمية ، على أن  
تؤخذ في الحسبان التحركات الطبيعية للسكان ، ولكن اذا كان هناك هجرة داخلية  
على نطاق واسع ، كالهجرة من الريف للمدينة ، فيجب تعديل التنبؤات التي نحصل  
عليها . وهنا أيضا يمكننا الاستفادة بنتائج تعدادين متتاليين ، وان كانت عناصر عدم  
التأكد في هذه الحالة تكون أكثر من الحالة السابقة .

كذلك يلزمنا في هذه المرحلة ايجاد بيانات ، لا عن الحاضر فحسب ، بل عن  
سنوات عديدة مقبلة أيضا ، وهذه البيانات خاصة بعدد المنتمين للفئات الآتية :

١ - صغار السن ، الذين يعتبرون خارج قوة العمل وليسوا في مرحلة  
الدراسة .

ب - الموجودون في المدارس والجامعات .

ج - الأفراد خارج قوة العمل الذين يتكونون أساسا من النساء المتزوجات  
غير الموظفات ، وكذلك أفراد القوات المسلحة من غير المحترفين .

د - الشيوخ .

ومثل هذا التقسيم يعطينا فكرة كبيرة عن الاحتياجات المطلوبة ، وخاصة تلك  
اللازمة للتنمية ، ولكن لا يعطي فكرة عن الطاقات الانتاجية المتوفرة . وعلى ذلك فان  
الأمر يتطلب اضافة معلومات بالطاقة الانتاجية والمهنية بالنسبة للذين هم داخل قوة  
العمل . والبيانات المتوفرة عن مثل هذه الموضوعات تعتبر أبعد ما تكون عن أن  
تكون كافية . ومرة أخرى يلزمنا الرجوع الى نتائج التعداد ، وهي تعطينا فكرة عن  
مهنة أو عمل كل شخص ومستوى تعليمه في وقت التعداد . وعلى الرغم من أن بعض  
البلدان يوجد بها تعدادات زراعية وصناعية وتجارية فان مثل هذه التعدادات تهتم  
بالمعدات التي يسهل حصرها وتحديدتها أكثر مما تهتم بالرجال .

وبعد أن يتم حصر الموارد البشرية ، وخاصة من وجهة نظر الطاقة الانتاجية ،  
تأتي المرحلة التالية ، وهي مقارنة هذه الموارد بالامكانيات والقيود الاقتصادية .

وحتى يمكن القيام بذلك فاننا نحتاج لنموذج للمحاسبة القومية يتناول قوة العمل والانتاج والقيمة . ولتر الآن الأساس الذى يمكن أن نقيم عليه مثل هذا النموذج .

### اقامة نموذج للمحاسبة القومية يتناول قوة العمل والانتاج والقيمة

لكل دولة من الدول ، فى هذه الأيام ، نظام للمحاسبة القومية يربط بين ميزانية الدولة وبين العمليات الاقتصادية القومية ، كما يهتم بتقسيم الناتج القومى واستخداماته المختلفة ( الاستهلاك والاستثمار وصافى التصدير ) . وبصفة عامة يتناول الناتج القومى الاجمالى بسعر السوق أو بتكلفة عناصر الانتاج .

ومثل هذا الاسلوب فى المحاسبة لا يعتبر قاصرا فحسب ؛ ولكنه غالبا يكون مضللا ، وذلك لأسباب عديدة :

١ - لقد نشأ نظام المحاسبة القومية عن طريق مجموعة من الخبراء من الدول المتقدمة ، وكان اهتمامهم منصبا على اقامة نموذج يتناسب مع نماذج الاقتصاد الخاصة بهم ، ولم تنجح الاصلاحات المعاصرة فى معالجة مثل هذا القصور ، حيث أن هذه الاصلاحات تمت بالاشتراك مع منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD ، التى تهتم أساسا بالدول المتقدمة .

هذا بالإضافة الى أن فكرة الناتج القومى الاجمالى ما زالت محل نزاع ، حيث أنه فى حساب الناتج القومى نضيف الى الانتاج من السلع والخدمات التجارية قيمة افتراضية للخدمات العامة مقدرة على أساس تكلفتها . ومثل هذه الخدمات ( القضاء ، الشرطة الادارة العامة ، القوات المسلحة ، الخ ) تعتبر ، الى حد كبير ، من العوامل التى لا تسهم فى غير استمرار الانتاج التجارى . والازدواج الذى يحدث هنا إنما يرجع الى التزايد الكبير فى وظائف الخدمات المدنية بطريقة لا تتناسب مع احتياجات الانتاج . وعلى ذلك فان قدرا من الزيادة التى تحدث فى الناتج القومى لا يمثل انتاجا حقيقيا .

ويمكننا أن نذهب الى ما هو أبعد من ذلك ونسأل أنفسنا هل من الصواب ، خصوصا فى اقتصاد لا يبلغ غير حد الكفاف ، أن نجمع ما قيمته دولار من الخبز مع دولار ينفق على خدمات الحلاق ، ثم نقول أن الناتج هو دولاران ؟ مثل هذه العملية قد تعتبر عادلة بالنسبة لدولة متقدمة تعتمد على اقتصاد السوق ، ولكن بالنسبة لاقتصاد متخلف ، يعانى الناس فيه من نقص الغذاء ويتأثر الانتاج بسوء تغذية العمال ؛ فان مثل هذا الأسلوب فى المحاسبة يوقعنا فى خطأ جسيم .

ولقد أظهرت الإحصاءات الخاصة بالدول التي في دور النمو خلال العشرين سنة الماضية زيادة ملحوظة في الناتج القومي الإجمالي للفرد مصحوبة بثبات في انتاج واستهلاك الطعام . وعادة تعطى الأهمية لزيادة الناتج القومي مع إهمال ثبات نصيب الفرد من الغذاء ؛ وإن كان الأخير هو الأهم .

٢ - تستخدم المحاسبة القومية الرسمية متغيرات موحدة ، وعلى العكس من النقطة السابقة نجد أن النقطة موضوع النقاش هنا تنطبق أساسا على الدول المتقدمة ، حيث تكون تحركات رؤوس الأموال أكبر ، ولو من الناحية النسبية ، وذلك على الرغم من أنه في بعض الدول التي في دور النمو نجد أن سرعة استهلاك النقود تجعل من المألوف أن تتم عمليات تحويل للثروة دون أن تظهر في نظام المحاسبة القومية .

وهذا الموضوع يسر رجال المال والحكومات أن يتجاهلوه ، ولن نصر على إثارته هنا ، ولكننا سوف نشير إلى شيء واحد ، هو أن حساب الناتج القومي الإجمالي ، أو أي قيمة تجميعية أخرى ، بأسعار ثابتة ، من شأنه أن يوجد طريقة مفيدة لتصحيح حركات معينة تحدث عبر فترة من الزمن ، ولكنها لا تصحح الخطأ في حسابات كل فترة مالية .

٣ - تهمل المحاسبة القومية العنصر الإنساني ، ذلك لأنها تعتمد على بيانات الموازنات وعلى فكرة الدخل القومي ؛ ومن ثم فإنها لا تأخذ في الحسبان الناس كبشر ، وحيث أن الناس لا يعتبرون بنودا تجارية فإنهم لا يجدون طريقهم في المحاسبات القومية ؛ كما أن الأجور والمرتبات لا تمثل ، من حيث هي ، سوى جزء من العمل البشري .

وحيث أن الناس ليسوا في سيولة النقود فإن هذه الطريقة ينتج عنها أخطاء في التقدير ، ومثل هذه الأخطاء تتزايد مع زيادة استخدام المحاسبة القومية كمرشد في اتخاذ القرارات الاقتصادية والاجتماعية .

وإذا لم تكن هنا بصدد بناء نموذج كامل للمحاسبة القومية ، يعطى اهتماما أكبر للعنصر البشري كمعصر من عناصر الانتاج ؛ فإننا سوف نشير إلى الأفيكار الأساسية التي يجب أن يعتمد عليها مثل هذا النموذج .

### معادلة عمل انتاج

إن الحصر الشامل للموارد البشرية يمكننا من إثارة ثلاثة أسئلة خاصة بثلاث حالات لحساب الانتاج المحتمل للمنتجات والخدمات المختلفة في دولة ما ، وذلك في حدود الامكانيات الوظيفية والفكرية لها . وهذه الحالات الثلاث هي :

• حساب الانتاج : على افتراض أن القوة البشرية المتاحة سوف تستمر في العمل جزءا من الوقت ، أو سوف تضطر لترك العمل تحت ضغط الظروف . ونتيجة هذا الحساب لن تكون رقما واحدا ، ولكن سلسلة من الأرقام ؛ مناظرة ، بالتقريب ،



لانتاج العام السابق ، بعد تصحيحه للساح باظهار أثر التطورات الوظيفية لقوة العمل والاستثمار . ومثل هذه الحالة تعتبر بمثابة وضع مبدئي يراد تحسينه .

• حساب الانتاج : على افتراض أن قوة العمل الجديدة قد زودت بمعدلات الانتاج وبالتسهيلات التي تمكن من تشغيلها تشغيلاً كاملاً ، ولكن دون أى زيادة فى الكفاءة الانتاجية .

• حساب الانتاج : على افتراض أن قوة العمل الجديدة قد زودت بمعدلات الانتاج وبالتسهيلات التي تمكن من تشغيلها تشغيلاً كاملاً ، مع افتراض زيادة الكفاءة الانتاجية الى أقصى حد ممكن .

وهذه النتائج الثلاث ؛ التي يمكن أن نعتبرها فى الوقت الحاضر مجرد ثلاثة أفكار ، تناظر الحالات الثلاث للتغير فى المرونة .

ان الوضع القائم ؛ الذى يمثل نقطة البداية لنا ، يمكن تحسينه بطريقتين : إما عن طريق تحقيق التشغيل الكامل من الناحية الكمية دون زيادة الكفاءة الانتاجية ، وإما عن طريق تحقيق التشغيل الكامل بمعناه الكمي والنوعي .

وكمثال للطريقة الأولى ، العمال الزراعيون الذين تنوافر لديهم الأراضي عن طريق الرأى أو عمليات الاستصلاح ، ومن ثم يكونون قادرين على زيادة الانتاج . أو الطبيب الذى اتاحت له سيارة أو طريق مهبط ؛ وبذلك يكون قادراً على عيادة أكبر عدد من المرضى تحت الظروف النوعية نفسها .

وفى الحالة الثانية نفترض أن العامل قد زود بألات قادرة على رفع كفاءته الانتاجية ، كمحراث له القدرة على الوصول الى أعماق أبعد ، ويسهل استعماله وصيانته ، اذ أن الآلات المعقدة فى استخدامها تعتبر عديمة الفائدة لهذا الغرض .

وكذلك هذه الحالات السابقة تعتمد على افتراض وجود وضع تكون فيه الأولوية المطلقة لقدرات الرجال وميولهم كمنتجين ، وأن أى زيادة فى الطلب على المعدات لن تقابل بصورة فى عرضها . وعلى ذلك يكون كل عامل مزوداً بكل الأدوات التي تمكنه من استغلال طاقته الى أقصى حد .

وأخيراً وليس آخراً ، هناك أيضاً احتمال زيادة المهارة المهنية لعمال ، ولكن أنتغير فى المهارة المهنية يكون عادة بمعدل بطيء ، ومن ثم لا يتم الا فى الأجل الطويل . فإذا ما أدمج هذا الوضع مع التحسن الذى سبقت مناقشته فإن ذلك من شأنه أن يفتح الطريق لانتاج غير محدود ، يتزايد بمعدل يتساوى مع ذلك الموجود فى أكثر الدول تقدماً . ولكن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن مثل هذه الخطوة لا تتم فى مرحلة متأخرة .

وبغض النظر عن الافتراض الذى نتبناه فإن الحسابات المقترحة تعتبر معقدة الى حد كبير ، ذلك لأنها لا تتكون من مجرد جمع أرقام متتالية لكل قطاع ، ولكنها

تربط أيضا بين القطاعات بعضها وبعض ، فعلى سبيل المثال نجد أن زيادة الانتاج انزراعى يمكن أن يكون لها مضاعفات على انتاج مصانع الأغذية ، وبالتالي على فائضة المحاسبة ، الخ . والنتيجة النهائية للاقتصاد ككل يمكن الحصول عليها عن طريق مصفوفة شبيهة بمصفوفة المدخلات والمخرجات ، وإن كانت معبرا عنها بساعات عمل . بذلت عن طريق الفئات المختلفة للعمال ، وليست وحدات نقدية ، فإذا كان لدينا عشر فئات من العمال فيجب علينا عمل عشرة جداول (١) تبين ساعات العمل التى بذلت فى نشاط من الأنشطة الانتاجية . كما يمكن أيضا عمل جدول للاقتصاد القومى ككل ، كما هو مبين بالصفحة المقابلة .

والعناوين فى هذا الجدول مكتوبة لاعطاء صورة للشكل المطلوب عمله فقط .  
 فى العمود الأول نضع قائمة بجميع القطاعات ذات النشاط المتجانس . وفى الصف الأول نحدد اما مواصفات واما مستويات التدريب للفئات المختلفة للعمال . ومن المفهوم أن الحركة سوف تكون فى داخل الفئة الواحدة أسهل منها بين الفئات المختلفة .

والسطر الأخير يعطى لنا الإجابة عما نبحث عنه ، وعلى وجه التحديد « قوم العمل المطلوبة » وهو اعتبار على جانب كبير من الأهمية . ويلاحظ أن العمل غير الماهر يكون متوافرا فى البلاد النامية . فى حين يكون النقص أساسا فى العمل المؤهل . وبالتالي فإن الحسابات المعتمدة على الربح للمشروع قد تقودنا الى نتائج خاطئة والى اتخاذ قرارات غير حكيمة ، ذلك لأنه فى المجال الاقتصادى والاجتماعى يجب أن تكون الأولوية لتلك المشروعات أو القرارات التى تمتص الجبرء الأكبر من فائض قوة العمل ، هذا مع افتراض تساوى الربحية ( أو حتى مع وجود اختلافه بسيط فيها ) .

### قائمة مبدئية للموازنة المالية والاقتصادية

يعتبر التشغيل الكامل هو الهدف المبدئى الذى نبغى الوصول اليه ؛ بمعنى استغلال كل الموارد البشرية المتاحة استغلالا كاملا . ولكن هذا الهدف يخفى بى طياته هدفين آخرين : أحدهما اقتصادى وهو زيادة انتاج الثروة ؛ والآخر اجتماعى وهو تمكين الأفراد من الحصول على عمل لاكتساب أوقاتهم . وهذان الهدفان لا يعتبران متطابقين ، حيث أننا نجد أن مجرد وضع رجل فى وظيفة قد يكون له اعتبار أكبر من زيادة الانتاج الناشئة عن ذلك . ولناخذ مثلا متطرفا عن ذلك ، وهو حالة القيام بتمبئة عامة لجميع سكان قرية من القرى لتشغيلهم فى مشروع عام أو محلى خلال فترة الكساد الموسمى ، حيث لا يكون لذلك أثر على زيادة الانتاج ،

See J. Magaud, « Equivalent travail d'une production. Nouvelle méthode de calcul et de prévision ». Population, Mars-Avril 1970, and A. Sauvy, « Un essai d'économie intégrale : La couverture de ses besoins par une population », Population, No. 6, 1968.

عدد الساعات من فئات العمل المختلفة اللازمة لكل فرع من فروع الإنتاج

الجملة	فنيون مهرة	فنيون متوسطي المهارة	عمال آخرون	عمال المكاتب	عمال موظفون	عمال متخصمون	عمال غير مهرة	فروع الإنتاج
								الزراعة الصناعات الغذائية الإنشاء والأشغال العامة الكهرباء البترول الصناعات المعدنية الصناعات الكيماوية الخدمات المدنية الخ
								المجموع

فالمعمل يعتبر هدفا من حيث هو . وبصفة عامة يمكن القول ان العمل الذى لا ينتج عنه أسعار حرارية مساوية لتلك اللازمة للقيام به هو الذى يجب أن يستبعد .

. والاختيار بين الهدف الاقتصادى والهدف الاجتماعى يعتبر اختيارا سياسيا أكثر منه علميا . ولكن من الممكن ، بل من الواجب ، أن يتم ذلك الاختيار على ضوء جميع انحقاق المعنى .

### الموارد البشرية وأهداف الإنتاج

إذا ما طبق نموذج المحاسبة القومية الخاص « بالعمل / الإنتاج / القيمة » ، الذى سبق ذكره ، فإننا نصل الى مواجهة بين الموارد البشرية وبين أهداف الإنتاج ، وحتى إذا استطعنا الحصول على حسابات تقريبية فإن ذلك سوف يلقي بعض الضوء على موضوع استخدام الموارد البشرية ، لأننا سوف نجد أنفسنا مواجهين بنمطين مختلفين لانتاج الثروة . أحدهما يتحدد عن طريق الخطأ ، فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية ، وبالعكس الاحتياجات الخاصة والعامة كما تملئها آمال السكان وتطلعاتهم ، وهى الاستهلاك وبعض الاحتياجات القومية التى تكون حيوية أحيانا . والنمط الآخر يتحدد بالطاقة الانتاجية الموجودة للرجال والاستغلال المناسب لها .

ويمكن التعبير أيضا عن هذا الموضوع من ناحية بشرية ، فيمكن أن نضع فى ناحية قوة العمل والهيكلى الوظيفى وتوزيع المهارات اللازمة لتحقيق مستويات الإنتاج المستهدفة للقطاعات المختلفة . وهذا هو « المجتمع المطلوب » الذى سبقت الإشارة إليه . وفى ناحية أخرى نضع المجتمع السكانى كما هو قائم فعلا . والاختلاف بين هذين المجتمعين يناظر فى طبيعته الاختلاف بين نمطى الإنتاج .

والاختلاف بين نمطى الإنتاج أو بين المجتمعين قد يكون اختلافا بينا ، وقد ينير اضطرابا وتعارضا أساسيا بين الهدفين ، وهذا من شأنه أن يجعل النجاح أبعد مثالا .

### أسباب الاضطراب

هناك ثلاثة أسباب رئيسية للاضطراب بين الهدفين ، وهذه الأسباب هى :

أ - تدريب الأفراد وكفاءتهم وقدراتهم . فالشخص ذو القدرات الانتاجية المنخفضة لن يكون من السهل عليه أن يجد عملا ، حتى فى ظل نظام مخطط . هذا بالإضافة الى انه فى بعض الأحيان قد يرفض العامل عملا اعتقادا منه أنه غير لائق به . كما أن النقص فى العمال المهرة نسبيا ( وخصوصا الفنيين ) قد يكون سببا من أسباب البطالة بالنسبة للعمال غير المهرة .

ب - نقص المعدات . فنقص المعدات بمعناها العام يتعبّر ظاهرة عامة فى الدول التى ... فى دور النمو .

ج - سوء التوزيع الجغرافي للقوى البشرية ، سواء كان ذلك بصصفة دائمة أو مؤقتة .

وتختلف جوانب المشكلة حسب درجة التقدم . ففي الدول التي في دور النمر تكون المشكلة أساسا هي مشكلة عدم كفاية التدريب ونقص عناصر الانتاج « الأرض ، والآلات الزراعية ، المصانع ، الخ » ، في حين تعاني الدول الصناعية من مشكلة عدم التوازن بين قطاعاتها المختلفة نتيجة للتقدم في بعض القطاعات بمعدل أكبر من التقدم في القطاعات الأخرى .

### الاستخدام الكامل للمواد البشرية

ان السؤال الأول الذي يجب الاجابة عليه هو : هل نقوم بتعديل أوجه النشاط المختلفة ، وبالتالي أنماط الاستهلاك لتناسب السكان كما هم ، أم نقوم بتعديل السكان ، سواء جغرافيا أو وظيفيا ، لتناسب الاحتياجات المطلوبة . والاجابة على هذا السؤال تتوقف كثيرا على الأجل الذي نأخذه في الاعتبار . فالأمر يختلف على الأجل القصير عنه في الأجل الطويل .

ففي الأجل القصير ، حيث لا يمكن تغيير السكان بصورة فورية ، أو حتى بمعدل سريع ، لا مفر من تعديل الأنشطة لتناسب السكان ، أو بمعنى آخر استغلال السكان كما هم للحصول على أقصى درجات الاستفادة منهم .

أما في الأجل الطويل فليس من المستحسن تعديل الأنشطة لتناسب السكان؛ بل يجب تدريب السكان وتعديلهم للحصول على أقصى اشباع ممكن لحاجاتهم . فالعمل ليس هدف الاقتصاد من حيث هو ، ولكن الاستهلاك هو الهدف من النشاط الاقتصادي . وعلى كل حال فإن ضمان العمال للضروريات الأساسية للحياة ، ثم تفضيلهم لممارسة نشاط انتاجي دون الآخر ، من شأنه أن يؤثر على خطط الانتاج ، وذلك عن طريق الأجور ، حيث ان الوظائف الهامة ذات المستوى الاجتماعي المنخفض لا بد أن تدفع أجورا أعلى من ذات المستوى الاجتماعي المرتفع .

ومن ذلك نلاحظ أنه في الأجل الطويل تكون المشكلة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتعليم العام وسياسة التدريب ، وهي التي ستكون موضع نقاش فيما بعد .

### وسائل التوفيق في الأجل القصير

تعتبر التجارة الدولية أو الحلول التي يمكن أن ن فكر فيها . فإذا كانت مقومات التوسع في التجارة الدولية متوفرة فإن ذلك يعتبر أفضل الحلول : لاغى الأجل القصير فحسب ؛ بل أيضا في الأجل الطويل . فإذا كانت السلع التي تنتجها دولتان سلعا متكاملة فمن المفيد تبادلها دوليا . ولكننا نلاحظ أن مثل هذا الحل يكون صعبا للتطبيق اذا كانت المشاكل التي تعاني منها الدولتان لها طبيعة واحدة ، وهو أمر متوقع بالنسبة للدول التي في درجة واحدة من التقدم .

وتعتبر الهجرة الدولية من الحلول الأخرى التي تطبق عادة ، وخصوصا في دول أوروبا الغربية المتقدمة ، حيث تستعين بالعمل الأجنبي لشغل الوظائف ذات المستوى المنخفض . وفي مقابل ذلك نجد أن مثل هذه الهجرة تمكن الدول الأقل تقدما ، مثل البرتغال وتركيا والجزائر ، من التخلص من البطالة أو الحد منها ، كما تمكنها من الحصول على العملات الأجنبية اللازمة لشراء ما تحتاج اليه من سلع ؛ وبالتالي تساهم في عملية التنمية . ويلاحظ أن الهجرة الدولية ؛ حتى إذا اتخذت صيغة الدوام ؛ لا تعتبر حلا حقيقيا ، ولكن تعتبر مجرد عنصر مسكن للمشاكل . كما يلاحظ أن هناك أنواعا من الهجرة لا تكون مرغوبا فيها ، وهى تلك الهجرة التى تأخذ شكل استنزاف للعقول أو بعض أنواع العمل النادر . وبغض النظر عن المحاولات التى تبذل لتبرير مثل هذه الهجرة ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى ، فإن الحقيقة تظل كما هى ، وهى أن هذه الهجرة تكون فى صالح الدول المضيفة - وهى الأغنى - وفى غير صالح الدول الأم . وهناك الكثير مما يمكن قوله عن مثل هذه المشاكل ذات الأجل الطويل، التى قلما تعالج بما تستحقه من جدية واهتمام .

وهناك حل آخر عكس الحل الأول ، وهو الحصول على المساعدات الفنية . التى أظهرت فائدة كبيرة ، ويمكن أن تساهم بالمزيد . فبالنسبة لاستغلال الموارد البشرية يمكن أن تساهم المساعدات الفنية بطريقتين ؛ ففي الأجل القصير يمكن أن تأخذ شكل زيادة فى عرض فنيين متخصصين تكون وظيفتهم بمثابة قطع الخيار اللازمة للآلة . فإذا أمكن تحديد نسبة الفنيين إلى العمال غير المهرة فيكون من الممكن ، مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها ، أن نحدد عدد الوظائف التى يمكن خلقها بوصول فنى واحد . أما فى الأجل الطويل فيستطيع هؤلاء الفنيون تدريب آخرين ، وبذلك يخلقون المزيد من الوظائف . وفى بعض الأحيان يكون من الممكن ادماج هاتين الوظيفتين معا .

أما فى الدول الصناعية فتكون ساعات العمل بمثابة المنظم ، ولكنه منظم يقوم بعملية تسكين فقط ، ومن ثم لا يعالج أسباب الاضطراب ، بل على العكس يبقى عليها ؛ حيث انه يجعل من الممكن تحملها .

وهناك حلول أخرى تطبق بصفة أساسية فى الدول الأقل تقدما ، وهذه الحلول تأخذ شكل خلق للوظائف كلما وجد طلب عليها ، وخصوصا فى المناطق الريفية . وعلى الرغم من أن هذه الحلول تكون أساسا ذات طابع اجتماعى فإنه يمكن أن يكون هناك تبرير اقتصادى لها ، كما هو الحال بالنسبة للأعمال التى تنظمها عادة السلطات العامة أو المحلية لهذا الغرض .

فكرة تنظيم الأعمال العامة فى المناطق الريفية الريفية خلال فصول الكساد لأعمال إنتاجية ، كالزراعة أو منع نحر الشواطئ أو ما شابه ذلك من أعمال ، قد أثارت الكثير من المناقشات والجدل . فإذا ما وضعنا جانبا أسلوب السخرة ، سواء المادية أو المعنوية ؛ التى تناسب بعض النظم ؛ فاننا نجد أن هذه الفكرة يمكن أن تكون

مفيدة ، ولكن فى ظل شروط معينة ، وهى : أولا : لا يكفى أن يكون العمل منتجاً  
فحسب ، ولكن يجب أن يقوم على أساس تقويم دقيق للزيادة السنوية فى الانتاج  
التي يمكن أن تنشأ عنه ، ثانيا : حيث أن هذه الزيادة فى الانتاج ستفيد فى النهاية  
مجتمع القرية فيجب أن تكون الأجور معقولة . وعلى كل حال فيجب أن تكون الأجور  
أعلى من تكلفة السرعات الحرارية الغذائية المستهلكة خلال العمل . ومن الجدير  
بالذكر هنا أن الاعتراض الذى يثار على المساعدات التي تأخذ شكل أغذية من الدول  
المتقدمة لا ينطبق على مثل هذه الحالة ، حيث أن هذه المساعدات ؛ حتى ولو كانت  
على شكل غذاء ؛ تعتبر استثماراً أكثر مما تعتبر استهلاكاً .

ويمكن تحويل الانفاق الخاص الى أشكال معينة من الاستهلاك، وذلك عن طريق  
الضرائب وبعض الحوافز الأخرى .

كما يمكن تخصيص الانفاق العام جزئياً لتحقيق التشغيل الكامل . وعلى  
ذلك يكون تحويل جزء من الإيرادات الخاصة الى الحكومة من العوامل التي تسهل  
التأثير على الأنشطة .

كما تساعد اقامة مصانع جديدة فى عملية التعديل ، ومثل هذا العمل يعتبر  
من اختصاص السلطات العامة .

مما سبق نلاحظ أن النمو السكاني يعتبر ، الى حد ما ، من العناصر الباعثة  
على التعديل ؛ وذلك بسبب قدرة الشباب على التنقل ، سواء جغرافياً أو طبيعياً ؛  
ولأن تعديل نظام قائم بطريق الاضافة اليه أسهل دائماً من تعديله بطريق استقطاع  
أجزاء منه .

### دور الاستثمار والمعدات

على الرغم من أن دور الاستثمار فى خلق الثروة لا يعتبر محل نزاع ( والمسألة  
بصفة عامة مسألة تعريف ) فاننا نجد ان تأثيره على التشغيل ما زال موضع جدل  
ونقاش . فالرأى الشائع ؛ حتى بالنسبة لمن يعرفون القليل عن الاقتصاد ، ان الآلة  
تعتبر منافساً للعامل ، وأن الماكينة تخفض من فرص التشغيل ، وهو رأى يؤيده كل  
من ينتمون الى المدارس الاشتراكية .

فالنظام الاقتصادي يمكن أن يمارس تقدماً تنازلياً يخفض من قوة العمل ،  
فى الوقت الذى يمارس فيه تقدماً تصاعدياً يخلق فرص جديدة للعمل بصورة  
مباشرة . وعلاوة على ذلك تؤدي التنمية عموماً الى احداث تغيرات فى مستوى  
الاستهلاك ، وهذه من شأنها أن تؤدي الى خلق المزيد من الوظائف . ففي المراحل  
الأولى للتنمية نجد أن مثل هذا الأسلوب ( أسلوب احداث زيادة فى الاستهلاك )  
يعتبر نادراً ؛ وينشأ عنه عادة عجز فى ميزان المدفوعات . وعلى ذلك فانه من الضروري  
أن يعامل أسلوب احلال الآلات محل الرجال بحرص شديد ؛ وبصفة خاصة اذا  
كانت الآلات تستورد من الخارج ، واذا كان البلد يعانى من البطالة . ولا يعنى

ذلك بطبيعة الحال أن تمتنع مثل هذه الدول عن استخدام المركبات والجرارات وما شابه ذلك وتكتفى باستخدام الوسائل البدائية في الإنتاج ، ولكن يعني أنه إذا كانت الموارد المالية غير كافية فيجب أن تستخدم هذه الموارد بحرص شديد ، مع بذل كل الجهد للسماح بالتأثيرات الجانبية .

## الزراعة او الصناعة

ان الاختيار بين الزراعة والصناعة هو من الأمور التي تواجه جميع الدول التي في دور التنمية . ولقد كانت معظم القرارات التي اتخذتها معظم الدول خلال العشرين سنة الأخيرة تتم بناء على اعتبارات خاصة بالكرامة والسعة أكثر من اعتمادها على الاعتبارات الاقتصادية . وقد بدأ الكثير من الحكومات في تغيير هذه السياسة - كما هو الحال بالنسبة للصين - بل أخذت بعض الدول تراجع بعض الخطوات التي سبق أن اتخذتها . ويجب أن نتذكر أن التوسع الكبير الذي شهدته بريطانيا في القرن الثامن عشر كان مرجعه الى التقدم الزراعي الذي سبقه ، فحينما يتوفر الغذاء تتوافر القدرة لاطعام المزيد من العمال الصناعيين والبحارة . فالنقص في المواد الغذائية يعوق عملية التصنيع بصورة خطيرة . وعلى ذلك فإن ضمان حصول الدولة على المواد الغذائية اللازمة يجعلها في وضع تقدم فيه على عملية التصنيع بدون تردد . وإذا ما أمكن تحويل جزء من اتفاق الطبقات المتيسرة على الغذاء الى أوجه أخرى من الاتفاق فإن ذلك سيكون في صالح المجتمع كله .

ونعتبر مشكلة التعارض بين القرية والمدينة ذات صلة وثيقة بمشكلة التعارض بين الزراعة والصناعة ، وإن كانت المشكلتان غير متطابقتين . فليس هناك من شك في ضرورة الحد من الهجرة من الريف الى المدينة ، ولكن مثل هذه السياسة يجب أن تحدد بناء على مدى توفر العمل . فالرجل العاطل في المدينة يعتبر في وضع أسوأ من الرجل العاطل في قريته .

وفي كثير من الدول النامية نجد أن رفع الكفاءة الانتاجية للعمل أو للأرض لا يحتاج الا الى جهد بسيط ، قد لا يتعدى استخدام بعض الأدوات البسيطة التي يسهل استخدامها وصيانتها ، وقد لا يحتاج الى آلات معقدة . وفي مثل هذه الظروف يجب أن توجه المساعدات الفنية لمقابلة الحاجة الى المهنيين وإلى الفنيين المتوسطين . المهارة ، كما يجب أن لا ننسى دور الارشاد الزراعي في هذا المجال .

ونلاحظ أن حماية الموارد الطبيعية والمحافظة عليها من الأمور التي تستحق الاهتمام الأكبر والأولوية المطلقة ، وإن كانت المحافظة على هذه الموارد ؛ شأنها شأن استنزافها ، لا تحظى باهتمام كبير ، ذلك لأنها لا تعكس أثرها على الحسابات القومية .



## التعليم والتدريب

ستطيع أن نقول كلمات قليلة عن هذا الموضوع الهام المعقد ، الذى يتضمن ، شأن كل هذه الدراسة ، استخدام الموارد البشرية ، وبصفة خاصة فى الدول التى فى دور النمو ؛ فحيث أن الرجال ليسوا سلعا ؛ وحيث أنه من الصعب تقويمهم تقويما اقتصاديا ؛ فلن يكون من السهل قياس مدى الارتباط بين التنمية الاقتصادية والتنمية الثقافية . وما دام هدفنا المحدد هنا هو استخدام الموارد البشرية فان النقطة الأولى التى يجب أن تعطى لها الأولوية المطلقة هى التعليم والتدريب ، على الرغم مما تثيره هذه النقطة من مشاكل .

فالدول التى فى دور النمو دول فقيرة ومتخلفة ، ونسبة الأطفال لديها مرتفعة عنها فى غيرها من الدول الصناعية ، ونقص الموارد فيها يجعلها تواجه مشكلات فاسية .

هذا بالإضافة الى أن اعتبارات السمعة والكرامة قد دفعت معظم هذه الدول لتنفيذ البرامج العالمية لمحو الامية ، وهى البرامج التى حكم عليها بالفشل منذ البداية ، وذلك فى وقت كان من الأفضل لها فيه أن تركز على أشياء أخرى أكثر أهمية .

وهذا من شأنه أن يقودنا الى مناقشة مسألة أعم ، وهى المزارع الأبدى بين النفاة والمنفعة . وهى مسألة يقف منها الناس موقفا عاطفيا ، على الرغم من أن المفاضلة بينهما لا تعنى تفضيل واحدة على الأخرى بصفة مطلقة ، بل تعنى الاهتمام بأحدهما أكثر من الاهتمام بالأخرى .

ففى معظم بلاد العالم ( حتى فى الدول المتقدمة ) نجد أن التكنولوجيا تلقى اهتماما أقل مما تستحقه ، وخاصة اذا ما ترك الأمر للشباب لكى يختاروا لأنفسهم ؛ فالشباب يميل الى اختيار الأسهل والأرفع ، ومن ذلك نرى أن المصلحة الفردية فى الأجل القصير ، لا تتوافق مع مصلحة المجتمع ككل . فلذا ما قسمنا الاقتصاد القومى الى قطاعين ، أحدهما إنتاجى أو تجارى ، والآخر غير تجارى . فإننا نلاحظ أنه من النادر أن يمزج هذان القطاعان بالنسب الصحيحة لتحقيق التنمية السريعة . وتكون نتيجة ذلك أن الثقافة فى النهاية هى التى تعاني من احتياجها للموارد .

ومن ذلك نرى ضرورة أن تقوم السياسة التعليمية على أساس مواجهة الضغوط العردية ، التى يمكن أن تؤدى الى افلاس قومى . وبصفة عامة يمكننا أن نقول ان الحكومات لن تتحمل الكثير من المخاطر اذا ما بذلت قصارى جهدها لتشجيع التعليم الفنى ، وذلك بسبب وجود تيارات قوية تعمل فى الاتجاه المضاد . وعلاوة على ذلك يجب أن لا يؤدى التعليم عن طريق مناهجه الى تحجيز الشباب معنويا بتحويلهم عن الأعمال المنتجة ، دون تسليحهم بما يمكنهم من تنظيم حياتهم فى نواح بديلة .

وقد جرت العادة أن يوجه التعليم الى الشباب ؛ وهو أمر يمكن تبريره من

الناحية الانتاجية ، فتوقع الحياة بالنسبة لهم أكبر ، ولكن فى الوقت نفسه نجد أن الحاجة لتدريب الكبار أو لاعادة تدريبهم أصبحت من الامور التى تتزايد أهميتها عاما بعد عام ، حتى فى أكثر الدول تقدما . أما فى بقية الدول فنجد أن نقص الموارد يجعل من غير الممكن إعطاء الكبار الأهمية التى يستحقونها . أما فى الدول التى لا يوجد بها التدريب ، أو لا يوجد بالقدر الكافى ، فيجب أن نختار العن الانتاجى الذى يتناسب مع امكانيات الناس ، لا العكس . كما يجب أن نلفت النظر أيضا الى الدور المفيد الذى يمكن لوسائل الايضاح أن تؤديه فى نشر المعرفة فى حالة عدم توافر وسائل التعليم الرسمية ، ومثل هذا الأسلوب يمكن أن يساهم مساهمة فعالة فى التنمية ؛ ما دام يستخدم الاستخدام السليم ، فالقضاء على الخرافات مثلا قد يكون أكثر فائدة من كثير من أنواع الاستثمارات الأخرى المكلفة .

### السياسة الاجتماعية والصحية

يجب أن يكون للسياسة الصحية صفة الشمول ؛ وأن تحتل مكانة بارزة . وعلى الرغم من عدم وجود اختلاف على أهمية هذه السياسة فإن نصيبها من ميزانية الدولة هو الذى يكون موضع اختيار ، كما نحتاج الى اتخاذ القرارات المناسبة لتوزيع الاعتمادات الخاصة بالصحة فيما بين بنودها المختلفة . ومثل هذه الموضوعات قد تثير الكثير من المضايقات ، ولذلك قد يكون من الأفضل عدم ابداء أى توصيات بشأنها هنا .

وتعرض السياسة الاجتماعية لمصاعب مشابهة ، فيمكننا أن نذكر على سبيل المثال ما سبق ذكره من فرض عقوبات ، سواء مباشرة أو بطريق غير مباشر ، على العائلات ذات الحجم الكبير ، وذلك فى المجتمعات التى يتزايد فيها السكان بسرعة كبيرة . وعلى كل حال فإن اتخاذ القرارات بشأن السياسة الاجتماعية يعتبر من الموضوعات التى تحددها الظروف السياسية .

### عودة الى قائمة الموازنة العامة

#### تعديلات ونتائج

بعد مناقشة المشكلة من كل هذه الزوايا ، والوصول الى عدد من المقاييس ، يجب أن نعود مرة أخرى الى القائمة العامة للموازنة المالية والاقتصادية ؛ التى سبق مناقشتها . وعلى ذلك فإن الملخص المؤقت الذى وضع فى تلك المرحلة يحتاج الى تعديل ؛ وذلك نتيجة للمقاييس الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تم التوصل إليها ، والأسلوب السليم فى مثل هذه الظروف هو إعادة فحص المشكلة كلها

باستخدام نموذجنا ، والاستمرار فيها عن طريق سلسلة من التقريبات • حقيقة أنه من الصعب إيجاد العلاقات الرقمية بين بعض البيانات ، ولكن يجب أن لا نسمح لهذه الصعوبة أن تمنعنا من الحركة • فالقرار النهائي يمكننا أن نصل إليه رويدا رويدا مع ظهور النتائج المختلفة • وممارسة مثل هذا النوع من التقريب من الطبيعي أن تتطلب أسلوبا مرنا ، كما تتطلب مساهمة عدد كبير من الأفراد حتى يمكن تحاشي الاضطرابات وعدم الاتساق •

ومن الطبيعي أن القرار النهائي سوف يتوقف على السلطات السياسية ، ولكن من المهم أن تكون هذه السلطات على علم تام بما يأتي :

ب - تكون الوسائل التي تستخدمها مناسبة للأهداف التي تصبو إليها •

وبما أن الموارد البشرية يكون من الصعب قياسها فإنها تهمل غالبا ، وهذا يجعل الخطط المرسومة لا تعطي أفضل الحلول ، حتى من الناحية الاقتصادية البحتة • ولهذا السبب يجب أن يبذل كل مجهود للتعرف على ما وراء الاعتبارات المالية ، إذ أن هذا سيكون ذا فائدة عظيمة للتقدم البشري •

# أخلاقيات علماء اجتماعي نقدى

- ١ -

لقد غدت مشكلة المسئولية الاجتماعية للعلماء وخبراء التكنولوجيا إحدى القضايا العصية في الثقافة الحديثة منذ بداية الثلاث الأخير من القرن العشرين . وينجم هذا عن كون العلم والتكنولوجيا قد أصبحا يحتملان الجدل والمناقشة . فالى قرن خلا كان أرسخ المفكرين قدما يناقشون كل المؤسسات القائمة ولكنهم يمتنعون عن تحدى العلم . خذ مثلا على ذلك العدميين الروس ، مثل بيزارف Pisaref وأنصاره ، فقد هاجموا جميع القيم التقليدية ، من الفلسفة المثالية والدين المسيحي والأخلاق الى الدولة والأسرة . وقد كانوا على يقين من أن الاستبداد والجهل كانا منبع جميع الشرور ، وأنه لابد من القضاء على الأول بالثورة ، والتغلب على الثانى من خلال العلم . وكان أبطال قصة تورجنف « الآباء والأبناء » يعتقدون أن العلم فى مجتمع المستقبل قمين بحل كافة المشكلات وعلاج كل الأمراض . ولقد ولت الآن نزعة التفاؤل تلك . فبعض شباب اليوم الذين لا يحتاجون الى أن يكونوا حتى ثوريين بدرجة مخففة ، اذا تجاوزنا عن ذكر كونهم عديمين ، يميلون الى الظن بأن العلم هو فى نهاية المطاف مشكلة ومرض يقتضى العلاج . فروح عصر الاستنارة ما برح جياشا بالحياة ،

## بقم : ميهايلو ماركوفيك

مدير معهد الفلسفة بجامعة بيلاد • عضو مجلس ادارة اتحاد  
الدراسات الانسانية والاشلاقية ، ومستشار باكاديمية السلام  
الدولية • كما أنه عضو في هيئات تحرير العديد من الدوريات •  
ومن مؤلفاته باللغة العربية الكرواتيّة : المنطق : (١٩٥٤) ،  
نظرية المعنى الجدلية (١٩٦١) ، وغير ذلك من المؤلفات • وله  
كذلك مؤلفات باللغات الأخرى : الألمانية والانجليزية  
والبانية •

## ترجمة : الدكتور محمد فني الشنيطي

استاذ ورئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب بالبنيا

وثمة تيار من أقوى التيارات الاجتماعية في جميع المجتمعات ، وهو مؤسس إيدولوجيا  
على الايمان بالعلم ومنتجاته : من قوة تفوق الطبيعة ، ومن ثروة مادية ، وتنظيم فعال  
للحياة الاجتماعية • ومن جهة أخرى ثمة شكوك متزايدة حول عدد متزايد من التورطات  
التي ينطوى عليها النمو العلمي ، من قبيل التدهور غير المتوقع في العلاقات الشخصية  
في المجتمعات المتقدمة علميا وتكنولوجيا ، واجراء البحوث بفرض التدمير ، وهو  
ما قد يسوق في النهاية الى انتحار جماعي للجنس البشري ، والفرص المتزايدة للتحكم  
في الأفراد والتلاعب بهم ، والاستخدام الضخم للعلماء ومناهجهم وأجهزتهم لأغراض  
القمع ، والهاجس المرضي في الاستهلاك الذي قد يفضي الى تبديد معظم الموارد  
الضرورية ، وإلى تلوث يتعذر القضاء عليه للبيئة الطبيعية •

هذا موقف جديد يتطلب استجابة سريعة من العلماء • ففي وسعهم اما أن  
يتقبلوا الانحراف كحالة طبيعية للأمور ويواصلوا وضع خط فاصل بين مسؤوليات  
الإبداع وبين استخدام المعرفة ، أو أن يشعروا على الانحراف ضد موقف منتج  
المعلومات الذين لا يعبأون بالأهداف الأساسية للبحث والمضمون الأوسع للمعرفة  
الذي تكتسب منتجاتهم الفكرية معناها النهائي في كنفه ، كما لا يتاح لهم أن يشاركوا  
في عملية اتخاذ القرار بصدد استخدام هذه المنتجات •

فلو تقبل العلماء الاختيار الأخير لتحتم عليهم أن يغيروا افتراضاتهم الأساسية  
بصدد طبيعة مهمتهم ، وأن يستمضوا عن الأفكار السائدة من قبيل عن العلم  
« الوضعي » بتصور لعلم « نقدي » وأصوله المنهجية ، وينبغي أن يفسح انفساهم  
التقليدي وانعزالهم الطريق لاهتمام أشد جدية بكل أنواع أساليب استخدام المكتشفات  
العلمية في أغراض منافية للإنسانية .

ولو تقبل العلماء الاختيار الأول ففي مستطاعهم ؛ مع ذلك ؛ أن يواصلوا الإصرار  
على القسم المهني الضيق من العمل ، وأن يفلتوا من مسئولياتهم بأن يزعموا أن  
الموضوعية العلمية لا شأن لها بارتكاب الجرائم . ويمكنهم أن يقفوا وقفة دفاع مستندة  
إلى الموقف القائل بأن البحث العلمي إما أن يتحتم تحرره من القيود ويكون له حياده  
الأخلاقي ، أو تفتقر المكتشفات إلى الموضوعية ويكون لها طابع أيديولوجي غلب .

وليس لهذا الموقف تاريخ طويل . فإلى نهاية القرن التاسع عشر كان التقويم  
النقدي للواقع يعد وظيفة مشروعة للبحث العلمي . وثمة فكرتان فلسفتان تشكلا  
المعيار النهائي للتقويم : الأولى فكرة « النظام الطبيعي » و « الحقوق الطبيعية »  
للناس . وقد نشأت هذه الفكرة من الفلسفة الرواقية القديمة ، ونمت بوجه خاص  
في القرنين السابع عشر والثامن عشر ( عند بودوين ، وألثوسايوس ، وجروسايوس ،  
وهوبز ، ولينييز ، وكاظم ؛ وآخرين ) . والفكرة الأخرى هي الفكرة الأحداث عن  
« التقدم » ، وقد انبثقت مع عصر الاستنارة ، وسادت القرن التاسع عشر . وقد  
جعلت من الممكن اتخاذ موقف نقدي تجاه أى وضع قائم في الاقتصاد والسياسة  
والقانون ، من وجهة نظر النظام الطبيعي والتقدم . وهذه الأفكار كانت ، يقيناً ،  
غامضة مدعومة بافتراضات ساذجة ذات جانب واحد ، وغير قابلة للتحقق من صحتها .  
ولم تستخدم لأغراض نقدية فقط ، بل استخدمت أيضاً لأغراض تبريرية : فمثلاً  
الاقتصاد الرأسمالي يؤول بأنه النظام الاقتصادي الذي يتوافق أفضل توافق مع  
الطبيعة البشرية ، ويتيح تقدماً سريعاً على النحو الأمثل . ومن هنا كانت المقاومة  
القوية لهذه الأفكار والحاجة المصمة لمحو كل أحكام القيمة من العلم وقصر البحث  
الاجتماعي على وصف الحالات الواقعية وتفسيرها . كان هذا كله في جانب منه نتيجة  
لتزايد الصرامة المنهجية ؛ وكان من جانب آخر أيضاً نتيجة للتعبير عن نزعة محافظة  
لاستئصال كل أساس علمي للنقد الاجتماعي ؛ وإحالة التقويم وتقديرات الاحتمالات  
المستقبلية واتخاذ القرارات الأساسية إلى مجال السياسة . وأياً ما كان الأمر فإن  
تصورات النظام الطبيعي المثيرة للجدل والمناقشة لم تستبدل بها أية مقولات معيارية  
أخرى . والتمييز الفلسفي الغالب في المقيدين الرابع والخامس - أعنى الوضعية  
المنطقية - أولت أحكام القيمة كمجرد تعبيرات عن الإنفعال دون أى معنى عرفاني .  
وكنتيجة لذلك غدت الفلسفة منفصلة انفصال تاماً عن القضايا الاجتماعية الجياشة  
بالحياة . وفقدت دورها التوقفي الناقد الرائد ، وأصبحت مقصورة على دراسة البناء  
المنطقي للغة . وعلى ما يقارب ذلك أول العلم بأنه دراسة ظواهر مبطلة يمكن ملاحظتها  
ملاحظة تجريبية تقوم في أفضل الأحوال أطراوات معينة ، وتنبهتنتج منها بطريق

الاستقرار طواهر معينة ممكنة . وكل تقويم بلغة الحاجات والمشاعر والمعايير الأخلاقية قد اعتبر غير عقلى من الأساس ، ولا يستحق الا أن يطرح جانباً .

وثمة حجب وظروف تاريخية كان فيها لمثل هذا التأكيد على الحيايد الأخلاقى للعلم طابع تقدمى . ولقد كان « ماكس فيبر » على حق فى اصراره على أنه فى ظروف الحرية المقيدة للبحث وللتعليم العلمى قد ينقذ الحيايد الأخلاقى شرف الباحث وكرامته بأن يتيح له أن يخلص نفسه من الأهداف اللاأخلاقية للدوائر الحاكمة . ففى مثل هذه الأحوال ، وبذلك المعنى ، يمكن للعلم المتحرر من القيمة أن يؤدى دوراً تقديمياً خالياً من الألفاظ .

ومع هذا قد يلوح أن الخطر الاجتماعى الرئيسى فى الوقت الحاضر لا يأتى من أنظمة الحكم الاستبدادية والدكتاتورية بقدر ما يأتى من الفراغ الروحى الذى سبى . بايدين فى القوة والنجاح وبايديولوجية الاستهلاك ، وبهاجس يكاد يكون مرضياً عن فاعلية الوسائل ، يقترون به فقدان محتوم للاهتمام بمشكلة معقولة الأهداف وإنسانيتها . ففى موقف تاريخى من هذا القبيل ، وفى طقس روحى على هذا النحو ، يؤدى مبدأ الحيايد الأخلاقى دوراً أقرب الى أن يكون ملغزاً ومعدماً للمذهب السياسى القائم . أن العلم المتحرر من القيمة ، بما يبديه من لامبالاة تجاه أية اعتراضات بعيدة المدى ، وبتشككه العميق فى أية رؤى عن التغير الاجتماعى الجذرى ، لا يقود الا الى نمو السلطة المنحرفة وتعزيزها ، وإلى تحكم أشد فاعلية فى العمليات الطبيعية والتاريخية . داخل هيكل « البناء التاريخى القائم » . ففى الوسع دائماً تقبل المعرفة « الخاصة » الوضعية التدريجية ، وتأويله ، واستخدامها بطريقة أنسب ما تكونه لنصفوة الحاكمة . أن مجتمعا يساند فيه هذا النوع من العلم يظل خلواً من وعيه بذاته وعياً كامناً ناقداً .

## - ٢ -

والواقع أن تصور بحث علمى متحرر من القيمة هو تصور مضلل . فبعض القيم والمعايير تكون ماثلة دائماً فى كل بحث اجتماعى ، والسؤال لا ينصب الا على نوع تنتمى اليه . فبعض القيم العرفانية هى عناصر أساسية فى المنهج العلمى : الوضوح ، الدقة ، المرونة ، النصوبة ، القدرة التفسيرية للجهاز التصورى ؛ ضبط الاستدلال ؛ قابلية النظريات للتحقق من صحتها وللتطبيق ، الخ . وبعض هذه القيم تكمل الواحدة منها الأخرى ، ولا يتحتم أن تجرى احداها جنباً الى جنب مع سائرهما . فبعض أنماط الأولوية تختلف من اتجاه منهجى الى آخر . فإن نختار بين المنهج التحليلى ومنهج الظاهريات والمنهج الجسلى ؛ وأن نؤثر النزعة التجريبية أو العقلية أو الحدس ؛ وأن نفضل منهج التفسير أو منهج الفهم ، كل هذا لا يعنى غير إظهار نموذج معين من اللغة ، وطريقة للتفكير ومجموعة من المسلمات الوصفية والابستمولوجية والانطولوجية ، ولكنه يعنى مع هذا إعطاء أولوية لبعض القيم العرفانية على القيم الأخرى .

وبالإضافة إلى القيم العرفانية ثمة قيم غير عرفانية مضمرة أيضا أضمارا ثابتا في الافتراضات الضمنية النظرية والمنهجية للعلماء الاجتماعيين مهما يكن من زعمهم أنهم محايدون . فمثلا أصحاب النزعة الوظيفية في علم الاجتماع يفترضون أن المجتمع نسق « مستقر » ، « متكامل » أجزاءه « تكاملا حسنا » ، لكل منها وظيفة محددة ، وهو يسهم في « المحافظة » على النسق . وأداء النسق لوظيفته على الوجه الأمثل مرهون « بالاتفاق » على قيمه الأساسية . وأخيرا فأى تنكب لهذا النظام مفسد للوظيفة ، ومنحرف ، و « مريض » . وفيما يفاير ذلك يفترض عالم الاجتماع الماركسي أننا نعيش حقبة انتقال من نشاط انساني مادي الى نشاط حر ، من مجتمع مكبل بالطبقة الى مجتمع خال من الطبقات ، ومن هنا فجميع الأنساق الاجتماعية « غير مستقرة » بدرجة أو بأخرى ، وفيها نزعات واضحة « التفكك » ، ومؤسسات كثيرة « فسدت وظيفتها » فسادا بينا ، مزقتها « الخلاف » و « الصراع الطبقي » . والانحراف عن مجتمع مريض والانشقاق عليه بدلا من أن يكونا مريضين قد يكونان ثورين . ههنا لدينا بوضوح صدام بين الواقف تجاه نسق القيم كله المشسيد في مجتمع قائم . فبالإلحاح على الاستقرار والانسجام والنظام تحاول النزعة الوظيفية أن تدافع عنه . وبافتراض تغير اجتماعي بنائي ثوري لا مفر منه ، وبتهجين موقف ناقد متمرد ، تتوخى الماركسية أن تهدم دعاوى شرعية ذلك النسق من القيم ، وتظهر أن بعض مزاعمه الأساسية على الأقل ليس لها طابع انساني كلي ، بل تعبر عن حاجات ومصالح جماعات حاكمة معينة . وعلى ذلك ، فمثلا الملكية الخاصة ، والتنافس الاقتصادي ، والعمل من حيث هو كذلك ( بصرف النظر عن كونه منحرفا أو غير منحرف ) ، والنظام ، والطاعة المدنية ، والوحدة القومية ، وحرية التعبير عن الآراء بدون حرية المشاركة في اتخاذ القرار ، الخ ، ليست في الواقع غير قيم لأناس معينين في زمن معين وفي ظروف خاصة معينة . فالدفاع عنها ( جهرا أو ضمنا ) دون أى كفاءة لها أمر يتنافى مع الموضوعية العلمية والكلية العلمية . فالعلماء الأفراد الصادقون ينتهون الى أمة معينة وإلى جماعة اجتماعية ، وقد تربوا في كنف عرف خاص وفي طقس اجتماعي محدد . وأشق مهمة مسئولة لأولئك الذين يدربون شباب العلماء هي من ثم أن يمدوا لهم يد العون ليتغلبوا على هذا الأفق الفكرى التقليدي الضيق ، وليدركوا أن العلم هو انتاج انساني كلي .

والواقع أن بعض القيم الأخلاقية الكلية متضمنة في تصورات الموضوعية المعقولة التي تشكل أساس المنهج العلمى عينه . ( وقد كان « جايجر » Geiger على حق حين أصر على أن ثمة حلقة وثيقة بين مهارات العالم Fachkoner وبين ضميمه Fachgewissen . « والموضوعية » تفترض مسبقا أمانة جفدية في تطبيق القيم المهنية للبحث ، وفي تجاهل المصلحة الشخصية من أى نوع تجاهلا قاطعا ، وفي روح تعاوني في عملية النشاط الرمزي بأسرها ( وبدونها يستحيل الاتصال ) ، وفي استعداد لاعطاء الأولوية للحقيقة على الولاء للجماعة ، والتحرر من التعصب العقلي ، والاجتماعي ، والديني والأيدولوجي . وموضوعية البحث العلمى تتوقف على شروط اجتماعية معينة ، وهذه بدورها مرهونة بتحقيق سلسلة من القيم



الأخرى ، مثل « انفتاح » مجتمع على سائر مجتمعات العالم ، وجو عام من « التسامح » السياسى والثقافى ( الذى لا يستبعد صراعا ضد الخرافات والأحكام المتفرضة ) ، و « التدفق الحر للمعلومات » ( الذى يتضمن حرية التعبير عن الذات ، والمناقشة ، والسفر ، ودراسة أية مشكلة لها أهمية علمية ) ، و « استقلال العلم الذاتى » عن الدوائر الاجتماعية الأخرى وبخاصة عن السياسة ، وطقس اجتماعى يجذب « **المواقف المناهضة للتحكم والاستبداد** » ، وهو ينطوى على أن السلطة الوحيدة فى العلم هى السلطة المؤسسة على المعرفة ، والمقدرة ، والصفوة الوحيدة فى المجتمع هى صفوة الفكر والذوق . وعلى العكس من ذلك فان أية عوائق تعوق الاتصال ، وأى عداء أيديولوجى تجده المذاهب الفلسفية والاتجاهات المنهجية المناهضة ، وأى احتكار للسلطة يفرض على البحث العلمى والنشر العلمى التحكم والرقابة ، ويعنى بتصميم الأنصار الموالين فى مناصب السلطات العلمية ، يقهر الموضوعية الى حد كبير ، ويفضى الى افساد عام للعمل العلمى .

وثمة شرط اجتماعى آخر للموضوعية يبين أجلى بيان ارتباطها بالنزعة الانسانية . فبينما العمل العلمى امتياز تمتاز به اقلية صغيرة ويظل بوجه عام حقلًا منعزلا انعزالا تاما فى القسم المهنى للعمل ، فان صفة « الموضوعى » تعنى فى كثير من الأحيان ما انعقد عليه اتفاق الخبراء المهنيين . ومع ذلك فبالقدر الذى يحصل به عدد متزايد من الناس على التعليم الضرورى فى أوقات فراغهم ، وينمون اهتماما فعلا بالعلم ، تتسع دائرة الملاحظين المدربين وبنسبة النظريات والنقاد ، وبخاصة فى العلوم الاجتماعية ، اتساعا جوهريا ، وتغدو الأحكام الاجتماعية المنصبة على الصحة الموضوعية للمعطيات والنظريات أشد حسما وضبطا .

ويمكن تحليل « تصور المعقولة » العلمية تحليلًا مائلا . فكل سلوك عقلاى فهو محمل بالقيم : اذ يتألف من اختيار أشد الخيارين احتمالا للوصول الى هدف معين . والاهداف فى معظم الأحوال غير مختبرة ، مفترضة ضمنا ، موضوعة بين أقواس ، وهذا يخلق الخداع القائل بأن المعقولة التكنولوجية المستندة الى أجهزة متحررة من القيمة ومحايدة أخلاقيا - وهى ، بالطبع ، ليست كذلك . ومنتجات جديدة كثيرة نابعة من عمليات منتجة ذات مستوى رفيع من العقلانية ، لا تعدو كونها أكثر « فائدة » للمنتج ، وليست على مستوى عال فى اشباع « الحاجات الانسانية » . وان اختبار القيم المحجوبة فى طيات تصور المعقولة ليكشف الغطاء عن مشكلة الاهداف النهائية للبحث العلمى كله . والآن لقد غدا واضحا وضوحا يقينيا أن بعض الجهود العلمية الضخمة فى هذا القرن قد أسىء توجيهها الى حد ما ، وقد أهمل الكثير من الحاجات الانسانية الجوهرية ، وبددت كميات لا تصدق من الخامة والمعرفة ومن أفضل طاقة بشرية ، لاشباع حاجات عرضية ومستقرة بطرق زائفة ، والعلم فى عوممه يتطلب وعيا ذاتيا مترابلا ناقدا ، وتوجيها انسانيا جديدا .

ومفتاح مشكلة بناء توجيه جديد من هذا القبيل يتمثل من الوجهة النظرية في تبرير المطلب القائل بأن لمعايير الأخلاقية الأساسية طابعا كليا .

وثمة مبررات ثلاثة في وسعنا أن نسوقها للاقرار بشرعية هذا المطلب .

أولا : يظهر تاريخ الفلسفة والثقافة درجة عالية للغاية من الإجماع بين كبار المفكرين المعترف بهم بصدد بعض قيم أساسية ، مثل الحرية ، والمساواة ، والسلام ، والعدالة الاجتماعية ، والحقيقة ، والجمال ؛ الخ . وهذا الإجماع لا يثبت شيئا ، ولكنه يدل على الطابع الكلي لبعض معايير الحياة البشرية .

ثانيا : تزودنا الأنثروبولوجيا النقدية الفلسفية بنظرية عن الإنسان ، عن قدراته الجوهرية وحاجاته الحقيقية ، يمكن أن يستمد منها اعتبارات القيمة المتضمنة لمشكلة مراتب القيم . وواضح أن هذه النظرية لا تشمل عنصرا « دالا » فقط ، بل تشمل أيضا عنصرا معياريا . والعنصر الأول مفهوم ضمنا ، فمثلا في التبرير النظري للرأى القائل بأن ثمة استعدادات كامنة على نحو كلي ( من قبيل : قدرات استخدام الرموز والاتصال ، وحل المشكلات الجديدة ، وتنمية وعي ذاتي ، الخ ) ، وأنها تتحقق في مرحلة معينة من النمو في كنف ظروف اجتماعية مواتية ، وأنها قد تتبدد وتخذ إذا افتقرت الى الظروف الملائمة . والعنصر المعياري مفهوم ضمنا في اختيار القدرات الانسانية الجوهرية ، وفي التمييز بين الحاجات « الحقيقية » والحاجات « الزائفة » . ويمكن اثبات صحة صفة الكلية للعنصر المعياري إذا كان في الوسع اظهار أن لكل أفراد البشر الذين نموا نموا سويا حاجات وإشارات عاطفية ماثلة من حيث تركيبها ، في بعض الحالات الوجودية العصبية من حرمان والم ، ونشاط الجاعة ، وجاذبية جنسية . الخ .

ثالثا : يستمد علم النفس المعاصر الأخذ بالنزعة الانسانية القيم الكلية الانسانية من دراسة الأشخاص المتملئين الأصحاء نفسانيا . والنقطة المنهجية الجوهرية هنا هي أن الصحة قد تعرف تعريفا من « الواقع الفعلي » لا بالاستعانة بتصورات مجردة على مستوى أعلى . ويعرف « أبراهام ماسلو » Abraham Maslow الكائن البشري المتمثل السليم بالخصائص التالية التي توصف وصفا تجريبييا : ادراك أوضح للواقع ، انفتاح أشد على التجربة ، تكامل متزايد للشخص ، تلقائية متزايدة ، هوية راسخة ، موضوعية متزايدة ، استعادة القدرة الإبداعية ، القدرة على ادماج الحسوسيات ، والتجريد ، وبناء الشخصية بناء ديمقراطيا ، القدرة على الحب ، الخ (١) . ومن جهة أخرى ما يميز الحالات العقلية المرضية كلها هو تفكك الشخص ، واستقرار الكائن العضوي بأسره استقرارا داخليا . هذه الطريقة في فهم الموضوع تتيح لعلماء النفس الأنسانيين أن يستبدلوا بالسؤال : ماذا « ينبغي » أن تكون القيم الانسانية ؟ « السؤال الواقعي » : ما هي قيم الكائنات البشرية ؟

وإذا أخذنا معا هذه الطرائق الثلاث ، التاريخية والفلسفية والسيكولوجية ، اتاحت لنا أن نتحدث حديثا ملوا بالمعنى عن أساس انساني عالمي لعلم اجتماعي نقدي .

ويترتب على هذه الاعتبارات الثلاثة أن يتاح للعالم الاجتماعي أن يختار بين المواقف الثلاثة البديلة التالية :

- ( أ ) فهو إما أن يعمل كمدافع عن أيديولوجية رسمية في مجتمع معين .
- ( ب ) أو أن يحاول مواصلة البحث مهتديا بهدى معايير عرفانية فقط ، ويحيل الى الخلف أية مبادئ أخلاقية ، أو مطامع اقتصادية وسياسية وثقافية .
- ( ج ) أو أن ينهمك في دراسة نقدية من جهة نظر انسانية عالمية .

وليس من الصعب تفسير السبب في كون كثير من العلماء الاجتماعيين يتولون أداء دور المدافعين . فهم ، على الأفضل ، قد يتقصصون الأيديولوجية الرسمية ، ومطامع الصفوة الحاكمة وأهدافها . وهم على الأسوأ ، قد يتكيفون ، لأنهم يدركون ثمن قبول أداء ذلك الدور أو رفضه : بين مكانة اجتماعية عالية في إحدى الحالتين ، وبين نذير في الحالة الأخرى . وأيضا كانت دوافع العلماء الذين يقررون أن يجعلوا عملهم خاضعا للمطالب الأيديولوجية فانهم لا يملكون الا أن يخرقوا معايير المنهج العلمي التي ترتبط بالحقيقة ولها من ثم صحة موضوعية عالمية . ومن جهة أخرى فالأيديولوجيات كلها تسويفات باطلة ، وهي من حيث كونها تمبيرات عن مصالح خاصة محدودة فانها ، شامت أم لم تشأ ، *nolens volens* تؤول العلاقات الاجتماعية بطريقة ملفزة ، مدعية أنها إنما تقدم حقائق علمية .

ويمكن للعلماء الذين يسلمون أنفسهم للحياة الأخلاقية والأيديولوجي أن يتجنبوا هذا النوع الأسوأ من أساءة الاستخدام . وثمة أشكال مختلفة عديدة لهذا الطراز في علاج الموضوع . فالواضح أن ثمة فوارق ملحوظة توجد بين عالم يلوذ بأمن الصلم الخالص ، في حين يرفض في صمت النسق الرسمي للقيم في مجتمع قمح ، وبين ناثر سابق محبط وشاك ، غدا كل التزام في نظره معدوم المعنى ، وبين صاحب نوع خاص من سلمة المعرفة والمهارة العقلية ، في خدمة أي شخص مستعد لدفع الثمن ، وبين خادم للحكومة أو الشركة ، يعتز بوظيفته الاجتماعية ، ولكنه على خلاف صاحب العقيدة الأيديولوجية ، يتوخى أن يقدم معرفة « وضعية » حقا في المهام التي تهده بها اليه المؤسسة ، وأخيرا حامل المعرفة كذلك الشخصية التي يقدمها « برتولد برخت » ، فالهر « كينر » لا ينبغي له أن يقاتل ، ولا أن يقول الحقيقة ، ولا يخدم أي شخص ، فهو ليس لديه غير « إحدى القضايا وهي أنه يعمل المعرفة » . وثمة قسمة مشتركة بين كل هذه المواقف المختلفة ، ألا وهي الإفلات من المسؤولية لاستخدام المعرفة .

بيد أن العالم لم يعد يستطيع أن يتجاهل هذه المسؤولية . فقد ترتب على

أسوأ استغلال للجهد العلمي فى التاريخ ، أعنى تطور القنبلة الذرية ، أن نتج على الفور سلسلة من ردود الفعل عند قادة العلماء المعاصرين : رسائل « أينشتين » و « زيلارد » Szilard ، وتقرير « فرانك » Franck والالتماس المرفوع فى ١٧ يولييه ١٩٤٥ الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وبعد ذلك حركة « بوجواش Pugwash » ، ومشاركة متزايدة من العلماء فى حركات السلام ومشكلات البيئة وفى أنشطة ثقافية متنوعة فى الأمم المتحدة واليونسكو . لقد بدأ بزوغ تضامن دولي للمثقفين فى العقود الأخيرة . وثمة وعى ناقد آخذ فى النمو ينحو نحو تجاوز قيود الأمة والسلالة والطبقة أو الدين ، ويقف موقفا إنسانيا . وثمة تعبير من بين أوسع التعبيرات انتشارا عن هذه النزعة العالمية الفكرية التلقائية نجده فى أول بيان « لبوجواش » وقعه « برتراند رسل » و « ألبرت أينشتين » :

« نحن نتحدث لا كأعضاء فى هذه الأمة أو تلك ، منتمين الى هذه القارة أو تلك العقيدة ، وإنما ككائنات بشرية ، كأعضاء ينتمون لنوع الانسان ، الذى غدا استمرار وجوده موضع شك » .

« ان معظمنا محايد من حيث الشعور ، بيد أننا ككائنات بشرية علينا أن نتذكر أنه اذا كان لابد للمسائل بين الشرق والغرب أن تحسم بطريقة من الطرق تحقق رضى لى شخص ، شيوعيا أو مناهضا للشيوعية ، آسيويا أو أوربيا أو أمريكيا ، أبيض أو أسود ، فينبغى أن لا تحسم هذه المسائل بالحرب » .

« ..... أننا ككائنات بشرية فنأشد كائنات بشرية ، ألا تذكروا إنسانيتكم ، وانسوا ما عداها » .

## - ٤ -

وكثير من العلماء يحسون بالارتباك حين يواجهون نداء إنسانيا عالميا من هذا القبيل وثمة أسباب وجيهة ليأخذوا جانب الحذر .

أولا : أن وجهة نظر عالمية قد تبلغ من التجريد حدا لا تنصف معه أية وجهة نظر « خاصة » أو مطلب « خاص » . فهى فكرية وأخلاقيا مريحة للغاية . وهى الى ذلك الحد غير مسئولة ، إذ تموه كل المسائل وتتخذ مظهر قاض عالمي « محايد » يدين كل الجوانب مؤثرا عليها جانب « الجنس البشرى » . وبعض وجهات النظر الخاصة قد تكون بالتأكيد أكثر اتساقا مع المصالح والحاجات العالمية للتطور الانساني ولتحقيق الذات الانسانية ، من وجهات نظر أخرى . زد على ذلك أنه ليس من الممكن ، عمليا ، تشجيع هذه المصالح العالمية بدون اتخاذ موقف خاص لكل حالة خاصة . وقد ينطوى هذا فى بعض الظروف على أدانة كل الجوانب ، وينطوى فى ظروف أخرى على الموافقة على الجانب الذى اذ يكافح من أجل غاياته يناضل من أجل الانسانية ككل ،

ومساندة هذا الجانب مساندة فعالة • فالمطلوب نزعة « عالمية » « تاريخية ملموسة » .  
لا مجردة ومتعالية •

ثانيا : تفتقر النزعة الانسانية في معظم الأحيان ، في التاريخ وفي المعاجم .  
بحسب الخير لبنى البشر ، والتسامح ، والاحسان ، ورقة القلب ، وفعل الخير ، حتى  
أن معظم المصلحين والثوار الاجتماعيين يعارضون في انتحال هذا الشعور حتى ولو  
كان لديهم ، موضوعيا أو ذاتيا ، وجهة نظر عالمية • والدعوة الى نزعة عالمية مجردة والى  
نزعة انسانية متسامحة يمكن أن تكون أيديولوجية السلطة المسيطرة التى يمكنها  
بذلك أن تحاول تحييد النقد الاصيل للعلاقات الاجتماعية القائمة والزيف بالنشاط  
النضالى الفعال الى جهود معتدلة غير مؤذية من أجل السعادة والرفاهية • ان وجهة  
نظر انسانية عالمية واقعية لا علاقة لها بتصور سطحي خاو من هذا القبيل •

ومنذ بدايات الثقافة اليونانية القديمة «العالمى» و «الانسانى» و «النقدى» تمضى  
معا فى شكل أو آخر • فبقيا «لهرقليطس» ، مثلا ، يعيش الانسان فى سجن عالمه الفردى  
من حيث أنه يعتمد فقط على تجاربه ومطامحه الشخصية • ويتيح له التفكير أن يدرك  
• اللوجوس Logos « البناء العالمى للوجود كله ، ومن ثم يدخل عالما مشتركا بين  
جميع أولئك الذين يفكرون • وبهذه الطريقة يتغلب الناس على وضعهم السابق  
ويتطورون الى كائنات « يقظة » • وعند « أفلاطون » وعند الفلاسفة الرواقيين وكثيرين  
آخرين من المفكرين الكلاسيكيين يجد المرء اندماجا مائلا لثلاثة أفكار عظيمة :

( أ ) البناء الكلى للوجود قائم •

(ب) أن هذه الكلية ليست على الدقة خارج الانسان بل يمكن للانسان أن  
يكشفها ويستسيقها •

(ج) أن الانتقال من وضع فردى قائم الى امكانية وضع عالمى ، له طابع نقدى :  
يعيش الانسان فى حلم ، فى كهف ، فى سجن قبل أن يتيح له فكره النقدى ( حيث  
يندمج العقل والانفعال ) ( ١ ) أن يستيقظ ، ويجمله حرا ، وانسانا بالفعل • والنقطة  
الرئيسية التى تخطت فيها النزعة الانسانية الحديثة تخطيا حاسما صورتها القديمة  
هى فى الطابع « التاريخى » ، وبالتالى فى تأكيد أقوى على البعد « العلى » للانسان •  
فلانسان العالمى من حيث كونه فردا فعلا يتطور تطوراً يسبق الزمن ، ويتخذ الانقسام  
بين الكائن البشرى كما هو فى واقعه الفعلى وبين الكائن البشرى بما يمكن فيه من  
امكانيات ، يتخذ هذا الانقسام أشكالا مختلفة فى كل حقبة تاريخية ، وليس غرض  
النقد أن يوقف الانسان فقط ، وانما أن يتغلب أيضا تغلبا عمليا على أية حالة اجتماعية  
بطل الكائن البشرى فيها محيطا منحطا •

وأخيرا ، ثمة سبب ثالث لوقف التنبذ الذى يقفه بعض العلماء المعاصرين من

(١) للفكر اليونانى طابع عقل قوى ، ولكنه بعيد عن تلك العقلانية الباردة المحسوبة فى العلم فى أيامنا  
هذه • وعند « أفلاطون » أن العاطفة الفلسفية الصادقة هى أساس الفلسفة كلها •

النزعة الانسانية ، حتى ولو انطوت على نزعة نقدية ، أو على الدقة لذلك السبب  
يفشل بعض الآخذين بالنزعة الانسانية في استيفاء المعايير العلمية المنهجية أو حتى  
في اتخاذ موقف ملحوظ ضد العلم . هنا ينبغي للمرء أن يميز بين نوعين من هجوم  
أنصار النزعة الانسانية على العلم الوضعي ، يختلفان اختلافا تاما في دوافعهما  
وحججهما . فاحدهما ينحدر من الانسنيات التقليدية التي كانت تعبر دائما عن  
اللامبالاة تجاه التطبيق العملي للمعرفة والفصالية كقيمة . ولهذا جذوره في علاقة  
اليونان بالعمل ، وفي اقتناعهم بأن « النظرية » Theoria لها شأنها في المقام الاول كطريقة  
للوصول الى الانسانية الكاملة ، لا كوسيلة لإنجاز بعض الاهداف العملية . وكلمة  
« التهذيب » Humanitas عند « شيشرون » تدل على مجموعة من الخاصيات الانسانية التي  
تنميتها عند كل فرد من خلال التربية المناسبة . ذلك هو السبب الذي من أجله كان  
الغرض من الدراسات الانسانية دائما في جامعات العصور الوسطى ، إبان عصر  
النهضة وبعده ، تهذيب القدرات الروحية ، وتنمية الاساس الثقافي اللازم للمجتمع .  
وقد خلقت الانسانيات الصغرة المفكرة في المجتمعات الاوربية لقرون عديدة ، بيد أنها  
فقدت دورها الغالب ك مجال للدراسة منذ بداية الثورة الصناعية والتطور المتزايد  
السرعة للعلم المتجه اتجاها تكنولوجيا . بيد أن المناقشة لم تختف البتة . ودارسو  
الانسانيات يقيمون تمييزا قاطعا بين علوم النوااميس الطبيعية والمنطقية وبين العلوم  
الرمزية ، ويزعمون أن البحث عن قوانين علمية فيما يختص بالمجتمع الانساني بحث  
لا معنى له ، وأن منهج تغطية التفسير بالقانون ينبغي أن يستبدل به منهج الفهم ،  
وأن المناهج الصورية والكمية عقيمة ومضللة ، الخ . ويجب « الوضعيون » بأن كل  
بحث علمي أصيل ينبغي أن يتبع قواعد منهجية مصوغة صياغة واضحة . وأن يعول  
على عمل متجز وفقا لما يليه الضمير ، وأن تقدم نتائج قابلة للفحص من أكثر من  
شخص . وعلى العكس من ذلك ينحو دارسو الانسانيات نحو التعسف ، ويعولون على  
ملكات عقلية غير قابلة للتحقق من صحتها ( الحدس ، الخيال ، الفهم . الخ ) ،  
ويقدمون نتائج ذاتية مثيرة للنقاش والجدل .

والمداغمون عن العلم الوضعي هم على التأكيد سجناء نموذج متحيز جدا ومبسط  
للعلم ، يعانى ، فضلا عن سذاجته فيما يختص بالقيم ، من العجز عن تفسير الجوانب  
المساعدة على الكشف والمبدعة في البحث العلمي . بيد أن الحق في جانبهم حين  
ينفقون محاولات ادخل انشقاق بين العلوم وبين الانسانيات . فالاختلاف بين العلوم  
الطبيعية والعلوم الاجتماعية هو اختلاف في الدرجة فقط . وأية تصورات تنصب على  
الامكانية الافضل للحالة الاجتماعية (وهي النقطة الحاسمة في نظرية اجتماعية نقدية)  
تستلزم أشد الابحاث تشككا في الحالة القائمة ، من حيث اتجاهاتها الصامة وأشد  
تفانجها احتمالا في المستقبل . وبدون دراسة عينية من هذا القبيل تظنل طريقة  
البحث النقدي العام في الانسانيات مبهمة وغير متحدة بشكل خطر . ان الافتقار الى  
معرفة الوقائع وقوانين الحالة الاجتماعية موضع الدراسة يتضمن الجهل بالحدود التي  
تنتهى في كنفها لأهداف عمل اجتماعي ممكن فرض النجاح .

وتقدير العلم للوضعي الناقض من بعض الدوائر المسببية له دوافع مختلفة ، ولكنه يعاني في كثير من الاحيان من طريقة التناول المنشعبة للعلاقة بين النزعة الانسانية والعلم . وقد نبذ أعضاء مدرسة « فرانكفورت » وبخاصة « ماكس هوركهايمستر » أية نظرية وضعية للنباء باسم «الجدل استليني» . والحجة هي أن لكل النظريات الوضعية وظيفة دعم النسق . وعلى ذلك فهمة نظرية اجتماعية جدلية لا يمكن إلا أن تكون نقد واقع اجتماعي معطى ، وجميع النظريات العلمية المقترحة . وثمة حجة مماثلة يقدمها الكتاب الوجوديون تأخذ بأن اقامة القوانين العلمية لمجتمع يعادل تحديد شروط قيامه بوظيفته البسيوية واستمراره ، ومن ثم فللعلم وظيفة محافظة ضمنية .

وتكمن قوة هذه الحجة في كونها تشير الى شيء ما يحدث بالفعل في معظم الاحوال ، وإن كانت لا تحدث إلا لأن معظم العلماء يتقبلون مع ذلك أدوات دعم النسق . والمنهج العلمى من حيث هو كذلك لا يمنع عالما من اقامة قانون يصف نزعة هدامة فى النسق . وقانون «ماركس» عن انخفاض متوسط قيمة الفائدة هو مثل كلاسيكى على ذلك . وفى الواقع قد يبدو أن مطلب الموضوعية العلمية نفسه يلزم العالم الاجتماعى بأن يقيم معا شروط أداء نسق لوظيفته أداء مستمرا وسويا وشروط تغيره الكيفى ونشوء نسق جديد . وهو انما يعنى أولا : أن بناء النظرية العلمية ليس فى حاجة الى أن يلعب دورا تبريريا ، وثانيا : أن الباحث الجدلى ليس محكوما عليه أن ينقد نقدا سلبيا فقط . والحق أن مصطلح «الجدل السلبى» نفسه يبدو مضللا . ان سلبية فكر نقدي جدلى تتألف من اكتشاف القصور الجوهرى فى نسق ما ووسائل التغلب على هذا القصور . هذه السلبية المزدوجة **Aufhebung** تعنى إلى نسق جديد ، وليس ثمة شيء فى العملية الجدلية يمنعنا من وصف هذا النسق الجديد (وكان هذا عند هيجل مرحلة التركيب) . وعملية الفكر النقدي لا تقف بالطبع عند النسق الجديد . فثمة سلسلة من الخطوات المتعاقبة وضعت خطوطها بالطريقة التى تدل عليها النظرية النقدية ، تتوسط بين الحالة الفعلية فى الحاضر وبين رؤية فرصة تاريخية مثل عن حقبة بأسرها . وبدون هذا التوسط تظل الرؤية الانسانية لمستقبل أمثل مجرد أمر من أمور الايمان أو الأمل . ان النزعة الانسانية تحتاج الى العلم لتعلو على طابعها الطوباوى التعسفى ، اعنى لتترجم مطامحها النظرية الى ممارسة .

- ٥ -

وما أن يأخذ العلماء مسئوليتهم على عاتقهم ويتقبلوا وجهة نظر انسانية اخلاقية حتى يتعهدوا لا بإظهار الطريق الى الممارسة الاجتماعية فقط بل أيضا بالإسهام ببنو مباشر فى تلك الممارسة . وطابع تعهدهم يتوقف بشكل واضح على طبيعة المشكلات التى يخلقها التطور العلمى الحديث .

وأشد المهام إلحاحا هي النضال بكل الوسائل لقبح التكنولوجيا الموجودة المنافية

للإنسانية والقضاء عليها . هذه الوسائل هي في المقام الاول النضال من أجل نزع السلاح ، ومن أجل تكنولوجيا جديدة مأمنة للتلوث .

وثمة مهمة أوسع هي تعهد فعال ضد إساءة استخدام المعرفة الموجودة ، وذلك لأن أولئك الذين أبدعوا المعرفة من حقهم بل من واجبهم أيضا أن يكونوا مهتمين بتطبيقاتها العملية .

وكما ألفنا من قبل بعضا من أسوأ الاشكال لاساءة استخدام المعرفة فإنه يقدو يمكننا أحيانا التعرف على الطابع المرضى للبحث في مرحلة مبكرة . و « مرضى » هنا تعنى البحث لأغراض منافية للإنسانية ، مثل تدمير الحياة البشرية ، وتسميم بيئتنا الطبيعية ، أو التسلسل على الأذهان البشرية . والاسهام في بحث من هذا القبيل مع الدراية التامة بالفرض منه أمر لا أخلاقي على نحو واضح . صحيح أن الفرض العمل لبحث معين لا حاجة لمعرفته ، أو يمكن أن يكون غير متصل باستخدام التالى لتنتاجه، ولكن ثمة حالات أخرى يعرف فيها هذا الفرض أو يمكن معرفته . فالالزام الاخلاقي للعالم في مثل هذه الحالات أن يرفض الخدمة . ففي وسعه أن يصون تكامله الاخلاقي ويتجنب البقاء الفكري إذا رفض أن يكون شريكا في الاعساد العلمى لجرائم ضد البشرية ، وفي انتهاك حقوق الانسان ، أو في التدمير النفساني المنهجي للمطامح الانسانية صوب الحرية والتطور . ان رفض استخدام معرفة انسان ومهاراته من أجل أهداف من هذا القبيل يمكن أن يتخذ أشكالا مختلفة ، في شكل تمرد صريح اتباعا لنصيحة جوته : « تعد السلطة ، ولا تنحن البتة ، وأظهر نفسك قويا » . وفي شكل من أشكال الرفض أكثر سلبية يتبع حكمة الهر « كينر » في مسرحية « برخت » المشار إليها : « لا تخدم سلطات من هذا القبيل ، ولكن لا تقل « لا » بصوت عال ، فليست لدى عزيمة لتحطيمها ، ويجب أن أعيش الى ما بعد زوال تلك السلطات » .

ولقد آن الأوان للعلماء لاعداد استراتيجيات متنوعة للعصيان المهني والمقاومة إساءة الاستخدام ، وهو ما يقتضى أيضا تغييرا في طابع منظماتهم . وحتى الآن نظم العلماء أنفسهم تنظيما مبدئيا ، اما في جمعيات علمية من أجل الارتقاء بالمعرفة ، أو في جمعيات مشابهة لاتحادات التجارة من أجل حماية مصالحهم المهنية . واليوم يلزم الاعداد للنضال الطويل القادم ضد إساءة استخدام « وتبديد » المعرفة العلمية ، ولأن إساءة الاستخدام تلك ذات وزن دولي فليس في الوسع إبطالها إبطالا فعالا نسبيا الا بتنظيم عالمي للعلماء .

وليس من شك في أن تنظيما كهذا التنظيم مطلوب أيضا لفرض آخر : حماية العلماء الذين يضطهدون بسبب مواقفهم الاخلاقية ، وبخاصة ازاء جرائم من هذا القبيل ، كالتحليل النقدي للانساق ، وتحدى الايديولوجية الرسمية ، وفضح المؤسسات والقادة المنحرفين ، أو كشفها للجبههور التي من حقه أن يعرف القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية المنحرفة التي تدخل العفن الى حياتهم .

والقوة الاخلاقية لفرد لا يمكن أن تتوقف على وجود وفاء أية منظمة وفعاليتها .



فالمُنظمات يمكن أن تساعد على تعبئة الرأى العام وعلى التعبير عن التضامن الجماعى .  
وحسن أن نعرف أنه المرء ليس وحده . بيد أن القرارات الاخلاقية يلزم اتخاذها حتى  
ولو كان المرء وحده . والمعايير الاخلاقية هي معايير اجتماعية بكل ما فى الكلمة من  
معنى ، بيد أن قرارات العمل طبقا لها وركوب المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا  
العمل هي قرارات فردية واستقلالية . وثمة شروط معينة تنقص ضعف حصانة  
الشخص وتزيد الاستقلال الذاتى الضرورى له . وتتصل هذه الشروط كلها بمثل  
هذه التغيرات فى الوعى الفردى وفى أسلوب حياته ، كما تنجم فى معنى أعظم للهوية  
الذاتية وللاستقلال فى الرأى . ويبدو أن للشروط التالية أهمية أساسية :

١ - إعادة الفحص النقدي للقيم وأدوار الحياة التى فرضت علينا إبان عملية  
التربية والتعليم ، مع هدف نهائى هو بناء اتجاه للحياة جديد مترابط أساسى .  
وبدون مجهود من هذا القبيل نقضى ومحقق لتكامل الذات قد يفتقر العالم لقوة الاقناع  
الاخلاقى . وسيجد فى وعيه ، مثله مثل أى فرد ، معايير متنوعة توجه سلوكه ،  
ولكنه من حيث كونه عالما سيدرك ، بخلاف الافراد الآخرين ، أن هذه المعايير تفتقر  
الى الوحدة والاسس العقلية معا ، وأنها تنبع من منابع مختلفة وتشكل قوى لحياته  
الشعورية غريبة وغير جذرية بالثقة . مثل هذا التآكل للوعى الاخلاقى الاصيل يفضى  
إلى سلوك براجماتى أو هروبى . وبدون نظرة شمولية للحياة *Weltanschauung*  
مقبولة وجديدة وحرّة ، تعد الاساس لمعنى ثابت للاتجاه ، سيصعب إمكان قيام  
استعداد أخلاقى تابع من الذات بكل ما يصحبه من مخاطر .

٢ - التحرر من الحاجات الكاذبة الزائفة ، مثل : الخاصة بالسلطة ، والثروة ،  
وسلع الاستهلاك غير الضرورية ، والألقاب والمقامات التى لا معنى لها ، أو الصداقات  
الزائفة . والطابع المميز لكل هذه الحاجات أنها لا تبذل الوقت وتولد القلق المستديم  
فقط وإنما تجعل الشخص أيضا متواكلا وضعيف الحصانة . والحرية المتضمنة فى  
فعل أخلاقى تنطوى على استعداد لتقبل الضربات من السلطة ضد ما وجه اليه الفعل  
الاخلاقى . ولما كان اشباع معظم الحاجات الزائفة يعتمد على السلطات القسائية فإن  
الانتقام يغدو سهلا ، ويلوح الثمن الذى يتقاضى للحرية مرتفعا ، ويبلغ التردد فى دفع  
هذا الثمن حد التخلي عن الحرية . لقد كان «سبينوزا» أعظم أهل زمانه تنعما بالحرية ،  
لأنه كان يكسب قوته من تنظيف البصريات الى جانب أشياء أخرى . ان العلماء الذين  
يتوقون الى الارتقاء وارتفاع المكانة وانتهاز الفرص للنفوذ السياسى والاحتفاظ بكل  
الوسائل يكل صداقاتهم الخداعة لا قبل لهم بأن يكونوا أحرارا للوفاء بتمهدهاتهم  
الاخلاقية .

٣ - رفع شأن النشاط العلمى المهنى الى مستوى البراكسيس . ويستبدل  
بالحاجات الزائفة الحاجات الأصيلة حيث تكون ضرورية للمء حياة تخلو من الروح .  
وبالقدر الذى يمارس فيه العالم بحثه «كفاية فى ذاته» يتاح له أن يحقق أفضل مطالبه  
الابداعية وقدراته الفعالة ، ويغدو قادرا على تنظيم حياته بطريقة بسيطة صحية تزوده  
بأقصى درجة من الاعتماد على النفس اللازم له ومن الاستقلال الذاتى الاخلاقى .

وثمة شروط أخرى أيضا جديرة بالتنويه في من قبيل الاهتمامات العلمية والثقافية الواسعة ، والانفتاح على التغير ، والوعي بالحاجات الاجتماعية الجديدة ، والتفوق المهني . وهي ليست شروطا لازمة ولا كافية . فالحرية المتضمنة في الفعل الأخلاقي لا يمكن أن تحتكما هذه الشروط . وإنما تخليق هذه الشروط حالة شخصية تتناقض فيها بنسبة ملحوظة العقبات التي تقف حائلا دون تحقيق الذات لارادتها .

## - ٦ -

وبالإضافة الى مسئوليات العلماء كمنتجين للمعرفة وللمطرائق التقنية تقع على كواهلهم مسئولية خاصة كربين لأولئك الذين سيدربون الاجيال القادمة .

فالمعلمون الذين لا يستطيعون غير أن ينقلوا المعلومات ويستخدموا الوسائل المألوفة قد يصبح عددهم زائدا عن الحساجة في مستقبل غير بعيد ، وفي الوسع الاستعاضة عنهم جملة بالآت التعليم . ومن جهة أخرى يحتاج الطلاب دائما الى احتكاك حي بمعلم يمكنه أن يقوم بأشياء معينة لا تقدر على القيام بها بالمرآة أية آلة ، لأنهم ليسوا خامة روتينية ، ولا يمكن أن يصيبوا في قالب برنامج ما . من بين هذه الاشياء :

١ - وضع نماذج المعلومات في سياقات أوسع لاطهار الارتباطات والوسائط والمكان في التاريخ ، والشروط الاجتماعية والنفسانية التي نشأت في كنفها المعرفة ، والمنهج العلمي الذي تولدت عنه ، والمتضمنات لبحث المستقبل وللممارسة الاجتماعية . هذا السياق الأوسع الذي يزود به المعلم طلابه ليس مصنوعا مسبقا ، وإنما يمكن بناؤه في اتجاهات متنوعة ، وهو ينشأ عن حوار بين الجانبين في عملية التعليم ، وهو لا يعتمد على اتساع معرفة الأستاذ فقط بل يعتمد أيضا على الاهتمامات النوعية للطلاب .

٢ - التفسير الابداعي للمعرفة ، حيث ينبغي أن يستبدل بمجرد نقل المعرفة ، وخاصة عندما تعرض في كامل صورتها المعقدة ، محاولة تزويد الاشكال الرمزية التي يعبر بها عن المعرفة بمعنى جديد ، في ضوء نظرة نوعية شخصية فلسفية .

٣ - ايقظ الشغف الفكري للطلاب ، وتوسيع أفقهم الروحي ، وتطوير قدراتهم على التفكير النقدي . ومن أجل تربية نمط من الشباب المثقف المبدع المتفتح الذهن الذي سيكون له احساس بالتاريخ ينبغي للأستاذ الممتاز أن يعلمهم أن يتناولوا الواقع لا بأن يكتبوا بالقاء السؤال : « كيف ؟ » ، و : « ما هي أمثل الوسائل لابقاء سير الاشياء ؟ » ، بل أيضا بالقاء أسئلة من قبيل « لم ؟ » و « لأي غرض ؟ » ، « وما هي وجوه التصور الأساسية وكيف يقضى عليها ؟ » .

ولكى يكون العالم مرييا ناجحا ينبغي أن تكون له شخصية ، بحيث لا يكون رجل معرفة وثقافة فقط ، وإنما يكون كذلك رجل تكامل وخلق ، أعد نفسه إعدادا فمالا لتحقيق معتقداته . ويصفح الطلاب اذا كانت المعتقدات طوبائية هسيئا ما أو

واقعية للغاية • ولكنهم لا يسعهم أن يصفحوا ، وهم على حق في ذلك ، عن التناقض بين الفكر والكلمة والفعل .

ويترتب على ذلك إذن أن الاستاذ الذى يريد أن يمشى طبقا للمثل الأعلى المتضمن فى مهنته سييسط نفساطه الى ما وراء حدود الدائرة الاكاديمية الضيقة نسبيا ويغدو شخصية فعالة فى المجتمع العلمى • ولا يقتضى هذا بالضرورة الانطواء على انتماء سياسى بالمعنى الدقيق للكلمة ، اذ يمكن أن يشمل مبادرة عملية تفضى الى اصلاح فكرى وأخلاقي للمجتمع ، وتسهم فى خلق ثقافة جديدة ، أكثر ملاءمة لمتطلبات الزمن •

هذا النشاط العام هو حلقة هامة فى عملية الوساطة بين الذهن النظرى والبراكسيس الفعلية فى المجتمع • ان جهدا ضخما جماعيا لأفضل الأذهان فى أمة مطلوب لتحويل الواقع الاجتماعى القائم الى مستوى امكانيته التاريخية المثل •

بدون مجهود من هذا القبيل ، أو فى حالة نزعة الهروب اللامستولة أو نزعة الامتنال لعلائها الرواد ، تكاد أمة أو طبقة أن تفقد مستواها الأمثل ، وتنتهى الى حالة من الركود والانحدار •

وللعالم المعلم فرصة التأثير على مجرى أهم العمليات الاجتماعية بمعنى مزدوج : من جانب بفعله المباشر ، ومن جانب آخر ، بطريقة غير مباشرة ، بتربية أولئك الذين سيفيرون العالم • ويتضمن هذا فى آن واحد تغيير الشروط الخارجية وتغيير الذات •

هذا النوع من النشاط يشكل انقطاعا فى سلسلة الحتمية التاريخية العمياء ، ويستحق بكل ما فى الكلمة من معنى أن يوصف بأنه بمثابة « صنع التاريخ » أو باختصار بمثابة « براكسيس » •

# المؤتمرات الدوليّة القادمة

١٩٧٤

أوروبا      الاتحاد الدولي للمربين الخاص بالسلام العالمي :  
المؤتمر العالمي الأول •

International Secretariat, Huntsville, 35762 (United States).

بوخارست      الاتحاد الدولي لدراسات جنوب شرقي أوروبا :  
المؤتمر الثالث •

9, I.C. Frimu, Bucharest (Rumania).

من ١٨ - ٢٤ أبريل • اتحاد السكان الأمريكي • الاجتماع السنوي

نيويورك

Mr. J.W. Bracket, PAA, Box 14182, Benjamin Franklin Station, Washington, D.C. 20044.  
(United States).

• ٢٧ يونيو      منظمة العمل الدولية • المؤتمر الدولي للعمل • الدورة التاسعة والخمسون  
جنيف

ILO, 1211, Geneva 22 (Switzerland).

يولي      المجلس الدولي للمشؤون الاجتماعية • المؤتمر الدولي السابع عشر •  
نيويورك

Mr. Kate Katziki, ICSW, 345 East 46th Street, New York, N.Y. 10017 (United States).

أغسطس      الاتحاد الدولي للتاريخ الاقتصادي • المؤتمر السادس •  
كوبنهاجن

Professor Dr. J.F. Bergier, Rindemarkt 6, 8001, Zurich (Switzerland).

١٨ - ٢٤ أغسطس      الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمي الثامن لعلم الاجتماع  
كوبنهاجن تورنتو ( الموضوع : علم الاجتماع والثورة في المجتمعات الراحنة )

ISA, Via Daverio 7, 20/22, Milan (Italy).

١٩ - ٢٠ أغسطس      إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة :  
المؤتمر العالمي الثالث للسكان •  
نيويورك

Department of Economic and Social Affairs, United Nations, New York, N.Y. 10017  
(United States).

٢٦ - ٢٩ أغسطس الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع: الاجتماع السنوي \*  
مونتريال

ASA 1001, Connecticut Avenue, N.W., Washington, D.C., 20036 (United States).

مجمع الجمعية الاقتصاد القياسي : المؤتمر الدولي الثالث

الولايات المتحدة

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 (United States).

١٩٧٥ المجلس الدولي للشؤون الاجتماعية : حلقة دراسية اقليمية عن آسيا وغربي المحيط الهادى \*

منج كنج

Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee, ICSW, Ann Black Red Cross Building Harcourt Road, P.O. Box 474, Hong Kong.

٢٥ - ٢٨

أغسطس الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي

سان فرانسيسكو و

ASA 1001, Connecticut Avenue, N.W., Washington, D.C. 20036 (United States).

ديسمبر

الولايات المتحدة الجمعية الاقتصاد القياسي : مؤتمر \*

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 (United States).

١٩٧٦

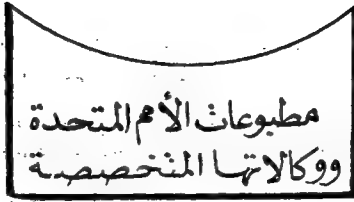
فرنسا : الاتحاد الدولي لعلم النفس : المؤتمر الدولي الحادى والمشرون \*

Professor E. Jacobson, Secretary-General, Department of Psychology, Michigan State University, East Lansing, Michigan (United States).

ديسمبر

الولايات المتحدة : الجمعية الاقتصاد القياسي : مؤتمر \*

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 (United States).



• التخطيط

Economic Commission for Asia and the Far East : Unified Development Planning with particular reference to social components of development in the ECAFE region.

فبراير ١٩٧٢ ، ٢٦ ص (UN/E/CN. 11/1028).

طريقة لتوحيد التخطيط • تطبيقات في محيط آسيوى • بيانات أساسية للتخطيط الموحد على المستوى القومى الوارد فى الملحق •

Report of the Seminar on Approaches to the Regional Harmonization of Development Plans, Addis Ababa, 29 November to 3 December 1971.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ١٧ ص (UN/E/CN. 14/551).

نظمت هذه الحلقة التعليمية اللجنة الاقتصادية الأفريقية وأشارت الى تلك القارة • حالة المشكلة • دور الخدمة المركزية للمعلومات الإحصائية والتحليل الاقتصادى لأفريقيا • التوحيد القياسى للتعريفات • والتوحيد القياسى للفرقات التى تشملها الخطط •

### التنمية الاقتصادية ( وتشمل التنمية عامة ) ، والتحول الصناعى

The International Development Strategy in Action. The role of UNCTAD.

اختبار ظروف التقدم الحديثة والاتجاهات الطويلة المدى فى التجارة العالمية ، والتنمية وفقا لأهداف ووظائف UNCTAD • فبراير ١٩٧٢ ، ٩٩ ص (UN/TD/99). صيغت هذه الوثيقة للاجتماع الذى عقده مؤتمر الأمم المتحدة عن التجارة والتنمية فى سبوتياجو (تشيل) سنة ١٩٧٢ • المسائل النقدية والمالية • التجارة فى السلع الأساسية • المواد المصنعة المتبادل مع الدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية • الأشياء غير المنظورة • العمل على مساعدة الدول النامية الأقل تنمعا • التعاون بين الدول المتقدمة •

The role of multilateral development institutions in the promotion and financing of economic integration among developing countries.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٢٧ ص (UN/TD/114).

النتائج المتصلة بواسطة عمل الهيئات المتعددة الجوانب لتوجيه الموارد المالية والفنية لمساعدة البرامج الإقليمية والفرعية التى تغطي اتساع التجارة والتعاون الاقتصادى والتكامل الإقليمى بين الدول النامية •

**Financial resources for development. Economic growth and development financing : issues, policies and proposals.**

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٢٦ ص. (UN/TD/118).

تمتمة الموارد الداخلية • الاتجاهات الدولية • مشكلة الدين • شروط وطرق المساعدة • التمويل التمويضي والإجراءات المالية الإضافية •

**Mobilization of resources for development.**

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٧١ ص. (UN/TD/118/Supp. 1).

(أهـ - ما أحرزته الدول النامية من تقدم بين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٧٠ في زيادة الموارد التي عيشت واستخدام هذه الموارد • التفريغ في قطاعات الزراعة والصناعة • الجهود المبذولة للوصول الى استقرار الأسعار •

**External development finance.**

يناير ١٩٧٢ ، ٤٠ ص. (UN/TD/118/Supp. 2).

(قـ - ما) صافي المساعدة الإجمالية من الموارد المالية للدول النامية ( وتشمل المعونة ) • شروط المساعدات المالية • شروط المعونة • التوزيع الجغرافي للمساعدة الضمنية الثنائية والمتعددة الأطراف •

**Trade prospects and capital needs of developing countries during the Second United Nations Development Decade.**

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٧٥ ص. (UN/TD/118/Supp. 3).

(أهـ - قـم) - تفويم للتنبؤات التي وضعت للعقد الأول للتنمية الأمم المتحدة • التنبؤات المنقحة عن العقد الثاني (معدلات النمو المقترحة ، الصادرات والواردات ، المدرجات والاستثمارات ، مطالب رأس المال ) •

**Financial resources for development : the link.**

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ١٨ ص. (UN/TD/Supp. 4).

الربط يعني وضع الاقتراح موضع التجربة ، لربط تمويل التنمية بخلف سيولات دولية جديدة • خلفية المسألة • تصويغ الربط • الملحقات عبارة عن مقترحات من البلاغات الرسمية التي نشرت في آخر اجتماعات وزراء مالية الكومنولث في عامي سنة ١٩٧٠ و ١٩٧١ •

**The outflow of financial resources from developing countries.**

ديسمبر ١٩٧١ ، ١٣ ص. (UN/TD/118/Supp.).

حجم التدفقات لكل ، الناتجة من الموارد المالية للدول النامية • العنصران الأساسيان في هذه التدفقات : فائدة الدين الأهل ، ومدفوعات استهلاك الدين ، والمدفوعات التي تمثل الأرباح الناتجة من الاستثمار الخاص المباشر •

**Debt problems of developing countries.**

ديسمبر ١٩٧١ ، ٣٧ ص. (UN/TD/118/Supp. 6).

الهيكل الاقتصادي الذي يجري في نطاقه تفويم مشكلات حصة الدين • السياسة التي يجب اتباعها في الدول المعيرة : مؤشرات عبء حصة الدين : الاتجاهات القديمة وتوقعات المستقبل • الإجراءات التصحيحية (تعديل الحجم وطرق المعونة ، وإعادة المفاوضة بشأن الدين) • نحو معايير جديدة ، جوابت أساسية •

**Problems of commodity diversification in developing countries.**

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٨ ص (UN/TD). ١١٩ = مشكلات تنويع السلع في البلاد النامية •

United Nations Conference on Trade and Development : adjustment assistance measures.  
(UN/TD/121). ديسمبر سنة ١٩٧١

طبيعة المشكلة وحجمها • نتائج غير مباشرة لزيادة الصادرات من البلاد النامية للعمل في دول متقدمة مينة مع رواج اقتصادي •

Impact of present international monetary situation on world trade and development, especially of the developing countries.

(UN/TD/140). يناير سنة ١٩٧٢ ، ص ٥٥

خلفية الأزمة • إجراءات التخلف عليها • مكانة الدول النامية في داخل النظام •

Paper on action in 1971 by organs of the United Nations and related agencies on matters relating to United Nations Development Programme.

(UN/DP/L/218). يناير سنة ١٩٧٢ ، ص ٢٨ •

وثيقة عمل في سنة ١٩٧١ أصدرها أعضاء الأمم المتحدة والوكالات المتصلة بها بشأن الأمور المتعلقة ببرامج التنمية التابعة للأمم المتحدة •

Algeria : UNDP (United Nations Development Programme) : assistance requested by the Government of Algeria for the period 1972-1973.

موجز للأولويات الراحنة وأغراض التنمية العامة - وصف للمطالب القطاعية لكي يغطيها برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة : الانتاج الزراعي ، الغابات ، صيد الأسماك ، التسويق البستاني ، الصناعة ، التجارة الخارجية ، الأساس ، التخطيط ، النقل ، الخ.

Bulgaria : UNDP assistance requested by the Government of Bulgaria for the period 1972-1976.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ص ٦٧ (UN/DP/GC/Bull./R.1)

المساعدة التي طلبتها حكومة بلغاريا من برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ •

Ghana UNDP assistance requested by the Government of Ghana for the period 1972-1976.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ص ١٠٩ (UN/DP/GC/Ghu./R.1) •

المساعدة التي طلبتها حكومة غانا من برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ •

Hungary : UNDP assistance requested by the Government of Hungary for the period of 1972-1976.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ص ٦٠ (UN/DP/GC/Hun./R. 1)

المساعدة التي طلبتها حكومة هنغاريا من برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ •

Consideration and approval of country programmes : Venezuela, 1972-1974.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ص ١٦١ (UN/DP/GC/ZAR./R. 1) •

بحث البرامج الريفية ، في فنزويلا والموافقة عليها •

Zaire : UNDP assistance requested by the Government of Zaire for the period of 1972-1976.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ص ٧٣ (UN/DP/GC/Zar./R. 1) •

المساعدة التي طلبتها حكومة زائير من برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ •



## Report of the Asian Industrial Development Council.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٤٧ ص. (UN/E/CN. 11/1027).

(قم) توقعات التحول الصناعي على المدى الطويل . العمل على تنمية الاستثمار • تنمية بعض الصناعات : الحديد والصلب، الهندسة ، المنتجات البتروكيمياويات، منتجات الغابات ، البحث في الأساس الصناعي •

Economic Commission for Asia and the Far East : Evaluation during the Second Development Decade.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ١٣ ص. (UN/E/CN. 11/L. 318).

موقف المشكلة في آسيا والشرق الأقصى • مقاييس المؤشرات • دراسات متوسطة •

Studies on selected development problems in various countries in the Middle East : 19/1.

سنة ١٩٧١ ، ١٢٦ ص. (UN/ST/UNESOB/8).

(أه - قم) تخطيط التنمية واغراضه الاجتماعية في سوريا • توزيع السكان ، والتدين في دول الشرق الأوسط • تنسيق الخطط والتعاون بين الدول للتنمية الصناعية والريفية •

## التعاون الاقتصادي

Report of the East African Expert Meeting on Economic Co-operation (Addis Ababa, 1-10 November 1971).

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٣١ ص. (UN/E/CN. 14/550).

اختيار مشروعات دول عدة ، وإنشاء أولويات بينها •

## المؤلف الاقتصادي

Economic survey of Europe in 1970. Part II.

سنة ١٩٧١ ، ١٥٠ ص. (UN/E/ECE/777/Add. 1).

(أه - قم) تقسم الموقف في غربي أوروبا وشرقيها (بما في ذلك الاتحاد السوفيتي) وجنوبها •

## الموارد الطبيعية والمواد النادرة

Committee on Natural Resources (Report on the second session, 31 January — 11 February 1972).

سنة ١٩٧٢ ، ٣٦ ص. (UN/E/5097).

المصادرة الدائمة للدول النامية على مواردها الطبيعية • توصية تمهيدية قدمتها الجزائر وفنزويلا . المؤتمر الدولي للأمم المتحدة عن الموارد المائية • توصية تمهيدية قدمها الاتحاد السوفيتي •

## الزراعة ، السلع الأساسية

FAO Documentation. Current index (cumulative, January to December 1971), 2 vols.

روما سنة ١٩٧٢ ، المجلد الأول ٦٠٧ ص ، المجلد الثامن ٥٠٠ ص. منظمة الطعام والزراعة •

نشرات ووثائق منظمة الطعام والزراعة • موجزات تحليلية • فهرس باسم المؤلف والموضوع • الفهرس التجميعي لسنة ١٩٧١ ، ويضم جميع قوائم الأعداد الشهرية من ١ الى ١١ . بالإضافة الى معلومات عن الوثائق والطبعات التي نشرتها منظمة الطعام والزراعة في ديسمبر سنة ١٩٧١ ، وتنطى مجموعة مكونة من ٤٤٥ عنوانا •

FAO Documentation. Current bibliography, June 1972.

• تزويد منظمة الطعام والزراعة بالوثائق • قوائم الكتب الحالية - ٣٣ ص ، سنة ١٩٧٢

Trends in commodity trade in the 1960's and prospects for the 1970's.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٤٩ ص (UN/TD/113/Supp. 2).

• (أ) معلومات استرجاعية عن العقد السابع من هذا القرن • مقارنة الحقائق بالتنبؤات السابقة • تقلبات أسعار السلع الأساسية • التنبؤات المتصلة بتصدير المواد الخام من الدول النامية خلال العقد الثامن الحالي •

Commodity problems and policies : access to markets.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٧٣ ص ، تتضمن فهرسا (UN/TD/115).

الهدف الأساسي من هذا التقرير عرض المناقشات لصالح تحرير التجارة • موجز الأشكال ، والحجج ونتائج إجراءات الحماية المطبقة على تجارة السلع الأساسية •

United Nations Conference on Trade and Development. The Generalized System of Preferences.

نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، ٢٥ ص - (UN/TD/124).

الخصائص الرئيسية للمنظمات التفضيلية التي حققتها مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية • معلومات محددة عن المبادلات التجارية التي تحدث في هيكل النظام •

Private foreign investment in its relationship to development.

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ٢٤ ص - (UN/TD/134).

المشكلات الرئيسية في هذا المجال ، كيف ينظر إليها في الدول المتقدمة والدول النامية •

Review of maritime transport, 1971.

سنة ١٩٧٠ ، ٥١ ص (UN/TD/B/C/4/82).

• (أ) - (م) معلومات إحصائية عن التقدم الدولي في حركات السفن ، وتعليقات فيما يتعلق بالعوامل المؤثرة في التجارة والشحن في البلاد النامية •

Review of maritime transport, 1971. Consideration of the current and long-term trends of shipping problems in the light of the terms of reference of the Committee on shipping and the relevant resolutions of UNCTAD.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٢٥ ص - (UN/TD/B/C/4/92).

• (أ) - (م) حجم تجارة الشحن الدولية ، وتقدم التجارة البحرية المالية • إنتاجيتها • اتجاهات في أسعار السفن الجديدة والمستعملة • أسواق الشحن •

Report of the Symposium on International Trade for East and Central African States, Lusaka. 13-18 December 1971.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ١٩ ص ، ويحتوي على ملحقات • (UN/E/CN/4/552).

الأنظمة التأسيسية ، الحوافز والمخاطر ، السياسة المالية ، إجراءات لبنى التجارة الإقليمية الثانوية •

الموقف الاجتماعي : المجتمع ، المعيشة وظروف العمل ، والتوظيف ، السياسة الاجتماعية

1970 report on the world social situation.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٢٣١ ص - (UN/E/CN. 5/456/Rev. 1).

• (أ) - (م) التغيرات التي حدثت في مختلف أقاليم العالم • تحليل شامل • دراسات على مستوى المعيشة ، وكذلك في السياسات المتبعة لتحسين الأحوال الاجتماعية •

## التقدم الاجتماعي :

Economic Commission for Asia and the Far East.

تقرير الحزب العامل عن التقدم الاجتماعي ، من ٨ الى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٧٠ ، وتقرير مجموعة الخبراء عن التقدم الاجتماعي من ٣٠ نوفمبر الى ٥ ديسمبر سنة ١٩٧٠ .  
(UN/E/CN. 11/990) ٥١ ص .

European Social Development Programme.

(UN/ST/SOA/ESDP/SWR/Rep. 3). ٢٣ ص .

الاجتماع الثالث لمراسل الصحف في روتردام من ٦ الى ٩ يوتيه ١٩٧١ .

Social development in Asia : retrospect and prospect.

(UN/E/CN. 11/988). ٧٠ ص .

(أهـ - قم) التقدم الاجتماعي ، وجوانب أخرى من التقدم . التغيرات في سياسة الأمم المتحدة فيما يتعلق بالتقدم الاجتماعي في هذا الاقليم من العالم ، وتوقعات التقدم الاجتماعي في هذا الاقليم .

## الإصلاح الزراعي

Report of the Special Committee on Agrarian Reform.

١٩٧٢ ، ٤١ ص - منظمة الطعام والزراعة) ينفذ هذا التقرير ثلاثة اجتماعات (نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، وفبراير سنة ١٩٧١ ، وأغسطس سنة ١٩٧١ ) للجنة الخاصة عن الإصلاح الزراعي . النتائج المتحصلة ابان المقعد الأول للتنمية والمقبات التي ووجهت . العطلة المتبناة للمعد الثاني من التنمية . توصيات للمؤسسات الدولية .

## القوات العربية والتقدم الاقتصادي والاجتماعي

Economic and social consequences of the arms race and of military expenditures.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٥١ ص : (UN/A/3469/Rev. 1)

(أهـ - قم) نتائج السياق على التسلسل والاتفاق العسكري على المستوى القومي . النتائج الدولية ، والملاحق ، هما القراران ٢٨٣١ (٧٤) ، ٣٦٦٧ (٢٥) اللذان تبتنهما الجمعية العمومية في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ . وميزانية الحرب في دول مختلفة مقارنة بقطاعات أخرى من الميزانية .

## المشكلات الاجتماعية والسياسة الاجتماعية

Attack on mass poverty and unemployment.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٢١ ص . (UN/E/AC. 54/L. 50) خطة التنمية لمحاربة الفقر الجماعي والبطالة .

قياس الفقر والبطالة .

## الخدمات الاجتماعية ، ظروف العمل ، سياسة التوظيف ، الاتعادات التجارية

The cost of social security.

سنة ١٩٧٢ ، ٤٢٩ ص (منظمة العمل الدولية)

(أهـ - قم) أحدث الاحصاءات عن تكاليف الأمن الاجتماعي للفترة من ١٩٦٤ الى ١٩٦٦ . وتتصل المعلومات بستين دولة . توزيع الكميات بين الأنواع الرئيسية للأمن القومي في كل دولة . التأمين القومي ، الحصص العائلية ، ترتيبات خاصة للموظفين المأميين ، الخدمات الصحية العامة ، والمساعدات العامة ، وحصص ضحايا الحرب ، مقارنة دولية للبيانات ، تحليل للاتجاهات في نفقات الأمن الاجتماعي في دول مختلفة طوال الفترة المعنية . تدليل بنتائج الدراسة التمهيدية لاجال تطبيق الأمن الاجتماعي .

#### Minimum age for admission to employment.

سنة ١٩٧٢ ، ٩٧ ص (منظمة العمل الدولية)  
(أه - فم) اجابات واردة من ٦٩ دولة من الأعضاء على استفتاء منظمة العمل الدولية . اجابات  
مجمعة للاجتماع السابع والخمسين لمؤتمر المجلس الدولي (جنيف ١٩٧٢) .

#### Aspects of international trade and assistance relating to the expansion of employment in the developing countries.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٤٢ ص . (UN/E/AC. 54/L. 45)  
دور التجارة الخارجية . مميزاتها ومخاطرها حيث نظى العمالة في الدول النامية بالاهتمام . دور  
المونة الخارجية ومشكلات المصاد .

#### Fiscal measures for employment promotion in developing countries.

سنة ١٩٧٢ ، ٣٤٢ ص (منظمة العمل الدولية)  
يضم هذا المجلد مجموعة دراسات ومقترحات عملية . السياسة المالية والتوظيف . طريقة توجيه  
القرارات التي يتخذها القطاع الخاص والعام ازاء انواع من الانتاج ، والطرق الفنية التي تحفز على العمل .

#### Collective bargaining and the challenge of new technology.

سنة ١٩٧٢ ، ٧١ ص (منظمة العمل الدولية) (أه - قم)  
الاحتياطات الموضوعية في العقود الجماعية عن المشكلات المرتبطة بالتغير التكنولوجي . ضمان العمل .  
ضمان الدخل . تطوير المهارات . تفصيلات الأمثلة المأخوذة عن الدول الآتية : كندا ، فرنسا ، جمهورية  
المانيا الفدرالية . بريطانيا العظمى ، الولايات المتحدة .

#### المسائل القانونية وحقوق الانسان

##### القانون الدولي .

Report of the International Law Commission on the work of its 23rd session, 26 April to 30 July 1971.

تقرير لجنة القانون الدولي عن عملها في دور انعقادها الثالث والعشرين . (UN/A/8410/Rev. 1).  
مارس سنة ١٩٧٢ ، ١٥٥ ص

Yearbook of the International Law Commission, 1971, vol. 1.

(UN/A/CN. 4/SERA/1971). ٣٩٧ ص

خلاصة تقارير الانعقاد الثالث والعشرين للجنة القانون الدولي ، من ٢٦ أبريل الى ٣٠ يولية سنة  
١٩٧١ وقد شمل عملها بنوع خاص العلاقات بين الدول والمنظمات الدولية ، وتنامي الدول ، ومسؤولية الدول .

#### حقوق الانسان والتمييز العنصري

Elimination of racial discrimination. Study concerning the question of apartheid from the point of view of international penal law.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٧٤ ص (UN/E/CN. 4/1075).

وجهات نظر مذاهب مختلفة . تحليل لغمي الواسائل الدولية فيما يخص بالقانون الدولي .  
تطبيقات ومظاهر سياسة التمييز العنصري التي يمكن ان تعتبر بمثابة جرائم يشملها القانون الدولي .

Review of human rights programme and establishment of priorities : control and limitation of documentation.

(UN/A/CN. 4/1080).

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٧ ص . ويضمن ملاحق

عرض لبرنامج حقوق الانسان ، وتوطيد للاولويات: ضبط وتقييد للتوثيق .

**Question of the punishment of war criminals and of persons who have committed crimes against humanity.**

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٢٥ ص . ويشتمل على ملاحق . (UN/E/CN. 4/1082).  
اجابات من الحكومات التالية على مذكرة السكرتير العام في ١٠ يونية سنة ١٩٧١ فيما يخص القرار ٦ (٢٧) الذي يدين جرائم الحرب ، والجرائم التي ارتكبت ضد الانسانية في الوقت الحاضر نتيجة للحروب العدوانية والاحتلال العسكري ، ونتيجة للاضطهاد العنصري والنزعة الاستعمارية : استراليا ، باربادوس البرازيل ، وبيلوروسيا السوفيتية وسيلان وتشيكوسلوفاكيا وفنلندة واليونان وجواتيمالا والمجر وايران وايطاليا وجامايكا واليابان وكينيا ومدغشقر ومالطة وموريشيوس ونورو وباكستان والفلبين ورومانيا وسنغافورة والصومال والسودان وسوريا واوكرانيا السوفيتية واتحاد الجمهوريات السوفيتية وجمهورية فينتام وزامبيا .

**Human rights and scientific and technological developments.**

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٢ ص . (UN/E/CN. 4/1083)  
الاجراء الذي اتخذه بناء على قرار ٢٤٥٠ (٢٢) الصادر من الجمعية العامة ، وقرار ١٠ (٢٧) الصادر من لجنة حقوق الانسان . اعداد توثيق اضافي فيما يتعلق بسرية الافراد وسلامة الدول وسيادتها اذا وجهت بتقدم في التسجيل وغيره من الطرق الفنية . التنسيق مع أنشطة الوكالات الأخرى التابعة للأمم المتحدة .

**Human rights and scientific and technological developments. The impact of scientific and technological developments on economic, social and cultural rights.**

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٣٠ ص . (UN/E/CN. 4/1084)  
خصص هذا التقرير لمراقبة الحق في مستوى مناسب من الطعام والملبس ملائم للصحة . ايجاد معايير دولية . التأثيرات الايجابية لتقديم الوسائل الفنية والعلمية على تيسر الانفتاح بالطعام والكساء ونوعيته .

**Study of equality in the administration of justice.**

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٢٧٠ ص . (UN/E/CN. 4/Sub. 2/296/Rev. 1)  
خلفية المسألة . نظرية المساواة في ادارة العدل . اسباب التمييز العنصري والطرق التي اتخذت لمحاربة النزعة العنصرية ، النتائج والتوصيات .

**Human rights in the administration of justice.**

ابريل سنة ١٩٧٢ ، ١٧ ص . (UN/E/AC. 57/5)  
(ق)م) شروط ملائمة للوسائل الدولية : الممارسة والمراقبة والنشرات .

**الوضع الاجتماعي للنساء**

**Report of the Inter-American Commission of Women.**

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٧٢ ص . (UN/E/CN. 6/558)  
طبعة وبرنامج هذه اللجنة . انشأتها من مارس سنة ١٩٧٠ الي ديسمبر سنة ١٩٧١ : القضاء على التمييز العنصري ضد النساء في التشريع في الأمريكتين ، أجر مكافئ للعمل ، وحقوق النساء السياسية بنوع خاص .

**Information concerning the status of women in Trust and non-self-governing territories.**

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٢٣ ص . (UN/E/CN.6/560)  
الناطق غير المستقلة : غينيا الجديدة ، وجزر المحيط الهادي ومناطق الوصاية الدولية التي أرسلت السلطات الادارية معلومات عنها ، الناطق التي تديرها المملكة المتحدة والبرتغال وروديسيا الجنوبية .

## الاستقلال

Implementation of United Nations resolutions relating to the right of peoples under colonial and alien domination to self-determination.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٦٦ ص . (UN/E/CN.4/1081)

ملخص لقرارات ذات طبيعة عامة أخلت بها وكالات مختلفة تابعة للأمم المتحدة تتعلق بحق الشعوب في تقرير مصيرها . جدول مذيّل للمناطق التي اتخذت الأمم المتحدة بشأنها قرارات حقيقية ، والتي قبلت الاستقلال أو شكلا آخر من الحكم الذاتي منذ قيام المنظمة . ملخص القرارات والأحكام الصادرة من منظمة العمل الدولية في المجالات نفسها .

Draft report of the Special Committee on the situation with regard to the implementation of the Declaration on the Granting of Independence to Colonial Countries and Peoples, covering its work during 1971.

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ٥٧ ص . (UN/A/AC.109/L.759)

تأسيس اللجنة الخاصة وتنظيمها وأنشطتها الحديثة . الموقف في مناطق مختلفة . الشعبية التي يجب منحها لأمم المتحدة على التخلص من الاستعمار . العلاقات مع منظمة الوحدة الأفريقية ومع المنظمات غير الحكومية . وتضم هذه الوثيقة أيضا تقارير عن إقليم بعد إقليم .

## الوصاية

Report of the United Nations visiting Mission to the Trust Territory of New Guinea, 1971.

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ١٤٩ ص . (UN/T/1728)

(قم - أ) . التقسيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تحقق . تطبيق برنامج التنمية . الانتاج والمواصلات والتبادل . العلاقات الدولية ودور الأمم المتحدة .

## التعليم . العلم

### التعليم

Paid educational leave.

١٩٧٢ ، ٥٨ ص .

(قم - أ) . الإعداد لانقضاء مؤتمر العمل الدولي في دورته الثامنة والخمسين في جنيف سنة ١٩٧٣ . أهداف الانصراف عن التعليم غير المجاني . ملخص التشريع والتطبيق في مختلف الدول . القرارات المالية . شكل وأمد الانصراف عن التعليم غير المجاني ، احتمالات عن العمل الدولي .

Study on the equality of access of girls and women to education in the context of rural development.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٦٩ ص . (UN/E/CN.6/566)

يعتمد هذا التقرير أساسا على خمس وأربعين إجابة مفصلة عن استفتاء . خصائص المناطق الريفية حجم وأسباب الهجرة الجماعية من الريف وبخاصة حيث يتصل الأمر بالنساء . إتاحة فرصة تعليم الفتيات والنساء في المناطق الريفية .

Food and nutrition education in the primary school.

سنة ١٩٧٢ ، ١٢٤ ص (منظمة الطعام والزراعة) .

المبادئ المتعلقة بالتدريس والتربية في شؤون التغذية . فن التدريس . إدخال تعليم التغذية في المدرسة الابتدائية . الوجبات المدرسية . تقويم نتائج هذا التدريس .

#### International Consultative Liaison Committee for Literacy.

لجنة الرابطة الدولية الاستشارية لمعرفة القراءة والكتابة  
الدورة الثالثة من ٢٧ الى ٣٠ مارس • التقرير النهائي ، ١٧ ص ، مع ملحقات •  
(UNESCO/ED/MD/24).

تنمية وسائل البرنامج العالي التجريبي لتعليم القراءة والكتابة • التوصية • المشتركون •

Training of Adult middle-level personnel, by Armin Greter.

(UNESCO/ED. 71/D. 62). ١٩٧٢. سنة ١٦٤ ص ،

(قم - أ) المجز في مجموع الموظفين من المستوى المتوسط يعوق التقدم الاقتصادي والاجتماعي • تعليم  
الكبار وتدريب أمثال هؤلاء الموظفين • تحديد موظفي المستوى المتوسط • دورهم في التنمية • احصاءات  
لوظفي المستوى المتوسط • نوع التعليم المطلوب في هذا المستوى في شتى القطاعات • فحص برامج التدريب  
الخاصة بموظفي المستوى المتوسط في مختلف الدول.

The school and continuing education : Four studies.

سنة ١٩٧٢ ، ٢٧٢ ص ، مطبوع (UNESCO/ED. 71/D. 64).

(قم - أ) مواصلة التعليم والنظام التعليمي في فرنسا (مع التأكيد على الجوانب الاجتماعية من  
المشكلات) • تأليف جوفر ديمازدييه • تأثير المدارس في مواصلة التعليم بالولايات المتحدة الأمريكية •  
تأليف مجموعة من الكتاب يكتبون أساسا من وجهة نظر علم النفس والتعليم • فكرة مواصلة التعليم  
في الإصلاح الراهن لنظم التعليم وتدريب المدرس ، تأليف جيزي كوتاسك • الموقف الراهن لمواصلة  
التعليم بفرنسا بين المهندسين ومدارس الهندسة ، تأليف بيير اللوار •

Planning the primary school curriculum in developing countries.

تأليف "هـ.و. هاوز" ٥١ ص ، سنة ١٩٧٢

(UNESCO : International Institute for Planning). (Fundamentals of educational planning, 17).

يبحث هذا الكتاب في تخطيط مقرر التدريس لا تخطيط تطوير المدرسة. وفقا للسكان والاقتصاد •  
مختلف مراحل اصلاح المقرر • تحديد الأغراض ، حقائق ضرورية • علاقات الجماعة • الإعداد للتجهيزات •  
تكيف المدرسين •

#### العلم ، التكنولوجيا

International aspects of technological innovation.

٩٢ ص ، سنة ١٩٧٢ (دراسات ووثائق خاصة بميمنة العلم ، ٢٦) . (UNESCO/NS/SPS/26).

٢٠ (م) المساعدات التي قسمت لاجتماع الخبراء . (UNESCO, 7-9 September 1970).

وجهاً نظر مختلفة بين التجديد التكنولوجي ونتائج الدولية • التنافس والتعاون • الخطة الدولية  
لتوصيل المعرفة • حالة الدول النامية • الموقف في الهند واليابان •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٣ / ١٩٧٤





# مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأقلام كتاب  
مختصين وأمانة دارسين .  
ويقيم بافتوارها ونشاطها في العربية نخبة متخصصة  
من الأمانة العربية ، تصبح إضافة إلى المكتبة العربية  
تأهم في إثراء الفكر العربي ، وتمكين من مدافعة  
البحث في قضايا العصر .

تصدر شهرياً

مجلة رسالة اليونسكو

يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

مستقبل التربية

فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

مجلة اليونسكو للمكتبات

مجلة (ديوجين)

مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

العلم والمجتمع

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغة  
الدولية ، وتصدر طبعا في العربية بالاتفاق مع اللجنة القومية  
للـيونسكو ، وبموافقة الشعب القومية العربية ، ووزارة  
الثقافة والإعلام بجمهورية مصر العربية .

الثن ١٠ قرش

المجلة الدولية

للعالم الاجتماعي

عشرة من العلماء...

يقدمون سيرهم الذاتية

العدد الخامس عشر - السنة الرابعة

أبريل - يونيو ١٩٧٤

تسلسل عن مجلة رسالة اليوسكو

عدد خاص

دكتور طه اليوسكو



١٢ ربيع الأول ١٣٩٤

٥ أبريل ١٩٧٤

٥ نيسان ١٩٧٤

### محتويات العدد

- ♦ أ.ب. الكين  
عميد الأنثروبولوجيين الأستراليين  
ترجمة : الدكتور محمد البوهري
- ♦ شيلزو فير تادو  
مفاهيم اقتصادية من البرازيل  
ترجمة : الدكتورة ففيلة محمد فتوح
- ♦ اوتو كلاينبرج  
تأملات عالم نفسي من أصل كندي  
ترجمة : الدكتورة انجيل بطرس سمعان
- ♦ ريتشه كونيغ  
صور يقدمها عالم اجتماع الماني على  
ترجمة : محمد كامل التحاس
- ♦ أ.و. ثوري  
الكفاح الفلسفي الطويل المدى لعالم نفسي سوفييتي  
ترجمة : الدكتور محمد فتحي الشنيطي
- ♦ ت.ه. هارشال  
ترجمة ذاتية لعالم اجتماع بريطاني  
ترجمة : فؤاد كامل
- ♦ علي م.زوي  
نشأة عالم أفريقي سياسي  
ترجمة : علي آدم
- ♦ م.ث. سرينيفاس  
رحلات عالم أنثروبولوجي هندي  
ترجمة : ابراهيم زكي خورشيد
- ♦ جان شومانسكي  
مناعب واجهت عالم اجتماع بولنديا  
ترجمة : الدكتور احمد عبد الرحيم أبو زيد
- ♦ جون فايزي  
مولد عالم اقتصاد بريطاني  
ترجمة : حسن عبد المنعم
- ♦ مجلة ترانساكشن : عشر سنوات من الصحافة  
التقنية للعلوم الاجتماعية  
بقلم : ارفنج لويس هورديفيتز
- ♦ ترجمة : الدكتور محمود اسماعيل محمد
- ♦ اللقطات العرجة في العملية الانبعاثية والدافع  
للبحث
- بقلم : س.م. مايني
- ب. نورديك
- ترجمة : الدكتور عبد الستار ابراهيم

## المجلة الدولية

## للعالوم الاجتماعية

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

١ شارع طلعت حرب بميدان التحرير

بالقاهرة

تليفون : ٢٢٤٠٧

رئيس التحرير : عبد المنعم الصاوي

د. مصطفى كل طلبه

د. السيد محمود الشنيطي

د. عبد الفتاح اسماعيل

عشمان نوريه

محمود فؤاد عمران

الإشراف الفني : عبد السلام الشريف

# أ.ب. إلكين

## عميد الأنثروبولوجيين الأستراليين

### سنوات الاعداد

حفل عام ١٩٠٩ ، الذي وافق اليوبيل الذهبي لنشر كتاب داروين « أصل الأنواع » ، بمنذقيات ومجاذلات حول موضوع التطور الانساني ، ومكانة الانسان في العالم الطبيعي . ولم يكن قد انقضى على ظهور كتابه « أصل الانسان » سوى ثمانية وثلاثين عاما ، وقد قدم هذا الكتاب مفهوما أثار كثيرا من التحدي والاضطراب في تلك الفترة . وتوفرت حول موضوع التطور الانساني مؤلفات جيدة ورخيصة . وقد اشتريت أنا في تلك السنة ، وأنا حينئذ في الثامنة عشرة من عمري ، نسخة من كتاب أصل الأنواع ، مازالت في حوزتي حتى الآن . ويتنبأ داروين في الصفحة الأخيرة تقريبا من كتابه بأنه : « سوف يلقي مزيدا من الضوء على أصل الانسان وتاريخه » . وقد كانت هذه العبارة التي أطلقها داروين في إطار الجدل الذي كرز دائرا في عام ١٩٠٩ هي أصل اهتمامي بالانثروبولوجيا . ثم ازداد هذا الاهتمام عمقا ورسوخا في نفسى خلال فترات دراستي لنيل الليسانس (من عام ١٩١٢ حتى ١٩١٤) بجامعة سيدني ، وخاصة من خلال المحاضرات التي استمعت إليها في الجيولوجيا ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع - حيث لم تكن هناك محاضرات في الانثروبولوجيا - وكذلك من خلال جماعات المناقشة الطلابية .

## ترجمة : الدكتور محمد الجوهري



استاذ مساعد علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة • حاصل على دكتوراه الفلسفة في علم الاجتماع عام ١٩٦٦ • ومن أهم مؤلفاته : الدراسة العلمية للمعادات والتقاليد الشعبية ، ١٩٧٠ • دراسات في التنمية الاجتماعية ، ١٩٧٣ • علم الاجتماع الصناعي ، ١٩٧٣ • دراسات في الفولكلور ، ١٩٧٢ • وقد نشر له حوالي عشرين مقالا ودراسة أساسية • في موضوعات علم الاجتماع والانثروبولوجيا • علاوة على مقالين باللمعة الألمانية نشر في ألمانيا ١٩٧١ و ١٩٧٢ • واشترك في ترجمة أربعة عشر كتابا في علم الاجتماع والانثروبولوجيا • كما ترجم مستقلا ثلاثة كتب في هذا الميدان • وأشرف على بحث الفولكلور الكبير ( ن ثلاث شبيب ) الذي أجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية •

ثم كنت أقرأ - بعيدا عن الجامعة - وخلال السنوات القليلة التي عقيت لخرجي كتبنا عن الانثروبولوجيا الفيزيكية والانثروبولوجيا الثقافية بقدر ما سمحت لي الفرصة • ثم كلفت في الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٢١ بالفاء محاضرات في احدى كليات اللاهوت عن : التطور ، وشجرة التطور البشري ، واتسدت ما قبل التاريخ ، والنظم البشرية • ثم القيت في الفترة من ١٩٢٣ حتى ١٩٢٥ - بوصفي مدرسا مساعدا بجامعة سيدني - أول محاضرة عن الانثروبولوجيا في أي جامعة أسترالية على الإطلاق • وكان كل برنامج محاضرات يتضمن عددا من المحاضرات عن سكان أستراليا الأصليين ، وهو ما يعد ولا شك دليلا على زيادة ميل إلى التخصص في هذا الموضوع • ثم كتبت في الفترة من ١٩٢١ حتى ١٩٢٣ رسالة الماجستير عن ديانة سكان أستراليا الأصليين • ثم ذهبت بعدها إلى لندن في أغسطس ١٩٢٥ ، حيث خصصت عامين من فترة إقامتي هناك لدراسة الانثروبولوجيا الفيزيكية ، إلى جانب الهدف الرئيسي من إقامتي وهو إعداد رسالة الدكتوراه عن الأساطير والشماعات الدينية عند سكان أستراليا الأصليين • وكنت قد استطعت حتى ذلك الحين الإطلاع على كل ما كتب تقريباً عن سكان أستراليا الأصليين ، واعتمد على ملاحظات ودراسات مباشرة • ولكن ترى ماذا كانت حصيلة هذه الكتابات ؟

## الدراسة الانثروبولوجية لسكان أستراليا الأصليين حتى عام ١٩٢٥

كانت الكتابات الانثروبولوجية - منذ عام ١٧٨٨ - عن هذا الموضوع تتكون أساسا من ملاحظات وتعليقات كتبها موظفون حكوميون ، ومستكشفون ، وأعضاء الارسلاليات الدينية ، والمستوطنون البيض ، والرحالة ، والعلماء الطبيعيون ، عندما كانت تسنح لهم الفرصة لذلك . وقد سجلوا كل ما شاهدوه أو فكروا فيه في بضع فقرات أو فصول متناثرة في عدد كبير من التقارير ، والمجلات ، والكتب ، وكذلك في الكتيبات والمقالات . وتتميز هذه المادة في معظمها بأنها سطحية وقاصرة ، ولكنها فلما كانت مضللة . وهي تحوى وصفا مباشرا لسلوك السكان الأصليين الذى أمكن ملاحظته في الاتصال الاول وفي ظروف هامشية دون تعقب كبير .

ثم بدأت في العقد الثامن من القرن الماضى الدراسة المنظمة لهؤلاء السكان ، وبدا الاتجاه العلمى واضحا بالفعل فى تلك الكتابات . وقد ساهم لوريمر فيسون Lorimer Fison - عندما كان فى فيجي - فى الدراسة المسحية التى قام بها لويس مورجان Lewis Morgan عن القرابة والزواج ، كما تأثر بنظريات مورجان فى التنظيم الاجتماعى . ولما وصل الى أستراليا فى عام ١٨٧١ بدأ بطبق استبذنة مورجان تطبيقا عمليا فى جمع المادة ، ويستعين كذلك بطريقة المراسلة . وقد أجاب هويت Howitt (كان يعمل قاضيا وجيولوجيا) على استبذنة فيسون بحماسة . وأخرجها بشكل منفرد أحيانا ، وبالتعاون معا فى أحيان أخرى ، مجموعة من المقالات عن التنظيم الاجتماعى للسكان الأصليين . كما أخرج كتاب Kamilaroi and Kurnai عام ١٨٨٠ ، وكان اسهامه الرئيسى نظريا وتفسيرا بالدرجة الاولى . ثم نشر هويت بعد هذا التاريخ ستة وعشرين عاما نتائج مراسلاته وبحوثه الشخصية فى كتاب « القبائل الوطنية فى جنوب شرق أستراليا » (الذى صدر عام ١٩٠٦) . وفى خلال تلك الفترة قام عدد قليل من هواة الدراسة الانثروبولوجية الأكفاء بدراسات منهجية للتنظيم الاجتماعى ، والشعائر الدينية ، واللغة عند القبائل التى اتصلوا بها على نحو أو آخر . ومن أبرز هؤلاء ماتيوز Mathews ، الذى نشر حتى عام ١٩١٠ حوالى مئتي مقال .

وكان هذا النوع من الدراسة الانثروبولوجية « المخططة » يهدف منذ النصف الثانى من القرن الماضى الى جمع المعلومات «قبل فوات الأوان» عن القبائل التى كانت تنقرض بسرعة ، وكانت ثقافتها آخذة فى الاندثار . فكان بذلك بحثا يودى وظيفه ملحة . ولكن رغم جودة وفائدة الدراسات التى قام بها فيسون وهويت ، وبعض الجامعين ( مثل برو سميث Brough Smith ، وتابلين G. Taplin ، و E.W. Curr ) ، وماتيوز ، وجون ماثيو Mathew وبعدهم ديزى بيتس Daisy Bates فقد كانت ذات طابع انتقادى أساسا . ذلك أنها لم تكن وصفا وتحليلا وتفسيرا للحياة القبلية الجارية . وقد تحقق هذا اللون من الدراسة فى عام ١٨٩٩ عندما نشر مبنسر Spencer وجيلين Gillin كتابهما « القبائل الوطنية



في وسط استراليا، الذي قدما فيه دراسة مباشرة لأحد مجتمعات الأرونتا المعاصرة .  
ثم نشرنا كتاب « القبائل الشمالية في وسط استراليا » عام ١٩٠٤ ، ونشر سينسر  
كتاب « القبائل الوطنية في الإقليم الشمالي » عام ١٩١٤ . وقد ركز الكتاب الأول  
اهتمامه على قبيلة الوارامونج Warramunga في حياتها العادية ، واهتم الكتاب الثاني  
بسكان جزر كاكادو وملفيل .

وقد بلغ عدد الكتب التي نشرت حتى عام ١٩٢٥ حوالي ثلاثين كتابا ، كلها  
يقوم على معلومات أنثروبولوجية استرالية مباشرة . ولم يكن أساسيا منها سوى  
سنة فقط ، هي تلك التي اشترك في تأليفها بالدوين سينسر وهويت ، وكتاب روث  
W.E. Roth عن « السكان الأصليين في شمال وغرب ووسط كوينزلاند » (الذي  
صدر عام ١٨٩٧ ) .

ويمكن أن نضيف الى هذه الكتب كتاب جون ماتيوي « اثنتان من القبائل المثلثة  
لكوينزلاند » الذي صدر عام ١٩١٠ ، وإن كان أقل شأنا من الكتب السابقة . هذا  
علاوة على عدد كبير من المقالات القيمة ، خاصة مقال الانثروبولوجي المتخصص براون  
A.R. Brown بعنوان « ثلاثة قبائل مثلية لاستراليا الغربية » الذي نشر عام  
١٩١٣ . وبالإضافة الى ذلك فقد عمل نحو عشرين أو أكثر من الباحثين من دول ما وراء  
البحار على الافادة من المادة المنشورة من قبل عن السكان الأصليين . وقد نشروا  
تحليلاتهم وتفسيراتهم فيما نشره من كتب عامة عن موضوعات : التنظيم الاجتماعي ،  
والزواج ، والدين ، وما الى ذلك من موضوعات .

تلك كانت باختصار صورة الوضع في أوائل العقد الثالث من هذا القرن .

## مرحلة جديدة

### البحث التخصصي

عند هذه المرحلة عقد المؤتمر العلمي الثاني للمحيط الهادي في ملبورن وسيدني  
في عام ١٩٢٣ . وقد اشتركت في هذا المؤتمر لالتقى بالأنثروبولوجيين القادمين من  
الخارج ، لأنني كنت أفكر في ذلك الوقت في الذهاب الى إنجلترا لمتابعة دراستي العليا .  
وقد قرر المؤتمر ضرورة انشاء قسم جامعي للأنثروبولوجيا في استراليا للقيام بأجراء  
البحوث اللازمة بشكل عام في استراليا وميلانيزيا ، ولتنظيم محاضرات للباحثين  
الميدانيين والموظفين الإداريين من بابوا وغينيا الجديدة ورجال الارساليات وطسلاي  
أقسام الليسانس . وقد اضطلع مجلس البحوث الاسترالي القومي بتنفيذ هذا القرار .  
فوافقت الحكومة الأسترالية على تقديم المنح السنوية الكافية لمدة خمس سنوات  
للاتفاق على القسم . كما وافقت جامعة سيدني على انشاء القسم بها . وقدمت  
مؤسسة روكفلر منحة سخية لمجلس البحوث للاتفاق على الدراسات الميدانية .

وكان رادكليف براون أول أستاذ بالقسم ( عمل في الفترة من ١٩٢٦ حتى ١٩٣١ ) ، كما كان رئيسا للجنة الأنثروبولوجيا بمجلس البحوث . وفي خلال عام واحد كان تسعة منا قد شرعوا في العمل الميداني في شمال أستراليا ، وفي بابوا ، ونيو غينيا ، وميلانيزيا . ثم عدت من لندن في سبتمبر عام ١٩٢٧ لأعمل بمجلس البحوث كأول زميل بحث . وأجريت في عام ١٩٢٧/١٩٢٨ مسحا أنثروبولوجيا لمدة عام لمنطقة كمبرلي في أقصى شمال الجزء الغربي من أستراليا . ثم أجريت في عام ١٩٣٠ مسحا مماثلا لبقية السكان الأصليين الموجودين في شمال غرب الجزء الجنوبي من أستراليا . وقد عملت في كلتا المنطقتين بين بعض الجماعات القبلية وبقايا محطات الإرساليات الدينية والرعاة ، وكذلك بعض القبائل التي لم تكن حياتها الاجتماعية والثقافية في ذلك الحين قد تعرضت كثيرا للاستعمار الأبيض .

وكانت هذه الدراسات المسحية تستهدف تحقيق غرضين : الأول أن أقف عن طريق الدراسة الكثيفة لكل جماعة أقالها ، مستقرة كانت أو بدوية ، على نسق القرابة عندها ، ونوع التنظيم المحلي والاجتماعي والطوطني الموجود عندها . وذلك من خلال تسجيل سلاسل الأسساب الفردية ، ومناقشة ما تكشف عنه سلاسل الانساب هذه ، ثم الانتقال بعد هذا الى ميدان الشعائر الدينية وأهمية السرية . الغرض الثاني أن اختار بعض المواضيع التي يمكن أن أوفد إليها باحثين ميدانيين آخرين يمكنهم فيها أداء عملهم بنجاح .

ولقد كانت المسافات التي يتحتم على أن أقطعها كبيرة جدا ، وقد استخدمت وسائل انتقال متنوعة ، ففي منطقة كمبرلي كنت أستخدم المراكب الشراعية على طول الساحل ، وكنت أقطع بعض المسافات سيرا على الأقدام ، أو راكبا سائقا الخيول ، والبغال ، والحمار ، واستخدمت وسائل النقل البخارية في قليل من الحالات . ولقد تعذر على استخدام وسائل النقل البخارية في جنوب أستراليا ، حيث توجد تلال وعملية عالية كان على أن أقتحمها وأتسلقها . ثم أن الرمال المتحركة كانت تغطي كل الطرق ، ولم أكن أطلب على هذه الصعوبة إلا بمساعدة السكان الأصليين المحليين . وكنت أتخبط وأنا أقطع السهول الشاسعة المفتوحة بقطع الأحجار الكبيرة المستديرة وأنا أسير ببطء شديد . كما كان على أن أشق طريقي بصعوبة في مناطق الغابات ، مستهديا بأقدام الأبل المتمايلة التي كانت تحمل البنزين عبر تلك المناطق .

إلا أن المواصلات الشاقة والعمل المركز في كل مكان كنت أتوقف فيه كان يؤتي

---

(\*) رادكليف براون : أنثروبولوجي انجليزي شهير . اشتغل بتدريس الأنثروبولوجيا والإشراف على الدراسات الأنثروبولوجية في عدة جامعات داخل إنجلترا وخارجها ، ومن بينها جامعة الاسكندرية . وبعد أحد مؤسسي المدرسة الوظيفية ، وإن لم تتخذ كتاباته شكل النظرية المدرسية في هذا الشأن . من مؤلفاته « سكان جزر الاندمان » وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٢ ، « والتنظيم الاجتماعي لبعض القبائل الأسترالية » ١٩٣١ ، « البناء والوظيفة في المجتمع البدائي » ١٩٥٢ ، و « نظام القرابة والنزواج عند النوير » ( المترجم ) .

ثماره الطيبة ، لا من حيث المادة الانثروبولوجية فحسب ، وانما كذلك فى التفاهم والتقدير المتبادل الذى كان يتحقق بسرعة فى كل مرة بين السكان الاصليين وبينى . ولم اكن اتعمد اقامة مثل هذه المشاعر ، فقد كنت أسلم بها ، وكانوا هم من نحييتهم يستجيبون على الفور . ولعل من علامات هذا التقدير المتبادل ذلك التعاون السريع الصبور معى فى عملية تسجيل سلاسل الأنساب مع تسجيل الافرع المختلفة تحت كل اسم فى كل سلسلة ، وكانوا على استعداد بعد اقامة أيام قليلة لأن يذقشوا معى الحياة السرية ويطلعونى - دون سؤال فى الغالب - على الشعائر والمواضع والرموز المقدسة . وتبدو أهمية هذه المساعدات بوجه خاص فى تلك الايام الخوالى التى لم يكن الباحث الميدانى فيها يدفع أجرا للاخباريين ، وربما لم يكن يفعل أكثر من أن يقتسم معهم قطما صغيرة من الطباقي . ويلاحظ فضلا عن هذا أن هذه الاستجابة السريعة كانت تصادفنى فى السنوات الاخيرة فى كل مرة قمت فيها ببحث ميدانى ، سواء فى المناطق الساحلية فى نيوسوث ويلز وفى كوينزلاند أو فى أرض أرنايم أو فى وسط استراليا . فقد كانت استجابتهم دائما استجابة الفهم والصدقة الوطنية . وأنا على يقين من أن تجربتي هذه ليست فريدة فى نوعها . وان كنت أدرك أننى كنت أمتنع بمزايا السن ، فقد كنت فى السادسة والثلاثين عندما نزلت الى الميدان لأول مرة ، وكان لى خبرتى السابقة ، اذ بدأت حياتى بالعمل موظفا فى مصرف ( فى الفترة من ١٩٠٨ حتى ١٩١٢ ) فى الوقت الذى كانت فيه علاقة موظفى المصارف - حتى الصغار منهم - مع عملاء المصرف فى الفروع الريفية الصغيرة علاقة شخصية ووثيقة . ثم أننى عملت ثانياً ككسبىس فى الأدغال ، جانبا من الفترة التى امتدت من عام ١٩١٥ حتى ١٩٢٥ ، مما أتاح لى أن أعرف كل فرد فى الاقليم الذى كنت أعمل فيه ، عندما كنت انتقل من بيت الى بيت ، وأحظى بثقة الجميع واحترامهم ، فقد كان ذلك كله بمثابة تدريب جيد لى .

٦ وفيما يلى بعض الشواهد على تلك الصداقة التى توطدت بينى وبين السكان الاصليين ، سواء بشكل ظاهر أو كامن . حدث فى عام ١٩٤٨ ، أثناء زيارتى الأولى لأحد معسكرات القسس الصغيرة فى وسط منطقة أرنايم فى الاقليم الشمالى ، أن شاهدت رجلا عجوزا يجلس فى كوخ من تلك الأكواخ المكسوة بلحاء الشجر . وقد سأله : « ماذا تفعل ؟ » فأجاب بأنه قد قارب على الانتهاء ، ولكنه يصدد أن يقيم شعيرة الماريان Marrian ، وهى نوع كبير من الطقوس يود أن يقيمه من أجل ابنه قبل أن يعاجله الموت . ولما أبديت له رغبتي فى أن أحضر أداء لهذه الشعيرة . أحابنى ببساطة : « سوف تحضر » . وبعد ذلك اللقاء بعام تلقيت منه رسالة عن طريق الرجل الأبيض الوحيد الموجود فى تلك المنطقة ، فعدت الى المنطقة وسجلت أداء لها . ولكم كانت دهشتى عندما وجدت الرجل قد أعد رمزا خشبيا كبيرا لهذه الشعيرة خصيصا لى ، لكى أخذه معى .

وفى عام ١٩٤٦ وصلت ، عن غير عمد ، الى منطقة ارسالية « فورست ريفر » فى شمال كمبرلى ، وهى منطقة كنت قد أجريت فيها بحثا فى عام ١٩٢٨ . وبعد

دقائق قليلة شعرت بمن يرت على كنفى، وكان هو الرئيس المسن هو الذى يرت على كنفى ، وقد تلقيت منه دعوة لزيارة المعسكر فى الليلة التالية ، لأنهم يريدون أن يطمئنى على « شىء ما » ، وفى اليوم التالى ذهبت مع الرجال الى « مكان سرى » حيث توجد مجموعة من الرموز المقدمة موضوعة أمامى بشكل احتفالى . كل هذا ولم ينقض على زيارتى الأولى ثمانية عشر عاما .

وهكذا فإن العمل الميدانى ، رغم موضوعيته ، يتدعم كثير بفضل العلاقات الشخصية العميقة . فعندما كنت أقرب من إحدى مستوطنات السكان الأصليين كنت أقابل برسالة تحية تقول « ان صديقك ينتظرك » . أو عندما كان الرئيس المسن يودعنى من أحد معسكرات القسس قائلا لى « الى اللقاء يا صديقى » . أو عندما كنت أسمع امرأة عجوزا ذات مكانة محترمة كنت أعرفها لمدة تزيد على عشرين عاما تقول لى فى لقائنا الأخير « الى اللقاء ، فانى لن أراك مرة ثانية » . وحدث فعلا أن توفيت بعد هذا اللقاء بعشرة أيام دون أن أراها أو ترانى مرة أخرى .

تلك أمثلة قليلة للصدقة الدائمة التى قامت وما زالت قائمة بينى وبين السكان الأصليين فى كثير من أنحاء أستراليا . واننى أعتقد أيضا أن هذه العلاقة الشخصية قد أضمت عمقا ومغزى على الجهود التى أبدلها منذ عام ١٩٣١ من أجل بقاء السكان الأصليين ورفاهيتهم وتقديمهم ، وخاصة خلال العقد الرابع ، فقد كنت أؤمن بمبادئ إنسانية ، وكنت استشعر الاشترازم من القسوة والأعمال الوحشية ، ولكن هذه المشاعر من جانبى لم تكن مجرد أشياء مجردة أو من على البعد . فصدقاتى الشخصية أو علاقائى مع أسدقائى هى التى كانت تقتل ويقتل ويقضى عليها فى تلك الأعمال الوحشية ، أو أصدقائى هم الذين كانوا يعاملون بقسوة وبظلم ، أو كانوا يتقبلون فناء شعبهم كشيء حتمى : « فقد كنا متكاتفين معا جميعا حتى النهاية » .

## التصين فى كرسى الأنثروبولوجيا

علمت فى عام ١٩٣١ ، بعد عودتى مباشرة من أقصى الغرب فى الجزء الجنوبى من أستراليا ، أن رادكليف براون قد استقال من كرسى الأنثروبولوجيا بالجامعة . فلم يقرر التمويل الحكومى طيلة السنوات الخمس التالية ، وتقرر بدلا من ذلك اعتماد منخفض جدا لمدة عام واحد فقط . ويبدو أن الأزمة الاقتصادية فى تلك الفترة كانت هى السبب فى ذلك التخفيض . وقد عين الدكتور ريموند فيرث (١) R. Firth

(١) ريموند فيرث R. Firth عالم أنثروبولوجيا إنجليزى شهير ، قام بتدريس الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة سيدنى ثم بجامعة لندن ابتداء من عام ١٩٣٣ حتى إحالته الى المعاش عام ١٩٣٨ . وقد ترك مؤلفات عدة نذكر منها : الاقتصاد البدائى عند شعب الماروى فى نيوزيلندا ( الطبعة الأولى ١٩٢٩ والثانية عام ١٩٥٩ ) ، والانماط البشرية ( ١٩٣٦ ) ، ومبادئ التنظيم الاجتماعى ( ١٩٥١ ) ، وصيادو اللاوى : اقتصادهم الريفى ( ١٩٤٦ ) ، والتيكوبيا : دراسة سوسولوجية لثقافة فى بولينزيا البدائية ( ١٩٣٦ ) ، وأعيد طبعه عام ١٩٥٧ . وقد ضمن نتائج دراسته للتيكوبيا عدة كتب أخرى عدا هذا الكتاب لا يتسع المجال لحصرها هنا ( المترجم ) .

للقيام بأعمال الأستاذية بالنيابة . وأعدت خطة أولية لاستخدام منحة سخية ثانية قدمها مجلس مؤسسة روكفلر في الفترة ١٩٣٢ حتى ١٩٣٥ . إلا أنه في أواخر عام ١٩٣٢ ، ورغم احتياجات حكومة الكومنولث ، بدأ أن مستقبل قسم الأنثروبولوجيا أصبح ميئوساً منه من الناحية المالية ، بحيث أن الدكتور فيث استقال منه ، وذهب إلى لندن . وبناء على طلب نائب رئيس الجامعة اضطلعت بالإشراف على القسم في عام ١٩٣٣ ، ومعى مدرس مؤقت لمساعدتى . وأعلنت الجامعة أن احتمال تقديم محاضرات فى الأنثروبولوجيا فى عام ١٩٣٤ ضئيل .

وفى الوقت نفسه عيننى مجلس البحوث ابتداء من أول يناير ١٩٣٣ رئيساً للجنة الأنثروبولوجيا ، ورئيساً لتحرير مجلة «الاقويانوسية» (١) . فلم يكن بد من الإشراف على تنفيذ برنامج البحوث وعلى نشر النتائج مهما كان المصير الذى سيلقيه قسم الأنثروبولوجيا بالجامعة .

وقد خصصت حكومة الكومنولث فى منتصف تلك السنة منحة لمدة خمس سنوات للانفاق على القسم ، مستجيبة بذلك لشكاوى مجلس البحوث والبروفيسور جرافتون اليوت سميت (٢) فى لندن ، ويفضل هذه المنحة ومنحة أخرى صغيرة قدمتها حكومة نيوسوث ويلز والأموال التى كانت موجودة استطاعت الجامعة أن تعين أستاذاً لتلك الفترة ( من عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٣٨ ) ، وقد وقع على الاختيار لشغل هذه الوظيفة .

وكان عملى فى تلك الوظيفة معقداً . ذلك أن الأغراض العديدة التى من أجلها أنشئ كرسى الأنثروبولوجيا لم يطرأ عليها أى تغيير فى عام ١٩٣٥ ، وهى : إجراء البحوث ، وتدريب الباحثين الميدانيين ، واللقاء محاضرات على موظفى الإدارات الحكومية ، ورجال الإرساليات ، وطلبة الجامعات . ولكى يضطلع الأستاذ بهذا العمل المتعدد الجوانب على الوجه الأكمل كان عليه أن يحظى بثقة الجامعة وتعاونها ، وكذلك مجلس البحوث الأسترالى القومى ، ومجالس الإرساليات ، والمصالح الحكومية المختصة بشؤون السكان الأصليين فى أستراليا وفى إقليم بابوا ونيو غينيا . ومن حسن الحظ أنه كان قد سبق لى التعاون ، الذى امتد سنوات فى بعض الأحيان ، مع بعض الأعضاء البارزين فى تلك المؤسسات والمصالح ، وكنت أحظى بتعاونهم معى دائماً .

إلا أن تحديد مدة المنحة الحكومية بخمس سنوات ، علاوة على عدم ضمان تجديدها ، لم يكن يسمح بشئ عملى خطط قصيرة الأمد لتطوير القسم والقيام ببعض مشروعات البحوث المؤقتة ، على حين أن البرامج الطويلة الأمد كانت ضرورية لإنجاز ذلك الكم الهائل من الدراسات الميدانية المطلوبة للمنطقة الأسترالية الميلانيزية .

(١) Oceania

(٢) جرافتون اليوت سميت من علماء الأنثروبولوجيا الفيزيكية البريطانيين ( عاش من ١٨٧١ حتى ١٩٣٧ ) وهو والد المدرسة التى تقول بانتشار الثقافة من مصر ( المترجم ) .

ولذلك طلبت من رئيس الوزراء - بالتعاون مع نائب رئيس الجامعة - في البداية مضاعفة مدة المنحة الحكومية ، وكذلك زيادتها ، لكي يمكنني أن أعين مدرسا دائما ، بدلا من الاعتماد على مساعدة عدد من المدرسين المؤقتين . وكان هؤلاء المدرسون المؤقتون باحثين ميدانيين تابعين لمجلس البحوث عادوا الى سيدني لكتابة تقارير بحوثهم الميدانية . كذلك طلبت من السير جرافتون اليوت سميت أن يتابع موضوعي مع رئيس الوزراء ، وكان رئيس الوزراء يقوم بزيارة لانجلترا في ذلك الوقت . وقد فعل ذلك ، وحالفه فيه النجاح . وعندما انتهت فترة السنوات العشر هذه كان القسم قد استطاع أن يندمج في بناء الجامعة ، ولم تثر تلك المشكلة بعد ذلك إطلاقا .

### البحوث الميدانية عن سكان استراليا الأصليين بعد ١٩٢٦

لقد ارتبطت بالبحث الميداني بين الشعوب الوطنية ( الأصلية ) في استراليا وميلانيزيا طوال خمسة وأربعين عاما . فقد بدأت بالعمل بحثا ميدانيا في الفترة من ١٩٢٧ حتى ١٩٣١ ، ثم لفترات قصيرة متعددة منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٩٥٨ . ثم اضطلعت بالاشراف على تلك البحوث في الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٥٦ ، وعملت مستشارا للباحثين الميدانيين منذ عام ١٩٣٠ حتى يومنا هذا . كما قمت بنشر نتائج البحوث الميدانية ، اذ عملت رئيسا لتحرير مطبوعات مجلة «الاقويانوسية» منذ عام ١٩٣٣ حتى اليوم .

ولقد بلغ حجم البحوث التي أجريت في استراليا وفي الجزر منذ عام ١٩٢٦ مدى كبيرا جدا . وكانت الدفعة لذلك قد جاءت من ثلاث منح قدمتها مؤسسة روكفلر لمجلس البحوث القومي الاسترالي في الفترة من ١٩٢٦ الى ١٩٢٨ . وقد كتبت في تلخيص لانجازات تلك الفترة في عام ١٩٣٨ أن المجلس أرسل أربع عشرة بعثة ميدانية الى اقليم ميلانيزيا ونيوغيينيا ، تراوحت مدة كل بعثة منها من تسعة أشهر الى ثمانية عشر شهرا . وأرسل داخل أنحاء استراليا أربع وعشرون بعثة على الأقل ، استمرت الواحدة منها ما بين تسعة أشهر وعامين . هذا فضلا عن عدد أكبر من البعثات التي قضت مددا أقرا من ذلك ، واستهدفت دراسة مشكلات معينة . كذلك قدم المجلس وأستاذ الانثروبولوجيا تعاونه ومساعدته للباحثين الميدانيين الموفدين من هيئات أجنبية . وقد ملأت أسماء المطبوعات التي كانت قد نشرت حتى عام ١٩٣٨ أربع صفحات من مجلة «الاقويانوسية» بالنسبة لكل من المنطقتين .

الا أن فرص إجراء بحوث ميدانية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية كانت محدودة جدا ، وإن كانت مؤسسة كزنجي قد قدمت لي منحة مكنتني من استمرار بحثي من العمل ، كما ضمنت لنا الاستمرار في إصدار مجلة «الاقويانوسية» . وبعد انتهاء الحرب عاد البحث الميداني صدرته الاولى . فقدمت حكومة الكومنولث المنح المالية عن طريق الجامعات الاسترالية على النحو التالي

( أ ) جامعة سيدني في البداية .

( ب ) الجامعة الأهلية الاسترالية في كانبرا بعد انشائها في عام ١٩٥٠ .

( ج ) جامعة غرب استراليا فى بيوت ، بعد انشائها فرعاً للأنثروبولوجيا فى عام ١٩٥٦ ، تحول الى قسم مستقل بعد ذلك .

وخلال الفترة من ١٩٢٦ الى ١٩٦١ قام فى استراليا وحدها حوالى خمسة وثلاثين أنثروبولوجيا متخصصاً بإجراء بحوث ميدانية ، كان معظمها يستغرق فترتين أو ثلاث فترات بالنسبة لمشروع البحث الواحد . وقد بلغ مجمل فترة الإقامة الميدانية بالنسبة لهذه البحوث مجتمعة أكثر من سبعين عاماً . وحظى بالاهتمام الأكبر من جانب هذه البحوث موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وإن كانت قد تضمنت كذلك بحوثاً فى الأنثروبولوجيا الفيزيائية ، والثقافة المادية ، بمجرد توفر متخصصين فى هذين المجالين . وكنت قد بدأت فى عام ١٩٤٩ عمل تسجيلات ودراسات جادة لموسيقى السكان الأصليين .

وفى عام ١٩٦١ تلقت كل جوانب البحث الأنثروبولوجى للسكان الأستراليين الأصليين دفعة قوية بسبب تأسيس « المعهد الأسترالى لدراسات السكان الأصليين » فى كانبرا ، الذى اضطلعت حكومة الكومنولث بعبه تمويله . وقد شاركت فى المناقشات التمهيدية التى سبقت انشاء هذا المعهد ، وفى المؤتمر الأكاديمى الذى عقد عام ١٩٦١ لتأكيد الحاجة الى وجود مثل هذا المعهد . ثم اضطلعت برياسة مجلسه المؤقت خلال الفترة من عام ١٩٦١ حتى ١٩٦٥ ، ورياسة بعض لجانه وهيئات البحث التابعة له .

وقد قام المعهد بالتمويل - الجزئى أو الكلى - ( لأكثر من أربعمئة ) مشروع من مشروعات البحث فى السنوات العشر الأولى من عمره ، وذلك بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر من خلال الجامعات والمتاحف الأسترالية . وقد مول على وجه الخصوص أكثر من ثمانين دراسة لغوية ميدانية ، كما شجع الدراسات الأركيولوجية التى كان يعوقها فى الماضى قلة التمويل وعدم وجود متخصصين مدربين .

كذلك شارك المعهد فى تمويل نشر نتائج البحوث فى صورة كتب ، وفى المحلات . كما اضطلع ببرنامج نشر مستقل ، اذ نشر حتى عام ١٩٧٢ حوالى خمسين دراسة ومقالة خاصة .

وخلاصة القول أنه حتى عام ١٩٢٥ كانت ستة كتب فقط أو سبعة - كما رأينا - من بين حوالى ثلاثين كتاباً تتضمن دراسات وبيانات « مباشرة » عن سكان استراليا الأصليين وثقافتهم ، وكانت تتصف بالطابع العلمى فى تناولها . ولكننا نجد خلال الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٧٢ أن أكثر من أربعين كتاباً ودراسة مونوجرافية قد نشرت بأقلام أنثروبولوجيين متخصصين ، ولغويين ، وأركيولوجيين ، وموسيقيين . وهى جميعها معتمدة على الدراسة الميدانية التى قام بها الكاتب فى كل حالة . هذا كله عدا الخمسين مقالا ودراسة التى نشرها معهد دراسات السكان الأصليين . وفضلاً عن هذا كانت المقالات تتدفق باستمرار الى المجلات العلمية الأوروبية والأمريكية والأسترالية .

## بعض مطبوعاتي الخاصة عن موضوعات متصلة بالسكان الأصليين

أخرجت خلال فترة الكساد الإقتصادي الصعبة وأثناء الحرب العالمية الثانية دراستين مونوجرافيتين كملحق لمجلة الأوقيانوسية • الدراسة الأولى بعنوان : «دراسات في التوتية الاسترالية» (صدرت عام ١٩٣٣) ، وتعتمد أساسا على الدراسات الميدانية التي قمت بها في كيمبرلي بأستراليا الغربية (في عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٨) • كما أشرفت على أعداد كتب «دراسات في اللغويات الاسترالية» (صدر عام ١٩٣٧) • وأعدنا في عام ١٩٤٠ طبع عدد خاص من مجلة «الأوقيانوسية» يتضمن مجموعة من المقالات كانت قد نشرت بالمجلة في الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٤٠ عن «القراية في جنوب أستراليا» ، وكتابين أحدهما بعنوان «الرجل ذوو المكانة الرفيعة عند السكان الأصليين» (صدر في سيدني عام ١٩٤٦) ويتناول المشتغلين بالطب عند السكان الأصليين (وقد نفذ هذا الكتاب منذ مدة طويلة) ، والكتاب الآخر بعنوان «سكان أستراليا الأصليون : كيف نفهمهم» ( صدر في سيدني عام ١٩٣٨ ) •

وقد كتب هذا الكتاب الأخير بأحاساس من يؤدي رسالة ، على مدى عشر من عطلات نهاية الاسبوع في عام ١٩٤٧ ، فقد كنت أكتب فصلا في كل عطلة • وقد أوضحت الاستجابة لمحاضراتي العامة التي ألقيتها في عام ١٩٢٣ وبعد ذلك أن الناس يمكن استشارة اهتمامهم بثقافة السكان الأصليين وبالتنظيم الاجتماعي عند هؤلاء الناس • هذا وقد بدأت أناضل منذ عام ١٩٣٢ على المستوى الشخصي مع السلطات الحكومية وكذلك على المستوى العام من أجل تغيير السياسات التي تتبع مع السكان الأصليين • وذلك من أجل أن نستبدل بسياسات الحماية التي ظل معمولا بها منذ أمد طويل ، والتي تقوم على المفهوم السلبي الذي مؤداه « التلطيف من آلام الموت » لشعب أخذ في الاندثار ، سياسات ايجابية موجهة نحو رفاهية وتقديم شعب يجب أن لا يموت • ولكن أدركت أنه اذا كان لنضالي أن يكلل بالنجاح ، فلا بد أن يدرك الجمهور العام أن السكان الأصليين بشر لهم ثقافتهم الخاصة • ومن أجل هذا كتبت عديدا من المقالات في الصحف والمجلات ، وألقيت الخطب أمام عديد من الهيئات ، وكذلك ألفت كتابي « سكان أستراليا الأصليون : كيف نفهمهم » •

ويبدو أن هذا الكتاب قد جاء في وقته المناسب • إذ رغم ظروف الحرب صدرت له طبعة ثانية في عام ١٩٤٣ ( وأعيد طبعها في عام ١٩٤٥ وفي عام ١٩٤٨ ) • واستلزم الأمر إصدار طبعة ثالثة (في عام ١٩٥٤) زودتها بثلاثة فصول :

( أ ) الفن والشعائر الدينية •

( ب ) الموسيقى والرقص •

( ج ) السكان الأصليون على طريق التقدم •

وقد عكست هذه الفصول الجديدة المعلومات الجديدة التي أمكن التوصل إليها، والظروف المتغيرة المحيطة بالسكان الأصليين • وأعيد طبع هذه الطبعة الثالثة مرتين في عامي ١٩٥٦ و ١٩٦١ ، وطبعة رابعة صدرت في عام ١٩٦٤ وأعيدت في أعوام



١٩٦٦ و ١٩٦٨ و ١٩٧٠ • وقد تضمنت هذه الطبعة الرابعة معلومات جديدة عن فلسفة السكان الاصليين ، كما تضمنت فصلا جديدا بعنوان « الحياة بعيدا عن الارض » • ويهتم هذا الفصل بالصيد وجمع الطعام في حياة السكان الاصليين وفي فكرهم • والى جانب هذا صدرت طبعة شعبية من الطبعة الثالثة عام ١٩٥٤ وفي أمريكا عام ١٩٦٤ • كما صدرت للكتاب ثلاث ترجمات : ترجمة روسية (صدرت حوالى عام ١٩٥٢ دون علمي) ، وترجمة ايطالية (عام ١٩٥٦ عن الطبعة الثالثة) ، وترجمة فرنسية (عام ١٩٦٧ ، عن الطبعة الرابعة) •

أما منشوراتي الرئيسية الاخرى في مجال الدراسة الانثروبولوجية لسكان استراليا الاصليين فتضم قائمة طويلة من المقالات والفصول التي نشرت في بعض كتب أعمال الحلقات الدراسية •

### البحوث في اقليم ميلانيزيا ونيوغيينيا

الحقيقة أنني لا أستطيع أن أفعل أكثر من الإشارة الى تطور الدراسة الميدانية لاقليم ميلانيزيا ونيوغيينيا ، حتى بالنسبة للفترة الممتدة من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٥٦ عندما كنت مسئولاً عن الاشراف العام على مشروعات البحوث التي أجريت هناك لمساب مجلس البحوث وجامعة سيدني • من البحث الميداني المتخصص بمرحلتين قبل الحرب العالمية الثانية ، ففي المرحلة الاولى ( التي امتدت من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٥ ) قام باحثون أنثروبولوجيون من إنجلترا وأوربا أساسا بإجراء بحوث انفرادية ، كل في مجال اهتمامه الخاص • أما المرحلة الثانية فقد نشأت عن المؤتمر العلمي للمحيط الهادى الذى عقد عام ١٩٢٣ • وفى تلك المرحلة نسقت لجنة الانثروبولوجيا التابعة لمجلس البحوث القومى الاسترالى المشروعات التي كان يقوم بها الباحثون الميدانيون اتابعون لها مع تلك المشروعات التي يقوم بها باحثون من الخارج • وبلغ مجموع عدد البعثات الميدانية في تلك المرحلة أربعة وعشرين بعثة • وقد أجريت البحوث في مناطق ممثلة أحسن اختيارها ، كما روعى الربط بينها وبين النتائج التي انتهت اليها بحوث المرحلة الاولى • فكانت بذلك بمثابة أساس لقيام دراسة أنثروبولوجية اجتماعية لتلك المنطقة الشاسعة التي تضم أكثر من ألف شعب ولغة •

ولما قاربت الحرب العالمية الثانية على نهايتها بدأت مرحلة ثالثة من مراحل الدراسة العلمية لهذا الاقليم ، احتل فيها موضوع التغير مكانة بارزة • فقد طرحت الحرب مشكلات جديدة وملحة ذات أهمية عملية • ولهذا اقترحت في عام ١٩٤٣ أن يقوم الانثروبولوجيون الذين سبق لهم إجراء بحوث في هذا الاقليم بتقديم خدمات هامة بالعودة الى المناطق التي سبق لهم دراستها قبل الحرب لدراسة الموقف بعد الحرب • وفى عام ١٩٤٦ طالبنا كاعضاء فى اللجنة التنفيذية لمجلس البحوث حكومة الكومنولث بتدعيم هذا المشروع •

وفى عام ١٩٥٠ أعددت اللجنة جنوب المحيط الهادى عرضا عاما للبحوث

الانثروبولوجية الاجتماعية التي أجريت في ميلانيزيا ، واقترحت بعض أنواع مشروعات البحث التي ينبغي إجراؤها في المستقبل القريب . ومن حسن الحظ ان حكومة الكومنولث قد هيات في فترة ما بعد الحرب الاموال اللازمة للجامعات لاجراء البحوث . قدمت جامعة سيدني منحا للحصول على درجة الزمالة لانجاز بعض مشروعات البحث الانثروبولوجية في نيوجينيا . كما استطاع معهد دراسات المحيط الهادئ التابع للجامعة الاحلية الاسترالية التي أنشئت حديثا ( عام ١٩٥٠ ) أن يرسل الى الاقليم باستمرار سيلا مستمرا من الباحثين الميدانيين ، من أعضاء هيئة التدريس به ومن طلاب الدراسات العليا كذلك . كما اتجه كثير من الانثروبولوجيين الاجانب الى نيوجينيا وغيرها من الجزر . وكانوا يعملون في العادة بالتعاون مع أقسام الانثروبولوجيا بالجامعات الاسترالية .

ولقد أبدت اهتماما خاصا بمشروعين من مشروعات البحوث لحساب جامعة سيدني . فقد ترك الدكتور سترونج strong ، الذي كان يعمل كبيرا للأطباء وأول انثروبولوجي حكومي في جزيرة بابوا ، أرثا بوصية مكنتنا من تقديم عدة منح للحصول على درجة الزمالة في الفترة من عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٦٠ لاجراء بحوث أنثروبولوجية في مناطق صعبه مثل مندى Mendi وواباج Wabag - وكلاهما بدأ البحث فيها لأول مرة - وبين شعب الكونيميايا Kunimaipia .

أما المشروع الثاني فقد نشأ بعد زيارة قمت بها في عام ١٩٥٠ للمنطقة الغربية القصوى في المرتفعات الوسطى في نيوجينيا ، عندما كنت أستكشف احتياجات البحوث لنجئة جنوب المحيط الهادئ . ولم يكن المستوطنون البيض قد نفذوا الى ذلك الاقليم الا منذ أقل من عشرين عاما فقط . ولذلك فإن الثقافة المحلية ، بما فيها الانماط الغذائية التي تعتمد على زراعة الحداثق الصغيرة المحيطة بالبيت ، لم تكن قد تعرضت لاي اضطراب . هذا فضلا عن أن السكان الذين يبلغ عددهم حوالي تسعين ألف نسمة - ويعيشون في عزلة عن الساحل ، على ارتفاع يتراوح بين أربعة آلاف وثمانية آلاف قدم أو أكثر - كانوا يتميزون بالقامة القصيرة ، كما يتميزون في الغالب بلون بشرة أبيض ضارب الى الحمرة . فلمست هنا فرصة ملحة وفذة لاجراء بحوث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والفيزيائية وفي البيولوجيا البشرية .

وتنفيذا للتقرير الذي كتبته قامت جامعة سيدني - من خلال قسمي الانثروبولوجيا والتشريح بها - بالتعاون مع هيئة نيوسموت ويلز لنقل الدم بالاتصال الناجح بمؤسسة نفيلد Nuffield لتقديم منحة لاجراء بحوث في تلك المنطقة . ولما كانت أغراض هذا البحث وراثية وإيكولوجية فقد تضمنت مراحل البحث اجراء عمليات قياس فيزيقي ، وتسجيل ملاحظات فيزيقية ، والحصول على عينات من الدم ونماذج لبصمات الأصابع ، وكذلك عينات من الدم لتحديد الاجسام المضادة المسببة للأمراض ، ولدراسة عمليات التمثيل القاعدي . كما تضمن البحث اجراء عمليات مسح للأغذية وللأمراض الشائعة ، وكان على الانثروبولوجيا الاجتماعية أن تمدنا على

وجه الخصوص بمعلومات عن البناء الاجتماعى يمكن أن تلقى الضوء على النوع الوراثى .

ولما كنت مسئولاً عن المشروع فقد عدت الى المنطقة فى شهرى أبريل ومايو من عام ١٩٥٥ للإشراف النهائى على الخطط والترتيبات المحلية . كما عدت إليها مرة أخرى فى شهر يولية من عام ١٩٥٦ للادخ ببدء المرحلة الثانية من المشروع . وفد أشرف البروفيسور ماكينتوش Macintosh من قسم التشريح على بدء العمل الميدانى فى شهرى مايو ويونيو من عام ١٩٥٥ ، ثم عاد إلى المنطقة فى صيف ١٩٥٧/١٩٥٦ لتنفيذ المرحلة الثانية . وقد حقق المشروع نجاحاً فائقاً . ونشرت نتائجه فى مقالات فى مجلة « الاوقيانوسية » وفى بعض المجلات الطبية .

ولعل أذكر بهذه المناسبة أننى ساهمت بدور ايجابى فى الضغط من أجل وضع سياسات متقدمة فى بابوا ، ونيوغيينيا ، وميلانيزيا . وقد وصف وزير الشؤون الخارجية الكتيب الذى نشرته بعنوان « مطلوب ميثاق للشعوب الوطنية فى جنوب غرب المحيط الهادى » (الذى صدر عام ١٩٤٣) وكذلك احتجاجاتى الاخرى بأنها قد أدت دوراً فى تأسيس لجنة جنوب المحيط الهادى فى عام ١٩٤٧ .

#### مطبوعات مجلة الاوقيانوسية

كانت عملية النشر بالنسبة لى تتضمن كذلك رياسة تحرير وتمويل مجلة الاوقيانوسية التى تصدر كل ثلاثة أشهر . وقد أسس هذه المجلة مجلس البحوث القومى الاستراتى وأشرف رادكليف براون على تحرير مجلد واحد منها (لعام ١٩٣٠/ ١٩٣١) . ثم أشرف عليها ريموند فيث من يولية ١٩٣١ حتى ديسمبر ١٩٣٢ . ثم اضطلمت بالإشراف على تحريرها منذ عام ١٩٣٣ وحتى ١٩٧٢ . ولعل أربعين عاماً رقم قياسى لرئيس التحرير ومدير مسئول عن مجسلة علمية . وقد اضطلمت بمسبب الإشراف عليها فى فترات الكساد الاقتصادى وانخفاض عدد المشتركين ، كما حافظت على بقائها خلال فترة الحرب العالمية الثانية وما أدت اليه من نقص الورق وانقطاع المشتركين الاوربيين حتى وصلت تدريجاً الى حالة الامان المادى . وقد نفذت أغلبية الأعداد السابقة ، وأعيد طبعها الآن ، وتمتد نسخة كاملة منها بالميكروفيلم . وقد قبلت فى العقدين السادس والسابع أعداداً كبيرة من المقالات فى ميادين الأركيولوجيا ، والانثروبولوجيا الفيزيكية ، والبيولوجيا البشرية . وترتب على هذا أن بدأت فى عام ١٩٦٦ إصدار مجلة أوقيانوسية ثانية باسم « الأركيولوجيا والانثروبولوجيا الفيزيكية فى الأوقيانوسية » ، وهى تصدر ثلاث مرات فى العام . ثم بدأت فى عام ١٩٧١ إصدار مجلة ثالثة باسم « البيولوجيا البشرية فى الأوقيانوسية » ، وهى تصدر مرتين كل عام . ولا شك أن هاتين المجلتين تسدان حاجة قائمة ، الا أن عدد المشتركين لا يزيد الا ببطء يقل عما كان مقدراً لى يحفظ للمجلتين وضعاً مادياً مستقرًا .

والى جانب المجلات تنشر الدراسات المونوجرافية الملحقه بمجلة الاوقيانوسية

من حين لآخر . وقد بلغ عدد هذه الدراسات حتى الآن تسع عشرة دراسة . كما بدأت منذ عام ١٩٥٦ اصدار سلسلة من الدراسات المونوجرافية اللغوية .

وفي عام ١٩٥٥ حدث تطور هام في ادارة مجلة الاوقيانوسية عندما اختفى مجلس البحوث القومي الاسترالى ( الذى كنت رئيسا له فى ذلك الوقت ) ليحل محله أكاديمية العلوم الاسترالية . ولما كانت هذه الأكاديمية تقصر اهتمامها على العلوم الفيزيائية والبيولوجية فقط فقد اقترحت على نائب رئيس جامعة سيدني أن تقوم الجامعة بنشر مجلة الاوقيانوسية . وقد وافق مجلس الجامعة على هذا الاقتراح . لذلك هيات الجامعة مكانا للإدارة ، ومخزنا ، وسكرتيرا يعمل طول الوقت ، كما اضطلعت بالأعمال المحاسبية اللازمة . وتكفلت ميزانية مجلة الاوقيانوسية بالانفاق على موظف للآلة الكاتبة بعض الوقت وعلى أجر المشرف على مخزن المجلة .

وأصبحت مطبوعات مجلة الاوقيانوسية تمثل قسما من أقسام الجامعة ، وأنا أعمل رئيسا شرفيا لها . وقد اتخذت مكتب المجلة مقرا لى بعد تقاعدى من وظيفة استاذ الأنثروبولوجيا بالجامعة فى عام ١٩٥٦ .

### علم الاجتماع

عندما قاربت الحرب العالمية الثانية من نهايتها قدمت حكومة الكومنولث للجامعات منحا لاجراء بحوث فى العلوم الاجتماعية من خلال وزارة تعيد ما بعد الحرب . ومن المشروعات التى احتلت أهمية خاصة فى هذا الصدد بحوث فى مجالات علم الاجتماع الرفيى ، وعلم الاجتماع الصناعى ، واندماج المهاجرين فى بيئاتهم الجديدة . وقد كنت كاستاذ للأنثروبولوجيا أشجع دائما دراسة المجتمع الاسترالى الحديث . وقد علمت أن عددا قليلا من تلاميذى هم الذين يودون المعيشة أو العمل بين الشعوب « البدائية » . ونتيجة لهذا فإن حوالى نصف رسائل الماجستير التى قدمت خلال سنوات رياستى للقسم كانت ذات طبيعة سوسولوجية ، تعتمد عادة على بحوث امبيريقية على المجتمعات المحلية أو الجماعات الاسترالية . والواقع أن علم الاجتماع قد أصبح جزءا من المواد التى تدرس للحصول على درجة الليسانس . وازاء توفر منح لاجراء بحوث فى العلوم الاجتماعية استطاعت طائفة من أفضل تلاميذى أن تبقى فى القسم بعد التخرج لاجراء دراسات عليا . وأضيف الى هيئة التدريس بالقسم مدرس جديده ليساعدنى فى الوفاء بالاعباء الإضافية .

وفى هذا المجال نشرت فى عام ١٩٤١ كتاب « المجتمع والفرد والتغير » ، ونشرت فى عام ١٩٤٣ مقالا بعنوان « الحاجة الى دراسات سوسولوجية فى استراليا » (فى مجلة Social Horizons ، المجلد الاول ص ٥ حتى ص ١٥) . كما نشرت فى عام ١٩٤٥ مقالا بعنوان « الحاجة الى إعادة التفكير فى السياسة الاسترالية البيضاء » (فى مجلة Australian Quarterly ، المجلد السابع عشر ، العدد الثالث ، ص ٦ الى ص ٣٤) . وقد نشر هذا المقال مع دراسة أخرى بعنوان « هل حقيقة مقضى على استراليا البيضاء بالفناء ؟ » فى كتاب بعنوان : « أستراليا البيضاء : مشكلة السكان

في استراليا» (١) ( وقد صدر عام ١٩٤٧ ) . وخلال الحرب العالمية الثانية نظمت دراسات مسحية للرأى العام حول موضوعات ذات أهمية قومية في ذلك الوقت ، مثل المشكلات المتعلقة بقروض الحرب ، وتجنيد النساء لأداء الاعمال المساعدة في القوات الجوية . وقدمت نتائج هذه الدراسات الى الوزير المختص ورئيس المصلحة الحكومية المختصة . وقد اعقب ذلك اجراء بعض المشاورات . ثم ألفت في عام ١٩٤١ كتابا صغيرا بعنوان « آراؤنا والمجهود القومي » .

ومن موضوعات البحث السوسبيولوجي الأخرى التي اهتمت بها بنفسى وشجعت الآخرين على القيام بها دراسات عن وضع ومشكلات أنصاف السكان الأصليين في نيوسوث ويلز ، اعتمادا على دراسات ميدانية . وقد خرجت بعض رسائل تلاميذى فى الماجستير والدكتوراه من دراسة هذه الموضوعات ، وكانت ذات قيمة عملية فى العمل من أجل تغيير السياسة والادارة .

### السياسات والاذاعة المتبعة مع السكان الأصليين

ركزت فى بحوثى التي أجريتها فى أقصى شمال غرب استراليا فى عام ١٩٢٧ / ١٩٢٨ ، وفى الاقاليم الجنوبية والوسطى فى عام ١٩٣٠ ، على الحياة الاجتماعية والثقافية والتنظيم الاجتماعى للسكان الأصليين . ولكننى لم أطق الصبر على أسلوب الموظفين الحكوميين ورجال الارساليات والمستخدمين فى معاملة السكان الأصليين وعلى اتجاهاتهم نحوهم . ونتيجة لهذا أننى عندما دعيت للكلام كضيف على اجتماع عقد فى سيدنى عام ١٩٣١ لجمعية حماية السلالات الوطنية أوضحت عقم سياسات الحياة الموروثة عن القرن التاسع عشر ، لأن هذه السياسات وتلك الادارة قد فشلت فى حماية السكان الأصليين داخل حدود مستوطناتهم . واضفت أن السبيل الوحيدة لانقاذ السكان الأصليين هى حمل الحكومات على تنفيذ سياسات للرعاية الصحية والتعليم والعالة تقوم على ايمان بأن السكان الأصليين الخلس يجب أن لا يموتوا . ثم أفضت فى الكلام عن هذا الموضوع فى الاجتماع السنوى للجمعية الذى عقد فى عام ١٩٣٢ . ثم نشرت فى عام ١٩٣٣ مقالا حظى بانتشار واسع للغاية بعد أن طبع فى كتيب بعنوان « سياسة مقترحة للتعامل مع السكان الأصليين » . وقد سبق هذا المقال مقال آخر فى عام ١٩٣٢ بعنوان « الصدام الثقافى والعنصرى فى استراليا » (نشر فى مجلة Morpeth Review ، المجلد الثانى ، ص ٣٥ الى ص ٤٥ ) . ونشرت بعد ذلك عددا كبيرا من المقالات حول هذا الموضوع فى المجلات والصحف الاسبوعية واليومية .

ونتيجة لكتاباتى ومحاضراتى العامة ، وكذلك اتصالاتى الشخصية الكثيرة جدا مع الوزراء ورؤساء المصالح ، طلب منى الاشتراك فى اللجان الرسمية المختصة بوضع توصيات لتعديل السياسات . كما طلب منى مساعدة وزير الاقاليم لحكومة الكومنولث فى تحديد الخطوط الرئيسية للسياسة الجديدة للتعامل مع السكان الأصليين (التي

عرفت باسم «البرنامج الجديد» في عام ١٩٣٨ ، والمشاركة في اقتراح اسم أول مدير لشئون السكان الوطنيين هناك . ثم وقع على الاختيار في عام ١٩٣٨ عضواً ونائبا لرئيس لجنة رفاهية السكان الأصليين في نيوسوث ويلز التي أنشئت حديثاً في ذلك الوقت . وقد ظلت أشغل ذلك المنصب ستة وعشرين عاماً . كما شاركت في المؤتمرات الدورية التي عقدت ابتداء من عام ١٩٤٨ لرؤساء الإدارات المختصة بالسكان الأصليين في الولايات وفي الإقليم الشمالي . كذلك عملت منتشراً لاجتماعات الوزراء الذين تتبعهم تلك المصالح ، والتي كانت تعقد بعدها . ورأست في عام ١٩٤٨ مؤتمراً في داروين لهيئات الإدارة والرساليات لاعداد مشروع للتعاون في تعليم السكان الأصليين . كذلك أدت دوراً أساسياً في بدء العمل بنظام المدارس الحكومية لأطفال السكان الأصليين الخالص في عام ١٩٥١ في الإقليم الشمالي . كما قدمت لحكومة غرب أستراليا المشورة فيما يتعلق بالجوانب الأساسية في تغيير السياسة المتبعة مع السكان الأصليين في عام ١٩٥١ ، وفي اختيار الموظف المسئول عن تنفيذها .

وفي الوقت نفسه ظلت على اتصال وثيق مع الهيئات المسئولة عن الرساليات ، وكذلك مع كثير من الابروشيات التي تعتمد على السكان الأصليين كقوة عاملة .

ولا شك أن ذلك كله قد تطلب مني الكثير من الوقت والجهد ، علاوة على نشاطي الأكاديمي والعلمي ، الأمر الذي جعل حياتي مشحونة بالعمل ومثمرة للغاية . وقد كان الجميع يدركون فضلاً عن هذا أن انتقاداتي وتوصياتي ومشورتي لم تكن تعتمد على أساس أكاديمي فحسب ، وإنما كانت تركز كذلك على دراية بالظروف الواقعية اكتسبتها من العمل الميداني المتصل ، كما أدركوا أن هدفي كان عملياً دائماً ، أنه أوصي بما ينبغي عمله ، وبما يمكن عمله في الوقت نفسه . وقد مضى الآن أربع سنوات على تقاعدي عن الاشتراك الفعلي في الحركات المتصلة بشئون السكان الأصليين ، الرسمية وغير الرسمية ، ولكني مازلت وأنا في الحادية والثمانين من عمري أقوم بدور كبير من بعيد ، ولكن عندما يطلب مني ذلك . وقد اقتصر عملي الرسمي حتى عام ١٩٧١ علىلقاء برنامج دراسي من عشرين محاضرة على موظفي الرفاهية والمدرسين الذين يعملون في المدارس الاسترالية في إدارة المحيط الهادئ ، والذين يؤهلون للعمل في مختلف أنحاء أستراليا .

## التاريخ

لا شك أن اشتغالي المكثف بالشئون الاجتماعية ، وخاصة بالتغيرات الاجتماعية ، قد جعلني شديد الاهتمام بالتاريخ . وهو موضوع سبق أن درسته في مرحلة الليسانس . فالفهم لا يتأتى إلا من خلال التاريخ ، وكذلك من خلال الدراسات الوظيفية الآتية للمجتمعات المحلية والأحداث ، ولقد أمتعتني تدريس تاريخ الانثروبولوجيا كثيراً ، كما أمتعتني الكتابة فيه .

## خاتمة

ما أن يشارك المرء في الحياة العامة حتى تزيد الأعباء عليه وتعمد ~ فقد عملت على سبيل المثال رئيسا لجمعية حماية السلالات الوطنية ، ورئيسا للجمعية الملكية لنيوسوث ويلز ، وعضوا في اللجنة التنفيذية ، ثم رئيسا لمجلس البحوث القومي الأسترالي ، وسكرتيرا للمؤتمر الخمسين للجمعية الاسترالية والنيوزيلندية لتقدم العلوم (الذي عقد عام ١٩٦٢) ، وأميناً ورئيساً للمتحف الأسترالي ، وعضواً بمجلس جامعة سيدني ، وعضواً ورئيساً لمجلس كلية سان باول بالجامعة ، ورئيساً لمجلس البيت الدولي التابع لجامعة سيدني .

هناك عبارة مأثورة تقول : « إن كل إنسان يقوم في حياته بعدة أدوار » . وسواء كانت هذه الأدوار تتمثل في الخدمة في بعض المناصب الشرفية كتلك التي عدتها فيما سبق ، أو في إدارة قسم الأثنروبولوجيا بالجامعة للنهوض بالأثنروبولوجيا والبحوث وتهيئة وسائل النشر ، أو العمل من أجل تغيير السياسة الحكومية إزاء السكان الأصليين في أستراليا وفي بابوا ونيو غينيا ، فالموضوع الرئيسي لها واحد . وسواء كانت الرسالة هي النهوض بالعلم أو الارتقاء بمستوى الرفاهية البشرية . فالاستجابة يجب أن تكون ببذل قصارى ما نستطيع . « فالحياة رسالة » ، والتمتعة هي ثمرة تحقيق هذه الرسالة .

وقد جاء تقدير هذا الهدف المزدوج من خلال :

( أ ) منحى ميدالية جيمس كوك من قبل الجمعية الملكية لنيوسوث ويلز لعام ١٩٥٥ ، « لاسهاماتي البارزة في ميدان العلوم والرفاهية البشرية في نصف الكرة الجنوبي » .

( ب ) منحى في عام ١٩٦١ ميدالية هيربرت جريجوري ( وقد كنت أول شخص تمنح له هذه الجائزة ) من قبل متحف برنيس بيشوب في هاواي « اعترافاً بالخدمات التي قدمتها طول حياتي للعلم وتطبيقه من أجل رفاهية شعوب المحيط الهادئ » .  
( ج ) تعييني في ١٩٦١ أول عضو شرفي مدى الحياة في الجمعية العلمية للمحيط الهادئ ، « تقديراً لخدماتي البارزة للجمعية من أجل تدعيم الأهداف التي تأسست من أجلها » . وكان أول هذه الأهداف وما زال هو تنمية التعاون في دراسة المشكلات العلمية المتصلة بمنطقة المحيط الهادئ ، وبوجه خاص المشكلات التي تتعلق برفاهية وازدهار شعوب المحيط الهادئ .

( د ) كذلك تجلي تقدير هذا الهدف المزدوج في الكتاب التذكاري الذي قدم لي في عام ١٩٦٥ بعنوان « السكان الأصليون في أستراليا » ( أشرف على تحريره ر. م. ، س. ه. برنت ) .

ولا شك أنني سعدت كل السعادة بحصولي في عام ١٩٤٨ على ميدالية الجمعية الملكية لنيوسوث ويلز ، وحصولي في عام ١٩٥٧ على ميدالية مولر التي منحتها ليها الجمعية الأسترالية والنيوزيلندية لتقدم العلوم « للبحوث التي أجريتها في العلوم الطبيعية » . ولعل أعظم تكريم من جانب الحكومة هو منح جلالة الملكة لي وسام سان ميشيل وسان جورج من الدرجة الممتازة .

# شيلزو فيرنادو

## معامرات اقتصادى من البرازيل

ان شمال شرق البرازيل ، حيث ولدت وعشت الى أن بلغت عشرين عاماً ، لا أقدم  
نواة سكانية فى البرازيل •

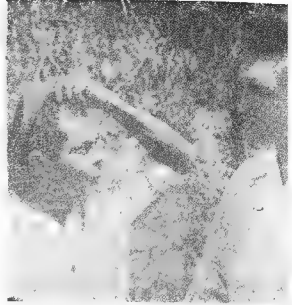
لقد ازدهرت مبكراً فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ثم تدهورت حضارتها  
بعد ذلك مدة طويلة حتى لقد اتسمت بأكثر النظم الاجتماعية جوداً فى الدولة بأكملها •  
ولقد سلب اكتشاف مناجم الذهب والألماس فى ولاية ميناس جيراز فى بداية القرن  
الثامن عشر من شمال البرازيل سيطرته الاقتصادية • وفى منتصف القرن نقلت  
العاصمة من باهيا الى ريو ، وكان هذا دلالة على نهاية مكانتها السياسية كذلك . وهذا  
التدهور النسبى الذى ازداد خلال القرن التاسع عشر يفسر الحقيقة القائمة اليوم وهى  
أن شمال شرق البرازيل منطقة تعتمد على غيرها ، وقد اقتصرت على إنتاج المواد الخام  
للصناعات التى تطورت فى جنوب البلاد •

ومنطقة سيرتاد التى ترعرعت فيها منطقة نصف مجربة تعاني من جفاف موسمى ،  
وتربية الماشية هى مصدر الايراد الوحيد فيها • وعندما كنت صغيراً كانت تربية  
الأطفال تقوم على أنهم أعضاء أسرة ممتدة ، وكانت السياسة تحتل مكاناً هاماً فى  
حياة رؤساء العائلات الكبيرة ، ولم يكن لها أى صلة بما يجرى فى البلاد ، بل قامت



## ترجمة : الدكتور فضيلة محمد فتوح

مدرسة الأدب الإنجليزي بكلية البنات بجامعة عين شمس  
حصلت على البكالوريوس في اللغة الإنجليزية بدرجة ممتاز  
عام ١٩٥٥ من آداب القاهرة • عمل الماجستير بتقدير ممتاز  
من جامعة القاهرة عام ١٩٦٧ • ثم الماجستير من جامعة ليبر  
بانجلترا عام ١٩٦٩ • وفي عام ١٩٧١ حصلت على الدكتوراه  
من جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى •



أساسا على المنازعات والصراعات بين العائلات ومجموعات العائلات ، وكثيرا ما كانت  
تنتهى بمشاجرات عنيفة ، وكثيرا ما أغارت عليها « الكانجاسيروس » وهى عصابات  
مسلحة تمولها وتديرها الرياسات السياسية المحلية • ولقد كانت طفولتى مليئة  
بالقصص التى تزخر بالعنف ويقوم بالأدوار فيها أفراد نعرفهم جيدا لا شخصيات  
أسطورية • ولقد اتخذ هذا العنف بعض أشكال العبودية والاستبداد والوحشية  
لا المفامرات التى يتميز بها أبطال الغرب •

ولقد تلام هذا العالم البشرى - حيث تتماثل القوة والعبودية أكثر مما تتباين  
مع البيئة الطبيعية ، فالأحوال الجوية غير عادية ، فعندما تجئ الأمطار فى فترة  
معينة وتكون كميتها معتدلة بالنسبة لمنطقة نصف مجربة نجد أن الريف يتغير فجأة •  
ولكن الأمطار لا يعتمد عليها فوفرتها أو مآسيها العظيمة تعتمد على ما يقرره القدر •  
وفى خلال الخمس السنوات التى سبقت ميلادى ( ١٩١٥ الى ١٩١٩ ) كان هناك نوعان  
من الجفاف تسببا فى غلاب أليم لعائلة والدتى • ولقد أحبطت طفولتى بمثل هذه  
المآسى التى أدى فيها عنف الطبيعة واستبداد الإنسان دورا كبيرا • ولكن فى بعض  
الأحيان تكون الأمطار غزيرة ، فعندما كنت فى الرابعة من عمري أنهدم جزء من منزلنا

نتيجة للفيضان ، ونجوت بأعجوبة من الموت . كما أننى أمضيت بضعة شهور تحت العلاج من الحروق .

وفى هذا العالم الذى يتسم بالقسوة والتشكك يصبح الهرب الى الغيبات أكثر السبل شيوعا للأمن والطمأنينة . فالسحرة الماهرين رجال حقيقيون وليسوا مجرد شخصيات أسطورية . وبالقرب من منزلنا يقيم الأب سيشرى الشهير الذى أدهش وجذب جماهير الحجاج . والسبيل الوحيدة للحصول على أقل ما يمكن من الأمن الشخصى بطريق مباشر هو اتباع واحد من الرؤساء السياسيين يكون تابعا لرئيس المنطقة ، وبذلك يتبع بطريق غير مباشر لأحد ذوى السلطان فى الدوائر الحكومية أو - فى نهاية الأمر - السياسة القومية ، وبذلك تحمل الإنسان حاجته الى توكيد أمنه من الجفاف شيئا تقريبا . وبجانب هذا يصبح الاعتماد على الغير غير مشروط على المستوى المحلى ، لأن السبيل الوحيدة للهرب من قبضة الرئيس هى خيانة الأفراد والانضمام الى العدو .

وعندما كنت فى الثامنة ( وكانت عائلتى تقيم فى عاصمة الولاية ) ظهر زعيم سياسى فى الولاية ليحدث ثورة فى حياة المجتمع كله . كان ذلك الرجل الذى اعتبره الشعب زعيما وساحرا يدعى جاو بسوا ، وعندما قدم نفسه اليهم كحام لهم ، مهملًا بذلك التقاليد القانونية ، نجح فى إيجاد حركة شعبية يمكن تشجيعها بالحركات الدينية . وكنت أستمع بخشوع الى القصص التى تروىها خادمت أبوى عن هذا الرجل الذى كان يخدم فى أكثر المناطق تواضعا ويبدو انسانا عاديا . ولقد قتل جاو بسوا بوحشية فى عيد ميلادى العاشر ، وأدت هذه الحادثة الى حزن عام ، ولا أتذكر اليوم من التفكير فيها دون انفعال . وكنت أسير مع خادمت أبوى فى مسيرات طويلة خلف نعش مفتوح وتحمل صورة بالجسم الطبيعى لجاو بسوا . ولقد أدت وفاته الى حزن عميق يفوق الثورة عند الجماهير ومن خلال استماعى الى هذه القصص فى المسيرات استحوذ على شعور بالحيرة تجاه قوى فياضة، ويختلط هذا الانطباع بالاستسلام الذى يقرب من « الماسوشية » التى يمكن تلخيصها فى « أن حظ الرجل الفقير قصير الأمد » .

ان هذه الحقائق تساعد على تفسير بعض الاتجاهات الرئيسية فى طبيعتى التى يصعب على التخلص منها دون إخلال بالتكوين الكلى لشخصيتى تلك الأفكار الأساسية التى تؤثر على كل من نشاطى العلى ونشاطى البنائى أى العمل الذهنى . وأول هذه الأفكار هو الايمان بأن العنف والعبودية يسيطران على هذا العالم الذى نعيش فيه ، والثانى هو عجز الوسائل البسيطة عن معالجة مشكلات الولاية ، والثالث هو عدم اتوصل الى حل نهائى للصراع سواء بالنصر أو الهزيمة لأنه كالنهر الجارى ويتجدد على الدوام .

ولم يكن التدريب العقلى الذى يحصل عليه الفرد فى عالم صغير مثل شمال شرق البرازيل حسنا أو سيئا ، ولكنه كان يتأخر عن المناطق المتفوقة ثقافيا بحوالى

خمسـة وعشرين عاما ، والتدريب العقلي لم يكن فى متناول أحد غير الأقلية فى المجتمع الأرستقراطى المحلى ، إذ أن أربعة أخماس السكان اميون .

ويجب أن أوضح أن والدى ينتمى الى أسرة تقلدت مناصب على مستوى المسئولية ، فلقد كان والدى قاضيا ، ووالده مدرسا ، وجده قاضيا فى عهد الملكية . وحيث أنه لم يمتلك شيئا فإنه حرص على أن لا ينغمس فى السياسة حتى يحافظ على كماله . ومازلت أؤمن بأن السياسيين دائما على استعداد لآى نوع من الحُداغ ، بالإضافة الى أن والدى كان « ماسونيا » حين كان ذلك يعنى معاداة الكنيسة ، ومحجبا للآراء الجديدة . ويرجع اليه الفضل فى أننى بدأت وأنا طفل صغير أقرا لكتاب مثل سوفيـت وديفو وردبرت ستيفنسون . وشكرا له كذلك لأنه ساعدنى فى استعمال مكتبة فخمـة حيث بدأت منذ الرابعة عشرة فى ممارسة أولى هواياتى الذهنية وهى هواية التاريخ ، وثانى تلك الهوايات هو الأدب ، وخلال سنوات دراستى السبع فى المدرسة الثانوية قضيت أغلب الوقت فى دراسة اللغة اللاتينية أكثر من أى موضوع آخر . ولا أدري أكان هذا يرجع الى سوء تدريس المواد العلمية أو الى حبى للتاريخ القديم والأدب ، ولكننى أؤمن بشدة بأن اللاتينية هى السبيل الوحيدة الى ثقافة أعلى بالنسبة الى . وبالتدريج أصبحت من محبى الأدب ، وخاصة الكتاب الذين يؤلفون بالبرتغالية . ولقد كانت هذه الهواية هامة وثابتة ، لأننى حتى الثلاثين من عمرى كنت أؤمن بأن مهمتى فى الحياة هى كتابة المؤلفات الخيالية . ولقد تكون أول كتيبى التى نشرتها وأنا فى الخامسة والعشرين من مجموعة من القصص ، ولهذا يرجع السبب فى أننى منذ عامى العشرين حاولت أن أكسب قوتى من الصحافة ، بالرغم من أن تلك المهنة لم تجذبنى على الإطلاق . وفى الثالثة والعشرين دخلت - وفاء للتقاليد - ميدان الخدمة العامة الذى كشف لى عن نوع جديد من المشاكل الاجتماعية .

ومنذ دراستى الثانوية تحكمت بعض العوامل فى تطورى الفكرى . ولكى نتبين تلك العناصر يجب أن نذكر أن البرازيل مرت بثورة فكرية هائلة بعد ثورة عام ١٩٣٠ ، تلك الثورة التى وضعت نهاية لسيطرة ملوك البن . فبين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٣٧ عندما أقام فارجاس دكتاتوريته كانت الدولة مفتوحة للتيارات الفكرية السارية وحياة فكرية قوية ونشيطة . ويجب كذلك أن نتذكر أن المفكرين من أصحاب حرية الرأى اضطهدوا بشدة بعد عام ١٩٣٧ . ومنذ ذلك التاريخ تشعبت الآراء قبل تلك الفترة ونمت ونضجت فى هدوء ، كما أنها وضحت فى بعض الأذهان ، وفى البعض الآخر تجمدت أو تبلورت الى « الجزمية » ( توكيد الرأى والقطع به ) .

ومن بين العوامل التى تأثرت بها فى صباى يمكننى أن أشير الى اتجاهات ثلاثة:

**أولا :** الفلسفة الوضعية التى ظهر تأثيرها بوضوح فى البرازيل . ولقد ترك لنا أحد أقرىاء والدتى ، وكان محاربا متقاعدا ، مجموعة من الأعمال بقلم كـتسـاب يؤمنون بهذا المذهب ، وبدأت أقرا هذه الكتب ، منذ كنت فى الخامسة عشرة .

فاولوية العقل ومعرفة العلوم والايمان بأن المعرفة والتطور يسيران معا كانت راسخة في ذهني كحقائق جلية تفسر نفسها بنفسها .

ومن خلال اهتمامي بالتاريخ تأثرت بالماركسية ، ولقد علمني كتاب « التاريخ العام للاشتراكية والصراعات الاجتماعية ، لماكس بيبير أن ايجاد معان وتفسيرات للتاريخ عملية ذهنية صحيحة ومثالية . وفي هذا المجتمع المتجمد الصارم ساعدتني فكرة الايمان بأن الأنماط الاجتماعية من عمل التاريخ ، ولذلك يمكن تخطيطها على رؤية العالم من وجهات نظر متعددة . وهذه الفكرة علاوة على الايمان بأن المعرفة من عوامل التقدم ساعدتني على رؤية الانسان وجها لوجه مع التاريخ في ضوء جديد ، وأصبح من الممكن الهرب من عالم يتحكم فيه القدر ويتحمل الانسان فيه مسئوليته الحلقية .

واخيرا تأثرت بعلم الاجتماع الأمريكي وخاصة بنظرية علم الانسان في الثقافة كما وجدتها في كتاب جيلبرتو فراير « السادة والعبيد » . ولقد أبقى هذا الكتاب - الذي قرأته وأنا في السابعة عشرة - الضوء على أشياء عديدة ، فلقد أثار لي الأفكار المصاهرة بالإشارة الى كيفية تفكير الأفراد في الدوائر العلمية حيث اكتسبت آفاقا جديدة للمعرفة . وإذا نظرت الى الوراء يبدو لي أنني لم أتناثر على الإطلاق بآراء فراير أو بتفسيره لتاريخ البرازيل ، ولكن سر اهتمامي بهذا الكتاب يرجع الى الكشف عن أسلوب ذهني جديد تماما .

ولقد تأثرت بهذه العوامل منذ دراستي الثانوية من خلال قراءاتي المتقطعة فلم يكن أحد أساتذتي من الوضعيين أو الماركسيين أو المتأثرين بعلم الاجتماع الأمريكي . وفي الواقع يعيش الطلبة في مجتمع فكري ينمذم فيه دور المعلم ، ولكن تبادل الكتب والآراء يفتح الأذهان الى المؤثرات العقلية ، فالطالب الذي يتحمس لكتاب يقدمه لآخر . وهذا يفسر وجود حياة فكرية غنية للطلبة في الأمم الفقيرة التي لا يتوفر فيها المدرسون أو وسائل التعليم ، ويفوق ذلك في الأهمية معاونة الكلية على التوصل الى المعلومات والمعيشة في مجتمع مفتوح للمناقشات .

ولقد استمرت هذه العوامل الثلاثة في التأثير علي خلال سنوات دراستي الجامعية في ريو ، وبعدها في باريس ، ولقد ازداد تأثير ماركس غير المباشر على بقرأة أعمال كارل مانهايم ، لقد خلق علم اجتماع المعرفة علاقة بين نشاط الانسان الفكري وتاريخه . وكانت الرغبة في الربط بين الخلق الفكري والتاريخ هي نقطة البداية في شغفي بالعلوم الاجتماعية . ولقد كنت قد بدأت فعلا في قراءة كتب العلوم الاجتماعية لا مجرد القراءة ولكن كتوجيه للحركة ، وهذا لم يغير بأي طريقة اعتقادي الوصفي بأن السلوك الانساني ، الفردي والجماعي ، يمكن أن يكون الى حد كبير موضع دراسة علمية مماثلة لدراسة العالم الخارجي . ولذلك كنت دائما على وعي تام بالفرقة في التعريف بين معرفة العلوم والمثالية . ولقد سهلت لي وجهة نظر علم الاجتماع الأمريكي التحول من النظم النظرية المبالغ فيها الى المشاكل العملية ، كما ساعدتني على التخلص من آرائني السالفة في الأجناس والمناخ وزيادة السكان ، تلك الأفكار التي قيدتنا بالقدرة وأوقفت تحركاتنا .

وعندما التحقت بجامعة البرازيل في ريو دي جانيرو كان قد بدأ تدريس المواد الاجتماعية ، وكان البدء في تدريس هذه المواد - في ضوء تطوير فرنسي حديث يهدف أساسا الى تدريب مدرسي المدارس الثانوية ، ولم يكن علم الاقتصاد من بين المواد التي تدرس حينئذ . ولذلك اخترت القانون الذي تؤدي دراسته الى وظائف في الخدمة العامة ، ويكون ذلك اتباعا لتقاليد العائلة . ولكنني في عامي الثالث بالجامعة تحولت من دراسة القانون للإدارة العامة ، حيث بدأ اهتمامي بمشاكل التنظيم ، وعندئذ اكتشفت أعمال الكتاب الأمريكيين المعاصرين في تنظيم الخدمات العامة وفي إدارة الأعمال . وبجانب أعمال الأدبية تعالج مؤلفاتي الأولى بعض مشاكل التنظيم النظرية والتطبيقية ، فلقد كان يثير اهتمامي مشاكل التنظيم التي يوجد فيها فريق كرة القدم خلال اللعب ، ومدى مرونة هذا التنظيم ، أي بمعنى آخر - ما هي القواعد التي تحكم هذه اللعبة . ولقد قمت بدراسة وتحليل هذا المثل في مؤلف عن نظرية التنظيم ، واهتمت بتنظيم الدولة عندما عملت مساعدا في إدارة التنظيم .

ودراسة التنظيم جعلتني أهتم بالتخطيط من الوجهة الفنية البحتة . وفي تلك الآونة لم تكن تعرف شيئا عن نظرية اتخاذ القرارات ، ووجدنا صعوبة في التمييز بين البرامج والخطط ، وذلك لم يساعدنا على فهم مهمة الإدارة في التنظيم . ولقد تبين لنا بوضوح أن تبرير الإدارة تبريرا عقليا يعتمد على التخطيط ، وتوصلنا الى هذا الرأي الفني عن طريق قراءات لكتاب مانهام « الرجل والمجتمع في عصر إعادة البناء » . ومنذ ذلك الحين اعتبرت التخطيط أسلوبا اجتماعيا هاما قادرا على زيادة مستوى التبرير العقلي للقرارات التي تحكم الإجراءات الاجتماعية المعقدة بمنع تحرك العمليات المتزايدة التي لا يمكن تغييرها في اتجاهات مضادة غير مرغوب فيها . ولذلك رسخت في ذهني فكرة أنه يمكن للإنسان أن يتخذ قرارات مسببة تؤثر على مجرى التاريخ . وآنني اليوم أميل الى التساؤل عن كمية الافتراضات في اتجاه أولئك الذين يتخيلون أنه يمكننا أن نفسر التاريخ ، ولكن يجب أن نتخيل أنفسنا في عصر تسيطر فيه النظم الدكتاتورية وضباب تلك الأيام الكثيف إذا اعتقدنا أنه لا يوجد هناك أي افتراضات في هذا الاتجاه ، وذلك كوسيلة للتخلص منه . ولقد حررتني هذه المعتقدات التي احتفظت بها لنفسى لأن الطلبة في البرازيل انطوا على أنفسهم تحت ظلال الدكتاتورية . ولقد اختلط العنف والاستبداد في النظام الدكتاتوري في ذهني مع عالم طفولتي الشاذ . ولقد انتهت فترة الاكتئاب الذهني الحاد الذي دفعتني في وقت من الأوقات الى الانتحاء للموسيقى والشعر عندما نجحت في اقناع نفسي بأن الإنسان يمكنه أن يشكل قدره إذا عاش في مجتمع خطط لهذا الهدف . وعند الوصول الى الإيمان بأنه في مقدور الإنسان أن يغير مجرى التاريخ يكون الفرد على استعداد لاتخاذ الخطوة التالية ، وينتهي الى أنه يجب أن يفعل ذلك ، وتصبح المشكلة هي كيفية تحقيق ذلك . وإذا لم أتمكن من الإجابة بوضوح على هذا السؤال فذلك يرجع الى المشكلات الشخصية . ولقد ذهبت الى أوروبا في نهاية عهد دكتاتورية فرجاس ( كمضو في البعثة البرازيلية ) ، وعند العودة من أوروبا التحقت مباشرة ببيئة الأمم المتحدة حيث

عملت عشرة أعوام • وعندما عدت الى البرازيل بدون أى التزامات فى عام ١٩٥٨ كانت الفرص متاحة ومتعددة أمامى حتى لقد تمكنت بدون أى صعوبة من اختيار نوع النشاط والجهة التى تناسبنى بدون الاضطرار الى الانضمام لآى تنظيم سياسى • ولكن انظروا لا تفسر كل شئ ، فالاعتقاد بأن السلطة مصدر للاحتراف والعنف لم يفارقنى عند العمل مع السياسيين ، وللتغلب على هذه المقاومة كان يجب أن أعمل بالسياسة • فى سن مبكرة • ولكن فى الفترة بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين جعلت الدكتاتورية النشاط السياسى مستحيلا ، وعلاوة على ذلك فإن فكرة العمل داخل حدود مثالية بدت لى سفها وأمرأ غير منطقي ، وربما كان الخوف من التجرد الذهني وخاصة الخوف من فضوب خيالى هو السبب فى عدم انضمامى الى حزب الماركسية ، ففى البرازيل تقدم فهم وتفسير الحالة الاجتماعية تقدما بطيئا ، حتى أنه لم يخطر على ذهن أى فرد تغيير هذه المفاهيم والنظم •

لقد دفعتنى دراسة التنظيم الى دراسة التخطيط ، ودراسة التخطيط الى دراسة الاقتصاد • وفى الحقيقة - بالرغم من اننى أمضيت خمسة أعوام فى جامعة البرازيل - لم أهتم بدراسة الاقتصاد الا فى العامين الأخيرين ، ودرسته بفردى وارضاء لرغبتى الشخصية • ولقد حضرت من قبل منهجين فى الاقتصاد أظهرأ لى تفاهة هذا العلم الذى يوضع للأفراد ذوى الخيال المحدود • ولقد تركنى التلاعب اللفظى الذى استعمله المحاضر فى شرح فكرة « الفائدة الهامشية » ( آخر قطعة من الخبز وآخر كوب ماء ٠٠ ) فى انطباع مبهم عن بعض الالاعيب السحرية الخاصة بالأطفال •

ومنذ عامى الثالث بالجامعة ، عندما درست فعلا نظرية التنظيم وحصلت على بعض المعلومات التطبيقية للوسائل التى نجمت عنها ، حاولت أن أوسع مدى معلوماتى الاجتماعية ، وخاصة بقراءة مؤلفات كتاب علم الاجتماع الألمان أمثال ماكس وبر ، وتونيز ، وهانز فراير ، وسيميل • ولقد تعرفت فى ذلك الحين أيضا على هنرى بيرين الذى كان له على فيما بعد تأثير قاطع وكتب بيرين عن تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ومؤلفات كتاب مثل سومبارت وسى عن أصول الرأسمالية ومؤلفات أنثوينو سرجيو عن تاريخ البرتغال جعلنى أرى أهمية علم الاقتصاد فى دراسة التاريخ • وبذلك قادنى التاريخ ونظرية التنظيم كلاهما الى دراسة علم الاقتصاد ، وكان كلاهما يعنى ويتضمن نظرة شاملة تامة للوجهة الاقتصادية •

وعندما بلغت السادسة والعشرين بدأت دراسة الاقتصاد بانتظام • وكانت نظرتى الى العالم قد تم تكوينها ، أى أن علم الاقتصاد لم يكن بالنسبة لى سوى وسيلة تزيد من كفاية معالجة المشاكل التى أقابلها فى دراستى للتاريخ او لحياة الانسان فى المجتمع • ولذلك لم يكن للاقتصاد اثر فى تكييف وجهة نظرى ، فلم يكن فى تصورى قيام مشكلة اقتصادية بحتة • وعلى سبيل المثال كنت أعتقد دائما أن التضخم المالى ظاهرة لنوع معين من الصراع بين المجموعات فى المجتمع ، وأن أى مؤسسة ليست سوى شكل من الأشكال المتعددة لرغبة أو هوى أحد عوامل المجتمع •

... وعندما كنت متأثراً تأثراً شديداً بأراء ماركس في التاريخ لم أثنأثر بأرائه في الاقتصاد . وعندما قرأت « رأس المال » كنت على علم بالنظريات التقليدية في الاقتصاد ( وفقاً لريكاردو ) ، كما أن معرفة عامة بمبادئ الاقتصاد ( في الصورة الكينيسية ) كان الزامياً . ولكنني احتفظت ببعض الآراء من قراءاتي التي غيرت بالطبع فكري عن الإجراءات الاقتصادية ، وخاصة أنني رأيت أن التقدم الفني كان ذا أهمية قصوى ، وقراءتي لشبتر أكدت لي هذا الرأي فيما بعد ، وآمنت بأن الرأسماليين لديهم اتجاه جدي لتراكم رأس المال أو القضاء على كل ما يعوقهم عن ذلك . ولقد ساعدني هذا على معارضة أسطورة جمود الدولة الدولة التي تعيش تحت جميع النظريات الكلاسيكية والكلاسيكية الحديثة . ومع مرور الزمن تطورت هاتان الفكرتان تطوراً معقداً في ذهني ، ولكنني أومن بأهمية فهمي لهما في سن مبكرة . ويرجع ذلك لقراءتي الواعية لكتاب « رأس المال » وأنا أدرس في جامعة باريس .

ولقد كان تأثير كاينيز قاطعاً ، فلقد جعلني ماركس أومن بأن أي تغيير اقتصادي يتضمن ممارسة شكل معين من السلطان والقوة ويرجع إليه الفضل في رفض الفكرة الكلاسيكية الحديثة القائلة بأن الاقتصاد يتكون من ميكانيكية آلية . وهي فكرة عقيمة لأي اقتصادي مهتم بمشاكل الدول النامية ، ففكرة السلطة التي يؤمن بها الرأسماليون ليست كافية ، فالسلطة تتكون من نظام ، وفي نظام اقتصادي رأسمالي تتركز جميع القرارات الهامة داخل النظام في أيدي الحكومة . وأنني أدين لكائيز بالفكرة القائلة بأن الاقتصاد الرأسمالي لا يمكنه العمل بدون مركزية اتخاذ المقررات ، أو بمعنى آخر وجود تنظيم أعلى للسلطة ( وإلى حد ما تعد الرأسمالية دائماً رأسمالية حكومية ) . ولذلك شكراً لكائيز الذي اقتبست منه في سن مبكرة طبيعة تنظيم نظرية تبعية الاقتصاد .

ويمكن تقسيم عملي كاتقتصادي الى ثلاث مراحل :

**أولاً :** عملت عدة أعوام في اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية التي أنشأت لي الفرصة لمواجهة مشاكل الدول النامية من أغلبية دول أمريكا اللاتينية مواجهة مباشرة . ثم عملت عدة أعوام في شمال شرق البرازيل . حيث كنت مسئولاً عن التخطيط وتطوير السياسة في هذه المنطقة تحت إشراف حكومات كيوتشسك ، وكواردروس ، وجولارت وعملت بعد ذلك في جامعات في الولايات المتحدة وباريس . ولقد تناولت أبحاثي ثلاثة موضوعات : التوسع في اقتصاد الرأسمالية ، والمميزات الخاصة بطبيعة التأخر الثقافي والاقتصادي والتطور التاريخي من الزاوية الاقتصادية . ولقد استمرت الحالة

الاقتصادية في البرازيل هي مركز اهتماماتي ، حيث انها كانت نقطة البداية . ولقد كانت موضوع الرسالة التي أعدتها تحت اشراف الأستاذ موريس باي وقدمت لكلية الحقوق في جامعة باريس عام ١٩٤٨ . وفي هذه الرسالة تناولت فترة احتلال الاقتصاد البرازيلي التي من أهم خصائصها زراعة قصب السكر . وبعد عام نشرت تحليل الأول للتغيرات التي تمت في الاقتصاد البرازيلي خلال القرن العشرين . ولقد احتوت هذه المقالة على نواة الآراء التي تطورت بعد عشر سنوات في كتابي عن النمو الاقتصادي في البرازيل . وفي محاولتي لتفسير تأخر البرازيل تناولت فكرة تحديد عدم التقدم والنمو . وفي هذه الرسالة التي قدمتها كمرشح للاستاذية بجامعة البرازيل في عام ١٩٥٨ تناولت نظرية التطوير وعدم التطور أو التآخر كنظريتين متكاملتين تظهران في الوقت نفسه خلال تطور الرأسمالية الصناعية . ومازلت لأن أؤمن بأن التأخر الحالي هو نتيجة لنظرية التبعية التي يمكن فهمها بدراسة التطور التاريخي للنظام بأكمله بهدف تحليل تكوينه أي تحديد عوامله الثابتة . ولكن هدفي الأخير هو فهم وتفسير لأسباب تأخر دولة غنية في جميع مواردها كالبرازيل .

واني لأعجب ، أهذه الرغبة الجارفة للتعرف على حقيقة بلدي لا تخفى وراءها رغبة أكثر العاجز ، وهي التعرف على حقيقة نفسي . اليس من المفروض علينا أن نبغى سجناء تكويننا النفسي ما دعنا غير قادرين على التوصل الى الأصول الثقافية والاجتماعية التي أوجدتها ؟ والى أي مدى يمكننا تفسير أن اهتمامي بشمال شرق البرازيل يرجع الى عاطفة قوية تجاه ذلك الجزء من العالم الذي أعرفه جيدا والذي قضيت فيه فترتي الطفولة والمراهقة ؟ أو على الأصح الى أي مدى يعكس هذه الرغبة شعوري بأنني سجين النظم الاجتماعية التي أثرت في تكويني عندما ثرت عليها ؟ وكيف يتمكن المرء من التغلب على شعوره بالغربة دون الحصول على مستوى من الوضوح يمكنه من النظر بحرية الى جميع هذه النظم التي تكون قانوننا الوراثي الثاني ؟ وعلاوة على ذلك . فإن هذين الدافعين يكمل أحدهما الآخر ويؤكد واني لأقر بأن الهدف من كتابة رسالتي عن استثمار اقتصاد البرازيل ورغبتي في فهم بلادها هما امتصاص طاقتي الذهنية لمدة خمسة وعشرين عاما .

ولأني كنت أفكر في مشاكل حقيقية فإن البحث الاقتصادي بالنسبة لي كان هدفا للعمل ، عملي وعمل الآخرين . ولكي يرتفع مستوى فهمك للعالم كي تؤثر فيه أكثر تأثيرا يعني أنك يجب أن لا يغيب عن نظرك الهدف الرئيسي . وفي الموضوعات النظرية نشبت الصلات الفكرية من الآراء المتقاربة في اختيار الموضوعات والمشكلات



التي ستعالج . أما الاختلافات في الوسائل فهي قليلة الأهمية ، لأن فاعلية الوسيلة تظهر في التطبيق . واختلافي مع الاقتصاديين الذين يؤمنون بالكلاسيكية الجديدة نتج عن اعتقادي بأن المشاكل التي يهتمون بها تافهة ، وبكل بساطة كاذبة . كما أن اختلافي مع الاقتصاديين الماركسيين نتج من رفضهم مقدما استعمال أساليب الكلاسيكية الحديثة حين لم يكن هناك سواها .

ومن الناحية النظرية للبحث فلا شك أنه لا جدوى للتمييز بين الوسيلة والغاية . ولكن إذا أخذنا المفهوم بعيداً قيام العلوم الاجتماعية يجب عليه معالجة مستويين مختلفين من الواقع . وتحديد أنفسنا بالوسيلة فقط ( للتبرير العقل الشكلي ) التي تعد من مميزات الفئتين المتخصصين . ولكن تجاهل وجود مثل هذا التبرير وحرية الأحكام يعوق تقدم العلوم الاجتماعية . ومعارضة هذه العوامل لمجرد أنها الوسائل التي يستعملها أولئك الذين يهدفون إلى تدعيم النظم الاجتماعية التي لا يوافق عليها الباحث اغفال للضرورة التي تحتم أن تستبدل بها نظم جديدة .

إن فكرتي عن النظرية الاقتصادية التي تضم نظرية تاريخية شاملة وقطاعاتية تشمل جميع أساليب التحليل الاقتصادي قد تكونت عندما تبلورت في ذهني فكرتان: فكرة بالتنظيم وفكرة خاصة بمرکز اتخاذ القرارات . واستمرار دراسة القانون والتنظيم معا ساعدني منذ البداية على تحديد الفرق بين النظم والمؤسسات . ولكن خلال الفترة الأولى من دراستي الجامعية فشلت في إدراك أهمية هذا التمييز . فلقد كان التفكير في النظم الاقتصادية الحقيقية ومتابعة سيرها السبب الذي أدى بي إلى هذا الاتجاه الذي كنت على تمام الاستعداد له . ولقد ساعدني إدراك هذا التمييز على أنه من المحتمل إساءة توقيت تغيير المؤسسات ، أو أن يكون هذا التغيير مجرد تغيير شكلي . ومن ناحية أخرى تبين لي أنه في بعض الأحوال يمكن تعديل النظم دون تعديل المؤسسات مقدما . ولقد أدرك ماركس هذا عندما صرح ضمناً بأن قوى الإنتاج يمكن أن تطور دون أي تعديل سابق للتنظيم الأعلى ( الذي يدل كما استعمله هو على جميع المؤسسات والانشاءات في المجتمع ) . ووفقا لماركس تؤدي التغييرات في النظم العليا إلى تطور قوى الإنتاج ، ولا يمكن إيجاد هذا التطور إلا عن طريق ثورات عنيفة . ولكنها ليست مشكلة قوى الإنتاج . فيمكن تحديد جميع هذه النظم داخل أطوار معين ، وإذا كانت هذه التعديلات موجهة فإن الإصلاح في المؤسسات يمكن إتمامه دون أي مقاومة كبيرة . وإذا تم تعيين عامل واحد من هذه التنظيمات ( التراكم مثلا ) فإنه يصبح من الممكن أو من المحتمل أن يكون إعادة تكييف هذه المؤسسات عنيفة تأخذ

شكل الطوفان ، ولكن اذا تطورت جميع النظم في آن واحد فانه من المحتمل ان يحد  
تنظيم المؤسسات دون صراع عنيف . فهل من الممكن تخطيط تعديلات النظم ؟ وإذا  
كان ذلك ممكنا فما هي الشروط لذلك ؟ ان تصوير المشكلة بهذه الطريقة ساعدني على  
تقبل مسئولية توجيه السياسة الاقتصادية في شمال شرق البرازيل ، حيث تتجاوز  
كثرة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية خيال المرء .

ان فكرة مركز اتخاذ القرارات مبعثرة على عدم استعمال الوسائل الاقتصادية  
الآلية في تحليل ، تلك الفكرة المضللة التي هيمنت الكثير من الاقتصاديين عن رؤية  
النظريات الاقتصادية في محيط الواقع الاجتماعي . ان اتخاذ القرارات هو العمل  
بهدف معين . وممارسة نوع معين من السلطة ، واعتبار العمليات الاقتصادية سلسلة  
من القرارات ، واعتبار الأخيرة بالتالي تخطيطات للسلطة ، هي أمور تجعل من الممكن  
الامتناع عن نظريات « الاقتصاد الآلي » و « الموازنة » التي تبعد نواة الكلاسيكية  
الجديدة . وقبل دراستي للاقتصاد كنت أعلم أن التنظيم لا يمكن أن يقوم دون  
التنسيق والمراقبة . مهمتان تتضمنان قيام مراكز للتوجيه تكون قادرة على تحديد  
وشرح الأهداف . ولكن - لاجد توفير المشقة - يتجه كل مركز لاتخاذ القرارات الى مد  
افقه الزمني ، أي تخطيط نشاطه . ومن ثم عندما يعد الاقتصاد تخطيطا يصبح من  
الطبيعي اعتبار التخطيط اسلوبا يهدف الى زيادة فاعلية مراكز اتخاذ القرارات .  
وأخيرا يعني التخطيط اما صراحة أو ضمنا تحديد الأهداف ، وهذا يقضي على أسطورة  
« الاقتصاد الحر » التي أدت الى زيادة تبعية اقتصاديات الدول النامية .

ان الظروف التي أدت الى تغيير مجرى حياتي في عام ١٩٦٤ عندما حرمتني  
الثورة العسكرية في البرازيل من جميع حقوقى السياسية وجعلت من المستحيل على  
الاستمرار في العمل من أجل أمتى ومنطقتى هي بعض الأسباب التي جعلتني أقرر  
التفرغ الكلى للعمل الأكاديمي . وبعد الاشتراك بطريق مباشر وغير مباشر لمدة خمسة  
عشر عاما في النهوض بالسياسات - أولا كمستشار فنى للأمم المتحدة ، ثم كمدير  
وعضو في الحكومة في البرازيل - أعتقد الآن أن أخطاءنا تكن في عدم كفاية دراستنا  
النظرية وآرائنا الرئيسية . ونظرا لعجزنا في هذه الناحية نجد أن نشاطنا السياسى  
يميل الى اتباع توجيهات متنوعة وغير مناسبة ، علاوة على أنها مستوردة من الخارج .  
أما من وجهة نظام ثانوى تابع فانه من الصعب الحصول على صورة للنظام بأكمله ،  
ولذلك يتجه الفرد الى أقل الاتجاهات معارضة وهو التقليد الأيديولوجي . ان عدم  
تواجد مؤسسات قادرة على اعداد مجموعات كافية وذات كفاءة للبحث فى العلوم

الاجتماعية-واقفاً الذكائيات للعمل فجاة - ذلك المعسل الذى يؤدى الى ابناء  
وايلا بلدان كثيرة فى فترات متقطعة يساعد على تفسير السبب فى بطء تقدم النقد فى  
المنطقة . والحل الوحيد - وان كانت فاعليته محدودة - هو الاعتماد على موارد خارج  
المنطقة . وتعد باريس من اعظم المراكز من هذه الواجهة ، لأنها تجذب عددا متزايدا من  
طلبة الدراسات العليا من أمريكا اللاتينية ، وهؤلاء الطلبة قادرون على رؤية بلادهم  
فى وضعا السليم وقادرون على تكوين صورة متزنة للمنطقة بأكملها . وبجانب ذلك  
تتوفر بيئة افضل من الولايات المتحدة للمناقشة وتبادل الآراء مع دراسين من خارج  
أمريكا اللاتينية . وبجانب نشاطى فى التدريس استمرت فى ايجاد اجابات لأغراض  
الدول النامية . ومن حين لآخر أعرض افتراضات جديدة بهدف تشجيع الطلبة الآخرين  
على المشاركة بأرائهم وأفكارهم . وخلال السبع السنوات التى قمت بالتدريس فيها  
بباريس ألفت كتابا عن البرازيل . ولم نضع هذه المجهودات هباء ، لأنه خلال هذه  
الفترة اشترى سكان أمريكا اللاتينية أكثر من ٢٠٠٠٠٠ نسخة من مؤلفاتى . وبالرغم  
من أن هذا الرقم ليس ذا دلالة كبيرة فإنه يدل على أننى لم أخطئ فى تقديراتى الأولى  
بأنه توجد رغبة واسعة فى تقبل الآراء الجديدة .

وإذا سئلت عن صورة وصفية لفكر فى أحد البلدان النامية فأننى أقر بأنه دجال  
بنسبة ٩٠٪ ، وقديس بنسبة ١٠٪ . ومن ثم إذا افترضنا أنه لم يولد مفتقرا الى  
الشخصية كلية ، فهناك تسع فرض من عشر فى إمكان شرائه . وإذا لم يتبع هذا  
القانون فإنه سيكون ضحية لاضطهاد لا سبيل الى تهدئته . وقد ينتج عن هذا تحويل  
هذا الرجل الى بطل قومى فى أى تعديل فى الوضع السياسى ، ولكن الويل له إذا  
أصر على تصميمه على أن لا يشترى وفى جميع الحالات فإنه لن يدرك أبدا ما قد يحصل  
له مهما حسنت فكرته عن نفسه .

# أوتو كلاينبرج

تأملات عالم نفسي  
من أصل كندي

يسرني بالطبع أن يطلب إلى أن أقدم « صورة جانبية لسيرة ذاتية عقلية لهذه « المجلة » فهذا يعني أن هناك شخصا واحدا على الأقل ( هو في هذه الحالة رئيس التحرير ! ) يعتقد أن وصفا لما فعلته ينبغي أن يقدم للآخرين . ويتصادف أنني أشعر بأنني قد عشت حياة حافلة شائقة ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن حياتي ستكون شائقة لأي شخص آخر . ولكن من حسن الحظ أن اثنين من اهتماماتي العقلية الرئيسية يتفقان مع المرقف الذي تمثله هذه « المجلة » ، ولابد أن يشاركها فيه بالتالي عدد كبير من قرائها . أما الاهتمام الأول فهو أنه من النادر أن تفهم المسائل الهامة فهما كاملا إذا نظر إليها من وجهة نظر تخصص واحد ، وإن المعالجة التي تعتمد على تخصصات متعددة أمر ضروري . أما الاهتمام الثاني فهو أن التمرکز الاثنولوجي الذي يصحب هوية المرء القومية يجب أن تستبدل به وجهة نظر دولية متعددة الثقافات . هذان الاهتمامان هما اللذان سأواجه إليهما أكبر قدر من التركيز في الصورة الجانبية التالية .

فاذا عدت لحظة إلى تخصصي فلا بد أن أذكر أن علماء النفس قد ظلوا مهتمين فترة طويلة بكيفية انعكاس تطور علم النفس على حياة الأفراد الذين أسهموا فيه . ففي ١٩٣٠ ظهر الجزء الأول من « تاريخ علم النفس في السيرة الذاتية A History of Psychology in Autobiography. » بتحقيق كارا مورشيسون ، ونشرته دار نشر جامعة كلارك .

## ترجمة : الدكتورة إنجيل بطرس سمعان

الاستاذة المساعدة بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب بجامعة  
القاهرة • دكتوراه في الآداب من جامعة لندن • لها بحوث  
وترجمات في مجالات كثيرة في الأدب الانجليزي والأدب  
الافريقي •



وتبع ذلك مجلدات أخرى في فترات غير منتظمة ، كان أحدثها المجلد الخامس في ١٩٦٦ ،  
بتحقيق ا . ج . بورينج ، وج . ليندزي . أما الجزء السادس الذي يعد تحت رئاسة  
تحرير ليندزي فمن المقرر أن يظهر في ١٩٧٣ . ولقد بدأت السلسلة لتكون دولية ،  
فشمل كتاب العدد الأول : كلاباريد من سويسرا ، وجانيه من فرنسا ، وستيرن من  
ألمانيا ، وشملت الأجزاء التالية : دي سانتكس ، وجيميلي من إيطاليا ، وكليم وماربي  
من ألمانيا ، وميشوت من بلجيكا ، وبيرون من فرنسا ، وبياجيه من سويسرا . أما آخر  
جزء ( ١٩٦٦ ) فكان أمريكيا تماما . إلا أنه من الثابت أن علماء النفس قد بينوا مايمكن  
إنجازه بهذه الطريقة ، وسيكون من المتع أن نرى التخصصات الأخرى وقد نسجت على  
منوالهم ، ولعل هذا العدد من « المجلة » سيكون هو الحافز المطلوب .  
المؤثرات المبكرة :

ولدت في مدينة كوبيك بكندا في ٢ نوفمبر ١٨٩٩ ، وكان أبواي قد جاءا الى  
كندا من أوروبا في طفولتهما ، وكنا نتحدث الانجليزية في المنزل ، ولكننا كدنا نكون  
محاطين تماما بالناطقين بالفرنسية في كل من كوبيك ومونتريال التي انتقلنا اليها

عندما كنت في الخامسة من العمر . واني دائم الشعور بالامتنان لاني نشأت في بيئة ثنائية اللغة ، واكثر امتنانا لأنه بشكل ما كان لدى من حسن الإدراك ما جعلني أنتفع بذلك ، فقد بدأت في وقت مبكر جدا حضور المحاضرات التي كانت تلقى تحت رعاية الرابطة الفرنسية ، والذهاب الى السينما الفرنسية ومسرح البروتوار الذي كان يقدم جميع الكلاسيات بما في ذلك « فيدر » و « عدو البشر » و « سيرانو » . والكثير من المسرحيات الأخرى . وما زلت أذكر بأهمية الفرصة المتاحة للكنديين لتعلم اللغتين وانتعرف على الثقافتين . وحدث بعد ذلك لسنوات عدة ( ١٩٦٥ ) نأ ألقى محاضرة عامة في جامعة لافال في مدينة كويك عن « المجتمع المتعدد الثقافات » ناديت فيها بأنه بدلا من شعار « لنحي كويك حرة » ينبغي أن تكون كندا ثنائية اللغة ، بحيث تعمل كجسر بين حضارتين عظيمتين وبين اللغتين العالميتين بحق . وفي صباح اليوم التالي نشرت جريدة الطلبة تقريرا عن كلمتي تحت عنوان رئيسي « جسر على نهر كلاينبرج » . ولعل استطيع أن أقول أن شعار حياتي هو الايمان بأهمية الجسور .

وابان وجودي في جامعة ماكجيل أسهمت في تأسيس جمعية تتكون من الطلبة الناطقين بالانجليزية من هذه الجامعة ومن الطلبة الناطقين بالفرنسية من جامعة مونتريال . وكنا نلتقي أسبوعا في ماكجيل حيث نتكلم الانجليزية ، وفي جامعة مونتريال في الأسبوع التالي لتتكمال الفرنسية . وفي إحدى المناسبات قدمني بعضهم الى عميد كلية الحقوق هناك ، وأوضح أن اسمه مون بوتى ومعناه الجبل الصغير بالفرنسية وكان اسمي يعني هذا المعنى كذلك بالألمانية ، وخيل لكلينا أن تلك المصادفة قد تكون رمزا لاقامة الجسور .

أما الاتصال بين التخصصات فقد أصبح من الأمور التي تهمني في وقت مبكر أيضا، فعندما كنت طالباً في مرحلة الليسانس في جامعة ماكجيل درست للدرجة الشرف في الفلسفة وعلم النفس ، ثم واصلت الدراسة للدرجة الماجستير في هاتين المادتين أيضا في جامعة هارفارد ، ثم درست الطب في جامعة ماكجيل بقصد ممارسة الطب النفسي ، الا أنني قررت قبل نهاية دراستي الطبية بوقت طويل أني أمارس التدريس بدل ممارسة الطب النفسي ، وهكذا ذهبت بعد حصولي على درجة الدكتوراه في الطب مباشرة الى جامعة كولومبيا للتخضير لدرجة الدكتوراه في فلسفة علم النفس ، وحصلت عليها بعد عامين ( ١٩٢٧ ) . وأثناء تلك السنوات ارتبطت عن قرب بالأنثروبولوجيا بمثل القدر الذي ارتبطت به بعلم النفس ، وقد شعرت بأن السلوك الانساني لا يمكن دراسته دراسة دقيقة ما لم نوجه اهتمامنا الى الثقافات والمجتمعات المختلفة عن ثقافتنا ومجتمعنا . كما وجدت أيضا أن بوسع علماء الاجتماع اضافة الشيء الكثير الى فهمنا للمسائل النفسية .

وعندما كتبت أول مؤلف طويل لي وهو « **اختلاف الأجناس Race Differences** » ١٩٣٥ ، أصبح إدراك العلاقات المتداخلة بين التخصصات مسألة ذات أهمية كبرى ، وادركت الحاجة الى معرفة مايقوله عن الأجناس لعلم النفس فحسب ، بل أيضا علم

الإنسان : الأنثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، والطب ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الأحياء ، وحاولت جهدي أن أضمن كتابي إسهامات تلك التخصصات في هذا المضمون . وكان الاهتمام بالنظر الى المشاكل ككل وليس الى الحدود الفاصلة بين التخصصات هو الذي قادني في كتاب **علم النفس الاجتماعي** ١٩٤٠ و ١٩٥٤ الى محاولة تحقيق نوع من الجمع بين اكتشافات علم الإنسان الثقافي واكتشافات علم النفس فيما يتعلق بالتفاعل الإنساني . وقد سمعت مرة الراحل رولاند هارجريفرز التابع لمنظمة الصحة العالمية يقول ان من سوء الحظ أن المشاكل لم تقسم تبعا للخطوط التي تقسمها بها الكليات والأقسام الجامعية .

### الاهتمام بالأجناس :

ان أول أبحاثي وأول ما نشرت من انتاج عاليج مشكلة الفروق النفسية القطرية المزعومة بين الأجناس ، وظل هذا الموضوع بالإضافة الى الموضوع الأكثر اتساعا وهو انسلالية . الانماط الثابتة ، والتحيزات ، والتفرقة) يشغلني طوال حياتي . وكثيرا ما سئلت عما قادني الى هذا الاهتمام وهل أصلي اليهودي هو الذي دفعني في هذا الاتجاه . واذا كان من العسير دائما تحديد البواعث بشكل مؤكد ، فاني أميل الى الاعتقاد بأن أهم اسباب ذلك كانت أولا اتصالى بفرانز بواس في كولمبيا وادراكي عن طريقه بشكل مباشر أن الثقافة أكثر أهمية من الوراثة في تحديد اختلاف سلوك الجماعات، وثانيا الصدفة المحضة، فنتيجة للراستي الطبية كنت قد قررت التخصص في مشاكل علم النفس المرضى في تدريسي وأبحاثي . ولكن عندما دعاني اثنان من أصدقائي من الشبان الدارسين لعلم الإنسان للاشتراك معهما في زيارة علمية لأحد مجتمعات اللنود الأمريكيين في مقاطعة واشنطن قبل الدعوة ، وأخذت معي من اختبارات الذكاء العملية غير اللغوية) وأجريتها على عينة من الأطفال الصغار ، وكانت النتائج غير متوقعة ومثيرة للاهتمام ، بالنسبة لي على الأقل . فقد عمل الأطفال الهنود ببطء أكبر بكثير من الأطفال البيض ، ولكنهم ، ربما نتيجة لذلك ، ارتكبوا عددا أقل من الأخطاء ، وقد بدوا غير مباليين تماما بالفترة الزمنية المحددة لتمام الاختبارات وكان طلبة منهم ان « اعملوا هذا بأسرع مايمكنكم» يقع في آذان صماء . ولكني عندما أجريت هذا الاختبار بعد ذلك بقليل على أطفال هنود يعيشون في بيئة «بيضاء» وجدت أنهم يعملون بسرعة أكبر بكثير ، وهكذا ثبتت تماما صحة آراء بواس من تأثير الثقافة والتعلم على الاختلافات بين الجماعات في أداء اختبارات الذكاء .

ثم وسعت دائرة أبحاثي لتشمل جماعات أوربية متعددة وإيضاً جماعات من الأمريكيين السود . فكان الاستنتاج الذي توصلت اليه هو أن معظم علماء النفس قد قبلوا بشكل حرفي مبالغ فيه نتائج اجراء الاختبارات النفسية ، وأنه لم يكن هناك دليل علمي صحيح على أن بعض الجماعات « الجنسية » كانت وراثيا أحمق من غيرها من الجماعات . وقد ظل هذا الاعتقاد هو اعتقادي الراسخ الى هذا اليوم .

وقد حظيت بتجربة مثيرة للاهتمام بشكل خاص وأنا بصدد القيام بأبحاثي عز.

الجماعات الأوروبية التي أجريت في فرنسا وألمانيا وإيطاليا فيما بين ١٩٢٧ و ١٩٢٩ ،  
بمعاونة منحة من المجلس القومي للبحوث . فقبل ذلك بوضع سنوات ١٩٢٤ ) كان  
الأستاذ كارل . س . بريجهام بجامعة برينستون قد نشر كتابا بعنوان « دراسة للذكاء  
الأمريكي » تقوم على أساس تحليل نتائج اختبارات الذكاء التي أجريت على الهنود  
الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتوصل لا الى أن البيض واثنا أعلى مرتبة من  
السود فحسب ، بل أيضا الى أنه بين البيض يصد أولئك الذين ينتمون الى الجنس  
النوردي أعلى من الألبين وأناس البحر المتوسط . وكانت هذه النتيجة قد تعرضت  
لنقد شديد وخاصة من علماء الأنثروبولوجيا ، بسبب الطريقة التي نسب بها بريجهام  
نسبا مختلفة من الأسلاف النورديين والألبين وأناس البحر المتوسط الى الجنس  
الأمريكيين ، واعتادا على أصولهم القومية دون أية معرفة مباشرة بالميزات الجسمية  
لأولئك الذين أجريت عليهم اختبارات . وقد حاولت في بحثي تصحيح هذا الخطأ  
المنهجي بالاكثفاء بإجراء الاختبار على عينات من الأفراد من الأطفال في هذه الحالة  
الذين لهم سمات مرتبطة بالانماط النوردية والألبية وانماط البحر المتوسط على  
التوالي ، ولم أجد اختلافات تذكر بين الجماعات المختارة .

وعندما عدت الى الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٩ التقيت ببريجهام في مؤتمر  
لعلم النفس ، فبادرته بقولي « اني سعيد جدا بلقائك لاني قد انتهيت لتوي من بحث  
متصل بدراستك » ، الا أن اجابته حالت بيني وبين ما كنت سأقوله ، اذ قال : « اني  
لم أعد أتمسك بكلمة واحدة من ذلك الكتاب » . وبعد ذلك بقليل نشر بشجاعة فائقة  
مقالا بين فيه الأسباب التي دفعته لتغيير رأيه ، الا أن نتاجه قد ظلت زمنا طويلا يستشهد  
بها أولئك الذين كانوا قد قرأوا كتابه . وظلوا يجهلون أنه رفض تلك النتائج  
فيما بعد . وقد قال البعض وان لم يكن ذلك قد أثبت بالفعل ، بقدر علمي ) أن كتابه  
أدى دورا في تشكيل بعض القيود القومية التي أدخلت على عدة قوانين عكست زمنا  
طويلا سياسة الهجرة الأمريكية .

ولما كنت واحدا من أوائل علماء النفس الذين شكوا في صحة فكرة تسلسل  
الأجناس استنادا الى نتائج الأبحاث التجريبية الجديدة فقد أثارت نتائجي كثيرا من  
اهتمام كتاب « الذكاء الزنجي واختيار المهاجرين » ١٩٣٥ ، الذي عالج نتائج  
الاختبارات التي أجريت على زواج الشمال والجنوب في الولايات المتحدة ، ويحوى  
تقارير عن الأبحاث التي أجريت بالاشتراك مع طلبتي في كولمبيا ، ووصفها أحسد  
محرري عرض الكتب بأنها دينامييت مخبأ . وكان من النتائج الجانبية لهذا الكتاب  
وغيره من الأبحاث التي نشرتها أن تلقيت العديد من الدعوات لالقاء محاضرات عامة  
عن الموضوع في كثير من أجزاء الولايات المتحدة ، كما وقع على الاختيار لأكون واحدا  
من مديري معاهد دراسة العلاقات بين الأجناس تحت رعاية الكويكرز . وبالطبع  
رحبت بفرصة توصيل نتائج هذه الأبحاث الى جمهور أكبر . كان أحد المطالب التي  
نادى بها الطلبة أثناء المظاهرات في ١٩٦٨ أن تكون موضوعات الأبحاث والتدريس  
ذات صلة بقضايا العصر الاجتماعية الهامة ، وبالرغم من أني لا أؤيد الاقتراح القائل



بعدم تشجيع الأبحاث البحتة نتيجة لذلك ، لحظة واحدة ، فاني أعتقد أنه بوسعي أن أقول أن عمل كان له بالفعل نتائج عملية حقا . وقد وصفه أحد زملائي بأنه سابق لأوانه في كونه متصلا بمشاكل العصر . ففي الوقت الذي كان فيه هذا العدد الكبير من الناس يتقبلون الفكرة القائلة بأن البيض أعلى وراثيا من السود وأن التعليم المنفصل لكل منهما له ما يبرره نتيجة لذلك فاني أعتقد أن الموقف الذي دافعت عنه كان له أثر مؤكد . فقد استشهد بنتائجي في تقرير للعلوم الاجتماعية أرسل الى المحكمة العليا للولايات المتحدة ، ورات باجماع الآراء في ١٧ مايو ١٩٥٤ أن الفصل الإجباري للأطفال السود يناقض المبادئ الموضوعة في الدستور الأمريكي ، وبعد ذلك بقليل منحت درجة فخرية من جامعة هاوارد ، وهي جامعة سوداء في واشنطن د . س .

ولا يزال هناك أناس في مراكز أكاديمية رفيعة يدافعون عن فكرة التسلسل الوراثي للأجناس ، وقد ناقشت حججهم بشيء من التفصيل في مكان آخر . وعلى أية حال فيمضي من المعاني يد النقاش المستمر بشأن اختلاف الأجناس أمرا لا معنى له ، أو أنه « ليس مشكلة » . فحتى أولئك الذين يعتبرون السود أقل مرتبة من البيض يعترفون بأن بعض السود على الأقل أعلى من أواسط البيض ، وقد يكون هناك اختلاف في الرأي بشأن درجة التداخل ، ولكن سواء كان ذلك يصل الى ٥٠ ٪ أو ينخفض الى ١٠ ٪ فلا ينبغي أن يكون له أي أثر على السياسة . وما دام هناك أي درجة من التداخل فإن أي خط فاصل بين الفرص أو الامتيازات المتاحة يضع جميع السود على جانب وجميع البيض على الجانب الآخر أمر لا يمكن قبوله اطلاقا ، ويتعذر الدفاع عنه . وقد قبل هذا الموقف الآن على نطاق واسع في معظم أجزاء العالم ، لا يشذ عن ذلك بشكل واضح سوى جنوب افريقيا وروديسيا .

### العلاقات الدولية :

أدى اهتمامي بالاختلافات النفسية الموروثة المزعومة بين الجماعات العرقية مباشرة الى الاهتمام بالعلاقات بين الجماعات ( الأنماط الثابتة ، والتحيزات ، والفرقة ) ، ومن هنا كان الانتقال سهلا الى دراسة العلاقة بين الشعوب . والواقع أن هاتين المجموعتين من المشاكل لا يمكن الفصل بينهما بالفعل ، فقد كان للأبحاث التي أجريتها في أوروبا نتائج متضمنة بالنسبة للاختلافات بين الأجناس ، ولكن الأشخاص الذين أجريت عليهم الاختبارات وصفوا أنفسهم بأنهم فرنسيون أو ألمان أكثر منهم نورديين أو البيين .

أما الدراسة التالية التي قمت بها فكانت منصبة أيضا على الاختلافات بين الجماعات ، لكن بدون إشارة الى أصلها الوراثي المحتمل . فمن ١٩٣٥ الى ١٩٣٦ كنت أمتح بمنحة جوجنهايم التي مكنتني من أن أقضي عاما في الصين وفي بكين بصورة أساسية لدراسة التعبير العاطفي .

ان فكرة الغربى الثابتة عن الشرقى تشمل فكرة غموضه ، ويمكن وضع مشكلة البحث الذى كنت أجريه بالشكل الآتى : هل يعتبر الغربيون الصينى غامضا لأنه لا يعبر عن مشاعره بحرية أو بالأحرى لأنه يعبر عنها بطريقة مختلفة عن طريقهم ؟ وتلك هى المشكلة القديمة للتعبير عن العواطف كنوع من اللغة ، أو الاتصال ، التى تستحق فى رأى قدرا أكبر من البحث . ومن سوء الحظ أن البحث الذى كنت أجريه فى الصين قد توقف بسبب الحالة السياسية قبل أن أحصل على مادة كافية تماما ، ولكن البحث استمر فترة كانت كافية للتوصل الى نتيجة هى أن كلا من السؤالين اللذين طرحتهما ينبغى أن تكون الاجابة عليه بالإيجاب ، أى أن الصينى يعبر عن مشاعره بقدر أقل من تعبيرات الوجه عند الأوربى ، وأن هناك أيضا اختلافات فى الطريقة التى يعبر بها عن مشاعر معينة .

وكانت تجربتى هذه فى الصين بالإضافة الى رحلة حول العالم ، قضينا خلالها أنا وزوجتى شهرا تقريبا فى الهند واليابان ، هى التى وجهت انتباهى أكثر من أى شىء آخر الى مسألة الشخصية القومية أو الصفات النفسية للشعوب المختلفة . وعندما انتخبت بعد ذلك بعدة سنوات (١٩٤٣) رئيسا لجمعية الدراسة النفسية انفساى الاجتماعية ألفت خطاب الرياسة عن «علم النفس للشخصية القومية» ، واثرت موضوع الاسهام الذى يستطيع علماء النفس أن يقوموا به فى فهم هذه القضية المعقدة . وفى العام التالى كان على أن أقوم بالمهمة نفسها فى اجتماع «شعبة الشخصية وعلم النفس الاجتماعى للجمعية النفسية الأمريكية» ، وحاولت لأول مرة أن أناقش «مدخلا نفسيا الى العلاقات الدولية» ( لم ينشر بعد ) ، وأعتقد أن تلك النشاطات وغيرها من النشاطات المتصلة هى التى أدت « بوقف كارنيجى للسلام الدولى » أن يقترح اسمى فى سنة ١٩٤٧ لادارة مشروع اليونسكو عن أنواع التوتر المؤثرة على التفاهم الدولى ، وساعدت الى علاقتى باليونسكو فى الجزء الثانى ، أما هنا فسأقتصر على الإشارة الى أن هذه العلاقة قد شكلت مرحلة هامة فى استمرار اهتمامى بالعلاقات الدولية .

وقبل مجئى الى اليونسكو فى ١٩٤٨ لأخلف هادلى كانزيرل الذى بدأ المشروع كنت قد أعددت تحت رعاية « مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية » عرضا نقديا للأبحاث المتصلة بالموضوع ، ونشر المجلس هذا العرض فى ١٩٥٠ بعنوان « أنواع التوتر المؤثرة على التفاهم الدولى ، مسح للأبحاث ( وحملت النسخة الفرنسية عنوان *Etats de Tensions et Compréhension Internationale* )

وكان خطاب الرياسة الذى ألقته « لجمعية علم النفس الشرقية » فى ١٩٤٩ عن موضوع أنواع التوتر ومتضمناته . وكانت تجربة اليونسكو ( ١٩٤٩/١٩٤٨ و ١٩٥٣/١٩٥٥ ) أيضا أساسا لخطاب عن «دور العالم النفسى فى الشؤون الدولية» ، ألقى « لجمعية دراسة الامور النفسية » فى ١٩٥٦ عندما تسلمت جائزة كورت لوين التذكارية السنوية ، وأدى بى هذا فيما بعد الى اعداد كتاب «البعد البشرى للعلاقات الدولية» ونشر فى ١٩٦٤ ، وفيه بذلت كل ماوسعنى من جهد لجمع مايمكن ان

يسهم به علم النفس وغيره من التخصصات القريبة ، مثل الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والطب النفسي الى ميدان كان يعتبر بوجه عام من اختصاص عالم السياسة، والمؤرخ ، وعالم الاقتصاد . وقد حاز هذا الكتاب عروضا لقعدة طيبة بوجه عام (فيما عدا بعض الاستثناءات على أى حال) وترجم الى الالمانية والنرويجية واليابانية . ولكن ليس بوسعي أن أزعم أن العلاقات الدولية قد تأثرت كثيرا نتيجة لذلك .

ذكرت من قبل أنه « لا مشكلة » بشأن الاختلافات بين الاجناس ، فان الاهتمام بالاختلافات الخاصة بالوراثة هو في الحقيقة أمر غير ذى موضوع ما دام هناك تداخل بين الجماعات المعنية . ويبدو لي أن في ميدان العلاقات الدولية « لا مشكلة » أخرى كانت موضوع كثير من الأبحاث المنشورة والمطبوعات والمناقشات ، وهي: هل العدوانية صفة فطرية غريزية أم صفة مكتسبة يتعلمها المرء . وكانت نظريات كورنراد لورنز وروبرت آردري ، وديزموند موريس وغيرهم ممن أكدوا استمرار الصلة بين السلوك البشرى والحيوانى تفسر أحيانا بأنها تبرر النتيجة القائلة بأن بنى البشر مثلهم مثل الحيوانات الأخرى لديهم نوع من الدافع الذى لا يقاوم للتعبير عن عدوانيتهم ، ونتيجة لذلك فالحرب بين الجماعات الانسانية أمر حتمى ، وتلك « لا مشكلة » لسببين، ففي المكان الاول يعد الاستدلال من الحيوانات الأخرى فيما يختص بالانسان دائما أمرا مشكوكا فيه ، وذلك بسبب ما للثقافة والتقاليد والتجربة من تأثير كبير على تشكيل السلوك الانسانى . وفي المكان الثانى ، ولعل ذلك أكثر أهمية ، اذا كانت العدوانية صفة غريزية فانها تستطيع أن تعبر عن نفسها فى أشكال مختلفة كثيرة جدا : فى الرياضة ، والتنافس الاجتماعى والاقتصادى ، وفى الانجازات العلمية ، وفى اللغة ، بحيث لا يمكن اعتبار نوع واحد من التعبير (مثل الحرب) أمرا حتميا . وبتعبير فلسفى لو كانت العدوانية شرطا مسبقا للصراع العنيف فلا يمكن اعتبارها سببا كافيا مشروعا لمثل هذا الصراع . وقد حاولت فى كتابى « البعد الانسانى للعلاقات الدولية » أن أتناول هذه الناحية العدوانية ونواحى أخرى لها .

وكانت إحدى القضايا التى أثرتها فى هذا العمل وفى أعمال أخرى من قبل ، وكانت تلقى اهتماما كبيرا فى اليونسكو أيضا ، قضية تقويم أو تقدير تأثير البرامج التى صممت لتحسين العلاقات الدولية . طلب الى «المجلس الدولى للمعلوم الاجتماعية» أن أعد لليونسكو مسحا نقديا للمادة المكتوبة عن نتائج التبادل الدولى . وفى ١٩٦٦ نشرت دراسة قصيرة عن «التبادل الدولى فى مجال التربية والعلوم والثقافة» مقترحات للبحث . وبعد ذلك عاونت فى التنسيق لبحث تحت رعاية «مركز التنسيق الاوروبى للبحث واعداد الوثائق للعلوم الاجتماعية» فى فيينا ، قام فيه عدد من الباحثين باستطلاع المشاكل التى تواجه الطلبة القادمين من البلاد النامية ، ونشر هذا البحث باللغة الفرنسية ( مع ملخصات بالانجليزية ) بمعاونة جين بين بريكا بعنوان « طلبية العالم النامي فى أوروبا » ( ١٩٧٢ )

وأقوم فى الوقت الحاضر بإدارة دراسة عن مدى ونتائج التبادل الدولى بين الجامعات على مستوى الطلبة والأساتذة ، فى سبع دول ( هى : جمهورية ألمانيا الاتحادية

فرنسا ، وألمند ، واليابان ، ويوغوسلافيا ، والمملكة المتحدة ، والولايات المتحدة ) .  
وقد أقتعتنى هذه الدراسات المتعددة للتبادل الدولى بقيمة هذا التبادل ولكنها أشارت  
فى الوقت نفسه الى كل من ضرورة تحسين هذه العملية وامكان ذلك مما ، وذلك حتى  
تصبح الإقامة المرضية فى بلد أجنبى أكثر احتمالا .

ويمكن ذكر نوعين آخرين من النشاط المتصل بموضوع العلاقات اندولية .  
فتحت رعاية الاتحاد الدولى للعلوم النفسية ، أجريت بالاشتراك مع الاس لامبرت  
بجامعة ماكجيل وعدد من الزملاء دراسة لتطور الأنماط الثابتة فى صفار الأطفال فى  
عشر دول مختلفة «آراء الأطفال عن الشعوب الأجنبية» (١٩٦٧) . ولما كنا نشعر أن  
الأنماط الثابتة القومية تؤدى دورا فى تحديد رؤية الجامعات الأخرى وفى تحديد  
السلوك بالنسبة لها فقد رأينا أنه من المهم أن نتعرف على شىء من المظاهر المبكرة لتلك  
الأنماط وما يطرأ عليها من تغيرات مع تقدم السن . وقد أثار اهتمامنا الاختلافات فى  
طبيعة النمط الثابت لدى الأطفال فى عينات من قوميات مختلفة ، وكذلك لدى المصادر  
(الوالدين ، والمدارس ، ووسائل الاعلام) التى ييسدو أنها تؤدى الدور الأكبر فى  
تطويرها .

وفى ١٩٥٩ كان جوهان جالتونج وزملاؤه فى أوصلو يخططون لإقامة معهد  
لبحوث السلام (يعرف الآن باسم المعهد الدولى لبحوث السلام) بأوصلو ) ، ودعيت  
لغضاه شهر مع الجماعة العاملة فى أوصلو للمعاونة فى وضع برامج البحث الذى  
ينوون القيام به ، وقد قمنا بكثير من المناقشات النافعة المثمرة . وبالرغم من أن المعهد  
الجديد قد تطور بسرعة وجاوز المقترحات التى كنت قد قدمتها فأنى أشعر بالفخر لأنى  
كنت أحد الآباء المؤسسين لذلك العمل النشط الهام . أن أبحاث السلام ماضية الآن  
قما فى كثير من الجامعات فى جميع أنحاء العالم ، ومن المشجع أن نرى أن تقدمها  
يشكل أحد الاهتمامات الكبرى لعدد كبير جدا من علماء الاجتماع .

### تجربة اليونسكو ونتائجها

قضيت ، كما أشرت من قبل ، فترتين عضوا فى سكرتيرية اليونسكو . كانت  
الاولى فى ١٩٤٨/١٩٤٩ عندما كنت أعمل مديرا لمشروع أنواع التوتر ، وكان القائم  
بأعمال مدير قسم العلوم الاجتماعية هو عالم الاجتماع النرويجى أرفيدبروديرسين ،  
وعندما ترك هذا المنصب خلفته كقائم بأعمال المدير بقية تلك الفترة . أما الفترة  
الثانية فقد جئت ، بناء على دعوة من ألفا مردال مدير القسم ، للعمل من ١٩٥٣ الى  
١٩٥٥ رئيسا لشعبة العلوم الاجتماعية التطبيقية التى أصبحت الشكل الموسع لمشروع  
أسباب التوتر السابق ذكره . ولن أحاول فيما يلى أن أفصل بانتظام بين هاتين  
الفترتين ، بل سأكتفى بدلا من ذلك بتركيز الاهتمام على بعض نشاطات اليونسكو  
التي أضافت أبعادا جديدة معينة الى حياتى العاملة .

أصبح اهتمامى المستمر بمشكلة الأجناس ذا موضوع بشكل خاص فى ١٩٤٩

عندما دعا «المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة» اليونسكو لاعداد مادة عن «اسهامات العلوم البيولوجية والاجتماعية» في فهم هذه المشكلة واحتمال حلها . وقدمت مذكرة اقترحت فيها اعداد سلسلة من الدراسات القصيرة عن النواحي العلمية المتصلة بها ، الى جانب الدعوة لاجتماع للخبراء من البلاد والتخصصات المختلفة تحت رعاية اليونسكو لاعداد بيان يوقعون عليه . وكان جونار ميردال قد دعا في كتابه «معضلة أمريكية» لهجوم تريوي لتضييق الهوة بين المواقف الشعبية والموقف العلمي بالنسبة للاجناس . وكانت الاقتراحات التي تقدمت بها تتفق مع هذا «الهجوم» . ودعى العالم الانثروبولوجي المبرز الراحل ألفريد ميترو : للانضمام الى سكرتيرية اليونسكو والاضطلاع بالمستولية الخاصة بهذا المشروع الخاص بالاجناس . ولم يضطلع هذا العالم بتنفيذ المقترحات الاصلية فحسب ، بل وسع نطاقها ايضا ، فبدأ عددا من المطبوعات عن النواحي العلمية لمشكلة الاجناس ، نشرت في عدة لغات ، بالاضافة الى سلسلة من البيانات لمجماعات من الخبراء ، كما صدرت طبعة جديدة من مجموعة الدراسات القصيرة في مجلد واحد . واعتقد انه يمكن القول بان هذا المشروع بأكمله كان مشروعا ناجحا بشكل فريد ، بالرغم من أن إحدى الدول الاعضاء (جنوب افريقيا) قد انسحبت من اليونسكو نتيجة له ، وما زالت اليونسكو تواصل نشاطها في هذا الميدان الهام .

وأثناء شغلي لمنصب القائم بأعمال المدير ظهر العدد الاول من « النشرة الدولية للعلوم الاجتماعية » ( التي أصبحت الآن هذه «المجلة» ) ، وقد أعده الراحل كازيميريس شيزيربا . ولعل لست بحاجة الى أن أضيف أن هذا «المشروع» ما زال ناجحا ومزدهرا على خير وجه . وما يسعدني أني كتبت المقال الافتتاحي لعدد خصص لموضوع «الانماط الثابتة القومية» (المجلد الثالث ، العدد ٣، ١٩٥١) ولعدد آخر يعالج التقويم (المجلد السابع ، العدد ٣ ، ١٩٥٥) . أما فيما يتصل بالمشكلة الاخيرة فقد سنحت لي الفرصة للاشتراك في الكثير من المناقشات داخل نطاق اليونسكو والمنظمات الاخرى، التي تناولت الحاجة الى تقويم اثر البرامج التي تم القيام بها . وكان رد الفعل المعتاد مؤيدا بشرط إمكان تنفيذ ذلك دون انفاق الوقت أو المال الذي قد يكون المشروع في حاجة اليه . وما زلت مقتنعا بأنه من المرغوب فيه أن تخصص اعتمادات للتقويم ، حتى اذا استلزم ذلك خفض المشروع نتيجة لذلك . وهناك علامات مشجعة على أن هذا الرأي في سبيله الى القبول في الجهات العليا . فعلى سبيل المثال طلب الى في ١٩٦٣ أن أراس اجتماعا في روما تحت الرعاية المشتركة « لمنظمة الصحة العالمية » و «المنظمة العالمية للأغذية والزراعة» لاعداد خطوط رئيسية لتقويم مشروعات التربية الغذائية .

وبالاضافة الى هذه النشاطات وغيرها من النشاطات الاخرى العديدة التي أجريت داخل نطاق اليونسكو مباشرة طورت عددا من الصلات التي كانت ستدخل كثيرا من الأرض الى نفسي فيما بعد . فبعد وصولي الى باريس بفترة وجيزة أرسلت لتمثيل اليونسكو في اجتماع في روفي بارك في انجلترا ، مما هيا الطريق لتأسيس

« اتحاد المنظمات العالمي للصحة العقلية » ، وقد كان هذا الاتحاد منذ انشائه مفتوحا لمختلف التخصصات ، كما كان دوليا ، وإن كان من الطبيعي أن يجتذب بشكل أكثر مباشرة علماء الاجتماع المهتمين بالصحة العقلية أما فيما يتعلق بى فان هذا الاتصال ، وخاصة بجون . ر . ريس الرئيس الأول للاتحاد ثم مديره ، وبروك شيسولم أول مدير عام لمنظمة الصحة العالمية ، أحيا اهتمامى بمشاكل الصحة العقلية التي كادت تكون ساكنة تماما منذ أيام دراستى الطبية وقد أدت هذه الصدفة التي جعلتني أقوم بنميشيل اليونسكو عند بداية تكوين الاتحاد الى بقاى متصلا به منذ ذلك الحين الى الآن . فعملت عضوا في لجنة الاستشارية للمهن المختلفة « واللجنة العلمية » ، ومجلس الادارة الذي أصبحت رئيسا له فيما بعد ، ثم رئيسا للاتحاد ، ثم رئيسا فخريا له . وهذا الاتصال المستمر بميدان الصحة العقلية . وخاصة فيما يتصل بنواحيه الاجتماعية والثقافية ، قد نتج عنه عدد كبير من المحاضرات والمقالات في هذا المجال ، الذي اتجه أخيرا جدا الى موضوع الصحة العقلية وعلاقته بالتغير الصناعى والتكنولوجى السريع . ونظرا لدخول مشكلة الصحة العقلية ( الجريمة أيضا الى حياتى فى فترة متأخرة بعض الشيء عن الاهتمام بالأجناس أو العلاقات الدولية فان دراسته من زاوية الثقافات المتعددة أصبحت هكذا ميدانا كبيرا آخر من ميادين اهتمامى ، كما أصبحت علاقتى مع « الاتحاد الدولى لتربية الوالدين » فيما بعد خطوة أخرى في هذا الاتجاه .

ذكرت آنفا كيف دعيت لرئاسة اجتماع «للمنظمة الصحة العالمية» «والمنظمة العالمية للأغذية والزراعة» لدراسة موضوع «التقويم» . وأضيف هنا أن هذا بدوره كان هو النتيجة المباشرة لاجتماع سابق للاتحاد العالمي للصحة العقلية لدراسة سوء التغذية وعادات التغذية أقيم فى جورينافاكا فى ١٩٥٦ ، وقمت برئاسته أيضا . وبالرغم من أنى لم أسجل احصاء للناسيات التي قمت فيها بهذه المهمة على المستوى القومى والدولى فانه من المؤكد أن عددها كان كبيرا . قال لى مرة صديقى الطبيب ، الراحل جوردون أولبورت لملك أفضل من يرأس اجتماعا فى العالم ، ولكن كيف لى أن أعرف ذلك؟ فلم أذهب لاجتماع قط لم تكن أنت رئيسه . ومن الاجتماعات الأخرى التي رآستها اجتماع فى مؤسسة مينينجر تحت رعاية « الاتحاد » فى ١٩٥٨ نتج عنه أحد المطبوعات عن العوامل الثقافية لجنح الأحداث ، بتحقيقات . جيبنز ، وت . آمر يفيلدت ، واجتماع آخر بدعوة من اليونسكو فى هذه المرة ، عالج « المتضمنات الاجتماعية لاستخدام الطاقة النووية فى الأغراض السلمية » . وكان آخر هذه الاجتماعات اجتماعا فى روما فى ١٩٧٢ ، دعا اليه « معهد بحوث الدفاع الاجتماعى للأمم المتحدة لمعالجة مشاكل تكيف المهاجرين فى بلاد مختلفة » .

ومنظمة ثانية ارتبطت بها ارتباطا وثيقا نتيجة لعملى باليونسكو هي الاتحاد الدولى للعلوم النفسية . وقد قام هذا الاتحاد المكون من عديد من الجمعيات النفسية القومية بدفعة من اليونسكو ، ولكن كانت قد سبقته لجنة دولية يرأسها هنرى بيرون وقد صرت عضوا فى اللجنة التنفيذية الأولى لهذا الاتحاد بناء على دعوته . وقد قادنى ذلك الى أن أصبح سكرتيرا عاما للاتحاد لست سنوات من ١٩٥٤ الى ١٩٦٠ ، تليها

ثلاث سنوات كنت فيها رئيسا له . وقد كنت في هذه المناصب خلفا لكل من بيرون وبياجي و ميشوت ، وبطبيعة الحال كان وجودي في صحيفة هؤلاء المبرزين مدعاة للفخر .

ولم يتح لي عمل في الاتحاد فرصة إقامة الصداقات مع زملاء من بلاد كثيرة فحسب ، ولكنه مكنتني كذلك من أن أدلى بدلوي في دفع وتوسيع نطاق التعاون والاتصال الدولي في مجال النفس . وبناء على اقتراح لي يسر الاتحاد نشر بعض المؤلفات مثل « الشخصية القومية والانماط القومية ، للعالمين هـ . س . ج . ديوجكر ، و هـ . فريدجا ( ١٩٦٠ ) ، ومجلدين عن مشاكل الشخصية من تحقيق هنري دافيد وآخرين ( ١٩٥٩ و ١٩٦٠ ) . كما وضع تحت رعايته دراسة الانماط القومية في الاطفال التي أشرنا إليها آنفا . كما أسهم في مؤازرة الابحاث التجريبية عن الاتجاهات نحو استعمال الطاقة النووية في الأغراض السلمية . وفي الوقت الحاضر يمد الاتحاد يد المساعدة لدراستنا عن اتجاهات الطلبة بين مختلف القوميات التي سنضعها باستفاضة فيما يلي . وقد هيا لي الاتحاد فرصة لأن أكون «مقالوا» لعلم النفس الدولي . وأتاح لي عمل في اليونسكو أن أكون عضوا ، على الأقل جزئيا ، في منظمة ثالثة مازالت على صلة وثيقة بها وهي « المجلس الدولي للعلوم الاجتماعية » ، اذ كنت لعدة سنوات عضوا في اللجنة التنفيذية للمجلس ، هذه المنظمة أسستها اليونسكو في ١٩٥٢ . وما زلت محتفظا بارتباطي بها لأن معهد الابحاث الذي أديره وهو « المركز الدولي لدراسة العلاقات المتبادلة بين الجماعات » يقع تحت اشراف المجلس والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس . وقد أزر المجلس الدراسات عن التقويم التي أشرت إليها آنفا وأسهم أيضا في الأبحاث عن اتجاهات الطلبة .

ولعل قد وضحت الآن لماذا علقت كل هذه الأهمية على ما أسميته النتائج الجانبية لتجربتي في اليونسكو . وينبغي أن أضيف أنه منذ ١٩٦٢ حين انتقلنا من نيويورك الى باريس عملت لهذا الغرض في مناسبات عدة كمستشار لقسم العلوم الاجتماعية باليونسكو ، كما مثلت المجلس الدولي للعلوم الاجتماعية كمراقب في اجتماعات عقدت تحت رعاية اليونسكو .

### مهمة التدريس :

عندما تحولت عن فكرة ممارسة الطب النفسي الى فكرة العمل الأكاديمي في مجال علم النفس كان ذلك أساسا لرغبتي في التدريس . أحسست ببدء المهنة ورغبة ملحة في أن أكون معلما . وبعد أكثر من أربعين عاما (كان بينها فترات لم أعمل فيها بالتدريس ) مازالت هذه المهنة تعطيني رضا نفسيا كبيرا . كنت أعتقد دائما ، ولعل ذلك تبسيط أكثر من اللازم ، أن المهمة الرئيسية للمدرس هي أن يدرس . أن

البحث والكتابة مهمان بالطبع ، ولكن يجب ألا يتدخل ، في تقديره ، في المسؤولية الأساسية للأستاذ نحو طلبته .

ويمكنني أن أحدد بداية عملي كمدرس بسنة ١٩٢٦ / ١٩٢٧ حين عملت مساعدا في دراسة عليا في علم النفس التجريبي بجامعة كولمبيا . وبعد أن أمضيت سنتين في أوروبا عدت الى الجامعة كباحث مساعد في علم الأجناس مع فرانز بواس من ١٩٢٩ الى ١٩٣١ . ولكن أثناء الجزء الأخير من هذه الفترة درست أيضا مقررين لطلبة الدراسات العليا أحدهما في الفروق بين الأجناس والآخر في علم النفس والأثنولوجيا . أما عملي كمدرس نظامي فقد بدأ في ١٩٣١ . ولعدة سنوات درست سلسلة من المقررات المطلوبة في علم النفس العام ، يليها بقليل علم النفس الخاص بالشواذ ، وعلم النفس التفاضلي ، وعلم النفس الخاص بالشخصية ، وعلم النفس الاجتماعي ، وفي الوقت نفسه واصلت تدريس مقررات الدراسات العليا التي ذكرتها من قبل . وفي هذه السنوات قمت بتدريس الأثنوبولوجيا على أساس عدم التفرغ في كلية سارة لورنس ، وهي كلية تجريبية تقدمية غير بعيدة عن مدينة نيويورك ، وظللت بعض الوقت لا أدري أشتغل بعلم النفس أم بالأثنوبولوجيا ( علم الانسان ) ، إذ وجدتني مشغوبا بهما بدرجة متساوية . وفي كولمبيا اشتركت في ادارة أبحاث الطلبة في علم النفس الاجتماعي مع جاردنر مورفي وهو رجل عظيم وصديق وفي أيضا . وحين غادر مورفي كولمبيا أصبحت وحدي مكلفا بهذا العمل ، وكانت إحدى النتائج المجزية لمسؤولياتي الجديدة عن تدريس علم النفس الاجتماعي لطلبة الدراسات العليا ان كان بين طلبتي دارسون للأثنوبولوجيا وعلم الاجتماع الى جانب علم النفس . وقد أسهم هذا بالطبع في إعطاء عملي سمة تعدد التخصصات ، وشعرت أنني شديد القرب من أعضاء كليتي في هذين التخصصين المتجاورين بمثل القدر الذي كنت به قريبا من أولئك الأعضاء في تخصصي ، بل أكثر قربا في بعض الحالات . وشاركت في عدد من امتحانات الدكتوراه في هذين المجالين الى جانب مجال علم النفس . وما يدعوني للفخر أن الكثيرين ممن برزوا في هذه التخصصات الثلاثة كانوا من طلبتي في وقت من الأوقات .

ومن ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ مرت بتجربة شائقة هي العمل أستاذا زائرا في جامعة ساو باولو بالبرازيل ، حيث دعيت لاقامة قسم علم النفس . وكان علم النفس التربوي يدرس هناك منذ عدد من السنوات ، ولكني كنت أول أستاذ لعلم النفس هناك . وبالإضافة الى تدريس سلسلة من المقررات ( باللفظة البرتغالية ) عاونت



أيضا في إعداد برنامج للدراسة يستمر ثلاث سنوات ويغطي معظم المجالات الهامة في الميدان . وبالرغم من أن هذا البرنامج قد عدل منذ ذلك الحين بدرجة كبيرة فأنني أعتقد أنه شكل خطوة أولى مفيدة . كذلك جمعت عددا من الزملاء البرازيليين من ساو باولو وريو في حلقة بحث نتج عنها أحد المطبوعات المشتركة عن علم النفس المعاصر ١٩٥٣ ، وبعد ذلك بعدة سنوات ( ١٩٥٨ ) منحتني جامعة البرازيل درجة فخرية .

وتسكنت أيضا في السنوات التالية في كولومبيا من إقامة عدد من حلقات البحث في موضوعات قريبة من اهتماماتي المستمرة . وقد شملت تلك الموضوعات العلاقات بين الجماعات أو بين أفراد من أجناس مختلفة ، كما شملت الثقافة ، والشخصية ، والمميزات القومية ، والعوامل النفسية في العلاقات الدولية ، وفي تلك الأثناء كان علم النفس الاجتماعي قد تطور من مجرد ريبب في قسم علم النفس الى مجال تخصص هام معترف به . وعندما تركت كولومبيا في ١٩٦٢ لأصبح أستاذا زائرا في جامعة باريس كنت أشعر بالرضا لأنني حققت تحسنا ملموسا .

أما فرصة المجيء الى باريس ، الى ذلك البناء الشهير : السوربون ، فقد رتبته بمعاونة صديقي جين ستويتزيل . وقد اتفق معي زملائي في كولومبيا على أنه من المستحيل أن يرفض المرء مثل هذه الدعوة . واعتقد أنني واحد من أوائل الأجانب الذين سموا أساتذة مساعدين في كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة باريس ، وبقيت في هذا المنصب ثلاث سنوات أدرس فيها محاضرات عامة لفصول كبيرة وفي موضوعات مشابهة الى حد كبير لموضوعات حلقات البحث التي كنت أقيما في كولومبيا، مع شيء من التعديل اللازم لجمهور يتحدث بالفرنسية . ثم انتقلت في ١٩٦٥ الى القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، حيث مازلت أدير حلقة بحث عن علم النفس الاثنولوجي يشمل العلاقات بين الجماعات وبين الدول ، والأنماط الثابتة ، والتحيز ، وتكيف المهاجرين ، وغير ذلك من المشكلات المتصلة . وفي الوقت نفسه ، وطوال معظم هذه السنوات ، واصلت تدريس مقررات تكميلية في الكلية ، كما قمت أيضا بالتدريس في معهد الدراسات الافريقية .

وكثيرا ما سئلت أن أعقد مقارنة بين طلبي في فرنسا وطلبي في كولومبيا ، وقد وجدت في قيامي بالتدريس في كل من هذين المعهدين سعادة كبرى . ومن العسير أن أحدد أيهما قد استمتعت به لدرجة أكثر ، ولكن إحساسي العام وأن كان

ينضخ لبعض الاستثناءات هو أن طلبتي الأمريكيتين كانوا أكثر اجتهارا ولديهم قدر أكبر من المعلومات في موضوع تخصصهم الذي يركزون عليه . وكانوا يعبرون عن آرائهم ويوجهون إلى النقد بحرية كبر ، وكان من المحتمل بدرجة أكبر أن يلفتوا انتباهي إلى تقارير البحوث الحديثة المتصلة بما كنت أقوله . أما الطلبة الفرنسيون فكانوا في الغالب أكثر معرفة بالموضوعات الخارجة عن تخصصهم ، ويعبرون عن أنفسهم عادة بطلاقة أكبر وأسلوب أفضل شفويا وكتابة . وبوسعي أن أقول أن رسائل الدكتوراه في مثل هذا المستوى تقريبا . على أنه يجدر بي أن أضيف أن طلبتي في فرنسا كانوا أكثر تنوعا من حيث القومية من طلبتي في كولمبيا ، إذ كان أولئك الذين اتعوا أو هم بصدد اتمام أبحاثهم لدرجة الدكتوراه أو الدبلوم في المدرسة التطبيقية تحت إشرافي ينتمون إلى كندا وإيران وإيطاليا ومراكش وتونس والولايات المتحدة إلخ إلى جانب فرنسا . أما المقررات التي كنت أحاضر فيها في الكلية فقد كان لدى فيها عدد لا بأس به من الأفريقيين ، وأثناء سلسلة من الرحلات العلمية لالتقاء المحاضرات التي ذهبت بي إلى السنغال وساحل العاج ومالي وزائير (وأيضا إلى تونس ومراكش) سرتني كثيرا أن التقى بكثير من أولئك الفن كانوا من طلبتي .

وهناك مهمة تدريسية أخرى تستحق الذكر . فمن ١٩٦٢ إلى ١٩٧٠ قمت بالتدريس في الجامعة الدولية للعلوم الاجتماعية في بروديو بروما في موضوع العلاقات بين الجماعات ( الأنماط الثابتة ، التميز ، جماعات الأقليات ، التفرقة ، إلخ) . وكان طلبتي في معظم الأحوال من القسس وطلبة اللاهوت الكاثوليك . وكانت الجامعة ككل تمثل الجناح المتحرر من الكنيسة الكاثوليكية ومهتمة بتحسين العلاقات بين الكاثوليك وبقية العالم . وكنت أثناء السنوات الثلاث الأولى أحاضر بالفرنسية ، ثم بعد ذلك أخذت أحاضر باللغة الإيطالية أيضا عندما أصبحت معرفتي بها ، بالرغم من أنها كانت أبعد ما تكون عن الإتقان ، تمكنني من ذلك . وكانت علاقاتي بالطلبة وبالكلية ممتازة ، وقد أشعرتني الجميع بأنهم يقدرون عملي بينهم . وقمت بالاشتراك مع ثلاثة من زملائي (تيرينتوري ، كويسيني ، فيليبوني) بنشر وصف تحليل بالإيطالية لمحتويات الكتب الدينية الكاثوليكية والمكتوبة بالإيطالية والأسبانية فيما يتعلق بالطريقة التي تعالج بها الجماعات العرقية والدينية الأخرى . وظهرت أخيرا (١٩٧٢) طبعة أسبانية . ونتيجة لتلك التجربة في روما انتشرت شائعة بين أصدقائي من الأمريكيتين تقول أنني أقوم بالتدريس في الفاتيكان . ومن الواضح أن هذا كان قولا مبالغيا فيه للغاية ، لكنني التقيت بالفعل بعدد من الكاردينالات ، كان أحدهم هو الكاردينال المبرز الراحل بيا الذي كتب مقدمة لكتابنا هذا .

ولقد وجدت ومازلت أجد في التدريس قدرا كبيرا من الرضا . ولعل من اعظم ما جنيت في حياتي الاكاديمية من مكافآت ان هذا العدد من طلبتي السابقين يشغلون الآن مناصب اكايدمية هامة في كثير من البلاد .

### المرکز الدولي لدراسة العلاقات بين الجامعات :

انشىء هذا المركز الذى سبقت الاشارة اليه في سنة ١٩٦٦ تحت الرعاية المشتركة للقسم السادس من مدرسة الدراسات العليا والمجلس الدولي للعلوم الاجتماعية ، وانا اعمل مديرا لهذا المركز بالاشتراك مع ماريزا زغالوني الذى يعمل مديرا مساعدا . وقد قمنا بتكليف من اليونسكو بدراسة نشرت في ١٩٦٩ عن القومية والقبلية بين الطلبة الافريقيين ، وتناولنا الاهمية النسبية للهوية القومية والقبلية على التوالي لطلبة من ست دول ( اثيوپيا ، غانا ، نيجيريا ، السنغال . اوغنده ، زائير ) . كذلك اجرينا بحثا تناول طلبة من العالم الثالث في الجماعات الاوربية ونشرنا نتائجه بمعاونة جين بين بريكا تحت رعاية المركز . ونقوم الآن بدراسة اتجاهات الطلبة في ثلاث عشرة دولة ، ونتوقع ان تكون النتائج معدة للنشر في ١٩٧٣ . وقد أيدنا في هذه المهمة الكبرى لا المدرسة والمجلس فقط بل ايضا اليونسكو والاتحاد الدولي للعلوم النفسية مع مساهمة مشجعة بشكل خاص من صندوق اكويناس في نيويورك . كذلك أتاح المركز لعدد من طلبة الدراسات العليا ان يجروا ابحاثهم المتصلة بالمشروعات التى تحت التنفيذ .

### خاتمة شخصية :

سأترك تقويم ما أنجزت لفيرى . أما ما أستطيع أن أقوله عن نفسى فهو انى كنت أعمل دائما وكنت دائم الاهتمام بعمل سعيدا به . وقد وجدت رضا كبيرا في الجانب المهنى والجانب الشخصى على حد سواء . وقد حصلت على نصيبى من التقدير ، ومنحت العضوية الفخرية في جمعيات علم النفس في ثماني دول مختلفة ، ودرجة الدكتوراه الفخرية من أربع جامعات هي البرازيل وهوارد اللتين سبق ذكرهما وماكجيل بكندا ودرو في الولايات المتحدة . أما فيما يتعلق بحياتى الشخصية فقد نشأت في أسرة كبيرة يسودها الحب . لم يحصل والداى على قدر كبير من التعليم النظامى ، ولكنهما أخلصا لفكرة الدراسة الاكاديمية وتحلاني بصبر طويل في

انفترة التى كنت احاول فيها تحديد نوع الدراسة التى كنت اريدها فعلا . اما زوجى فقد ظلت الى جانبى طوال اربعين عاما ، تشارك فى عملى ، وتسدى الى النصيح الحكيم ، وتسهم فى اى نجاح اكون قد حققته فى كتاباتى بمراجعتها الماهرة لخطاباتى، واهم من كل شئ بخلق الجو الذى مكنتنا من أن نستمتع معا بكثير من الأشياء . ولعل اذكر بوجه خاص اهتمامنا المشترك بالرحلات التى نجد فيها متعة كبرى ، وبتعلم اللغات الأجنبية التى أضافت كثيرا الى متعتنا بالسفر والتي تملك زوجى موهبة خاصة لتعلمها . وبحق اعجز عن التعبير عن كم انا مدين لها . اما اطفالنا ( الثلاثة ) واحفادنا (السة) فقد اضافوا كثيرا الى سعادتنا .

وعندما تسلمت درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب الانسانية من جامعة درو فى مايو ١٩٧٢ القيت خطاب الافتتاح عن « اسلوب جديد فى التفكير » . ولما كان هذا الخطاب لم ينشر بعد فسأسمح لنفسى بأن اختتم هذا المقال بشذرات منه ، وقد اخترت كنص لى فقرة من رسالة كتبها أينشتين فى ١٩٤٦ هى « ان قوة الذرة التى مكنت من عقالها قد غيرت كل شئ ما عدا طرق تفكيرنا . سنحتاج الى طريقة تفكير جديد بشكل ملموس اذا قبض للجنس البشرى ان يبقى على قيد الحياة » .

ثم استطردت كما يلى :

لم تشهد السنوات منذ كتب هذا القول أى تغيير ملموس فى هذا الشأن ، فمازال الصراع قائما فيما يتصل باختلاف القومية والمظهر الجسماني او الجنس واللغة والدين وطريقة الحياة أو أى عدد من هذه الأشياء ، ويبدو السلام بعيدا كما كان دائما .

ويحتاج معظمنا الى جماعة ينتمى اليها ، فنحن حيوانات اجتماعية تنبثق عن هوية اجتماعية وفردية أيضا والتحدى الذى يواجه المرء فى كل ميدان هو اكتشاف كيفية تشجيع الهوية الفردية دون أن يؤدى ذلك الى صراع داخل الجماعة . كيف يمكننا أن ننمى الولاء لأمتنا دون شعور بالعداء نحو الآخرين ، وأن نتمسك بديننا دون أن نزعم أن الآخرين بالضرورة على الخطأ ، وأن نؤمن بأن الاسود ( أو الأبيض ) جميل دون أن نخلص الى أن الأبيض ( أو الاسود ) قبيح .

إن الطريقة الجديدة للتفكير تتطلب نوعاً جديداً من الوطنية ، جماعية داخلية تنتمي إليها دون أن يكون هناك جماعة خارجية ، لا تنتمي إليها . وإلى حد معين كان ذلك دائماً ممكناً ، فليس هناك عادة تعارض بين الولاء للأسرة والمدينة والولاية والأمة . ولكن ذلك هو الحد الذي نتوقف عنده ، فالقومية في شكلها المألوف تقول إن الولاء مطلوب إلى هذا الحد لا إلى أبعد . إن الولاء الأكبر وتآخي البشر هما حلم البشرية ، في تعاليم كل الأديان الكبرى منه ، وفي قول جون دون لا تسأل لمن تدق الأجراس ، فهي تدق لك ، وفي كتاب وندل ويلكي « عالم واحد » ، وفي كثير غير هذا أو ذاك . هل هذا حلم مستحيل ؟ أم أن هناك شيئاً يستطيع التربويون وعلماء الاجتماع أن يعملوه ليحصلوا منه أمراً أقل استحالة بقليل ؟ اني لا أعرف مهمة المجتمع الدولي لعلماء الاجتماع أكثر من الاسهام في هذه الطريقة الجديدة للتفكير .

# ليند كونيغ

صور

يقدمها عالم اجتماع  
ألماني عالمي

## مقدمة حيوية

إن الطرف الذي كان له أثر حاسم في نمو الذهنى • هو أننى ولدت عن جبهة ثنائية ، كابن لأب ألماني وأم فرنسية • ولهذا الطرف أهمية خاصة بالنسبة لرجل قدر له أن يكون عالم اجتماع في المستقبل ، وذلك بسبب أنه استطاع منذ البداية أن يرى عن طريق التربية المزدوجة التى تلقاها أنه حتى فى حضارة موحدة نسبيا ، كالحضارة الأوروبية ، يمكن أن تظهر حلول مختلفة لمسائل الحياة الأولية • وليست هذه الحلول بالأفضل أو الأسوأ ، ولكنها ببساطة حلول مختلفة •

وبطبيعة الحال ليس فى مقدور الطفل أن يفكر فى مثل هذه المسائل • أنه يستجيب فقط للخبرة ، وذلك بأن يكيف نفسه للمضمون الحضارى القائم ، ثم يطبق باستمرار منطق هذا الموقف الحضارى • وينطبق هذا بطبيعة الحال وبالدرجة الأولى بالنسبة للغة ، إذ أن الطفل الذى ينشأ بلفتين يميل لأن يجيب باللغة التى يوجه بها الكلام اليه • ولكنها فى الوقت نفسه تحدث تحولا خاصا فى اتجاهاته اللاشعورية • وحتى الآن فأنى أتكلم فى أحلامى باللغة الفرنسية أو الألمانية إذا كان المحيط الذى يتصادف تواجدى فيه تسوده اللغة الفرنسية أو الألمانية • ولأن نشأتى العائلية قبل

## ترجمة : محمد كامل النحاس

وكيل وزارة التربية والتعليم سابقا • حاصل على ليسانس المعلمين العليا في العلوم والتربية ، الماجستير في علم النفس من جامعة برمنجهام في إنجلترا • ومن المناصب الهامة التي تولاها عمادة كلية المعلمين بالقاهرة ومعهد التربية ، وكان رئيسا لخبراء اليونسكو بالعراق • ومثل مصر في عدة مؤتمرات وحلقات بحث دولية • وله عدة أبحاث ومؤلفات علمية اهتمت بها المحافل الدولية • وقد نشر له معهد اليونسكو للعلوم الاجتماعية في كولونيا بألمانيا عام ١٩٥٦ بحثه عن العلاقات الأبرية بين المعلمين في العراق •



الحرب العالمية الاولى كانت موزعة بين باريس وماجديرج ( حيث كان يقيم جدي الالمانى ) فان عناصر من نظامى التنشئة اثرت بالتساوى تقريبا في تكوين شخصيتي ، اى في تكوين عقلي الباطن • وقد اختفى في حياتي المبكرة الميل الخاص للمزج بين اللغتين ، وبذلك عشت من الناحية اللغوية على مستويين منفصلين تمام الانفصال ، تواجدا جنبا الى جنب دون أن يحدث بينهما أى تداخل •

وأذا كانت بداية الانسان على هذا النمط ، فانه لا يلقي صعوبة تذكر في ان يستمر كذلك • ومتى أصبح مفهوم « الحد » لديه مجرد أمر نسبي فانه يصل بسرعة الى المرحلة التي لا تقوم عندها أية حدود ، وانما تتواجد فقط أشكال حضارية متعددة ، لكل منها المنطق الخاص به ، ولكل منها قيمته الانسانية •

وعندما ذهب والدي الى ايطاليا في سنة ١٩١٠ ، ليقتضى بعض الوقت في الاشراف على منشآت معمل تكرير السكر الذي كان قد سبق أن اقامه جدي ، فأننى تعلمت الإيطالية دون مجهود يذكر ، وفي ١٩١٢ بعد ذلك تعلمت الإسبانية على هذا النمط نفسه • وفي كل مرة من تلك المرات كنت أقف على سمة قومية جديدة ، بقيم واتجاهات وأشكال جديدة من السلوك • وهكذا توفرت لدى بعض المعرفة بالسلوك

الانسانى وتفكيراته الواسعة قبيل أن أدرك أى شيء على صورة نظرية للسلوك الاجتماعى . ان النسبية الحضارية للمتخصص فى علم الانسان كانت حقيقة واقعة لوجودى ، وكانت الوسط الذى أتحرك وأتنفس فيه بشكل طبيعى من الصباح الى الليل ، على الرغم من أن الاحتفاظ بها كانت تقوم دونه صعوبات قاهرة بعد اندلاع حرب سنة ١٩١٤ .

لقد أمضيت سنوات الحرب العالمية الاولى فى بلدة هال على نهر السال فى المانيا (من ١٩١٤ الى ١٩٢٢) تحت ظروف فى غاية الغرابة كان لها أثر عظيم الأهمية فى نموى . وكان أحد أعمامى ، وهو مهندس كيماوى ، قد تزوج أيضا بامرأة فرنسية نشأت فى روسيا . وبسبب جهل كل من أمى وخالتى حينئذ باللغة الألمانية عاشت الاسرتان فى منزلين يكادان يكونان متلاصقين ، حتى يسهل على كل منهما أن تأتى لتقديم يد العونة للآخرى اذا ما نشبت متاعب بسبب جو الحرب المتوتر حولنا . وهكذا عشت سنوات الحرب فى المانيا فى بيئة لفتها هى الفرنسية البحتة ، مما كان له أسوأ الأثر بصفة مؤقتة على معرفتى بالألمانية ، وقد انعكس هذا بوضوح فى تقارير المدرسة عنى .

وقد واجهت فى هذا الوسط ظاهرتين أخريين ، أدركت فيما بعد أنها كانتا مشكلتين . لقد ذكرت من قبل أن زوجة عمى نشأت فى روسيا . وكانت تجيد اللغة الروسية اجادة تامة اذ أنها تلقت تعليمها بالمدارس هناك . وقد نتج عن ذلك ان اعداد من الطلبة الروس الذين تواجدوا فى المانيا عند نشوب الحرب كانوا يتقابلون فى منزلها . وكان العمل على كسب هؤلاء الشبان لالمانيا جزءا من سياسة «المانيا العظمى» المعاصرة ، حتى اذا ما حان الوقت المناسب امكن ايفادهم مقدما للشرق لاستخدامهم حماة للحكم الألمانى هناك . ومن أجل ذلك سمح لهم بالبقاء مؤقتا للاستمرار فى دراستهم ، بل قررت لهم منح دراسية ، أو اسندت اليهم وظائف يقومون بها ، فى حين كان الاشراف عليها مقصورا على أن يذهبوا بانتظام ليخطرأوا عن أنفسهم . ولم يدر بخلد السلطات أنه فى أى ظرف من الظروف قد يتحول كل شيء الى خلاف ما قصد منه . ولأول مرة سمعت اللغة الروسية تستعمل فى شئون الحياة العامة ، ولأول مرة أيضا سمعت كلمة «الثورة» ، واكتشفت فضلا عن ذلك أنه بين الروس وغيرهم من ذوى القوميات الأخرى بوجود نوع تبعى غريب من الناس يعرف باليهود . وأدركت وأنا فى سن العاشرة ماذا يقصد بمناهضة السامية ، حتى أن مسألة التمييز الاجتماعى ارتبطت مباشرة فى ذهنى بخبرتى عن النسبية الحضارية . وأدركت أيضا أن مركبا كليا من مشاعر عدوانية الأجناس متداخلة ظلت مختفية هنا ، وأنها وصلت فى ذلك الوقت الى درجة من التفجر الشديد ، ولذلك سألت نفسى تلقائيا امن الواجب ان يستسلم الانسان سلبيا لهذا الامر . ان التمييزات ليست مجرد حقيقة واقعة ، انها أثارت فى نفسى مبكرا رغبة قوية فى أن اتقلب عليها . وقد تعلمت أيضا من الطلبة اليهود الروس كنة الاقلية ، وهو درس حدقته فيما بعد من خلال تجربتى الشخصية كهاجر بعد سنة ١٩٣٥ .



وبينما كانت الحرب لاتزال مستمرة نقل عمى الى جنيزنو بالقرب من المدينة الألمانية التى كانت تسمى حينئذ بوزن ، وذهبت الى هناك لقضاء عطلتى . وفى الليلة التى قضيتها بالفندق فى بوزن لاحظت فجأة ان عامة الناس كانوا يتكلمون اللغة البولندية ، فى حين ان الطبقة العليا كانوا يتكلمون اللغة الألمانية . وكانت هذه اولى خبراتى بمشكلة «الطبقة» التى كانت بالنسبة لى حقيقة واقعة قبل أن أستمع فى برلين الى محاضرات «ريتشارد ثيرنوالد» بأمد طويل . وتعلمت فى الوقت نفسه لغة جديدة هى البولندية التى درستها بمزيد من الانقائ بعد الحرب على يد الشاعر التعبيرى ستانيزلو برزبازنسكى . وفى سنة ١٩١٦ واجهت فى ظل الامبراطورية الألمانية للحركة البولندية «السرية» ، وفى زيارة ثانية فى سنة ١٩٢٠ - بسبب استمرار عمى مديرا لمعمل تكرير السكر فى جنيزنو حيث توطدت الصداقة بين جدى الألماني واسرة بولندية ذات نفوذ - اكتشفت الجمهورية البولندية الجديدة . ولقد أحدثت فى نفسى هذه الخبرة تأثيرا اكبر مما أحدثته الكثير من الخبرات الأخرى ، لاننى رايت أنه لا يوجد نظام مهما بلغ من قوة الشبث الا واستطاعت قوى معارضة فعالة أن تحطمه يوما ما . وكان احياء الجمهورية البولندية مثالا على ذلك ، ونجد امثله أخرى فى الدول الملكية الكثيرة المتعاقبة فى حوض الدانوب . وكنت فى ذلك الوقت على علم خاص ببولندا ، وعن طريق اصدقاءى البولنديين اتصلت بالأدب السلافى والفلسفة السلافية . وحوالى سنة ١٩٢٢ وقعت فى مكتبة والدى على بعض مؤلفات توماس مزاريك التى كانت تستشهد كثيرا باسم المائى لم يسبق لى ان سمعت به من قبل فى المدرسة . وهو كارل ماركس . وفى سنة ١٩٢٤ تعرفت فى وارسو على الكاتب البولندى الكبير الحائز على جائزة نوبل فلاديسلو ريمونت . والذى كنت أجهله حينذاك هو أنه قبل سنة ١٩١٤ بأمد طويل تعرف عالم اجتماع من شيكاغو اسمه وليم ا . توماس على شاب كان يعمل مساعد مدرس فى وارسو يدعى فلوريان زنانيكى ، وكانا يعملان معا حينئذ على وضع أساس علمى للوصف الشعرى لحياة الفلاحين البولنديين الذى قام به ريمونت . وكنت فى تلك اللحظة من شبابى اقرب ما يكون لعلم الاجتماع - الذى كان حول الناصية كما يقال - ولكنى لم اخط وقتئذ الخطوة القصيرة الأخيرة . لقد قابلت زنانيكى فى سنة ١٩٥٧ قبل وفاته بزمن قصير فى ايست لانزينج بمتشييجان ، حيث كانت جامعة ميتشييجان الرسمية قد عينته بعد أن أبعد مرة أخرى من بلاده عند نشوب حرب سنة ١٩٣٩ . وحتى فى تلك الآونة المبكرة فأننى كنت قد واجهت فعلا تلك المشكلات التى بسببها احتل زنانيكى مركزا مرموقا فى تاريخ علم الاجتماع ، وهى بنية مجتمع الفلاحين البولندى المتطور ، والهجرة الاضطرابية وراء البحار ، واعادة بناء المجتمع المحلى . وفى الرواية التى وضعها ريمونت حول النهضة المتفجرة للمجتمع الصناعى فى لودز ادركت مرة أخرى ، فى صيغة شعرية أولا ، لا مشكلة التأثير البشرى للتصنيع فقط ، بل أيضا مشكلة التفير الاجتماعى .

وقد أدركت بعد ذلك بكثير أن علم الاجتماع ليس دائما هو الرائد في فتح مجالات جديدة للمعرفة ، ولكنه في أغلب الأحوال يعمل على متابعة وتنظيم التأملات والبصائر التي يكتسبها الشعراء والروائيون . أن الدراسات المجتمعية في الولايات المتحدة كانت ولا تزال مسبوقة بما يؤلفه كاتب مبدع . وهكذا اشتقت فكرة الجبرية الاجتماعية من رواية «الماستة الأمريكية» لتيودور درايزر ، وتحليل السلوك الجامد من الروايات المتعددة التي ألفها سنكلير لويس بدءا من «بابيت» والشوارع الرئيسية إلى كاس تمينبلين وتحليل الجماعات اللاشكالية من كتاب مثل «نقطة لارجة إليها» مؤلفه جون . ب . ماركاند . ومع ذلك فلم يكن أمامي في الموقف الذي وصفته مثل هذا البديل . لقد خبرت المشكلات قبل أن اتعلم كيف أمالجها تحليليا . ولكن حتى في ذلك الوقت أدركت أن التسليم بوجود هذه المشكلات والمصاعب والصراعات لم يكن كافيا ، وأنه ينبغي للإنسان أن يفعل شيئا للتغلب عليها .

وعندما سمعت كلمة « الثورة » من الطلبة الروس اليهود أثناء الحرب أدركت حقيقة الأمر في مدينة «هال» الواقعة على السال ، وذلك منذ خريف سنة ١٩١٨ ، ففي عدد من المناسبات نشب في شوارع المدينة قتال عنيف استمر للسنوات التالية « لقد كانت قمععات المدافع الرشاشة تدوى ليل نهار ، حتى في ضواحي المدينة ، وكان يعقب تلك الحوادث أعمال انتقامية ، وعدوانات وحشية . ولما كانت الامبراطورية الألمانية لا تعنى أى شيء بالنسبة لى فأننى أصبحت اشتراكيا قبل المعرفة ، أى قبل أن تتكون لدى فكرة واضحة عن المعنى الحقيقي للاشتراكية وقد ظلت قناعتي بالاشتراكية التي أخذتها عن توماس مازاريك ذات اثر حاسم في تطوري حتى اليوم ، وهو الذي بدأ ، بعد أن أصبح رئيسا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا كانه يجسد شيئا من السيامي المثالي في نظر أفلاطون . وقد ظهر لنا جميعا في ذلك الحين صادق الوعد بتكوين شكل جديد للدولة ، من شأنه أن يخرج للوجود مجتمعا جديدا . وهذه الفلسفة - مرتبطة بتأثير الفلسفة التعبيرية الألمانية - جعلته في نظري أشبه بالرجل الميتافيزيقي مثل ذلك الذي صوره «كيرت بنثاس» في كتابه (سنة ١٩١٩) الذي حوى مختارات نفسية من الشعر التعبيري الألماني . وقد اشتريت نسخة من الطبعة الثانية من الكتاب التي صدرت في سنة ١٩٢٢ ، وقد مسحني هذا الكتاب في جميع جولاتي في عشرات السنوات . وأصبح كل هذا أكثر واقعية ، بما تركته رواية البؤساء لفكتور هوجو من أثر في نفسي ، وكنت قرأتها في الوقت الذي قرأت فيه لتولستوي ودوستويفسكي وشرنشفسكي وهكذا نجحت فيما بعد ، وأنا أكتب رسالتي للدكتوراه التي نشرت على شكل كتاب في سنة ١٩٣٠ في أن أربط بين الفلسفة الإنسانية لاشتراكي من الرعيل الأول هو بيير لروكس ونظرية التاريخ لأوجست كوت وعلم الاجتماع عند أميل دوركايم . وبين بداية هذا التطور ونهايته كانت سنوات دراستي الحقيقية التي قضيتها في فيينا وبرلين وباريس ، وكان لكل منها تأثيره الخاص في نفسي .

## سنوات الدراسة

في سنة ١٩٢٢ رحل أبى الى دانزج ، حيث كان عليه ، بصيفته موظفا في عصابة الاسم ، أن يقوم بتحويل الترسانة البحرية السابقة الى ما يخدم الأغراض السلمية . وقد انتمت دراسته الثانوية في دانزج (سنة ١٩٢٥) ، وكانت اللغات التي درستها هي : اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية القديمة ، والانجليزية ، والفرنسية . وبسبب أن والدى كان يعمل في معظم الأحيان لدى البولنديين استطعت اثناء تلك الفترة أن أوسع معلوماتي عن بولندا ، كما استطعت أن أدرس تلك الصراعات السياسية الأولى التي كان لها آثار مخربة (كمهاجر بعد ذلك في سويسرا حيث علمت منذ سنة ١٩٤١ مع زملاء لي في جامعة للمعتقلين البولنديين في رفيندزبرج ، وكان لدى فرص كثيرة لأن أستفيد من معلوماتي السابقة عن تلك البلاد ) . وعلى كل حال فإن الحرب العالمية الثانية تثبتت في دانزج . ولكن اقامتي كانت قصيرة جدا ، إذ بدأت دراستي في جامعة فيينا سنة ١٩٢٥ ، بحيث لم تترك أثرا كبيرا علي أنه لولا فيينا ما كنت ما أنا عليه الآن .

وكانت فيينا في ذلك الوقت أكثر المدن خسارة في الحرب العالمية الأولى ، ولكن كان يفرها تسامح أنساني رقيق ، وخاصة بين الطلبة والأساتذة الذين عاشتهم وعلمت معهم ثلاث فترات دراسية . وكانت فيينا ملتقى الثقافات البلقانية جميعا ، وقد سادها روح التحرر من المطلق في تبادل هذه الثقافات المختلفة ، ولو أن أيام سنة ١٩٢٥ السعيدة انتهت سريعا مع حريق وزارة العدل الذي شب في سنة ١٩٢٧ . وقد ارتبطت بداية دراستي بمواجهة لغة أخرى وثورة أخرى ، هما اللغة التركية وفيينا كمال اتاتورك كصالح عظيم لتركيا . وبدأت اتعلم اللغة التركية في ربيع سنة ١٩٢٥ ، وكانت بمثابة أول لغة ليست هندية أوروبية أقوم بدراستها . وبمساعدة من الأستاذ كرايتز جرافنهورست تتبعت هذه اللغة لأصولها المنفولية . وقد هيات لي دراستي بمدرسة اللغات الشرقية تعلم العربية والفارسية والعبرية الحديثة ، إذ أن عددا من الطلبة اليهود المنتمين للجيل الصهيوني القديم كانوا حينذاك يتلقون دراستهم بالمدرسة . وقد ارتبط كل هذا ارتباطا وثيقا بخبراتي في طفولتي الأولى فضلا عن أنني شاهدت لأول مرة في أثناء عدد من الزيارات التي قمت بها لتركيا ( ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ) نتائج ثورة كانت تمهيرا أصيلا لتحضر قائم على التخطيط . أن الأهمية التاريخية الواسعة لتركيا - كما أراها الآن - تتصل في الواقع بأنه بعد سقوط الدولة العثمانية لم تترك تركيا للخمول والركود ، ولكنها اندفعت نحو مظهر جديد للتطور استمر قائما حتى اليوم . وهكذا أصبحت تركيا ، في نظري ، نموذجا لهضة شعب تليد يعيش في رقعة اختزلت كثيرا بعد أن أصابها التوسع الاستعماري بكارثة . وكما كان الحال في بولندا بدأت دراستي اللغوية الجديدة بخبرة عن التغير الاجتماعي . وبالإضافة الى هذا كانت تلك الفترة هي الفترة التي كانت تنجز فيها تركيا مرحلة الانتقال من الأبجدية العربية الى الأبجدية اللاتينية . ومنذ ذلك الحين لم اتوقف عن الاهتمام بمشكلة الدول النامية . وفي السنوات القليلة التي تلت ذلك

وسمت خيرتي عن تركيا بالقيام برحلات الى الجزائر ومصر والمغرب وسوريا وتونس وفلسطين . ولقد تفرع عن هذا الاهتمام المبكر اننى منذ سنة ١٩٦٢ قمت على ادارة مشروع معونة تربية كلية الاقتصاد في كابول وفق اتفاق مشترك مع جامعة كولون . وكنت اعد لهذه المهمة منذ سنة ١٩٢٥ وبدأت اهتم في الوقت نفسه ، ولو ان ذلك كان بصفة سطحية ، باللغة الصينية (مع الاستاذ روستون) ولغة هندو المكسيك ، لكى ادوس على الأقل بنية هاتين اللغتين .

وكانت اللغويات الاسلامية هي المادة الاضافية التى درستها في جامعة فيينا . اما اللادتان الأساسيتان فكانتا هما الفلسفة وعلم النفس . وكنت مواظبا على الاستماع الى محاضرات مورينز شليخ الذى لقي مصرعه - بعد وقت قصير - بيد احد الطلاب . وقد كان ذلك بدء صلتى بمنطق العلوم بالشكل الذى كان يدرس في المدرسة النمساوية . ولقد تركت محاضرات كارل وشارلوت بولر في علم النفس انطباعا عميقا عندي . ولقد قرأت أول مقال لى في حلقتهما الدراسيه التى كانت تعقد في مبنى مديرية التربية والتعليم بفيينا القائم في الساحة المواجهة للبرلمان . وفي احد أيام سنة ١٩٢٥ او سنة ١٩٢٦ تعرفت خارج المبنى ببول لازارفلد الذى اثر في تألبرا كبيرا حتى اننى بادرت بشراء نسخة من كتابه « المتعطلون في ماريندال » بمجرد نشره في سنة ١٩٣٤ . وقد قابلته للمرة الثانية في نيويورك سنة ١٩٥٢ .

ويمكننى ان الخص بسهولة رأيى في المدرسة النمساوية لفلسفة العلوم . لقد تركت في نفسى انطبعا عميقا ، ولكننى انزعجت كثيرا لان الفلسفة التجريبية لدى معظم اتباع هذه المدرسة المتشعبة - باستثناء لازارفلد - ظلت مجرد نظريات . ولم استطع ان اتصور كيف يمكن اى انسان ان يدرس منهج البحث مجرد دراسة فقط دون ان يصله بأى نوع من البحث الواقعي . وقد ذكر مارسل موسى عن ذلك في سخريه لامة ان الذين يشغلون في فرع من فروع العلوم يدرسونه يشغلون انفسهم غالبا بطرق البحث فيه ، او بتاريخه ، او بتعريف ميدانه وتحديده . والواقع ان منهج البحث لا يكون ذا موضوع الا اذا كان متصلا مباشرة بالبحث . ولذلك فان رسالة اميل دوركايم الانتحار لا تزال في نظرى على الرغم من نقاط الضعف الكثيرة بها ، افضل رسالة في الطريقة الاجتماعية .

وعلى الرغم من انتقالى الى برلين في شتاء ١٩٢٦ / ١٩٢٧ فاننى احتفظت بارتباطاتى بفيينا حتى سنة ١٩٢٧ . وقد اضطرت لسوء الحظ ان اتوقف في برلين عن دراسة لغويات الاسلام ، اذ لم يكن في هذه المدينة ما ييسر لى هذه الدراسة بالمقارنة بمدرسة اللغات الشرقية في فيينا . وبالإضافة الى ذلك فان اللغات كانت تدرس في برلين غالبا من الناحية التاريخية والادبية ، دون الاشارة الى حقيقة ان هناك شعوبا حية تمارس اجراءات التطور والتقدم السريع تستعمل تلك اللغات في حياتها ، ولا يزال هذا حالها اليوم الى حد ما ، مما يبين في نظرى ان المدرسة القديمة للغويات تقوم على أساس من سوء الفهم الكبير ، ان اللغويات تمدنا بأفضل

أساس ممكن لعلم الاجتماع ، ولكن اذا ما عولجت من وجهة نظر اجتماعية ، او اجتماعية - نفسية ، او من وجهة نظر علم اجتماع المعرفة ، لا من الناحية الادبية التاريخية الفنية ، اننى لا اود أن انتقص من مزايا ما يسمى بالعلوم الثقافية ، ولكننى اود أن اضعها في مكانها المناسب . ان الثقافة الاعلى لمجتمع معين لا يمكن أن تعالج الا اذا سبق ذلك معالجة أساس تركيبها وبنيتها . اما ماعدا ذلك فانه يكون بمثابة وضع العربة أمام الحصان ، ويؤدى الى تخبط ايديولوجى .

ولم اخبر هذا تماما الا في جامعة برلين « حيث كان المهيمنون المتحكمون هم الجيل الثانى لمدرسة « دلثى » وخصوصا ادوارد سبرانجر الذى خلق حوله جرا من العدم الحقيقى لعلم الاجتماع ، الذى وجدت فيه مشكلة التناقض بين الناحية النظرية والناحية العملية حلا عن طريق « النظرية التربوية » ، وحيث وصمت المحاولة لمعالجة المشكلات الاجتماعية النوعية بانها من اختصاص نوع معين من الانسان يسمى « اليقنى » ولقد قام صراع بينى وبين سبرانجر « واستمر حتى حصولى على الدكتوراه ، وكاد الأمر كله ينتهى بالفشل المخرى لولا أستاذى في الفلسفة « ماكس دسوار » وأستاذى في علم الاجناس ريتشارد ثورفولد ، واننى للمدين لهما . الأستاذين بالخوافز الحاسمة التى أثرت في عملى سنوات كثيرة بشكل اود أن اصفه باختصار . لقد كان ماكس دسوار أصلا أحد تلاميذ مدرسة ديلثى ، ولكنه ركز اهتمامه من البداية على علم النفس وعلم الجمال . وكان طبيعيا بالنسبة له ان يصل الى علم الجمال من خبرته المباشرة بالفن ومن حياته كفنان ، ولم تكن صورة الفن عنده نوعا من المثالية الفلسفية . وقد صيغ هذا جميع اقواله بواقعية مذهشة . وقد أدركت هنا ولأول مرة بداية الانثروبولوجيا الثقافية التجريبية ، كما هو ممثل في الفن . ولكن دسوار لم يقف عند هذا الحد ، بل قادنا الى حدود الظواهر الروحانية ، بل الى ما قبل علم النفس .

وقليلا ما يرجع الآن الى الكتاب الذى ألفه في هذا الموضوع ، ولكننا كثيرا ما نتحل آراءه دون خجل . ولقد كانت لهذه الخبرة فيما بعد اهمية كبرى في دراستى لعلم اجناس البشر مع ثورنولد الذى طلب منى في سنة ١٩٢٩ أن اعد تقريرا عن التطورات التى حدثت في فرنسا في هذا المجال من حيث اتصالها ديتريش وسترومان العالم الكبير في شئون افريقيا ، الذى طلب منى أن ابحت في العلاقة بين السحر والتكنولوجيا في الفكر البدائى . وعلى الرغم من اننى اشتغلت سنين طويلة في هذا البحث خصوصا على شكل مناظرة مع لوشين ليفي برونل فأننى لم اكمله . ولكن ريتشارد ثورنولد كان السبب في اننى منذ ذلك الحين ربطت بين علم الاجتماع وعلم الاجناس البشرية ، وعلى الرغم من أن رسالتى للدكتوراه كانت في موضوع علم اجتماع الأدب « بيد اننى اتبعت أسلوب عمل مقارنات واسعة المدى فيما يتصل بتحليلات الموقف ، حتى اتابع الطرق المختلفة التى يعالج بها الموضوع نفسه تحت تأثير مبادئ الأساليب الفنية المختلفة ، خصوصا تلك المشتقة مما يسمى منهج الفنان في الفن . وكان أهم ما وصلت اليه هو الاتجاه الجديد نحو

مشكلة « موضوعية » المعرفة في العلوم الاجتماعية ، باستخدام لغة ماكس فيبر الذي ادركت ، حتى في ذلك الوقت ، انه البلمس الواقى من غواية تحليلات « علم الثقافة » التي كانت عند مواجهة أى عمل فنى أو غير فنى على الأسلوب الأدبى المنقى بدلا من الاهتمام ببقية العمل نفسه ، وقد قامت لدى المشكلات المنطقية نفسها سواء كانت المسألة فنية او حقيقية اجتماعية وكنت متأثرا بهذا الخصوص لا يبحث ثورنولد فقط ، ولكن أيضا وعلى وجه خاص بأهم كتاب وضعه برورتلو مالفينوفسكى في رحلة غرب الباسيفيكي .

وتحت تأثير المشكلات الاجتماعية والسياسية المعاصرة ( البطالة وظهور الاشتراكية القومية ) عكفت في نهاية الأمر على ربط علم الاجتماع بعلم الأجناس . وهكذا انتهت أيام دراستى . وفي سنة ١٩٢٩ حصلت على الدكتوراه في الفلسفة واللغات الرومانسية (١) وعلم الأجناس . وفي سنة ١٩٣٠ نشرت رسالتى عن « الجمالية الطبيعية في فرنسا وأنهاها » ، التى تقتضى الى حد ما اثر فلسفة الفن من كونت ودوركايم الى هنرى برجسون ومارسل بروست . وبعد ذلك تركت برلين متجها الى باريس ، حيث التقيت مرة أخرى لا بالفرع الفرنسى لاسرتى فقط بل أيضا بالجيل الثانى لمدرسة دوركايم التى ربطت نفسى بها سنوات عديدة .

### على طريق الاستقلال الفكرى

لقد كانت آراء دوركايم وابن اخته مارسل موسى تسود تماما علم الاجتماع في باريس في ذلك الوقت . وقد كونت بسرعة صلة عمل وثيقة بهذين العالمين عندما كتبت أعد تقريرى لثورنولد عن آخر تطورات علم الاجتماع الفرنسى . ولكن حتى في ذلك يمكن ملاحظة نوع من الاستقطاب بين النشاط السياسى والنشاط العلمى . وتد ظل التأثير السياسى لمدرسة دوركايم ، الذى وضع في الامتحانات وفي مجموعة كاملة من الكتب الدراسية ، مثيرا للدهشة ، متصلا بعقيدة دوركايم السائدة ، في حين أن الآراء الحديثة ، في سياق تحررها من أرسطوطالية دوركايم ، كانت عديدة الاثر بشكل واضح من وجهة النظر السياسية . ولأننى كنت على صلة بأصحاب تلك الآراء كان الأمر مفيدا لى من الناحية العلمية ، ومن جهة أخرى فان الجانب السياسى الذى وجدته ممثلا احسن تمثيل في شخص سيليسئين بوجلين ظل بعدا نسبيا عنى .

ولقد عبرت طوال السنوات عن آرائى حول دوركايم وما انا مدين له ، وذلك في عدد من المناسبات ، ولا أريد أن أكرر ذلك هنا . وأود أن أشير فقط الى أنه في الذكرى المئوية لولد دوركايم لم ينطق أحد في فرنسا بأية كلمة عنه في حين كتبت اذا في ألمانيا مقالا طويلا في هذه الذكرى ، كما نشرت مقالات كثيرة أخرى تشيد به ، وخصوصا في الولايات المتحدة . ولأن دوركايم عاش بالنسبة للشعب الفرنسى كعقيدة سياسية فقد كانت نهاية الجمهورية الثالثة بمثابة موت سياسى له . ومن

(١) اللغات الرومانسية هي اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية وغيرها (المغرب) .

سوء الطالع انه بدأ للكثيرين كأنه مات علميا أيضا . وهذا خطأ كبير . وبينما يستطيع تالكوت بارسونز أن يسأل بحق : « هربوت سبنسر - من الذى قتله ؟ » نجد أن لا محل لهذا السؤال بالنسبة لدوركايم . انه ميت سياسيا ، ولكنه حي في النظرية الاجتماعية ، كما استطاع بارسونز نفسه أن يبينه .

لقد كان من المحال التحدث الى موسى عن دوركايم . لقد كان يتجنب أى سؤال عنه ، أو يتظاهر بأنه لم يفهمه ، ولكنى خلال جولات طويلة حول باريس مع ريموندلنوار الذى اخذ عن موسى آراءه الأساسية « ثم طورها بعد ذلك فى أسلوب أدبى غاية فى الروعة ، ناقشت معه هذه الأسئلة ساعات طويلة . وقد وجدت نفسى عند ذلك أفكر فى الغالب على نمط تفكير جورج جورفيتش الذى عرفته فى باريس قبل ذلك بعدة سنوات ، قبل أن ينتقل الى براج ، ثم الى فرنسا بعد ذلك ، حيث أصبح مواطنا فرنسيا . وكانت معرفتى بمؤلفات مارسل موسى هى التى شجعتنى على أن اربط بين الاتجاه الجديد فى التخلص من الأسلوب التحكمى لمدرسة ديركهايم وبين هنرى برجسون ، خصوصا بعد ظهور آخر مؤلف للآخر سنة ١٩٣٢ وهو « مصدر الدين والأخلاق » .

وقد انتهى موسى الى النتيجة نفسها ، وأدرك ادراكا تاما أهمية ما اضافته برجسون الى نظرية الرموز . وهكذا كان الطريق مفتوحا لاعادة صياغة الفروض الأساسية تماما ، لولا قيام الحرب الجديدة التى عطلت كل شيء .

ولقد تركت ألمانيا قبل اللحظة الحرجة ، بعد أن صدر الاشتراكيون القوميون أحد كتبه وهو « طبيعة الجامعة الألمانية » الذى نشرته سنة ١٩٣٥ . وقد قامت صعوبات أخرى ذات لون سياسى . وكان فى عزمى أن أوهل نفسى لأن أكون مدرسا فى جامعة برلين عن طريق كتاب أقوم بتأليفه عن دوركايم بناء على طلب الفرذفركاند وكانت تلك الفترة هى التى أدركت فيها أن دوركايم لم يكن رجلا نظريات فقط ، بل برلين . ولكن تم ذلك لى فى سنة ١٩٣٨ . بالنسبة لجامعة زيورخ ، حيث قمت ولكنه كان أيضا ذا أهمية سياسية ونتيجة ذلك لم يتم تأهيلى للتدريس فى جامعة بالتدريس فيها دون انقطاع حتى سنة ١٩٥٣ .

وانتهيت من وضع كتابى عن دوركايم فى الوقت الذى ظهر فيه كتاب تالكوت بارسون « بنية العمل الاجتماعى » أى فى سنة ١٩٣٧ . وقد حاولت أن أقوم بما قام هو به تماما ، ولكنى اهتمت على مواضع تختلف عن تلك التى اهتم هو بها . ومن ثم فإن مناقشة النظرية النفعية لم يكن لها ، بالنسبة لى ، أثر هام بنوع خاص - ولو أنها تبرز فى كتابى - لأنها تنتمى أساسا للتقليد الإنجلوسكسونى ، ومن جهة أخرى فإن نقد سوسيولوجية الوجودى التاريخى ( ف . دبلى ) وهانز فراير ، وكارل شميت ، وغيرهم ) - من وجهة نظر هيجل وماركس ( س . لافدشت وغيره ) - كان بالنسبة لى موضوعا رئيسيا . أما موقفى من دوركايم وماكس فيبر فقد كان مثل موقف بارسون ، باستثناء واحد هو اننى استحدثت مجموعة جديدة من الاعتبارات - خلا منها تماما كتاب بارسون - تتصل بمشكلة العنف . وكان

لجورج سوريل عندى مركز اسامى بصفته استمارارا لآراء ماركس ، ومن جهة اخرى فقد احتل فلغردو باريتو مركزا ثانويا جدا فى منهجى حينذاك . وكان الهدف من هذه المراجعة هو تحديد اتجاه تحليلى عام للمشكلات الاجتماعية على الضد من معالجتها كمشكلات خاصة بالمجتمع الرأسمالى ، او ما قبل المجتمع الرأسمالى ، او مجتمع القرون الوسطى . وفى هذه الاشكال الاجتماعية المتعددة - التى حاولت ان أعطيها ، لا من وجهة النظر الاوربية فقط ، ولكن على مقياس عالمى واسع - هل يمكن ان نجد تكوينات عالمية تسمح بانشاء جهاز واحد من اللغات السوسولوجية ؟

لقد كان هذا هو السؤال الذى شغلنى ، والذى حاولت للاجابة عنه ان اقوم على الأقل ببعض البحث المبدئى . ولكن هذا الكتاب لم يطبع حتى الآن لان دور النشر السويسرية لم تجرؤ على ان تنشر كتابا يعارض النازية بشدة . ومع ذلك فانى ازمع بعد قليل ان اشره بمقدمة طويلة املا بها تلك الفجوة فيما بين سنة ١٩٣٧ واليوم ، اذ انه بسبب تجدد الاهتمام بمناقشة أسس علم الاجتماع لم يفقد الكتاب جدوة اى من موضوعاته .

لقد كانت محاضراتى فى جامعة زيورخ موزعة بالتساوى بين المفاهيم الاساسية لعلم الاجتماع ، وتاريخ علم الاجتماع ، ووصف المؤسسات الاجتماعية الاساسية فى المجتمعات البدائية ، فى الحضارات القديمة وفى الوقت الحاضر . ولقد بدأت ، كشاط جانبي ، القيام ببعض البحوث مع عدد من الطلبة المهتمين ، بتطور القرية السويسرية ، والمجتمعات المحلية الحضرية ، وقد نشر بعضها ( هانز يورجن بك وهانس فابيس وبيتر اسلندر ، وبعد ذلك سنة ١٩٥٨ ) حاولت الحصول على نتائج نظرية من مثل هذا النوع من البحوث . ولقد كانت الدراسة المستفيضة لمشكلات الجامعة التور ، قام بها رينالدو اندينا هى اولى الدراسات التى تعالج مشكلة التسرب فى التعليم . ولقد كنت دائما مهتما بنوع خاص بتطفل الافكار البروتستانتية فى المظاهر المختلفة للسلوك الاخلاقى اليومى ( كلارا فونتوبل ) . وقد تتبعته ، من باب الاستطلاع ، تاتير ميكائيل باكونين فى تشينو ووب سويسرا ، وكان افضل كتاب من هذا النوع هو كتاب رولف ر. بيجلر عن الاشتراكية الحرة فى غرب سويسرا ، الذى ادهشتنى اهميته اثناء اقامتى فى الجورا وفى مدينة لاشودى . فوند تلك اندينة الصغيرة التى اشتهرت بصناعة الساعات . وقد أكدت هذه المؤلفات الانحاء الفوضوى الذى تواجد فى الحركة الاشتراكية منذ بيير جوزيف برودون مكونا توازنا داخليا مع الاشتراكية المتحكمة لكاول ماركس رفرديرك انجلز . وكانت سوسولوجية الاسرة مجالا آخر من مجالات بحثى فى ذلك الوقت ، وما زلت اعمل فيه حتى الآن كمثلى من امثلة النظرية الجماعية التطبيقية ( انظر كتاب الاسرة غير المكتملة تأليف لوسى شتاهلى . وقد اتى الحافز لى على ملك من الخارج ، اذ طلب منى المجلس الاتحادى السويسرى ان اعد تقريرا عن الموقف الحالى للأسرة ليكون ( ضمن تقارير اخرى ) اساسا لمشروع تعديل الدستور الخاص بالاسرة . ومع ذلك فلم تكن الظروف فى سويسرا بوجه عام حينذاك ( كما هى الحال



الآن) تشجع على القيام ببحوث اجتماعية ، وكان على أن ادفع معظم التكلفة المادية من جيبى الخاص ، وكان ذلك بمثابة مشكلة عويصة للمهاجر مثلى مهضوم الحق فيما يتقاضى من أجور ، اذ كنت أقوم بواجبات الاستاذ واقتضى الراتب الضئيل للمدرس مبتدئ . ولقد سألنى مرة الكسندر فون شلتنج الذى خلفنى فى منصبى فى زيورخ : كيف تحملت تلك المعاملة ذلك الأمد الطويل . ولأنه كان الشخص الاول والوحيد الذى وجه الى هذا السؤال فمن الواضح اننى كنت مضطرا لان أقبل ما حدد لى من راتب . وبالرغم من ذلك فقد ابتسم الحظ لى عن طريق رواج بعض كتبى ( كتابى عن « ميكافيللى » سنة ١٩٤١ ، وكتابى عن « صقلية » سنة ١٩٤٣ ، والترجمة التى قمت بها لكتاب « أنا مالا فوجليا » وهو أروع ما كتب جيو فانى فريجا رواجاً ممتازا بالنسبة للاحوال فى سويسرا ، مع ان هذه الكتب ظلت حتى سنة ١٩٤٥ ممنوعة من البيع فى ألمانيا والنمسا لأسباب سياسية ، ثم نشر لى فى سنة ١٩٤٦ مجموعة من الرسائل عن سيكيولوجية الأسرة ، وكتاب « علم الاجتماع فى الوقت الحاضر » الذى ترجم الى عدة لغات ( الهولندية والايطالية والإسبانية واليابانية ) .

وإذا ما بذلت محاولة لإنشاء علم اجتماع لا يكون مجرد رد فعل لموقف اجتماعى خاص ، ولكنه يستخدم نظاما من فئات ومراتب ، مقبولا بوجه عام الى حد ما ، ومنهجا معقولا ، وطريقة بحث صادقة ، فمن الممكن أن تبرغ وجهة نظر من لغات ثقافية واسعة ، تاتى معها بمنظمة دولية لعلماء الاجتماع . وقد تلقيت فى سنة ١٩٤٨ نداء تليفونيا من باريس ، لم أكن أوقعه البتة . من صديق نرويجى قديم هو أرفيد برودرسن الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب رئيس دائرة العلوم الاجتماعية بمنظمة اليونسكو ، وسألنى هل أقبل ان أكون عضوا فى لجنة تحضيرية لإنشاء منظمة دولية لعلماء الاجتماع ، وهى التى أصبحت فيما بعد الرابطة الاجتماعية الدولية . وقد قبلت العرض فى سرور ، اذ اننى منذ هجرى الاولى التحقت وعملت بمؤسسة سابقة لليونسكو ، هى المعهد الدولى للتعاون الفكرى . وكان جزءا من مهمتنا فى ذلك الوقت (سنة ١٩٣٨) فهرسة الكتب والمراجع ، وقد ادخلت هذا التقليد فى اليونسكو بعد ذلك ، مما أدى الى وجود ما يسمى بتقارير المنحى فى علم الاجتماع المتداول والاندروبولوجيا كاساترة ، الى غير ذلك ، وهى الآن اداة دولية معترف بها لعلماء الاجتماع فى أنحاء العالم . وتتلخص فكرتى فى أن نعد عن عمد فهارس غير كاملة ، أى مختارة ، موجهة نحو خط ارشادى مركزى ، تكون بمثابة تقرير متدرج عن أحوال البحث فى فرع معين . يشير الى الفجوات فى البحوث ، ويقدم مقترحات لبحوث مستقبلية . وقد ساعدت كثيرا لجان البحث فى الجمعية الدولية لعلماء الاجتماع فى أداء هذه المهمة بعد ذلك ، مما مكن مجموعات من العلماء المتنازين دوليا من أن يجتمعوا فى الفترات التى تقع بين انعقاد المؤتمرات ، لكى يناقشوا موضوعات معينة . وقد اشتريت بنفسى فى افتتاح ثلاث من مثل حلقات البحث هذه : فى الأسرة مع تلز الفرسون فى كولون سنة ١٩٥٤ ، وفى التنضيد والتغيير الاجتماعى مع دافيد جلاس فى سنة ١٩٥٩ ،

ومرة أخرى الأسرة مع رويين هيل في طوكيو سنة ١٩٦٦ . وقد ظهرت هذه التقارير الثلاثة على شكل كتب .

ومع ذلك فقد كان من الضروري أن يبدأ بتكوين الرابطة الدولية لعلماء الاجتماع . وقد كانت مساعدة اليونسكو ، والرؤساء المختلفين لدائرة العلوم الاجتماعية - فضلا عن برودرسن في أول الأمر - وبخاصة الفاميردال وأوتوكلاينبرج وروبرت أنجل - مساعدة ثمينة من حيث أنها جمعت بين العلماء من أنحاء العالم لينفكروا معا في أمر هذا النوع الجديد من المنظمة الدولية ، في وقت (١٩٤٨-١٩٤٩) لم يكن يتاح فيه لأحد منا الفرصة للسفر . وقد تميزت هذه الاجتماعات بروح رائدة خالصة ، لا يمكن أن ينسأها أى أحد اشترك فيها . وعندما تأسست الرابطة الاجتماعية الدولية بصفة رسمية في أوسلو في سبتمبر سنة ١٩٤٩ أدرك كل من أولئك الذين اشتركوا فيها أنه عندئذ أنشئت منصة دولية لعلم الاجتماع لم تكن موجودة من قبل ، إذ كان هناك فارق أساسي بين المؤسسة الجديدة والمعهد الدولي القديم لعلم الاجتماع ، من حيث أن الرابطة الاجتماعية الدولية كانت رابطة لرابطات ، وكان المعهد يتكون من أفراد هم ولا شك شخصيات هامة ، ولكنهم كانوا لا يعبرون إلا عن وجهات نظر شخصية . وتبعاً لذلك فإن المؤتمر الذي أقامته الرابطة الاجتماعية الدولية سمي بحق « المؤتمر العالمي لعلم الاجتماع » . وقد عقد أول مؤتمر في زيورخ في سبتمبر سنة ١٩٥٠ ، وكان اجتماعاً مشتركاً مع رابطة العلوم السياسية السويسرية ، الذي تسبب في اضطراب ميزانيتي الخاصة ( وقد كنت أعمل سكرتيراً للمؤتمر ) لأنني على حين فجأة دعوت عدداً من الزملاء أكبر مما كان مقدراً في الأصل . وعندما طالبت بالمال الذي يغطي النفقات الإضافية لم أتلق حتى الرد على طلبى . ومرة أخرى اضطر المهاجر ذو الأجر الضئيل أن يتحمل من ماله الخالص زيادة النفقات . ومع ذلك فقد تعلمت درساً ثميناً هو أن من أوجب على المرء أن لا يعول مطلقاً على الحصول على مبالغ إضافية بعد أن ينفض المؤتمر . ومنذ ذلك الحين سادت الرابطة الاجتماعية الدولية - التي كان لى شرف رئاستها من سنة ١٩٦٢ حتى سنة ١٩٦٦ - بنجاح مطرد .

وقبل انعقاد أول مؤتمر عالمي لعلم الاجتماع بقليل عينت أستاذ كرسي في جامعة كولون . وهكذا بدأت عملي في جامعة سريعة النمو ، فرضت على واجبات جديدة ، وبخاصة في تدريس علم الاجتماع ، وفي وضع المناهج الدراسية .

وبينما كنت أستعد للانتقال إلى كولون مع أسرتي تسلمت من مؤسسة روكفلر في نيويورك ما يفيد أنني أستطيع أن أتقدم بطلب منحة للسفر إلى الولايات المتحدة . وكان هذا بمثابة استجابة لرغبتى الشديدة في ذلك ، والواقع أنني منذ سنة ١٩٤١ أفردت في الخطة الدراسية لعلم الاجتماع المعاصر الذي كنت أتولى تدريسه محاضرة واحدة في علم الاجتماع الأمريكى . ولذلك كنت من الناحية العلمية على أتم الاستعداد للقيام بالرحلة ، على الرغم من أنني كنت ضئيل الخبرة بالعمل الوظيفي لنظام الأقسام . وقد كانت زيارتي الأولى ( ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ) مفيدة في الاتصالات التي قمت بها ، والتي أتيت لى بعد ذلك فرص أنماؤها وتوسيعها أثناء عملي أستاذاً زائراً سبع مرات ( في جامعة ميتشجان سنة ١٩٥٧ ، وجامعة كاليفورنيا في

بركلى سنة ١٩٥٧ ، و ١٩٥٩ / ١٩٦٠ ، و ١٩٦٤ / ١٩٦٥ وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك سنة ١٩٥٩ ، وفى جامعة كولورادو فى بولدر سنة ١٩٦٢ ، وفى جامعة اريزونا ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ) بالإضافة الى الزيارات القصيرة الكثيرة لجامعات أخرى ، القيت فى كل منها محاضرة على الأقل ، وعقدت فيها حلقات مناقشة مع الزملاء .

والذى اثار اهتمامى كثيرا ذلك السؤال الذى فشلت فى ان اصل الى اجابة عنه فى سويسرا : كيف يستطيع الانسان ان يجمع بين تدريس علم الاجتماع والقيام بالبحوث ؟ ومن الواضح ان المتطلب الاول هو المورد المالى ، ولكن ، على حد ما ذكر بول فـ ، لازارفلد فى مرة من المرات ، يجب ان يكون هناك معهد « تنظم » البحوث فيه ، والا فان المرء يخاطر بمشروعات فردية للبحوث ، تتردد دون ترابط ، وفق اهتمامات وميول الافراد من الطلبة ، التى تظهر مصادفة بوجه عام . ان حلقات المناقشة الجامعية التقليدية ليست ملائمة على الاطلاق لتدريس علم الاجتماع ، ومن الضروري ، بالإضافة اليها ، ان تكون هناك معاهد متخصصة . ولكن هذا لا يعطى اجابة كاملة على السؤال ، اذ ان على المعاهد فى الغالب ان تقوم بأعمال البحث ، وهذا يعنى ان نحول ، الى حد ما ، بين الطلبة واشتراكهم فيها ، لان هذه الاعمال يجب ان تؤدى دون الوقوع فى أخطاء على قدر الامكان . وطبيعى ان الطلبة الذين لا يزالون يجتازون مرحلة التعليم لا ينتظر منهم ان يصلوا الى مستوى الدقة والجودة اللازمتين . ولقد وقعت على اوفق حل لهذه المشكلة فى سنة ١٩٥٢ ، ثم مرة أخرى فى سنة ١٩٥٧ فى جامعة ميتشيجان بآن آربر ، حيث كان العمل موزعا بين مركز البحوث المسيحية من جهة والدراسة الميدانية فى ديترويت من جهة أخرى ، وهى التى اسهم فيها عدد كبير من الطلاب . ويمكننى ان أقول ان دراسة ديترويت الميدانية كانت تطوف فى رأسى كنموذج عندما نظمت فى كولون سلسلة من البحوث المسخية الصغيرة .

ومع ذلك فقد ادركت ان حلقات المناقشة ومعاهد البحث ليست كافية اذا لم تنوافر الكتب الدراسية . وبمصادفة سميعة ، قبيل رحيلى الى الولايات المتحدة فى صيف سنة ١٩٥٢ ، ارسل الى الدكتور ماكس واليس ( وهو الآن فى باريس ) نبذا مختازة من أعمال مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية فى نيويورك ، واستطعت باذن كزيم من بول فـ . لازارفلد وروبرت كـ . مرتون ان اؤلف منها كتابا صغيرا من المقابلة . وقد ظهر الكتاب فى سويسرا وجمهورية المانيا الاتحادية فى وقت واحد . وكان من غير شك اول كتاب يظهر فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يكن كافيا الى حد كبير ، حتى اننى بعد عودتى مباشرة بدأت ، مع مجموعة من المساعدين ، بمراجعة كاملة مستفيضة لهذا الكتاب الذى ظهر الآن فى جزئين بعنوان عام هو « البحث الاجتماعى العملى » . وقد عالج الجزء الاول موضوع المقابلة ، وعالج الجزء الثانى موضوع الملاحظة والتجربة . ونشر الجزءان فى سنة ١٩٥٦ و سنة ١٩٥٧ ، وأعيد طبعهما حتى سنة ١٩٧٢ سبع مرات للجزء الاول ولثماني مرات للجزء الثانى .

وقد استعملت الآن كلمة « مساعد » . وبهذا الخصوص تميزت باتجاه جديد تماما فى سياسة الجامعة الالمانية ، وهو التوسع فى الجهاز الفنى ( هيئة التدريس )

بقدر أقل من التوسع في « الفئة المتوسطة » أي « المساعدون » كما يطلق عليهم رسمياً . وما زلت أشعر باننى مدين في ذلك للقائمين على وزارة التربية في لاندنورث واين وسنغاليا ولادارة جامعة كولون الذين ادركوا مباشرة ان علم الاجتماع الجديد لا يمكن ان يتقدم دون « مساعدين » . وقد اعان وجودهم لا على العمل في مجموعات صغيرة فقط - وكانت هذه المجموعات هي الحل الوحيد لمشكلة التزايد القضم في عدد الطلاب - ولكن اعان ايضا على استحداث فرق للبحوث الصغيرة ، بقيادة أحد « المساعدين » أو أحد الطلبة المتقدمين ، قادرة على انجاز مشروعات معقدة تمام التعقيد ، وفق ارشادات وتوجيهات عامة ، وقادرة كذلك « وهو الأهم » ، على ان يتعلم افرادها اثناء عملهم . وقد اشرت الى ذلك في مقدمة كتابها لرسالة قام بها أحد طلاب « جان بياجيه » السويسريين الفرنسيين . وقد عمل في واحد من هذا النوع من المشروعات « التوجيه المهني لصفار الفتيات » ، وكان عددهن لا يقل عن عشر طالبات ، بقيادة طالبة أخرى ، عملن على المسح ، مما مكنا من القيام ببحوث على النمط نفسه ، من هامبورج الى ميونخ ، وفي كولون ، ودنيزبرج ، ودوسلدورف ، ودورتمند ، واسن . وبعد ذلك قمت بتوزيع العمل بين الحلقة التي تقدم فيها مجموعة من دراسات تمهيدية ( الاحصاء للمختصين في العلوم الاجتماعية ، ومناهج البحث ١ ، ٢ ، والفاهيم الاساسية لعلم الاجتماع ) ومعهد البحوث الذي يدرس فيها اساسا الطلبة الذين يحضرون للدرجة الدكتوراه في مشروعاتهم الخاصة . ولقد تطلب الوصول الى ذلك سنوات طويلة ، وكان من غير الممكن ان يتم هذا مطلقا دون معونة من مساعدين يعتمد عليهم ، ويتميزون بقسط وافر من الذكاء وعلو الفهم .

وفي اثناء القيام بهذا الاجراء اضح لي بدرجة اكبر اننا نستطيع ان نمنع موضوعا جديدا مثل علم الاجتماع من ان يصبح مجرد طرز متتابة ، وذلك بتأكيد ان له تأثير دائما في العالم كله . ان المعاهد والمناهج والكتب الدراسية المقررة مفيدة بهذا الخصوص ، ولكن يجب ايضا ان تولى كتب لتثقيف الجماهير ، تفسر المفاهيم المتداولة . ويمثل هذا الهدف نصب عيني نشرت مع عدد قليل من المساعدين « المعجم الاجتماعى » الذى روجع ونقح مرات كثيرة . وحى الآن بيع من الطبعة الالمانية لهذا المعجم ٣٣٢٠٠٠ نسخة ، وظهرت ترجمات له باللغات الهولندية والاسبانية والىطالية والفرنسية ، كما اعيد طبع بعضها عدة مرات . ومثل هذه المبيعات الضخمة من الكتاب تؤكد انه قد وجد طريقة الى اعداد من الناس من ذوى الاهتمامات العامة ، لا من المختصين في الاجتماع فقط . ولقد كان هذا مقصدي من اخراج الكتاب .

وقد اعتبرت مجلة «كولون الاجتماعية والاجتماعية النفسية» الدورية ، التى تسلمت مهمة تحريرها من سلفى ليوبولد فون فايز سنة ١٩٥٥ وسيلة أخرى لتأكيد هذا التأثير الواسع لعلم الاجتماع . وكان هدفي الأول من تحرير هذه المجلة أن أعد مرجعا اجتماعيا عاما باللغة الألمانية سهل التداول ، ومستقلا عن أية مدرسة خاصة ، وأردت ثانيا أن أجعل علم الاجتماع العالمى معروفا في جمهورية ألمانيا الاتحادية (عن طريق النقد البيلوجرافى) ، فقد قصدت أن تكون المجلة منتدى لنشر تقارير موجزة

عن البحوث . وفي الباب الذى عنوانه «من عالم البحوث» نشرت المجلة في بحر سنوات ما لا يقل عن مئة من هذه التقارير .

بعد بدئى العمل محررا للمجلة مباشرة أدركت مشكلة قائمة في جميع المجلات الدورية ، ففي كل عدد يكون لزاما على الإنسان أن يطبع متنوعات ، ليس بين أحداها والأخرى أية صلة سوى أنه يضمها جميعا غلاف واحد . أفلا يمكن أن يوجد نوع أكثر تنظيما في مطبوعات المجلات ؟ وفي هذه السبيل «ابتكرت الأعداد الخاصة» التى تقدم للمشتركين في المجلة بأسعار مقبولة ، ويعالج كل منها موضوعا واحدا . وقد ظهر أول عدد خاص من هذا النوع في سنة ١٩٥٦ . وحتى سنة ١٩٧٢ كانت قد تضمنت هذه السلسلة من الأعداد الخاص ١٦ عددا « تحملت شخصا مسئولية سبع منها . وقد حاولت في كل من هذه الأعداد أن أعرض وجهة نظر اجمالية للموقف الجارى في فرع خاص من فروع علم الاجتماع ، كما حاولت كأمر طبيعى أن أوضح في كل منها وجهة النظر العالمية .

وفي رأيي أن المرحلة النهائية في إقامة علم الاجتماع ، لا من حيث الطرق واسلوب البحث فقط ، ولا حتى من حيث المذاهب ، ولكن حيث أساس نتائجه . هذه المرحلة النهائية قوامها تجميع عمل موسوعى ، يؤدى الى اختبار النظريات المعاصرة ، لا من حيث مظاهرها الشكلية فقط ، ولكن أيضا من حيث مدى صمودها للنتائج الأخيرة للبحوث . أن كتاب الدليل للبحث الاجتماعى التجريبى ، فضلا عن أنه رسالة في الطريقة الاجتماعية ومنهج البحث ، وقد أعد وفق هذين الاتجاهين بمعونة مايزيد على خمسين مساعدا ، يملأنا بمجمل لجميع التغيرات الاجتماعية التى حدثت في المجتمعات الصناعية المتقدمة خلال ثلثي هذا القرن أو ثلاثة أرباعه . وهذا يمكن المرء من أن يرى بشكل أوضح أن المذهب التجريبى هو في الحقيقة اذا ما تتبع بشكل منهجى ، مهمة نظرية راقية ، من حيث أنه يمكننا - اذا ماكان تطوره يسير باسلوب منطقى - من أن نرفض على أسس معقولة عددا من الافتراضات التقليدية التى ظلت قائمة أمدا طويلا . وعلى ذلك فإن موسوعة من هذا النوع ليست مجموعة من حقائق ميتة ، بل على العكس من ذلك هى استعراض وتقويم للموقف السائر في أبعاده المختلفة . ومن الواضح أننا لانستطيع أن نصل الى درجة الكمال في هذه المهمة . وعلى كل حال فليس هذا بالأمر الضرورى ، ولا المرغوب فيه أيضا ، إذ أنه قد يؤدى بنا الى الاعتقاد بأن كل شيء قد أفر بصفة نهائية . ولكن هذا يعنى الموت للعلم . وكما أننا نستند الى أكتاف من ذهبوا قبلنا فيجب أن تقدم أكتافنا للآخرين حتى يستطيعوا أن يروا في المستقبل أبعد مما رأينا . وأخيرا فإن موسوعة من هذا النوع تمدنا ، لا بحشد متتابع من الرؤى والبصائر الفردية فقط ، أنها على العكس تزودنا برؤية شاملة للمجتمع ككل ، مما يمكننا من أن نحدد موقفنا الحالى الى درجة أدق . أن «توبيا» من هذا النوع (باستعمال الكلمة التى استخدمها الفرد فيركاند منذ أربعين سنة) لايتضمن مطلقا نظاما مطلقا . أن كل ما هو «مفلق» حدث ماضى ، نحدد بوضوح من حيث الزمان والمكان ، ويجب أن يثبت قلوه وقيمته كعلامة على الطريق الى مستقبل جديد .

# أ. ر. لوريا

## الكفاح العلمى الطويل المدى لعالم نفسى سوقيتى

ان النشاط الرئيسى فى الحياة العلمية لهذا العالم الذى نكتب عنه هو دوره فى العون على خلق فرع جديد هو علم نفس الاعصاب ، وأعنى به تحليل منابع نشاط الانسان العقلى فى المخ وتطبيق مناهج علم النفس فى دراسة التنظيم الوظيفى للمخ . ويتمثل المضمون النظرى لهذا الفرع الجديد فى كونه يمكن من القيام بتحليل أوثق صلة بطبيعة العمليات العقلية للانسان وبنائها الداخلى . وتكمن أهميته العملية فى أنها تزودنا بأساس علمى لتشخيص الاضرار المحلية فى المخ والاحتفاظ بالاشكال المركبة للنشاط العقلى التى تعكر صفوها هذه الاضرار .

ولم يكن الطريق المفضى الى خلق هذا الفرع الجديد ممهدا ، فقد اقتضى مراجعة الدراسات الجذرية للنشاط العصبى عند الانسان والمبادئ الاساسية لعلم النفس الكلاسيكى . وقد كان عالم النفس المبرز . فيجوتسكيج ( ١٨٩٦ - ١٩٣٤ ) هو أول من سار على هذا الدرب ، واننى لأعتبر عملى مجرد خطوة فى هذا الاتجاه .

ولقد كان للعلم فى نهاية القرن التاسع عشر تصور طبيعى عميق الغور للمخ ونشاطه ، ظل مستمرا حتى عهد قريب . وقد ارتأى العلماء فى بحوثهم أن للمخ البشرى بعض خصائص كامنة فيه وملزمة له تمكنه من أن ينهض بالعمليات العقلية .

## ترجمة : الدكتور محمد فني الشنيطي

أستاذ ورئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب بالمتيا،  
وهو الآن أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بالرباط بالمغرب  
العربي .



وطن بعض الكتاب أن المنح تجمع مركب لأعضاء أو «مراكز» صغيرة لكل منها وظائفه المحددة تحديدا دقيقا ، وأقاموا «مراكز» خاصة في اللحاء الدماغى تتحكم فى مثل هذه الوظائف من قبيل الكلام ، والكتابة ، والقراءة ، والعد . واعتقد آخرون أن المنح ميكانيزم موحد يؤدى وظائفه ككل غير مجزأ . وافترض كلا الفريقين أن الإشكال المتنوعة للنشاط العقلى هى نتيجة مباشرة لوظائف المنح ، وأن العميات العقلية تولدها خلايا عصبية منفصلة وتحدث كنتيجة مباشرة لنشاطات هذه الخلايا .

وبدا هذا الافتراض من الوضوح الى الحد الذى حدا بشخصيات قائمة فى حقل النظرية الفسيولوجية الحديثة ، من أمثال س . شرينجتن ، و ا . أدريان ، و ج . اكليس وغيرهم ، أن تأخذ به .

وأيا ماكان فكرة أن العمليات العقلية هى «خصائص» مباشرة أو «أفصاحات» لنشاط الخلية العصبية ، وأنها يمكن تناولها من زاوية التحليل الطبيعى ، لم تكن بأى حال من الاحوال أمرا واضحا بذاته ، كما يمكن افتراض ذلك لأول وهلة .

وهذا التناول لم يفض ، والحق يقال ، الى مواجهة مصاعب ذات خطر فى تحليل

العمليات العقلية الأولية - فالاحساسات البصرية هي بوضوح نتيجة لعمليات تجرى فى شبكية العين ، والمراكز «البصرية» فى المخ مرتبطة بهذه الشبكية ، ولا غرو فقد نشر حديثا على الخلايا العصبية فى ذلك الجزء من اللحاء المتصل بالاحساسات البصرية (التمركزة فى المجال البصرى) التى تستجيب فقط لمنبهات الضوء - بل فضلا عن ذلك لمنبهات الضوء من نبط معين فقط .

ومن الواضح تمام الوضوح أن الاحساسات السمعية تتولد حينما تثار الخلايا العصبية فى ميكانيزم الأذن الداخلية والخلايا العصبية السمعية المرتبطة بها فى اللحاء الدماغى ، فى حين أن احساسات اللمس هي نتيجة لاثارة الخلايا العصبية فى الجلد الذى تنتقل اثارته الى مناطق من المخ مخصصة للغاية .

وأيا ما كان فهل يمكن تطبيق المبدأ نفسه على الاشكال الأعلى لنشاط الانسان الشعورى ؟ هل لنا أن نفترض أن هنالك تشكيلات عصبية خاصة فى اللحاء الدماغى تقضى الى نشأة ادراك الموضوعات ، وإلى الفعل الإرادى والتجربة الشعورية ؟

من الجلى أن الانسان يعيش فى عالم موضوعات مبركة ادراكا حسيا ، وأنه يستقبل المعلومات المتصلة بخبرة أجيال من الافراد الآخرين ، وهو قادر على تشكيل أشكال من النشاط الشعورى الإرادى الذى يميزه من السانة . ويضع الانسان لنفسه أهدافا ، ويشكل خططا وبرامج لسلوكه ، وينظم أفعاله ، ويضبطها وهي تسير قدما ، ويصحح أخطأه .

فهل يتصور أن هذه الاشكال من النشاط العقلى ، التى لا يمكن انكار وجودها ، تولدها خلايا فى المخ بالطريقة التى تولد بها معظم الاحساسات البسيطة والحركات الأولية ؟

لقد نبذ علم النفس الكلاسيكى هذا الافتراض من أول وهلة . وأخذ بأن الوظائف الأعلى اقرب فى الأصل الى أن تكون وظائف عقلية من كونها وظائف مادية ، وأنها لا تتولد من المخ ، بل هي تكشف فقط عن أشكال العالم العقلى ، وانها تمنى قدما فى «توازن» مع المخ أو «تفاعل» معه .

ومع ذلك فهذه الأفكار التى استمرت الى عهد قريب جدآتمثل عقبات لاسبيل الى تخطيها من وجهة نظر المذهب الوضعى العلمى ، ودراسة المخ .

واذ يقر علماء النفس بالطبيعة الخاصة للأشكال الأعلى للنشاط الشعورى ، وأن كانوا يربطون هذا النشاط بعالم عقلى خاص ، يضطرون الى تقسيم علم النفس الى علمين منفصل أحدهما عن الآخر انفصالا تاما ، أحدهما يزودنا بتفسير للعمليات العقلية الأولية دون أن يحاول الى جانب ذلك أن يتناول تناولا علميا تحليل الاشكال الأعلى للنشاط العقلى ، والآخر يزودنا بوصف للأشكال الأعلى لحياة الانسان العقلية دون أن يعطينا تفسيراً لها . وفى نهاية القرن التاسع عشر أطلق على هذين الفرعين « علم النفس التفسيرى » و « علم النفس الوصفى » على التوالى .



وننتاج هذا الاحتشاد للعمليات العقلية الأعلى توقع بالمثل في الاضطراب علماء  
فسيولوجيا المخ . فاذ يكونون غير قادرين على تفسير أصل الاشكال الأعلى للنشاط  
الشعوري يتحولون الى تناول مادي فيج طالما كان مهجورا ، ويحاولون أن يجدوا خلايا  
منفصلة كامنة في مكان ما في المناطق الأعمق للمخ « تولد » الشعور ، أو يبحثون عن  
النقطة التي يدخل عندها « المبدأ العقل المخ » ، محولين اكتشاف مقومات دقيقة  
للعالم العقل في اللحاء الدماغى .

ومن الجوهرى حل هذا التناقض الجذرى وإيجاد مبدأ يتيح بالمثل إيثار مناهج  
علمية لتحليل العمليات العقلية الأولية والأعلى معا ، ويجعل ممكنا للملم الحاضر أن  
يحل مشكلة تنظيمها داخل المخ .

لقد حاول عالم النفس السوفيتى ل.س. فيجوتسكيج أن يتناول هذه المشكلة  
الاساسية في علم النفس ، والحل الذى يقممه حدد تطور علم النفس لزمن طويل ،  
وكان على الأخص ذا أهمية أساسية للفرع الخاص لهذه الدراسة ، الذى يحاول كاتب  
هذه السطور أن يضى به قسما الى مرحلة أبعد .

لقد أسس فيجوتسكيج ( ولقد قابلته لأول مرة سنة ١٩٢٣ وواصلت العمل  
بالقرب منه حتى وفاته ) دراسته على مبدأ بسيط ولكنه وطيد ، وهو أن الأخرى ان  
يكون لعمليات الانسان العقلية الأعلى أصل اجتماعى لا أصل طبيعى . ومن الضرورى  
بغية تفسيرها أن نضى الى ماوراء الكائن العضوى ونبحث عن جذورها فى العلاقات  
بين الافراد وفى الظروف التاريخية للمجتمع .

وما برحنا نعرف شيئا ضئيلا جدا عن تشكيل العمليات العقلية فى سياق  
التطور التاريخى للمجتمع ، وإن كان قد عرف الكثير عن تشكيل الوظائف العقلية  
الأعلى : الفعل الشعورى ، الانتباه الإرادى ، والإدراك الفعال فى نمو الطفل .

فالطفل ينمو فى عالم موضوعات قد تشكلت كنتيجة لعمل المجتمع ، وهو يعيش  
فى احتكاك لا ينقطع بالراشدين . فالأم تقول للطفل «هذه كرة» وتشير إليها بأصبعها،  
والاشارة والكلمة توجه نظرة الطفل ، وتميز الموضوع عن الموضوعات التى تحيط به ،  
وتوجه الانتباه اليه . وتقول الأم : « أعطنى الكرة » ، وينجز الطفل الفعل الضرورى .  
والاحتكاك بين الطفل والراشد يقوم عند قاعدة الاشكال المركبة للفعل الإرادى .  
والوظائف العقلية المركبة - الفصل الشعورى الإرادى - تنقسم فى البداية بين  
فردين ، تبادل بها الأم ، ويكملها الطفل .

ويتعلم الطفل بعد ذلك الكلام ، وهو الآن يردد تعليمات أمه اللفظية له . فهو  
يقول لنفسه : «هذه كرة» ، وفى طاعته لقولها يوجه نظرتة الى الموضوع المسمى  
ويلتقطه بيده . فالوظيفة التى كانت من قبل مقسمة بين فردين تصبح الآن شكلا  
باطنيا فى تنظيم النشاط العقل للطفل . وبهذه الطريقة تظهر الوظائف العقلية الأعلى

في الوجود : اجتماعية في الأصل ، وسيطة (من خلال الكلام) في البناء ، موجبة توجيهيا شعوريا وإراديا في منهجها في العمل .

هذه النظرية عن الأصل الاجتماعي وعن البدء المركب لوظائف الانسان العقلية الأعلى تغير نغيريا جذريا تناولنا لتنظيمها في المنح .

وتبدو المحاولات نحو مركزة العمليات العقلية الأعلى مركزة محصورة في مناطق ضيقة خاصة من المنح محاولات لا معنى لها . فقد بدأ النظر الى الوظائف العقلية الأعلى كأنساق وظيفية مركبة تركيبا عاليا تنطوي على مجموعة كاملة من ميكانيزمات المنح وليست متمركزة في مناطق منفصلة في اللحاء الدماغى ، ولكنها توجد في ثنايا اللحاء بـسـرـد . وتعتمد على تفاعل مركب الى ابعد حد لمناطق اللحاء المتنوعة ، التى يؤدى كل منها دورا خاصا في هذا «النسق الوظيفى» .

وليس في تصور «النسق الوظيفى» شىء جديد أو غير متوقع . وقد أدخله في علم النفس فيجوتسكيك ، وفي علم وظائف الاعضاء العالم السوفييتى الأشهر أنوهين P. K. Amohin وهو مؤسس على افتراض أن أى نشاط مركب - حتى ولو كان نشاطا فسيولوجيا في طبيعته كالتنفس مثلا - يحقق وظيفة خاصة ( اعنى نقل الهواء الى شعيبات الرئتين ) ولكنه يستخدم تنوعا من الوسائل المختلفة لىكى يؤدى عمله (اثارة الحجاب الحاجز ، تضخم الزور بالمعضلات الواقعة بين الضلوع ، ابتلاع الهواء .. الخ) ، وإذا تحققت الوظيفة المطردة (الثابتة) انقطع النشاط ، وإذا لم تتحقق نقلت الى المنح الاشارات عن التناقض (عدم التنسيق) بين نتيجة النشاط وبين المبة الاولى ، ويستمر البحث عن الوسيلة الضرورية لاداء الوظيفة .

فاذا كانت وظائف من هذا القبيل ، بسيطة بالمقارنة كالتنفس ، هي «أنساقا وظيفية» بالغة التركيب من حيث الجوهر ، فإن هذا أصدق في حالة «الوظائف الأعلى سيكولوجيا» . وكما قيل من قبل فإن هذه الوظائف تمارس عملها من خلال عملية رد فعل مركبة للواقع ، وتحتك بالافراد المحيطين ، وهى تتضمن لا «التنفيذ» الفعال العمل فقط بل تتضمن معه الكلام أيضا ، وهو من البداية وسيلة الاتصال ، وينطبق بالتالى على التنظيم الباطنى لعمليات الانسان العقلية .

وطبيعى من ثم أن الاساس الدماغى لهذه الاشكال الأعلى للنشاط العقلى للانسان يتخذ شكل أنساق وظيفية مركبة للغاية لمناطق في المنح تنشط في اللحظة نفسها ، وأن مركزة هذه الأنساق الوظيفية تشكل مشكلة أساسية في علم نفس الاعصاب .

لقد بسطنا المشكلة الأساسية لعلم نفس الاعصاب . ولكن نتقل الى نقطة أقرب نحو حل لها فقد كان من الضرورى ، مع ذلك ، أن نتحدث بناء العمليات العقلية الأعلى نفسها ، وحينئذ فقط سيكون ممكنا البحث عن أسس تنظيمها في المنح .

وقد صاغ هذه المشكلة فيجوتسكيك ، وواصل البحث فيها زملاؤه وتلاميذه

١٠٠٠. ليونتنف ، و. أ. ف. زابوروفيك ، و. د. ب. الكونين ، وكاتب هذه السطور)

ولقد كانت هذه المجموعة التي أثرت تأثيرا ملحوظا في تطور علم النفس السوفييتي قادرة في عملها المبكر على اثبات البناء المركب للعناية لهذه العمليات الانسانية ، كالادراك الحسى والانتباه ، والذاكرة والفكر ، والحركة والفعل . وكانت مسلماتها المركزية ، التي أشرنا إليها من قبل ، هي دور الكلام – الذى يبدأ خارجيا ، وبالتالى باطنيا – في تشكيل كل هذه العمليات .

وقد بين فيكوتسكيج أن المعانى التى تكتسبها الالفاظ في مسار نشاط الطفل تنمو ، وأن هذه العملية تؤدي دورا حاسما في نمو المعرفة ، والفكر ، والوعى في الإنسان .

ولقد شرعت أنا نفسى في دراسة وظيفة أخرى للكلام ، أعنى بها دوره في تنظيم وترتيب وضبط الحركات الإرادية للإنسان والخبرات العاطفية . وكان موضوع أول كتاب متكامل لى «طبيعة الصراعات الانسانية» (١٩٣٢) ، وهو يلخص نتائج أبحاثى الأولى عن ردود الفعل العاطفية ، ويبين الشروط التى تحدث فيها ، ويبرز ويحلل دور الكلام في التغلب عليها ، وفى تنظيم الحركات الإرادية .

هذا العمل ايزدان بيده سلسلة طويلة شاملة لمشروعات البحث بدأتها في العقد الرابع ، واكتملت فقط بعد ذلك بخمسين سنة ، في نهاية العقد السادس وفى بداية السابع .

ركنت من قبل قد أكدت في أول كتاب نشر لى بالاشتراك مع « فيكوتسكيج » بعنوان « دراسات في تاريخ السلوك » (١٩٣٠) الحاجة الى دراسة تفصيلية للعمليات التى تنمو بها الاشكال الأعلى للنشاط العقلى في مسار احتكاك الطفل بالراشدين ، والدور الحيوى الذى يؤديه الكلام في هذه العملية .

ومع ذلك فلم أكن حتى سنة ١٩٣٥ – سنة ١٩٣٦ قادرا على النهوض بتحليل دور الكلام في تشكيل العمليات العقلية الأعلى . وكانت لدى فرصة القيام بدراسة شاملة للنمو العقلى المتوائم المتبين الى بوضحة واحدة ، ونشرت بالاشتراك مع زميل كتابا خاصا بعنوان «الكلام ونمو العمليات العقلية» بينت فيه التأثير الجازم لنمو النشاط الكلامى على الاشكال المركبة للادراك والذاكرة ، للفكر والفعل . وفى تجربة فريدة على توأمين من بويضة واحدة كان نموها متخلفا للغاية ، ظهر أن فصل التوأمين وخرطهما في جماعتين مختلفتين يخلق مؤثرا جديدا للاتصال الكلامى ، ويفضى الى التعميل بالنمو الكلامى فقط ، بل أيضا الى إعادة تنظيم الاشكال الأعلى للنشاط العقلى . وكان ممكنا أن نتبين في الوقت نفسه أن التدريب الكلامى الخاص الذى تلقاه أحد التوأمين أفضى الى نشأة اشكال من النشاط الشعورى لم تنم تلقائيا في التوأم الآخر الذى لم يخضع للتدريب الخاص . وقد كانت نتائج هذه التجربة مثمرة الى الحد

الذى أعيد معه طبع كتاب « الكلام ونمو العمليات العقلية » سنة ١٩٥٩ ، وسنة ١٩٧١  
فى عدد من اللغات ، وحظى باستجابة واسعة .

وثمة بحث ثان على التوائم المتتبعين الى بويضة واحدة نشر بالروسية  
فقط ( ١٩٤٨ ) ، قد انطوى على تجربة فصل فيها توائم البويضة الواحدة وأخضع  
نشاطهم التكويني الى شكلين منفصلين من التدريب ، فأحدهما اقتصر على النشاط  
البصرى وتضمن الآخر تحليلا شعوريا مؤسسا على عمليات الكلام . وقد أظهرت هذه  
التجربة كيف تتحول عمليات النشاط الإدراكى البصرى تحولا عميقا تحت نفوذ  
الوظيفة التحليلية التنظيمية للكلام .

ولقد لحصت النتائج الرئيسية لهذه السلسلة من الأبحاث فى مقال مختصر جدا  
بعنوان « نمو الوظائف العقلية فى التوائم » نشرته فى صورته الأصلية فى مجلة  
« الحلق والشخصية » ( ١٩٣٨ ) ؛ وأعيد نشره فى صورة موسعة ومراجعة فى مجلة  
« مشكلات علم النفس » ( ١٩٦٢ ) . وهذا المقال المؤسس على نتائج دراسة مقارنة  
للتغيرات فى عدد من العوامل المورفولوجية والعمليات السيكلولوجية - الذاكرة بوجه  
خاص - فى التوائم ذوى البويضة الواحدة أظهر أنه بينما يظل تأثير النموذج الوراثى  
على بعض العوامل المورفولوجية تأثيرا ثابتا خلال النمو المتطور للفرد . فليس كذلك  
الحال فى العمليات السيكلولوجية . فإبان تطور الفرد تتغير عمليات من قبيل الذاكرة  
لا من حيث بنائها السيكلوجى (التغير من الذاكرة المباشرة الى الذاكرة المركبة مع  
الكلام كوسيط فقط ، ولكن أيضا فى علاقتها بالنموذج الوراثى . وبعبارة أخرى  
تعتمد التغيرات فى هذه العمليات اعتمادا أقل فأقل على العوامل الوراثية ، واعتمادا  
متزايدا على تأثير البيئة الخارجية ( الاجتماعية ) . ولسوء الحظ أن هذا المقال لم يكد  
يجذب أى انتباه اليه ، مع أننى مقتنع بأن القضايا التى يحتوى عليها يمكن أن تفتح  
طرقا جديدة وهامة فى البحث فى الأدوار المتتالية لعوامل النموذج الوراثى ولعوامل  
النموذج المقارب فى نمو عملياتنا العقلية بتمونا .

وفى سنوات تالية واصلت مع زملائى دراسة دور الكلام فى تشكيل النشاط  
العقل ، وقد قسم البحث الى مجالين متكاملين .

فمن جانب أجريت سلسلة كاملة من الدراسات الخاصة على نشأة وتشكيل  
الوظيفة المنظمة للكلام ، التى أهملها أهملًا تاما اللغويون الذين كانوا معنيين بهيئة  
الأصوات والمفردات ، ودلالات الألفاظ وتطورها ، وقواعد اللغة ، ولكنهم لم يحاولوا  
حتى دراسة الوظيفة العملية للكلام ، أعنى أنهم لم يحلوا دور الكلام فى معرفة برامج  
السلوك ، وفى الإبقاء على معدل نشاط السلوك وضبطه . ومن جانب آخر أجرى  
تحليل على كيفية تغير الوظيفة المنظمة للكلام فى ظروف النمو الشاذ .

وتضمن المشروع الأول الأطفال الصغار ( من سن سنة ونصف الى سن سنتين ،  
ومن سن ثلاث سنوات ونصف الى أربع سنوات ) ، وحاول أن يحدد تحديدا دقيقا

كيف يبدأ الطفل الانصياع للتعليمات اللفظية للراشد وكيف يتم الدور المنظم للكلام نموا مطردا . وقد أظهر هذا البحث ، الذى نشر فى سلسلة من المقالات الخاصة من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦١ ، أن للوظيفة المنظمة لكلام الراشد تأثيرا محدودا جدا على سلوك الطفل فى سن سنة ونصف الى سنتين ، وأنها وإن كانت قد تثير بسهولة رد الفعل المرغوب ( توجيه الانتباه ، انجاز فعل مطلوب ) لا يمكن أن تؤخر أو تكبح بنجاح رد فعل مثار ، ويسهل التغطية على تأثيرها بفعل المنبهات غير المباشرة . وفى مجموعة أطفال من سن الثالثة الى الثالثة والنصف فقط تغدو التعليمات اللفظية للراشد من التحديد والاستمرار بحيث يمكنها أن تفضى الى نشأة برامج للفعل مركبة الى حد ما، وتبين على التأثيرات الدخيلة . وفى أثناء هذه الفترة تبدأ الوظيفة المنظمة لكلام الطفل نفسه فى النمو ، مؤثرة تأثيرا أوليا على كلامه الخارجى ، وبالتالي تتحول الى الباطن وتنظيم كلامه الباطن . وأنماط سلوكه التى تخلق على أساس ذلك الكلام .

وقد درسنا أيضا ، زملائي وأنا ، تشكيل الوظيفة المنظمة للكلام فى الأطفال الأكبر سنا . وقد وجد أن الاضطراب فى هذه الوظيفة المنظمة للكلام فيما يختص بأشكال مركبة للسلوك هو أحد العلامات الأساسية لنماذج معينة من النمو الشاذ . وهذه المعطيات منضوبة فى مؤلف من جزئين نشرناه بعنوان «مشكلات النشاط العصبى الأعلى فى الطفل السوى والشاذ» (وقد صدر الجزء الاول سنة ١٩٥٦ والجزء الثانى سنة ١٩٥٨) ، ونوقشت فيما بعد فى كتاب خاص بعنوان «دور الكلام فى تنظيم السلوك السوى والشاذ» (وقد صدر فى أكسفورد سنة ١٩٥٩) . وهذه الدراسات المنشورة أظهرت أن الدلالة الموضوعية للنمو السوى أو الشاذ فى الطفل تزودنا بها دلالات عامة للتغير فى عمليات الاعصاب (قوتها ، اتزانها ، حركتها) كما ترى مدرسة «بافلوف» أن الحالة كذلك ، وتزودنا بها كذلك دلالات خاصة للتغيرات العصبية فى الانساق المباشرة (غير الكلامية) والانساق الكلامية ، وأنه ما تكاد تبدأ التغيرات العصبية فى عمليات الكلام فى تخطي التغيرات العصبية فى العمليات غير الكلامية حتى يمكن للكلام أن يتولى القيام بدور تنظيمى فيما يختص بسلوك الطفل ككل .

وقد كشفت أبحاثنا أيضا عن أن النمو الشاذ كذلك يمكن وصفه لا بالمرجة الأكبر فى حدود التغيرات العامة فى عمليات الاعصاب ، بل بالأحرى بالمؤشرات التى تظهر العلاقة المتبادلة بين القسمات الدينامية العصبية للأشكال العامة العصبية والضوتية للنشاط ؛ وبينما فى حالة الأطفال المعوقين عقليا تتلصقا خلف مؤشرات السلوك غير الكلامي المؤشرات الدينامية العصبية المتصلة بالتوازن ، وعلى التخصيص بحركة العمليات العصبية الكامنة تحت النشاط الكلامي ، فكثيرا ما يكون العكس هو الصحيح فى حالة الأطفال الذين يعانون من أشكال أخرى لاضطراب النمو ، وبوجه خاص الرهن .

هذه النتائج الهامة التى أثبتتها بصفة رئيسية زملائي أ . د . د . هومسكايا و . ا . مسرجاكوف ، و . ف . لوبرفسكيچ ، وآخرون ، تلقى ضوءا جديدا على

مشكلة تعويض النقصان الدينامية العصبية ، وتقترح دراسات جديدة معينة للمشكلات النظرية للنمو السيكلولوجى الفسيولوجى للطفل .

وقد بسطت هذه المعطيات فى أعم صورة لها فى بحث من أحدث أبحاثى المنشورة ، وهو محاضرة بعنوان «أصل العمليات الشعورية وتنظيمها فى المخ» ألقيتها فى سنة ١٩٦٦ فى المؤتمر الدولى التاسع عشر لعلم النفس فى لندن .

وسلسلة الأبحاث التى أتيت على وصفها ، والتى بدأت فى العقد الرابع واستمرت ثلاثة عقود ونيفا ، أظهرت الأصول الاجتماعية والبناء المركب للعمليات العقلية حيث يؤدى الكلام دورا بالغ الأهمية . وقد أرست هذه الدراسات الأساس لنشاطى الرئيسى ، وتحليلا لتنظيم المخ للعمليات العقلية المركبة ، وكذلك لعلم نفس الأعصاب ، وهو فرع من العلم كان يستحيل نموه بدون هذا البحث .

ومنذ منتصف سنة ١٩٢٠ أصبحت مهتما مع فيجوتسكيكج بمسألة كيف تتغير عمليات الانسان العقلية حين يعانى المخ من أضرار مصحوبة بضعف الكلام .

ولقد كان واضحا وثاقا صلة هذه المسألة بموضوعنا ، الامر الذى يدعونا لدراسة دقيقة يفضلة لفقد القدرة على الكلام . وبالرغم من أن التجارب الاولى التى استهدفت تحليل السلوك العقلى لفاقدى القدرة على النطق كانت فجوة للغاية فإن توجيه الانتباه الى هذه المشكلة هو ايدان ببداية سلسلة من الدراسات كان من شأنها أن تقضى الى خلق علم نفس الأعصاب .

وفى تلك الايام كانت مشكلة تمرکز الوظائف العقلية ، بما فى ذلك الكلام ، تصاغ بطريقة بالغة التبسيط . وكما ألمنا الى ذلك من قبل ارتأى بعض الكتاب (مثل كلايسن) أن فى الوسخ «تمرکز» الكلام بالطريقة التى تتمركز بها جميع العمليات العقلية فى مناطق خاصة فى المخ (« تمرکز فى نطاق ضيق» ) ، واعتقد آخرون (مثل فون موناكو ، وجولدشتاين أن المخ يعمل دائما ككل موحد ، وكان اهتمامهم ضئيلا بتحليل الاسهام الدقيق لكل منطقة من مناطق اللحاء فى تشكيل هذا الكل ( « عدم التمرکز » ) .

ولم يكن يسمعى أن أنتهى الى أى من هاتين الوجهتين من النظر ، لأنهما معا قد طهرتا لى خاطئتين على حد سواء .

فاذا كانت « الوظيفة العقلية الأعلى » ( الكلام أو اية وظيفة أخرى ) تمثل نسقا وظيفيا مركبا ، اجتماعيا فى أصله ، ووسيطا فى بنائه ، فقد بدا معقولا أن تعرض المشكلة بطريقة مختلفة وأن لا نحاول أن نجيب على السؤال الخاص بآين « تتمركز وظيفة خاصة » ، بل أخرى بنا أن نحلل «توزيع» نسق وظيفى خاص فى اللحاء الدماغى ، وأن نعين الاسهام الدقيق لمناطق خاصة فى تشكيل هذا النسق الوظيفى .

والأورام المحلية التى يصاب بها المخ البشرى (الأورام ، والصددمات ، والنزيف) كانت مفيدة بوجه خاص فى العون على حل هذه المسألة .

وقد كان من قبل أن يكون واضحا في ذلك الحين أن للحساء المنح البشري بناء طبقيا مركبا . وبينما ترتبط أسسط المناطق الاولى بوظائف مخصصة (مؤخر الرأس بالوظائف البصرية وأعلى الصدغين بالتحليل السمعى للعلامات المستقبلية) فللمناطق الثانوية المتمركزة فوقها وظيفة أعقد ، وأعنى بها تأليف وتنظيم هذه الدوافع وتحويل هذه العمليات الخاصة الشكلية والنوعية الى تنظيم وظيفي مركب ، بل ان مناطق أشد تركيبا «من الطبقة الثالثة تحقق تأليفا أشد تعقدا أيضا» جامعة بين أنساق نوعية متعددة «بصرية وسمعية ولسية» عند مستويات من أشكال أرقى وأعلى للتنظيم .

لقد كان اذن خطوة منطقية النظر بعين الاعتبار الى مشكلة الدور الدقيق لهذه المناطق فى المنح فى تشكيل «الوظائف العقلية الأعلى والطبيعة الدقيقة لتضعض هذه الأنساق الوظيفية المركبة عندما يعانى المنح من أضرار محلية» .

وقد أجريت محاولات للجابة على هذه الاسئلة فى العقد الرابع والعقد الخامس ولقيت بعض النجاح . وقد أسست هذه المحاولات بوجه خاص على دراسة عدد كبير من جروح المنح والجمجمة خلال الحرب العالمية الثانية . وقد أظهر تحليل سيكولوجي تفصيلي للمرضى الذين يعانون من هذه الجروح أن كل ضرر يتركز فى المنح يفضى ابتداء الى الاضطراب الاولى لعامل واحد خاص فى نشاط عقلى ما ، وأنه لا يؤدي الا الى نتيجة ثانوية حين يضعف النسق الوظيفي المركب بأسره .

ان ضرا يقع فى المناطق الأعلى للمنطقة الصدغية اليسرى يفضى من ثم الى نشأة ضعف فى ادراك تمييز الالفاظ (وهى عملية وظيفية مركبة تنمو مع اكتساب اللغة) . ومة ضرر فى الاجزاء الثانوية ومن الطبقة الثالثة للمنطقة الادنى فى وسط ومؤخرة الرأس يسبب ضعفا فى التأليف المكانى الزمان له . ويفضى الضرر فى منطقة الدفع الحركى الى انحلال التأليف الحركى الذى يعقبه ،، وهلم دواليك .

وكان واضحا أن كل اضطراب من هذه الاضطرابات الأولية يؤدي الى تفكك الأنساق الوظيفية التى تتضمن «عاملا» خاصا ولا تؤثر فى الأنساق التى يغيب عنها هذا «العامل» . وكما أظهر التحليل تتغير طبيعة هذه «الاضطرابات النسقية» طبقا لتركز العضو المتأثر ؛ وبينما يفضى ضرر محلي فى المنح الى تفكك السياق الكامل لعمليات سيكولوجية فقد كانت طبيعة الضعف واحدة فى جميع الحالات .

وعلى ذلك فالضرر فى المنطقة الصدغية اليسرى ، المضعف لتمييز الاصوات (تقويم تلك الاصوات فى لغة تمكن من التمييز فى معنى الكلمات) ، يفضى لا محالة الى فشل المريض فى فهم الكلام الموجه اليه ، والى صعوبة خاصة فى العثور على الكلمات التى يصف بها الموضوعات ، والى ضعف فى القدرة على الكتابة (يعزى الى صعوبات فى تحليل التكوين الصوتي للكلمات) ، ولكنه لا يؤثر على الاتجاه المكانى وعلى العد ، وعلى أشكال أخرى من النشاط لاتتضمن العامل «الاولى» المشار اليه . ومن جهة أخرى فان لأضرار المناطق الادنى فى وسط الرأس وفى مؤخرته تأثيرا مباشرا فى اضعاف التأليف المكانى ، وبقدر ما يتصل الامر بالنسق كله تجعل الاتجاه الهندسى

مستحيلا وتفضى الى صعوبات فى المد وال فشل فى فهم بعض التكوينات المنطقية والنحوية المتضمنة لعلاقات شبه مكانية ، بيد أنها يمكن أن تدع عمليات من قبيل فهم المعنى المباشر للكلمات ، والكتابة ، الخ ، دون أن تضعفها .

هذه الظواهر - التى سملها ج.ل. تاوبر فيما بعد «مبدأ الانفكاك المزدوج» - زود اكتشافها العلماء الباحثين بفرص جديدة لتحليل البناء الباطنى للوظائف العقلية الأعلى ، ويمكن من اجراء دراسة مباشرة لتنظيمها فى المخ .

كانت الخطوة الاولى هى تحليل بناء عمليات الكلام ، والقيام ببحث علمى فى نماذج ضعف الكلام المتنوعة أو فقدان القدرة على النطق . وقد أفضى هذا الى مراجعة أساسية للنظرة الكلينيكية التقليدية لفقدان القدرة على النطق ، والاستماضة عن وصف اضطرابات الكلام فى حدود علامات خارجية ( سمعية وحركية وفقدان القدرة على النطق المترن بفقدان الذاكرة ) بتحليل اعمق لفقدان القدرة على النطق طبقا لميكانيزماتها الفسيولوجية الباطنية و « العوامل » التى تتأسس عليها . وقد وصفت نتائج هذا البحث فى كتاب لى بعنوان «فقدان القدرة على الكلام الناشئ عن الرضوض» وقد نشر بالروسية سنة ١٩٤٧ ، وصدرت له طبعة انجليزية مراجعة مراجعة تامة سنة ١٩٧٠ . وقد ناقضت أيضا هذه المسألة فى عدد من الابحاث المنشورة الاخرى (فى السنوات ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ الخ ) ، وبذلك أسهمت فى نوع فرع جديد من العلم هو «علم لغة الأعصاب» ، قدمت عنه وصفا موجزا فى أحدث ما نشر من مؤلفاتى (١٩٧٢) .

وبحث علم نفس الأعصاب فى ضعف عمليات الكلام الذى يعزى الى الأضرار المحلية فى المخ حقق نتائج عملية ملحوظة . فهو لم يقف عند تمكيننا من تشخيص بالغ الدقة لكان الضرر فى المخ ، مؤسس على دراسة للقسيمات الخاصة لاضطرابات الكلام ، بل زودنا أيضا بأساس علمى لمسألة عملية لا تقل عن ذلك أهمية ، هى كيف نعيد القدرة على الكلام التى ضعفت نتيجة للأضرار المحلية فى المخ . ولقد نشرت نتائج هذا الجانب من بحثى فى كتاب بعنوان «استعادة وظائف المخ بعد جروح الحرب» (موسكو ١٩٤٨ والطبعة الانجليزية ١٩٦٣) ، وقد زودتنا هذه النتائج بأساس نظرى لذلك القدر الملحوظ من العمل الذى نهضت به حديثا مع زملائى فى هذا الحقل .

وبحث علم نفس الأعصاب فى الكلام هو مع ذلك جانب واحد فقط من العمل الذى ارتبطنا به ، زملائى وأنا .

والجانب الثانى لهذا العمل كان تحليلا نفسيا عصبيا لبناء النشاط الشعورى الارادى الحق بالبحث الذى استمر سنين طويلة عن دور الفصوص الامامية للبغ فى تنظيم نشاط الانسان الفعال .

وقد نوهنا من قبل بالاهمية الحيوية فى الفلسفة وعلم النفس لمسألة ميكانيزمات النشاط الانسانى الفعال الارادى الكامن وللحقيقة القائلة بان علم النفس السوفييتى



حاول حل هذه المسألة بتعقب تشكيل الوظيفة المنظمة للكلام عند الطفل • وكل هذا البحث قادنا الى دراسة الدور الذى تؤديه فصوص المخ البشرى فى هذه العملية •

وقد أظهرت الملاحظات الكليتيكية لوقت طويل أن الفصوص الامامية ، وهى أشد الاقسام حداثة فى المخ ، وهى فى البشر تمثل ثلث نصفي الكرة فى المخ ، ترتبط ارتباطا وثيقا بتنظيم نشاط الناس الارادى المخطط من حيث أن هذا النشاط تحدده بواعت شعورية مركبة • ومع أن الاضرار الكبرى فى الفصوص الامامية لا تضعف الحساسية والحركة وليس لها تأثير على الجوانب الصوتية والنحوية للكلام فانها تدخل الاضطراب على الوظيفة المنظمة للكلام التى تفقد كما رأينا ظاهرة فى الطفل فيما بين سن الثالثة والثالثة والنصف •

وقد أخذت هذه الحقيقة كأساس لسلسلة من الملاحظات والتجارب التى شغلت فريقا كاملا من الباحثين بارشادى وارشاد زميل ٥٠١ هومسكاجا أكثر من عشرين عاما ، وقد ضمنت النتائج فى عدد من الابحاث المنشورة التى تشمل بحثين لى : «الوظائف اللغائية الأعلى فى الانسان» (النسخة الروسية سنة ١٩٦٢ و ١٩٦٩ - ونشر بالانجليزية سنة ١٩٦٦ وباللمانية سنة ١٩٧٠ وبالفرنسية سنة ١٩٧٢ ) ، و «المخ البشرى والعمليات العقلية» (الجزء الاول صدر ١٩٦٣ ، وطبعته الانجليزية ١٩٦٦ ، الجزء الثانى سنة ١٩٧٠ ) • ومؤلف كبير نشر بالاشتراك مع هومسكاجا بعنوان « الفصوص الامامية وتنظيم العمليات العقلية » سنة ١٩٦٦ • وقد قدمت وصفا موجزا عن هذه المؤلفات فى محاضرتى فى المؤتمر الدولى التاسع عشر فى علم النفس فى لندن عن «أصل العمليات الشعورية وتنظيمها فى المخ» ، وقد نوهت بها من قبل •

وكانت السمة الرئيسية لهذا البحث اكتشاف أن الفصوص الامامية هى ميكانيزم جوهري يؤكد أن الحالة العامة الفعالة للمخ التى تحددها تعليمات لفظية يمكن تعديلها ، وأنه حين تعانى الفصوص الامامية من الاضرار لا يمكن للنشاط العقلى أن يستحث بهذه الطريقة بواسطة الكلام (انظر فى ذلك «المخ والتنشيط» لهومسكاجا ، هوسكو ١٩٧٢ ) •

والنتيجة الثانية التى تساق من هذا البحث هى أن الاضرار الكبرى فى الفصوص الامامية للمخ تضعف بنسبة ملحوظة مستوى تنظيم النشاط الغرضى ، وتجعل من المستحيل على سلوك الفرد المتصل به أن يستجيب للبرامج التى تصاغ بواسطة الكلام ، وتعنى دور الفصوص الامامية ميكانيزم فى المخ مسئول عن تنظيم سلوك الانسان الغرضى والفعال ( المرهون بظروف المجتمع ) أن هذا أحد الاكتشافات الهامة التى تهيئ السبيل لحل احدى المشكلات الكبرى فى علم نفس السلوك البشرى •

والتحليل الأبعد مدى لدور الفصوص الامامية فى الاشكال المركبة للنشاط الذكائى ، وهو الموصوف فى كتاب نشر بالاشتراك مع زميل لى • س • سفنكوف بعنوان « تحليل علم نفس الاعصاب لعملية حل مشكلة » ( الطبعة الروسية فى ١٩٦٦

والفرنسية في ١٩٦٧ ) ، والبحث الأكثر تفصيلا عن دور أجزاء معينة للفصوص الامامية في بناء النشاط الشعوري ، هما أمران أو اصل العمل فيهما في السنين الأخيرة .

ولقد خصصت سنين عديدة للبحث في ميكانيزمات المخ الخاصة بالكلام والنشاط الشعوري . ومع ذلك فثمة مشكلة ملحوظة تبقى ، شرعنا ، زملائي وأنا ، في فحصها في السنوات الأخيرة ، وهي مشكلة تحليل ميكانيزمات المخ الخاصة بالذاكرة والعمليات الشعورية المرتبطة بها ارتباطا وثيقا .

وقد اضطرني فحص هذه المشكلة أن أتحوّل عن تحليل وظائف مناطق المخ الخارجية ( المحدبة ) الى وظائف مناطقه الباطنية ( الواقعة في وسطه ) التي ترتبط ارتباطا وثيقا بوظيفة الاجزاء العليا لجذع المخ ( وسط المخ وروابطه ) . والملاحظات التي أجريت عددا من السنين أظهرت أن اجزاء المناطق الخارجية للمخ ( المحدبة ) قد تقضى الى اضعاف الاشكال العرفانية للنشاط والكلام ، وبناء النشاطات البشرية ، ولكنها لا تؤدي البتة الى اضطرابات تشمل الذاكرة كلها والتوجيه المكاني والشعور . وأيا ما كان فاضطرابات من هذا القبيل يمكن بسهولة أن تنجم عن أضرار في المناطق الباطنية للمخ ( الوسيطة ) او عن منطقة الاطراف وارتباطاتها بالاجزاء العليا لجذع المخ .

ويمكن أن تفهم هذه الحقائق في ضوء البحث الحديث عن التكوين الدقيق للمخ الذي بين الدور النوعي للخلايا العصبية لقرن آمون hippocampus والنواة المذنبة Candate nucleus في تمييز العلاقات الخاصة من آثار المنبهات السابقة ، وفي نظرة البحث الفسيولوجي عن دور التشكيل الشبكي ، وقد حدث بي وزملائي الى أن نبدا سلسلة جديدة من الابحاث لحصت في أحدث كتيبي « اضطرابات الذاكرة في معالجة كينيكية لعدد الأعوية الدموية في الشريان الامامي الرابط » ( ١٩٧٠ ) ، وقد كتب بالاشتراك مع كونوفالوف وبودجورنا ، و: « علم نفس أعصاب الذاكرة » ( ١٩٧٣ )

وقد بينت نتائج هذا البحث أن نشاط الانسان العدوانى المرتد (في الذاكرة) مرتبط ارتباطا وثيقا بمناطق المخ التي أشرنا اليها آنفا ، وأن ضررا في هذه المناطق يسبب ضعفا عاما في الذاكرة ، أكثر مما يسبب ضعفا جزئيا للملكة واحدة فيها عدوان مرند (سمعية ، بصرية ، حركية) . وهي تبين أيضا أن الميكانيزم الفسيولوجي الرئيسى لاضرار من هذا القبيل هو تزايد كبت الدوافع بواسطة المنبهات الدخيلة (تداخل) .

هذا البحث التجريبي الذي قدته أنا وعلماء زملاء ( كيجاستكو وآخرون ) زودنا بمناهج جديدة لتحليل بناء اضطراب الذاكرة المرتبط بظروف مرضية في المخ ، ولتمييز الطرائق المتنوعة التي يعوق بها احتجاز المعلومات وتذكرها في الحالات التي يضعف فيها التذكر الفعال للماضى ضعفا خطيرا ، وعندما تؤدي الميكانيزمات الفسيولوجية المتنوعة دورا في هذا الضعف : الكبت المتزايد للدوافع

بتدخل المنبهات ، والقصور الذاتى المرضى بمجرد حدوثها ، مع ما ينتج عن كبتها لتنشيط الدوافع السابقة ، وهلم دواليك .

ونحن ، زملائي وأنا ، نواصل هذا البحث ، الذى ينعقد عليه الامل فى أن يفتح آفاقا جديدة فى دراسة البناء السيكولوجى لميكانيزمات المخ الخاصة بالشعور ، وفى نمو فرع جديد للعلم - « علم لغة الاعصاب » - الذى أشرت اليه من قبل ؛ وجانب هام للغاية منه هو تحليل النماذج المتنوعة للاضطرابات التى تضعف احتجاز العناصر الخاصة للمعلومات المفقودة .

والمشكلة الاخيرة هى موضوع كتابي «مشكلات أساسية فى علم لغة الاعصاب» ، الذى أعده الآن للطبع ، وبحث جار لست أظن أن من المستحسن أن أشير اليه تفصيلا .

والمشكلات التى اشرنا اليها هى ايزان بنهاية سلسلة من المشروعات التى تمثل اسهامى فى نمو « علم نفس الاعصاب » .

والاباحات المنشورة الكبرى التى تلخص نتائجى فى هذا الحقل قد نوه بها من قبل «الوظائف اللغائية الأعلى فى الانسان» (النسخة الانجليزية بعنوان «عمل المخ» الذى نشر من قريب . وهذه المؤلفات هى من بين الاعمال التى أرسيت بثبات علم نفس الاعصاب فى النظرية وفى الناحية العملية للتعليم المصاصر لوظائف المخ البشرى ، وهى تمثل محاولة الجع بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، ولتبين الطبيعة الاجتماعية لوظائف المخ فى الانسان ، التى اعتبرها جانبا من أهم الجوانب فى هذا الفرع من العلم .

وهذا الوصف لتقدمى العلمى هنا قد يكون ناقصا لو فشلت فى أن أشير ، على الأقل بايجاز شديد ، الى أحدث جانب فى عمل ، وهو غير متصل اطلاقا بعلم نفس الاعصاب ، ولكنه يمكن أن يتطور الى مشروع بالغ الاهمية يقع تماما فى ميدان العلوم الاجتماعية .

وحتى قبل وفاة فيجوتسكيج واجه علم النفس مشكلة % قلما يمكن المغالاة فى الاهمية الحيوية لها . وكان من الضرورى القيام باعادة تقويم أساسى للمعتقدات الأساسية لعلم النفس ، وأن تبين أن تصوراته الأساسية ليست قسما أساسية للعالم الطبيعى أو العقلى ، ولكنها تتغير بتطور المجتمع ، وهى اجتماعية تاريخية فى طابعها .-

هذه المشكلة ، التى أثارها من قبل فيجوتسكيج جديدة بانتباه خاص . لقد كان متقبلا تقبلا واضحا منذ قرون أن العمليات السيكولوجية الرئيسية - الادراك ، الذاكرة ، الترابط ، الاستنتاج - كانت مقولات كلية ملازمة لنظام روحى أو طبيعى ، ولكنها فى كل حادثة مستقلة عن التاريخ الاجتماعى .

اهذا صحيح ؟ اليس المقولات العقلية الأساسية التى تطورت تطورا تاريخيا

هى عمليات بمثل الطريقة التى تكون بها كل العمليات الاخرى للتاريخ الاجتماعى ؟  
أينبنى لنا أن لا نفترض طبقا لمسلمة «ماركس» أن «هناك علما واحدا فقط هو علم  
التاريخ» ، ففي المراحل المتماثلة لتطور مجتمع لا يتغير مضمون العمليات العرفانية  
فقط بل شكلها أيضا ، وإن منطق الفكر الانسانى هو نتاج التطور الاجتماعى  
والتاريخى ؟

وفى مستهل العقد الرابع ، حين أثرت هذه الاسئلة لأول مرة فى علم النفس  
السوفييتى ، لم يشاهد العلم غير محاولة واحدة لالقاء الشك على الطبيعة الكلية  
للمقولات المنطقية ، ونهض بهذا عالم الاجتماع الفرنسى ليفى بريل الذى كان يميل  
الى الظن بأن الفكر يتطور لا من تجربة نوعية (على الخصوص تجربة عمل «بداعى» بل  
من علاقة سحرية (صوفية) بين الانسان والواقع .

وبالطبع ارتأى علماء النفس السوفييت فى تلك الحقبة أن هذه المحاولة غير  
مقننة شأنها شأن الاعتقاد فى كلية وثبات جميع المقولات العقلية .

وتبعنا لهذا صممنا فيكوتسكيچ وأنا ، عند استهلال العقد الرابع على أن نحاول  
أن نبرهن بالملاحظة العلية على أن التصورين كانا خاطئين ، وأن نقيم الدليل على الراى  
الفائل بأن المقولات المنطقية الحقيقية تعتمد على أشكال نوعية لنشاط الانسان  
الاجتماعى ، وأن الأنماط الجذرية للفكر الانسانى تتبدل وفقا لتغيرات فى الأشكال  
الجذرية لهذا النشاط .

وكانت الفترة التى قمنا فيها بملاحظاتنا السيكولوجية تناسب على الوجه الأمثل  
هذه المشكلة . فقد كان هناك إعادة تنظيم قاعدية للأنظمة الاقتصادية الأساسية فى  
المناطق النائية للاتحاد السوفييتى ، منطوية على الانتقال من نسق الاستمرار فى  
الزراعة الى ممارسات اقتصادية أشد تعقدا ، وإلى تجميع النشاطات الاقتصادية  
تدرجيا . وفيما يختص بالثقافة شهدت هذه الفترة القضاء على الأمية ، وهو ما حقق  
ثورة ثقافية حقيقية .

كل هذا شجعنا لكى نهض بتجربة فى علم النفس الاجتماعى تهدف الى دراسة  
التغيرات فى العمليات المنطقية الأساسية التى كانت تجرى ضد خلفية هذه التطورات  
الاجتماعية ، واكتشاف علاقة الأشكال الحقيقية للفكر البشرى بالظروف التاريخية  
النوعية .

مثل هذه المحاولة نهضنا بها ، زملائى وأنا ، سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣١ - منذ  
أربعين سنة خلت - فى سياق رحلة علمية خاصة الى المناطق النائية فى آسيا الوسطى ،  
وبسبب ملابس خارجة عن ارادتى - ومتصلة بوجه خاص بحقل الرئيسى فى  
البحث وهو علم نفس الاعصاب - سيعت نتائج هذا البحث فقط بعد ذلك بأربعين  
عاما ، ولم تنشر المعطيات الاولى حتى سنة ١٩٧١ فى مجموعة مقالات بعنوان « التاريخ

وعلم النفس » وفي المجلة الدولية لعلم النفس والكتاب الرئيسي الذى يلخص هذه  
المعطيات «التشكيل التاريخي للعمليات العرفانية» يعد الآن فقط للنشر .

والعمل الذى نهضت به ونهض به معى عدد كبير من الزملاء يشتمل أكثر من  
ثلاثين مشروع بحث تجريبي ، وهدفه الرئيسى أن يبين كيف تحدث العمليات العرفانية  
الاساسية فى كنف ظروف تاريخية متنوعة ، وفى مراحل متنوعة للتطور الاجتماعى  
والثقافى . وقد اتخذ من ثم شكل تحليل مقارن للسكان فى مناطق ثائية يحيون نمطا  
من الحياة منعزلا ، وأفراد كانوا قد ارتبطوا من قبل بالزراعة الجماعية ولم يكونوا  
أمةين تماما ، وأفراد لهم تجربة أوسع نسبيا بالحياة النشيطة للجماعة وقدر معين من  
التعليم . وكلهم ينتمون الى مجموعة سلالية واحدة ، ولكن مستوى حياة الجماعة  
والتعليم عندهم متنوع .

وقد بدأ هذا البحث بتحليل لعمليات التعميم البسيطة غاية البساطة (تصنيف  
الموضوعات وادراجها فى مقولة عامة واحدة ) ، ثم القيام بفحص شامل للاستنباط  
المنطقي وعمليات الاستدلال ، ودراسة بناء النشاط الادراكى وضروب الذاكرة ،  
وأخيرا أجريت دراسة لقدرات الخيال والتحليل الذاتى الشعورى .

وقد مكن هذا من وصف ظواهر مشكوك فى قيمتها حتى فى ضوء البحث المقارن  
« دراسات فى ملتقى الثقافات » الذى نهض به الباحثون على نطاق واسع فيما بعد  
بفترة طويلة .

وكما المعنا الى ذلك من قبل من المسلم به عامة فى علم النفس أن عمليات تعميم  
أو تصنيف الموضوعات فى مقولات عامة بسيطة تمكس الخصائص الكلية للفكر المنطقي،  
وتطابق القوانين نفسها فى حلة كل راشد . وقد بدأ معقولا أن نفترض أنه اذا سئل  
راشد أن يختار فاسا من أربع صور تمثل منشارا ، وفاسا ، ومجرافا ، وزند خشب،  
فان ثلاثا منها تنتمى الى مقولة واحدة ، ويمكن أن يشار اليها بكلمة واحدة ، والثلاث  
الاولى يمكن تصنيفها « كآلات » ، والاخيرة «مادة» يمكن أن تعتبر كاستثناء .

وقد أجرى هذه العملية بسهولة أشخاص كانوا من أكثر المتطورين ثقافيا ، ولكن  
لم يستطع القيام بها جماعة من الافراد الذين عاشوا فى ظل أشد الظروف الاقتصادية  
تخلقا وظلوا أمةين . فقد جمعوا معا «زند الخشب» والمنشار والفأس ، من حيث أن  
هذه كانت تستخدم فى حالة عملية واحدة (فالطويل يجب أن يقطع بالمنشار ويشق

بالفأس) ، وقد نحا جانباً «المجرفاء» فالمجرف يستخدم فى غرض آخر فهو غير مطلوب هنا . اجراء على - الاتحاد مع حالة مشتركة - يحل محله اجراء نظرى : تصنيف تحت مقولة مجردة عامة .

ولهذه الظاهرة الجذرية أثر حاسم على كل العمليات العرفانية الاخرى . فهذه الجماعة من الاشخاص تجد صعوبة فى القيام باستنباط منطقي من مقدمة معطاة : فاذا كانت المقدمة مرتبطة بتجربتهم العملية ، فان الاستنباط يجرى دون صعوبة ، ومع ذلك ففي معظم الاحيان يجرى باعادة بناء الحالة البصرية منه بالاستدلال الاستطرادى ، واذا كانت المقدمة غير مرتبطة بتجربتهم العملية فانهم يرفضون القيام بأية استنباطات منطقية ويقولون : « لم التقي بهذا البتة ، فلست مؤهلا أن أتحدث عنه ، اسأل أناسا على دراية به » ، وثمة عمليات استطرادية أشد تعقدا أمسكنا بها بهذه الطريقة ، ويزود هذا بدليل مقنع على الحقيقة القائلة بأن البناء الاساسى للفكر فى هؤلاء الافراد تحدده قوانين تجربة عملية نوعية لا قوانين تحكم عمليات منطقية مجردة .

وحين نعود الى دراسة الجماعة الثانية - أناس من الخلفية نفسها ولكنهم تعلموا أن يقرأوا ، وتابعوا دراسات قصيرة لمدة ستة أشهر ، وباشروا الحياة فى محيط جماعى ، حيث كل خطوة تخطط على أساس المناقشة المشتركة - تختلف الصورة اختلافا جذريا ، وجميع العمليات التى بدت لا معنى لها وبعيدة عن تناول الافراد فى الجماعة الأولى يمكن الآن أن تجرى بدون أية صعوبة . ونتائج مماثلة توصلنا اليها من بحثنا على الادراك والخيال ، وهى النتائج التى كانت فى المراحل الأولى مرتبطة بتجربة عملية نوعية ، وتخطت فيما بعد حدود هذه التجربة ، ومن تحليلنا لتطور الدراسة الذاتية الفردية ، والقدرة على النقد الذاتى وهلم دوايك .

وبالرغم من صعوبة بسط نتائج هذا البحث فى شكل دقيق للغاية فانه يبرهن على نقطة أساسية : ان القوانين السيكلوجية التى تحكم العمليات العرفانية ليست كاية وليست ثابتة ، فليس مضمون النشاط العرفانى فقط ، بل اشكال هذا النشاط أيضا هى نتائج تطور اجتماعى تاريخى يفرض مساره أن تقع هذه الأشكال فى المراحل الأولى فى دائرة حدود تجربة عملية نوعية ( وتمثل قوانين الفكر العملى ) وتمضى بالتالى متخطية هذه الحدود وتتطور تطورا تدريجيا لتشكيل عمليات الفكر النظرى، الذى له قواعده الخاصة به ، والذي ينمو وفقا للقوانين الخاصة به .

وحتى عمليات تحقق الذات ، التى شكلت عند « ديكارت » أساس كل نشاط عقل ، هى فى الواقع نتاج تطور اجتماعى تاريخى ، وينبغى اعتبارها لا كبداية ، بل بالآخرى كنهاية لعملية اجتماعية تاريخية مركبة .

ويبدو لنا تحليل التشكيل التاريخى للمقولات السيكولوجية الأساسية من المبادئ الجذرية لعلم النفس ، والامل معقود على أن تكون إعادة تقويم علم النفس من هذه الزاوية ، وأن تكون إقامة علم نفس كعلم تاريخى سمة من السمات الرئيسية لهذا العلم .

لقد زودت القارئ باستعراض موجز للطريق الطويل الذى قطعناه ، ويخامرني الشعور بأنه سرعان ما سيتضح لكل امرئ يحاول القاء نظرة على الماضى أنه سيطفر بنهم أفضل لمنظورات المستقبل .

ولقد أثير العديد من الأسئلة الحيوية فى علم النفس على مدى خمسين سنة مضت ، ولقد أدركنا أن كثيرا من فروع علم النفس تنادى بإعادة تنظيم جذرى لها . بيد أننا لكى ندرك هذا • ينبغى لنا أن نفهم كيف أن قدرا ضئيلا غاية الضآلة قد أنجز ، وأن نعى مدى اتساع المناطق المجهولة التى تتراعى أمامنا •

ت. هـ. مارشال

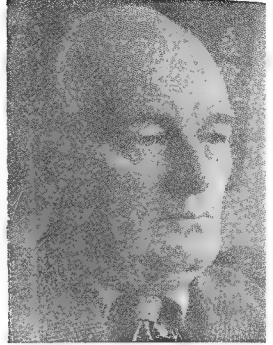
ترجمة ذاتية  
لعالم اجتماع بريطاني

ولدت في لندن في التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٨٩٣ ، وكنت الطفل الرابع . والابن الثاني لمهندس معماري ناجح . ولحقت بى أختان أصغر منى ، فرفعتا المجموع الاجمالى الى ستة ، وهو عدد كاف لتأليف وحدة اجتماعية مكتفية بذاتها أشد الاكتفاء . وكان بيتنا - على ما أظن - نموذجا لمنازل الطبقات المهنية الرفيعة فى تلك الآونة ، يتمتع بالثقافة الفكرية والفنية ، ويرتفع فى بحبوحة من العيش . ومع أننا كنا نعيش - رسميا - فى لندن فأننا كنا نقضى عطلاتنا جميعا فى الريف ، سواء فى منزلنا فى « هيندهد » أو على شاطئ البحر فى منطقة البحيرات أثناء الصيف ، وكنا فى الريف نشعر بأننا من أهله حقا . أما « هيندهد » فكان يسكنها مثقفو الطبقة الوسطى الذين يشبهون أولئك الذين يحيطون بنا فى بلومسبرى فى تلك الأيام ، على حين كان لنا أقارب عديدون من أسرة مارشال فى منطقة البحيرات ، يتحدرون من صلب جدى الأكبر الذى استقر به المقام هناك منذ سنة ١٨١٥ ، أضف الى ذلك التعليم التقليدى الذى تلقينته ، وكان أول الأمر فى مدرسة اعدادية منتقاة ، ثم فى « مدرسة ثانوية » بمدينة « رجبى » وهى مدرسة بورجوازية صميمة ، وإن لم يغلب عليها طابع محدثى النعمة ، ومن اليسر أن يفهم القارئ كم كانت نظرتى المبكرة للمجتمع محدودة ، لا اجتماعية ، ساذجة الى أقصى حد . فلم أكن



## ترجمة : فؤاد كامل

له مؤلفات وترجمات عديدة في مجال الفلسفة والأدب ، من أهمها : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، المذاهب الوجودية ، الله في الفلسفة الحديثة ، أندريه مالرو شاعر الغربة والنضال . حائز على جائزة الدولة في الترجمة عام ١٩٦٩ / ١٩٧٠ مدير البرنامج الثاني ( الثقافي ) بإذاعة جمهورية مصر العربية .



أعلم شيئا عن حياة الطبقة العاملة ، وكانت منطقة الشمال الصناعية العظيمة لا تزيد في تصوري عن أرض كابوسية من الدخان و « الهباب » ، على المرء أن يقطعها حين يريد الذهاب من لندن الى منطقة البحيرات . ولم تتأثر مشاعري عن هذا الموضوع بحقيقة أني كنت أتمتع بنصيب - وإن يكن متواضعا في ذلك الحين - من الثروة التي جمعها جدي الأكبر من الصناعة منذ مئة عام مضت . ومازلت أذكر كيف التقيت لأول مرة ، حين التحقت بجامعة كمبردج ، لقاء الند للند ، بشيخان ينتمون الى الطبقة العاملة .

وفي كمبردج قرأت التاريخ ، الذي كان يلقي حينذاك تلقينا في غاية السوء ، عدا استثناءات قليلة . ولم تكن التجربة - في جملتها - جذابة أو مثيرة . ومع ذلك فقد أخذت نظرتي بأكملها الى الحياة تتغير تغيرا سريعا ، وكان هذا راجعا في المقام الأول الى تأثير صديقي الحميم وايات روسون ، وهو مفكر متحرر في مجال الفلسفة ، ومن دعاة الإصلاح في التعليم . وكنت في المدرسة على حظ كبير من الحياة ، والاجتهاد الدؤوب ، فما أن انقضى على عام واحد في كمبردج حتى تخلّيت ( الى حد كبير ) عن حيائي ، و ( تماما ) عن ايماني الديني . ومع أن التاريخ كان يدرس بعامة في كمبردج تدريسا سيئا في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، كما أشرت الى ذلك

أنفسا ، فأننى التقيت باثنين من الأساتذة . لم يعلمانى الكثير فحسب ، بل تركا طابعهما على شخصيتى اللاحقة أيضا . وكان أحدهما وهو جون كلافام ، يحاضر فى تاريخ إنجلترا الاقتصادى ، الذى سيصبح موضوع تخصصى بعد التخرج . وكان على خلاف كثير من الأساتذة فى ذلك العهد ومطلعا على مؤلفات الباحثين الأجانب المعاصرين ، ومتصلا « بالحياة الواقعية » خارج أسوار الجامعة ( وكان يقول : قبل أن تكتب تاريخ الصناعة ، ينبغى عليك على الأقل أن تشم رائحة مصانع النسيج ) : وأنا مدين له بالكثير . أما الآخر فكان من مدينة بوسطن ، وهو جيار لابسلى ، وكان يقوم بتدريس تاريخ العصر الوسيط على نحو أفرانى بدراسة النظم أو التراكيب الاجتماعية كما كان يبحثها علماء من أمثال سيوم وفينوجرادوف وميتلاند . وبارشاده دخلت ميدان علم الاجتماع ، وإن لم أكن على وعى بذلك حينذاك . وكان لابسلى هو الذى اقترح - بعد ذلك بعدة سنوات ، أن أقدم فى سابقة لزماله كلية ترينيتى وهذه المسابقة هى التى فتحت الباب « لشخصيتى الأكاديمية » وكانا كلافام هو الذى أشار على بموضوع البحث . بيد أننى قضيت - خلال تلك الفترة - أربعة أعوام أسيرا مدنيا فى معسكر ألماني فى رولبين بالقرب من برلين . وكانت هذه بلا جدال أقوى تجربة عملت على تكوينى فى سنواتى المبكرة .

ولو كنت باحثا فى الاجتماع آنذاك لأتاحت لى هذه التجربة فرصة لا تعوض - عن طريق الملاحظة المباشرة ، وبأى منهج ميدانى آخر لا يتطلب حاسبا الكترونيا - أن أدرس نشأة مجتمع منظم يشيد من مجموعة عشوائية من الأفراد ( كلهم من الذكور ) ألقت بهم المصادفة معا فى مكان محصور ( ميدان للسباق وحظائره ) ، وأن أتتبع حظوظهم اللاحقة . وقد صادف ذلك أن معظم خطاباتى التى بعثت بها من المعسكر إلى الوطن قد حفظت ، وأستطيع أن ألمح فيها دليلا على حب الاستطلاع اجتماعى ، أخذ ينمو شيئا فشيئا ، لمعرفة ما كُن يجرى فى نفسى ، ويجرى من حولى . وقد عبرت عن حب الاستطلاع المزدوج هذا فى خطابات كتبتها مبكرا فى سنة ١٩١٥ .

« أنا واثق من أن هذا يفيدنى كثيرا ، ويعلمنى ما هو جوهرى وما ليس جوهريا . وساكون قد تغيرت تماما حينما نلتقى مرة ثانية ( ١٧ مارس ) » .

« لا أستطيع أن أحدد هذا المعسكر طبيعى إلى أقصى حد ، أو هو أغرب مؤسسة يمكن تخيلها ، فهو طبيعى فى تطوره ، وهو غريب فى انفصاله التام عن البيئة ( ١٣ مايو ) » .

وكان زميل الكندى فى السجن ، وهو العالم النفساني « ديفيدسون كيتشوم » الذى كرس بقية حياته لدراسة مفصلة عن مجتمع المعسكر (١)\* ، قد أخذ يسجل

(\*) الأرقام الموضوعة بين قوسين تشير إلى الملاحظات الملحقه بهذه المقالة .

(١) ج . ديفيدسون كيتشوم ، رولبين : مجتمع معسكر اعتقال ، مطبعة جامعة تورنتو ، ١٩٦٥ .

بصناعة عمليات التطور عن بنية مجتمع الفطرة الى بنية المجتمع المنظم ، مثلما صنفه  
المعتقلون أنفسهم الى « جماعات هادفة تسمى اتحادات » ، على حين « يسطع » التنظيم  
الشكلي بالنشاطات التلقائية . وكنت أنا نفسى أتلئس تعليلًا مماثلا ، أو على الأقل  
أصطنع تناولًا مماثلا للموضوع . وكانت دهشتي مبكرة في أبريل سنة ١٩١٥ حين  
تبينمت « السرعة التي يطور بها المرء ارتباطاته والتزمته التي يتقيد بها ، وكأنها  
فرضت عليه بواسطة نظام صارم » ، كما راقبت وسجلت تكاثر المجتمعات التي  
يؤدى في نهاية الأمر الى نوع من التضخم في المؤسسات . وما أن حل يناير سنة  
١٩١٧ حتى حدا بى الشوق الى العودة الى طريقة فى الحياة يستطيع بها المرء أن  
يمارس قدرا ضئيلا من القراءة الخاصة دون أن يقسم بالولاء للمجتمع بقبض الى حد  
ما ، وبالتالي يسىء الى أعضاء مجتمع آخر ، وقد يبدو هذا كله تافها غاية التفاهة ،  
بيد أنه النوع الوحيد من الشواهد التي يمكن أن أسوقها تأييدا لاعتقادي أن موقفى  
من العالم المحيط بى قد تأثر تأثرا عميقا بالمعاناة التي كابدها حين اجتزت هذه  
التجربة الاجتماعية للحياة الواقعية .

ولا يقل عن هذا أهمية دخولى فى مجتمع لا وجود فيه لحواجز اجتماعية مقررّة،  
ولا وجود فيه أصلا لأية خلوة شخصية . ولكنه لم يكن مجتمعا بلا طبقات ، وان يكن  
يخلو من العلامات المميزة الرئيسية للطبقة ، وأعنى بها : المهنة والملكية ، والفروق  
الشاسعة فى الدخل . ذلك أننا حملنا الثقافات المتميزة التي غرستها فينا - قبل  
الاعتقال - تلك الظروف ، مجتمعة مع أصلنا العائلي وتربيتنا . وهذه أثرت تأثيرا  
عميقا فى طبيعة المجتمعات المتباينة وتركيبها ، وان لم تسيطر عليها سيطرة تامة .  
ومن الأفضل تحديد القوة المؤثرة بأنها « وعى النوع » ، لا « وعى الطبقة » ، وخاصة  
أن الطبقة العاملة كانت غائبة تماما ، بغض النظر عن البحارة التجارئين الذين كانوا  
يمثلون ثقافة فرعية أكثر من أن يمثلوا طبقة . وكان روبلين يدافع عن العالم  
المنعزل للصفوة البورجوازية المثقفة التي نشأت بين ظهرانيها ، بيد أن الأثر الكاملة  
المتربة على هذا لم تتحقق حتى تورطت فى مقاومة أخرى بعد عودتى الى انجلترا .

وما أن عدت الى الوطن ، واستعادت صحتى وقوتى استعادة كافية ، حتى أخذت  
بنصيحة لابسلى ، فأعددت تحت اشراف كلاهام بحثا تقدمت به لزمالة « كلية ترينيتى »  
بكمبردج . وظفرت بهذه الزمالة فى أكتوبر سنة ١٩١٩ ، وهكذا دخلت العالم  
الأكاديمى مؤرخا محترفا . بيد أننى لم أنسحب عند ذلك الى عالم موصد او الى برج  
عاجى ، قبلت دعوة لاكون مرشحا لحزب العمال فى دائرة برلمانية شديدة المحافظة  
فى سارى Surrey . ومع أن المبادأة المحلية كانت تأتى فى معظمها عن  
الطبقات الوسطى والعليا ( كانت مولتى ابنة دوق ) فإن حملتى للانتخابات العامة  
فى ١٩٢٢ دفعتنى الى التعاون الوثيق مع العمال فى المنطقة ، وفتحت عيني على حقائق  
التحيز الطبقي . ووجدت أن العمال لم يكونوا على استعداد لأن يعرف عنهم أنهم  
يؤيدون حزب العمال خوفا من أن يفقدوا أعمالهم . وصنعت حملتى الكثير لمعالجة هذا  
الأمر ، بيد أنه لم تكن ثمة فرصة بالطبع للفوز بالمقعد . ويكفى أننى فزت بأكثر من

خمسة آلاف صوت • ولعلها كانت بداية طيبة لو أنني أردت أن أسلك طريق السياسة ، ورغم أن اهتمامي بالسياسة كان عظيماً فأنني قررت أن الحملات الانتخابية لا تناسب طبعي ، وهكذا وقع اختياري على السلك الأكاديمي •

واستمرت زمالتي في كلية ترينيتي ستة أعوام ، أعددت فيها رسالتي للنشر ( وكانت عن الطوائف المهنية في القرن السابع عشر ) ، وراجعت مرجعاً شعبياً عن تاريخ الاقتصاد الإنجليزي وتوسعت فيه ، وكتبت ترجمة قصيرة لحياة « جيمس وات » ، وفي هذا الوقت تأكد لي أنه لا بد من الرحيل عن كمبردج ، على الأقل لفترة وجيزة ، وتقدمت لأول وظيفة شاهدت إعلاناتها ، وهي وظيفة مشرف على طلبة « العمل الاجتماعي » بمدرسة لندن للاقتصاد • ولم أكن أعرف شيئاً عن العمل الاجتماعي ، غير أن بيغردج ناظر المدرسة رأى أنني قد أكون مفيداً من بعض الوجوه ، فالحقني بتلك الوظيفة • وكان مافصلته في الواقع - إلى جانب تدريسي للباحثين الاجتماعيين الطموحين كيف يكتبون مقالات عن المسائل الاجتماعية العامة ( في عامي الأول فحسب ) هو القاء محاضرات عن تاريخ إنجلترا الاقتصادي والدستور ، واستمر القائي لهذه المحاضرات حتى توفي هو بهاموس سنة ١٩٢٩ ، فاقترح جنسبرج الذي خلفه كاستاذ لعلم الاجتماع أن انضم إلى قسمه ، وأن أقوم بتدريس المادة المعروفة باسم « المؤسسات الاجتماعية المقارنة » • وعلى هذا النحو أصبحت عالماً في الاجتماع •

والغريب حقاً أن ذكرياتي عن هذا الحدث الحاسم في حياتي الأكاديمية غامضة بصورة تبعث على الدهشة • فلا أستطيع أن أتذكر الآن إلى أي مدى كانت علاقتي وثيقة بجنسبرج ، أو مدى ما أعرفه عن العمل في قسمه حين وجه إلى دعوته • ومن المؤكد أنني كنت جاهلاً كل الجاهل بعلم الاجتماع بمعنى الاحتراف • ولكنني تمكنت في نفسي - كما شرحت ذلك من قبل ( وربما لأخص في رولين ) - نوعاً من حب الاستطلاع السوسيولوجي ، واكتسبت من دراساتي التاريخية بعض المهارات في تحليل النظم الاجتماعية وفي تفسير التغير الاجتماعي • واعتقد أن جنسبرج قد أقنعني بأن تدريس الموضوع الذي عهد به إلى لا يحتاج مني إلا إلى توسيع استخدام حب العمل : « وأخذت أقرأ - ماوسعتني الطاقة - كل ما يتصل بهذا الموضوع • بيد أنني لم أقسم في ذلك على الحين على محاولة منهجية منتظمة للسيطرة على كلاسيات النظرية السوسيولوجية وكانت هذه غلطة ندمت عليها دائماً وأبداً • وتوصلت في المقام الثاني إلى هذه النتيجة ، وهي أنه لم يكن في طبعي أن أنفق حياتي العاملة كادحا في تقليب الوثائق الأصلية إلى الحد الذي يتطلبه البحث التاريخي الدقيق • وأدركت أن الدراسات المقارنة المتوسعة ، وفق تقليد هو بهاموس ، ينبغي أن تبني على مصادر ثانوية • وكانت تجتذني فكرة أنني أستطيع أن أترك المهمة الأساسية في جمع الحقائق للآخرين ، وأن أركز اهتمامي على : التفسير ، والتقدير ، ووضع الفروض ، واستخلاص النتائج المؤقتة • كانت هذه الفكرة تجتذب عقلي النشيط اجتذاباً شديداً • وما كان لأحد أن يختار سبيلاً أشد خطراً لسلوكه ، بيد أنني تمكنت أن تمكنني دريتي التاريخية من التمييز بين المصادر الثانوية الجيدة والرديئة ، ومن استخدام المادة

التي جمعتهما استخداما صارما مشروعا . وربما كان ميكائيل أوكشوت Michael Oakeshot مصيبا حين قال في عرضه لقائتي عن «المواطنة والطبقة الاجتماعية Citizenship and Social Class أنها تنتهي الى مقولة «التاريخ العقلاني» .

وكان اهتمامي الرئيسيان منذ أن أصبحت عالما رسميا من علماء الاجتماع هما : التدرج الاجتماعي ، والسياسة الاجتماعية ( بمعنى الخدمات الاجتماعية والرفاهية الاجتماعية ) . وكثير مما كتبت عن الموضوع الآخر بعدها مشيا من حيث انتماءه الى علم الاجتماع . وفتحت لي المصادفة ميدانا ثالثا لاهتمامي هي النزعة المهنية professionalism معالجة بوصفها فرعا من علم الاجتماع المهني . وكان كارل مانهايم قد اخذ على عاتقه في الصيف السابق على نشوب الحرب الأهلية لقاء سلسلة من المحاضرات عن المهن في «مدرسة الصيف الدولية» بسانتافدر في أسبانيا ، ولكنه وجد من المحال أن يقي بهذا الالتزام ، وطلب مني أن أحل محله ، ففعلت . وألفت الموضوع والتجربة على قدر كبير من الإغراء ، على الرغم من الجهد الذي بذلته في المحاضرة باللغة الفرنسية . وأطلعت أطلعا واسما على الموضوع ، ودونت ملاحظات لا حصر لها ، فقدت كلها لسوء الحظ خلال الحرب العالمية الثانية . ولكنني استطعت استخدام هذه المحاضرات أساسا لبحث قفمت به للاجتماع السنوي لرابطة العلوم السياسية الكندية . ونشر هذا البحث في سنة ١٩٣٩ ، وهو العام الذي نشر فيه تالكوت بارسونز ما اعتقد أنه بحثه الأول عن هذا الموضوع (٢) .

وبقيت في هيئة التدريس « بمدرسة لندن للاقتصاد » بوصفي عالما اجتماعيا حتى عام ١٩٥٦ ، ولكنني كنت أيضا في السنوات الخمس من ١٩٤٤ الى ١٩٤٩ رئيسا للقسم الذي التحقت منه أساسا بالمدرسة ، أعني القسم المخصص في المقام الأول لتدريب الباحثين الاجتماعيين . ومن هذا ينبع اهتمامي المتصل بالسياسة الاجتماعية . وكان في ذلك الحين قسما متواضعا « من وجهة النظر الأكاديمية » بيد أنه تطور تحت إشراف خلفي وتشار تيتموس الى مدرسة ممتازة لتفخيز أفواج من الباحثين . وأدعى الموضوع منذ ذلك الحين بأبحاث في غاية الدقة ، وبكمية كبيرة من المؤلفات المتعقبة . وهو في الحق منطقة كبرى لتطبيق العلوم الاجتماعية ، لا في مجال علم الاجتماع فحسب ، بل في الاقتصاد والعلم السياسي وعلم النفس على سواء .

وكان من المحتم أن توقعني الواجبات الإدارية الثقيلة المرتبطة برياسة هذا القسم عن عملي السوسولوجي، سواء في التدريس أو في البحث . ولكنه انقطع بصورة أكثر حسما بواسطة الحرب ، وبخدمتي مدة ثمانية عشر شهرا مع لجنة الرقابة في ألمانيا ، عقب ذلك بقليل . وعندما نصبت الحرب أدرج اسمي في منظمة يرأسها آرنولد توينبي ، وكانت وظيفتها الأساسية هي مراقبة الصحافة الأجنبية لصالح وزارة الخارجية البريطانية ، وتطورت فيما بعد لتصبح « قسم الأبحاث بوزارة الخارجية البريطانية » ،

(٢) تالكوت بارسونز ، « المهن والبناء الاجتماعي » ، القوى الاجتماعية ، المجلد ١٢ رقم ٤

وكانت المنطقة المخصصة لى فى معظم الوقت هى المانيا • وبالإضافة الى تقاريرنا الصحفية المعتادة كنا نستخدم ما نحصل عليه من مواد لاستعراض الموقف فى البلاد التى تكلف بدراستها ، وكنا نكتب مذكرات عن الموضوعات السياسية حين تطلب منا وزارة الخارجية ذلك • ومن الأسئلة التى وجهت الى أكثر من مرة : أينبغى « تقطيع أوصال » ألمانيا المهزومة ؟ وإذا لم يكن من ذلك بد فالى أى وحدات يتم هذا التقطيع ؟ وكنت أنا ضد هذا الرأى • ويمكن أن أضيف أننى كتبت أول ورقة للمناقشة حول معاملة ألمانيا المهزومة فى الوقت الذى سقطت فيه فرنسا •

هل أعاننى علم الاجتماع ؟ أنا على يقين من أن ذلك حدث ، ولكن بطريقة قد لا تكون محترمة تمام الاحترام من الناحية العلمية • فقد ساعدنى على استخلاص نتائج من شواهد تبدو فى الظاهر غير متكافئة وغير موثوق بها • ولكنها كانت كل ما نملك • ومن ثم بذلنا أقصى جهدنا لنفهم ونجد الدلالة فى الأحداث والآراء المنشورة فى الصحف الألمانية والمحايدة ، مذيلة بمصادر أخرى قليلة ، وبالسفر من المعلومات السرية • وكانت العملية أشبه بما يتبع فى كثير من الدراسات السوسولوجية التى لا تستطيع فيها المعطيات الكمية أن تودى إلا دورا ضئيلا ، وبخاصة فى علم الاجتماع الأكبر وفى الدراسات المقارنة للمؤسسات منظورا إليها فى جملتها • وهذه العملية تقع فى أساس علم الاجتماع العقلى Verstehende عند ماكس فيبر ، الذى أعتقد أنه عنصر ضرورى لعلم الاجتماع فى الحاضر والمستقبل ، على الرغم من الغضب • تيودور ايبيل Theodore Abel اللبق له • كانت العملية شبيهة بذلك ، لكن الظروف كانت مختلفة تمام الاختلاف • وكان علينا أن نبذل أقصى ما فى وسعنا ، فوجدت أن تدريبى السوسولوجى قد شحذ من أدراكى الحسى ، وأسرع من احساسى بدلالة مواد المعلومات ، وكلما زاد فهم المرء للعمليات الأساسية فى الحياة الاجتماعية أصبح أكثر تمكنا فى التمييز بين التفسيرات الممكنة والمحتملة وغير المحتملة والمستحيلة للأحداث موضع الملاحظة • وهكذا تقدمنا فى جراءة بافراضاتنا ، ولكننا لم نكن نستطيع التحقق منها الا قليلا •

وعلى هذا كنت سعيدا أن أتاحت لى الفرصة بعد الحرب لأن أرى بنفسى المجتمع الذى حاولت فهمه ، وأن أتبين هل التنبؤات التى توقعناها عن طبيعته فيما بعد الحرب ( وهذه وظيفة هامة للقسم الذى أعمل به ) قريبة من الصدق على أى نحو كان هذا القرب • وقمت بجولة قصيرة طفت فيها ببعض جامعات ألمانيا الغربية فى شتاء ١٩٤٧/١٩٤٨ ، وذلك لحساب رابطة مدرسى الجمعة ، وقضيت الشهور التى بدأت بصيف عام ١٩٤٩ حتى نهاية ١٩٥٠ مستشارا تربويا للمندوب السامى البريطانى فى ألمانيا • وكان هذا المنصب اداريا ، مسئوليا عن البرنامج الذى كنا نساعد به التربية الألمانية فى النهوض من وهدة الضرر المادى الذى ألحقته بها الحرب ، ومن العزلة الذهنية ، ومن التحزب السياسى الذى عانته خلال الحكم النازى • وكنت أستطيع هنا - كما كان الحال فى رولين ، ولكن على نطاق أوسع كثيرا - أن لاحظ ( فى ايجاز شديد ) تطور مجتمع جديد على الطبيعة • ولا يسعنى الحيز هنا للكلام بالتفصيل

عن هذه التجربة المثيرة ، وسأقصر حديثي على مثل واحد ، فقد كنا مهتمين اهتماما عظيما - في وزارة الخارجية وفي فرع التربية التابع للجنة - باكتشاف العبق الذي تغلغل في اشورة النازية في عقول الشعب الألماني وطريقته في الحياة . وكنا قد عرفنا بالطبع شيئا عن ضعف النظام النازي الثوري ، وكانت إحدى مهامنا في قسم الأبحاث التابع لوزارة الخارجية أن نحكم في أي النقاط زاد هذا الضعف بتأثير الحرب ، وهل ثمة نقاط جديدة أخرى أخذت في النمو . وكنا نفتش عن الموضوعات الدالة في مادتنا الهزيلة . فلاحظنا الاضطرابات التي طرأت على الرتب العليا في الادارة التي يمكن توقعها عندما تعبر القوة من خلال العلاقات الشخصية بزعم مثاله . وتعقبنا نمو الاحتكاك بين الجيش والحزب ، بين المحترفين والهواة . وكنا نستطيع أن نقرأ عن التصادم بين هتلر وقضته ، وأن نرى كيف أن على الحامين الليبراليين أن يعترفوا بأن التمسك بحرفية القانون هو الدفاع الوحيد ضد احكام الديكتاتور المتصرفة . وربما كان أشد ما رأيناه دلالة هو اتساع الهوة بين الأجيال ، وقد كان هذا شيئا تقليديا في ألمانيا زهاء نصف قرن . فلم يعد الرؤساء النازيون بالنسبة للشباب هم أولئك المجددين المتألقين ) ، بل الحرص القديم على المؤسسة المحافظة ، كما أخذت دعايتهم تفقد القدرة على الاقتناع . وكان هتلر - في أعوام حكمه الأولى - يشجع الأطفال على الوشاية بأبائهم ، أما في أثناء الحرب فقد حرص جورنج على تذكير الآباء علانية بواجبهم في السيطرة على أبنائهم . ومن ثم كنا نستطيع التنبؤ بأن ألمانيا المنهزمة لن تكون ألمانيا نازية ، بل مجرد فراغ ، شعب بلا ماض مباشر . ولعل هذا الفراغ كان عليهم أن يقيموا على ما تبقى أو ما يمكن استرداده من ماضيهم الأبعد ، على الجانب البعيد من الفجوة النازية ، وعلى الماضي المباشر ووجهة النظر الحاضرة للدول الأخرى . وهنا كنا نستطيع - نحن لجنة الرقابة - أن نمد لهم يد المساعدة .

وقبل أن أختتم ببعض الخواطر عن علم الاجتماع - عن معناه بالنسبة لي ، وعمما أشعر به نحو حالته الراهنة وإمكانياته المستقبلية - سأقول كلمات قلائل عن مفاهيمي الخامسة الهامة خارج النطاق الأكاديمي ، أعني عن سنواتي الأربع التي قضيتها مع اليونسكو في باريس من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠ . ومن المبعث طبعاً أن أشغل حيزاً في هذا السيرة الذاتية بتخطيط أجمالي مصغر عن اليونسكو وأعماله . وفي نظري أن التجريبتين اللتين أجدهما أشد ما تكونان ثراء هما : أن أعيش وأعمل في مجتمع متعدد القوميات ، تزول فيه الفروق العرقية ( أو العنصرية ) ، وأن أقوم بالسفر مراراً وتكراراً خارج أوروبا ، وهما تجربتان مازالت آثارهما تضفي لمسة من الواقعية على تأملي لشؤون العالم . وعندما انضمت إلى هيئة العاملين باليونسكو مديراً لقسم العلوم الاجتماعية كنت في سن الثانية والستين ، أي أنني كنت قد بلغت من الكبر ما يجعلني قليل الانزعاج بالاحباطات ، والافتاق المسرف ، بل أحياناً ببعض التفاهات التي تتعرض لها حتماً منظمة عالمية ذات تكوين ديمقراطي . ذلك أنها تزاول عملها بوصفها خدمة ، لا بوصفها عملاً مدبراً للربح ، ولهذا ينبغي أن تسلك خطوطاً « غير مربحة » وأن تحاول إعطاء جميع الدول الأعضاء نصيباً عادلاً في تصميم برنامجها وتنفيذها . واليونسكو تقف خاصة في وضع حرج نظراً لما تتسم به وظيفتها - بوجه عام - من عدم اليقين .

وعندما أنشئت كان تركيز الاهتمام عند انشائها على الفهم المتبادل وعلى السلام ، وكان من الأفضل أن تسمى - في أيامي تلك - بالمنظمة العالمية للتربية والبحث ، ولكن كانت هناك علامات تشير الى أن الاتجاه يتحول نحو تقديم المعونة للدول النامية . وأن أعلم استمرارها في التحول في ذلك الاتجاه بعد أن تركتها .

أما عن القسم الذى أشرفت عليه فكان هناك اتجاه داخل اليونسكو وخارجها الى التفكير فى أن « العلوم الاجتماعية » تعنى « علم الاجتماع » ، بحيث يشمل فروع العلوم المجاورة التى تحمل صفة « اجتماعية » ، كعلم النفس الاجتماعى و « علم الانسان الاجتماعى » ( الانثروبولوجيا الاجتماعية ) . وفات على الكثيرين بوجه خاص أن العلوم الاجتماعية تشمل الاقتصاد ، على الأقل بالنسبة لليونسكو . وهذا راجع بلا شك فى شطر منه الى أن المدير كان دائما من علماء الاجتماع . ولكنه يرجع أيضا الى أنه فى القسم الهام من البرنامج المعنى بتطبيق العلوم على المشكلات العملية كانت الشؤون الاقتصادية هى مجال اختصاص القسم الاقتصادى من سكرتارية الأمم المتحدة . وهذا يفسر ما قيل لى صراحة فى إحدى المناسبات من أن علم الاقتصاد لا يستطيع أن يسهم بشئ فى التنمية الاقتصادية ، وهذا معناه ببساطة « قف بعيدا من فضلك » . وهكذا كانت المشكلات التى تركت لنا هى بصفة رئيسية تلك المشكلات التى يمكن أن يجد لها أى علم من العلوم الاجتماعية - وهو بالتأكيد علم الاجتماع - أى حل سريع أو دقيق لها . والمنظمة الدولية تعمل بأقصى ما يمكن من النجاح فى القضايا التى تمس المصالح المشتركة للدول المساهمة ، لا فى مجرد القضايا المتماثلة . والدراسات الاجتماعية المقارنة التى تمس عدیدا من القوميات تنصدى عادة للمشكلات المتماثلة لا المشكلات المشتركة . وهذا القول يصديق على تحضير الريف ، الذى بدأ فيه القسم بداية طيبة بدراساته الأفريقية ، ثم أخذت هذه البداية تتعثر فيما بعد . ومن ناحية أخرى تكمن المصلحة المشتركة وراء كل ما بذل من جهد لتقديم العلوم ، سواء فى التدريس أو البحث . وهنا يتحرك المرء على المستوى « الشمولى » بالمعنى الذى يقصده تالكوت بارسنز . ذلك أن مطبوعات القسم المديدة وقوائم كتبه والتقارير الخاصة بالاتجاه الخ ، ومؤتمراته ، وحلقاته الدراسية عن النظريات والمناهج ، ورعايته للاتحادات الدولية ، كل هذه كانت ذات قيمة أعظم وأبقى من محاولاته فى إجراء البحوث ، أو حتى فى تشجيعها ، حول المشكلات العالمية .

وقد شعرت بالأسف حين تركت اليونسكو عام ١٩٦٠ ، بعد أن امتد عقدي الأصل عاما آخر ، فقد استمتعت استمتاعا عظيما بتلك السنوات الأربع التى خدمت فيها تحت إشراف ثلاثة من مديري العموم المختلفين أشد الاختلاف . وعقدت عزمى على الانسحاب الى موطنى الأكاديسى الأصل ، وهو كمبرج ، وهناك ساعدت خلال العامين الأولين من إقامتى على تدعيم تدريس علم الاجتماع بوصفى محاضرا بعض الوقت فى كلية الاقتصاد وقمت منذ ذلك الحين برحلة أو رحلتين الى الخارج ، أحدهما لا تزيد على فترة قصيرة مع معهد اليونسكو فى دلهى ، والثانية مدتها شهران كأستاذ زائر بجامعة تورونتو ، وقطعت شوطا فى كتابي الصغير « السياسة الاجتماعية » ، كما



طالعت مطالعة منتقاة بعض المؤلفات الاجتماعية التي أخذ حجمها ينمو ويعظم بسرعة .  
فاذا حاولت - في ختام مقال - أن أقدم انطباعاتي عن الحالة الراهنة والمستقبلية  
لامكانيات علم الاجتماع فأنني أستخلص النتائج مرة أخرى من شواهد غير كافية .  
وإيا كان الأمر فإن الحيز المتاح لا يكفي إلا لبيان شديد الإيجاز .

في أعوامي الأولى ، كعالم في الاجتماع ، كنت خاضعا تمام الخضوع - وهذا  
شيء طبيعي جدا - لتأثير هوبهاوس *Hobhouse* ، كما يفسره جنسبرج *Ginsberg*  
ولنت مبهورا بالطريقة التي يتناول بها المعطيات التاريخية بناهـج تحليلية ومقارنة  
في آن واحد . وكنت كثير الاستخدام بتقسيمه الثلاثي : القرابة ، والسلطة ،  
والمواطنة ، بوصفها المبادئ الأساسية للنظام الاجتماعي ، وإن كنت قد لاحظت أن  
للسلطة طابعا تشويها بعض الرواسب ، وبالتالي كانت « وعاء مختلطا » . وكان من  
اليسير أن أنتقل إلى دراسات ماكس فيبر الأعـمق عن هذا الموضوع ، بما في ذلك تحليله  
الأكثر تفصيلا للسلطة ، ثم للمواطنة التي اهتمت بها فيما بعد اهتماما خاصا . كما  
شففت أيضا بلاهمية التي يضيفها هوبهاوس على مؤسسات العدالة ، مستخدما  
إياها لتصوير الطريقة التي تشكل بها أجزاء من نظام ما تحت ضغط المحافظة على  
الوفاق ( وهو شيء آخر غير الإجماع ) ، ولبيان أن تجربة تشغيل مؤسسة على مستوى  
ما قد يولد - على نحو تنبؤي - القوى التي ستؤدي بها إلى المستوى التالي . وهنا  
حلقة اتصال واضحة بالدور الحيوي الذي سيعزوه دوركيم إلى القانون والعدالة في  
تطور النظم الاجتماعية « العضوية » *Organic* . ولم يكن مما يثير قلقي أن لهدين  
الاستاذين أفكارا مختلفة عن علم الاجتماع . كما لم أكن أتوقع أن أستوعب أيـا منها  
جملة وتفصيلا ، فأصبح تابعا لدوركيم أو لفيبر . فانا أستطيع أن أتعلم منهما معا ،  
وأن أحيل ما أخذته منهما ، ومن الأفكار التي يوحيان بها إلى ، إلى مادة تفكرى الخاص  
الأكثر تواضعا ، والذي يمكن أن يكون - بمستواه الخاص - تفكيرا أصيلا .

هذا هو المكان الذي بدأ فيه اهتمامي ، والذي بقي فيه بوجه عام . وهو اليوم ،  
ككل المناطق التي تقع في مفرق الطرق ، مازال أهلا بالسكان ، ولكنه ليس عصريا  
بوجه خاص . فتمة أشياء - تحدثت في مكان آخر - أشهد إثارة للطلبة الذين  
يقتحمون الميدان . وهذا ينطبق - بطرائق شتى - على طرفي مقياس متخيل يحد  
من الدراسات الوصفية الهادفة للظروف والمشكلات الاجتماعية في قمته ، وفي  
قاعه ، إلى كشف الأعماق للعناصر الأولية للفعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية .  
وعند هذا المستوى الثاني نجد ما يمكن أن نسميه المدارس العصرية الشائعة في النظر  
السوسيولوجي ، وعلى المرء أن يبحث بينها عن المفاتيح التي قد يتجه نحوها علم  
الاجتماع بحثا عن مهرب من وضعه الراهن ، غير المرضي إلى حد ما . فهناك النزعة  
الردية النفسية *psychological reductionism* التي استنكرها دور  
كايم ، وغازلها ماكس فيبر ، والتي عرضها واختبرها جورج هوم *George Homans*  
بمعونة بيتر بلاو *Peter Blau* ومؤازرته . ولا يحمل الينا هذا انذارا صحيا ضد  
الاحالة الشيئية *reification* للمؤسسات فحسب ، وإنما يقدم الينا نظرية

التبادل الاجتماعي تناولا فيما لفهم المواقف التي تبقى فيها العناصر غير المتساوية في حالة توازن ، كما هي الحال في « القوة » على سبيل المثال . ولدينا في النزعة البنيائية structuralism - وهي شائعة أيضا - رد ، أو حل بنزعات كاملة كنظام اجتماعي ، أو لغة ، الى وحداتها الأساسية ، والبحث عن اشكال كلية تمكس طبيعة العقل الانساني وعمليات تفكيره ، ولا يستطيع المرء أن يذهب الى أعيق من ذلك ، بيد أن التمييز يمكن أن ينمط - في كثير من اليسر - الى نوع من الصواب الصالونات ، مثل بعض أمثلة إنجلز للديالكتيك ( الجدول ) اتاريخي .

وعلم الظواهر - Phenomenology وهو مرشح واضح للاندراج في قائمتنا لمدارس الفكر الشائعة - لا يقوم على رد الكيانات المتكاملة أو تحليلها الى عناصرها أو أجزائها . بل على العكس من ذلك يحاول فهم الكيانات الكاملة على أنها كيانات لا تنقسم في حالة سائلة دائمة ، وهذا ما سماه جريفيتش Gurvitch « مجموعات سائنة » des ensembles en marches (٣) ، وفي هذه الحالة يأخذ ارتياد الأعماق ، الذي قلت عنه انه يميز كل تلك المشروعات السوسولوجية ، شكل التنفيذ من السلوك الخارجي للوصول الى المعنى الباطني . « وما دام الوعي والموضوع في التحليل الفينومينولوجي ( الظاهري ) يوضعان بين أقواس معا » كما يقول جنسبرج (٤) فإن معنى كل موقف اجتماعي هو في حقيقة الأمر معنى فريد ، وفي تغير مستمر . واستمرارا في استعراضنا للبدء السوسولوجية الشائعة نستطيع أن نتعقب سبيلا مباشرا للظاهرين ، مارين بالفرد شووتس Alfred Schutz حتى نصل الى هارولد جارفينكل Harold Garfinkel ونظريته ذات الاسم الغريب - وإن يكن مغريا بلا شك - وأعني بها نزعته الجنسية المنهجية ethnomethodology . وهنا يكون التركيز على الأحداث اليومية الجارية كما « يعرفها » أو يفهمها عامة الناس ، وللحس المشترك دور كبير يؤديه في عملية الفحص ، كوسيلة لتصحيح ضروب سوء التفاهم الناجمة عن التفكير بالمصطلح الشكل الخاص بؤسسة ما ، أو عن التقيد خضوعا أعمى للترابطات الاحصائية . ونستطيع أن نقول أخيرا ان البدعة المناظرة بين علماء الجريمة هي النزعة التفاعلية الرمزية ، symbolic interaction وهي مدرسة فكرية ذات ماضٍ ممتاز يتم تحويله الآن الى استخدامات جديدة . وهذه المدرسة تهتم بنقطتين رئيسيتين : الأولى أن الشخصية تتطور خلال الزمان بالتفاعل مع الآخرين ومع البيئة بطرق يحكمها المعنى الذي تراه هذه الشخصية ويراها الآخرون في الموقف المتغير ، والنقطة الثانية هي أن هذه العملية تتأثر بل تتشوه بالصفاق بطاقات على الناس تدرجهم في فئات ، وتبلى طبيعة السلوك نحوهم ، وتؤثر في الوقت نفسه على تصوراتهم لأنفسهم .

ولقد ذكرت هذه المدارس الفكرية الراحنة لأنها تبدو لي جميعا مدفوعة بغرض

(٣) « تصور البناء الاجتماعي » الكراسات العالمية لعلم الاجتماع ، المجلد ١٩ ، صفحة ١١ .

(٤) « العقل والاعقل في المجتمع » ١٩٤٧ ، ص ١٠٦ .

واحد ، هو الهرب من ذلك الضرب الشكلي ، البنائي ، المورفولوجي ، أو بعبارة أخرى ذلك الضرب من علم الاجتماع القائم على مفهوم المؤسسات الذي قادني اليه هوبهاوس وجنسبرج ، والذي شبهه آدموند ليتش Edmund Leach ذات مرة بأنه أشبه بجمع الفراشات ، من حيث طابعه الأنثروبولوجي (٥) . وهم يحفرون يفتحون أبوابا لاكتشاف ما يحدث حقا في المستوى الذي يبدأ فيه الفصل . وهم يفتحون أبوابا يتبعهم من خلالها تلاميذهم تحدوهم آمال عريضة في مغامرات قاعدة . ولكن كيف يعودون على أعقابهم ؟ أين يمتد سبيل العودة من التحليل الى التركيب ؟ اذ مهما يكن التحليل نافعا فلا بد أن يظل التركيب هو الهدف النهائي لعلم الاجتماع ، بل لكل العلوم . والطريق القويم يكمن في مصاحبة هذه الارتدادات العميقة بتركيب يتقدم خطوة فخطوة ليهكل نظرية ، أو نظريات ، يحفظ تكامل الموضوع بوصفه علما . وقد ثبت أن هذا أمر عسير جدا في علم الاجتماع ، وكانت النتيجة هي قيام اغراء قوى باحتضان الحل البديل ، والسير قدما نحو نظرية عامة . والمحاولة البارزة الحديثة الوحيدة للقيام بهذا العمل هي محاولة الكوكوت بارسونز ، ولكنه على الرغم من قوة ذهنه وما لأفكاره من قيمة لا جدال فيها لم ينجح في الانتقال الحاسم من نظرية في الفعل الاجتماعي ، منظورا اليها على أساس « الانا » ego و « الآخر » alter الى نظرية شاملة للنظم البنائية الوظيفية الاجتماعية .

أما علم الاجتماع القائم عند الطرف الآخر من مقياسي المتخيل حيث يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة الاجتماعية فقد تقدم ومازال يتقدم تقدما عظيما . وأصبحت مناهجه في جمع المظلمات وتصنيفها وتحليلها أكثر تعقدا ، كما أصبح الممارسون به أكثر عددا ، وأشد براعة ، فكانت النتيجة ارتفاع مكانته ، وازدياد تأثيره . ولكنه يتعرض لخطر دائم من أن تتحكم فيه - تحكما زائدا عن الحد - المثل العليا الاجتماعية ، والأغراض السياسية . والدفاع الوحيد ضد هذا الخطر هو مجموعة من الفروض العلمية الآخذة في التطور نحو نسق فعال لنظرية سوسيولوجية محكمة . وما يحتاج اليه الطرفان - بعبارة أخرى - هو علم اجتماع يكون علما بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وقويا بما يكفي لضم أشتات الاسهامات القيمة التي لا جدال فيها ، للبداس الفكرية الراهنة ، بحيث يمنح الارتداد العميق للوقائع الحقيقية في حياتنا المعاصرة - وبخاصة أسقامها وعلاج تلك الأسقام - بحيث يمنح هذا الارتداد نوعا من الاستقرار العلمي .

وكنتم أناقش - منذ اثني عشر عاما أو نحو ذلك - ضد معارضة ما ، بأنه ينبغي النظر الى علم الاجتماع بوصفه علما داخل إطار العلوم الاجتماعية ، لا على أنه مجرد منطقة يدرس فيها موضوع معين subject-area . وعلى الرغم مما قلته من فوري عن تباين الأفكار والأهداف والمناهج الشائعة بين علماء الاجتماع المعاصرين فأنني مازلت أعتقد أن هذا الموقف الصحيح . ذلك أن لب هذا العلم الزعوم لا يستقر

(٥) إعادة التفكير في الأنثروبولوجيا ، ١٩٦١ ، صفحة ٢ .

داخل نظرية عامة عن المجتمع . كما أنه لا يقوم بالطبع على احتساره لعلم المناهج . ذلك أن علم المناهج - بمعناه الحقيقي - شيء مشترك بين العلوم جميعا ككل . بل أن المناهج التي يستخدمها لا تقتصر - بوجه عام - على علم الاجتماع ، وكثير من هذه المناهج قد نشأت في مكان آخر ، ثم أخذها علماء الاجتماع ، وكيف بحيث تلائم احتياجاتهم الخاصة . وأستطيع أن أقول أن أساس قيام علم الاجتماع كفروع من فروع المعرفة أن يكون « نظاما » بالمعنى المألوف لهذه الكلمة فعالم الاجتماع « المحترف » هو ذلك الشخص الذي اكتسب خبرة خاصة في العمليات التي يحدد بها هوية المعطيات ويصحبها في مفاهيم ومقولات ويقوم بتحليلها ، وذلك بلخضاع نفسه وجميع عملياته الذهنية « لنظام » خاص . بيد أن هذه الخبرة تصبح عديدة الفاعلية إن لم تتوافر لها أيضا صفتان أخريان ، هما رخصة الحس والخيال والحكم في انتقاء الفروض الضرورية وتكوينها ، والقدرة على استخدام جهاز نظري هزيل استخدما مشروعا إلى أقصى حد ، وهذا الجهاز لا يتألف من مذهب نظري عام ، ولكن من تلك الاقتراحات التفسيرية الأقل طموحا التي سميتها ذات مرة في شيء من شطحات الخيال « درجات صخرية في المسافة الوسطى » وسماها مرتون Merton في الوقت نفسه تقريبا « نظريات المدى الأوسط » .

وهذه السيطرة المنظمة على نسق من المعرفة والتصورات ، وأسلوب في التفكير ، وتجسيع الخبرة ، هي في استخدامها أشبه بالتشخيص الماهر للطبيب ، والمهارة الجدلية للمحامي ، فهي فردية ، ولكنها في الوقت نفسه مهنية جماعية . وأعني بهذا أنها لا يمكن أن تعلم بأكملها مسبقا أو بصورة مجردة ( بعيدا عن الواقع ) ، ولكن يمكن اكتسابها بالتدريب والحوار مع زملاء المهنة ، بل من الممكن توحيدها إلى حد ما . وأنا أعتقد أن علم الاجتماع البريطاني - على عهدي - لم يفعل ما يكفي في هذا المضمار ، وأمل أن يفعل أكثر من ذلك . وأنا أحيذ تربية وتدريب أولئك الذين يعتزمون ممارسة علم الاجتماع بهدفان في وعي أكثر إلى نتائج محترف ، لا يتميز بالسيطرة على الأساليب الإحصائية والاستقصائية فحسب ، بل بتلك الخبرة المنظمة التي وصفتها أنفا .

ولكن ماذا عن الطلبة ، وخاصة أولئك الذين لا يريدون أن يصبحوا علماء اجتماع محترفين ، بل يبحثون في علم الاجتماع عن إسهام في تربيتهم العامة ، أو عن تأييد - كما هي الحال في أغلب الأحيان اليوم - للعقائد والمذاهب الاجتماعية التي تشرّبوا بها فعلا من سبيل أخرى ؟ وكان طلبة علم الاجتماع ، الذين غزوا مدرسة لندن للاقتصاد عقب الحرب ، وكادوا يكتمون أنفاس جنسبرج وهيئة تدريسه الضئيلة ، لا يعبأون بعلم الاجتماع أبكون فرعا من فروع المعرفة أو لم يكن ، ولم تكن لديهم إلا أشد الأفكار غموضا عن موضوع هذه الضجة كلها ، إذ كانوا يريدون أن يتابعوا دراسات تكون معاصرة وإنسانية في وقت مما ، كما كانوا يريدون أن يعرفوا أشياء كان معظمهم يجهلونها تمام الجهل ، وهم يتطلون إلى أساتذتهم لأرشادهم عبر هذه الأرض الجديدة غير المألوفة . وكان الموقف بعهد الحرب يوحى اليهم بالأمل ، لا بالفضب ، والأمور تختلف عن ذلك اليوم ، والطلبة بعامة أشد انزعاجا بالأحداث

الممارسة منهم بالأمس ، وأكثر التزاما وإيجابية بالحركات التي ترمي الى التغيير الجذري . وفي الوقت نفسه نشر نجاح علم الاجتماع المعرفة به وباهتماماته ، وذلك عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرية ، والمؤلفات الميسرة للجمهور القارئ العام . وبالتالي كانت المطالب التي يروجها منه ( أى من علم الاجتماع ) طلاب الجامعة أشد إلحاحا وأكثر تحديدا في الاتجاه ، كما أن لهفتهم في العثور على أجوبة تقودهم الى مكان ما قد تضاعفت . ولكن ربما كان علم الاجتماع من بين الموضوعات جميعا هو أقلها تهيوؤ للاجتناب عن طريق الهجوم ، فهو لا يخضع الا للصفود البطيء . فبعض الطلبة تجتذبهم مدرسة عصرية من مدارس الفكر ، متوقعين أن يجدوا فيها حلا جامعا لمشاكلهم في معالجة للموضوع الذي لا تستطيع ثقته الجذابة بنفسه أن تدوم الا داخل مجال عمله المحدود . وهناك من يعتنق نظرية عنمة ذات جاذبية أيديولوجية طاعية ، لأن عقائدها تردد صدق تصوراتهم المسبقة ، وهنا يخضع العلم للعقيدة . وثمة آخرون يتحاشون الحلول السريعة ، ولكن يروهم المدى الواسع للموضوع ، ويشعرون بالاحباط من عجزهم عن رؤية كيف يمكن أن تتماشك أجزاءه معا .

وهذا كله يؤكد اعتقادي في الحاجة الى تدعيم علم الاجتماع بوصفه علما أكاديميا . ولا يمكن أن يتم هذا الا على أيدي علماء اجتماع تؤهلهم تربيتهم وتدريبهم للقيام بهذه المهمة . ويخشى بعض زملائي السابقين من أن جريزا أشد على تنمية مستوى رفيع من الكفاءة الفنية والمهنية ( وليس الاثنان شيئا واحدا ) لدى أساتذة المستقبل في علم الاجتماع قد يسيء الى قيمة الموضوع بوصفه جزءا من تربية ليبرالية ، كما يمكن أن يقتل حساسية الباحث « المحترف » للواقع الاجتماعي ، ويسلب علم الاجتماع « انطلاقته الحيوية » . وأنا لا أستطيع قبول هذا الرأي ، وأعتقد أنه قائم على سوء فهم بأن التقنية تخلق علما ، لتسيطر عليه فيما بعد ، على حين أن الأمر على عكس ذلك ، إذ ينبغي أن يخلق العلم التقنية ، ويطورها لتلبية متطلباته الخاصة ، ويحتفظ بسيادته عليها .

# على.أ. مزروري

## نشأة عالم

### أفريقي سياسي

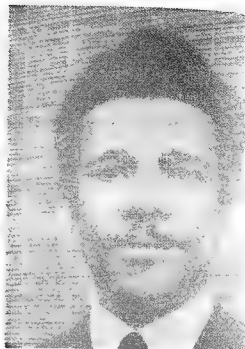
ما هو العالم السياسي ؟ انه يجمع بين تجربة الوعي السياسي الشخصي وخصائص المعرفة العامة المكتسبة من الدراسة والمهارات المتخصصة في تناول الهواض السياسية ، وخصائص الدراسة متأصلة في الخضوع لقواعد الاثبات والتوثيق والمنطق ، ولكن نظام العلم السياسي نفسه يتطلب مهارات خاصة اضافية تعني بتناول الأسس أو بالاستفادة النافعة من استعمال أدوات المفاهيم العقلية .

وأخيرا نواجه تجربة الوعي السياسي ، وهذا هو الاحساس بالمسائل العامة وسياسة الارتباط بالمصالح الخاصة .

فإذا كان العالم السياسي مزيجا من الوعي السياسي والدراسة والمهارات في التحليل السياسي فان مسألة واحدة تعرض ، وهي العلاقة المحكمة بين هذه العناصر الثلاثة . وهذه المسألة من السعة والشمول لا يتيسر تناولها في مثل هذا الفصل .  
• ما نحن في حاجة الى شدة الاستمساك به هو تلك الحقيقة البسيطة ، وهي أن الوعي السياسي عند العالم السياسي سابق لتحصيله خصائص الدراسة أو البراعات الخاصة بالنتهج الذي يتبعه ، وعلى العالم السياسي أن يكون حيوانا سياسيا واعيا قبل أن يستطيع التحرك في الاتجاه للحصول على الاعداد اللازم من هذا النظام .

## ترجمة : على أدهم

وكيل ادارة الثقافة بوزارة التربية سابقا ، ورئيس تحرير  
مجلة الكاتب العربي سابقا .



ويلزم من أجل ذلك أن ينظر الى الوعي السياسي في ائنهاية على انه أشد  
العوامل الثلاثة التي تعمل على انجاب هذا النوع من الدارسين الذين نطلق عليهم  
وصف « العالم السياسي » من الناحية انشخصية ومن بعض الوجوه أشدها  
ذاتية .

ولما كان هذا الوعي السياسي شديد الارتباط بنمو الادراك العام للشخصي فان  
العلماء السياسيون ربما يلزم أن يكرسوا وقتا أكثر لاتخاذ حياتهم أساسا لدراسة  
نمو الوعي السياسي . وهذا الفصل من الترجمة الذاتية من قبيل الممارسة في هذا  
الاتجاه ، وهو يتضمن قصة نمو الوعي السياسي في فرد واحد مرتبط ارتباطا محتوما  
بعالم ادراكه المتعدد الذي يصاحب نموه . وبعض العناصر لم تكتسب معنى اضافيا  
الا عن طريق النظر الى الماضي ، لأن المكب على الدراسة ، مثل الشاعر ، له أوقات  
يتوقف فيها « ويستجمع ذكرياته في هدوء » . والحوادث الصغيرة المعارضة مثل  
توجيه اللوم الى أحد الطلبة لأنه قد ألقي بفراش على درج السلم قد يكون بمثابة الصورة  
في كشف الانسان لمظهر السلطة . وهذا المقال يشير أيضا الى حادث صغير في  
نزibar لطفل كان يطارد طفلا آخر وما نتج عن ذلك من التصادم بين أسرتين ، وذلك  
كله يعين على كشف المعاني الأوسع التي تحتويها الأشياء الصغيرة .

وهذا المقال من انترجمة الذاتية يعنى من أجل ذلك بتلك المرحلة الأولى في تقدم علم سياسي ، وهي مرحلة تحصيل الوعي السياسي العام وتقويته . وسنختتم الفصل بالمحصول الرسمى على درجة البكالوريوس في الآداب ، وهي مطالع تحصيل العنصرين الإضافيين لندراسة والمهارات الأكاديمية في هذا النظام . وبمباراة أخرى نحن في هذا الفصل معنيون بالمرحلة السابقة للمرحلة المهنية ، أى بالأسس والأصول .

وكان من دواعي اقبالى على علم السياسة اهتمامى فى طفولتى بالقانون والصحافة ، وكان من بواعث هذين الاهتمامين خلفيتى العائلية . ففى ابان نشأتى كان والدى قاضى القضاة فى كينيا . ولما كانت الشريعة الإسلامية هى الشريعة المتبعة فى كينيا لذلك لم يكن كبير القضاة زعيما دينيا فحسب ، وانما كذلك هو القاضى المقدم فى نظام القضاء القومى . وأدركت أن والدى واحد من اثنين أو ثلاثة من كبار علماء الشريعة الإسلامية فى شرق أفريقية ، وكان شديد العناية بالفقه الإسلامى ، وكنت حينما أقوم بتقديم القهوة لضيوفه أو باستحضار الأطباق لطعام الغذاء تدور الأحاديث بين انكبار حول مسائل الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى .

### نهج المناقشة :

ومع ان والدى كان يلتزم جانب الجهد والتوقر فى حياته وأخلاقه فان هذه الجدية كانت تبث فى الحياة لونا من المرح العقلى . وقد كان موهوبا فى المجادلة ، وكان من أقدر أهل عصره فى النقاش العام . وقد أصدر فى العقد الرابع ما يشبه الجريدة باسم الإصلاح . وتولى تحريرها ، وكانت فى بادى الأمر تكتب باليد ثم تكتب صور منها بطريقة يغلب عليها عدم الاكتمال وتطبع بعد ذلك . وقد ورت بعض المقار باستعمل الكثير من دخله من زراعة جوزة الهند فى الانفاق على هذه الصحيفة المحدودة الانتشار باعتبارها وسيلة للمناقشات والإصلاح الاجتماعى . وكان لمعتقدات والدى جانب ينزع الى الزهد ، ومن أمثلة ما كان يزعمه الى حد كبير التبذير والاسراف اللذان كانا يصحبان حفلات الزواج الساحلية . وكان فى طليعة الإصلاح الاجتماعى الذى يريد أن يراد إعادة ما كان يعتبر أنه هو البساطة الدينية الأصلية للزواج دون أن يفرق والدا العروسين فى الدين . وكان كذلك يكره الى حد كبير حفلات المآتم الكثيرة للتكاليف ، وكان يرى ذلك كله مخالفا كل المخالفة لتصوره للإسلام الحق . فالتمتى فى حاجة الى صلواتنا وإبتهالاتنا ، ولكن على أن تكون فى أبسط ما يمكن من الصور ، ولم يكن من اللازم اطالة التلاوة انجتماعية للقرآن ، أو اجتماع النسوة فى حلقات العزاء مدة ثلاثة أيام مع اقامة شعائر التذنب والعيول .

وكنت فى طفولتى أصغى الى كل هذه المناقشات ، وفى أكثر الأوقات كنت أعجب بقوة العاطفة التى كانت وراء حماسة والدى للإصلاح . وفى بعض الأحيان كان يستعين بجريدته فى تناول مثل هذه الموضوعات ، وكثيرا ما كان ذك يؤدى الى صراع بينه وبين موظفى الاحتلال الرسميين فى عصره .



وكان والدى قوى الشعور بروابطه العائلية ، وكان من أبطال عائلته الشيخ مبروك المزروى ، وهو الثائر فى القرن التاسع عشر بالساحل الذى تحدى البريطانيين وسلطان زنبار معا ، وكنت قد تعودت أن أسمع قصص بطولة الشيخ مبروك اتى وشاها الخيال ، وهى تروى أخبار شجاعته ونحديه للتحالف الكبير بين البريطانيين وأسره برغاش وبين السيطرة البريطانية ، وادعاء السلطان السيادة على أراضى شاطئ شرق إفريقيا .

وحينما ذهبت للدراسة فى مدرسة فى ميباسا وجهت اهتماما خاصا الى اللغة الانجليزية بوصفها وسيلة للحوار ، وربما كان للخلفية القانونية لأسرتى والجانب الجدى فى والدى اثر فى توجيه اهتمامى الأصيل الى اللغة باعتبارها وسيلة للكفاح اللفظى . وكنت أشارك فى أغلب المناقشات التى تنظم والتى كنت أراها مناسبة ، وكنت فصولا قصيرة فى مجالات الطلبة ، وفزت مرة أو مرتين فى مباراة كتابة الفصول ، وبدأت أحس أن مجال استيفاء دراستى ليس هو التشريع الإسلامى والفقه ، وإنما هو فى محاولات عقلية أكثر علمانية . وفى تطلى الى المستقبل ارتبط نزوعى الى أن أكون كاتباً بعيل الى أن أكون صحفياً ، ورأيت أن الرواية والصحافة هما الوسيلة العظمى للقصص ذات المغزى الاجتماعى . وقد رأيت فى شارلز ديكنز بعض ما فى والدى ، المفكر المصلح الاجتماعى الذى يملك القلم ، ولم أر فارقا بين ديكنز الذى كان كاتباً روائياً قبل كل شيء والذى كان كاتباً ومنشئ كتيبات ورسائل ، فكلاهما كان يتخذ الكلمات وسيلة لأهداف عامة .

وتطلعت أحلامى الى الالتحاق بكلية ماكيرير ، ولم يكن القانون يدرس بها حينذاك ، ولا الصحافة ، وإنما كانت تعلم اللغة الانجليزية ، وهذا ما دار ببساطة فى تفكيرى ، وأستطيع بتمكن أكثر فى اللغة الانجليزية أن ألج عالم المشكلات والمسائل العامة .

ووقعت الحادثة الفاجعة ، فقد توفى والدى سنة ١٩٤٧ قبل أن أتم دراستى المدرسية بعام . وقد نال ذلك منى نبلا شديدا ، ولكن الأهم من صدمة فقدته كانت صورة الرجل المسن التى زادت أبعادها فى مخيلتى ، وكنت فى اربعة عشرة من عمرى ، وبدأ لى ميله الى التدخل فى المسائل العامة فى أبعاد أكثر بطولة . وقد أدركت فى الوقت الحاضر أن عالم والدى كان صغيرا نسبيا ، وقد كان اسمه معروفا وشائعا فى عالم المتحدثين باللغة الساحلية ، وبخاصة فى شاطئ تنجانيقا وكنيا وفى زنبار . ولم يكن فى هذا العالم وفى ذلك المجال رجلا له وزنه فحسب ، وإنما الأهم من ذلك أنه كان رجلا قد نذر نفسه لمهمة واضحة ، وكما هى العادة المتبعة عند قومى كنت أسأل هل أتبع خطوات أبى ، وقد عرفت اننى لا أستطيع ذلك فى مجال الفقه ، وكانت المسألة هى هل أستطيع التفوق فى مجال مهنة علمانية ؟

## سنوات ابتعاضى عن المدرسة :

فى سنة ١٩٤٨ جلست لأداء امتحان الشهادة فى مدرسة كمبردج ، وفى آخر الفترة انزعجت ، وأحسست أننى لم أحسن الصنع ، بل خشيت أن أكون قد أخفقت أخفاقاً تاماً .

وظهرت النتائج ، ولم أكن قد أخفقت فى الامتحان ، وإنما حصلت على الدرجة الثالثة فى امتحان المدرسة ، ورأيت أملى فى الالتحاق بـماكرير ينهار حولي . ولم يكن هناك فائدة فى محاولة الالتحاق بـماكرير بمثل هذه الشهادة ، والكلية لا ترحب بى فى مثل هذه الظروف .

ورأيت أترابى القدماء يسرون فى طريقهم الى ماكرير ، فى حين كنت أبحت فى نواحي ممباسا عن وظيفة كاتب ، وكنت ما يسمى فى شرق افريقية « متخلفاً عن المدرسة » - وكان يطلق ذلك على من أخفق فى محاولة تجاوز التعليم الثانوى ، ورأيت نفسى مبعداً عن المدرسة .

كنت حينذاك فى الخامسة عشرة من سننى ، وقد حصلت على شهادة الدراسة ميكرا ، وجانب من ذلك مرجحة أننى أظهرت تفوقاً عقلياً مبكراً سمح لى بأن أتخطى فرقا ، ولكنى حينما وصلت الى الذروة فى المدرسة الثانوية هبطت الى مستوى الفرقة الثابتة . ولم تكن مشكلتى فى الحياة التقدم المتأخر ، وربما كانت التقصير العقلى المبكر الذى بولغ فى تقديره .

وتصرت أول الأمر فى العمل بمؤسسة تجارية هولندية لها فرع فى ممباسا . ووضح أننى لم أكن قد بلغت المستوى العقلى الكافى للقيام بالعمل الذى كان فى تقديرهم . فقد أرادوا تدريب من لم تتجاوز سنه الخامسة عشرة على أن يكون فى أسرع وقت مساعداً للمدير ، وقد بلطفت المؤسسة فى الاعتذار عن خطئها وأعطينى شهادة حسنة . وقد أخطأت المؤسسة فى استخدام شاب فى مثل هذه السن للقيام بالعمل الذى رأت أن تعهد به اليه .

وحينما تركت الشركة التجارية ظللت حيناً من الزمن بلا عمل ، واتصل حينذاك قريب لى بالتليفون بأحد معارفه الأوروبين وهو القائقام ه . و . نيول ليسألهم أهناك وظيفة خالية لكاتب صغير فى مشروع جديد معروف باسم معهد ممباسا للتعليم الإسلامى . وكان هذا المشروع وليد تفكير السير فيليب ميتشل حاكم كينيا فى ذلك العهد ، وكان قد شعر بأن المسلمين فى شرق أفريقيا متخلفون ، وأنهم فى حاجة الى معهد فنى جديد يزودهم بالمهارات الحديثة .

وحينما اتصل قريبى بالقائقام نيول ليسأله عن عمل لى لم يكن المعهد قد حصل بعد على المبنى الخاص به ، ولم يكن هناك سوى وظائف قد عيأها السير فيليب ميتشل بكرمه فى دار الحكومة محل سكنه الخاص فى ممباسا . وقال نيول لقريبى انه لا يوجد عمل فى ذلك الوقت ، ولكن اذا كنت مستعداً أن أذهب وأعمل

فترة بدون أجر فأننى سيكون لى الأسبقية حينما توجد وظيفة خالية ، وسجمنى ذلك على قبول العمل المقدم .

وقد كان عملى فى المعهد تجربة هامة فى تأهيل لأن أكون مراقبا للمشكلات الاجتماعية . ولشئ واحد شاركت فى مشروع قد بدأ توا اذ كنت أراه ينمو الى النضج فى ذلك اليوم الذى سمع فيه بقبول الطلبة . وفى الوقت الذى انضمت فيه الى المشروع كنا نشغل الجناح الشمالى فى دار الحكومة ، وهو يشرف على المحيط الهندى فى موقع جميل بالمدينة قريب من طريق الجولف . وقد انتقلنا فيما بعد الى الموقع الذى كان فيه بناء المعهد ، وكان مكتبنا المؤقت كوخا من الخشب مسقفا بسعف النخل . وقد لاحظت مظهرا جديدا لكينيا المستعمرة . وكان رؤسائى المباشرون بطوفون كل يوم ويتبادلون الفكاهات بعضهم مع بعض ويتقاسمون العمل ويشتوكون فى الاشراف على المشروع ، وكانوا جميعا من رجال الجيش . ولذلك كانوا يمثلون قطاعا ممتازا من الحضور البريطانى الامبريالى ، ولو انهم كانوا جميعا قد أنهوا خدمتهم العسكرية . وكان الزائرون يحضرون من الحين فى الحين فيشاهدون عرضا تاريخيا على طريقتهم ، وأذكر منهم الأمير على خان وزوجته ريتا هيورث ، فقد حضروا وقمت بمساعدتهم فى الطواف بالمكان ، وأذكر محيى سلطان زنربار ليقمتح المعهد فى النهاية ، وقد رحب به السير فيليب ميتشل بين مظاهر الأبهة والفخامة ، وجاء للزيارة غير واحد من حكام كينيا .

ولكن المظهر الأكثر أهمية لتجربتي من الناحية السياسية فى المعهد لم يكن فى هذا العرض للتاريخ الامبريالى ، وانما جاء حينما عينت مراقبا بالمعهد ، فقد بدأت حينذاك معالجة مشكلات السلطة فى مؤسسة بها اجناس مختلفة وطلبة من جميع شرقي افريقية . وكان جميع المدرسين فى المعهد من الأوروبيين ، وجميع الطلبة يدينون بالدين الاسلامى ولكنهم من شعوب مختلفة ! افريقيين وهنودا وغربا ، وكان بالمعهد طلبة من أوغندا وتنجانيقا وزامبيا وصوماليا وكينيا . وكانت الحكومات المختلفة فى شرق افريقية تقدم اعانة سنوية للمعهد ، لانه كان معهدا لافريقية الشرقية جميعها . ومن طريق له أهميته كان هذا المعهد اول تجربة لى فى شرق افريقية بوصفه اقليما ، واول دراية لى بنفسى بوصفى من شرق افريقية لا بوصفى مجرد كينياوى من ممباسا . واتوقع أن معهد ممباسا للدراسة الاسلامية كان هو اول معهد تعليمى لكل شرقي افريقية من هذا النوع .

ولما كنت أشغل وظيفة كتابية صغيرة لذلك كان عملى فى المعهد جانبيا ، ولكن حينما رقيت لتقلد منصب مراقب المبنى وفى عهدتى قاعة الاقامة بالمعهد وأنيطت بى مهمة الاشراف على تمويل المعهد والروح الاجتماعية فى قاعة الاقامة أصبح مركزى رئيسيا فى حياة الطلبة بالمعهد .

## اكتشافي للسلطة :

كانت أول مشكلة واجهتني هي أن أحوز القبول بوصفي واحد ممن لهم السلطة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من سني حينما عينت مراقبا لمبنى المعهد ، وكان معظم الطلبة من سني ، وواحد أو اثنان منهم كانا أكبر مني سنا ، وعند قاعة الإقامة مجتمعنا سياسيا بمعنى له أهميته ، وكنت أعرف ما حدث لمراقبي القاعة السابقين اللذين أخفقا أخفاقا مزريا في القيام بمهمتهما .

وترجع مبادئ تفكيري فيما يجعل مواقف خاصة ذات سلطة ومواقف أخرى أقل منها الى هذا المعهد الذي ساورتني فيه الهموم حينما توليت عملا أخف في انقيام به اثنان من السابقين المباشرين لي .

وأرى ان باعث تصوري الفكري للفارق الاجتماعي باعتباره شرطا سابقا للشرعية السياسية هو الى حد ما هذه التجربة . وقد بدأت فيما بعد أدرك - بوصفي عالما سياسيا مدربا يلاحظ الأمم الأفريقية من مستوى كبير - أن جانبا من مشكلة شرعية الحكومات الأفريقية يكمن في حقيقة أنها جد قريبة من الشعب لا في حقيقة أنها منقطعة الصلة به . وفي المواقف التي سرعان ما عرف فيها أن الزعماء قد برزوا من صفوف الشعب فانه كان من السهل على هؤلاء الذين ظلوا في الصفوف أن ينظروا بعين الحسد الى الامتيازات التي استمتع بها أضرابهم السابقون ، والصفوة الذين توطدت مكانتهم منذ عهد بعيد تفتقر لهم الطبقات الدنيا المعيشة الراقية في أكثر مما تفتقر للأعضاء الناجحين الجدد في الطبقات التي تستمتع بالامتيازات . وهؤلاء الذين ظلوا أثرياء مدة أجيال قد وطلوا مستواهم الاجتماعي الرُفيع وجعلوه يبدو طبيعيا ان لم يكن مستحقا . ولكن محدثي الثراء أسهل تعرضا للاتهام بأنهم ينظرون بالكبرياء ، ونتيجة لذلك يكونون أكثر تعرضا للاستنكار . ومما يجب معرفته أن هذا الاستنكار لا ينشأ من فارق اجتماعي واضح ، وانما على نقبض ذلك ينشأ من آثار التقارب الاجتماعي بين هؤلاء الأثرياء المحدثين والطبقة الغفيرة التي خرجوا منها . وأفريقية الجيل الأول من أجيال الاستقلال كانت أفريقية أفسدها هذا التداخل الغريب بين الصفوة والجماعات .

وعندما تعرضت لهذه الورطة لأول مرة كان عامل السن له أهميته . فمراقبي في العقد الثاني من العمر وكلت اليه السلطة على مرافقين آخرين في العقد الثاني يعاني من عقبات تقارب اجتماعي من نوع خاص . وللسن بين الأطفال بوجه خاص أهميته بوصفه قاعدة لتقرير مكانة الجماعة المتساوية . وكانت سلطتي بوصفي في العقد الثاني من العمر من الصعب تأكيدها من جراء تعرضها لخطر أنني قد ينظر الى باعتباري الى حد كبير من المستوى نفسه .

وقد كنت أخشى أي حادث هام يستلزم تأكيد سلطتي وقد حدث ذلك ذات مساء ، وكان الطابق الذي أقيم به واقعا بين جناحي قاعة الإقامة ، ولذلك كنت أمتطيح أن أسمع أي ضجة كبيرة تحدث في أحد الجناحين . وفي هذا المساء كانت

الضجة عالية مدوية ، وكان اثنان أو ثلاثة يتشاجرون مع عدد مثلهم من المشاهدين المنضمين مما زاد الضجيج ارتفاعا ، فانتظرت قليلا مؤملا أن يهدأ الضجيج ولا أجد نفسى مضطرا الى أن أذهب لأرى ما يحدث ، ولكن الضجة لم تهدأ ، وازداد الصرير عاوا ، وارتفع كذلك صوت انتزاع الأثاث والقائه ، فبلعت ريقى بصعوبة ، ولفت « كوفيتى » حول رأسى ، وأخذت طريقى الى القاعة التى ينام بها الطلبة .

وبعد قليل من الوقت رأيت فراشا يقف به على درج السلم ، وكان اثنان من الطلبة لا يزالان مرتفعى العقيرة وكل منهما يصيح فى وجه الآخر ، وواحد منهما وهو فى نوبة الغضب شد فراش آخر وألقى به على السلم .

وفى داخل نفسى حدثت معجزة ، فقد تطلب الغضب المشتد على حياتى . وقبل أن أعرف ما أنا صانع كنت أطلب بأن أعرف فى الحال من المسئول عن اتقاء الفراش على درج السلم ، واعترف أحد الطلبة الغاضبين بأنه هو الذى فعل ذلك ، فحلق كلى منا فى وجه الآخر ، وغضى هو من بصره ، وبهذه الحركة الدرامية أمرته أن يذهب من فوره لاحتضار الفراش من المكان الذى قذف به فيه وأن يحمله على الدرج ويعيده الى المكان الذى انتزعه منه . ووقف الطلبة الآخرون ينتظرون ليروا ما سيحدث ، وأنا نفسى غاب عني أن أسمع لنفسى بالتفكير فى امكان الرفض المتحدى .

وقبح الطالب الغاضب ، وبدا أنه يكتم اللعنات وراء أنفاسه ، ونزل على الدرج ليعيد الفراش الى مكانه ، وعاد مترنحا بحمله . وكانت جماعة الطلبة تراقبه ، وحينما قرب من رأس السلم مددت اليه يدي ، وتقدم اذ ذاك أعضاء آخرون من الجماعة لمساعدته فى العودة بحمله ، وعند ما استقام ظهره بعد أن أعاد الفراش الى مكانه نظرت اليه وقلت : « أشكرك ، لا تفعل ذلك مرة أخرى » .

واستدردت وتركته . والذى استقر فى عغلى هو مسألة بسيطة خاصة بالسلطة بين النظراء ، وكيف جاء الغضب تلقائيا لانقاذ انسان كان لا يزال غير واثق من نفسه ، ويعيره صوتا للسلطة فى موقف متأزم .

### توترات التكامل الثقافى :

ولكن سرعان ما كشفت فى هذا المجتمع الصغير أن هناك مشكلات أفقية ومشكلات رأسية كذلك فى العلاقات . وكانت المشكلات الرأسية هى التى تعنى مسائل السلطة والقيادة من ناحية علاقاتها بهؤلاء الذين يتبعونها ، والأوامر الموجهة من ناحية علاقاتها بهؤلاء الذين يقومون بتنفيذها . والمشكلة الرئيسية لسلطتى بوصفى مراقبا لداخلية المعهد واهتمامى الخاص بقدرتى على اصدار الأوامر أو القيادة كانا من مشكلات العلاقات الرأسية .

وكانت مشكلة العلاقات الأفقية تخص علاقات التبادلة بين الطلبة أنفسهم ، وهى تهم بوجه خاص العلاقات بين الجماعات ، سواء كانت هذه الجماعات شعبية أو اقليمية أو قبلية .

وبرزت مشكلة العلاقة المتبادلة بين الطلبة في عقل باعتبارها مشكلة ألفة ،  
في حين أن المشكلة الأصلية التي واجهت المرافقين السابقين لداخلية المهسد اللذين  
فصلا ، وانتهى واجهت الشباب الذي جاء بعدهما ولم يكن وثاقا من مكانته بين الأنداد ،  
بدت لي في ذلك الوقت من مشكلات السلطة .

وفي حيز النطاق العام لطلب الألفة كسفت في تلك المرحلة المبكرة توترات  
القرب الاجتماعي في العلاقات الأفقية ، كما خشيت تلك التوترات في العلاقات  
الرأسية . ولم تكن أسوأ المشكلات هي التي تتعلق بمسائل تبادل العلاقات بين  
الأفريقيين والهنود . وبين الأفريقيين والهنود كان هناك من التباعد ما يكفي لجعل تبادل  
العلاقات بينهما قليلا وان كان وديا . والواقع أن أسوأ توترات واجهتها كانت بين  
العرب الذين يعيشون في سواحل زنجبار وسكان السواحل في زنجبار الذين استعربوا ،  
فهاتان الجماعتان - وكانت أحدهما تدخل في عداد العرب والأخرى تعد من  
السواحلية ، وقد شاركت كلتاهما إلى حد كبير في الثقافة السواحلية - كانت أسوأ  
المشكلات في تعاملهما بعضهما مع البعض ، وكنت لا أزال أجعل الكلمات من قبل كلمة  
« التكامل القومي » ، ولكن فكرة زنجبار باعتبارها جزيرة بها الكثير من الامتزاج  
الشعبي والثقافي كانت واضحة في عقل كل البوضوح .

وقد عرفت زنجبار معرفة جيدة ، وفي أول زيارة لها لم تكن سني قد جاوزت  
بضع سنوات ، وكان والدي قد ذهب للحج بمكة ، وكان الحج في تلك الأيام يستغرق  
زمنًا طويلا .

وفي الزيارة الثانية لزنجبار رسخت في عقل صورة جزيرة يرفرف عليها  
السلام . وفيها نشبت الحرب الكبرى الثانية . وبرغم أنه بدأ أن الألمان يبعدون  
فانه ظهر أن الإيطاليين وموسوليني يشيرون باقترابهم القلق ، فقد كانت الجبهة  
لا تزال خاضعة للاحتلال الإيطالي ، وكانت الرغبة في تحريرها من أهداف الحرب  
عند الإنجليز في هذا الجزء من القارة الذي كنت به . وكانت ممبasa - المدينة التي  
أقيم بها - هي أهم ثغر على الشاطئ الشرقي للقارة ، ولذلك كانت هدفا جذابا  
لهجمات الأعداء .

وفي ذات يوم سقطت قنبلة على مالندي الواقعة على مسافة أقل من ثمانين ميلا  
في شمال ممبasa ، ولم تحدث القنبلة سوى القليل من الضرر ، ولكنها كانت كافية  
لإشاعة الذعر على طول الشاطئ ، وسرعان ما انتشر الشعور بأن الحرب قد جاءت  
إلى الجزء الخاص بنا من القارة .

وأخذت عائلات كثيرة في ممبasa تفكر في أنه قد يكون من الصواب إخراج  
النساء والأطفال من ممبasa وإرسالهم إلى جزء من شرق أفريقية أقل تعرضا للخطر .  
وكانت عائنتي من العائلات التي رأت أن ترسل النساء والأطفال إلى زنجبار . ولقد  
جاء وقت كانت فيه زنجبار حاضرة كبيرة في شرق أفريقية ، وكانت في هذه الحالة

لا بد أن تكون بين الأهداف الأولى التي يوجه إليها العدو هجماته ، ولكن في سنة ١٩٣٩ كانت زنجبار بوصفها مركزا استراتيجيا أقل أهمية من مباسا .

وحقيقة أنني وأنا طفل قد زحفت طلبا للسلامة إلى زنجبار وقضيت بها أشهراً من الهدوء المشوب بالانفعال الذي لا يزال في ذاكرتي ، أقول أن ذلك أعطاني صورة للجزيرة مرتبطة ارتباطاً دائماً بالهدوء والهرب من سحب الحرب ، وقد تعرضت هذه الصورة فيما بعد إلى تناقض اجباري في التجربة الكاملة للثورة الدموية التي كانت تنتظر الجزيرة .

وأول صدام بيني وبين التوترات المحتملة كان خاصاً بحادث بسيط ، فقد وضعنا بعض الحشيات الخاصة بنا في الخارج لتجففها الشمس وتنقيها من حشرات الفراش . وبينما كنت ألعب على مقربة من الحشيات وقع بصري فجأة على غلام صغير يشب حول الحشيات ، وكان واضحاً أن هذا الغلام الصغير غريب عنا ، وليس له أن يلعب فوق حشياتنا بقدميه القدرتين ، هذا ما تراءى لي ، وكان هناك جزء من فرع شجرة صغير دقيق على مقربة مني ، وبه أوراق قليلة ، انتزعها منه ، وأعلنت صيحة حرب ، وقصدت هذا المعتدي الصغير ورفعت فرع الشجرة عالياً ، بوصفه سلاحاً مهدداً في شمس المنطقة الحارة لمطاردة هذا الغازي وابعاده . وعدت إلى نعي الهادي لاهث الأنفاس يخالجنى بعض الشعور بالخيبة ، ولكنني مع ذلك كنت أهني نفسي لأنني أبعده عن حشياتنا . ولم يمض قليل من الزمن حتى سمعت أصواتاً . وحينما استندرت رأيت جمعا من النساء يصحن غاضبات وشاكيات مقبلات إلى منزلنا وظهرت والدتي عند مدخل المنزل وصاحت صيحة يأس طالبة مني أن أسرع بالعودة إلى منزلنا ، ووقفت والدتي ونساء أخريات من منزلنا أمام المدخل ، وأخذتني واحدة منهن بعيداً لأختبئ بأحدى الحجرات في الداخل . وصاحت النساء اللاتي حضرن متوعدات ومتحديات في غضب شديد ، وقلن أنني طاردت غلامهن الصغير كما يطارد الكلب ، وإنني كنت أهم بضربه بالسوط كما يفعل بالعبد . وحقيقة أن بعضهن زعن أنني بدأت فعلاً ممارسة هذا الإذلال . وسمعت بعض هذه الاتهامات وشعرت برارة لما في بعض هذه الاتهامات من عدم الدقة ، ولو أنها جميعها حيرتني وأفزعتنني . وحاولت بعض نساء زنجبار في منزلنا أن يدفعن الاتهامات ، ولكن والدتي كانت في طليعة العاملات على إزاحة الخلاف ، ولأدت بأثارة غرائز الأمومة في النساء المتجهجات لتقاوم ما اتضح أنه كبرياء العنصرية المجروحة ، وقالت والدتي في دفاعها أن النزاع كان بين أطفال ، ولكنها كان يمكن أن تتعرض لمثل هذا الشعور لو كان طفلها هو الذي انطلق يعلو خائفاً من تهديد الأجنبي ، وقد سلمت بأن ولدها كان مخطئاً ، ووعدت بأن يضرب ولدها عقاباً له على العابه العدوانية ، وأشهدت الله على صدق وعدها ، وطاب خاطر النساء بالتدرج ، وعدن شاعرات بالاعتناء بأن العدالة ستأخذ مجراها .

وسمعت ذلك كله من داخل المنزل ، وظللت غاضباً ومهدداً معاً . وجاءت والدتي ، وأمسكت بي وحملت مكساة رقيقة من سعف النخل وشرعت تضربني ،

وسرعان ما أوقفها النساء الأخريات في المنزل ، ولذت بركن في المنزل مدلكا عجزي الجريح وصالحا في غضب لما في ذلك كله من ظلم ، ومؤكدا أثناء ازالة الدموع من عيني أن الغلام الآخر الصغير كان يبعث بحشياتنا ، وأن كل ما عملته هو اني أبعدته عنها ، وصحت قائلا انني لم أضرب الا لأن غلاما صغيرا كان كاذبا ، وإذا كانت عائلتي تريد أن تذيبني أو أن تقتلني فليس في ذلك بأس ، ولكن ليس في الحق أن يكون ذلك على أساس أكذوبة .

وأهمية هذه الحادثة باعتبارها عاملا في تطوري لاكون ملاحظا سياسيا يكمن فيما لم أفهمه في ذلك الوقت سوى فهم ناقص ، ولكنه اتخذ معنى أكثر فيما بعد حينما كنت مراقبا لداخلية معهد ميباسا للتعليم الاسلامي ، فقد علمت بعد ذلك أن العائلة التي كنت أعيش معها في زنبار كانت من العرب الذين أقاموا في السواحل ، وأن الطفل الذي أبعدته عن حشياتنا كان من سكان السواحل المستعربين ، ولم يكن باعث غضب النساء هو وقوع هذا الصراع البسيط بين طفلين أو محاولة أحدهما مطاردة الآخر بفرع شجرة . لقد كان العامل الرئيسي في هذا التوتر هو الصدام الذي لا يكاد يمدق من وجوه كثيرة بين السكان العرب في زنبار الذين اكتسبوا اللغة السواحلية وأصبحوا متافرقين في جوانب ثقافية خاصة من ناحية وبين الأفريقيين في زنبار الذين يتحدثون باللغة الساحلية بوصفها لغتهم الأصلية ، والذين قبلوا كذلك الاسلام دينا ، واقتبسوا بعض المظاهر المعينة من أسلوب حياة العرب ، ولكنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم جماعة منفصلة من ناحية أخرى .

### الهوية والعنف :

وكان وراء هذه الظاهرة جميعها الحقيقة التاريخية لنظام الرق عند العرب ، الذي كان يعد حيننا من الزمن شيئا عاديا مقبولا في تلك الجزيرة ، ولكنه في العهد الراهن يشير ذكريات مريرة مهيبة .

ومع ذلك فإن هذين القومين قد امتزجا حيويا وثقافيا امتزاجا جديرا بالاعتبار . وكان التزاوج بين العرب والأفريقيين جزءا من صميم تكوين المجتمع الزنباري . وكان لهؤلاء القوم أنواع طعام مشتركة ، ولغة واحدة ، والكثير من الفكاكات المشتركة ، وكانوا يصلون في المساجد معا . وإذا كانت البلاد تصبح أكثر ميلا الى السلام كلما صار الامتزاج الثقافي أكثر اكتمالا فإنه كان من اللازم أن تستبقى زنبار هذه الصورة القديمة التي كونتها عنها باعتبارها جزيرة السلام .

وقد واجهت بوصفي مراقبا لداخلية معهد ميباسا لتعليم المسلمين من جديد مفارقة هذا التكامل الانقصامي ، هذا الشذوذ المزعج الخاص بالتقارب الاجتماعي في العلاقات الأفقية .

ولا أزال أذكر الكثير من لقاءاتي مع طلبة زنباريين في معهد ميباسا لتعليم المسلمين . وكانت بعض هذه اللقاءات تتم في الليل حينما كنا نتحاشى النظارة من



مجتمعات أخرى ومن أقاليم أخرى فى أفريقيا الشرقية . وأذكر أنى وجدت نصوصا عن زنبار من كتابة الكتاب الذين أحسنوا تقدير العلاقات الشسعية الفاتحة بتلك الجزيرة ، وقد قرأت هذه النصوص من كتاب أو كتابين رجعت اليهما قبل هذا اللقاء لتحسين العلاقات وإزالة الخلاف . وفى بدء اللقاء كان الخلاف بين العرب الذين أقاموا بالساحل وبين المقيمين فى الساحل الذين استعربوا على أشد ما يكون ، ولكن محاولتى بذكرهما بالزنبارية التى جمعت بينهما لقيت بعض النجاح المؤقت . وهذه النصوص التى أشرت اليها وانتهى تشيد بالعلاقات الشعبية فى زنبار جعلت الطلبة فجأة يشعرون بتقصيرهم فى جعل حياتهم موائمة لهذه الملاحظات . ولم يكن هذا الارتباك جد وطيد ليقوم عليه بناء الألفة الدائمة ، ولكنه نقلنا الى ما وراء حدود المنازعات الراهنة بين هاتين الجماعتين المتشابهتين ثقافيا الى حد كبير والتين هما برغم ذلك أشد الجماعات تبادلًا للمداء فى مجتمعى الصغير داخل أسوار قاعات الإقامة . وقد اكتسب مغزى تلك الحادثة الصغيرة التى وقعت فى زمن الحرب بزنبار حينما طاردت الغلام السواحلى المستعرب بفرع شجرة معنى أوسع فى السنوات التى قضيتها بالمعهد فى ميباسا حينما حاولت أن ألطف من حدة التوترات فى داخل مملكتى الصغيرة .

ولم أقدم على المقارنة بين زنبار ورواندا الا بعد سنوات عدة ، وبدأت أفكر فى العلاقة الحقيقية بين الامتزاج الثقافى والانفصام السياسى ، وقد وقعت فى هاتين الدولتين الصغيرتين نسبيا أشد ثورتين اجتماعيتين حدثتا فى افريقية . وقد بلغت الأعمال الوحشية التى ارتكبت فى رواندا وزنبار مستوى ربما كان أكبر مما جربه أى مكان آخر فى أفريقية الحديثة ، وبرغم ذلك كان هذان الصقعان من الناحية الثقافية أكثر الدول الجديدة تكاملا فى القارة ، فالزنباريون كما سبق أن ذكرت يشتركون فى اللغة والدين وفى الكثير من النواحي الثقافية الأخرى ، وقد كثر بينهم التزاوج الى حد كبير .

وقد اشترك التوتسى والهوتى فى رواندا فى اللغة والدين وغيرهما من مظاهر الثقافة الهامة ، وحدث بينهما تزاوج ، وهما كذلك كثيرا ما وجدا صعوبات فى تحديد الأصل الذى تنتهى عنده أسلاف الهوتى ويبدأ به نسب التوتسى ، وقد جربت هاتان الجماعتان امتزاج التوالد الثقافى .

ومع ذلك حدث فى سنة ١٩٥٩ قيام الهوتى بشورة أضرت بالتوتسى ضررا بليغا . وقد وقعت هذه الثورة قبل الاستقلال . وقد منح الاستقلال أخيرا فى أول يولييه سنة ١٩٦٢ ، ومنح لزنبار فى ديسمبر سنة ١٩٦٣ ، وقد كلف إسقاط السلطنة العربية زنبار آلاف الضحايا ، ومع ذلك كان هذا الإحصاء يشوبه الغموض . وفى الشهر نفسه قتلت جماعة الهوتى عدة آلاف من جماعة التوتسى فى رواندا ، وطرد اثنا عشر ألفا من جماعة التوتسى ، وقد انضموا الى صفوف مائة وخمسين ألفا من اللاجئين الذين كانوا قد تناثروا بين جيران رواندا .

وفي بوروندي ، وهي ثالث أصعاق افريقية الشرقية التي بها تكامل ثقافي كبير ، حدث ردحا من الزمن صراع داخل شديد على السلطة بين قبائل التوتسي ، كما حدث بعد ذلك صراع حينما انتصر أخيرا الجيهسوريون وقلبوا حكومة الموامي . ولكن في سنة ١٩٧٢ عانت بوروندي محنة اضطراب ، وكبدت الاتهامات بين الفريقين . ولا يكاد يكون هناك شك في أن عدد القتلى في البلاد بلغ الكثير من الآلاف . وكان معظمهم من جماعة الهوتى . وهكذا برغم الاشتراك في اللغة والثقافة والمخالطة العنصرية فإن بوروندي انضمت الى زنبار ورواندا باعتبارها الأصعاق إلتى بها أسوأ مستويات الوحشية المتبادلة في تاريخ شرق أفريقيا الحديث .

ولاهتمامي بمشكلات الثقافة والعنف مصادر عدة ، ولكنى لا أزال واثقا من أن عامل الطفولة كان هو حادث الطفلين اللذين اتخذنا موقفا في زنبار يشير الى مبادئ المواجهة العنيفة . وقد تبينت بعد ذلك الناحية المنطقية ، ولو أنى لم أتبين الجانب الاخلاقى لنظام العزل في جنوب افريقية ، ونظام العزل محاولة دقيقة لمنع انتكامل الثقافي . فالبانوسانية بوصفها فكرة ، وإيجاد جامعات « قومية » ، وعدم تشجيع الاتصال الثقافي والاتصال الشعبى ، ذلك كله قصد به تجنب الامتزاج الثقافي ، فهل يؤجل تجنب الامتزاج الثقافي لحظة وقوع الانفجار العنيف ؟ انى أعتقد الآن أن تجربة زنبار ورواندا وبوروندي ترينا صواب المنطق الذى يتبعه النظام العنصرى فى جنوب افريقية . وإذا كان من المسلم به أن البيض يريدون أن يظلوا هم أصحاب النفوذ الذى لا يتحدى فإن متابعة التفرقة الثقافية والاجتماعية تصبح مفهومة بوصفها مظهرا من مظاهر هذه الاستراتيجية .

وإذا كان هدف القوم البيض هو مجرد التوازن العنصرى فإو هذا يمكن تحقيقه عن طريق العدالة الاقتصادية والمساواة الاجتماعية . ولكن العدالة الاقتصادية والمساواة الاجتماعية لا تضمنان فى الوقت نفسه بقاء البيض محتفظين بامتيازاتهم ، فهل يستطيع البيض أن يظلوا محتفظين بامتيازاتهم مع اتباعهم سياسة الاتصال الثقافى واللقاءات فى اجتماعات احتساء « الثرى » وتعليم الافريقيين فى المدارس والجامعات التى تتبع الأساليب الغربية ؟ وهل يتفق الاحتفاظ بالامتيازات مع التكامل الثقافى ؟

وقد كانت تجربة بوروندي ورواندا وزنبار بكل تأكيد تجربة سلبية ، فهذه الأصعاق جميعا حاولت الاحتفاظ بدرجة من الامتياز العنصرى ( للعرب فى زنبار ونلتوتسى فى رواندا وبوروندي ) ، ولكن ذلك كان مصحوبا بتكامل ثقافى كبير . وقد زاد التكامل الثقافى من حدة العنف الذى حدث فيما بعد ، ولأن هؤلاء القوم كانوا متشابهين الى حد كبير كان التصادم الذى وقع بينهم عنيفا وحشيا . وتجربتي فى معهد مباسا للتعليم الاسلامى كونت استعدادى الاصيل لمثل هذا اللون من الكشف الاجتماعى .

ومنذ ذلك الوقت صرت أعتقد أن بناء أمة يتضمن خمس عمليات هامة . وقد

أبنت هذه الفكرة في كتاباتي . وهذه العمليات هي أولا بعض الامتزاج الثقافي والمعياري ، وثانيا عملية تغلغل اقتصادي بين طبقات المجتمع وقطاعاته المختلفة ، وثالثا عملية التكامل الاجتماعي التي تحد من الثغرات بين الصفوة وجماهير الشعب وبين المدينة والريف بين أصحاب الامتيازات والذين حرموا من الامتيازات ، ورابعا عملية انشاء مؤسسات تتناول بالتحليل الفعال الصراع ، وخامسا التجحيح السيكولوجي للنجربة القومية المشتركة .

ويلاحظ أنني قد ركزت أهمية خاصة على الامتزاج الثقافي والمعياري ، ولكن الذي أحاول تقديمه في كتابي التالي هو العلاقة الملحكمة بين هذا الامتزاج الثقافي والمعياري من ناحية والانحراف السياسي من الجانب الآخر . وفي داخل مفهوم الانحراف السياسي سألحق مفاهيم الخيانة في موافف الجماعات التي تقاربت في التكامل ثقافيا وفيزيائيا ، وكذلك مفاهيم العنف السياسي على النطاق الأوسع .

ولقد كانت صدمة ثورة ماو ماو في كينيا هي سبب انتقال من تحليل المجتمع الصغير في قاعة الإقامة الى المشكلات السياسية الأكبر شأنًا . وقد بدأت موالاة الاهتمام المتواصل بالسياسات القومية في كينيا ضد خلفية العنف السياسي المتصاعد حينما كنت في معهد ميباسا للتعليم الاسلامي . وأعود الى انقول انه حتى في ذلك العهد كان يستطيع الانسان أن يدرك تلك الصلاقة البارزة بين تناقص التباعد الاجتماعي وتزايد العداة في موقف تدرج عنصرى . ولم تكن أقل المجتمعات الافريقية تأثرا بالغرب هي التي حملت السلاح ضد الوجود البريطاني ، ونم تكن جماعة المسابى التي حولت رماحها أو بحثت غاضبة عن أسلحة جديدة ضد الحكم البريطاني . لقد كانت جماعة الكيكيو ، وهي القبيلة التي استجابت لقيم الرجل الغربي . وقد اشتمل تاريخهم في هذا القرن على رغبة حربية في براعات المدارس العلمانية الجديدة وفي طرائق الحضارة الجديدة التي جاءت مع الارساليات الدينية البيضاء ومع المديرين البيض . وحقيقى أن الكيكيو لم يقبلوا الثقافة الغربية بعذافيرها ، وقد دل رد الفعل الذى صدر منهم ضد التدخل الغربى وتمسكهم بعاداتهم في ختان النساء على أن الثقافة القومية شديدة التغلغل في نفوسهم . ولكن بعد كل هذا القول والفعل يظل حقا أن ثورة ماو ماو لم يقم بها أبعد القبائل الكينية عن ثقافة سادتهم البيض ، بل قام بها أكثر هذه القبائل تأثرا بالثقافة ، فتضييق مسافة الاختلاف الثقافى قد تكون من العوامل التي تساعد على إيجاد العداة المتبادل .

### الطريق الى كلية هورث فيلد الفنية :

لقد كان الكولونيل نيول هو الذى هيا لى أن أرى انسير فيليب ميتشل ، وكان حينذاك حاكم كينيا ورئيسا لمجلس ادارة معهد ميباسا للتعليم الاسلامي ، من أجل طلبات الالتحاق ببعثة دراسية كنت أقدم بطلبى لها كل سنة منذ غادرت المدرسة دون أن يأتى ذلك بنتيجة . وقد أشار الى طموحى للتعليم ، وسألنى عما كنت أصنع ، وحينما ذكرت الهند أراد أن يعرف ماذا أدرس إذا كنت ناجحا وذهبت الى هناك ،

ولما قلت أننى أريد أن أدرس القانون رأى السير فيليب أنه سيكون من الخطأ أن أذهب إلى الهند ، وأكد السير فيليب « أن كل محام فى الهند سياسى وكل سياسى محام ، وأنه ليس هناك كبرياء مهنى » .

وحتى هذا اليوم لست أدري هل كان الغرض من هذه الزيارة للسير فيليب هو تمكين هذا الرجل الجليل الشأن من أن يختبرنى ليرى هل يذكر اسمى فى الجهات الخاصة فى نيروبي لترشيحي للبعثة التعليمية . وكل ما أعرفه هو أننى فى المرة التالية التى تقدمت فيها بطلب إلى حكومة كينيا لبعثة علمية لم يكن الجواب سلبيا خالصا . وفى نيروبي تعرضت لمواجهة دقيقة فى الاختبار على يد مدير التعليم ووكيله المساعد ، وحينما انتهى ذلك كله تم يذكروا لى أنجحت أم لم أنجح ، وعدت إلى ممباسا فى حيرة من أمرى .

وكان هناك أمر يشغل بالى ، وهو هل كان لذكر اهتمامي بدراسة القانون والصحافة فى أثناء المواجهة ما يدعو إلى عدم الاستجابة لطلبي . ومن ناحية القانون كان الموقف ثابتا كل الثبات ، وكان من المقطوع به أن حكومة كينيا لا تتول دراستي للقانون فى المملكة المتحدة أو فى أى مكان آخر . ومن ناحية الصحافة كان الأمر غير هذا ، انه لم يكن ضد طموحي العتيد لأن أكون صحافيا ، وإنما الذى كان مقدرا هو أن المنحة الدراسية سيكون هدفها أن تمكننى من اندراسة للحصول على درجة فى الفنون بوجه عام . وقد أخبرت أن معظم كبار الصحفيين لم يكونوا من الذين التحقوا بمدرسة للصحافة ، فقد كانوا من هؤلاء القوم الذين درسوا دراسة جامعية حسنة قبل اشتغالهم بالصحافة ، وتعلموا المهنة فى خلال ممارسة العمل فيها ، وهذه هى الطريقة البريطانية فى بلوغ الكفاية المهنية ، وهى تبدو مقنعة ، ولم يكن عندى مانع من الحصول على درجة جامعية مقبولة قبل الاجترار على ممارسة الصحافة .

وبطبيعة الحال كان هناك سبب آخر هام ، وهو أن القانون كان يعانى من عرقلة الاشتباه السياسى ، وكان وصف السير فيليب للهند وميل المحامين بها إلى الاشتغال بالسياسة جزء من هذا الاشتباه الاستعمارى الكلى بالمهنة ، وكانت المهنة القانونية تعتبر مهنة المهيجين السياسيين .

وأثار إعجابى بدفاع د . ن . بريت فى محاكمة جوموكينيا تا بكانجوريا اهتمام نيول من موقف أفضل مشابه ، وقد كان بريت بوصفه محاميا يدافع عن كينيا تا خطبيا سياسيا من بعض الوجوه يثير مشكلات جدل سياسى فى العملية السياسية نفسها . وشعور نيول بأن اتباع هذا المنهج فى اعداد الكلام فى قاعة المحكمة غير مناسب للأحوال فى افريقية كان له جذور عميقة فى الاشتباه الاستعمارى جميعه بأن هناك علاقة بين السياسة والقانون .

والأمر الذى لم يدرك هو أن الطريق الآخر الذى رسم لى كان يمكن أن يؤدى بى بطريقة أكثر مباشرة إلى دراسة السياسة .

وهكذا تركت ممباسا في سنة ١٩٥٥ في طريقى أولا الى كلية هدرز فيلد الفنية في يوركشاير ، وهناك كان المفروض أن أحصل على شهادة عامة في التربية من مستوى عال استعدادا للالتحاق بالجامعة وكنت أحتاج الى أقل نصيب من موضوعين في مستوى عال ، ولكنى قررت أن أستغل هاتين السنتين في استعادة قوى العنوية . ورغبة في الاستعداد للدراسة للحصول على الشهادة بالمدرسة للمرحلة الثالثة شعرت بأن على أن أثبت لنفسى أننى أستطيع أن أحصل على أكثر من الحد الأدنى لمستلزمات الالتحاق بالجامعة ، ولذلك اخترت خمسة موضوعات في المستوى العالى بدلا من موضوعى الحد الأدنى ، وأضفت موضوعين من المستوى العادى ، وقد كان ذلك اختصارا فرضته على نفسى . وأخذتجاهى الى العلوم الاجتماعية صورته في اختباري للموضوعات ، وتناولت التاريخ الاقتصادى بوصفه متميزا عن التاريخ ، وتناولت كذلك التاريخ والجغرافيا والأدب الانجليزى ، وكان الموضوع الخامس يكون مبادئ تنزيهى السابق في العلم السياسى ، وكان هو النظام الدستورى البريطانى .

### سياسات التدرج :

ولم يلاحظ مستشار المستعمرات الخاص بطلبة كينيا في لندن من قرب الموضوعات المعنية التى اختارها الطلبة تحت مظلة دبلومة خاصة أو درجة ولذلك مضيت في دراسة مجموعة لم يكن اتجاهها خالصا نحو الموضوعات التى تدرس في مدارس كينيا . وبعد أن اجتزت الامتحانات ذهبت الى جامعة منشستر حيث اتجهت في هدوء الى التركيز على العلم السياسى باعتباره نظاما ، وكنت أضيف الى ذلك تلقى سلسلة دراسات في الفلسفة السياسية والأخلاقية . وفي ذلك الوقت تبلور اهتمامى بالسياسات الكبرى في افريقية تبلورا تاما ، وغدت المتحدث فى انجلترا عن القضايا الافريقية للأنظمة المائلة لاتحادات الطلبة وأندية الروتارى وانفصول السادسة في المدارس البريطانية . وكان المقصود من الدرجة التى أحصل عليها فى جامعة منشستر كما ارتأت حكومة كينيا أن تكون درجة عامة ، ومن أجل هذا تماما استطعت أن أجمع بين دراسات متجهة الى الإحاطة بالسياسات دون أن أثير اشتباه مستشار الطلبة الكينيين فى لندن .

ولكن كان هناك أمر واحد يشغل بالى ، فالحصول على درجة عامة بطريقة عادية يفتح أبوابا قليلة لدراسات سياسية تالية ، والحصول على درجة عامة بامتياز هو الذى يتيح لي الفرصة لتدريب مهني في العلم السياسى ، فهل أستطيع الحصول على

هذا الامتياز ؟ وكان هذا أول ما يشغل بالي خلال النصف الثاني من سير دراستي في منشستر ، وعودتي الخوف من التراجع الذي سبق أن جربته حينما هبطت من المستوى الذي كان يعدني به تفوقى الميكرو الى شهادة مدرسية من الدرجة الثالثة .  
وحيثما كنت فى جامعة منشستر قررت أن حصولى على درجة أقل من درجة البكالوريوس بامتياز سيكون معناه تكرار حصولى على شهادة الدرجة الثالثة المدرسية .  
وكان تفكيرى بهذه الطريقة مبالغه فى الغرور ، ولكن مستقبل تدريبي بوصفى طالبا متخصصا فى دراسة السياسة كان يتطلب هذا المستوى من غرور انطموح .

وعملت على أن أبحث عن أى ترابط انجازات من الدرجة الأولى فى الدراسات المختلفة للحصول على درجة البكالوريوس يمكن أن يمنحني هذا الامتياز ، وشرعت فى العمل لبلوغ هذا المستوى من الانجاز بغير استعوار ، وانما حقيقة بشعور شديد بالنفس . ولم أشأ أن أشق طريقى للحصول على امتياز بأقل عدد ممكن من النقاط فحسب ، وانما تطلعت الى أن أحصل على امتياز حاسم . وعدم القدرة على دراسة القانون وما صادفنى من خيبة الأمل فى سير حياتى السابق تعاوننا فى تخفيف تقديرأتى لما يكون الامتياز المهنى فى النهاية .

وانتظرت مصيرى باهتمام بعد أداء الامتحانات النهائية ، وظهرت النتائج أخيرا ، فهل نجحت ؟ نعم ، وهل حصلت على الامتياز ؟ نعم ، ولكن ماذا كانت حدود امتيازى ؟ لقد كانت بضعف الحد الأدنى اللازم للدرجة الأولى .

وكانت السنة التامعة بعد الستين هى سنة حصولى على درجة البكالوريوس فى الفنون مع تركيز على السياسة . وكانت السنة التاسعة بعد الستين كذلك سنة عقد المؤتمر الدستورى فى لندن الذى منح بلادى فى خاتمة المطاف نظاما صار به الافريقيون أقوى نفوذا من السكان انبيض . وكان لا يزال أمام تحقيق الاستقلال الكامل بضع سنوات ، ولكن سيطرة المستوطنين القوية كسرت حداثها أخيرا .

وحيثما خالطت السياسيين الكينيين فى لندن عند ما كانت المناقشات الخاصة بهذا الوضع الجديد فى تاريخ بلادى محتمة كنت أكثر ثقة مما كنت فى أى وقت آخر بأننى أريد أن أتغلغل فى دراسة السياسة ، وبخاصة فى محاولة فهم افريقية السياسة ، وعلم السياسة الذى تلقيت دروسه فى انجلترا لم يتناول الشؤون الافريقية على الاطلاق ، وكان أول تعرضى للدراسات الافريقية المنظمة فى جامعة من

الجامعات في جامعة كولومبيا حيث كنت أعمل للحصول على درجة تالية ، ولكن درجة  
البيكالوريوس التي حصلت عليها من جامعة مانشستر قد كونت مصيرى .

وكنت أستطيع أن أجمع بين الصحافى وعملى بوصفى عالما سياسيا ، وكان يمكن  
أن ترك القانون نهائيا ، ولكن الاشتغال بالمسائل العامة ودراسة الأحوال انعامة يمكن  
أن يظلا جزءا من الحياة التي اخترت أن أحيها .

واتجاهات والدى القديمة فى المناقشات والمجادلات ، واشتغاله القديم بالاصلاح  
الاجتماعى ، ونشأته طفلا فى ميمسا وزنزيار ، والدور الذى قمت به بوصفى مشرفا  
محدود السلطة فى جماعة محددة بمعهد ميمسا للتعليم الاسلامى ، كل ذلك بدأ  
يضيف الى نمط من النمو العقلى ، وهناك فى مدينة منشستر الكثيرة السحب ولد  
اخيرا عالم سياسى .

مرن . سرينيقاس

رحلات عالم

أنثروبولوجى هندي

انى لمعنى فى هذا المقال الموجز بان اروى كيف اصبحت عالما بالاجتماع ، وكيف تقدمت فى هذا النهج ، وقد ادخلت فى المقال حياتى الشخصية والمنزلية بمقدار مايتصل ذلك بفهم حياتى العملية . وكذلك لم اناقش فيه النصيب الذى أسهمت به فى الجانب «الفنى» الخالص ، وانما قصرت همى على وصف اوجه نشاطى انا المنظم للدراسات الاجتماعية فى جامعتين هندية وفي غيرها ، بل لقد وجدت ذلك عسيرا لانه لم يكن لى مناص من أن اتخلص من محذورين : محذور الاثرة ، ومحذور التواضع فى غير محله . واذا كانت الاثرة مبتذلة فان التواضع فيه غبن .

وانى لأدين بمسيرتى فى علم الاجتماع الى وهن صحتى فى طور صباى وطور مراهقتى . فقد أفسدت دراستى الثانوية ودراستى السابقة للجامعة ملاريا مزمنة كانت تنطلق من حين الى حين فى نوبات من المرض ترتفع فيها درجة حرارتى فلا تهبط الا بابتلاع كميات من الكينا . كنت هزىلا ، ووزنى أقل من المعدل على نحو بالغ ، وكان من رأى أقربائى وأصدقاء أسرتى أننى أوهن من أن أتحمل منهجا دراسيا شاقا مثل الطب أو الهندسة . وقد وفقت توفيقا معقولا فى امتحان اجازة اتمام الدراسة الثانوية ( ١٩٣١ ) ، وهو الامتحان الذى كانت تجربته جامعة ميسور ، وكان فى امكاني



## ترجمة : إبراهيم زكي خورشيد

مدير عام الثقافة ورئيس مجلس ادارة الدار المصرية للتأليف والنشر سابقا ، ويقوم الآن بتدريس الترجمة بمعهد الترجمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة . له في ميدان الترجمة نشاط كبير ، فقد ترجم وراجع (١) فصولا كثيرة من تاريخ العالم الذي أصدرته وزارة التربية والتعليم ، (٢) طائفة من مسرحيات شكسبير أصدرتها الجامعة العربية ، (٣) كما ترجم وحقق أطلس التاريخ الاسلامي لهاوارد (٤) ومن مترجماته الأخرى رواية روديد لسير جينيف ، والقوازي لتولستوى ، وأسميات قرب قرية ليميانكا لجوبول، وسوار من عقيق لكوبرين ، والمأوى يبعث حيا لإدنامجوير، والانتصار على الشدائد لرونالد آدمز ، وقصة الجنس البشري لفانلون ، (٥) راجع قاموس النهضة (الانجليزية العربية) بالاشتراك مع المرحوم محمد بدران ، (٦) يتولى الآن ترجمة وإصدار دائرة المعارف الاسلامية تباعا مع آخرين .



أن أختار منهج الدراسة للاجازه المتوسطة في العلوم ، ومدتها سنتان ، شأنى شأن معظم من حصلوا على درجات عالية . والحق انه قد اقترح صديق أو قريب أن أتخذ الكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان مواد اختيارية ، لأن ذلك يمكننى من الاتجاه الى دراسة الطب ، ولكن أخى الأكبر نقض ذلك وطلب منى أن استبدل بهذه الدراسة التاريخ الحديث والرياضيات . وقد حقق لى هذا ، بطريق الصدفة ، أن أبقى فى موطنى مدينة ميسور بين الأسرة التى ولدت فيها حتى حصلت على درجة البكالوريوس فى الآداب ، على حين كان الأمر يقتضىنى أن أشخص الى بنجالور اذا كنت قد اخترت المواد العلمية . ولو كنت قد تركت لشأنى لكننت قد تركت الرياضيات ، ولكن أخى الأكبر رأى أنها ضرورية لحياتى العملية فى المستقبل .

ويجب أن أذكر فى هذا المقام أننى كنت أرتاع من الرياضيات ، كنت لا أحسنها ، ولو أننى كنت أعرف أن كثيرا من متاعبى نشأ من عجزى عن رؤية ما كان يكتب على السبورة ، فقد كنت قصير النظر الى حد بعيد ، وظلت هذه حالى فلم أعالج من ذلك حتى بلغت الصف الأول لدرجة البكالوريوس فى الآداب مع مرتبة الشرف فى الفلسفة الاجتماعية فى كلية المهاراجا سنة ١٩٣٣/١٩٣٤ . وكنت مشتركا فى مناظرة ، واذا

أخي الأكبر الذي كان بين الحضور يلاحظ أنني كنت ممسكا بمذكرتي على بعد يوصات من عيني ، وفي صبيحة اليوم التالي أرسلت الى طبيب العيون ، فوجد أن درجة ابصارى - ٥٤ في كل عين .

ولما لم أكن أرى ما يكتب على السبورة فاني لم أستطع أن أتابع منهج الرياضيات، ولم أستطع أن أستدرك ما فاتني في الصف . ولكن كان لأخي الأكبر محاضرات في الرياضيات في محيط أصدقائه الواسع ، فتحدث معهم في ذلك ، وانتهى الأمر بأنني كنت ألتقى من حين الى حين دروسا مجانية . وبالرغم من هذا العون فان كل ما بذلته من محاولة هو أن أجمع من الدرجات ما يكفي لنجاحي في امتحان الاجازة المتوسطة ( سنة ١٩٣٣ ) بدرجة مقبول وحسب .

وكان هذا آخر معاناة لي مع الرياضيات ، وأحسست بشعور من الراحة العميقة لأن مستقبلى سوف يبرأ من هذه القصة .

## - ٢ -

وواضح مما ذكرت آنفا أن أخي الأكبر هو الذي اتخذ كل القرارات الكبرى فيما يتعلق بحياتي الدراسية حتى بلغت فعلا أخريات العقد الثالث من عمري . ولقد توفي والدي في نوفمبر سنة ١٩٣٤ ، ولكن القرارات الخاصة المتعلقة بتعليمي وحياتي العملية وغير ذلك من المسائل الهامة كانت توكل لأخي الأكبر ، حتى في حياة أبي ، لأن أخي كان هو الشخص المتعلم في الأسرة ، ذلك أنه كان يحمل درجة الأستاذية في الأدب الانكليزي ، وكان يدرس في مدرسة المهرجا الثانوية بميسور ثم درس بعد الانكليزية في جامعة ميسور . كان هذا الأخ قد تأثر بشيخه الروحي المحدث ، فأنكر كثيرا من القيم والأفكار التي كان يدين بها براحة هذا العصر المحتفظين بالمنصب البرهمي ، بل لقد أبى أن يتزوج بحجة أن ذلك قد يعوق انقطاعه الى رعاية صلاح أسرته . والحق أن هذا الفعل منه كان قرارا شاذا أنكر عليه ، ولكن أكسبه احترام أقربائه واحترام كثيرين غيرهم .

وقد جرت أُمي على مقارنته في بعض الأحيان بشخصية بهشما الملحمية ، ذلك الرجل الذي أقسم أن يظل عزبا حتى يضمن لابناء زوجة أبيه الحق في اعتلاء العرش بحكم تسلسل النسب .

وحصول أخي الأكبر على درجة الأستاذية في الآداب ورفضه الزواج جعلاه بالفعل رأس أسرتنا الكبيرة . وبلغ من سلطانه الأدبي أنه لم يخطر ببالنا أن نناقشه في قراراته . وكان أبي بفطرتة رجلا هادئ الطبع ، قليل الحظ من التعليم ، وربما أحس من ثم أن اتخاذ قرارات بشأن أبنائه الصغار وبناته الصغيرات أمر فوق طاقته في حضور ابنه الأكبر المتعلم . على أنه كان من أكبر أمانيه أن يتخرج أبنائوه وبناته في جامعة أو كلية .

ونجحت فى امتحان اجازة الدراسة المتوسطة بدرجة مقبول ، فكان لابد من اتخاذ قرار فى شأن المنهج الذى يقتضينى الأمر ان أنتهجه للحصول على درجة البكالوريوس . وقد تدخل القدر فى شخص آكاريا ، وكان صديقا لآخى الأكبر ، وكان ماركسيا متمردا وسال آخى آكاريا عن المنهج الذى يجب اختياره ، فراح يقلب صفحات دليل الجامعة ، وادلى بحكمه قائلا ان منهج البكالوريوس مع مرتبة الشرف منهج «متفتح» يهذب النفوس ، وهو يصلح لى . فأرسلت بطلبى مختارا هذا المنهج ، فقبلت دون مشقة . وكان المنهج لا يلقى اقبالا كثيرا ، والحق أننى علمت فيما بعد ان محاضرا او محاضرين فى قسم الفلسفة كانا يحاولان ان يجمعا الطلبة النابهين ، ولم يستطيعا ان يتصيذا غير طالب واحد من الطراز الأول ، اذ وقعا على شاب ضاحك السن مشرق الطبع الفى هذا المنهج كثيبا كآبة لا توصف .

وكان ثمة نوعان من مناهج درجة البكالوريوس فى الآداب بجامعة ميسور سنة ١٩٣٠ : منهج «درجة مقبول» ومدته سنتان ، وقد خصص لتلك الأعداد الكبيرة من الطلبة الذين يرغبون فى الحصول على درجة علمية فى أقصر وقت ممكن ، ومنهج آخر «لدرجة الشرف» ، ومدته ثلاث سنوات ، وقد خصص للقلة المختارة من الطلبة الذين ينتظر منهم أن يتخصصوا فى مادة بعينها . وكان عدد الطلبة خمسة فى زميرتى الرغبة فى الحصول على درجة الشرف فى الفلسفة الاجتماعية ، على حين كان عدد الملتحقين بمنهج درجة «مقبول» قرابة ١٢٠ طالبا .

وكان المنهج الذى اخترته منهجا طموحا يشتمل على دراسات فى علم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، والفكر السياسى ، وتاريخ الأخلاق ، والدين المقارن ، والنظم الاجتماعية الهندية ، وعلم الأخلاق عند الهنود ، والنظرية السياسية الهندية . وكانت المواد «الفرعية» التى تلقى فى آخر السنة الثانية تشتمل : علم الانثروبولوجيا ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم السياسة المقارن ، والاقتصاد الهندى .

وكان الأستاذ ر . ر . واديا الذى رأس قسم الفلسفة من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٤٢ ، هو الذى خطط هذا المنهج ، وكان أكثر اهتماما بعلم الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، والفكر السياسى ، والخفمة الاجتماعية ، منه بعلم ما وراء الطبيعة المحال . وقد أظهر واديا خيالا وشجاعة وهو يدخل علم الاجتماع ، وعلم الانسان الاجتماعى ، وعلم النفس الاجتماعى وعلم السياسة فى منهج عن الفلسفة ، وانى لآتوقع أن يكون قد لقي فى ذلك تشجيعا من الدكتور براجندراناث سيل ، وهو من نواب مدير جامعة ميسور المتمازين . وسيل عالم لوزعى متفغن فى علوم جملة درس «علم الاجتماع المقارن» فى جامعة كلكتا فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى .

وقد أثبتت جامعة ميسور فى ظل قيادة واديا أنها من الجامعات الرائدة فى ادخال علم الاجتماع فى منهج الفصول الدراسية لطلبة الجامعات . وليس هذا الفضل بالأمر اليسير ، ذلك أن الجو الأكاديمى المعاصر فى الهند كان ينظر بعين الشك الى اتخاذ علم الاجتماع منهجا للدراسة ، فقد كان رجال الجامعات الهنود الذين تعلموا

بالمجامع الانجليزية يتعاملون تحامل أساذتهم على نظم قارة أوروبا وأمريكا وأفكارهما ، ولم يتناقص التحامل على علم الاجتماع الا تدريجا فى غضون السنوات التالية للاستقلال ، ولسنا بظان الصواب اذا قلنا ان هذا التحامل لم يكن قد تلاشى بعد كلية . وافتتاح رجال الجامعات انفتاحا متزايدا تزايدا كبيرا على الجامعات الأمريكية فى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة عامل هام أسهم فى الشيوع الحديث لعلم الاجتماع . وثمة عامل آخر هو الادراك المتأخر لعجز التناول الاقتصادى الخالص عن تحقيق التقسم .

لقد كان فى فصلى خمسة من الطلبة بما فىهم أنا ، ولم يكن ثمة مناحى من أن تتوثق علاقتنا بأساذتنا ، وكنت أصغر خمسة ، وكان الكثير من علم الأخلاق والفكر السياسى والدين المقارن فوق ادراكى ، ولكننى وجدت علم الاجتماع والنظم الاجتماعية وعلم الانثروبولوجيا علوما مشوقة .

### - ٣ -

وينبغى لى هنا أن اتناول البروفسور واديا بتعليق موجز ، لقد كان رجلا يروعك منظره كثيرا ، حسن البزة دائما فى ستره من الحرير ، وسراويل بيضاء من الكتان الخشن ، وحذاء أسود ، وقميص مخطط ، ورباط عنق . وكان شأن معظم البارسيين اشقر البشرة . وكان شعره المفروق من الوسط يكتنف وجهه المستدير وكان شاربه دقيقا قصيرا خشنا ، ويضع على عينيه نظارة ذات اطار ذهبى مزركش . وهو فى منظره أقرب الى المأمير أصحاب السلطان منه الى العالم . واثق أن فيه شيئا من أمارات السلطان ، كما أن زملاءه وطلبته الذين كان ينعم باحترامهم وتقديرهم ، لم يكونوا يحسون الارتياح التام حياله . كان المتمسكين بالنظام لايفتخر بسهولة الهفوات التى تخرج على القواعد . ولكن الجميع كانوا يعرفون أنه لا يفرض على الآخرين المعايير والقواعد التى لا يراعها هو نفسه . وكان يحاضر دائما فى ردائه الجامعى ، ولا يأتى الى الفصل دون تحضير . وكان يبذل جهدا للتعرف على طلبته بما فىهم الطلبة المعدلون فى فصل البكالوريوس فى الآداب ، كانوا جميعا يدعون الى الشاى ، فى مجموعات من ثمانية أو عشرة من الطلاب ، عشية امتحانهم النهائى . وكان يعدد أيضا الى كل منهم بكتابة مقال يترجم فيه لحياته فيودعه محفوظاته ، وكان حقا من الذين يلتقطون المواهب ، ويبذل أقصى جهده فى تشجيع الطلبة الموهوبين . وكان أكرم ما يكون فى تقدير كفايات طلبته ، وهى صفة انضح لى أنها أندر مما كنت اظن .

وكانت صلاتى به حسنة معظم الوقت الا فى مناسبة واحدة : ظننت فيها أننى انخرط فى محسنات لفظية لا موجب لها بدلا من الادلاء بصحجى بقدر ما أستطيع من بساطة .

ولست أنسى أنه جازانى على ذلك فمنحتنى درجة « ب » بدلا من « أ » . وكذلك كان ماديا صادقا مع نفسه حين أسف من قلبه عندما فقدت الدرجة الأولى فى امتحان

مرتبة الشرف الأخير بفارق قليل ، وأبى أن يمنحني درجات «المجاملة» اللازمة شأن غيره من رؤساء الأقسام ، فقد كان يريد منى أن أحصل على الدرجات بكفاءتي لا بشاعري الود التي كان يكتنها لى . واحسست الألم وقتذاك ولكننى أرى الآن أنه تصرف التصرف السليم .

لقد كانت الطريقة التي تأثرت بها حياتي العملية بفضل واديا أولا ثم بتدخل الدكتور ف . ك . ر . ف رאו عجيبة حقاً . فبينما كان واديا هو السبب في احضاري الى بارودا (والهند) فان تركي بارودا الى دلهي في مارس سنة ١٩٦٩ كان بالمح من الدكتور رאו الذي كان وقتذاك نائباً لمدير جامعة دلهي . ونزحت من دلهي الى بنجالور في مايو سنة ١٩٧٢ لتتولى بالمشاركة ادارة معهد التفسير الاجتماعي والاقتصادي ، وكان ذلك أيضاً نتيجة لتدخل الدكتور راو .

وأعود الى الكلام عن واديا فأقول انه كان في سبتمبر سنة ١٩٤٣ في لجنة اختيار عهد اليها باختيار محاضرين في قسم علم الاجتماع بومباي . ومثلت أمام اللجنة ، وكنت في قائمة المرشحين ، ولكن اختر اثنان غيري لأنهما كانا أقدم منى . وقد شجعتني واديا وراذا كرشنان في الجهود التي بذلتها للشخص الى أوكسفورد بعد أن أتممت عملي في بومباي . ثم أن واديا كان مسئولاً أيضاً عن عودتي الى الهند أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة بارودا الجديدة ، التي كان يتولى وظيفة النائب الأول لمديرها وبناء على اقتراح واديا كتب راذا كرشنان الى السيدة هانسا مهتا نائبة المدير موصياً بي .

وقد ترك واديا بارودا في يونيه سنة ١٩٥٢ ، بعد سنة واحدة من التحاقى بالجامعة ، واستقر في مسقط رأسه بومباي ، وانخرط بنشاط في المسائل الأكاديمية والمسائل العامة ، الى ما قبل وفاته سنة ١٩٧١ بسنة واحدة أو نحوها . وكنا قد ظللنا على اتصال أحياناً بالآخر حتى سنة ١٩٧٠ ، وهناك تركت دلهي لتتولى الزمالة في مركز الدراسة العليا في علوم السلوك بستانفورد .

وفاء واديا أن أخلفه في ادارة معهد تاتا للعلوم الاجتماعية ، ولكننى لم أر أن لدى من المؤهلات ما يسمح لي برياسة معهد متخصص في الخطة الاجتماعية ، وقد أدرك واديا وجهة نظري ولم يستحني على ذلك .

## - ٤ -

جرت امتحان البكالوريوس في الآداب مع مرتبة الشرف في صيف سنة ١٩٣٦ ، وكانت نتيجة الامتحان كما ذكرت مغيبة لأمل خيبة احسست حيالها بالمرارة ، ولكنني إذ أردت بصري للوراء أدرك أن التقدير كانت رحيمة بي حين حرمتني من مرتبة الشرف الأولى التي جاهدت في سبيلها ، في حين أنني متأكد الآن من أنني لم أكن أستحقها ( كنت ممتهناً غيباً غاية الغباوة لا أعرف أوليات التحضير لدخول

امتحان . فقد كنت احسب ان الأمر يقتضي أن أقرأ قراءة واعية كل شيء مقرر . في حين أن جميع طلبة مرتبة الشرف الأولى في موضوعات الآداب يركزون على موضوعات بعينها ، بل مسائل ، ولكن المغامرة لم تكن من طبيعتي . على أنني أصبحت مدركا لما ينقصني أنا المتقدم للامتحان بعد أن انتهيت من دخول الامتحانات بوقت طويل فحسب ) . ولو أنني حصلت على مرتبة الشرف الأولى لكنت قد ظفرت بوظيفة التدريس في جامعة ميسور ، واني لوقن أن ذلك كان خليفا بأن يضع حدا لتقدمي من حيث أنا عالم بعلم الاجتماع . ذلك أن جملة من زملائي أنصح صفحة مني بكثير في سجل دراستهم الجامعية تولوا مناصب تدريس في جامعة ميسور في العقد الرابع من هذا القرن . ولكنهم أصبحوا محرومين مضيقين حين وجدوا أن الترقيات في الجامعة وفي غيرها من مناصب الولاية تقوم على اعتبارات من قبيل الطائفة والقرابة لا على الكفاءة . فالبراهمة بصفة خاصة كانوا موضع تحامل من غيرهم على أساس أنهم كانوا طائفة ممتازة تاريخيا ، وظلوا حتى العقد الثاني من هذا القرن ينعمون باحتكار وئبق لمناصب الحكومة . وقد استحدث بعد ذلك مبدأ تخصيص حصص للطوائف في وظائف الحكومة واحتجاز هذه الوظائف لها في العقد الثاني . وفي سنة ١٩٣٦ ، وهي السنة التي تخرجت فيها ، أصبح لا يسمح للبراهمة إلا بالتقدم لوظيفة واحدة من كل خمس وظائف يعطى عنها .

وقد نجتني المرتبة الثانية التي حصلت عليها من حضور امتحان ميسور للخدمة المدنية الذي كان مزعما عقده بعد فترة طويلة ، وكان من المقرر أن يختار اثنان من مساعدي الوكلاء بالصلاحيات على أساس ما اديا في الامتحان ، وكان كل خريج يأنس من نفسه الكفاية للوظيفة أو يأنس والداه فيه أنه كفؤ لها ينالها . وكنت أعلم أن فرصتي قليلة أو معدومة في الالتحاق بالخدمة المدنية في ميسور ، ذلك أن بعض معارفي من الطلبة المقتدرين كل القدرة الذين هم أسن مني كانوا يتنافسون على ذلك . ثم أنني كنت مجهدا جدا بعد ثلاث سنوات أمضيتها في العمل الدائب للأعداد لامتحان مرتبة الشرف حتى لقد كرهت فكرة مواجهة امتحان آخر تشتد فيه المنافسة . وثمة اعتبار غير ذلك مهم هو أن أخي الأكبر كان يرفض التحاقى بخدمة الحكومة إلا في وظيفة مدرس . ورحبت باقتراحه أن أشخص إلى بومباي للتحضير للدرجة الماجستير في الآداب في علم الاجتماع ، وأن أعمل علاوة على ذلك في التحضير للدرجة في القانون مساء .

وكان ج . س غوريه هو أستاذ علم الاجتماع في بومباي ورئيس هذا القسم ، كما كان أحد معتمني في درجة البكالوريوس في الآداب . وقد اتفق أنني حصلت على ٦٦٪ من الدرجات في أسئلة علم الاجتماع التي وضعها وقدر درجاتها . وقدرودني واديا برسائل توصية إلى غوريه ، وإلى الدكتور ن . ا . ثوهي مساعد الأستاذ في قسم الاجتماع ، ثم أن الأستاذ م . ه . كرشنا الذي درس لنا علم الانسان الاجتماعي كان متحمسا في رغبته أن أعمل في رعاية غوريه ، فقد كان غوريه في نظره خير علماء الاجتماع في الهند .

وكانت مدرسة الاقتصاد والاجتماع الجامعية في بومباي شيئا فريدا في الحياة الأكاديمية في الهند في العقد الرابع وكانت تشمل قسمين : الاقتصاد ، والاجتماع ، وكان أول أستاذ للاجتماع ورئيس القسم هو عالم الأحياء ومنحط المدن البارز السير باتريك جدرس . وكان القسمان جميعا للخريجين وللأبحاث . وفي سنة ١٩٣٦ كان ثمة منهج للدرجة الماجستير يجمع بين الاقتصاد والاجتماع ، وكان رئيس قسم الاجتماع الدكتور سي.ن. فاكل هو مدير المدرسة أيضا . وكان يحضر دروس الماجستير حوالي ثلاثين طالبا . وكان ثمة أكثر من عشرين طالبا يدرسون للدرجة اندكتوراه في الفلسفة ، وكان لمعظمهم وظائف كل الوقت أو بعض الوقت . وكانت هذه أياما لاتعرف منحها للتخضير للدرجة الدكتوراه .

وبالنظر الى حصولي على مرتبة الشرف الثانية في علم الاجتماع اقترح غوريه أن أقدم رسالة للدرجة الماجستير بدلا من كتابة أبحاث في نهاية السنتين اللتين حضرت فيهما المحاضرات . وقد اخترت موضوعا لرسالتى هو « الزواج والأسرة بين طوائف الكنادا في ولاية ميسور » ، وأتممت رسالتى قبل نهاية عام ١٩٣٨ ، وطبعت سنة ١٩٤٢ بعنوان « الزواج والأسرة في ميسور » ( بومباي ، شركة الكتاب الجديد ) . وقد عرض هذا الكتاب عرضا مرضيا في المجلات المتخصصة بما فيها مجلة تينشر . على أننى حين كنت أرد بصري الى الوراء يبدو لى الكتاب غير ناضج ويبدو أسلوبه فجأ ، وقد سررت حين نفذت طبعته في العقد السادس .



لقد أثر غوريه تأثيرا هاما في حياتى العملية ، ولذلك فانى أقدم هنا فكرة مختصرة عنه رجلا وعالما .

كان غوريه طالبا يدرس السنسكريتية حتى حصل على درجة الأستاذية وحظى بالمداولة الذهبية لمدير الجامعة التى كانت مطمح الطلبة سنة ١٩١٨ لقاء تميزه في امتحان درجة الأستاذية . ولم يتعرض غوريه لعلم الاجتماع الا بعد ذلك حين حضر محاضرات جدرس في الجامعة . وكان لطول باع جدرس في التدريس الفضل في أنه استطاع ان يكتشف ماينطوى عليه غوريه من قدرات في ميدان علم الاجتماع . وخاصة أن طلبة السنسكريتية في الجامعات الهندية كانوا يعيشون في عالم خاص بهم بعيدا كل البعد عن عالم غيرهم . وقضى غوريه سنة يدرس على جدرس ، ثم اختبر للدراسات العليا في جامعة لندن في رعاية هوبهوس الذى كان أستاذا لكرسى مارتن هوايت في علم الاجتماع .

وترك غوريه لندن الى كمبردج بعد ستة أشهر لأنه وجد العلامة هوبهوس كشيئا لا يوحى بالنشاط والتقدم . وتأثر في جامعة كمبردج بكل من هادون وريفرز ، ونما في قلبه اعجاب عارم بريفرز ، وقد رأى غوريه في وفاة ريفرز المبكرة سنة ١٩٢٢ اثر أصابته بفتق مختنق مأساة أصابت علم الانثروبولوجيا بل نكبة نزلت به هو .

وقد تأثر غوريه في تناوله لمشاكل علم الانسان بريفرز ، كما تأثرت اهتماماته به ايضا . ووضع غوريه أسس كتاب من أهم كتبه هو « الطائفية والجنس في الهند » في الدراسات المدنية التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة في موضوع « النظرية السلافية للطائفية » . وكان اهتمام غوريه بالقرابة وبالمشاكل السلافية الخالصة ( مثل اتجاه صلة الرحم في الهند ) راجعا الى دراسته في كمبردج . واستطيع أن أضيف هنا أن غوريه قد جمع في برده على نحو مثير النظر السلافية والنظرة الهندية ، وهو جمع قد أهله له تأهيلا بارزا دراسته السنسكريتية السابقة . على أنه لم يقف عند هذا الحد . ذلك أنه اضطلع مثلا بدراسة العادات الجنسية للكتابة في بومباي ، ونشر نقدا لكنسي فيما بعد .

والظاهر أن غوريه كان واقعا تماما تحت السيطرة العقلية لريفرز حتى في الفترة التي عرفته فيها ، أي ما بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٤٤ ، بل لقد دافع عن انتصار ريفرز ، هو واليوت سميث وبيري ، للنظرية القائلة بارجاع ظواهر ثقافية هامة ، مثل تحنيط الموتى في أرجاء من العالم تفصل بعضها عن البعض آماد شاسعة ، الى أصل مصري . وقد حملته حبه لاستاذة على التصرف تصرفا خشنا مع مالىنوسكى الذى انتقد أسلوب ريفرز الجبرى في دراسة القرابة . فعلى حين كان غوريه لا يقدر مغزى الثورة الوظيفية في علم الانسان الاجتماعى فانه عد رادكلف برون « قائلا أصيلا بالمذهب الوظيفي » على العكس من مالىنوسكى . واني لأشك في أن بعض السبب في ذلك يرجع الى أن رادكلف برون كان تلميذا لريفرز .

ومن الدروس الباقية التي تعلمها غوريه في كمبردج الصلة التي لا تنفصم بين علم الانسان الاجتماعى ( الانثروبولوجيا ) والسنة التي درج عليها البحث الميدانى . وبينما نجد غوريه نفسه لم ينهض باى بحث ميدانى جاد قط ، نجده قد أسهم أكثر من أى أستاذ آخر في اقامة علم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا في الهند على أساس سليم من البحث الميدانى . فمن كرسية في جامعة بومباي أشرف اشراف رجل واحد على مسح سلال للهند ، وهو عمل نهض به من غير أن يستند على موارد مالية أو قل انه استند على موارد قليلة ، وكان الأسلوب الذى اصطنعه لذلك طريفا . ذلك أن بومباي بحكم أنها أشد مدن الهند اختلاطا بالسكان من مختلف الأجناس قد أتاحت لغوريه طلبية ماجستير ودكتوراه في الفلسفة قدموا من مختلف الأقطار ومختلف البيئات الاقتصادية ، فشحهم حيثما كان ذلك ممكنا على اتخاذ المشاكل القائمة في أقطارهم موضوعا لرسائلهم التي يتقدمون بها لنيل درجة الماجستير والدكتوراه . وكان معنى ذلك أن يستقصوا الكتب الموجودة باللغة الانكليزية واللغة المحلية طلبا للمعلومات ، وأن يستوفوا ذلك بالبحث الميدانى . وبهذه الطريقة حاول غوريه أن يحصل على رسائل علمية في موضوعات من قبيل « الثقافة الهندوسية في السند » و « المسلمون في أوتار براديش » و « الهاريجانية في بومباي » و « البرابوية والكولية في مهاراسترا » .



وقد قام طلبة غوريه أيضا بأبحاث فى القرية ، ولكن هذه الدراسات كانت أشبه بالدراسات التى قام بها الاقتصاديون الزراعيون منها بالدراسات المركزة التى قام بها علماء علم الانسان فى العقد السادس .

وشجع غوريه أولئك الطلبة الذين كانوا قد درسوا السنسكريتية على وصف وتحليل الحياة الاجتماعية والثقافية فى الهند القديمة . ومن ثم كتب ل . م . كباديا عن « القرابة الهندوسية » ، وكتب س . ف . كرنديكار عن « زواج الهندوس من غير جنسهم » ، وأفادت السيدة كارف من علمها بالسنسكريتية ، كما أفادت مما قامت به من بحث ميدانى ، فكتبت كتابها الرائع « نظام القرابة فى الهند » .

كنت قد بلغت التاسعة عشرة عندما لقيت غوريه ، ولا شك أننى بدوت له ساذجا فجا وقد امتلأ عقلى بأفكار لم أهضمها جيدا استقيتھما من الكتب التى قرأتھا . على أننى كنت متحمسا للدراسة وطالبا من طلبته القلائل المتفرغين . وكان أول ماعهد به الى أن أتناول بعض نقدي كتاب هوبوس « الأخلاق فى تطورها » ، وهو كتاب وجدته كثيبا كآبة فريدة . ولست أدري هل قمت بهذا العرض أم لا ، وما رأى غوريه فيه ان كنت قد قمت به . على أننى موثق أننى لم أغضبه فى هذا الصدد ، ذلك أنه سمح لى بأن أتقدم برسالة لنيل الماجستير بدلا من الطريقة المألوفة القاضية بكتابة بحوث . وقد كنت أعلم أن اعداد رسالة يعنى لى فرصة لإظهار قدراتى أحسن من الدخول فى امتحان . ولم يكن ثمة حد مانع فى حالة تقديم الرسالة ، ثم انه لم يكن مفروضا على أن ادخل فى منافسة مع ثلاثين طالبا آخر ، وهوما كنت خليقا أن افعله لو أننى اخترت تقديم أبحاث .

وأثناء السنة الجامعية ١٩٣٦/١٩٣٧ قضيت من وقتى فى التحضير لامتحان القانون الأول أكثر مما قضيت فى علم الاجتماع ، وانصرفت الى علم الاجتماع بتخصيص سنة ١٩٣٧/١٩٣٨ كلها للتحضير للدرجة الأستاذية ، فرحت أقرا المجلات المألوفة ، وتقارير التعداد ، والمجلدات المكتوبة عن قبائل ميسور وطوائفها ، وأدب كتاده الشعبى ، بل الروايات . وطبعت أسئلة على نفقتى ، وقمت بدراسة ميدانية لمدة قصيرة فى قريتي . ولقيت رهبانا وغيرهم ممن تؤهلهم مراكزهم لتزويدى بالمعلومات عن العادات والطقوس .

وقد حدث قبل بضعة أشهر من تجهزى لتقديم رسالتى أن أخبرنى غوريه بأن بعض التغيرات وشيكة فى الجامعة ، وأنه يجب على أن أعدل قيد اسمى من درجة الماجستير الى درجة الدكتوراه . ولكنه أبلغنى بعد أيام قلائل أنه أعاد النظر فى الأمر وهو يطلب منى أن أمضى فى التحضير للدرجة الأستاذية . وتبينت السبب فى ذلك بعد برهة . ذلك أن الجامعة أنشأت منحتين دراسيتين للبحث ودرجة مساعد للبحث فى كل من القسمين . وقد منحت منحة دراسية فى يونية ١٩٤٠ للقيام بدراسة ميدانية للكورجية فى جنوبى الهند . وكان غوريه قد قرأ عن الكورجية فى كتاب

رختر « رسالة في الكورج » ، وكان قد فتن بمظهرهم المتميز ، ولباسهم ، وثقافتهم  
النزعة للقتال ، وأضرحة أجدادهم ، وقد أراد منى أن أدرس هؤلاء القوم لنيل درجة  
الدكتوراه في الفلسفة ، ففعلت .

## - ٦ -

وعلى حين كانت الدراسة الميدانية للكورجية في جبالهم الشجرية محببة الى نفسى  
فقد أقلقنى أننى كنت قد غلوت راوية للعادات ولم أصبح رجلا يضع النظريات عن  
المجتمع كما كنت أريد . وينبغى لى أن أوضح هنا أنه كان لى وقتذاك أصدقاء قليلون  
وانهم كانوا من الغاندين المثاليين الذين ليست لهم أية مشاركة معى فى اهتماماتى  
المتصلة بعلم الانسان .

ولم يكن لانفصالاتى أى معنى فى نظرم ، كما أنهم لم يتصوروا أن دراساتهم  
ستؤدى بى الى وظيفة عالية المرتب . وقد أزعجنى ذلك كله إزعاجا ليس بالقليل ،  
وظننت أنه ينبغى لى أن أختار موضوعا نظريا لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة . فمضيت  
الى الأستاذ م . هيريانا الذى كان عميقا فى فهمه للفلسفة الهندية ، وسألته : هل فى  
وسع شخص ليس له علم بالسنسكريتية أن يعد دراسة عن كيفية قيام العلاقة بين  
الفرد والمجتمع فى الفكر الهندى . وقال هيريانا اننى أستطيع أن أقوم بمثل هذه  
الدراسة . ولكن هذه الحطة وثلت فى مهدها على يد غوريه ، فقد أخبرنى أنه ليس  
من المنظور أن أنال منحة دراسية اذا اخترت موضوعا لا يتضمن دراسة ميدانية ،  
ذلك أن غوريه كان ينظر نظرة سوداء الى تطلى الى النظريات .

وكننت أحس بالمرارة وقتذاك من غوريه ، ولكنه لا يسمى ، حين ارد بصرى الى  
الماضى ، الا أن أشكره على استمساكه بأن لا يسمح بالمنحة الدراسية الا لمن يقوم  
 بدراسة ميدانية . ذلك أن الدراسة الميدانية كانت أساسية لتطور علم الاجتماع فى  
الهند ، وانى لأذكر ، بمنأى تام عن ذلك ، أن غوريه قال لى ان المرء لا يستطيع أن  
يفهم « شبكة الروابط الاجتماعية » الا بالخبرة التى يحصلها من الدراسة الميدانية .  
وقد ازداد عندى شأن هذا التعليق زيادة كبرى اذ صدر من عالم ضليع .

وقد كان غوريه يكذب فى اعداد محاضراته ، ولكنى وجدتها جامدة مكررة . على  
أنه كان ، على العكس من ذلك ، مثيرا فى حديثه غير الرسمى ، فقد كان يتحدث عن  
كل شيء بما فى ذلك الجنس ، وكان صريحا متحررا ، وقد جريت على أن أهبط الى  
غرفته كلما ساورنى شك أو اعترضتنى صعوبة ، وكان غوريه لا يبخل بوقته ( كنت  
أحس أحيانا أنه كان يرحب بمن يقتحم نفسه عليه ) . وكثيرا ما كانت المناقشة  
تخرج عن الموضوع خروجا ، وكان ذلك يزودنى بفكرة عن الانسان الذى ينطوى عليه  
هذا العالم . ولم يكن ثمة شك فى تكريسه نفسه للتدريس والبحث . ولكنه كان قد  
اتخذ قرارا فى كثير من المسائل فلا يتحول عنها أو يروم .

ولم تبلغ دراستى الميدانية للكورجية من العمق والاستقصاء ما كنت أحب ، ذلك أنه حدث ، فى غضون أسابيع قليلة من رحلتى الأولى الى مراكاز عاصمة الكورجية، ان أصبت باضطراب شديد فى المعدة ظل بلا تشخيص عدة أسابيع ، وقد اكتشفت أنه لا شفاء منه وأنه لا مناص لى أن أعيش بهذه العلة . ومن ثم لم أجد مناصا من أن أجمع معلوماتى فى رحلات قصيرة عابرة . ولكننى حاولت آخر الأمر أن أجمع قدرا معينا من المعلومات عرضته فى دراسة من مجلدين استغرقا قرابة ٩٠٠ صفحة ، وصدرتا فى ديسمبر ١٩٤٤ حين ودعت بومباى ، التى كنت قد بدأت أحبها ، وشخصت الى ميسور .

وانتهت منحتى الدراسية فى يونية ١٩٤٢ ، وسرعان ما عينت مساعدا للبحث فى القسم ، وظللت أتولى هذا المنصب حتى يونية ١٩٤٤ . وكانت واجبات منصبى الجسدي تقتضىنى أن أساعد غوريه فى أبحاثه بما فى ذلك القيام بجولات لجمع المعلومات . على أنه قد سمح لى أن أنشر باسمى جزءا من المعلومات التى جمعتها فى جولتى ، وكان هذا الجزء عن الأدب الشعبى . وقد ذهبت وأنا مساعد بحث فى جولتين ميدانيتين ، أحدهما الى « تاميل نادو » سنة ١٩٤٢ ، والأخرى الى « أندھرا » سنة ١٩٤٣ ، واستطعت بفضل معرفتى العابرة بالمنطقتين جميعا - وهما تاميل وتلوجو - أن أنجز مهمتى فيهما على نحو معقول . واتسح أفق معرفتى بالسلالات نتيجة للجولتى .

وبدأت صلاتى بغوريه تتأزم سنة ١٩٤٣ ، وظل هذا حالى عدة سنوات ، ولكننى لن أدخل فى تفاصيل ذلك هنا ، وحسبى أن أعترف بما له من دين فى عنقى ، إذ غرس فى نفسى الأهمية البالغة للدراسة الميدانية فى علم الاجتماع ، وجنيتى ركوب مركب النظريات والتفكر المحلق ، وشجعنى على أن أضع نصب عيني دائما « الحقيقة السلالية » . ولقد تعلمت من عملى معه بعض المنهج العقلى الذى كنت فى أشد الحاجة اليه . أما من الناحية السلبية فإن الثمانى السنوات ونيفا التى قضيتها فى المران على يديه قد خلقت عندى شعورا بعدم الرضا . فقد كنت بدأت بالتطلع الى أن أصبح صاحب نظريات فى المجتمع ، وانتهيت بأن غدوت مؤرخا يخمن وجامعا حريصا للوقائع السلالية دون أن أستطيع أن أوحدها فى إطار له معنى .

#### لقد نصب اهتمامى بالأفكار .

أما من الناحية المادية فقد كان موقفى موقفا لا أحسد عليه أيضا . كنت قد حصلت على درجة الماجستير وعلى درجة البكالوريوس فى القانون ، وقدمت رسالتى لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة ، ولكن لم تلج لى أية وظيفة ، وأسوأ من هذا أنه لم يكن فى الأفق أى منصب فى الاجتماع . وقد اقترح صديق خير للأسرة أن ألتحق بمصلحة التموين وقت الحرب ، وهى مصلحة فى حكومة الهند ، ولكن هذا الاقتراح لم يرق لأخى الأكبر ولا لى ، وهنالك فكرت فى أن أتابع دراساتى فى الخارج . ولكن الاعتمادات المرصودة للدراسات العليا فى الخارج كانت نادرة كل الندرة فى تلك

الأيام ، ولم تغلق كل الجهود التي بذلتها للحصول على منحة دراسية . ولكن أخى الأكبر كان كريسا ، وكذلك كان أخ لى آخر هو ج . فقد منحنى ٦٠٠٠ روبية تقريبا ، وكفانى هذا المبلغ للانتقال الى انجلترا وسد نفقات اقامتى فيها للثلاثة الأشهر أو الأربعة الأولى .

## - ٧ -

قدمت طلبا للالتحاق بمنهج الدكتوراه فى الفلسفة بجامعة أوكسفورد وجامعة كولومبيا ، ولكنى لم ألتق ردا الا من جامعة أوكسفورد ، وقد قبلتنى هذه الجامعة للالتحاق بمنهج البكالوريوس فى الآداب من الدرجة الأولى مع السماح لى بالتحول لى درجة الدكتوراه فى الفلسفة فيما بعد بأثر رجعى . وطلب منى أن أقدم موضوعا لومساتى ، فاخترت شيئا من قبيل « نماذج ثقافية بين ثلاثة مجتمعات هندية سلافية هى الكورجية ، والتوداوية والجنجوية » . وكان الأستاذ داريل فورد يتوب عن الأستاذ رادكلف برون الذى كان غائبا فى البرازيل يقوم بدراسة ميدانية .

وصلت الى أوكسفورد فى ١١ مايو سنة ١٩٤٥ ، أى بعد شهر بالضبط من مغادرتى بومباي ، فوجدت أن رادكلف برون قد عاد من البرازيل . وكانت لقاءاتى الأولى معه أبعد ما تكون عن التوفيق لا تتم عن العلاقات الودية التى نشأت بينه وبينى فيما بعد .

وكانت نظارتى قد تلفت تلفا شديدا فى لعبة الأطواق على ظهر السفينة قبل نزولى الى البر يوم أو يومين . فقد أطاح بها ارتداد سريع قمت به فتحطمت عدسة من عدستها وكسرت الأخرى كسرا شديدا . ولم يكن قد طاف بذهنى أن أحمل معى نظارة أخرى احتياطية ، وكان بصرى من القصر بحيث لا يفلح معى أن أستخدم عدسة واحدة . ولم أدرك كيف كان منظرى يبدو عجيبا لكل امرئ وأنا أتجول فى السفينة بهذه الهيئة . ولا شك أن منظرى بدأ أعجب حين نزلت الى البر فى تلبورى رجلا أسود فى بلد من البيض يسير بعدسة مكسورة . وقد لقيت مدير أكستر الدكتور باربر الصارم المنظر النظيف اللباس لا تملوه غبرة . بعد وصولى الى الكلية مباشرة ، فسألنى من فوره الذهاب الى أقرب طبيب للميون . وقال لى الطبيب أنه يحتاج الى أسبوعين على الأقل ليزودنى بنظارة جديدة .

وقد مثلت بين يدى رادكلف برون بعد أن زرت طبيب العيون مباشرة ، فتفحصنى متمهلا من خلال منظاره ذى العين الواحدة . وأحسست بجلافتى وحماقتى قائلا لنفسى يا ليتنى أمسكت عن لعبة الأطواق على ظهر السفينة .

ولم أكن أعلم أنه قد حدث قبل ذلك بوقت ما أن طالبا هندية من طلاب علم الانسان قد أزعج السير سوى للحياة الأكاديمية فى أوكسفورد بنشاطه السياسى . ولم يكن هذا الطالب لامعا ، بل كان معتديا ، ألقى أساتذته وغيرهم ممن كانوا

يرعونه . وكان الطلبة الهنود في تلك الايام ، ومعظمهم من امر غنية ، سمة بالتطرف السياسي ، ولم يكن ذلك يجبرهم الى البريطانيين الذين يتكون بهم .

ولعل رادكلف برون قد ظن أنني أنا أيضا يمكن أن أكون مصدرا للمتاعب ، وكان مظهرى لا يمكن أن يخفف من قلقه .

وكانت هذه الاعتبارات السطحية تنطوى على سبب آخر هام يحمل رادكلف برون على أن يكن من أول الأمر شعورا لا يدعو الى الرضا . وكان رادكلف سبيء الرأى فى فكرة روث بندكت ، فان لكل ثقافة نموذجا ، وهذه النماذج يمكن تصنيفها ( فيقال مثلا : النموذج الأبولوني والنموذج الديونيزي ) . ومثل هذا التصنيف له أثر عميق فى مسلك أهل هذه الثقافة . ويرى رادكليف برون أن روث قد اختارت حقائق تناسب نظريتها وتجاهلت الحقائق التى لا تتماشى معها ، ثم ان نظريتها كانت بصرف النظر عن ذلك مضادة للنظرة « العلمية » .

كان رادكلف برون من المستمسكين بالفلسفة الوضعية ، قد آمن بأن علم الاجتماع كان علما كعلم الأحياء أو غيره من العلوم الطبيعية ، وأن سلوك الإنسان الاجتماعى تحكمه قوانين كلية من شأن عالم الاجتماع أن يكتشفها بالمقارنة المنهجية بين النظم التى تسير عليها المجتمعات المختلفة . ثم ان نظرة رادكلف برون التركيبية قد أدت الى الحط من شأن الثقافة بل استبعادها . ويمكن أن نرد الأصل فى مروق رادكلف برون الى ولهم دلتى الفيلسوف الألمانى ، وكان رادكلف برون ذا نفع قليل لدلتى وأضرابه .

وكانت مشابهة رادكلف برون لعلماء الاجتماع الفرنسيين فى المزاج بارزة بروز مفاصمته لعلماء الاجتماع الألمان . وعلى حين نجده لا يستطيع أن يحاضر دون أن يشير الى دوركهايم ، وموسى ، وهوبرت ، ولوازى ، وليفى برول ، وجرانيه ، فانه قلما يذكر ماركس أو فبر . وكان عالم الاجتماع الألمانى الوحيد الذى يذكره ، ويذكره باحترام هو سمل .

ولعل عداوة رادكلف برون للمفكرين الألمان ترتبط بحوادث معنية فى حياته الشخصية ، ولكنى لن أغوص فيها هنا . وحسبى أن أقول اننى على حين علمت بعدم موافقة رادكلف على موضوع بحثى بعد أن أصبحت طالبا من طلبته ، فانى لم أكتشف عاة عدم موافقته وعمق ذلك الا رويدا رويدا .

وحضرت محاضرات رادكلف فى الجزء الباقي من الفترة الدراسية الصيفية ، وانى لأذكر اننى قاطعت محاضرة له فى مناسبة من المناسبات لأسوق تفسيراً شبه تاريخى لظاهرة كان رادكلف قد اقترح لها من قبل تفسيراً وطيفياً . ولا شك أن هذه المقاطعة قد أثارت اعصاب رجل قضى حياته وهو يشن حملة عقائدية على « التاريخ الذى يقوم على التخمين » .

وعلى حين لم يوافق رادكلف برون على موضوع بحثي فانه لم يحاول أن يقنعني بتغييره ، بل طلب مني أن أقرأ كتباً قليلة منها «ناقن» لبيتسون و «الجنس والزواج في ثلاثة مجتمعات بدائية» لمغربيت ميد ، وأن أحضر محاضراته وحلقات درسه . وقد طلب مني ، قبل أن يرحل الى موطنه الجبلي في ويلز ليقضى العطلة الطويلة ، أن أكتب بحثاً عن فكرة «النماذج الثقافية» خلال الصيف . وعملت بجهد في ذلك الصيف ، ورحت أقرأ كل ما وجدته عن «النماذج الثقافية» ، وكنت قد أعددت دراسة مطولة لأقدمها لرادكلف برون حين عاد الى أوكسفورد في أوائل الفترة الدراسية لعيد القديس ميخائيل . وقضى رادكلف بضعة أيام ليقرأ بحثي ، وكنت بطبيعة الحال قلقاً حريصاً على معرفة أثره في نفسه . وفي هذه الأثناء ألم بأسرتي حادث محزن غير منتظر . فبلغ انشغالي منتهاه . ولكن بالي ارتاح كل الراحة حين أخبرني رادكلف أن بحثي قد أراضاه ، وأني أستطيع أن أمضي في موضوعي .

ولا شك أن هذه كانت لحظة انتصاري ، ولكنني فوجئت بنفسى أقول لرادكلف أنني مدمت قد فزت في هذا البحث فاني أود أن أعلم رايه .حقاً في الموضوع الذي ينبغي لي أن أعده لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة . فرد رادكلف بأنه سوف يكون مضيقاً لوقتني وملكاتني أن أمضي في اعداد موضوع «النماذج الثقافية» ، وأنه يجب أن أحاول بدلا من ذلك أن أدرس العلاقة بين الدين والمجتمع عند الكورجية في جنوبي الهند . والحق أن رادكلف كان يقرأ مخطوطي الضخم ، فوجد أنه يضم مادة كثيرة عن الدين . وقال لي انه كتب في انكليزية جيدة جداً ، وعجب كيف استطاع الهنود الذين لم يقدروا شواطئ وطنهم قط أن يملكو ناصية لغة صعبة غريبة عليهم .

وسألني : ترى هل درست على مدرسين من الانكليز ؟ فاجبت بأنني درست الانجليزية في مدرسة قريبة من موطني على يد مدرسين غير مؤهلين تأهيلاً كافياً . والحق أنني لم أدرس هذه اللغة قط بل التقتتها وأنا ماض في سبيل .

واني لأحسب أن الفرض الذي توخاه رادكلف من اقتراحه على أن أحلل المادة الخاصة بالدين في رسالتي عن الكورجية من وجهة نظر الفلسفة الوظيفية هي أن يرشدني بوجه من الوجوه ، كي لا أنسى جدوى هذه النظرة بالقياس الى عمق النظرة التي اصطنعتها . وكانت الفكرة جذابة ، بل فيها تحد ، ولكنني كنت أخشى غاية الخشية أن يطلب مني أن أزور الكورجية مرة أخرى ، وكان آخر شيء أستطيع أن أفكر فيه وقتذاك هو التمتع بالحاصلة من رحلة أخرى للبحث الميداني . زد على ذلك أنني كنت قد مدت كثيراً في أجل حياتي الدراسية ، وكنت راغباً في أن أحصل على وظيفة ، وأن أبدأ في تزويد أسرتي بالمال بدلا من استنفاد مواردهم الناصبة . وقد أكد لي رادكلف أن المادة التي في رسالتي كافية لرسالة الدكتوراه في الفلسفة ، وقد تسبلحت بهذا التوكيد ، فمضيت في سبيل قداما .

وحدث في يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٤٥ أن علمت أن ج ، أخى الذي كان يمول دراسته في أوكسفورد ، قد قضى نحيبه بالالتهاب الرئوي . ولو تجاوزت عن

حزنى الشخصى لفقد واحد كان وثيق القربى بى ، فقد طفى على ما انطوى عليه هذا الحادث من ارتباطات مالية . وكان الأثر المباشر للحادث فى نفسى هو أن أركب أول سفينة الى وطنى ، ولكن الحصول على مكان فى سفينة فى تلك الأيام كان أمرا عسيرا . وأصبحت بانسا كل البؤس أسابيع قلائل ابتسم لى الحظ فى آخرها فحصلت على منحة من منح كارنيجى للبحث ( للطلبة القادمين من أعلى البحار ) قدرها ٣٠٠ جنيه استرلينى مع احتمال تجدها سنة أخرى . وقد حدث ذلك على النحو الآتى : لفت نظرى صديق هندى ، بعد سماعى خبر وفاة أخى بأيام قلائل ، الى اعلان فى صحيفة أوكسفورد جازيت يدعو الطلبة القادمين من أعلى البحار للتقدم بطلبات لنيل منح كاريجى للبحث . وبادرت بارسال طلب ، ومثلت بين يدى السير همفرى ملفورد بعد ذلك ببضعة أيام . ولا أظن أن اجابتنى فى هذا اللقاء كانت بارعة ، وعجبت حقا حين نلت المنحة . ولكنى علمت أيضا أن رادكلف برون كان قد كتب خطابا بشائى . ويحق لى أن أضيف هنا أن منحتى رفعت الى ٤٠٠ جنيه استرلينى عن سنة ١٩٤٧/١٩٤٦ .

أما وقد تخلصت من المتاعب المالية فقد استطعت أن أصرف كل وقتى فى اعداد رسالتى . ووجدت أن كتابات : دوركايم و رادكلف برون . وايفانز بريشارد . وجريجورى بيتسون ، مثيرة ، وبمضى الوقت أصبحت مقتنعا لمذهب الوظيفية على طريقة رادكلف برون . وخامرنى شعور باننى وجدت أخيرا أطارا نظريا مرضيا . ولكننى كنت متعصبا شأن كل من يدخلون فى مذهب جديد . وكبحت جماح تشككى الطبيعى ، وهو من الزاد القليل الحقيقى الذى كان لى ، لأتقبل عقائده مثل انتفاء التاريخ فى التفسير الاجتماعى ، وعدم أهمية الثقافة ، ووجود القوانين الكلية .

وكنت حين أنظر الى المادة التى حصلتها من وجهة نظر الفلسفة الوظيفية . أجد أنها تندرج فى نموذج . ولم تمد المعلومات مفقودة الصلات منبثة النظام . وكانت المستويات المختلفة للحقيقة ملحوظة بوضوح شأنها شأن الصلات بينها .

وكنت اذا رددت بصرى الى الوراء أجد أن من نقائص ، تحليلى قولى بأن كل شيء كان محكم الارتباط لا يترك مجالا لأطراف سائبة . وينبئ لى أيضا أن أضيف أن المعلومات كانت شحيحة بالنسبة للتحليل الذى أقوم به .

وكانت سنة ١٩٤٥/١٩٤٦ آخر سنوات رادكلف برون فى أوكسفورد ، وقد التحق عدد قليل من الطلبة الجدد بالمعهد فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، ولكن الفصل كان أصغر من أن يتيح قيام صلة شخصية بين الأستاذ والطالب . وقد التحق الدكتور ماير فورس بالمعهد محاضرا بعد ابتداء الفترة الدراسية ببعض الوقت . وكان قد تخصص فى موضوع القرابة ، ووجدت أن محاضراته وحلقات درسه مثيرة .

وقبل أن يغادر رادكلف برون أوكسفورد فى نهاية الفترة الدراسية بكلية ترينيتى سنة ١٩٤٦ كنت قد أتممت فصلين طويلين عسيرين عن « القواعد الخاصة

بـ'الطقوس عند الكورجية' ، وبدأت أدرس عقيدة النسب الأبوى ( أو الأوكا كما كانت تسمى ) . وقد أثر رادكلف برون هذين الفصلين ، وكانت فكرته عنها حسنة جدا حقا ، حتى انه كتب كلمة كريمة فى حقى لحلفه الأستاذ ( وهو الآن يحمل لقب سير ) ايفانز بريتشارد . وجعل انتقالى فى الدراسة الى ايفانز بريتشارد أيسر .

## - ٨ -

وكان أسلوب ايفانز بريتشارد مباينا لأسلوب رادكلف برون كل المباشرة ، ذلك أنه لم يكن يرضيه فيما يظهر أن يحاضر أو يراس حلقات البحث ، بل كان ينطلق على سجيته فى جمع صغير من الطلبة والزملاء والأصدقاء ، وعندئذ يتحرر من قيود المحاضرة المقررة أو حلقة البحث المرسومة . وقد جرت الحال على أن تجتمع حلقة صغيرة من طلبته ، ومعهم فى بعض الأحيان واحدا أن اثنين غيرهم ، فى أحد المشارب هنا أو هناك بالقرب من معهد علم الانثروبولوجيا ، أو فى داره على تل هدينجتون يتناقشوا فى هذا العلم أو فى أى شيء آخر وهم يحتسون أكواب البيرة .

وقد تعرفت على ايفانز بريتشارد الانسان والعالم فى الاجتماعات التى كانت أن ينفق الكثير من وقته فى سبيل طلبته وفى فترة كان فيها كثير الإبداع الى حد عجيب .

وقد أوتى ايفانز بريتشارد موهبة اقامة الصلوات مع اشخاص من مختلف الثقافات ، وكان بعض ذلك على الأقل يرجع الى تقبله الذى يكاد يكون مفلورا عليه لكل البشر على حد سواء بالرغم من الفوارق الجنسية والدينية . كان فى أعماقه انكليزيا محافظا ، ولكنه كان محافظا من نوع عجيب . فهو يستطيع أن يضع نفسه فى موضع الرجل الأسود والرجل من النوير الخارج عن حدود البشر والزعيم السنوسى المشاغب ، وقد وجدت أن التفاهم مع ايفانز بريتشارد أيسر من التفاهم مع غيره من العلماء البيض الذين عرف بعضهم بالتعاطف مع الهند ومع قضايا اليساريين بصفة عامة .

ولعل الراحة التى كنت أحس بها فى الاتصال بايفانز بريتشارد كما يرجع بعضها على الأقل الى تحول ايفانز الى الكاثوليكية فى وقت من الاوقات أثناء الحرب ، وقد كان موضوع رسالتى لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة موضوعا دينيا ، ولم يكن من الميسور أن تتجاهل فى مناقشاتنا مسائل الايمان والعقيدة . فقد تحدثنا عن الهندوسية والكاثوليكية والاسلام ، ولم تكن محادثاتنا تؤتى ثمرتها عقليا فحسب ، بل كانت أيضا تزيد من فهم كل منا للآخر .

ولا شك أن ايفانز بريتشارد كان كاثوليكييا راسخا ، ولكنه كان أيضا ينطوى على شية عميقة من التشكك ، وقد يبدو هذا أمرا متناقضا ولكنه كان صحيحا . وكان بريتشارد يميز بين ما يكمن فى الفكرة من قوة تحليلية وبين قيمها الحقيقية . وقد



أثبتت الوظيفية أنها مفيدة جدا في علم الانثروبولوجيا ، على أن هذا لا يعنى بالضرورة أن المجتمعات هي في الواقع كليات مترابطة فيما بينها .

لقد كان تشكك ايفانز خلافا .

وكان تأكيد ايفانز أن علم الانثروبولوجيا كان علما خلقيا وليس علما طبيعيا ، وأن طرائقه قريبة من طرائق التاريخ ، انكارا لموقف رادكلف برون الأساسي ، وقد عبر ايفانز عن هذه الأفكار في محاضرة ماريت المشهورة التي ألقاها سنة ١٩٥٠ ، وأثارت نقاشا حادا .

واني لا أحسب أن ايفانز قد أدى خدمة لعلم الانسان « بثورته » ، ذلك أن علماء الاجتماع لم يكتشفوا حتى الآن أية «قوانين عامة» ، كما أن استبعاد رادكلف برون للتاريخ على اعتبار أنه لا صلة له بالتفسير الاجتماعي على تفاوت في ذلك ، لا يمكن التسليم به . زد على ذلك أن الفهم الاجتماعي هو والتفسير الاجتماعي مشابهان للفهم التاريخي والتفسير التاريخي ، مع استثناء أن عالم الاجتماع يجمع معلوماته من الملاحظة المباشرة ، في حين أن المؤرخ يعتمد على ملاحظات غيره من الناس وتفسيراتهم . وكما أن العالم «البداي» أو «السابق للتعليم» يتضائل حيال التقنية الحديثة . وينصرف العلماء بعلم الانسان شيئا فشيئا الى دراسة الحضارات القديمة والمجتمعات الغريبة ، فان أفكار ايفانز بريتشارد تصبح متصلة اتصالا متزايدا بهذه التفسيرات .

على أنني لم أكن راضيا عن بعض الآثار الجانبية لأفكار ايفانز . فقد كان فيها حط من قيمة ماحققة علم الانثروبولوجيا الحديثة وتقاليده البحث الميداني التي أقامتها أجيال من علماء الانثروبولوجيا . فيفضل طرائقهم وأفكارهم استطاع هؤلاء العلماء أن يقيموا كيانا من النظريات عن النظم الأساسية التي من قبيل الأسرة ، والنسب ، والطائفة ، والطبقة ، والدين ، أجل كيانا لا يمكن تجاهله .

بل انا لنجد عددا قليلا من المعجبين الأكثر من غيرهم تحمسا لايفانز بريتشارد قد أبرزوا الفكرة القائلة بأنه ما دام عالم الانثروبولوجيا يختار وقائعه ويفسرها فان الباحث الميداني أهم كثيرا من الميدان . واني لأقدم هنا هذا الرأي في صراحة وفجاجة بالتفتين من غير مقتضيات الصنعة التي تلازم في العادة عرضه ، ولكنني لا أشك في أن ما ذكرت هو في النهاية المعنى المقصود . وهذا الرأي أسخف من أن يستحق نقضا ، كما أنه أيضا لا ينصف ايفانز بريتشارد الذي هو من أعظم الباحثين الميدانيين ، يشهد بذلك كل من قرأ كتابه « مهابط السحر والعرافة بين الأزائد » أو « ثالوث النور » .

وكان من الآثار الجانبية أيضا لهذا الموقف الدأب على الحط من شأن رادكلف برون مفكرا ورجلا . وانما نسي أنصار صلة البعد التاريخي بالاجتماع بكل بساطة أنهم كانوا عقليا يقفون على أكتاف الرجل الذي كانوا يحطون من قدره ، ذلك أنهم عجزوا عن أن يضعوا أنفسهم في مكان رادكلف برون وينظروا الى علم الانثروبولوجيا

كما بدا له فى الوقت الذى بلغ فيه مكانة لها نفوذها ( أليس هذا هو ما أوصى به كولنجوود فى ترجمته الذاتية ؟ ) . لقد أنكر رادكلف برون انتشار التنوع البدائى الذى انتهى إليه شيخه ريفرز فى أيامه الأخيرة ، وحاول أن يوجه علم الانثروبولوجيا البريطانى وجهة جديدة ، أى نحو علم الانثروبولوجيا الفرنسى ، وكان هذا أيضا ما حاوله مالىنوسكى وهو عالم بريطانى عظيم آخر بعلم الانثروبولوجيا .

وقد منحت درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى يولييه سنة ١٩٤٧ ، وقبل أن أبحر الى وطنى أخبرنى ايفانز بريتشارد انه يحاول أن ينشئ لى درجة محاضر فى علم الاجتماع الهندى فى أوكسفورد ، وتسأل أيروق لى ذلك ؟ وابتهجت بطبيعة الحال ، ولو أننى فى حالة الميرة التى كنت فيها لم أستطع أن أبين له مشاعرى . وقد سمعت منه ، بعد ذلك فى شهر نوفمبر ، أننى قد عينت ، وأننى أستطيع أن أقضى السنة الأولى من عملى هذا فى القيام بدراسة لقرية فى ميسور تتعدد فيها الطوائف ، وهو مشروع كان ايفانز يعلم أننى كنت أرغب كثيرا أن أنهض به .

قضيت خير جزء من سنة ١٩٤٨ فى بحث ميدانى لرامبورة ، وهى قرية على مسيرة اثنين وعشرين ميلا من ميسور . ولسوف أروى قصة بحثى فى رامبورة فى كتاب أوشكت أن أتمه وهو « القرية المذكورة » .

وسأتجاوز عن بحثى الميدانى وأشير فى اختصار الى المدة الثانية التى قضيتها فى ذلك المكان الأكاديمى القديم الآمن : أوكسفورد . وكان العيب الملقى على كاهلى فى التدريس خفيفا ، يقتصر على ثمان وأربعين محاضرة فى السنة ، نصفها حلقات بحث فى علم الاجتماع الهندى . وهذا العيب الخفيف قد مكن المدرس من أن يحاول أن يرتفع الى المستوى العلمى الرفيع الذى تنتظره أوكسفورد ممن نفى عليهم منحة دراسية . وكانت العطلات الطويلة فرصة ذهبية للدراسة المستقصية والكتابة ، وقد مكنتنى ذلك من اعداد رسالتى عن كورج للطبع قبل أن أودع أوكسفورد فى يونيه سنة ١٩٥١ . وكان لى أصدقاء أوفياء قلائل أشعرتنى صداقتهم بأننى فى وطنى ، وقد نعمت بدفء هذه الصداقة . ولكننى كنت أشعر تحت هذا الرداء البادى من الرضا بحنين الى شمس الهند ودفتها . ثم اننى أدركت أيضا أننى ان لم أبلل محاولة انتزع بها نفسى من أوكسفورد قبل أن يفوت الوقت لكنت خليقا فيما يرجع أن لا أعود الى وطنى .

وقد ألقفتنى طوال عام ١٩٥٠ رغبة ملحة فى العودة الى وطنى . وكان ذلك هو الوقت الذى تنشأ فيه جامعات جديدة وتقام كراسى جديدة فى علم الاجتماع . وكانت بارودة احدى هذه الجامعات ، كما كان واديا هو النائب الأول لمدير هذه الجامعة . وصفاة القول أننى عينت أستاذًا فى بارودة ، وطلب منى بنص العبارة : « أن أقدم نفسى للعمل فى ١٥ يونيه ١٩٥١ » .

وكنت قد جعلت ايفانز بريتشارد على علم برغبتى وخططى ، وقد وافقنى على

رأى أن أوجع الى بلدى • على أنه قد تملكنتى جميع ألوان الشكوك والمخاوف بعد أن حرقت مراكبى مع أوكسفورد • ورحلت أتمشى وقد انتابنى شعور بأننى أنتحر حقا انتحارا علميا بتركى أوكسفورد للنضى الى جامعة بدأت تفتح أبوابها وشيكا ، بل فكرت فى الرجوع عن قرارى ، ولكننى لم أجد فى نفسى الشجاعة أن اذكر ذلك لاحد . والحق أننى طوال السنة الأولى التى قضيتها فى بارودة كنت استغرق أحيانا فى لحظات من الهجوم تنتابنى حيال ذلك الضرب من الحياة الأكاديمية الذى اخترته ، بل لقد كانت تراودنى أوهام أننى رددت الى أوكسفورد نتيجة لتحول مفاجئ فى الاحداث . على أننى حين كنت أرتد ببصرى عبر السنين أحس أنه لا يخالجنى أى شك فى أننى أصبت فى ترك أوكسفورد والعودة الى جامعة فى وطنى . وإنما أنا مدرك كل الإدراك أننى لو كنت قد ظللت فى أوكسفورد لأصبحت عالما أكثر جدا ، ولكتبت كتباً وبحوثاً أكثر ، لكننى على يقين أيضا من أننى كنت خليقا أن أعانى فقرا عاطفيا وروحيا قمينا بأن يؤثر فى عملى ويؤثر فى صلاتى بأولئك الذين اتصلت بهم • والعلاقات الانسانية الاجتماعية هى مادة التحليل الذى يقوم به عالم الانثروبولوجيا ، كما أن اغتراب المرء عن مجتمعه وثقافته لابد أن يكون له عواقب على أحاسيسه وتفسيراته • وليس فى هذا تجاهل للأفضال العظيمة التى للمنفين والمبعدين والذين يعيشون على هامش المجتمعات على العلوم الاجتماعية ، فعلم الاجتماع ليس نتاجا لبؤس الجماعات فحسب ، بل لبؤس الأشخاص أيضا •

وإذا صرفنا النظر عن المسألة الخلافية التى تدور حول ذلك النوع من المساهمة الذى كنت قادرا على أن أشارك به لو أننى ظللت فى أوكسفورد فإنه لا يخامرنى شك فى أننى بعدوتى الى وطنى قد تحققت لى ألوان من الرضا لم تكن لتتحقق لى لو أننى بقيت فى الخارج • ومن أهم هذه الألوان أن عودتى قد ساعدتني على إيجاد فريق صغير من العلماء كلهم تدربوا فى الهند ونشطوا فى البحث والتدريس وراحوا يحاولون أن يطبقوا طرائق علم الانسان الاجتماعى وعلم الاجتماع وأصولها الفنية فى تحليل مشاكل مجتمع عريض متنوع معقد مثل المجتمع الهندى الذى لا يزال أيضا يمر بتغير سريع •

واستطعت أيضا أن أقيم قسمين لعلم الاجتماع ، الأول فى بارودة والثانى فى دلهى • وقد قضيت قرابة ثمانى سنوات فى بارودة ، وأصبح فى نى نهاية هذه المدة فريق صغير ، وإن كان جيذا ، من العلماء ، ورصدت لى مبالغ للمنح الدراسية ولإقامة بناء • ولكن قبل أن يبدأ هذا البناء تركت جامعة بارودة لأتولى الكرسي الجديد لعلم الاجتماع الذى أنشئ فى جامعة دلهى • وقد نما هذا القسم بسرعة ، ولم تمضى إلا مدة قصيرة قدرها عشر سنوات حتى اعترفت به لجنة المنح الدراسية فى الجامعة مركزا للدراسة العليا فى علم الاجتماع • وكان معنى هذا رصد مبالغ لإقامة مبنى جديد ، وهيئة اضافية للتدريس ، وتدعيم المكتبة ، وزيادة فى المنح الدراسية والبحث ، وتيسيرات جديدة ، كوضع مناهج دراسية لتذكير المدرسين بما سبق لهم تحصيله ،

وتدبير منح دراسية للأساتذة الزائرين . وهذا القسم هو الآن أقدر على القيام بدور المركز القومي للتدريس والبحث .

وقد قضيت عشرين عاما من الحياة الأكاديمية في الهند ، ومع ذلك فاني ، حتى بعد هذه المدة ، لم أستطع أن أتعلم على كراهيتي للإدارة واللجان . والحق أنني كلما ازدادت في السن زادت كراهيتي لهما بدلا من أن تنقص ، ولكنني لم أستطع أن أطيح بهما . على أن من الحق أيضا أن أقول انه لولا انخراطي في اللجان بجامعة دلهي وبغيرها لما استطعت أن أقوم بدوري في النهوض بعلم الاجتماع في الجامعة وفي خارجها .

ويجب أن أضيف هنا أنني شاركت مرة في عمل لجنة ، وكانت هذه المشاركة مرضية لي ، وكان المجلس الهندي للبحث في علم الاجتماع لجنة من هذا القبيل ، واني لأشعر بالسعادة إذ أتيت الآن لعلماء الاجتماع الهنود تيسيرات وفرص لم تكن معروفة منذ عقد من الزمان ، ثم انني استطعت وأنا أراس الجمعية الهندية الاجتماعية بين سنتي ١٩٦٦ و ١٩٦٩ ، أن أجمع بين الجمعية الهندية الاجتماعية والمؤتمر الاجتماعي لجميع الهند ، وإزجدهما في هيئة معنية واحدة . وكانت مالية هذه الجمعية تحتاج الى دعم ، وقد تحقق هذا أيضا الى حد ما ، وأعيد تنظيم أمانتها ، وصحيفتها « المجلة الاجتماعية » ، وعدل دستور الجمعية الاجتماعية الهندية لتمكينها من الوفاء باحتياجات الجديدة المتزايدة التي فرضتها عليها زيادة عدد الاعضاء .

ومن الأمور التي دأبت على الالتفات اليها في بارودة وفي دلهي وضغ منهج مناسب في علم الاجتماع . وای منهج يوضح يجب أن يضح في اعتباره الظروف المحلية بما فيها نوع الطلبة الذين يلتحقون به وتخصصات المدرسين واهتماماتهم . على أنني كنت أرغب في أن يكون المنهج متغلغلا في أعماق الظروف الهندية حتى يمكن الطالب من أن يصل بين ما قرأه وبين خبرته ، كما كنت أريد في الوقت نفسه أن يدخل في هذا المنهج بعض المعلومات عن آسيا وإفريقيا للمقارنة والمقابلة . وتوفر لي عدد قليل من المتون للدراسة المتقضية . وبعد سنوات قلائل استطعت أن أدخل في المنهج كتباً تتناول التغير ، ومناهج كاملة عن موضوعات التخصص ، مثل « اجتماعية القرابة » و « علم الاجتماع السياسي » و « علم الاجتماع الديني » .

وقد كتب الى عدة علماء اجتماع وعلماء بعلم الانسان من الهنود الذين كانت لهم مناصب في الخارج ، ويريدون أن يعودوا الى وطنهم ، والمتسوسا منى العون ، واني لأحسب أنني قد أعتنتهم بعض العون ، وتمكنت من أن أدبر للقليل منهم الاستقرار في الهند . وأرضاني ذلك ، لأن عودتهم ساعدتني على أن أعزز هذه المهنة في الهند .

وكذلك كنت أنا رئيس قسم الاجتماع بجامعة دلهي اعاون طلبة من بلاد مختلفة: من الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، وفرنسا ، وألمانيا ، واليابان ، والفلبين .

وأستراليا ؛ أعانهم في القدوم الى الهند للقيام بأبحاث ميدانية في مختلف أرجاء هذا البلد تحضيراً لدراستهم لدرجة الدكتوراه في الفلسفة . بل لقد استطعت في حالات قليلة أن أوجه انتباههم بنجاح الى دراسة مشاكل أو جماعات هامة . وقد اجتنبت ما اكتسبه القسم من شهرة مطردة الطلبة الأجانب الذين يعدون لدرجة الماجستير ودرجة الدكتوراه في الفلسفة ، ولست أبالغ إذا قلت ان جامعة دلهي أصبحت هي المزار الدائم لعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع من جميع أرجاء العالم

وكنت دائماً اعتقد انه على حين يتمتع المواطنون بمزايا معلومة لا تنكر في دراسة مجتمعهم فانهم يعملون أيضاً في ظل مواقف شديدة لا يعترف بوجودها بصفة عامة . ويمكن أن نقص هذه المواقف الى حد ما في بلاد مترامية الأطراف مختلفة الأقاليم كالهند حيث يستطيع الدارسون في اقليم أن يعملوا في اقليم آخر ، وهذا أمر ليس شائعاً كل الشيوع . ومن ثم فإن من الأمور الجوهرية التي تؤدي الى كفاية الدراسات الاجتماعية أن يدرس مجتمع بعينه على يد أناس من ثقافات مختلفة . وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تنقص من عنصر الهوى الشخصي .

وهذه الحقيقة هي والحقيقة الأخرى التي مفادها ان علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا في جميع أنحاء العالم مرتبطون بمصالح وقيم مشتركة معنية قد حملتاني على الاعتقاد بأنهم يكونون فيما بينهم كلية غير بادية للأنظار . ومكانتهم من حيث هم مواطنون من بلاد بعينها لاتنقض بأية حال عضويتهم في هذه الكلية الخافية عن الأنظار . واني لأرى أن من الضروري أن أقرر هذا لأنني أسمح رأياً يتكرر تكراراً متزايداً وهو أن البلاد النامية يجب أن تقيم حواجز تحول دون الاتصال الحر بعلماء الاجتماع في البلاد الراقية حفاظاً على مصالحها الأكاديمية ووحدتها القومية .

ولن أناقش هنا ، كما قلت في بداية المقال ، ما أظن أنه النصيب الذي أسهمت به في تحليل المجتمع الهندي والثقافة الهندية بمعزل عن دورى في تنظيم المنهج والنهوض به . على أنى أود أن أؤكد أنني رفضت أن أفرق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع في التدريس والبحث . وهذا التفريق له أصل في التاريخ السياسي والأكاديمي الغربي ، وليس من المعقول أن يطبق هذا في بلد مثل الهند حيث نعمت القبائل عامة بصورة من صور الاتصال بالجماعات الأكثر منها تقدماً . ذلك أن فريقاً كبيراً من سكان الهند متخلف ، بل أننا لنجد فيما نسميه الدوائر الراقية كثيراً من العقائد والشعائر الخاصة بالجماعات المتخلفة . ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى ان ثمة استمرار في الهند التقليدية بين القبائل والطوائف ، وأية تفرقة مجلوبة من الخارج بين علم الانسان الاجتماعى وبين علم الاجتماع تؤدي بالحقيقة الاجتماعية .

ولقد أكدت أيضاً ، كما هو متوقع ، الأهمية القصوى للتجربة الحاصلة من البحث الميداني في تدريب علماء الاجتماع . ثم ان الملاحظة المشتركة التي نماها مالىنوسكى

قد استغفلت استغلالا كبير الفائدة في فهم المجتمعات المحلية والجماعات السلافية وغيرها ، والمواقف الاجتماعية في المجتمعات المركبة .

والحق أن الملاحظة المشتركة والأساليب الفنية الكمية مقرونة بالدراسات الشاملة يمكن استخدامها بطريقة متكاملة . ومن ثم فإن الدراسات الشاملة تصف سلوك فئات كبيرة وجماعات في مسائل بعينها ، على حين أن الدراسات المحدودة تتيح لنا بصرا بالعلاقات والدوافع في وحدات صغيرة . والدراسات المحدودة ، إذا أحسن استخدامها ، يمكن أن تزودنا بفروض تختبر بالطرائق الشاملة ، على حين أن الطرائق الشاملة تتيح لنا بدورها أنظارا ومشاكل يمكن معالجتها بالدراسات المحدودة الجديدة . وصفا القول أنه يمكن الجمع بين الطريقتين في علاقة متبادلة خلقة .

والدارس وهو يتقدم في حياته الأكاديمية يجد ما يشبط همته اذ يرى أن قدرار متزايدا من وقته ينفق في مسائل مختلفة عن دراساته وبحثه . فمنذ عودتي الى الوطن سنة ١٩٥١ وجدت نفسى ممزقا بين رغبتي متباينتين ، احدهما ان اسهم بما أستطيع من نصيب في اقامة تقليد قومي اجتماعي ، والثانية أن أنصرف الى دراستي الخاصة وبحثي الخاص . واني لأدرك أن الثانية قد عانت من الأولى ، كما أنني قد اتهمت بأننى أصبحت « رجل لجان » . ولست آسف بحال على ما أنفقت من وقت في اللجان ، ولكننى أحسست في السنوات الست أو السبع الأخيرة بحاجة ماسة الى ان أستعصم الى حد ما من ذلك الفيض من الكتب الجديدة وأن أتوفر على استكمال المادة التي جمعتها عن رامبور وأن أتابع بعض الأفكار والتوقعات . وقد خامرني فكرة ، لعلها كانت ساذجة ، هي أنني اذ أنشأت قسم الاجتماع الذي أراسه في جامعة دلهي سببوف يسمح لي بأن أنصرف الى هذا العمل . ولكن ثبت أن ذلك كان وهما من الأوهام . واني لأمل أن يتيح لي انتقالى من دلهي الى بنجالور في الجنوب وقتا أكثر للعمل .

وكانت رحلاتي المختلصة العارضة الى الخارج مميّنة لي على التخفيف من الشعور بتلك الأمية الأكاديمية التي كنت أعاني منها ( ولم أزل ) . وينبغي لي أن لا أغفل عن أن أذكر هنا رحلتي الطويلتين الى مركز الدراسات العالية في علوم السلوك (١٩٦٤/ ١٩٦٥ و ١٩٧٠ / ١٩٧١ ) ، حيث استطعت أن أنتشل نفسى من جميع مشاغل الرتبة في العمل وأنخرط في الدراسة والبحث . والحق أن هذا المركز هو الماوى الذي يحلم

به العلماء ، وقد آنست غى العاملين به كرما لا ينقضى ، واحتراما وعونا مبدولا  
لا ينقطع • ويقتضى الأمر أن أعبر عن شعورى بفضلهم على •

وينبغى لى ، قبل أن أختتم هذا المقال عن سيرتى ، أن أعبر عن شعورى بالسعادة  
حقا ، فقد كان لعملى بعض الأثر على علماء آخرين اشتغلوا بتحليل المجتمع الهندى  
والثقافة الهندية • وقد لقيت أيضا أكثر من نصيبى العادل من درجات التشريف •  
وإذا كان لى أن أقول شيئا فأنى أحس أننى لم أعمل بما فيه الكفاية ، وأنى  
لمدرك أيضا أن درجات التشريف اذ تفعم قلب العالم بالغبطة الوافرة فان الرضا الذى  
يفينه عليه انخراطه المطلق فى البحث الحلاق برغم كل ما فيه من مأس ومشاكل هو  
شئ من معدن آخر غيرها ومن رتبة أعلى وأرفع •

# چان شزپانسكى

متاعب واجهت  
عالم اجتماع بولنديا

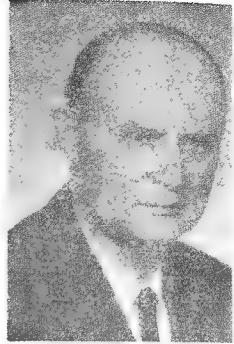
بدأت دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع فى سنة ١٩٣٢ فى جامعة «بوزنان» على يد فلوريان زنانيكي ، وقد حصلت على درجة الماجستير بمقال عن دلالات الالفاظ عند «هسبرل» ، ثم حصلت على درجة الدكتوراه برسالة عنوانها « مفهوم البيئة فى علم الاجتماع الريفى » باشراف الاستاذ زنانيكي فى سنة ١٩٣٩ . وبين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ألغت كتابا بعنوان « خريجو المدارس الزراعية فى تنمية القرية » ، وذلك عندما كنت أعمل فى معهد الثقافة الريفيه باشراف الاستاذ جوزيف شالاسينسكى . وقد أعد هذان العملان للطبع فى سنة ١٩٣٩ ولكنهما فقدوا أثناء الحرب ولم ينشرا ولم يظهر منهما غير عدة مقالات نشرت فى ذلك الوقت .

وقد حملت معي من موطنى اهتماما بعلم الاجتماع الريفى . كان والدى يمتلك مزرعة صغيرة فى الموقع الجبل لبلدة « أسترون » فى سيليسيا . وكان العمل فى هذه المزرعة هو أول تجربة لى فى الاعمال ذات الاهمية الاجتماعية . وبعد تخرجى من المدرسة الابتدائية فى أسترون التحقت بالمدرسة الثانوية فى المدينة القريبة منها حيث كنت أسافر اليها كل يوم بالقطار . ولم أعمل بعد فى مزرعة أبى بعد عودتى



## ترجمة : الدكتور أحمد عبد الرحيم أبوزيد .

استاذ كرسى الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب  
بجامعة القاهرة . حصل على الدكتوراه من جامعة أدنبرة  
عام ١٩٥٤ . من مؤلفاته : المدخل الى اللغة اللاتينية ، تاريخ  
الأدب الرومانى . من الأدب التمثيل اللاتينى وفوريو والحماة  
للكتاب ترنسيوس . وكنز البغيل والتوامان للكتاب بلادتيوس .  
مقطعات من أغاني الشاعر الرومانى هوراس .



---

من المدرسة . وقد علمنى ذلك واقعية الفلاح وشدة شكيمة فى العمل وصبره على  
مواجهة نوائب الدهر وملامته .

وقضيت سنة ١٩٣٩ فى العمل فى جامعة « بوزنان » كأستاذ مساعد للكرسى  
الاستاذ زاناييكي الذى ترك بولندا الى الولايات المتحدة ولم يعد بعد ذلك .

وقد اشتركت فى غزوة سبتمبر وحاربت حتى نهاية الشهر وعدت الى منزلى  
قرب بوزنان بعد أن نجوت من أن أصبح أسير حرب . وعندما أبعدت بواسطة الألمان  
ذهبت بصحبة زوجتى الى أسرتى حيث بدأنا العمل سويا فى الفلاحة . وقد ولد ابنا  
فى هذا المكان سنة ١٩٤٠ ، وبعد وقت قصير أرسلت كما أرسلت زوجتى فى وقت  
متأخر الى ألمانيا للقيام بعمل اجبارى .

وقد عملت فى مدن مختلفة ، وكنت أقوم بعمل صناعى دون تجربة سابقة ،  
وكذا فعلت زوجتى التى حصلت أيضا على درجة الماجستير من جامعة بوزنان . وبقينا  
أطول مدة فى فيينا حيث كنت أعمل «خراطا» مدبرا ، وكانت زوجتى تقوم بجميع  
أنواع الاعمال غير النظامية ، مثل الخدمة فى المنازل ، وهكذا .

وأريد أن أؤكد أهمية تجربة العمل الإجبارى هذه فى دولة هتلر التى كانت تحتكر جميع موارد الدولة • وقد كانت مقدمة لعلم الاجتماع الخاص بالعمل والصناعة استفدت منها فيما بعد فى أبحاثى وتدريسى • على أن أهم مظهر لها كان هو تجربة العبودية فى نظام سياسى يحتكر جميع موارد الدولة ، مقدمة لسياسة النظام الاشتراكى الوطنى • وحيث كنت عضوا فى دولة متهمّة بالإبادة وحياتى على حافة الشرعية وأخضع لخطر موت أبدي وسريع فقد خلق هذا كله نوعا من الاتجاهات والميول الخاصة ، وفى الوقت نفسه أصبحت رؤيتى للأحداث والعمليات الاجتماعية حادة • وقد علمنى ذلك أهمية تماسك الجماعة عند الشعوب •

وفى نهاية الحرب فقد ولدنا الذى كان يبلغ من العمر أربع سنوات • وأخذنا نبحث عنه ، وجبت أنا وزوجتى خلال النمسا بين اضطراب الجبهات المتحركة والمدن المضروبة بالقنابل والأسى يملأ قلبينا • وقد كنا فى ذلك نعمل كضباط فى وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين للعناية بمعسكرات العزل ، وأصبحنا على صلة بعدد غفير من اللاجئين وأسرى الحرب السابقين والمقيمين فى المعتقلات وأولئك الذين كانوا يقومون بالعمل الإجبارى • وقد خرجت من الحرب بهذه السلسلة الكاملة من الخبرة ، تلك الحرب التى كنت قد كتبت خلالها مقالات مختلفة فى علم الاجتماع ( شئ ليس من السهل عمله حيث كانت ساعات العمل فى المصنع احدى عشرة ساعة ونصف ساعة يوميا ) ، ولكن مخطوطات هذه المقالات قد فقدت أثناء بحثنا عن الطفل •

وبعد أن وجدنا طفلنا عدنا الى بولندا فى خريف سنة ١٩٤٥ ، وبدأنا نعمل فى التدريس بجامعة « لودز » ، التى نظمت من جديد فى قسم الاجتماع الذى كان رئيسه أحد تلاميذ الأستاذ زانبيكى ، وهو الأستاذ جوزيف شالاسينسكى ، على أننى لم أعد الى موضوعات دراساتى العلمية التى مارستها قبل الحرب وائناها •

كانت أهم تجاربنا هى إعادة البناء وتنظيم جامعة جديدة تحت ظروف صعبة للغاية فى دولة فقدت ١٥٪ من سكانها و ٤٠٪ من ثروتها الوطنية ، وخلق نظام اجتماعى جديد ، وثورة سياسية نشأت عن ازدياد نفوذ حزب العمال ( الشيوعى ) وجعل الاقتصاد قوميا • وقد أصبحت جميع أوروبا الشرقية معبلا هائلا للتغيير الاجتماعى •

وأعيد تنظيم علم الاجتماع من جديد فى بولندا بسرعة • وفى خلال السنوات

الأولى التى عقبته الحرب كتبت كتابين علميين « تطور نظم علم الاجتماع » و « تاريخ الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر » . ولكن بعد التحول الى الاستالينية كان نشر هذين الكتابين من الأمور المستحيلة . وقد نشرت بدلا منها مقالات كثيرة وحررت فى المجلات الأسبوعية ، واشتركت مباشرة فى المناقشات والمجادلات السياسية .

وفى سنة ١٩٤٩ أصبحت أستاذة مساعدا ، ثم عميدا للكلية فى سنة ١٩٥١ ، ثم أصبحت أستاذة مساعدا ورئيسة الجامعة لودز . وكنت أقوم فى ذلك الوقت بأبحاث عن المشاكل المختلفة المتعلقة بمنهج العلم الاجتماعى وعن تاريخ علم الاجتماع وعن منهج البحث عند ماركس وأنجل .

وقد نتج عن ثورة ١٩٥٦ والتحول عن الاستالينية تجارب جديدة . وكنت مع علماء آخر فى علم الاجتماع خبيرا سياسيا فى الإجراءات القانونية التى عقبته الحوادث البولونية وكان علينا أن نحدد الى أى مدى كان الأشخاص المتهمون بالشفب تحت تأثير الاضطرابات العقلية للجماهير الى أى حد يعتبرون مسئولين عن أعمالهم أثناء الشغب . وقد استدعى ذلك تحديدا لتأثير الوضع السياسى والاقتصادى العام على الاثارة . وقد كان ذلك أول امتحان لى فى ممارسة النفع السياسى عن طريق المعرفة بعلم الاجتماع .

ان الاعتراف الرسمى بعلماء الاجتماع كخبراء فى التجربة السياسية يتضمن فى الوقت نفسه اعترافا رسميا بعلم الاجتماع كعلم . ومن هنا كانت سنة ١٩٥٦ تدل على بداية انطلاقة جديدة لعلم الاجتماع فى بولندا .

وقد أنشئ معهد الفلسفة وعلم الاجتماع لأكاديمية العلوم البولندية ، وعينت به رئيسا لقسم الأبحاث الاجتماعية التجريبية . وكانت نتيجة البحث فى التطورات التى لحقت بالطبقة العاملة التى كان هيكل البحث يشملها دراسة مكونة من ثمانية وعشرين مجلدا عن أوجه التغيرات المختلفة التى حدثت بعد الحرب . وهناك أبحاث فردية كتبها مساعدون ومعاونون لى نشرت تحت إشرافى . وقد ظهر الجزء الأول فى سنة ١٩٥٨ والجزء الأخيرة فى سنة ١٩٦٨ .

وكنتم عضوا فى البرلمان البولندى من سنة ١٩٥٧ الى سنة ١٩٦٠ . وفى سنة ١٩٥٧ نشرت مجموعة من مقالاتى تحت عنوان « أهل الفكر والمجتمع » تشمل أبحاثا كتبت فى المدة من سنة ١٩٥٥ الى سنة ١٩٥٧ . وفى سنة ١٩٦٠ ظهر كتابى

« علم الاجتماع ، تطور المشاكل والمناهج » ، وهو كتاب علمى تاريخى أعيد طبعه ثلاث مرات فى السنوات التالية وترجم الى اللغة السلافية ونشر أيضا فى براتيسلافو .

وقد توطدت علاقة علماء الاجتماع البولنديين • بجمعية علم الاجتماع الدولية ، وذلك منذ المؤتمر الدولى الثالث لعلم الاجتماع الذى عقد فى أمستردام فى سنة ١٩٥٦ • واشتركت فى النشاطات الدولية ، وانتخبت رئيسا للجنة البحث فى علم الاجتماع الصناعى ، واستمر على كرئيس لها حتى انعقاد المؤتمر فى ستريسا سنة ١٩٥٩ • وذهبت الى الولايات المتحدة لمدة ثمانية أشهر فى ١٩٦٠/١٩٦١ ، وقضيت معظم هذه المدة فى مركز الدراسات العليا للعلوم السلوكية فى بالو ألتو حيث كتبت الجزء الأول من بحثي « المفكرون فى المجتمعات المعاصرة » ، وهو بحث لم أنه منه بعد وزرت أيضا جامعات أمريكية عدة •

وبعد أن عدت الى بولندا فى سنة ١٩٦١ عينت نائبا لمدير معهد الفلسفة والاجتماع باكااديمية العلوم البولندية وواصلت البحث عن المفكرين والطبقة العاملة . وأخذت فى الوقت نفسه أعمال فى حل المشاكل المتعلقة بالمجتمع الصناعى والتصنيع والتعليم العالى • وفى سنة ١٩٦١ نظمت معهد أبحاث التعليم العالى ، وكنت أديره حتى سنة ١٩٦٨ • وفى سنة ١٩٦٣ نشرت كتابين أحدهما هو « المفاهيم الأولية لعلم الاجتماع » ، وهو كتاب علمى ظهر فى عدة طبعات فى بولندا ( ١٣٠٠٠ نسخة ) وترجم الى اللغة الروسية والتشيكية والهنغارية والفلمنية • أما الكتاب الثانى فهو « مشاكل التعليم العالى » ، وقد ترجم الى الفرنسية والهنغارية •

وقد انتخبت رئيسا للجمعية الاجتماعية الدولية فى المؤتمر السادس الذى عقد فى ايفان فى سنة ١٩٦٦ • وكان ذلك بالنسبة لبداية عهد نشاط دولى مكثف ، وكان على الرئيسى هو التنظيم لعقد المؤتمر السابع فى فارنا (فى بلغاريا) الذى يعتبر اول مؤتمر يعقد فى دولة اشتراكية • وقد واجهتنى صعوبات جسيمة فى سبيل القيام بهذا المشروع وخاصة بعد الحوادث السياسية التى وقعت فى سنة ١٩٦٨ • وقد كان من واجبي تذليل هذه الصعاب وخلق فهم عام • وكان فى استطاعتي حينئذ أن أستخدم تجاربى الزمنية عندما قابلت مواطنين من دول اوربية كثيرة وكانت لى معهم علاقات، صداقة أثناء على الاجبارى فى المانيا ، واستطعت أيضا أن أستخدم معرفتى الجيدة بالثقافة الفرنسية التى حصلت عليها من والدته زوجتى التى أتت من جنيف وعرفتني بقيم هذه الثقافة • وبالإضافة الى ذلك فان على فى وكالة الامم المتحدة لغوث اللاجئين

وكذلك دراستى فى الولايات المتحدة وقضاء معظم حياتى فى الدول الاشتراكية وفهمى  
لميكانيكية الحياة الاجتماعية والسياسية فى شرق أوروبا كانت كلها عوناً كبيراً لى .  
وقد مكنتنى صداقتى بعدد كبير من علماء الاجتماع فى غرب أوروبا وشمال أمريكا وفى  
أفريقيا من أن أتحدث بلغة مفهومة لجميع هؤلاء ، كما مكنتنى من فرصة الفهم دون  
تشويه ، وإدراك مختلف قرائن المواقف والمعانى التى يمكن أن تقف حواجز دون تبادل  
الآراء من الصعب تخطيها . واستطعت أيضاً أن أستخدم واقعيتى الريفية والتفاؤل  
الذى لا يهتز لرجل قضى سنين فى عمل إجبارى .

وانبنى للمتنع أشد الاقتناع بأن تجارب الحياة المباشرة مهمة لدراسة من  
يتخصص فى علم الاجتماع بقدر أهمية أى دراسة جامعية أو معرفة عن طريق الكتب .

ويبدو لى أن دراسة علم الاجتماع فى الجامعات يجب أن ترتبط بالعمل فى  
مؤسسات مختلفة عندما تكون هذه الدراسة معتمدة على تخصص مرتبط . فمثلاً  
أولئك الذين يعتزمون القيام ببحث خاص بالعمل والصناعة يجب عليهم أن يعملوا  
كعمال لبعض الوقت ، وأولئك الذين يتخصصون فى علم السياسة يمكنهم أن يعملوا  
كموظفين فى أحد الأحزاب ، وهكذا أن الاشتراك المباشر فى عمل المصنع والاتصال  
بالعمال قد يكون اختباراً مفيداً لكثير من الراديكاليين الذين ينسجون نظريات  
تجريدية عن البروليتاريا ( طبقة العمال الكادحين ) .

ومنذ سنة ١٩٦٩ وأنا أدير معهد الفلسفة والاجتماع باكاديمية العلوم  
البولندية . وظهر أيضاً سنة ١٩٦٩ عمل جماعى تحت إشرافى هو « الصناعة  
والمجتمع فى جمهورية بولندا الشعبية » ، ونشر كتابان فى سنة ١٩٧١ يشملان  
أعمالاً القصيرة التى طبعت بعد سنة ١٩٤٥ . والكتاب الأول مجموعة من الدراسات  
الاجتماعية تصف تحول المجتمع البولندى ، أما الثانى فهو « نظرة على الجمهورية »  
ويشمل مقالات سياسية . وقد لاقى الكتاب الأخير نجاحاً كبيراً وبيعت طبعتان  
( ٥٠٠٠٠ نسخة ) منه فى وقت قصير . وقد أرسلت مؤخرًا الى المطبعة مخطوطاً  
بعنوان « التفيرات فى المجتمع البولندى فى عملية التصنيع » فيما بين سنة ١٩٦٤  
و سنة ١٩٦٦ .

وأصبحت مرة ثانية فى المركز فى بالو ألتو ، وذلك من سبتمبر سنة ١٩٦٧  
الى فبراير سنة ١٩٦٨ حيث كتبت « المجتمع البولندى » الذى نشره Random Hous  
فى سنة ١٩٧٠ .

وعينت رئيسا لجمعية الخبراء لاعداد تقرير عن حالة التعليم فى بولندا • ومن اهداف هذا التقرير أيضا أن يكون مرشدا لاصلاح التعليم ، وذلك فى الاعداد للنظام المدرسى فى العقدين التاسع والعاشر من قرننا هذا •

وكان هذا العمل هو المحك الثانى الكبير لى عن الفائدة العملية للعلوم الاجتماعية • وإذا أردنا وضع مخطط لنظام مدرسى مقبول لمشروعات السنين فانه يجب علينا أن ننظر فى نوعية الاحتمالات القادمة من الناحية الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية التى تمدنا بمقومات مجتمع المستقبل واتجاهات نموه • ويجب علينا أن نستفيد من وجود علم بيداوجى وسيكولوجى واجتماعى كى نجعل البرامج المخططة تقوم بتنظيم النظام المدرسى وربط المدارس بالأسرة وبناء المعاهد التربوية خارج المدرسة • ويجب علينا أيضا أن نضع برنامجا لنظام تعليمى لمدى الحياة من أجل الطبقة العاملة •

وكننت أشترك طوال حياتى العلمية فى عمل المعاهد المنظمة للعلوم وفى نشاط مباشر فى كثير من ميادين الحياة العامة • وقضيت نصف عمرى أو ما يزيد فى المكاتب وغرف الاجتماعات والاحتكاك بالجامير ، أكثر مما قضيته فى غرف المحاضرات والأبحاث • وكننت دائما أراجع أبحاثى الاجتماعية فى ضوء الواقع العلمى معتبرا أن هذا اختبار لفاعليتها •

وبالإضافة الى ذلك كننت أعتقد دائما ومازلت أن تطور النظم الاجتماعية فى شرق أوربا يمنح علماء الاجتماع فرصة لملاحظة عمليات تغيير مجتمعات بأكملها بغض النظر عن عواطفهم وأيديولوجيتهم الشخصية إزاء هذه العمليات • اننى أشأرك مفكرى القرن التاسع عشر فى اقتناعهم بأن الباحث مرتبط بتقاليد وطنه وقيمه ، وأن من واجبه رعايتها • ان الأوقات العصيبة للثورات تعتبر دائما اختبارا لشخصية رجل العلم وخاصة العلم الاجتماعى • والاشترك المباشر فى الحياة العملية والاتصال المباشر بدوائر اجتماعية كثيرة يعطيان عالم الاجتماع ذخيرة من التجارب والقدرة على الفهم ومعرفة الحقائق والعمليات فى بيئتها الطبيعية ، ويمنحانه من نسج افتراضات خيالية • ومع ذلك فقد وضعت أهمية كبيرة على دقة التفكير المنطقى ، واننى مدين فى ذلك بالشكر لأساتذتى فى الدراسات الفلسفية ، الذين أطلعونى على علم منهج العلوم فى التعاليم الحديثة ذات الفلسفة الوضعية • هذا الفرع من الدراسة الدقيقة ، رغم أننى لم أستمر مخلصا له كان بالنسبة لى مدرسة جيدة للتفكير الدقيق واعدادا للبحث عن الصواب المنطقى •

وقد قمت بالتدريس والقاء المحاضرات فى جامعات دول كثيرة بخمس لغات لا أتقن منها غير اللغة البولندية • ولكننى قوبلت بفهم من جانب تلاميذى والمستمعين الى ، سواء فى بولندا أو كندا أو فرنسا أو دولتى المانيا أو المملكة المتحدة أو إيطاليا أو الولايات المتحدة ، أو الاتحاد السوفيتى أو يوجوسلافيا أو بلغاريا أو تشيكوسلوفاكيا أو رومانيا أو هنغاريا •

وقد اشتركت فى أعمال هيئات دولية كثيرة ، ورأست لجنة فى المؤتمر العام السادس عشر لليونسكو • وكنت أنظر الى من اشتركت معهم فى الحديث بقدر واحد من الاهتمام ، وقد وجدت وأنا مشدود كيف أنه يسهل وجود تفاهم بين الناس اذا اقترب منهم الشخص بتعاطف مع مشكلاتهم واتخذ موقفا وديا حقيقيا ازاء ما يعترهم من متاعب وصعاب وكان على استعداد لمساعدتهم •

# چون فايزى

## مولد عالم

### اقتصاد بریطانى

#### مقدمة

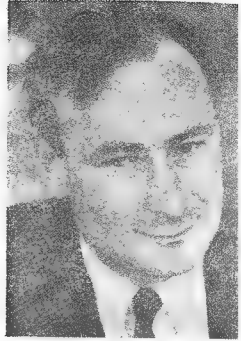
تحاول هذه المقالة أن توضح ما قمت به من أعمال في المؤسسات المختلفة التي عملت بها ، ولكن ما هي حقيقة عملي ؟ لقد كنت كاتباً واقتصادياً معاً ، وكذلك كنت مدرساً جامعياً ، وشخصاً يحاول أن يأخذ مكانه اللائق في الأعمال العامة ، وإذا كانت هذه الأنشطة يرتبط بعضها ببعض فإنها قدمت الى نوعاً من الاختيار . وها أنذا أحاول في هذه الدراسة أن أوضح بقدر المستطاع مصادفنى من مصاعب وتعقيدات ، لما لذلك من فائدة عامة ، فانا اعتقد أن شكوكى وترددى يعكسان اليوم مجموعة من الشكوك والتردد في العلوم الاجتماعية والأدب . وهناك ايضاح آخر يجب أن أذكره قبل أن أبدأ حديثى .

اننى رجل انجليزى الأصل ، وهذا أمر لا يوحى بالتجديد ، فقد قضيت ثلاثة أرباع حياتى منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى فى جامعتى أكسفورد وكامبردج اللتين أكسبتانى فيما يبدو عدم حب الكثيرين . وإذا كان من سوء الحظ أن أفضى هذا العمر فى جامعة واحدة فما بالك وقد قضيت فى جامعتين . وقد أضفى هذان الأمران - كونى انجليزياً ، وكونى تخرجت فى جامعتى أكسفورد وكامبردج - على



## ترجمة : حسن عبد المنعم

رئيس مجلس ادارة الهيئة المصرية العامة للفنون وكان قبلا  
وكيل وزارة الثقافة .



بعض من على ، وربما على هذه المقالة ، طابعا اقليميا يعتقد معه الانجليز وغيرهم  
انه يمثل الحياة الفكرية الانجليزية . ولكن لا يوجد مع الأسف ما أستطيع أن افعله  
حيال ذلك ، اذ قضيت ثلاثة ارباع حياتي الفكرية في أومسك أو في موس جو .  
وبقيت خبرتي كما هي . وقد كتب جويس مقالة الذي يعد تحفة أدبية عن يوم في  
دبلن سنة ١٩٠٤ ، وكانت دبلن ومازالت مدينة اقليمية صغيرة . واذا لم تحز هذه  
المقالة شهرة مماثلة فليس ذلك لأنها عن انجلترا أو عن أكسفورد وكامبردج ، ولكن  
ذلك يعود لكوني لست أنا جويس .

وهناك من يرى نفسه وأنا من هؤلاء . وحدة متكاملة ، فأعمالهم مهما كانت  
عشوائية أو متناقضة فيما يبدو تعطى تكاملا غير واضح تماما ، بمعنى أن كل عمل  
قد يكون له فكر سابق ، ولكنه في النهاية يعطى معنى عميقا بالتكامل . وهناك  
آخرون فيما اظن يرون في أنفسهم كيانا مستقلا تختلف شخصياتهم في عملهم عنها  
في منازلهم ، وكذلك في شبابهم عنها في حال تقدمهم سنا . ولذلك كان من العسير  
على أن أحدد دوري كاقصادي أو كاتب أو زوج ، كما كان من العسير على أن أصف  
نفسى من خلال هذه الادوار ، وان أوضح أن كل عمل أقوم به مرتبط بكل شيء  
آخر أعمله .

ولكى اصف حياتى المهنية لابد ان اصف حياتى كلها من وجهة نظر خاصة ، ولابد ان اعود بها طويلا الى الوراء ، قبل ان اولد والعناصر التى كونتهما ، ثم بلندن حيث نشأت ، وكيف كانت تبدو عندما كنت صبيا « وكل هذا عمل صعب لا أستطيع ان اعرضه هنا ، ولكننى اخادع نفسى ، اذ اننى عندما الفت كتابى المسمى « مناظر من الحياة داخل المؤسسات » ( طبعة منقحة على وشك الظهور ) كتبت عما حدث لى فى شبابى . لقد كنت مريضا جدا ، وراقدا فى مستشفى لا أستطيع حراكا فى جيرة من الجبس بضع سنين ، وعاوندى المرض فى حياتى عدة مرات بعد ذلك . وقد كان لهذه التجربة آثارها العميقة فى حياتى سببت لى شعورا دفينا بالعزلة وعدم الاطمئنان ، وولدت فى شعورا بالالاح والاجتهاد ، ذلك ان المرء اذا اراد ان يعمل شيئا او ان يكون شيئا فان الوقت لا يتسع امامه كما يبدو لكى بفعله ، والسبيل الوحيدة امامه لذلك هى العمل . من حسن حظى انى وأنا بالمستشفى تعلمت على يد سيدة على قدر من الذكاء والعلم ، متحفظة وكنوم وغير عاطفية ، ولكنها قادرة ، فتعلمت ان اعمل ، وان اقرأ ، وان اكسب المعادات المدرسية من حيث الدقة والسداد ، وهكذا . ومنذ ذلك الحين توجهت وأنا نصف عليل معزول جسمانيا عن اقرانى من ذوى الاذواق والاهتمامات والقدرات الماثلة الى مدرسة ثانوية بسيطة ، حيث درست عدة فترات ، ثم انزلت تماما مرة أخرى حيث واصلت القراءة على الطرق التى اكتسبتها ، رفى يقينى ان الناس جميعا فى كل مكان آخر فى هذا العالم قراوا كل شيء ، أى كل ما كتبه شو ، وكل ما كتبه ولز ، وما كتبه تولستوى ، وكل ما كتب عن الرياضيات ، وكل ما ألفه بالزاد ، وانى انا الوحيد الذى لم احسن القراءة أو التعلم . ومنذ ذلك الوقت لازمنى عادة القراءة الاجبارية ، وكثيرا ما كان يحدث عندما اقيم فى أحد الفنادق القريبة ان اجد نفسى مدفوعا الى قراءة جرائد قديمة بلغة لا اعرفها ، اعثر عليها مغطاة بالتراب فى اراج الدولاب ، وكانت النتيجة بالطبع انى اصبحت قارئاً ممتازاً ، ولكنى كثير الاخطاء ، شأن اى امرىء ثقف نفسه بنفسه .

والتحقت باحدى المنح طالبا فى جامعة كامبردج ، وكان الشتاء فى ذلك العام من اقصى الاشدية التى مرت خلال حكومة آتلى . وكانت جامعة كامبردج معتمة ورطبة ، وكان المعلوم الذين اختبرونى متهمين بشكل مزيج ، ومع ذلك قبلت ، وبدأت ازور فرنسا ، ودفعت لى السلطة المحلية مصاريف السفر للذهاب الى السوربون . وهناك تحققت تدريجا انه بالرغم من اننى كنت جافا وصعب المراس فاننى لم اكن اقل بدرجة ملحوظة من المعاصرين لى من حيث القراءة . وفضلا عن ذلك فقد كان اهتمامى الاساسى هو علم الاجتماع رغم ميلى الى الادب والتصوير والمرح . وقد استقر رأى عن وعى كامل على ترجمة تعاستى الخاصة بلغة علم الاجتماع . ولقد قررت كعالم اجتماعى ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى تام واصل ، ان كل امر قد حدث لى او لائى شخص آخر له جذوره الاجتماعية ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت اراوغ واقول للناس ان حياتى الخاصة لم تكن هى هذه الحياة التى يصفها الناس ، والتى كانت الشوارع المستقيمة الكثيرة للضواحي التى

انشت بين الحريين ، والمكتبة العامة والاذاعة ( كان البرنامج الثالث قد بدا ) ، هي الرابطة الوحيدة مع عالم الفكر . وكان الشيء الوحيد الذى يخفف من كآبة الناس هو هذه الشائعات الغريبة التى يتناقلها الجيران تعبيرا عن الفراغ العقلى الذين يعيشون فيه ، « اما عالم الفكر والشاعر التى كنت اعيش فيها فقد كان عالما منزولا لم اجد مقرا منه الا فى التعبير عن نفسى . وقد لمس الكتاب الذين تميزوا بالرفقة من امثال : اندريه جيد وفرجينيا وولف ، الاحساس بالحاجة الى التعبير من قريب أكثر مما لمسه أصحاب الفكر المتعمق من امثال : فلوريت وديكنز وبروست ، والسبب فى ذلك مزدوج ، فانت تستطيع لأول وهلة أن ترى الدقة فى عمل الكاتب المبتدئ وأن تفهم كيف يتم ذلك ، ولكن الكاتب المحترف شأنه شأن الصانع الماهر يجد أن أداة التعبير جذابة وسهلة التقليد ، ولكن المهارة الفائقة للاستاذ تبلغ شأوا كبيرا تبدو معه بعيدة عن الفهم . ويجب على الكاتب المبتدئ أن يقلد بنجاح منقطع النظير ، كاتباً اقل منه ، كما قمت أنا بتقليد دنتون ولش المؤلف الممتاز الذى كتب عن الأمراض ومات شاباً عام ١٩٥٠ . ولكن الكاتب المبتدئ لا يستطيع أن يقلد بروست دون أن يحدث كارثة . وهناك سبب آخر ، سوف اعود اليه ، هو أن الكتاب المظلم يعالجون الاحاسيس المعقدة والمعقدة التى تبدو محاولة التعبير عنها أو فهم ما بها من نوازع أو فكر مزعجة للغاية . واكاد اجازف فاقول ان الكتب التى لها تأثير فعال على معظم الناس - على أى مستوى - إنما هي الأعمال الأدبية غير المهمة ، « وسواء كان هذا صحيحاً أم لا فإنه ينطبق على ، ولذلك فاني عندما أردت أن أرسم صورة لشاب فى أحد احياء لندن الفقيرة أخذت نموذجي من نشر انجليزى رخيص ، وهذا أيضا هو الشعور الذى عرضته فى رواية كتبها اخيراً عن جنوب شرق لندن وسميتها « النوع الناجح » ، وكان العنوان الذى فكرت فيه صائبا .

### وجودى فى كامبردج

كنت اكره المجلات المدرسية فى جامعة كامبردج لاني مرضت خلال اثنتين منها وقبلما كانت توصف الضواحي لقضاء العطلة ، لكنها كانت تدعو الى الكتابة الذهنية ، وكان الكثير من زملائي الأقوياء يسافرون بسياراتهم الى استنبول ويقضى المترو منهم ايام الصيف الطويلة فى مزارع آبائهم ، أما انا فكنت ملتصقا . ماديا وجسديا . بلوشام ، وهى مكان لا أستطيع أن أمر به حتى الآن دون أن احس بالكتابة . وبنت اخرج بطبيعة الحال واذهب لادى اوليفيه فى المسرح الحديث . واستمع الى الموسيقى . ولارى لأول مرة حفلات الباليه ، ولاأعرف على معارض لندن وبالأخص معرض تيت ومجموعة والاس . ولكن من الغريب اننى لم اتروى على قاعة فيكتوريا والبرت التى أفضّلها الآن ، وكانت الاجازات تبدو طويلة تضى على الثمانية الأسابيع الدراسية ظلاً ثقيلاً . واقتنعت أخيراً باننى سوف اخرج لأعمل كاتباً فى بعض المصالح الحكومية ، وأعيش فى لويشام يوماً بعد يوم حتى أصل الى سن الخامسة والستين وأحال الى التقاعد . وخلال

هذه الاسابيع الثمانية التي قد تزيد الى تسع ، على مدى ثلاث سنوات . أو نحوها ، اكتشفت كل ما يمكن اكتشافه ، وأحسست كل ما يمكن الاحساس به ، فكونت علاقات صداقة عميقة مع أقوام متناقضين أو غير محتملين ، كما توجهت للاسماع لكل السياسيين الذين حضروا الى كامبردج ، وشاهدت عرض كل فيلم ومسرحية وحفلة موسيقية ، وكذلك حضرت المحاضرات التي القاها الناقد ف.د. ليفيس والفيلسوف راسل والمؤرخ ج.م. تريفيليان ، كما شاهدت مباريات الرجبي . وبالإضافة الى ذلك تعمقت في دراسة الاقتصاد . وكان كينيز قد مات أخيرا . ولا يزال الجدل دائرا على أشده بين الناس حول المعنى الكامل للنظرية العامة . وتعلمت ضد رغبة كليتي الشديدة على يدى جوان روبنسون التي لم تكن تعترف بها . وقد جاهدنا طويلا في دراسة الاقتصاد ، وشعرت بأنها قد نجحت تماما . فكانت فترة مشرقة اتقنت فيها النظرية الاقتصادية الحديثة لمارشال ، واتقنت كذلك نظريتي كينز في الاقتصاد التجميعي والاقتصاد القياسي ، ودرست وتعلمت كيف ادحض النظرية العامة للتوازن ، ولكنى وأنا على أبواب المعرفة دخلت في مرحلة عزلة عقلية خيل الى معها ولا يزال يخيل الى أحيانا كثيرة ان كل ما يمكن ان يقال من فائدة قد قيل ، وان ما عداه ( مثل ما لا يزال يدرس في أمريكا ) خطأ . وكان اهتمامى موجها فيما كان يظن وقتذاك أنه علم الاجتماع والسياسة . ولقد كسبت جائزة الجامعة في النظرية السياسية ، ولكن شعورا داخليا وخجلي معانى من علم الاجتماع ، واعتقد ان هذا كان صوابا لأننى على الرغم من اشتراكي ككاتب وكروميل وممتحن في الفقرة الاجتماعية في العقد السابع لم اترك علم الاقتصاد . والآن وقد انتهت هذه الطفرة نلاحظ انها كانت طفرة تأملية لم تترك آثارا صلبة ، واستطيع ان أقول ان الاقتصاديات التي درسناها في كامبردج قد أخذت تتجه نحو فرة ثابتة قوية من النضج العقلي .

وسأتحدث عن الأسباب التي دعت الى ذلك فيما بعد . ويبدو لي ان علم الاجتماع أصبحت له ظاهرتان مميزتان « كان ينقصه التفكير العقلي القوى والمفكرون الممتازون » ، وبينما تتضمن اهتماماته المسائل المركزية في التجربة فان إبحائه قد حولت هذه المسائل الى توافه كما عبرت عنها بلغة سوقية . وربما اكون مغاليا اذا قدمته بهذا الشكل ، لان كثيرا من العمل كان له قيمته ، في حين كان لبعضه قيمة اكثر ، ولكنك حين تنظر الى الاقتصاد وعلى الأخص الاقتصاد الذى وضعه استرانا وجوان روبنسن وزملاؤهما الشبان سوف تجد مسائل قد عولجت بقدر كبير من الاحترام وبجهاز عقلى قوى وسديد ، وهو - فى نظرى - من نوع يختلف كلية عن النوع الذى عالج مسائل علم الاجتماع .

وأنه ليخيل الى ان الشعور بالاثارة العقلية الذى انتابني في اوائل العقد السادس وكان يحوم حول حجرتي ويملأني بالحماسة الدافقة للاقتصاد هو احساس لا يمكن التعبير عنه ، شأنه في هذا شأن الاحساس الذى يشعر به المرء نحو شيء جميل مثل رسم لجويا أو صورة نصفية لهاودن ، ولكن احساسى به كان جزءا

لا يتجزأ من حقيقة كامبردج بالنسبة الى ، وكما قال فورستر كان المكان نفسه تجربة عقلية وجمالية تجمل من الطالب العاطفية والعقلية واشباعهما شيئين منفصلين .

وبذلك فان الدراسات الاقتصادية بكامبردج كانت من الموضوعات المشارة . وكان من الطبيعي انه بمجرد ان طرح السؤال عن الغرض من النشاط الاقتصادي وتمت دراسته اثناء ظهوره من خلال علم الفلسفة ومن خلال الدراسات التي بدأت نتكشف عند التكوين الاجتماعى ومن خلال التعبيرات السياسية فان علم الاقتصاد بدأ اتجاهات متعددة ، ولذلك استطاع أن يصبح علما ثابتا ومنفردا بنفسه . كما استطاع أيضا أن يكون له اطاره الواسع الذى يتضمن القضايا الكبرى حول ان موضوعات الكبيرة مثل علم الاجتماع . وكذلك استطاع من خلال العمل الشاق ان يراجع الفكر فى المسائل البديهية الأساسية . ولما كانت جوان روبنسن وبيرو سترافا ونبقولا كالدر قد عكفوا على هذا العمل فقد رأيت أن الطريق الممكن لى هو أن اقتفى انهم . ولم يكن هذا هو الطريق الذى اتبعه معظم المشتغلين بعلم الاقتصاد . لانه كن طريقا وعرا ، ولكن كانت قوة هذا العلم العقلانية بالنسبة لى هى أكثر خاصياته جاذبية .

### الرحيل عن كامبردج

ان زندقة الشباب لا تحتل . لقد قضيت بضع دقائق من وقتى اشرح فيها لاحدى الفتيات الفرق بين المركزية والكونتيسة ، والفاصل بينهما دقيق . فقد دار جزء كبير من حياة كورزون حول نيل هذا اللقب ، وكادت ترتكب جريمة فى سبيل الحصول على لقب مركزية ، فقالت الفتاة « هل تعتقد ان هذا أمر مهم » . وندت عن شفتيها كلمات « المتعالي » « والكسلان » « والمنافق » ، ولا يستطيع المرء جيدا . مع انى لا اعرف لماذا - ان يقول لها ان الدقة مهمة ، وان تحديد هذا الفاصل اذا اردنا ان نحدده يعتمد على الدقة فى التحديد . ولكن من المهم بالنسبة للشباب ان يتحلى بالخلق أكثر من أن يتحرى الدقة .

لقد كان شباب جامعة كامبردج وما زالوا مترندين الى حد كبير . وربما كان هذا انسب مكان للتحدث قليلا عن كامبردج ، فهى جميلة ، فى ثوب نرجسى بارد ، شجارها واحجار عمارتها القديمة البيضاء التى تنعكس على مياه نهرها البطيء وطررها المتلألئة بعد ان غسلتها الأمطار . وهى قريبة الشبه من هذه الناحية بمدينة سانتياجودى كومبستلا . وقد غيرنى تماما جمالها واسلوب حياتها من عدة وجوه هامة ، فغمرت من صوتى الى اخلاقى ، ومن افكارى الى اسلوبى فى الحياة . ان انجلترا تثير كراهية عميقة فى الخارج بسبب ماضيها الامبريالى وسبب شيوع بعض التراجم عن لغتها . وقد تركزت هذه الكراهية على اكسفورد وكامبردج . بل بعد لقيتنا الكراهية أيضا فى انجلترا فيرمزون اليهما بكلمة «هم» ، أى الذين كسبوا فى مقابل «نحن» ، أى الذين خسروا . ولقد توقفت منذ وقت طويل عن مثل هذا

التفكير . وهذا دليل في رأى البعض على اننى اصبحت انتمى بلا رجعة الى «هم» ،  
واننى مضطر في هذه المقالة ان اكتب عن الفوارق الواضحة في رأىي بين كامبردج  
واكسفورد ، لان تأثيرهما على وعلى عملى كان مختلفا ، كما انهما مختلفان كل من  
الآخرى . وان كانتا تبدوان في الخارج كما لو كانتا مرتبطتين معا كعنايتهم للامتياز .  
وبقيت في كامبردج حيث ترعرعت لاقوم بالتدريس ، وفيها اختلطت اول  
ما اختلطت بكبار العلماء ، من امثال : سير دنيس روبرتسن الذى كان وقتذاك  
استاذا للاقتصاد السياسى ، صعب المراس ، معتزا بنفسه ، وكان من تلاميذ كينز  
المفضلين ، ويعتقد البعض انه يفوقه من حيث قوة المنطق . وكنت انا وروبرتسن  
صديقين حميمين . ولكنى تحت تأثير الاخلاص لم اكن اتفق معه ، لانه كان رجوعيا  
من الناحية السياسية . ولم يكن روبرتسن يتفق بدوره مع كينز الذى كان من قبل  
مثله الأعلى . ثم اصبحت لى انا هو مثلى الأعلى . مع انه كان يكن له حبا ، وكان كينز  
يزدرى كل شخص . ونظرا لاهوائه المتقلبة من حيث شدوده الجنى كان يختار  
اصدقائه الذين يغرط في حبه ثم يتخلى عنهم بطريقة مخزية جدا .

وكان لى اثناء عملى كمدرس بجامعة كامبردج بعض المساوي ، اذ كنت قادرا على  
حب الناس على اختلاف طبقاتهم ، وبذلك نلت عدم الثقة على قدر متساو من كل  
الطبقات ، وتحولت عدم الثقة كما هى العادة الى اتهام بالزندقة مشوب بالاستهجان .  
وكانت القطرة الأخيرة التى اطفحت الكاس عندما تكشف اننى مسيحي . وقد  
أظهرت الكلية استيائها طبعاً من كونى عضوا بالكنيسة الانجليزيتية متسهما بسرعة  
التصديق ، مما كان يعد فى نظرها نقسا اخلاقيا . وظهر فى كامبردج فى ذلك الحين  
روح كره من التنافس الذهنى ظهر فى جو من السخرية الهادئة شبيه بنوع المغامرات  
التي ظهرت فى انجلترا والتي فكرت فى أن أصولها فى رواية أطلقت عليها اسم  
« رجل البارومتر » . وكان عنوان هذه الرواية على مسئولية المحرر . وكان العنوان  
الذى اخترته لها هو « الأعراف » وكان أكثر دقة فى تصوير ما كان يدور بخلدى ،  
لأن الأعراف هى مجال الأرواح التي لم تولد بعد والتي تجاهد لتخرج الى الحياة ، أى  
التي لم تتجسد بعد ، وقد ظننت ان هذه الرواية تشرح تماما مسرح الحياة على طول  
المدى يمكن أن تنتظر فيه وظيفة ثابتة تنبئك كيف تكون ، أو زواج ينبئك من  
تكون .

وعند هذه النقطة بدأ تحليلى نفسيا بطريق الخطأ ، وشعرت آنذاك بانقباض  
شديد ، بل أصبحت غير قادر على أن أقوم ببحث ذى معنى . وقد صدمنى بشدة  
عدم جدوى أشياء كثيرة ، مثل نظرية البيوت التجارية . وكان واضحا أن الاقتصاد  
الحديث لم يعط توضيحا كافيا لما كانت عليه الدنيا ، وسار رجال الأعمال فى  
عملهم وسط ضباب الجهل وعدم اليقين بسبب الضغوط والرغبات والنزعات  
المتصارعة . وقد تناول روبين مارييس كل هذا النوع من الموضوعات بشيء من التشاؤم  
فى كتابه « النظرية الاقتصادية لإدارة رؤوس الأموال » ( ماكميلان ١٩٦٤ ) . وبدا  
لى حينذاك كما يبدو لى الآن أن المقاييس الخارجية لأفعالهم كان يمكن تفسيرها بوضوح

من خلال اصطلاحات الاقتصاد التجميعي . ومن خلال تلك المقاييس كانت الحياة تسير هينة بالمعنى المألوف . ومن المحتمل أن تنبتك حالة الهضم لرجل ما - أو زواجه - عن سياسة الاستثمار في شركته ، أكثر مما ينبتك عدد من التحاليل المتكررة . ولقد كانت وجهة النظر هذه موضوعا لأحد الضغوط الشديدة التي سوف أناقشها فيما بعد لأنها تدخل في مجال السياسة . ولكن إذا تركنا هذا الأمر كما هو فأننا نجد هناك جوا من المغامرة يحيط بدراساتي في سياسة تقويم واستثمار الأموال في الصناعة الأولية ، وهي تجارة البيرة . وأخيرا قادني أبحاثي الى طريق يخرجني من هذا المازق . عند هذه المرحلة مرضت ولزمت الفراش .

وكان الدكتور الذي يعالجنى عضوا في فريق وولش القومي لكرة الرجبي ، ورغم شهرته كأخصائي في علاج رجال الرياضة وتمزق عضلات الركبة وعلاج البثور في الأيدي وغير ذلك فانه اتجه الى دراسة الكابة وبوعات الانتحار التي كانت تخيم على مرضاه من اللامعين . وقد أرسلت الى أحد الأطباء النفسانيين ، وكان علاجه بالإنجان على حساب هيئة الصحة القومية ، وكان يتسم بالذكاء ، فأنشأت معه علاقة طيبة ، وعني الهدوء والسكينة ، وقادني الهدوء أن أكتب كتابي الوحيد الذي وصف بأنه عمل أدبي رائع . وكان مرآة صادقة ، وصفت فيه ما مر بي أثناء مراعاتي في فترة إقامتي بالمستشفى ، وهو كتاب « مناظر من الحياة داخل المؤسسات » . وقد أوضح المحلل النفسي ما كنت أعانيه من ضيق ، وأشار الى أن كثيرا من الحالات النفسية ترجع الى أسباب جسمانية . وقد قال لي : « أن حالتك تؤكد ذلك حقيقة ، ولقد كنت منقبض النفس لسبب معقول ، وأنت في سبيلك الى الموت . ومن ثم أرسلني الى مستشفى جاي بلندن ، وكان جون كيتس طالبا بها ، ونجحت العملية ، واستعدت صحتي بعد سنة . ولكني لم أقدر تقديرا كافيا تأثير الصحة على نشاطي أو تأثير شفائي من مرضي على جودة الحياة . وقد تركت الاقتصاد الصناعي ، مع ان صناعة الخمر التي ظهرت أخيرا عرضت لنواح كثيرة من نظرية البيوت التجارية التي أصبحت أخيرا شائعة ، وذلك ما قلته لنفسي لأن أحدا لن يقوله لي . ولقد عزمت بإيعاز من أصدقائي ريتشارد تيموس وبريان آبل سميث أن أدرس اقتصاديات التعليم ، وكانا قد فرغا لتوها من عمل دراسة لاقتصاد هيئة الصحة القومية ، وهي المؤسسة التي أنقذت حياتي ومقدرتي على العمل . ويبدو أن نظام التعليم كان على درجة من الأهمية تستاهل البحث . ولم يكن معروفا حتى ذلك الوقت - في بريطانيا على الأقل - أي بيان احصائي عن التعليم . وقد أصبح التعليم الحديث - لا في إنجلترا وحدها - موضوعا أكاديميا خطيرا . ويشغل الانجليز أنفسهم في وقت مبكر دون شك بمسائل الطفولة والمدارس ، سواء في حياتهم الخاصة أو في كتبهم ، ولكن هذا الاشتغال قد حال على ما يبدو دون التفات أحد الالتفات الواجب الى المشاكل العقلية الخاصة بالتعليم . ويستثنى من بينهم ماتيو أورنولد و ر . ه . تاووني ، ولكن العلوم الاجتماعية في المقعد السادس لم تقدر التعليم حق قدره . وهناك أربعة وعشرون من أساتذة التعليم - وهم قليل من كثير من أدعياء العلم - تكلموا كثيرا عن روسو

وبياجت • وكان التعليم عبارة عن أفكار عامة تختفى تحتها الحقائق • ولم يتصد أحد - حتى ولا الحكومة - للبحث في عدد أطفال المدارس ، وكم من المال ينفق عليهم ، وماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك • وعن طريق حزب العمال وجماعة اللغويين اكتسبت خبرة في إدارة المدارس ، فتقابلت وتصادقت مع شيلي هالسي وجين فلود الاخصائيين في العلوم الاجتماعية • وبدأت أتعرف معرفة وثيقة على رجال التعليم ، وعملت بجهد وبسرعة ، وبمنحة مالية صغيرة ( أقل من ٤٠٠ جنيه ) صرفت كلها على إعداد جداول كبيرة على الآلة الكاتبة جمعت معظمها بنفسى ، وفى أقل من ثمانية عشر شهرا انتهيت من وضع كتابى « تكاليف التعليم » • ولأول مرة وضعت المدلولات على مصاريف الدراسة فى إطار الاقتصاد العام • وعلى أساس هذا الكتاب قام كثير من مؤلفاتى خلال السنين العشر من سننى حياتى التالية •

### أكسفورد والعالم :

كانت الظروف التى عملت فيها كالاتى : يمتلك نادى الكاميرا بجامعة أكسفورد الشقة التى كنت أعيش فيها ، وكانت فى الطابق العلوى ، وهى مكونة من حجرة واسعة ومطبخ وحجرة نوم وحمام ، فى شارع بومنت ، أعلى اتحاد الناطقين بالانجليزية الذى كنت أتناول فيه وجباتى أو أخذ منه لافائف الماكولات • ولكن هذا الاتحاد كان يحطم عناصر الخلوة الخاصة التى يشعر الشاب بأهميتها له ، حيث كان يشرف عليه مجموعة من السيدات الكبيرات السن المهدبات من صاحبات الحياة • الزوجية المزينة وكن يتخذن مواقع ممتازة لمراقبة درجات سلم المبنى الوحيد الذى تسهل مراقبته من بار الاتحاد • وقد رأين فى شخصا متكبرا ، كما هى النظرة عادة الى وافد جديد خجول كان بالصدفة من الاشراف بالورانة • ولقد جئت الى شقة نادى الكاميرا بعد أن قضيت ثمانى سنوات فى كامبردج طالبا ومدرسا • ومع حبنى للشقة كنت أكره أكسفورد ، وكنت أوقد يوما بعد يوم يملانى احساس بالكآبة على سريرى القديم ، أو القى بنفسى على السجادة الحمراء الفاقمة اللون وسط الحجرة لأكتب • وكانت الكتابة هى الشيء الوحيد الذى يمكن أن أعمله ، ولعلها كانت الوسيلة الوحيدة التى تتيح لى أن أغادر المكان سعيا لنشر ما أكتب والحصول من ذلك على بعض المال • ولقد كرهت من عرفتهم من الناس فى أكسفورد أكثر مما كرهونى • ولما كنت مدرسا بالجامعة ولم أبلغ بعد درجة زميل فإن حقوق تناول الوجبات كانت كافية لانا رتى • ولم تكن كافية لتغذيتى • وقد كنت أدعى أحيانا لتناول الطعام مع أحد خريجي كامبردج السابقين ، وكانت كل دعوة من هذه الدعوات للطعام عبارة عن كارثة بشكل خاص ، ففي كلية « المسيح » التى أسستها الملكة إليزابيث تيودور لأبناء ويلز ، تنهت نفسى فجأة وأنا أبدى ملاحظة على سخف المكان بصوت عال ، ولم أعد لتناول الطعام مرة أخرى فى هذه الكلية •

وأحيانا كنت أخرج لأحاضر ، أو لأتمشى فى غابات ويثام وشتوفر وغيرها من الاماكن المشابهة ، وأحمد الله أنى لم أعد أراها بعد ذلك ، وكل ما أعرفه عنها الآن



أنها أصبحت عقارات سكنية أو مدنا جديدة • ولكنى فى الفالب كنت أذهب الى كامبردج حيث أندس مسرورا فى الفراض الوثير وأتناول طعام الجامعة اللذيذ • واستجابة لاعلان ظهر فى جريدة التايمز تبادل شقة نادى الكاميرا فى عطلات نهاية الاسبوع مع محام يعيش فى حى التميل ، وكان يطلب شقة فى اكسفورد من يوم الجمعة الى يوم الأحد ليقابل فيها فتاة احلامه ، لذا جئت لأقضى أيامى من الجمعة الى الأحد فى همدو، حى التميل ، حيث أكتب وقد غمرتنى السعادة بأنى لست فى اكسفورد • ولما كان أحد كتبى عن إيرلندا فقه كنت أقضى كل أجازتى وكثيرا من فترات الدراسة هناك للكتابة • وقد ظن الجميع اننى قضيت حوالى خمسين ليلة من كل سنة فى اكسفورد ، وكانت تبدو فى مجموعها بمثابة أيام الحياة • وربما أكون قد قضيت أياما فى ملبورن أو موس جو أو فى بعض الاماكن الأخرى لا فى اكسفورد • وعندما كنت أرفع ناظرى بين فقرات الكتابة كنت أرى من خلال نافذتى الغابات الوحشة فى ویشام ، أو الكلاب المتاهبة للصيد فى جلوستر جرين ، ولكن ما احتفظ به فى ذاكرتى وأنا فى اكسفورد هو الطريق الى لندن ، وكان الوقت وقت السمويس، وكان يترول السوق السوداء رخيص الثمن •

وكنيت فى الواقع أكتب أربعة كتب ، بالطبع على التوالي ، مناسظر من الحياة داخل المؤسسات ، وقد ذكرته آنفا ، ورواية سميتها أخيرا «رجل البارومتر» ، وبحث بعنوان «اقتصاديات التعليم» ، والكتاب الأخير «صناعة الخمر فى الاقتصاد الإيرلندى من سنة ١٧٥٩ الى سنة ١٨٧٦» كتيبت مع صديقى باتريك لنش • وقد حل التاريخ الاقتصادى محل الاقتصاد الصناعى كنوع من الاهتمام النظرى ، وكنيت محظوظا بما فيه الكفاية بأن أقوم بتدريسه فى جامعة اكسفورد وأن أعمل فى مواد الارشيف فى إيرلندا كنتيجة مباشرة لارتباطاتى بتجارة البيرة • وقد زادت تجربتى فى العمل فى ارشيفات غير مرتبة وغير مصنفة من اعتقادى أن النظرية وأساس البناء يجب أن تكون قائمة على معرفة أكيدة بما هو عليه الحال • وكانت نظرية عالمى الاقتصاد الإيرلنديين التى ظلت حتى سنة ١٨٥٠ والتى قمت بتطويرها قائمة على أساس معلومات غير دقيقة عن تجارة البيرة فى إيرلندا عديمة الفائدة من وجهة نظر أخرى ، اذ أنك حين ترى مجتمعا يماثل مجتمعك مع اختلاف بسيط، فانت ترى وطنك بصورة مختلفة •

ولقد أصبحت بعد أن كتبت كتابى « تكاليف التعليم » خبيرا فى موضوع لا يزال الى حد ما بعيدا عن الانظار ، كما يعتبر فى الوقت نفسه من الموضوعات التى تجذب الأبصار • وكلمة « خبير » هى تعبير يتيح لك السفر الى البلاد الأخرى على حساب حكومتك أو على حساب منظمة دولية للتشاور أو التداول • وكان هذا بالنسبة لى بده مرحلة غير عادية من حياتى ، لانى كنت أكتب كتابا عن تاريخ إيرلندا ، فسافرت بانتظام الى دبلن ، وقضيت الجزء الأكبر من أجازاتى الجامعية هناك فى غرب إيرلندا فى المدة بين هذه الرحلات عندما كنت لا أعمل فى اكسفورد • وكنيت كثيرا ما استدعى الى باريس لأعمل مع المنظمات الدولية • وبعد أن غادرت اكسفورد لأول مرة ذهبت

الى بلاد أخرى ، منها الولايات المتحدة والهند واليابان وكثير غيرها ، لاشتراك في الاجتماعات ، أو لأساعد في أخراج وجهة نظر في مشاكل محلية . وقد كتبت عن مثل هذا الامر في كتابي «غذاء بلا نوم» ، وهو عبارة عن قصة نشرتها سنة ١٩٧٠ كانت في الواقع هدية الى رجل فرسي أعجبت به بحارة .

وقد كنت أعمل خيما اظن في اقتصاديات التعليم الذي نتج عنه ظهور عدة كتب، منها اقتصاديات التعليم ، وأبحاث أخرى ، عندما تحققت أن المجتمع الفكري الذي كنت أعتبر نفسي جزءا منه مجتمع مشتت . لقد كنا نقابل في مؤتمرات دولية ونزاور في جامعاتنا ومكاتبنا ونقضي أوقاتا معا ، وكانت اهتماماتنا الخاصة تجمعنا معا ، وكنا نكون فيما يبدو مجموعة من الاصدقاء الذين يفكرون في أمور متشابهة ويشتركون في الاتجاهات والضحكات والتجارب والاحكام . وكانت أكسفورد في ذلك الوقت هي مقر عملي الرسمي ، ولكن عملي جعلني التقى باناس من بلاد أخرى . ومن خلال كتابي عن ايرلندا أمكنني معرفة ايرلندا جيدا ، ومن خلال كتابي عن اقتصاديات التعليم سافرت وتزوجت بسيدة أمريكية ، وانتقلت الى لندن . ومن خلال هذه الاجتماعات الدولية شعرت بقدرتي على الإنتاج .

وكان لهذه المرونة الذهنية عدد من وجهات النظر : أولها ضمنى ، وهو أنني أعتقد أن العمل بانجلترا عسير . وهذا استنتاج غير صحيح بصفة عامة ، والحقيقة أن عدد الاشخاص الذين يهتمون بملك الخاص محدود ، ومن المؤكد في الوقت الحاضر أنهم قد تفرقوا . وفي الحقيقة لقد وجدت انجلترا صعبة في هذا المجال حيث أشعر أنني لا أتوقع فيها الا أن أكون أستاذا في الاقتصاد ، حيث يحب الناس فيها أن تكون لك مهنة واحدة ، لأنهم لا يشقون في صاحب الاهتمامات المتعددة . أنني قانع بأن أترك دراساتي الاقتصادية للحكم عليها ، فمن الواضح أنها ليست عظيمة ، ولكنها في الوقت نفسه ليست رديئة المستوى ، إلا أنها - كما قيل عن أعمال مادوكس فورد الروائي الانجليزي والناقد الذي أدى دورا كبيرا في حياسة الغربة ببساريس في العقد الثالث في المبدأ لم تقدر لأنها لم توضع في مكانها الصحيح ، وأنت يمكنك في المجتمعات الفكرية الدولية أن تختار أقرانك لفترة محدودة ، وأن تختار الطريقة التي يتم على أساسها تقويم عملك حسب المبدأ الذي تضعه بنفسك .

وعندما تقدمت بي السن وجدت أن هي الرئيسي هو الكتابة ، والكتابة في المجالات الصعبة التي لم تكتشف نسبيا ، في مجال العلوم الاجتماعية والآداب . ولما كنت أتعامل مع الكلمات فأنا مشغول باللغة الانجليزية . وبسبب جنسيتي الانجليزية وجدت نفسي مهتما اهتماما متزايدا بواطني الذين اكتشفت من خلال تجاربي العالمية ومن خلال زوجتي الأمريكية . أنني لا أستطيع أن أعيش طويلا في الخارج . وأنا مقتنع الآن دون أي شعور بالتحيز بأن جنوري تمتد عمقا في الامكنة التي رأيتها لأول مرة وأنا في العقد الثاني أو الثالث من عمري وخاصة أكسفورد .

ولذلك عدت لأعيش وأعمل في أكسفورد ، ورأيت كليتي جميلة ، وزملائي وطلابي على درجة كبيرة من حسن الصداقة . وسنظل أكسفورد لنا كما وجدناها ملأى

بالاصدقاء الطيبين والعلماء العظماء ، تهتم بالزمالة الجامعية ، ولها مقدرة كبيرة في تقدير هذه الزمالة ، وقلما يوجد مجال لا تتفوق فيه . ولكنها رغم قبوة احكامها مخلصه لمن تحبهم ، وأنا سعيد بأن أقول أننا ما زلنا نشعر فيها بالترحيب العميق ، وهي بالنسبة لي أفضل وأعقل الجامعات ، وهي تختلف اختلافاً بينا عن جامعة كمبردج ، في حرية التفكير . وفي مرحها ، وقد نبذت المتعصبين في الدين . وعلاوة على كل هذا فإن جامعة كمبردج كانت جامعة ميلتون وكرمويل ، وما تزال تحمل طابعهما .

ولكنني غادرت أكسفورد مترددا شاعرا أنني أنافق إذا ما ناقشت تطور التعليم العالي من هذا المحراب المحبب إلى النفس ، وذهبت إلى أحدث الجامعات وأقلها نصيبا .

### مرحلة النضج

إن كلمة بروتل كما يقولون تشبه في جرسها كلمة طعام الإفطار ، ولكنها في الواقع كلية فنية أصبحت فيما بعد جامعة جديدة ، على مشارف لندن . إن لها الآن اتجاهها تكنولوجيا (تقنيا) ولو أن كلمة «تقني» لا تزال غامضة في معناها . ونحن نقوم بتدريس الاقتصاد في مناهج متعددة متضمنا درجة عالية من التخصص في أصول الاقتصاد . وهو بالطبع اقتصاد كمبردج الحديث . وقد كنا نستطيع أن نبدأ من غير مناهج موروثه ، وأن ندرس ما يحتاج إليه الطلبة ، وهو ما كنا نريد أن نكتشفه معهم . وهو نوع الاقتصاد الذي سلمه مارشال عن طريق كينز إلى بيرو أسترافا وجوان رابرتسن بأوسع معانيه الاجتماعية والفكرية . وهو اقتصاد أصبح غير عصري في الوقت الحالي ، لأنه يعتبر اما عايدا أو متضمنا الكثير من القيم أو سياسيا أحيانا ، وربما كان له كل هذه الأمور الثلاثة مجتمعة ، وفي رأيي أنه لا مهرب لأي دراسة يقوم بها الدارس من أن توصف بهذه الأمور ، لأنه يستحيل علينا أن نضع أنفسنا على المريح ونتخيل أننا نراقب البشر من خلال تليسكوب قوى . أننا لا نراقب النمال على سطح الكرة الأرضية ، في حين أننا نحن أنفسنا نمال . وهذا لا يعنى بالطبع أنه ليس من واجبتنا أن نعمل على أن نكون موضوعيين ، فمن الواجب أن نحاول أن نكون موضوعيين ، لأننا نعلم أنه عندما يحين وقت كتابة تاريخنا سوف تكشف أن ما حصلنا عليه من آراء وأفكار تبدو لنا طبيعية كالهواء الذي نستنشق هو آراء وأفكار خاطئة ، وأنها قد تولدت بنظام من القيم لا نستطيع نحن أن ندركه بوضوح . وبالنسبة لي فقد أتاح بناء الجامعة الجديدة ذات القسم الكامل للاقتصاد الفرصة الكاملة لي لكي أعيد التفكير في موضوع علم الاقتصاد وعلى أي صورة ينبغي تدريسه ، ولماذا قبل هذا ينبغي تدريسه . وسوف أكتب فيما بعد عن الصلة بين الحياة الفكرية والحياة العاطفية ، ولكنني هنا أناقش موضوع الاقتصاد فقط .

ويبدو لي أن كثيرا مما جاء في الكتب المقررة ليس غير صحيح من الناحية الرسمية فقط ، ولكنه باعتراف مؤلفي هذه الكتب غير صحيح بالمرّة . فكان يأتي في السنوات التالية ما ينقض ما كان يدرس في السنة الأولى كوسيلة لأعداد نموذج ما ،

أو على الأقل ما يعدله . فلماذا إذن نصمم على تدريسه ، ولماذا لا ندرس ما نعتقد أنه الصحيح ، وهو كيف يؤدي الاقتصاد الآن وظيفته ، وبهذا نحاول أن نثير القضايا في الفلسفة الاجتماعية التي تؤثر في الطلبة إلى حد كبير أو قليل .

وهذا ما فعلناه أخيراً ، واعتقد أننا فعلناه بنجاح مقبول . أن الطلبة يقرأون الآن كتباً صعبة ، كما يناقشون في الحقيقة أفكاراً صعبة ، ولم يعد الاقتصاد موضوعاً جافاً ، بل أصبح موضوعاً مثيراً ، خصوصاً بالنسبة لأصحاب العقول الأكثر تأملاً وفتحة . ولقد ساعد على نجاح هذه الطريقة نظام منهج الشطائر كما يسمى . ويعنى هذا النظام أن يتخلل مرحلة التعليم ثلاث فترات مدتها ستة أشهر تقضى في مواقع التدريب ، فاشتغل بعض طلابنا كإقتصاديين في مصالح الحكومة ، والبعض الآخر كباحثين مساعدين ، والبعض في المشاريع الانتاجية ، واشتغل البعض في دور الطفولة والسجون والمستشفيات . وكان أثر ذلك على نضج الطلاب رائعاً ، وحقق غرضه الاساسي الذي يبين هل الاقتصاد أو غيره من المواد التي يدرسونها تتصل بالعالم الذي يعيشون فيه . ومسألة الاتصال بهذه مسألة خادعة بشكل غير عادي من الناحية الفلسفية إذا أنزلناها . وأول قضية تثيرها هي هل يمكن أن يقال عن أي شيء يصنعه الإنسان أو لا يصنعه أنه غير متصل بعالمه ، بمعنى أن كل شيء يجب في النهاية أن يضيف شيئاً إلى حصيلة التجربة النهائية . والقضية الثانية هي هل نعد الطلاب من خلال تعريضهم لمثل هذا المنهج لقبول المجتمع كما هو ، ولقبول المؤسسات والأنظمة الاجتماعية دون معارضة . واعتقد أن هذا خطير في الواقع . ومن جهة أخرى فإن كثيراً من المؤسسات الاجتماعية ، في نظري وفي نظر الاغلبية العظمى من مواطني ، تبدو مقبولة من حيث المبدأ ، وإن كان يمكن تعديلها من حيث التفاصيل إلى ما هو أحسن . أما تلك المؤسسات التي يشعر المرء حيالها بنفور شديد فإن هناك كما يبدو لي ما يمكن أن يقال عنها للطلبة وهم في سبيل معرفتها ، حتى يمكنهم حينئذ نقدها بطريقة غير رسمية . أما القضية الثالثة وربما كانت أهمها جميعاً فهي هل ينبغي أم لا ينبغي أن يكون التعليم له صلة بالعالم الذي نعيش فيه على الإطلاق .

إن أحد التغييرات العظمى التي حدثت من وجهة نظري هو قبول الرأي السائد بأن الوضع القائم أي ما يحدث في الوقت الحالي هو الشيء الهام ، واعتبار كل ما يحدث تقريباً هو مقدمة لشيء آخر . وهذا البحث يجنبنا السؤال عن القيمة الحقيقية لما يحدث الآن . وهذا ما أود أن أكتب عنه في المستقبل ، ولست متحمساً لموضوع الاتصال في التعليم ، مع أنه موضوع يتناوله الكثيرون ، لأنني اعتقد أن التعليم يجب أن يتناول العاطفة والعقل وغرسها حتى يصبح حقيقة . ويبدو لي أن إخضاعنا هذا الغرض البديل لشئون الحياة اليومية يجعل من التجارب ذات القيمة الحقيقية لمعرفة النفس ومعرفة طريقة الحياة وما ينبغي أن تكون عليه شيئاً تافهاً وسخيفاً . وأني واثق أنني سوف أعارض بقولي هذا كثيراً من الاصدقاء الذين أحترم أحكامهم .

**والآن**

إن الذهاب إلى لندن أمر والذهاب إلى جامعة جديدة أمر آخر . لقد كنت مهتماً

من الناحية السياسية بمشاكل انجلترا التعليمية ، وفكريا باقتصاد التعليم والمعرفة . وكان من المحتم أن تصبح قاعدة عمل هي لندن . وإن جامعة أكسفورد تنتمي الى العاصمة ، ولكنها مع ذلك تقع على مسافة من لندن . ومع أن لندن مدينة كبيرة فإن هناك احساسا بأن هنا مركز النشاط . ومنذ وطئت قدمي لندن لأعمل أخذت أشغل بقضية التعليم من حيث المضمون السياسي الواسع له ، ولقد كان هذا بالنسبة لي أمتع شيء في حياتي الوظيفية الجديدة . وكنت مضطرا أن أعيد التفكير في التعليم وارتباطه بالمجتمع والثقافة في مدينة لا تزال قوى المدينة فيها (بمعناها الأصلي أي المشتق من كلمة مدينة ) قوية بشكل غير عادي ، جنبا الى جنب مع عوامل التفكك الواضحة الجلية في نواح كثيرة . وقد انتقلت الطبقة العاملة الى الضواحي في أعداد متزايدة . وهناك جماعات كبيرة من المهاجرين السود الذين يثرون القضايا العنصرية . وهناك المشكلات الأخرى للمدن كالقوضى ومظاهرها من غش وجريمة . وربما كان من الحق أن يقال أن هذه المشكلات أصبحت أقل مما كانت عليه ، ولكنها الآن واضحة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ولندن التي تعيش فيها الآن مدينة لها حياة فكرية نشيطة ، تقدم فيها عروض الباليهات والاوربات والمسرحيات ، وتعتقد فيها اللجان الحكومية والمعارض الفنية ، وتقام فيها الولائم لرجال السياسة والفن . وهي لا تشبه حياة الضواحي التي نشأت فيها . ومع أنني بعدت عن هذا الماضي فاني ما زلت مخلصا له ، حيث أقضي وقتا طويلا من كل أسبوع أحاول فيه بذل قصارى جهدي لخدمة مواطني ، ومع هذا فلم يدفعني الشوق أن أعود وأعيش في لويسهام أو أن أشعر بتقصير نحوها يدفعني الى أن أخفف من وقعه . ولكن هناك دين أرى من الواجب على سداذه ، وهذه هي طريقي في سداذه ، وبهذه الطريقة فإن الصيحة التي يرددها هؤلاء الذين لم يشقوا طريقهم أو الذين يحلمون أبدا بالعيش في لويسهام من الذين يعتبرون أنفسهم مصلحين هي صيحة النفاق . وربما كان هذا حسنا ، ولكني لا أعتقد ذلك ، ويجب على المرء أن يتوقف عن سداد ما عليه رهنا للماضي .

ولكن إذا تركنا هذا جانبا فإنه ينبغي لكي تنشط محاولتنا لحكم المدينة أن نرى أولا المشكلات التي تؤثر في لندن ، وبالتالي المشكلات التي تؤثر في العالم . وأنا أقوم الآن ومنذ وقت طويل بالعمل في مشروع ضخيم للدراسة معنى المساواة وإبعاد عدم المساواة ، ويتبع ذلك فيما أعتقد أن هناك كثيرا من المسائل التي تثير انتباهك ، وأولها هو ما هي الاسس الاخلاقية للعمل . وحيث اننا محاطون بتغيرات وتطورات غير جذابة في معظمها فإن الرغبة في العمل تشتد ، ولكن الاساس الذي يجب أن يقوم العمل عليه ليس واضحا تماما . ولقد تحددت وجهة نظري من خلال تجربتي الخاصة، وحاولت شرحها في أحدث كتبي « الديمقراطية الاجتماعية » ، وعلق اللورد سنو على كتابي هذا قائلا : « انه ديموقراطي اجتماعي ، بمعنى أنه يعتقد أن الاقتصاد المختلط يهيء في المجتمعات المتقدمة على الأقل أحسن الفرص لتكوين ارتباطات تحت أفضل الظروف بين السعادة المادية والسلوك الحر » . وقد وضع في نهاية كتابه « الديمقراطية الاجتماعية » ما يعتقده خاصة من أن الاعتقاد المتداول الذي ينادي بأن

السلوك والاعتدال والحرية ليست فقط من أساسيات الحياة الطبية ولكن من الواجب أن يحصل عليها هو اعتقاد بطولى فى زمن ترتكب فيه مثل هذه الفظائع تحت اسم المثل العليا ، ولهذا السبب يكره الاجتماعيون الديمقراطيون لافتة شعار المثاليين ، لأن المثل العليا عندهم هى ما يجب أن يتمسك به المتحضرون من الناس إذا كانوا آمناء مع أنفسهم وهى دافعهم الأكبر .

ولست أريد بهذا تحويل أى شخص الى وجهة نظرى الخاصة ، لأن هذا غير لائق بالمرة ، ولكنى أحس أنى مضطر أن أقول الحقيقة ( الى أقصى ما أستطيع أن أقول ) عن تكوين وطبيعة آرائى الخاصة وحكم العالم عليها ، فقد وجدت من العسير بمكان أن أبرر أفكارى وأعمالى حتى عندما أحس احساسا عميقا بشئ ما . فمثلا عندما ذهبت الى جنوب افريقيا تأثرت جدا بما رأيت وأحسست . ومع ذلك وجدت من الصعب أن أفسر فى عبارة لا تبدو أنها مجرد شعار لماذا أحسست أن ما يحدث هناك خطأ ، وأنه لا بد أن يتخذ اجراء ما . والامر الثانى الذى أحسست أنه أثار مصاعب كثيرة كان غير ذى بال ، لأن العلوم الاجتماعية (على الأقل كما أعرفها) لم توضح توضيحا كافيا الصورة التى كان عليها العالم أو صورة التغير والتطور التى كانت تحدث ، وخاصة أن الخطأ لم يكن فى الحقائق نفسها أو فى طريقة التفكير ، ولكنه كان نتيجة صعوبة الرؤية . وأسئله هل هذا هو أفضل الطرق لوصف العالم ؟ وهل هذه هى الطريقة التى توصف بها العلاقة بين التحليل والفعل ؟ لقد حاول الاسديدر ماك انتير بطريقة غير كافية أن يثير بعض هذه الامور فى أحدث كتبه المسمى «فى مواجهة صورة العصر» لأنها مسألة صعبة جدا . ولذلك أعتقد أنى سأشغل جزءا كبيرا من حياتى فى تحقيق هذا الامر .

والآن يجب أن أعود الى السؤال الذى طلب محرر هذه المجلة أن يجيب عليه مقالى هذا : لماذا ينبغي أن يختار رجل صاحب عملين - أحدهما الاشتغال بالعلوم الاجتماعية ، والآخر هو الاشتغال بالتأليف - كلا العمليتين ؟ وأجيب بأن المال هو السبب الاول ، فقليل من الناس ممن ليس لهم دخل خاص يستطيعون أن يعيشوا على الكتابة أكثر مما يعيشون على الصحافة ، الا أننى حتى ولو كان لدى دخل خاص فانى سأظل أعمل فى كلا الامرين ، رغبة منى فى تفهم العالم ورغبة منى فى أن أغير منه بقدر المستطاع ، لأن من واجب الانسان العصرى أن يحاول تنظيم معارفه ليصبح كما نسميه هو الانسان العلمى . ومحاولة فهم العالم بدون نظام صارم تبدو لى كأنها رفض لقوة العقلانية . ولكننا اذا فسرنا العقلانية بمفهوم العلوم الاجتماعية كما نعرفها اليوم فاننا نرتكب بذلك خطأ كبيرا ، كما ذكرت فى حديثى سابقا عن تعليم الاقتصاد فى الوقت الحاضر .

وهناك طريقة أخرى للتعرف على العالم بما فيه الانسان نفسه ، وذلك من خلال الفنون ، وهى الكتابة فى مثل حالتى . فاننا لا مهرب لى من أن أكون كاتباً ، فالكتابة والاشتغال بالادب لهما جذور طبيعية عميقة فى نفسى ، فلم أشك مطلقا فى اننى كنت

كاتباً ، ويبدو لي أنها ليست بديلاً ، ولكنها مكملة لمهنتي كاتقصادى . وفى الحقيقة إذا كانت العلوم الاجتماعية تمر الآن بمرحلة تغير عميق فإن من وسائل التغير التعبير الحر للتجربة الشخصية المباشرة من خلال الفنون . فانا كقيرى من الناس برم بالقصة أو الرواية كشكل ، وهذا لا يمنع من وجود كتاب القصة المتنازين من الانجليز المعاصرين ، وان كان يقال ان الادب الروائى فى أمريكا أقوى فى الوقت الحاضر من الادب الانجليزى . ويبدو لي أن هذا غير صحيح ، فالادب الروائى الأمريكى يبدو لي كأنه نموذج متكرر مصنوع . واعتقد - لكى تكون أكثر دقة - أن كثيراً من الكتاب أصبحوا كتاب تراجم ( وإن كان بروست وجويس يفعلان ذلك خفية ) ، وكثير منهم تعلموا ملاحظة العالم من خلال الدراسة الواسعة بالاسلوب الاكاديسى الرئيسى . وهذا يوضح المشاكل الخاصة للشكل والتعبير ، وادراك العلاقة بين الفكر القائم والفكر المؤثر الذى يشير الى الوسائل الحديثة فى التعبير . فالدراسة الاكاديمية تنظم بلاشك نعل كتابة المراء النظرية ، وكذلك ادراكه الحسى ، كما تترك الصحافة اثرها الخاص . وهذا ما أشار اليه كيلنج . ولذلك كان أحد الاسباب التى جعلتنى كاتباً أن أكون أكثر من حزمة من المفاهيم الاكاديمية .

وفى الواقع لم أستطع بعد أن أحل مشكلة كتابة كتابى القادم ، مع أنى فء كتبت نصفه تقريباً ، لأن بناءه صعب ، وكذلك موضوعه ، لأنه يدور عن شخصى حيث أحاول فيه أن أشرح رأيى فى موضوع المساواة وغير ذلك من الموضوعات التى اشتغل بها .

ويتطلب الأمر لكى أضعه فى الصيغة المطلوبة أن أكون منظماً وبعيداً عما يتعلق بشخصى ، بعيداً عن الأثرة . وهذا أمر صعب التحقيق ، وان كان مرغوباً فيه ، وهذا أشبه بالنموذج الذى استعمله كيرل كونولى فى كتابه «أعداء الوعد» ، وهو تزواج بين وجهتى النظر الشخصية والموضوعية . ولقد حاول ريتشارد هوجارت مثلاً أن يفعل ذلك فى كتابه عن طفولته الذى نجح كعمل أدبى ، وكان يجب لكى يكون ذا تأثير كامل أن يكون أكثر تهكماً ، فإذا كان هذا الاسلوب غريباً عليه فكان أولى به أن يتحكم فى عاطفته .

ولقد كان كتاب «فوائد معرفة الكتابة والقراءة» من نوع الكتب التى أصبحت مألوفة بدرجة كبيرة . وكتاب أ . الفارز «الاله المتوحش» الذى كتب فيه عن الانتحار يعد من هذا النوع ، لأنه أثر البعد عن الشخصية ، ولكن استندهال هو الوحيد الذى عالج الموضوع بكل نجاح ، وكان كما هو استندهال ، ولكنه لم يكن كذلك هنرى بيل جبناً أراد أن يجعل من نفسه استندهال .

ان معنى الازدواج هذا ، أو المرايا التى تتعكس فيها مرآة وراء الاخرى ، كما فى كتاب فيلاسكيز المسمى «لاسى ميننياس» ، هو ماأرئو الى تحقيقه .



# مجلة ترانساكشان

عشر سنوات من الصحافة  
النقدية للعلوم الاجتماعية

وفي مقابلة مع مجلة التايم عام ١٩٦٣ ، وجه الى سؤال يتعلق بمشكلة توصيل الحقائق السوسيوولوجية الى المواطن العادى . وبرغم أن اجابتي آنذاك جاءت مغلفة برداء الاطلاق السوسيوولوجى ، فقد خامرني الاعتقاد بأن المشاعر التى عبرت عنها تميز - دون مبالغة - ذلك البناء الذى تعمل مجلتنا فى داخله .

ولا ريب فى أن علم الاجتماع ينطوى على عدة مزايا بالنسبة للمواطن العادى . فهو ذو أهمية حيوية لحياة المواطن العادى اليومية . فالانسان لا ينفق سوى وقت محدود للسياسة الرسمية ، وربما أنفق وقتا أقل فى التفكير حول العلوم البحتة . وطوال معظم اليوم يشغل الناس بمشكلات الاسرة ، وتربية الطفل ، والسلوك الشاذ، واتجاهات العنف الاجرامى ، ثم مشكلات الاقليات . وبعبارة أخرى يقضى الناس معظم وقتهم فى التفكير السوسيوولوجى عندما لا تشغلهم مشكلات توفير أسباب الحياة .

وانطلاقا من وجهة النظر هذه يشتمل علم الاجتماع على كافة صسور الاهتمام الانسانى . ويعد هذا شرا وخيرا فى نفس الوقت هو شر لأن كل فرد يظن أنه عالم اجتماع بالنظر الى ما ينفقه من وقت على المشكلات الاجتماعية ، شأنه فى ذلك شأن كل



## بقلم : ارفنج لويس هوروفيتز

## ترجمة : الدكتور محمود اسماعيل محمد

مترجم : د. محمود اسماعيل محمد : أستاذ العلوم السياسية المساعد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة . ألف عديدا من الكتب والدراسات مثل : « دراسات في العلوم السياسية » ، « استخدام القوة المسلحة في العصر النووي » ، « استخدام الدبلوماسية في العصر النووي » ، « نزع السلاح » . كما ترجم عديدا من المقالات في هذه المجلة .

يحمل ارفنج لويس هوروفيتز رئيسا لتحرير مجلة ترانساكشن الشهرية ( وتسمى الآن « المجتمع » ) ، وهو أستاذ للاجتماع والسياسة في جامعة روتجرز بولاية نيو جيرسي . وقد عمل أستاذا زائرا في جامعات لندن ، وويمنس آيرس ، والكسبيك . وهو مؤلف مشهور ، اذ ألف حتى تاريخ نشر هذا المقال تسعة مصنفات منها : الفلسفة والعلوم وسوسولوجيا المعرفة ( ١٩٦٠ ) ، ولعبة الحرب ( ١٩٦٣ ) ، وثلاثة عوالم للتنبية ( ١٩٦٦ ) ، ( ١٩٧٢ ) ، وآخرها « أسس علم الاجتماع السياسي » ( ١٩٧٢ ) . ومن بين الكتب التي قام بتحريرها : تاريخ وعناصر علم الاجتماع ( ١٩٦٤ ) ، والقوة والسياسة والناس ( ١٩٦٣ ) ، و ظهور وسقوط مشروع كاميلوت ( ١٩٦٧ ) ، ثم استعمال وسوء استعمال العلوم الاجتماعية ( ١٩٧١ ) . وفصلا عن كل ذلك قام بنشر مقالات كثيرة منها : الهندسة والآفاق السوسولوجية للتنبية المنشورة في المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، مجلد ( ٢١ ) ، ع ( ٤ ) ، ١٩٦٩ . ويحرر حاليا اعدادا متسلسلة من الدراسات الدولية تعتمد اساسا على مادة مستقاة من الاعداد السابقة للمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية بالتعاون مع الأستاذ هو روفيتز لنشر عن طريق مؤسسة الترانساكشن .

انسان يعتقد أنه يعرف كل شيء عن الاقتصاد طالما كان المال متوافرا لديه . ولكنه أيضا خبير لأن الدافع الى اكتشاف خبايا المجتمع أكثر قوة وانتشارا من الدافع الى معرفة المشكلات التي تبدو أكثر بعدا . وتتوافر دوما فرصة ربسط علم الاجتماع بالعامية . والمشكلة هي الجمع بين التصور الفكري والاقتدار السياسي في استراتيجية واحدة ، ثم المعرفة المباشرة لأسلوبنا في الحديث والكتابة ؛ وهو امر بالغ الصعوبة ، وان كان تحقيقه ممكنا . وهذا ما تهدف اليه الترانساكشن .

والأهم من الوصول الى الشعبية أن تكون هناك رابطة مع أولئك الذين هم على مستوى السياسة . فهذا المستوى - بالنظر الى اهتمام العامة فعلا باعداد السياسة - أكثر المناطق حساسية حيث يرتبط العالم الاجتماعي بالعامية . فالسوسولوجي - باعتباره مستشارا لمن هم في موقع السلطة يرتبط بجمهور عريض شاء أو لم يشأ ، أو تصور ذلك أم لم يتصور . وهذا هو ما تأمل المجلة أن تحققه .

ومن وجهة نظري الخاصة ، فإن ظهور مجلة « الترانساكشن » لم يكن عرضيا أو مصادفة . وانتهقت مشاركتي الخاصة من رغبة قوية في بعث الحياة في علم اجتماع

جديد مختص بالانباء الضخمة ، والذي أعلن عنه «روبرت بارك» فى عشرينات القرن  
الساحلى ، ثم علم اجتماع مختص باللامعة السياسية على نحو ما حدده ميلز فى  
الخمسينات . وشهد علم الاجتماع دفعة قوية جديدة مع التحكم فى الطاقة والتنسيق  
بين المقررات الايدولوجية المتباينة . وقصد انطوى ذلك على الانتقال من النقد الى  
البناء ، أى التحرك من العداوة والمعارضة الى نقطة الخلق والعلم . ولم تختلف المشكلة  
التي واجهتها عن مشكلة ثورى عسكري تحول الى قائد سياسى . وأدى تأسيس مجلة  
الترانساكشان فى ١٩٦٣ الى ايجاد أداة توضيح غلبة وجهة النظر التي ظلت أدافع عنها  
منذ ١٩٥٣ على وجهة النظر الاخرى المعارضة .

واقضى التحول من النقد الى البناء فى النهاية أن فتحت المجلة ذراعيها أمام  
اتهامات ودعاوى صفار النقاد الذين أسرعوا فى توجيه اللعنات اليها والى الوضعيين  
والوظيفيين . وهذا هو ما يجب أن تكون عليه المجلة .

١٩٦٣

يمكن أن توصف السنة الاولى للمجلة بأنها بحث عن الهوية الايدولوجية مع  
مراعاة حقيقة أن المجلة بدأت عرضا الى حد ما - وبالأحرى كامتداد ، تقريبا ، لمنحة  
قدمتها مؤسسة فورد لجامعة واشنطن لتعليم الكبار . وفى هذه السنوات الانشائية  
المبكرة ، كان يمكننا أن تكون ادارة الاعمال سيئة والأسوأ من ذلك ، كان سوء الادارة  
المطلقة يمكننا ، بل انه كان أمرا طبيعيا للغاية ، وذلك اذا ما أخذنا فى الاعتبار الكيفية  
التي تعمل بها الجامعات الامريكية . ولعله من قبيل الانصاف ألا نلقى المسؤولية كلها  
على سوء الادارة ، ففكرة أن الجامعة يجب أن تدعم مجلة للعلوم الاجتماعية من خلال  
اقتراح تقديم منح كانت لا تزال جديدة بحيث لم تكن ثمة أساليب راسخة لتشغيل  
أشخاص من خارج السلك الادارى أو الاكاديمى . فعلى سبيل المثال ما هى الشروط  
اللازم توافرها فى رئيس تحرير مجلة ما ؟ هل يكون مرتب وامتيازات المحرر العادى  
على نفس المستوى مع مرتب وامتيازات رئيس التحرير ؟ أم تجب معاملته على أنه  
عضو فى السلك الادارى الفنى ؟ . ومازالت تلك المشكلات معلقة بلا حل ، على الأقل  
ليس فى اطار جامعة واشنطن . وأمام حقيقة أن مجلة الترانساكشان كانت فى مراحلها  
الاولى محاولة متواضعة ، أضحت يمكننا التعامل مع المشكلات الاكبر . والواقع أن  
المجلة فى أعدادها الاولى لم ترتفع عن كونها مزجا « لمجلة الخريجين » مع « ضمير  
اجتماعى » .

وفى البداية ، كانت القضية هى ما اذا كان يتعين توجيه المجلة نحو إتاحة العلم  
لغير المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أو فقط للمهتمين باكتشافاته ونتائجه . فعلى سبيل  
المثال ، هل القصد من المجلة هو تعليم مزيد من المعلمين ؟ أو تعليم صفوة رجال من  
الاعمال ، أو قادة المجتمع ؟ هل كان مفهوم التعليم متعلقا أساسا بالتثقيف أم بالحركة؟  
ومنذ البداية تقريبا ثارت مشكلة خطيرة تتعلق بالجمهور . فقد نظر اليه على

أنه يضم مجتمع الاعمال ، والعاملين في مجال الرفاهية الاجتماعية والبيروقراطيين من المستوى المتوسط . ولم يعط اهتمام حقيقي لما يمكن أن تقدمه المجلة لمئات الألوف من مدرسي العلوم الاجتماعية ، فضلا عن الملايين من طلبة المدارس العليا والكليات المستقلين بالقضايا الاجتماعية . ولم تعكس هذه الصفة الانتقائية تقويمنا لجمهورنا بحسب ، وإنما أيضا ادعاءنا الصفوية .

وثمة مشكلة أخرى تتطلب بالضرورة مواجهتها منذ البداية ، وهي مواقفنا من السياسة والجنس والدين . وفيما يتعلق بقضية الجنس ، ثار تساؤل عما إذا كان يتعين نشر مقالة عن « السحاق » عن دراسات علمية يجري إعدادها بواسطة كل من دافيد وارد ، وجين كاسيوم . وتزعم المقالة أن السلوك السحاقي لم يكن نتيجة الشذوذ الجنسي كنزوة أو غريزة بقدر ما كان نتيجة لحجز النساء في بيوتهن كأنهن سجينات . إلا أن التساؤلات المثارة في هذا الصدد كانت عاطفية أدت الى خلافات حادة بين المحررين . وبتطور الوقت صفت تلك الخلافات بفضل التسليم بحرية التعبير ورفع القيود عن اللغة المستعملة والمادة التفصيلية . ولم تشجع المجلة مطلقا على استخدام الأسلوب غير المهذب في الكتابة ، كما لم تفرض استعمال لغة معينة ، ولكنها اعترفت بوجود سلوك منحرف لدى بنى الانسان . ونحن نقر بأن المشتغلين بالعلوم الاجتماعية حينما يكتبون عن هذا السلوك الذي نعرفنا عليه ، فإن الأسلوب غير المهذب يجب اتباعه أحيانا . وفي النهاية كان هذا القرار بالغ الأهمية في بلورة إطار يسمح بازدهار الترانسكاشن كمجلة لعلم اجتماع جديد وليس مجرد مجلة تقتفي أثر التقاليد المعاصرة .

ولم يكن قرار الانفتاح على المسائل الجنسية سهلا على نحو ما يبدو الآن . ففي الوقت الذي كانت تناثر فيه مسألة استخدام الألفاظ البذيئة في الترانسكاشن كانت جامعة شيكاغو تعمل على إغلاق مجلة « شيكاغو ريفيو » لنشرها أشعارا تحوى كلمات من هذا القبيل . كذلك سبقت مناقشاتنا حركة حرية الرأي في بيركلي ، وبزوغ الصحافة السرية .

ومن الصعوبة أن نتذكر سرعة التغير .

وبطبيعة الحال ، كانت هناك مشكلات أخرى : ما مدى التأكيد على علم اجتماع دون آخر ، ما إذا كانت المقالات طويلة أو قصيرة ؛ ما إذا كان يجب تشجيع التقارير التي يكتبها المحررون أو إعادة كتابه أبحاث العلماء ؛ وأخيرا ما إذا يجب البحث عن الأبحاث المبتكرة أو جعل الأبحاث التي سبق نشرها في متناول جمهور عريض . ومنذ البداية كشفت لنا هذه القرارات عن الصلة بين البحث عن الهوية الايديولوجية وبين وسائل ترجمة تلك الهوية الى شكل مناسب .

أننى حينما أعود بذكرياتي الى تلك الفترة بكل جوانب ضعفها وقصورها ، فإن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن كثيرا من الناس والمثاقير المعبر عنها في السنة الأولى للنشر ظلت دافعا قويا بعد عشر سنوات . وبعبارة أخرى من الخطأ الاعتقاد بأن

سنوات البحث الاولى عن هوية ايدولوجية كانت مجرد بحث ، اذ انها كانت انجازا فى جوانب عديدة . فمنذ صدور العدد الاخير من المجلد الاول ، اتخذت المجلة شكلا محددا ، واثارت بالفعل بعض القضايا الجوهرية المعاصرة . فقد أميط اللثام عن مختلف المشكلات مثل أوضاع الطبقة العاملة من السود ، وحركات التمرد التى أصبحت ظاهرة خطيرة تجتاح الشوارع كل يوم فى صورة أشبه بالحروب .

ولم تكن المشكلات التى واجهناها فى السنة الاولى للنشر مجرد مشاكل ايدولوجية ، وانما كانت أيضا مشكلات تتعلق بالتحريك . فلم تكن بحاجة الى بيان كيف يتأتى للعامة أن تستخدم العلوم الاجتماعية وتفيد منها ، وانما كيف يمكن جعل هذه العلوم تستجيب للعامة . ما هو سبيلنا الى جعل رجال العلوم الاجتماعية يكتبون بوضوح ؟ ما هو سبيلنا الى اقناعهم بعدم الخشية من التماثل بين وضوح العرض وبين اتخاذ مواقف تجاه القضايا السياسية والاجتماعية ؟ . فضلا عن هذا كله ، كن نعمل فى ظل نتائج فهم داخلى ينظر الى الشعبية فى عبوس ، والى الوضوح - فى شك عميق - على أنه مرادف للتبسيط المبالغ فيه . وقد ظهر المجلد الاول فى وقت كان التفوق الادبى فيه - بلا منازع - معيارا للكتابة فى العلوم الاجتماعية . وكان علينا أن نهيا فريفا كاملا من الكتاب والمحللين القادرين على ترجمة الحقائق الاجتماعية الى الانجليزية بشكل لا يضايق رجال العلوم الاجتماعية ويدفع مجموعة القراء الذين جذبتهم مجلتنا الى التبدل . وبنهاية السنة الاولى المصرية الكبيسة ، أضحت مجلتنا منبرا للعلوم الاجتماعية فى بيئة مهنية غير مواتية .

: ١٩٦٤

ادخل المجلد الثانى من الترانسكاشان تحسنا كبيرا فى مظهر المجلة . فقد حدثت تغييرات يعتد بها فى الشكل والتصميم والتصوير . وبدأت المجلة تأخذ مظهر مظهر واحساس غيرها من الدوريات الشهرية . وبدأت هيئة التحرير تؤكد على ملامح خاصة مثل حلقات البحث فى الشؤون الجارية ، وانشاء قسم لعرض الكتب ، وتطوير فكرة الملاحق الخاصة ، ثم ادراك الحاجة الى بذل جهد للحصول على الاعلانات لتحقيق دخل اضافى . ويمكن القول بأن المجلد الثانى الترانسكاشان شهد اهتماما خاصا مرحبا بشكل المجلة فى حين كان المجلد الاول محاولة ايدولوجية لمعرفة الهدف الذى نطمح اليه ، وكيف يمكن بلوغه .

ان قدرا كبيرا من الفضل ينبغي أن ينسب الى كل من « ليونارد زويج » ، اول محرر المجلة ، و « جورج تالبوت » اول مدير للباب الفنى فيها . وحققت المجلة - دون تجاهل عنصر الاثارة - واقعية فى فن التصوير تتشعب مع روح العلاقات والقضايا الاجتماعية التى تناولها محتويات المجلة . الا ان رسالة عامنا الثانى تتعدى مجرد تشغيل محرر ومدير لباب الفن . ففي النهاية كان هناك اعتراف بأن اختلاف الناس حرى باختلاف مهامهم ، وبأن بقاء مجلة ما أمر يتوقف - بدرجة كبيرة -

على نوعية الأشخاص العاملين أكثر من اعتماده على الذكاء الفردي ، أو الجهد المشتت والمتميز .

واتضح بدرجة كبيرة ضرورة التحرك في هذا الاتجاه على أثر قيام الى جولدنز ، وكنت مساعدا وحليفا مواليا له من البداية رغم ما بيننا من اختلاف في الاتجاهات ، بالرحيل الى أوروبا وطول غيابه فيها . وبوصول لي رانواتر . ثم شغله الفراغ الذي خلفه رحيل جولدنز . والواقع أننا عملنا سويا كرئيسين للتحريير . وقد شعرت كافة العناصر المعنية بأنه ينبغي اخضاع المجلة ، ابقاء على هويتها الخاصة وشرعيتها ، لرئاسة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ، وليس للصحفيين ، الذين ينحصر اهتمامهم في التحليل . وذلك هو أفضل سبيل لتيسير عمسل المجلة في غيبة اية معقولة حقيقية أيديولوجية أو نظرية .

وقد انحصر اسهام رانواتر في غرس ما يعرف باسم « أسلوب شيكاغو » . وكان نشاطه « وهو طبيعة عمله ، موجها نحو الادوار الجنسية للرجال والنساء ، ومشكلة انحراف الأحداث وعلاقتها بالفقر ، والوعي بدور الزوج في حياة المجتمع الأمريكي » . وبوضع الأمور في منظور تاريخي ، يبدو الاسهام الذي قدمه رانواتر للمجلة على امتدادا لسنتين متكافئا مع اسهام جولدنز . اذ اهتمت المجلة بمشكلات علم النفس الاجتماعي والانحراف والشذوذ . ووضعت نفسها . بدقة خارج التيار السائد . وهكذا تجاوزت المجلة أيديولوجية نتاج علم اجتماع موجه الى مجتمع رجال الأعمال . وطالما كان تفكيرى وخبرتى السابقة اقرب الى ذلك الذى لـ جولدنز منه الى رانواتر ، فإن اسهامات هذا الأخير كانت جميعها ايجابية .

ومرة أخرى ، كانت مسألة مضمون المجلة ايسر في حلها من مسألة تنظيمها وذلك في المجلد الثانى وفي غيره من المجلدات . وجاءت المشكلات التي واجهناها على غير ما كنت أحلم بوجوده في العالم السوسيوولوجى . فقد كانت هناك مشكلات معقدة منها : ما هو حجم المجهود اللازم لجذب المشتركين ؟ كيف يتأتى تحويل نجاح أدبى الى نجاح تجارى ؟ ما هو التصميم المناسب للمجلة ؟ ماذا يجب أن يكون عليه ميعاد اصدار المجلة ؟ وكم عدد الصفحات في كل عدد ؟ كيف يمكن الحصول من الجامعات على دعم بالتعيينات الادارية للمجلة ، ما هي المستحقات المالية للمحرر وللأستاذ الجامعى .

وقد أصبح واضحا أن نجاح الترانسكاشان . أمر يتوقف ، على الأقل ، على مهارات ادارتها ، التي لا تقل في أهميتها عن اسهامات المحررين ، وإن كان اكتسابها اصعب من اكتساب الثانية .

وبنهاية العام الثانى لم يكن قد لمع بعد شخص معين يمكن أن يقال عنه أنه متخصص في ادارة الأعمال ، أو جذب الاشتراكات ، أو المحاسبة وامساك الدفاتر . فقد ارتبطنا بالجهاز الادارى للجامعة الى حد افتقارنا الى مصدر معين للمعلومات بمدنا بإيراداتنا ونفقاتنا ، وهو ما أدى في النهاية الى نتائج مؤسفة . فحين جاءت

الدفعة فيما يتعلق باستمرار النشر من جامعة واشنطن ، كان التساؤل الأساسي هو المكسب أو الخسارة .

وفي المجلد الثاني أحرزنا بعض التقدم . فقد بدأنا نرى أن كلا من مجلة « هاربرز » ومجلة « آتلنتك آند بزنس ويك » كانت - على الأقل - نموذجاً نحاول أن نحتذيه مثل المجلة السوسولوجية الأمريكية . وقد تحولنا - بشكل مثير - من مجلة لاعادة الطبع الى مجلة للتعبير عن أفكار جديدة حول آفاق العلوم الاجتماعية وذلك بأسلوب يفهمه كل شخص ، كذلك تزايد الاعتراف بالقدرة السياسية لمجلة مثل مجلتنا . وترتب على معالجة قضايا حركة حريات المرأة وكفاح الزنوج من أجل الاندماج ، أو العلوم الاجتماعية والحريات المدنية ، الانتقال الى موقع في الحياة السياسية أصعب بكثير مما تصورناه .

وكان ادراكنا أساسا للسياسة ادراكا قوميا برغم أن الجهود الرامية الى تدويل المجلة اسفرت عن نجاح محدود . وبهذا المعنى لم ننفذ بالكامل شروط العقد الخاص ببورة علم اجتماع جديد ، والذي تحددت خطوطه العريضة سلفا . وقد ظللنا محكومين . بإيمان في الرقابية ، وما كان بمقدورنا أن ندرك إيمان الذين يحكمون كما لو كان العنف يسيطر عليهم .

وكان ظهور المشايعة في المجلة علامة على أننا بدأنا نفهم أن اهتمام نفس العلماء الاجتماعيين باعادة بناء المجتمع الأمريكي كان أكثر مما توقعناه . ودخلنا بسرعة فترة شهدت دافعا قويا ، خاصة في نطاق علم الاجتماع ، الى تجاوز الجوانب التحليلية الى الجوانب العملية للتغيير الاجتماعي . ولم توجد اى دورية أخرى تخدم جمهورا عريضا ، ومع ذلك توفر خدمة لمجتمع اكاديمي انفصل ببطء عن التغيير البنائي الذي حدث طوال خمسينات القرن الحالي وأنفوس بعقم في صراعات الستينات من أجل التغيير الاجتماعي .

وقد بدأنا - وإن كان على نطاق محدود للغاية - في تجاوز مراتب علماء الاجتماع فيما يخص كتابتا . ففي البداية كان علماء النفس الاجتماعيون هم الذين قدموا لنا مدخلا اضافيا ، كما قدم علماء السياسة والأنثروبولوجيا خدمات هنا وهناك ومع ذلك لم تكن المجلة في عامها الثاني كما في عامها الأول ، دورية للعلوم الاجتماعية بقدر ما كانت دورية لعلم الاجتماع . وكان من المفترض ضمينا ، ان لم يكن صراحة ، ان مجلتنا أداة للعلاقات الطبية بالنيابة عن مؤسسة المشتغلين بدراسة علم الاجتماع . ومع ذلك فانه بانتهاء المجلد الثاني ، يتبين تماما أنه اذا لم نكن أعداء للمؤسسة ، فاننا كنا مؤسسة مضادة . وبهذا المعنى فقد كنا قوة يحسب لها حسابها في نطاق علم الاجتماع .

وفي نهاية السنة الثانية كان هناك تقبل عام لتجاهل الاسماء الكبيرة في علم الاجتماع ، وانشاء مؤسسة للعلوم الاجتماعية تركز جهودها في اخراج مجلة علوم

اجتماعية من الطراز الاول تتحاشى المهارة التقليدية على المستوى التكنيكي. وبدلا من ذلك كان بحثنا عن جمهور جديد من انصار العلوم الاجتماعية ، وفي غمار ذلك عن وعى جديد في اطار تلك العلوم .

: ١٩٦٥

ومع بداية المجلد الثالث أصبحنا أداة اتصال عامة ، وليس ، مجرد امتداد لمؤسسة مهنية . فقد أعطت المجلة ، بفضل ارتباطها بي ، فكرة واضحة عن رسالة انعلوم الاجتماعية التي اخفقت المجلات الأخرى للعلوم الاجتماعية في أدائها ، أو على أحسن الأحوال ، أدتها على الهامش . واهتمت الترانسكاشان اهتماما أساسيا بالعلاقة بين العلوم الاجتماعية واعداد السياسة القومية .

وبدأت الترانسكاشان في نشر مقالات تؤثر بعمق على العلوم الاجتماعية في علاقتها بالسياسة العامة . فعلى شاكلة نشرة علماء الذرة التي اهتمت بالعلاقة بين العلوم الطبيعية ومشكلاتها وبين اعداد السياسة العامة والقومية ، مع احتفاظها بمناصرين من علماء الطبيعة ، ظل لمجلتنا جمهور كبير من المناصرين في نطاق علم الاجتماع . ومع ذلك فقد استطعنا أن نفتح على العلوم الاجتماعية قاطبة . وحدث ذلك طبيعيا لأن الاهتمامات بمسائل السياسة أساسية لكل الميادين من الاثنروبولوجيا الى الاجتماع . وجاء دخولنا ميدان السياسة عقب مشروع كاميلوت .

وبعد هذا المشروع لم يعد بإمكان المرء أن يشكك في علمية العلوم الاجتماعية تماما مثل العلوم الطبيعية . فقد اضحى معترفا به أن العلوم الاجتماعية والطبيعية ميادين تقبل التنبؤ والضبط . ومن بين الآثار الحتمية لمشروع كاميلوت أن أصبحت القضية الأساسية تدور حول أغراض أبحاث العلوم الاجتماعية ، إذ كان هذا المشروع خطة دمجية اجتماعية ثقافية مقارنة . ورغم بفضه لبنى الانسان ، الا أنه كان محاولة من جانب الحكومة الأمريكية لدراسة الحركة المدنية وحركات العصيان المضادة بالاستخدام الواسع للأساليب والطرق والنظم المعروفة في كافة العلوم الاجتماعية . وناتت طبيعته الدمجية تغلغلا في المنهاجية .

وأوضحت مقالتي عن مشروع كاميلوت كيف أن المؤسسة العسكرية نظرت الى الاقتراب الدمجي للعلوم الاجتماعية على أنه أمر واقع . وبالتأكيد لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ساعدت فيها تكنولوجيا الحرب على حل المشكلات التي تركها ممارسو العلم . وجاء المشروع علامة على مجيء العلوم الاجتماعية في صورة جديدة . وكاد أن ينتهى عصر البراءة السوسولوجية : ولذا كان على كل فرد أن يواجه مسألة تحديد موقفه بعيدا عن جوانب الغموض المعتادة التي تريح البشر المحايدون خلقيا . كذلك اشتمل المجلد الثالث على تغييرات أخرى تعكس نفس هذا الاهتمام . فقد نشرنا مقالا كبيرا بقلم بيرترام . م . جروس ، أوضح فيه الحاجة الى مجلس

للمستشارين الاجتماعيين بمائل في منزلته وسلطاته مجلس المستشارين الاقتصاديين الذي أصبح بشيرا بحركة المؤشرات الاجتماعية التي اكتسبت مكانة وأهمية مع مرور الوقت . وبالمثل كانت المقالة التي كتبها كل من لي رانواتر ، ووليام يانكي عن « الأسر الزنجية والبيت الأبيض » دراسة رائدة عن الصراع الذي احتدم حول التقرير الشهير الذي قلمه دانييل باتريك مونيham عن « الأسرة الزنجية : مبررات الحركة القومية » . وأوضحت المقالة كيفية كتابة التقرير ، وكيفية حصوله على التأييد ، والعلاقة بين مونيham وبين حكومة جونسون ، وطبيعة النقد ، وكيف أصبح مونيham - مع مضي الوقت - زعيم مناصرة القوة السوداء . وهكذا صار واضحا أن المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ، على المستويين القومي والدولي ، كانوا يتجاوزون الأدوار التقليدية للبحث إذ كانوا يخلقون ويناصرون السياسة . وكان تحليل حالة الأسرة الزنجية ، من حيث ارتباطها بعدم الاستقرار المفترض من جانب ذكور الزنوج، مصدرا لتوصيات السياسة لا يقل في أهميته عن الضغوط العامة . وبات واضحا أنه في هذه الدائرة ، كما في غيرها كانت العلوم الاجتماعية في القرن العشرين في صف المستقبل مثلما كانت العلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر في صف التحليل التاريخي .

وسمح أسلوب المجلة في تعيين رسالتها الجديدة والعلاقة بين العلوم الاجتماعية والسياسة العامة ، بتحديد جديد لفرض العلوم الاجتماعية ذاتها ، وهو أنه ليس تجزئه علم الاجتماع ، وإنما تحسين المجتمع ، وليس تجزئه علم السياسة وإنما بيان مواضع استخدام جوانب قوته للارتفاع بمستوى الحياة السياسية ، وليس المطالبة بإنهاء البحوث ، وإنما حمايتها عن طريق جعلها في متناول العامة ، ثم عن طريق جعل مشكلات التدعيم والاستفادة أبعادا أساسية في تحليل تصميم وعملية البحث .

ومع صدور المجلد الثالث ، تزايدت مبيعات المجلة بشكل مثير . فاول مرة ، ناز الاهتمام بتفاصيل الأعمال المتعلقة ببقاء المجلة ، وجذب الاشتراكات ، والاعلانات والأنشطة التشجيعية ، فضلا عن الانشغال الواعي بمشكلات التصميم . ولو أن تلك الحاجات تبدو - مع وضعها في منظور تاريخي - واضحة ، فالواقع أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر طمسا لمعنى الحقائق التجارية من العيش في إطار ميزانية إحدى الجامعات أو منحة إحدى المؤسسات ، ومع ذلك جاءت أول إشارة عن اهتزاز التزام الجامعة تجاه المجلة حينما قدمت جريدة « نيوزويك » منحة إلى المجلة . وحينما علمت بذلك الموقف ، أوقفت المفاوضات على الفور . وكان عدم اللامبالاة هو رد فعل المسؤولين على ما ظننت أنه اهانة بالمعايير الأخلاقية . وبدلا من الحصول على تأييد سلطات الجامعة ، تلقيت كلمة مفادها أن الجامعة لاتعارض بيع المجلة إلى المصادر التجارية . وقد أبلغت ، بصفتي الشخصية ، أن المسؤولين في الجامعة قد ضايقهم . إلى حد ما - جهودى الرامية إلى منع بيع مجلتنا لـ نيوزويك . وما لبث أن تغير رأي المسؤولين بالجامعة بشكل مثير . فقد انتقلوا من التأييد إلى المعارضة ، اعتقاداً



منهم بأن الجامعة لا ينبغي أن تتدخل في أعمال المجلة - وهي وجهة نظر انتهت فيما بعد إلى مشارطتهم إياها ، وإن لم انطلق من نفس الأسباب .

وطوال هذه السنوات المبكرة ، كان غيوض الملكية مثار تعذيب لنا . وقدمت الجامعة مجموعة ماثلة من المطالب كان من الصعب التوفيق بشأنها . فمن ناحية تعين علينا أن نتجنب الشعبية في معناها التجاري الضيق ، ومع ذلك وجب علينا آنذاك أن نحقق ربحا ، أو على الأقل نتجنب خسارة . وحددت الترانسكاشان وعملت باعتبارها قسما جامعا فيما يتعلق بالأشخاص العاملين واجراءات التشغيل ، الا أنها - وعلى خلاف أى قسم آخر - كانت ملزمة بتحقيق ربح مع إبراز قيمتها .

: ١٩٦٦

جاء المجلد الرابع معه بتغييرات كيفية في المجلة : تحويلها من مجلة تصدر كل شهرين إلى مجلة شهرية ، وزيادة عدد صفحاتها من ٣٢ صفحة في المجلد الأول إلى ٦٤ صفحة في المجلد الرابع . وهكذا دخلت المجلة من حيث حجمها وميعاد صدورها، مرحلة جديدة تركز على أساسيات نشر المجلة ، فضلا عن أساسيات أيديولوجية العلوم الاجتماعية . وكان لهذا آثاره الداخلية والخارجية . فعل المستوى الداخلي ، اقتضى الإصدار الشهرى للمجلة قدرا أكبر من الخبرة والتفاني يفوق ما كان مطلوبا في أى مرحلة سابقة . وتزايدت المشاركة الشخصية هندسيا . وحين كان الجدول الشهري للمجلة جامدا ، كان كل شيء آخر مرنا وقابلا للتعديل . وصار ذلك كله ممكنا بفضل تطوير ثقافة للعلوم الاجتماعية أصبحت فى النهاية متمشية مع العمل الذى كنا نؤديه . وقد توافر لنا ، من عدد المطبوعات التى تلقيناها ومن حجم الاهتمام الذى رأيناه ، كم من المعلومات أقنعنا بأن هناك سندا فكريا فى المهنة . وأضحى اهتمام المجلة بالتنافس على نشاطاتنا أكثر من اهتمامها برفضها . وفى غمار هذه الموجة ظهرت مجلات أخرى مثل « علم النفس اليوم » ، « التفاعل » وتزايدت قوة مجلتنا بما يكفى لاجتذاب أفضل الكتاب ، ولم تعد مجرد مجلة لإعادة النشر ، أو نشر مواد ضعيفة . وكانت القدرة على تقدير الفرق من مجلة معينة وبين جورنال معين بمثابة خطوة إلى الأمام .

وثمة تحول آخر حدث - جزئيا - نتيجة لارائى وميولى الفكرية ، وهو التغير الكامل من مجلة تسيطر عليها النزعة السوسيولوجية إلى مجلة جامعة للعلوم الاجتماعية ، وهو ما حاولنا أن نحققه ، برغم أن جهودنا لاقتحام - بأى قدر من المهارة - ميادين الأنثروبولوجيا وعلم النفس والاقتصاد لم تؤت ثمارها فى الأعوام الثلاثة الأولى . وكان لعلم الاقتصاد مجلته الخاصة به وهى « الطليعة » وقد استطاعت ، بالكاد ، الاحتفاظ بقاعدة من القراء قوامها ١٠.٠٠٠ قارئ . وما كان بمقدورها أن تخلق نوع الكتابة الاقتصادية المبسطة التى عرفت فى القرن التاسع عشر .

وكان علم الأنثروبولوجيا من الضالة ومن الانشغال بالبحث عن وضعه المهني بحيث لم يتعد كثيرا في مجلة شعبية مثل الترانسكاشان ، مع أن جريدة «الإنسانية» قد بذلت جهودا في اتجاه اكتساب مزيد من الشعبية . والواقع أن علما الأنثروبولوجيا الذين ساهموا وكتبوا لحساب مجلة «الترانسكاشان» كانوا نفس العلماء الذين انتقدوا اتجاه الشعبية والإدارة ، وهى اتهامات رددتها دائما علوم أخرى فى بحثها عن الحراك الصاعد والمكانة المهنية . والواقع أن علم النفس الاجتماعى ، الذى شعرنا فى نطاقة ، بأكبر امكانية للتشعب ، كان فى متناول العامة ، الا انه فى ذلك الوقت بالذات ، وجدت مجلات أخرى مثل «علم النفس اليوم» بحيث لم تستطع الترانسكاشان أن تجتذب كل المواد الممكنة .

ومما زاد من تعمق الموقف أن منظم الادب النفس من النوع الشعبى قد كتب لاعتبارات علاجية أكثر منها علمية ، وخصص لأنماط المساعدة الذاتية المشكوك فيها، والتي دفعنا ولائنا التحريرية كعلماء اجتماع الى رفضها أو مقاومتها .

وبحلول عام ١٩٦٢ ، وكنتيجة لما نشرناه سلفا فى ميادير السياسة ، ولارتباطاتى الخاصة ، صار بمقدورنا أنه تؤسس علاقة أكثر وثوقا بعلم السياسة . وكان هناك اهتمام مركز باعطاء علم السياسة الحيز الذى يستحقه فى المجلة . وحينما تحررنا فى هذا الاتجاه ، وجدنا أن اهتمام علماء السياسة المباشر بتحليل الشئون المالية والأحداث الدولية فاق اهتمام علماء الاجتماع ، وبالتأكيد علماء النفس .

كذلك كان لوصول علم السياسة الى مركز التكافؤ مع علم الاجتماع نتيجة فرعية هامة ، حيث اتجه علماء الاجتماع الذين نشرنا لهم الى تغيير أفكارهم بشكل جذرى ، وإن ظل مدى اهتمامهم محدودا وضيفا ، هذا بينما اتجه علماء السياسة الى المجيء من خلفيات أكثر جمودا ، وإن ظلت اهتماماتهم أقل تحديدا . ويفسر هذا التماثل ، جزئيا ، فى ضوء الحقيقة المبسطة ، وهى تفوق عدد علماء الاجتماع على عدد علماء السياسة . ويميل جمهور معظم علماء السياسة الى الانحدار من المجموعات «الهامشية» . ويتجه علماء الاجتماع الى الاهتمام بالجماهير المحكومة أكثر من النخب الحاكمة . وهناك تفسير آخر مؤداه أن علماء السياسة قد جنحوا الى الاهتمام بمشكلات السياسة قبل وقت طويل من قيام أقرانهم فى ميادين الاجتماع والأنثروبولوجيا ببدء مشروع كاميلوت . وأكثر من ذلك لم تكن معظم اهتماماتنا - باعتبارنا دارا للنشر ، تنحصر فى النقد المتطرف ، كما هو الحال فى أكثر أنواع المجلات اثارة للاهتمام . وكلما اتسع نطاق العمل ، كان ذلك أكثر استحوذا على اهتمامنا . وعلى المستوى القومى للدول ، أو الشئون الدولية ، قام علماء السياسة باعداد مادة النشر ، وقام علماء الاجتماع بوضع عناوين تلك المادة .

وساعدتنا هذه التغيرات المتعلقة بالخلفية على فهم ما هو خطأ فى المرائن المهني ، وإن لم تحل مشكلاتنا المتعلقة بالتحرير . وثمة جوانب فنية انبثقت طبيعيا من الاهتمام بايجاد جماهير جديدة للمجلة . فعلى سبيل المثال طورنا فكرة تخصيص

أعداد خاصة حول موضوعات يعينها مثل معقولة العدالة الأمريكية ، (والتي أصبحت نقطة تحول في علم الاجتماع القانوني) . وبانتهاء صيف العنف في الجيتو ، أصدرنا بالفعل عددا خاصا عن الموضوع ، وهذا شيء لم يسمح به المشتغلون بالعلوم الاجتماعية ، والذين درجوا باستمرار على إصدار الأعداد متأخرة عن موعدنا الأصلي . وأصبح هذا ممكنا - الى حد ما - باستخدام أدوات البحث الجديدة المعروفة في نطاق العلوم الاجتماعية ، والأساليب الصحفية للبحوث الميدانية وكتابة التقارير السريعة .

وقدم العدد الخاص عن « العنف العنصري » أساسا لمؤلف جون هيرس المنون بـ « حادثة موتيل الجزائر » وبدانا نرى أن تلك الأعداد الخاصة لم تكن أدوات صالحة للوصول الى جماهير جديدة مثل محامي الحركة ، أو المثقفين السود . الا انها في ذاتها استطاعت أن تحكم على غيرها من وسائل الاتصال . وقد تزايد دورنا في الكراه ووسائل الاتصال الكبرى مثل التلفزيون والمجلات الأسبوعية المتعلقة بالأنباء الضخمة على الاهتمام بأبحاث العلوم الاجتماعية الخاصة بالشئون الجارية . وتأكدت أهمية تطوير مقالات الفن التصويري . ولم يعد هناك شك في أن المحتوى التصويري سمة أساسية لتطوير الترانسكاشان . وكان نجاح المجلة فريدا في تحاشي طغيان الفن أو التصوير على المحتوى التحريري .

وفضلا عن هذا كله ، كان المجلد الرابع خطوة نحو موقف صلب تشمل في لتأكيد على السياسة والجنس والدين . وهي الميادين الثلاثة التي تحظر الكتابة بخصوصها في المجتمع المذهب ، كما أنها تتطلب دقة أكثر عند التطبيق فيما يتعلق بهذه المحاذير . ولا تغيب عنا تلك الممارسات الهادئة من قبل السلطات للاحتفاظ بقدر من الرعاية التحية على هذه الميادين . وصار واضحا أنه لا مندوحة من تغيير أما طبيعة المجلة ، أو بدرجة أقل : طبيعة الجامعة .

: ١٩٦٧

يعتبر المجلد الخامس انقلابا كاملا عن سابقة . فمع مطلع عام ١٩٦٧ ، أصبحنا أكثر تعودا على الدورية الشهرية . وحدثت عدة تغييرات منها زيادة التأكيد على عروض الكتب ، وتساؤل التأكيد على دراسة أجزاء الانسان . كذلك تزايد التأكيد على المجالات التي كان من الصعب تغطيتها في السنوات السابقة مثل علم النفس الاجتماعي .

وتحركات المجلة نحو اعطاء الشئون القومية مزيدا من الاهتمام . اذ اوضحت مسوح عديدة أن قراء مجلتنا لا يتركزون فقط في الولايات المتحدة ، وان كانوا يهتمون بالمجتمع الأمريكي . ولذلك تعاطف اهتمامنا بمشكلات ادمان المخدرات ، والصحة العقلية ، والطبقة العمالية وأحوال الزواج والأقليات ، وقضية المرأة ، وحتى مشكلات

تلوث البيئة • الا أن هذا التحول لم يكن - بأى حال علامة على انتهاء الاهتمام بالشئون الدولية ، وانما فقط تأكيداً أكبر على كيفية ارتباط المسائل العالمية بالممارسة الأمريكية .

وقد تحققت صحة المخاوف التي شعر بها كثير منا حيال اتجاه جامعة واشنطن . فمن ناحية ابتعدت الجامعة عن الاهتمام بالعلوم الاجتماعية مع تزايد تركيزها على العلوم الطبيعية . ومن ناحية أخرى انتقلت من الانشغال بالمصالح القومية الى الانشغال بالمصالح المحلية الضيقة . ومن ناحية ثالثة حدثت أزمة مالية امتد تأثيرها الى الجامعات الخاصة . وأخيراً ، وهذا هو الأكثر أهمية ، لما فى الجهاز الإدارى من ضعف عام بحيث سعى الى تجنب ، وليس مواجهة ، الضغوط التنظيمية . وفى معرض الدفاع عن الجامعة . يتعين القول بوجود خلاف فى الراى بين كثيرين . وبرغم أن جميع الذين سببوا التوتر قد احتفوا فى نهاية الأمر ، الا أن المرارة الناجمة عن ذلك عبرت عن نفسها فى عزوف الجامعة عن الارتباط بمجلة لما نزل فى مرحلة المراهقة .

وفى نهاية الأمر ، بذلت سلطات الجامعة كل جهد لبيع المجلة ، ايا كان مقدار ائعائد الذى سترتب على ذلك وأبلغتنا الجامعة فى ١٩٦٨ أنه لن تصلنا اعتمادات مالية أخرى ابتداء من ٣٠ يونيو ١٩٦٨ ، برغم أن ما قدمته من دعم مالى لم يكن كافياً على الإطلاق للبدء به . وجاءتنا منح من مؤسسة فورد ، ومؤسسة دانفورت ، ثم مؤسسة راسل . وقامت الجامعة بأخذ المهمة على عاتقها ، خاصة وأننا مع بداية المجلد الخامس ، كنا على أبواب تصدع مالى الا أن ادارة شئون المجلة لم تكن سليمة طالما عرملت المجلة قسم فى الجامعة . وعادة لا تحتفظ الأقسام بسجلات لمسك الدفاتر . وهذا ما حال دون تقدير ما اذا كنا قد حققنا ربحاً أم لا . وهكذا كان الموقف المالى ذريعة لتبرير تصفيتنا . وعلى أية حال ، أنكرت الجامعة بشدة ادعاءاتى القائلة بأن وقف دعمها المالى كان رده الى اعتبارات سياسية وإدارية .

ومع اقتناعنا بعدم جدوى أية مناقشات ، صارت المشكلة الملحة هى بقائه المجلة .

الا أن كل المحاولات الرامية الى بيع المجلة قد احبطت واتخذنا موقفاً مفاده أن ملكية المجلة لا تنعدي المحررين وهيئة العاملين . وتبنى كل شخص هذا الموقف ابتداءً منى الى السكرتيرين غير المتفرغين ، الى أن صدرت فى النهاية مذكرة من جانب كل أعضاء الهيئة العاملة يؤكدون فيها ولاهمهم ومساندتهم لى طالما ظللنا نحفظ باستقلال مجلتنا .

وكان راى الجامعة أن بيع المجلة لأطراف خارجين أمر ضرورى لأن البيع لاتحاد العلوم الاجتماعية الذى أنشأه ، يمثل صراعاً فى المصالح ، طالما ظللت أعمل أستاذًا متفرغاً للاجتماع . وحينما عرضت الاستقالة من منصبى فى الجامعة مقابل نقل ملكية

المجلة الى اتحاد العلوم الاجتماعية ، رفض هذا العرض على الفور ، وعادت الجامعة الى ترديد الحجج المالية التي تعوزها الدقة .

وحدث في النهاية أن قدم عرض بشراء قائمة القراء والمشاركين مقابل ٥٠.٠٠٠ دولار . وكان ردى أننى سوف أنظر فى هذا العرض . ومع ذلك ، ودون انتظار لوجهة نظرى ، طلبت سلطات الجامعة مبلغا اضافيا قدره ٢٠٠.٠٠٠ دولار كضمان لأوامر المشتركين التى لم تسدد .

وفيما يتعلق بهذه المسألة ، كانت مهمتى هى جمع مبلغ ٥٠.٠٠٠ دولار وتكوين مجلس من المديرين . وحدثت معجزة . فقد اتصلت تليفونيا بنحو ٢٥ شخصا ، وحصلت على المبلغ المطلوب استنادا الى ما أسدته مجلتنا من خدمات ، وربما استنادا الى ايمانى القوي بالحاجة الى السير قدما .

وعند بداية انفصالنا عن الجامعة ، كانت مهارتنا الادارية محدودة . وبدانا برنامجا يتيح الاستعانة بعناصر خارجية تتولى ادارة شؤون المجلة . وجاء المديرون والمساهمون من حقل العلوم الاجتماعية بحيث تركزت الملكية فى ايدى قطاع عرض من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية . الا أن الحظ كان حليفنا فى الحصول على مهارات مجموعة بارزة من العلماء الاجتماعيين الذين طرحوا جانبيا شكوكهم واختلافاتهم دعما لما يعتبر - على حد معرفتى - أول مشروع خاص مملوك بالكامل لعلماء اجتماعيين .

: ١٩٦٨

فى الوقت الذى كانت فيه جامعة واشنطن تعرض الترانسكاشن للبيع ، كانت الحاجة ماسة الى الاستقرار الاقتصادى ممثلا فى ضمان كفاءة نظام التوزيع وسداد الاشتراكات ، وزيادة التأكيد على جلب الاعلانات من مناطق تحظى بأهمية خاصة من جانب جمهور قرائنا ، وأخيرا اجراءات انتاج تتميز بالفاعلية وتقع فى حدود ميرائيتنا . وكانت هناك حاجة ماثلة الى تنظيم داخلى أكبر ، وإلى تطوير ادارى يضمن فعالية نظام محاسبة التكاليف ، وأخيرا الى رأس مال اضافى لدعم جهودنا التحفيزية واعانة عدد من المشروعات الجديدة المطروحة للبحث .

وخلال ١٩٦٨ طورنا الخطة الاولى - وهى واحدة من كثيرات - المتعلقة بقسم الكتب واستطاعت الترانسكاشن بفضل أعدادها الخاصة المناظرة لما نشر من مقالات فى البداية ، أن تتطور الى ناشر ناجح للكتب . ولولا القسم المتعلق بالكتب ، لضاع الأمل فى بقاء المجلة . اذ لاحظت أن كل مجلة شهرية ناجحة ترتبط بقسم لنشر الكتب . ولهذا تم الاتفاق مع مؤسسة ألدن - اشترت على ترتيبات تخول لهذه الاخيرة امتياز توزيع نوع معين من الكتب القصيرة ، وخاصة تلك التى تتفق ومزاج العناصر الشابة . أعطت أكثرية الخطط ، التى بدأناها مع المجلد السادس ، ثمارها فقط فى مرحلة لاحقة . ولذا ظل موقفنا المالى حرجا ، وازداد تفاقمنا نظرا للحاجة الى

دفع كل النقود المتحصلة تقريبا من مستثمرين الأصليين الى جامعة واشنطن مقابل عقار تملكه ، وتزايد اضطراب موقفنا في مدرسة العلوم الاجتماعية واتضحت الحاجة الى بعض ترتيبات أخرى .

وفي ١٩٦٨ حدثت الطفرة حينما قررنا قبول عرض بالتحرك الى مباني كلية ليفنجستون بجامعة روتجرز . وقد تبين لي من مباحثاتي مع هذه الجامعة ، وخاصة مع عميد الكلية المذكورة ، أنها ، أي الجامعة ، خلاف الجامعات الأخرى ، تميزت بقدرة ملحوظة على تقدير الفروق الخاصة الطفيفة بين الدوريات ، كما أدركت أن انترناسكشان يمكن أن تقدم برنامجا جامعيًا طموحا خاصا بالعلوم الاجتماعية . ومن وجهة نظر جامعة روتجرز ، سوف تزود الترانسكشان ، الى حد كبير ، مدرسة العلوم الاجتماعية (كلية ليفنجستون) بقاعدة للعلوم الاجتماعية . وذلك دون أية نفقات مباشرة تتمتع النفقات الأكاديمية العادية لتشغيل الأساتذة والمدرسين . ومن وجهة نظر الترانسكشان يجب ادخال منطقة مدينة نيويورك ، باعتبارها مركزا لنشر الكتب والمجلات وهيأت لنا نيويورك سبيلا الى التفكير ، بشكل جديد ، في المسائل التي ازعجتنا سلفا . وكانت كل الخبرات المتعلقة بالنشر سهلة المثال . وحددنا الفرصة التي هيأت لنا التعرف على هذه المعرفة المسترة .

ولم يكن هدفنا فقط أن نصبح جزءا من تيار حياة مدينة نيويورك ، وانما ان نظل بمنأى عنه . واحدى ميزات وجودنا في شارع سانت لويس اضعفاء الصفة القومية الحقيقية على مجلتنا سواء اردنا أو لم نرد . ومن حسن الطالع اننا استطعنا في جامعة روتجرز ان نظل بعيدين عن الخلافات التي اقضت مضجع المرح الأدبي في مدينة نيويورك .

وانحصرت المشكلات التي واجهناها خلال تلك الفترة في نطاق ادارة الأعمال ، زد على ذلك أننا لم نتغلغل في تلك الدوائر الجماهيرية التي تخاطبها المجلة . وقد ظلت مناقشتنا للمجموعات القومية والعنصرية، وطلاب ومدرسي العلوم الاجتماعية ، والعاملين في الأجهزة المهتمة بالأمور السياسية ، تؤخذ على أنها عمليات شراء واسعة النطاق من قبل تلك المجموعات . ويمزى ذلك جزئيا ، الى ارتفاع نفقات جلب اشتراكات جديدة تشكل عرقلة تلك العملية . وكانت قضيتنا هي توجيه أنفسنا نحو الوصول الى قراء المجلة عامة ، وليس الى مجموعات سياسية واجتماعية بعينها . وتخطى نجاحنا الاخفاقات ، فقد ارتبطنا تقريبا بمجموعة جديدة من المجلات ، بعضها صغير ، وبعضها كبير ، الا أنها جميعها التقت في مجلتنا في مشكلاتها وآمالها . وتكون اتحاد غير رسمي ضم مجلتنا ، ومجلة « التفسير » ، « نيويورك تايمز » ، وواشنطن مانثلي ، ومجلات أخرى ، مع مراعاة أن بعضها كان مقتفرا الى الخبرة في ادارة الأعمال . وفشل هذا الاتحاد ، لا بسبب الفكرة القائلة بضعف العمل الجماعي وانما بسبب انخفاض مستوى العاملين في هذه المجلات واهتمامهم بالعمل . ويعد ذلك قمنا بتطوير « اتحاد الترانسكشان » من المجلات العلمية ابتداء من مجلة « التاريخ الجارى » الى مجلة

« التاريخ الاجتماعي » • وكان الدافع الى تكوين هذا الاتحاد ادراكنا بأن بقاء مجلة مثل الترانسناكشان يعتمد جزئيا على بقاء مجلات أخرى •

وانطوى هذا التحرك على معان كثيرة بالنسبة لنا • فقد هيئت امكانية المشاركة في امتلاك الأسهم أمام الأفراد والعاملين • وخطونا خطوات كبيرة في نطاق العلوم الاجتماعية والسياسة العامة بفضل منحة قدمتها مؤسسة فورد ، كانت بمثابة الوسيلة الأولى لخلق نوع من التعارف بين مجتمع جامعة روتجرز وبين مجلة انترانسناكشان وفي أثناء ذلك ، كانت لدينا أفكار ثلاث لم تدخل حيز التطبيق وهي : انشاء ناد للكتاب ، ومكتب للمحاضرين ، وقسم للتسجيل •

وإذا كان لي أن أخص ما يمثلته المجلد السادس بالنسبة لنا فإنه يمكنني أن أقول أنني رأيت لأول مرة علما اجتماعيا يمثل مصدرا للأفكار يمكن تسويتها وتوزيعها بأساليب عديدة من الصفحة المطبوعة الى الشاشة السينمائية ، ومن المحاضرات الى التدخل المباشر في الشؤون الاجتماعية • ولم تعد الترانسناكشان مجرد مجلة ، ومع أن أنجاننا الاساسي القابل للتسويق كان لا يزال دوريا ، فقد أصبحنا في النهاية وحدة للعلوم الاجتماعية • وتحول علم الاجتماع الجديد من سلسلة من الممارسات الأدبية الى نظرية ايديولوجية متكاملة مكنتنا ولو لم تحتم ، من التغيير الجذري لمختلف الميادين الاجتماعية والاتحادات المهنية •

١٩٦٩

في هذا العام حققت الترانسناكشان تنوعا من مواد العلوم الاجتماعية • فبالإضافة الى سلسلة المجلات والكتب ، قامت أيضا بدخول ميدان الكتب الدراسية والموجزات الارشادية ، وسلسلة المؤلفات الابتكارية المتميزة بارتفاع مستواها العلمي • واستمرت الزيادة في العدد الكلي للصفحات المنشورة في المجلدات السابقة : فقد كنا نتحرك سريعا نحو رفع عدد الصفحات من ٦٤ صفحة الى ٨٠ صفحة ، كذلك حققت المجلة أثناء هذه الفترة ، زيادة ملحوظة في دخول الاعلانات • واستمر تطور الترانسناكشان في الشكل والتصميم • واقتضى الامر أن تستمر التغييرات مع الشكل السابق ، وأن تكون متفقة مع توقعات القراء • وعلى هذا النحو ، تجنبنا مضائقة القراء ، وتقويش التناقض في العلاقة بين التصميم وبين ما يكتبه المحررون • وتأكد نجاح هذا المسلك من خلال القبول العام لشكل مجلتنا الجديد ، والجوائز التي حصل عليها فننا التصويري من الدوريات الفنية الاساسية ، وأخيرا العرض المتنقل للمواد المعروضة بالجامعات الكبرى في مختلف أنحاء البلاد •

وواصلت الترانسناكشان الاستفادة من الارتباط بالعلوم الاجتماعية قاطبة ، وأضاف التأكيد المتزايد على علم الانثروبولوجيا وعلم النفس الى القوة المستمرة في علم الاجتماع وعلم السياسة • وظل علم الاقتصاد دون التمثيل الكافي ، وهو ما يجد

سببه الاساسى فى افتقارنا الى محور مساعد مقتدر يستطيع نقل أفضل الاعمال الفكرية من حقل الاقتصاد الى الترانسأكشان ، ومع تعيين ستييفن • و • روسو ، تم تصحيح هذا الاتجاه •

وكان استعمال مقالات الترانسأكشان فى كتب تعليم القراءة والقطع الادبية المختارة ، والمقررات الخاصة ، أكبر من أى وقت آخر فى الماضى • بل أن نتائج البحوث المنشورة بالمجلة كانت تنقلها عنها بانتظام مجلات أخرى مثل : التايم ، وواشنطن بوست ، وكرنل كونتينتس ، «الفوج» • كذلك ظهرت المجلة فى برامج تعليمية متنوعة وبرامج تليفزيونية خاصة •

وبالنسبة لمجلة مثل الترانسأكشان ، فإن القدرة على البقاء والنمو لا تتوقف على اجتذاب جماهير وأسواق جديدة فحسب ، وإنما أيضا ، وبصورة أكثر ، على تفهم أعمق للسوق • وهذا هو السبب الكامن وراء سعى المجلة الى الأخذ بمسلك متعدد الجوانب ، ونشر المعلومات الخاصة بالعلوم الاجتماعية ، وعدم حصر نفسها فى شكل واحد من أشكال الاتصال •

وقد ظل رأس المال اللازم للنمو بمثابة المشكلة الرئيسية • ولم تصل المفاوضات التى أجريناها مع عدد من مشروعات الاستثمار الى درجة الجدية الحقيقية • ولما كانت هذه الاموال المطلوبة للنمو أكثر منها للبقاء ، فقد ترددنا فى أن نقرط فى الزام أنفسنا بمصادر أجنبية للتراكم الرأسمالى •

وأثناء تلك الفترة كانت الطفرة الاساسية هى برنامج نشر الكتب الذى تميز بالحيوية والابجائية • وصدرت العناوين الاولى الاثنا عشر لسلسلة الترانسأكشان - آلدنى • وأشارت النتائج الى قبولها الواسع ، والذى تضمن إعادة الطبع المبرر لعناوين معينة ، وأدى هذا التغلغل فى مجال نشر الكتب على نطاق واسع الى ذبوع اسم الترانسأكشان ، كما ضمن الحصول على دخل من الاستعمال الثانوى لمقالات المجلة أكبر مما كان ممكنا مع بيع حقوق إعادة الطبع •

وتحركنا خطوات أكثر على طريق تطوير سلسلة من كتب تعليم القراءة من خلال استعمال مقالات الترانسأكشان • وهذه الاعمال التى تعتبر موجزات ارشادية أكثر منها كتباً دراسية ، وتقوم فى مجالات هامة مثل العلاقات العنصرية ، والزواج والاسرة ، ومبادئ علم الاجتماع وعلم السياسة ، ينظر اليها كثيرا على أنها مجال نمو ضخم فى عالم المجلة والكتاب • وفى نفس الوقت ، لاحظنا أنه ، خلال تلك الفترة ، كان هناك وإبل من مقالات العلوم الاجتماعية التى ظهرت فى المجلات الشعبية مثل «الهاربر ، أتلنتيك ، نيويورك تايمز» وهكذا ، وللاحتفاظ بمعدل نمونا ، ولتأمين مركزنا باعتبارنا الناشر الرئيسى للمعرفة فى حقل العلوم الاجتماعية ، كرست هيئتنا العاملة نفسها للعمل الشاق والفعال وذلك من خلال أساليب مبتكرة لتوصيل العلوم الاجتماعية الى جمهور عريض •



في هذا العام ، كان هدفنا الاساسى هو تطوير مشروعات جديدة ، دون اضعاف مكانة الترانسفاكشن داخل نطاق الرسالة الاكبر للعلوم الاجتماعية .

وكانت سلسلة كتب الترانسفاكشن طفرة حاسمة في تطوير الانشطة المساعدة . ففي ١٩٧٠ ، نشرنا اثني عشر عنوانا ، وأضفنا قسما كاملا للكتاب على أن يشتمل ، بحلول عام ١٩٧٢ ، على خمسين عنوانا موزعة ومختارة للتسويق من قبل مختلف الناشرين وذلك طبقا لمحتويات كل مجلد .

كذلك بدأنا في انشاء قسم ثالث ، وهو قسم الدوريات العلمية الذى ضم في البداية أربع مجلات هي : دراسات في التنمية الدولية المقارنة ، «التاريخ الاجتماعى» ، «المجلة الاوربية لعلم الاجتماع» ، و «المغامرة» ، وأخيرا مجلة « الجمعية الغابية البريطانية » . وحتى خريف ١٩٧١ لم يكن هذا القسم قد وصل الى مرحلة التشغيل الكامل ، وان كانت الدلائل الأولية قد أشارت الى قيمته وأهميته كجزء من الترانسفاكشن كما هو الحال بالنسبة لأقسام الكتاب والمجلة .

وبطبيعة الحال ، ظل القسم الاساسى في الترانسفاكشن هو المجلة ذاتها ، والتي ظلت تستأثر بحوالى ٨٠٪ من مبيعاتنا ، بل ان كلا قسمي الكتاب والدوريات ما كان يمكن أن يتطور بدون سنوات الخبرة في اصدار المجلة .

وأرغمنا الازمة المالية على إعادة النظر فى حجم وميعاد صدور الترانسفاكشن . وبدلا من اتخاذ قرارات صارمة ونهائية ، قبلنا الازمة المالية على أنها حقيقة واقعة ، وزاولنا نشاطنا في هذا الإطار . وكان معنى هذا هو إعادة طبع وتوزيع الاعداد المزدوجة والاعداد الخاصة ثلاث مرات بدلا من مرتين خلال العام . وربما كان أول عدد خاص عن «المرأة الامريكية» أضخم نجاح عرفته المجلة . وأثار العدد الخاص الثانى عن «الجنس والانحراف فى الرجال الامريكيين» اهتماما واسع النطاق ، وكان استهلاكا لسياسة مؤداها تضمن الاعداد الخاصة مقالات أخرى بحيث يمكن تغطية كل ميادين العلوم الاجتماعية حتى فى إطار عدد رئيسى . وفتحت فكرة العدد الخاص الطريق أمام فكرة الملاحق الخاصة . ولقى ثالث ملحق خاص عن « العنف فى معاملة الاطفال » اهتماما ايجابيا من قبل الافراد العاملين فى هذا المضمار .

فى هذا العام ، تغير اسم المجلة من الترانسفاكشن الى « المجتمع » ، ولم يكن الهدف من وراء ذلك هو تغيير الهوية بقدر ما كان إيضاح أن المجلة جزء من نظام المعلومات فى حقل العلوم الاجتماعية . ووقعت منطقة النمو الضخم فى نطاق كتب الترانسفاكشن : فقد طورنا قائمة ضخمة من الكتب الدراسية تشير الى النمو فى

تجاهنا والتزامنا حيال الطلاب . كما بدأنا في تقديم خدماتنا لمجموعة جديدة من العملاء تمثلت في الأجهزة والجامعات بالدراسات المتخصصة ، والدراسات المتعلقة بموضوعات معينة . كذلك فنحن نعمل الآن كسوق لتوزيع أعمال البحوث الصادرة عن مركز أبحاث السياسة الحضرية التابع لجامعة روتجرز ، ومعهد البحوث الاجتماعية والاقتصادية التابع لجامعة جزر الهند الغربية في جامايكا .

وأتارت الصعوبة الحقيقية بشأن الانتاج الفعلي من مجلات أخرى غير مجلة المجتمع ، اذ انطوى ذلك على جدولة كافة أنواع الموضوعات ، وهو أمر لم تفعله مجلتنا من قبل . ويحتضن اتحاد العلوم الاجتماعية الآن دوريات ذات معدل توزيع لا بأس به مثل «المدنية» ، «الشئون الجارية» ، بالإضافة الى مجلات أخرى فنية مثل «شئون اليهود السوفييت» ، والمجلة الأوروبية لعلم الاجتماع . وفي هذا الصدد فإن الاعتبارات التجارية البسيطة ليست هي وحدها التي تحكمنا ، فالاعتبار الاساسى هو كيفية افساح المجلة لأحد برامج العلوم الاجتماعية . والواقع أنه كلما أمعن المرء النظر في معدل بيع ما يؤلف في حقل العلوم الاجتماعية ، اتضح له أن أحدا لم يطور نطاقا كاملا من الخدمات لهذه السوق الفريدة ، والتي تغطي ما يزيد على مليون شخص .

هذه هي الصورة ورغم حقيقة أن نطاق الدراسات الاجتماعية في المدارس العالية يستوعب وحده ما يربو على ٣٠٠٠ مدرس . وإذا أخذنا في الاعتبار أن هناك - على الأقل - ربع مليون شخص مشغول بتدريس العلوم الاجتماعية في المراحل العليا ، وأن هناك أكثر من نصف مليون شخص تلقوا العلوم الاجتماعية ويعملون في قطاع الاعمال والحكومة ، يصبح واضحا أن الجمهور الرئيسى للعلوم الاجتماعية هو بحق جمهور يعتد به كما وكيفا .

ولا تتضمن هذه الأرقام ملايين الناس الذين يأخذون التحليل النفسى على أنه أسلوب حياة أكثر منه علما ، كما لا تتضمن مئات الآلاف من الطلاب الذين يلقنون حكمة العلوم الاجتماعية . ولم يعد السؤال الحقيقي يدور حول وجود سوق أو جمهور للعلوم الاجتماعية ، ولكن حول ما الذى يفضل الجمهور قراءته ودراسته والاستماع اليه .

وبيلغ عدد قراء كل من مجلة « ساترداي ريفيو أوف سوسيتى » الشهيرة حوالى ١/٤ مليون ومجلة « علم النفس اليوم » حوالى نصف مليون ، والمجلة العلمية الامريكية حوالى ٣٠٠.٠٠٠ ألف قارى .

## ١٩٧٢ وما بعدها

عندما بدأ صدور الترانسакشان ، كانت مشكلتنا الرئيسية هي اجتياز حائط اللامبالاة والمعارضة المهنية ، اذ شعر البعض بأن جعل العلوم الاجتماعية في متناول الجماهير سوف يحرم المهن من الطابع العلمى الذى اكتسبته « هذا بينما شعر آخرون

بان ذلك الامر كان سميلا الى الافراط في التبسيط . الا ان تلك الاعتراضات قد دحضت بالكامل وأوضحت الآن في طي النسيان . واليوم يأتي الخطر الرئيسي انذى يتهدد وجودنا ووجود الدوريات المسئولة مثل الترانسكاشان ، من رجال الاعمال الذين يرون في العلوم الاجتماعية سوقا مربحة .

ولقد أحسننا بسوط كبار رجال الاعمال يوجه الينا في صورة سلسلة من المجاببات والمشاجرات التي طرحت تساؤلات جديدة حول بقائنا وحول مستقبل العلوم الاجتماعية . وقد تغيرت طبيعة هذه العلوم بفعل التوسع المريح فى نشر الكتب الدراسية المتعلقة بالعلوم السياسية ، وتطوير مضمون مجلة «علم النفس اليوم» عن طريق صناعات س.ر.م فى منتصف الستينات ، وعملية دمج وتذويب المؤسسات الصغيرة فى مؤسسات كبيرة ، وأخيرا مفهوم مجلة العلوم الاجتماعية كمجلة للتسويق والاعلان بدلا من كونها مصدرا للمعرفة الانسانية .

وفى الوقت الراهن ، ينظر الى قسم الخدمات البريدية على انه مشروع خاص ملتزم بتحقيق ربح ، كما ان المجلات الصغيرة ، مثل الترانسكاشان ، مكروهة على الكفاح من أجل وجودها الحقيقى . ويمكن أن يستشف هذا الامر من رفع معدلات ضريبة الخدمات البريدية (من الطبقة الثانية) بنسبة ١٢٧٪ وذلك على امتداد خمس سنوات . وبالنظر الى مصلحتنا المشتركة فى البقاء ، فقد عملنا على تكوين مجموعة تعرف باسم «لجنة تنوع الصحافة» اشتملت ، الى جانب الترانسكاشان ، على صحف أخرى مثل «الامة» ، «كومون ويل» ، «نيويورك ريفيو» ، «واشنطن ماثلى» ، وأخيرا على كل دورية صغيرة متميزة يعرفها مسرح النشر الأمريكى .

كذلك شهدت هذه الفترة انبثاق تهديدات أقل وطأة ، سوف يكون لكل منها تأثير عميق فى قدرتنا على البقاء خلال السنوات القادمة . ولعل أول هذه التهديدات هو برنامج «النشر بالطلب» الذى طورته مؤسسة الزيروكس ، وقد جاء فى تقريرها السنوى لعام ١٩٧١ ما يلى « باستطاعة المدرسين أن يختاروا مقتطفات وقراءات من الصحف والمجلات والكتب ، ثم يقوموا باعدادها فى شكل قطع أدبية مختارة مع الاستعانة بالمادة الأصلية المتوافرة لديهم . وبعد الحصول على تصريح بالنشر ، يمكن أن تصبح هذه القطع الأدبية المختارة فى متناول الطلاب وذلك فى غضون ثلاثة أشهر .

ويشكل هذا تحديا مباشرا لسلسلة كتب تعليم القراءة التى نقوم بنشرها ، ثم للسلسلة التى يصدها غيرنا من الناشرين .

وجاءت الضربة الثانية حينما تقرر تجزئة مجلة «ساترداي ريفيو اندستريس» الى مجلات اربع ، أطلق على احداها اسم «المجتمع» . والواضح ان هذا الاسم يمثل مفاجأة مباشرة لاسم مجلتنا . ومع الاسلام بالقوة الحالية لتوزيع هذه المجلات الاربع ومواردها المالية ، يصبح الفموض ممكنا فيما يتعلق بالناشر ، ومادة النشر ، وهذا أمر مفوض لسمعنا . وتأكدت قسوة هذه الممارسة من اصدار مجلة أخرى اسمها

«العلم» برغم وجود مجلة أخرى بهذا الاسم تصورها «الأكاديمية الأمريكية لتقدم العلم» منذ ١٣٧ عاما • كذلك فقد صدرت مجلتي «التعليم» ، «والفنون» برغم وجود مجلات تحمل هذه الأسماء •

وتعد هذه الأمور - إلى حد ما - من مقتضيات المهنة ، كما أنها - إلى حد ما - بمثابة استجابات لنمو العلوم الاجتماعية كصناعة قائمة بذاتها ، أو بالأحرى كنتجج يمكن تسويقه وبيعه بغض النظر عن قيمته الحقيقية أو الإجرائية • والدرس الحقيقي المستفاد من ذلك هو أن سوقا للعلوم الاجتماعية تنبض بالحياة ، ويتراوح عدد المترددين عليها بين نصف ومليون شخص •

وعلى حين ستكون استجابتنا الفورية هي اللجوء إلى المحاكم بحثا عن الحقوق التي يربتها لنا القانون مقابل خرق العقد وانتحال اسم مجلتنا ، فإن مثل هذه الأساليب القانونية تقتضي نفقات لا طاقة لنا بها ولا ريب في أن على المرء أن يتساءل عما إذا كانت هناك جدوى حقيقية من وراء جعل العلوم الاجتماعية في متناول الجماهير في ظل صراع المؤسسات التجارية •

ويمكن تلخيص خبرة هذه السنوات العشر في النقاط الخمس الآتية :

١ - لقد كان شاغلنا هو خلق علم اجتماع جديد ، وليس مجرد الأعمال الدورية أو تلك المتعلقة بالطباعة • وجاءت الأخطاء التي ارتكبتها - إلى حد ما - من التفكير أولا حول مجلة ما ، وفيما بعد حول ما ينطوي عليه إصدار تلك المجلة من مزايا اقتصادية • والواقع أن ما يملكه المرء هو سلسلة من الأفكار المرتبطة بالعلوم الاجتماعية • وتختلف أشكال تسويقها ، أو إنتاجها ، أو توزيعها • ففي البداية قد تقدم في صورة مقالة بمجلة ما ، وبعدئذ قد تصلح كجزء من كتاب مدرسي ، كما يمكن أن تسجل على شرائط ، وأخيرا ربما أصبحت جزءا من فيلم عن موضوع معين •

٢ - تعتبر مجلة الترانسإكشن وجميع فروعها عملا تجاريا • وهي لا تتمتع بميزة أي مؤسسة غنية ، أو حتى حصولها على معونة قسم ما في إحدى الجامعات • وحتى ينجح مثل هذا العمل التجاري ، فإنه لا بد من أن يرضى الناس • وإذا كان كثير من الدوريات في مجال العلوم الاجتماعية تدعى أنها ليست عملا تجاريا ، فإنها يجب أن تبين أيضا أنها لا تحقق متعة كبيرة لقارئها • ويمثل التعارض بين التمسك بالأكاديمية من جانب ، والمتعة من جانب آخر ، تقليدا متزمتا في النظرة إلى الدراسة الأكاديمية ، لا يتقبل ببساطة ما يعرفه كل شخص •

والواقع أنه في مجتمع يفرض على كل شخص فيه أن يتنافس كل يوم من أجل عقول وقلوب غيره من الناس ، يصبح تقديم المتعة والمعرفة تحديا وليس تهديدا •

٣ - إن العلم الاجتماعي أكثر من أن يكون عملا تجاريا ، وأبعد من ذلك ، فإنه

أكثر من أن يكون سلسلة من النتائج والطرق : انه فى الواقع أيديولوجية • إذ أن له حاجاته ومتطلباته ، وهو يقوم بأداء عروض متميزة به •

انه العاطفة الدافعة لعالم سلام وحكمة يجب على كل العلوم الاجتماعية أن تتركس نفسها من أجله ، رغم عدم توافر أى تفويض رسمى أو منطقي للقيام بذلك •

إن العلوم الاجتماعية لها أنصارها الذين يتكئون فى رأينا من أولئك الذين يعملون على بقاء الجنس البشرى • وبهذا المعنى فإننا أقرب ما نكون الى الأطباء أو الجراحين • إن مهمتنا هي أن نطيل أمد الحياة وأن نجعل هذه الحياة من الناحية الكيفية أكثر قيمة وثراء •

٤ - إن ارتباط منظمة للعلوم الاجتماعية بأحدى الجامعات قد يعود عليها بالضرر أو بالنفع • فالجامعات مخلوقات محافظة يسهل الضغط عليها من جانب فئات عدة • وبرغم ذلك فإن الجامعة تقدم مزايا عديدة • فهي تضع الأساس لعلاقات تسمح باستمرار النقد والنقد الذاتى دون معوقات • وهي تقدم الموارد البشرية لهيئة تحرير تجعل المجلة بمنأى من أن تصبح أداة فى يد المعلنين أو المشترين مستقبلا • كما تقدم بيئة تكون للتعلم والأفكار فيها قيمتها وشأنها ، أن لم تكن تعنى كل شيء • وفى الوقت الذى تزداد فيه النظرة التجارية والراسيالية ، لا زالت الجامعة تقدم نوعا من الاستقلال والحماية التى تعتبر ضمانا ضد أى تفتت داخلى أو تعدد خارجى •

٥ - نحن الآن ندرك أن كل الأشياء نسبية • إن «الترانساكشان» و «المجتمع» لا نزال نقطة فى بحر • إن خمسين ألف قارئ قد يكونون عددا عظيما بالنسبة لمجلات لا يتجاوز عدد قرائها ١٥٠٠ قارئ ، ولكن هذا الرقم يصبح غير ذى بال بالنسبة لمحورى المجلات والناشرين الذين يعيشون فى عالم يصل فيه توزيع بعض المجلات من أرقام ٥٠٠.٠٠٠ الى ٥ ملايين ، وربما كانت نسبة الحجم والقوة هذه أصعب ما يمكن فى تقديرها مادامنا فى آن واحد نواجه فى الداخل دنيا لعلم الاجتماع تبدو فيها كبارا ، وفى نفس الوقت عالما خارجيا لوسائل الاتصال الجماهيرية حيث تبدو كقطرة فى بحر • ومما لا شك فيه أننا نمثل جزءا من عالم وسائل الاتصالات الجماهيرية ، كما أننا فى نفس الوقت جزء لا يتجزأ من مجتمع صفوة علمية • فنحن نخدم جمهورا مزدوجا ، وليس هناك من خطأ فى أداء هذه الأدوار المتعددة ، فواجبنا أن نقدم الصورة الضخمة كما يعيشها صغار الناس • وبصحب هؤلاء الناس ، بما هم عليه من مجهولية ، أبطالنا من حيث نقوم بأرجاء مسوح عنهم ، وتحليل وفحص وأجراء مقابلات تتعلق بهم •

# الخطوات الحرجة

## في العملية الإبداعية والدافع للبحث

✽ مناقشة وتلخيص لتأليف ثلاثة بحوث واقعية على عدد من العلماء .

يعتمد مستقبل التطور الانساني الى حد بعيد على ما يوجد به العقل البشرى من اكتشافات ، أو ابتكارات ، أو أفكار ابداعية . لهذا يولى الكثيرون أهمية خاصة لبحث المجتمع ، والمشتغلين بالبحث العلمى على السواء . أما كيف يمكن تحقيق تلك المساهمة الحيوية ( فى معرفتنا بالمجتمع وبحاته ) فيعتمد غالبا على الاطلاع على السير الشخصية لرواد العلم وتحليلها . ويتولى دراسة أعمال هؤلاء الرواد كثير من المتخصصين ، منهم على سبيل المثال فلاسفة العلم ، والمؤرخون ، وفريق حديث نسبيا - من المهتمين بالعلم والسياسة العامة . غير أن هناك اجماعا عاما بين هؤلاء والمتخصصين على قصور معرفتنا « بالسيرة العقلية » للأفكر العلمية .

وقد أحرز ميدان « سيكولوجية العلم والعلماء » - وهو ميدان حديث نسبيا - نجاحا ملحوظا فى دراسة تلك المنطقة الثرية من المعرفة . وتستخدم فى هذا الميدان أساليب عدة منها : المناهج المعملية ، وأساليب القياس والطب النفسى ، والمواد المتجمعة من السير ، والسير الشخصية ، والتزيغ المرضى .

بقلم : س. م. م. مايني

و. ب. نورديك

يعمل كلاهما بالبحث في قسم علم النفس بجامعة لوند  
بالسويد. وقد أوليا في السنوات الأخيرة اهتمامهما  
بسيكولوجية العلم حيث قاما بنشر عدد كبير من البحوث في  
هذا الموضوع .

ترجمة : الدكتور عبد الستار إبراهيم

مدرس علم النفس بكلية الآداب جامعة القاهرة -  
حصل على دكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف الأولى في  
سيكولوجية الإبداع .  
من بحوثه :

- الإصالة وأسلوب الشخصية .
  - الوجود العقائدي
  - السلطة وقوة الأنا
  - التلويق الفني والنشاط الإبداعي
  - الإصالة بين المجازة والمغالطة
  - البناء العروفي والفهمون الأيديولوجي للسلطانية .
- هذا عدا عددا آخر من المقالات والترجمات

ولكل أسلوب من الأساليب السابقة عيوبه ومزاياه ، ولكن يبدو أن هذه المنطقة الحديثة تحتاج الى تضافر بين كل الزوايا ، والى اعتماد على المناهج المنظمة المنضية الى استخدام الملاحظة العلمية ، بهدف الاتجاه نحو بناء نظرية تضيء القموض في هذا الميدان . وقد استخدم الكاتبان الحاليان أساليب ومناهج متنوعة في محاولتهما للاستبصار بـ « سيكولوجية الباحث وعملية البحث » وقد تركزت تلك الدراسات عامة - حول جمع عدد من الأفكار والتصورات ، وجوانب النشاط لدى المشتغلين بالبحث ، والذين يمكن اعتبارهم بحق الجانب الحاسم في انتاج المعرفة . ففي كل الأحوال التي يعمل فيها هؤلاء الأشخاص - سواء بصورة منفردة ، أو في فريق ، أو في وحدة بحث - سيكونون بمثابة الحلقة الحيوية في تطور العلم . وستكون الاجراءات التي يقوم بها كل منهم في بحوثه هي وسيلتنا للامام بالعملية الإبداعية ، ودوافع البحث ، وغيرها .

ويقوم المقال الحالي بتلخيص ومناقشة نتائج ثلاثة بحوث واقعية قام بها المؤلفان،

ودارت حول اللحظات الحرجة (٤) في البحث ، والعملية الإبداعية والدافع للبحث . وقد اعتمد جميع البيانات في البحث الأول على استبيان (١) شبه مقنن لمجموعة من العلماء الطبيعيين ( العدد الأكبر منهم علماء بيولوجيا ) لسؤالهم عن اللحظات الحرجة التي عرّضت لهم أثناء اجرائهم لبحوثهم . أما الدراسة الثانية فقد اعتمدت على استبيان (٢) تلاه استبيان لمجموعة من العلماء الاجتماعيين ( العدد الأكبر منهم علماء نفس ) . أما الدراسة الثالثة فقد اعتمدت على المواد المتجمعة من دراسة السير الذاتية لمجموعة من العلماء المدربين والعالميين . وقد روعي في تلك المجموعة من الدراسات أن تستخدم أساليب مختلفة ، وأن يكون الأشخاص موضوع تلك البحوث ممن ينتمون لميادين متنوعة من المعرفة ( من المتفرسين بالبحث ، ومن المقيدين للدكتورة أو حملتها ) . وقد روعت تلك الشروط بهدف الفصل بين الجوانب النوعية ، والجوانب العامة في البحث .

### اللحظات الحرجة في مسار البحث

تتضمن السير العلمية ، والكتابات المتجمعة من مصادر مختلفة عددا ملحوظا من التقارير عن وجود فترات حاسمة في مسار البحث هذه الفترات هي ما نطلق عليها مفهوم « اللحظات الحرجة » . ويقصد بها تلك اللحظات المستقلة المتوالية ، التي يعاينها الباحث وتكون ذات أثر حاسم في تقدم البحث ، واستخلاص نتائجه ومن الجدير بالملاحظة أن تحديد تلك اللحظات يتوقف على تقرير العالم الذاتي بأن لحظات معينة دون غيرها قد لعبت دورا حاسما عاناها شخصا في مسار بحثه ، وليس كل اللحظات ( بصرف النظر عن طبيعتها الحاسمة ) التي يمكن أن تحدث ، أو تحدث بالفعل أثناء البحث . ومن أمثلة تلك اللحظات الحرجة خبرات الاستكشاف المفاجيء للحل (٣) والفترات التي تسيطر فيها على الباحث مشاعر الاكتئاب وعدم النشاط .. الخ .

ويبدو - وفق نتائج البحوث - أن كل اللحظات التي يقرر فيها المشتغلون بالبحث أنها لحظات حرجة قد تميزت بخاصيتين هما **وجود تغيرات في الدافع** ، الإيجابي أو السلبي . ويقصد **بالدافع الإيجابي** ازدياد الاهتمام بالبحث ، أما **الدافع السلبي** فيقصد به هبوط هذا الاهتمام . أما الخاصية الأخرى فتتضمن وجود **تغيرات معرفية** منها : النمو المعرفي أو الركود النسبي في ظهور أفكار أو معرفة جديدة .

---

(١) Interview أو المقابلة الشخصية التي يجريها الباحث مع الأشخاص حيث يوجه مجموعة

الأسئلة أو يقوم بصد من الملاحظات الخاصة بموضوع مملوك معين ( المترجم )

(٢) Questionnaire مجموعة من الأسئلة توجه ولكن لا يشترط فيها موقت المواجهة كما هو الحال لم

الاستبيان ( المترجم )

(٣) أو سلوك ال A, a (الأم) كإشارة إلى نشوة الانتصار التي تدير عن الشخص عند الإدراك

المفاجيء للحل ( المترجم )



وبشير مفهوم الركود المعرفى الى عدم ظهور افكار جديدة ، فى الوقت الذى يكون فيه الفرد قادرا على تكوين جوانب من المعرفة والاستبصار ، واكتشاف الاخطاء لكن دون اى تقدم ملحوظ .

### اللمحظات الحرجة الايجابية :

يقرر المشتغلون بالبحث العلمى أن اللمحظات الحرجة الايجابية تتكون من عنصرين : هما وجود دوافع ايجابية ، وتنمية معرفية . وفيما يلى تلخيص بأهم الانماط العامة التى تجمع بين تلك اللمحظات الايجابية :

١ - مواقف حرجة تختص بوجهة البحث : اى بتحديد واختيار مشكلة البحث وتعتبر هذه النقطة ذات أهمية خاصة ، لأنها - من الناحية النظرية - تشكل جانبا من أهم جوانب البحث على الإطلاق ولو أن الدوائر الاكاديمية الرسمية تميل الى النظر للعمليات المؤدية لتحديد المشكلة واختيارها بصفتها مرحلة سابقة عن العلم ، ولا تدخل فى اطار عملية البحث الفعلية . وتبين بعض الفحوص الماثلة لبحوثنا ان هذا النوع من الانماط الايجابية لم يتقرر ظهوره فى جماعات البحوث الثلاثة ، أو ظهر بصورة منخفضة نسبيا . وربما يعود هذا التعارض بين الآراء - فى أهمية تلك الانماط - الى اسباب عدة قد يكون من بينها مثلا أن العلماء الذين شرحوا خبراتهم بالبحث فى موقف الاستبصار « الحر » أو الاستخبار ، كانوا يقومون ببحوثهم فى أماكن جامعية تتسامح فى حرية البحث أكثر من غيرها . ومنها أن غالبية العلماء فى البحوث الأخرى ربما كانوا يقومون ببحوثهم بنشاط فى أماكن أو منظمات تتحدد فيها مشاكل البحث تحديدا واضحا من قبل الرؤساء ، مما يحد من حرية الباحث فى الاختيار .

٢ - المواقف التفاعلية ذات الصبغة غير الرسمية وهى تعتبر من وجهة نظر الجماعات المشتغلة بالبحث أكثر أهمية من المواقف الرسمية ( كالمحاضرات ، والكتب وغيرها ) . وتتفق تلك الأهمية التى تعزى للاتصال غير الرسمى مع نتائج البحوث الأخرى ( انظر مثلا :

Pelz and Andrews 1966, Ekstam, 1968, Stankiewicz, 1968,  
Crane, 1970, Garvey and Griffith, 1971

وعلى سبيل المثال يكتب « أولبى عن عادات العمل عند » فرانسيس كريك الحائز على جائزة نوبل مايل : -

« كان كريك يناقش مع زميله « برنر » - كما كان يفعل مع زميله السابق - «

» . افكاره وخطته التجريبية يوما وراء الآخر دون كلل . ولم يتعاونوا .

» فيما بينهم بمعنى القيام بنفس التجارب معا فى وقت واحد .

» بل أن الاهتمامات الخاصة بالبحث لكل منهما كانت ممكنة .

» لاهتمامات الآخر . وكانت القاعدة فيما بينهما هى تخصيص ساعة

- « يوميا لمناقشة المشكلات التي تواجه كلا منهما على انفراد . وعندما »
- « كان يقاطع احدهما الآخر كان يقاطعه لكي يدخل في حوار ثنائي »
- « حول الأفكار البزعة التي تصدر عن « كريك » والتي كان برنر »
- « يقابلها باستجابات لا هوادة فيها »

٣ - المواقف التي تتضمن تغيرات انفعالية - دافعية متعلقة بالبحث عامة أو بمشكلات خاصة فيه ، أو بالنشاط المبذول . وتنبئ تلك التغيرات غالبا على السلوك التفاعلي في البند السابق ، وعلى بزوغ الأفكار وكمثال على ذلك ازدياد التعلق تدريجيا بالعمل لدى الباحث كلما تقدم في محولاته لحل مشكلة مرتبطة بتفسير البيانات المتجمعة وتكاملها .

٤ - المواقف التي تتضمن بزوغ أفكار بنحوت جديدة ، أو عندما يتحقق الباحث بنفسه من أهمية المنجزات التي يقدمها بحثه .

### لحظات حرجة سلبية :

تشير اللحظات السلبية الى نقصان الدافع ، أو الى الركود المعرفي ، وتتضمن المواقف الآتية :

١ - مواقف الهبوط الشديد في الدافع للبحث . وقد تبين أن تلك المواقف من أكثر اللحظات السلبية شيوعا ، ومنها مثلا فشل منهج معين ، فيكون على الصالح أن يبدأ من البداية بمنهج آخر جديد . ومنها أيضا الصعوبات التي تواجه الباحث عند كتابة النتائج بطريقة رسمية تمهيدا للنشر .

٢ - مواقف تفغلية تتعلق بالمشرف على الباحث . وتسود بالذات بين الباحثين الصغار شكاوى عامة من افتقارهم للإشراف الجيد .

٣ - لحظات ترتبط بعيوب أو تغيرات في مسار البحث . وكمثال على ذلك لدى العلماء السونيين ( علماء النفس ) وجود لحظات ترتبط باختفاء البحث في مشكلة معينة ، أما العلماء الطبيعيون ( علماء الأحياء ) فيقررون وجود لحظات ترتبط باختبار المشكلة أو بصعوبات تحديد المشكلة تحديدا أضيق تمهيدا لبحثها .

### الفروق في اللحظات الحرجة :

بالرغم من أوجه التشابه التي عرضنا لها في السطور السابقة فقد تبين وجود فروق بين البحوث الثلاثة . بعض هذه الفروق يرجع جزئيا الى نوعية تخصص العالم ، وبعضها يرجع الى التطويع الذاتي للمجالات العلمية المختلفة .  
فهناك مثلا اختلاف بين علماء الطبيعة ، وعلماء السلوك في النظر الى مواقف « النقد » بصفتها من اللحظات الحرجة السلبية . إذ يرى السيكلوجيون أنها كذلك -

وقد يرجع هذا الاختلاف الى اختلاف بين شخصيات العلماء ( فالسيكولوجيون مثلاً أكثر حساسية للعدوان ) أو الى اختلاف فى مناخ البحث فى الأقسام المختلفة .

وبالرغم من أن مواقف « النقد » لا تعتبر من اللحظات الحرجة السلبية لدى علماء الطبيعة ، فإن عنصر « الوقت » ، قد شكل لديهم عاملاً سلبياً حاسماً أكثر مما عبر عن ذلك علماء السلوك . ويمكن إرجاع هذا الفرق الى عوامل عدة منها مثلاً : الفروق فى موضوعات الدراسة ، والتعريف الواضح بحدود البحث فى العلوم الطبيعية ، مما يخلق منافسة شديدة بين العلماء للوصول الى مكاسب أسرع فى مباريات العلم .

وهناك طائفة أخرى من اللحظات السلبية تبين شيوعها بين علماء الطبيعة وتتمثل بالعوائق المادية ، والأجهزة ، وأدوات البحث . ويمكن تفسير هذا فى ضوء المصروفات المطلوبة لتنفيذ البحث فى العلوم الطبيعية ، والتكاليف الكبيرة التى يحتاج إليها تصميم الأجهزة المناسبة ، وأدوات البحث ، خاصة لدى علماء الأحياء الذين تحتاج بحوثهم الى عناية خاصة .

وقد تبين وجود فروق ماثلة عندما قمنا بتقسيم مجموعات البحوث الثلاثة الى طائفتين بحسب العمر : طائفة كبرى فى العمر والخبرة ، وأخرى صغرى فى العمر والخبرة . وقد اتخذت تلك الفروقات بين هاتين الطائفتين ( بنسب النظر عن مجال التخصص ) شكلاً شائعاً . فقد كشفت الطائفة الأولى ( ذوو الخبرة ) ، عن وجود لحظات حرجة متمثلة بالتاريخ المبكر . فبسبب خبرتهم الطويلة استطاع أشخاص هذه المجموعة أن ينفقوا بعمق فى تاريخهم المبكر ، الذى يرجع لأيام الدراسة بالمدرسة الابتدائية لكى يحددوا الحوادث الحرجة التى حددت مستقبلهم فى حقل البحث العلمى بصورة ما . وقد تحدت أهمية التاريخ المبكر فى تشكيل الشخصية فى دوائر التحليل النفسى ، كما ثبتت عملياً فى دراسات أخرى كثيرة . ولما كانت نتائجنا فى هذا الصدد ليست مستفيضة بالشكل المناسب ، فإننا نكتفى بتوجيه النظر الى أهمية هذه النقطة ، على أمل أن يأتى من يستطيع أن يضمها للبحث .

ومن الجوانب المميزة للحظات الحرجة لدى طائفة المتدربين بالبحث تعبيرهم عن رغبتهم فى السلام والعزلة . وقد أشاروا فضلاً عن ذلك - الى قراءة النصوص العلمية والبحوث الأكاديمية بصفتها مصدرين للأفكار والأثارة الفكرية . ولم تظهر هاتان الخاصيتان للحظات الحرجة بين الطائفة الثانية ( طائفة المحدثين ) ، وقد ظهرت بدلاً منهما مشكلات متمثلة بالجوانب الإدارية ، والبيروقراطية ، والواجبات نحو الرؤساء . وقد عبرت طائفة الباحثين المحدثين أيضاً عن وجود لحظات حرجة سلبية تتمثل فى توزيع الاهتمام بين القيام بواجبات التدريس والبحث ، كما تتمثل فى العمل فى عدد كبير من البحوث فى وقت واحد ، أو فى الصعوبات المتعلقة بالاحتفاظ ببرنامجه عمل منظم ولكنه غير واقعى .

ويبدو من المناسب هنا أن نضدى لعرض مشاعر غالبية الباحثين المتدربين

بصدد تزايد الوقت المستغرق في أعمال روتينية ، غير خلاقة تتمثل - في رأيهم - في قراءة بحوث الطلاب وغيرها من الواجبات . فقد عبر أحد أفراد هذه المجموعة عن ذلك عندما وصف نظامه اليومي على النحو الآتي :

- « اتجه الى معمل - أثناء الدرس - في السادسة صباحا واخلق »
- « الباب من ورائي . واستغرق في عملي بسلام حتى الساعة التاسعة »
- « صباحا . وعندئذ يبدأ القسم كله يدب بالنشاط ، ويتبدد السلام »
- « من حولي . وأبدأ في أعمال الادارية ، فأقضي بقية اليوم في »
- « اجتماعات مماثلة . الخ وبذلك تكون ساعات البحث الحقيقية »
- « بالنسبة لي هي ساعات الصباح المبكرة فحسب » .

وقد أمكن لفالبية الباحثين ( المتوسمين والمحدثين على السواء ) أن يطوروا نظما يومية مماثلة يستطيعون من خلالها أن يتفرغوا لمشكلات بحثهم .

بزوغ الافكار الجديدة وعلاقته بالعملية الابداعية :

اشرنا الى أن الواقف ، أو اللحظات التي تحدث فيها الافكار الهامة الجديدة . والملاحظات والاستبصارات ، تعتبر من اللحظات الحرجة الهامة في العملية الابداعية . فالافكار الجديدة ما هي الانتاج نهائي لعمليات طويلة ممتدة تسبق بزوغها . ولعل من الواضح أن الابداع ليس مجرد ظهور مفاجئ للافكار - كما تميل الى تصويره بعض الافكار الساذجة التي تفسد تفقد الفكر الابداعي بالتركيز على عنصر البزوغ المفاجئ للافكار - ولكن الفكر الابداعي يعتبر في واقع الامر نهاية ناجحة لفترة مليئة بالاحباط والجهد .

ويمكن أن نلخص أهم ما تشير له بحوثنا من نتائج فيما يتعلق ببزوغ الافكار الجديدة والعمليات التي تسبقها في النقاط الآتية :

١ - يبدو ان الافكار الحاسمة تميل للظهور عادة بعد فترة من الالفة بالمسكلة المتصلة بالفكرة . ومن الطريف أن بعض البحوث تبين أن المستجدين في مجال البحث مثلهم في ذلك مثل من مرت عليهم ست سنوات من الخبرة أو أكثر قد سجلوا عددا أقل من الافكار بالمقارنة بغيرهم . لهذا يبدو أن المعرفة في مجال أو جانب معين تصل الى حد معين من التشبع تتحول بعده الالفة الى عامل محبط ومعطل لظهور وتوالد أفكار جديدة أو حاسمة .

٢ - يرتبط حدوث التفريعات الفكرية الهامة غالبا بفترتي : الانتهاء من تحليل البيانات وتكاملها ، وتحديد مشكلة البحث خلال الاجزاء المبكرة من عملية البحث ، عندما يكون الباحث لا يزال بعيدا عن إيجاد الحل النهائي لمشكلته .

٣ - يحدث البزوغ المفاجيء للفكرة عندما يتم التركيز على شيء آخر يختلف عن المشكلة الفعلية ، أو على صلة ما بها ، بشرط أن يكون هذا الشيء الآخر أو هذا الجانب على صلة قريبة بالمسكلة . ويعتبر هذا شكلا من أشكال انتقال الأفكار . وتبين السير الشخصية انها خبرة تشيع لدى كثير من المفكرين .

٤ - تتميز الفترة السابقة على ظهور الفكرة مباشرة بخاصية أو بأكثر من الخصائص التالية :

( أ ) خبرة فشل ، أو اضطراب ، واستجابة انفعالية قوية تبين في تلك الظروف بمثابة الشرط الضروري لظهور الصياغة المرفية .

( ب ) مناقشات وحوار مع الزملاء ذو طابع علمي منشط .

( ج ) فترة طويلة أو قصيرة ( بالمقارنة بالفترة السابقة مباشرة ) تتميز بتناقص ملحوظ في النشاط العقلي الواعي ، المتعلق بالمسكلة ، أو بجوانب الفكرة الجديدة . وتشبه تلك الفترة فترة « الإختمار » التي يتحدث عنها المفكرون - من أمثال بوتكاربه - في سيرهم الذاتية .

٥ - وهنا آثار ايجابية لتلك الفترات ذات النشاط المحدود وتحدث تلك الآثار عندما يكون هبوط النشاط ناتجا عن تناقص في الدافع نحو العمل . أما في فترات الإحباط الناتجة عن الضغوط الخارجية فإن الآثار تكون سلبية ، أو مختلطة ، ولكنها نادرا ما تكون ايجابية .

### أطوار العملية الإبداعية :

يشير التلخيص السابق الى أن الفكرة الجديدة ، أو الفكر الإبداعي يبرع بأشكال مختلفة ومتعددة . ومن العسير أن نجسد وصفا عاما يغطي كل الحالات ( مختلف الأفراد ومختلف المشكلات ) ويمدنا في نفس الوقت بوصف مفصل نسبيا بالعملية الإبداعية .

ويقوم الملخص الآتي لأطوار العملية الإبداعية أساسا على وصف العمليات الظاهرة ، أو الواعية كما يعبر عنها أفراد البحث ، وكما تتبين من خلال المطيات التجريبية . ومدنا معطياتنا أيضا بنتائج أساسية عن دور الأحلام ، والحالات الشبيهة بالأحلام ( كحالات الاناقة من التخدير ) في العملية الإبداعية . لكن ينبغي لهذه الجوانب أن تدرس بأساليب أخرى كالأساليب العملية ، أو من خلال العلاج بالتحليل النفسي .

والدليل على أن تلك العمليات السابقة على الشعور ذات أهمية حيوية في العملية الإبداعية يمكن أن نسمعه من أي عالم مهتم بتأمل عملياته العقلية الإبداعية ، ولو أن هذا لا ينفي أهمية العوامل الشعورية . وقد فصل « كريس Kris »

١٩٦٤ ) القول بأهمية العوامل السابقة على الشعور في الإبداع ، خاصة الإبداع العلمى بقوله : **إن أعمال الفكر في البحث والاستقصاء لا يعنى فحص القيام بالبحث عن حل . إن جزءا من العمل يتم في اللاشعور الذى يتحول فجأة الى وحي في شكل افكار مفاجئة .** وأنه لمن الممكن دائما تقريبا أن نجد آثار علاقة متبادلة بين بعض الدوافع الظاهرة وبين العملية اللاشعورية .

وتحدث الفكرة ، أو الفكر الجديد أحيانا بشكل سلسلة من التغيرات المتتالية ، حيث تلتحم الأجزاء جزءا فجزءا الى أن تبرز الفكرة الجديدة بوضوح . وتتميز تلك العملية بوجهة منظمة ، ومضبوطة ، ولا تتضمن الاقدرا محدودا من العناصر المباشرة غير المتوقعة .

أما في الطرف الآخر ، فنتميز العملية الإبداعية بقدر أكبر من البلورة المفاجئة ، لهذا نجدها تتضمن عنصر المباشرة . ويمكن وجود أشكال مختلفة بين هذين الطرفين . ومعنى هذا ان العملية الإبداعية الممتدة تتضمن أو تقوم على عمليات فكرية إبداعية أصغر من هذا النمط أو ذاك . فضلا عن هذا ، فإن العملية التى تؤدى الى أى تغير جزئى صغير تتضمن بشكل عام - كما توضح نتائجنا - نفس الأطوار مصغرة ، تماما كما تؤدى العملية الأكثر امتدادا الى صياغة مفاجئة وحاسمة فى محتوى التفكير .

وقد أثارنا المراحل التقليدية للعملية الإبداعية كما بلورها والاس ( ١٩٢٦ ) جدلا عميقا بين السيكلوجيين فى الكتابات السيكلوجية عن الإبداع . وبالرغم من أن بعض الانتقادات لها ما يبررها فإن المراحل التى يحددها والاس ، والتى تبينها نتائجنا التالية يمكن استخدامها - فى رأينا - كعملية لوصف البيانات المتجمعة المتصلة بدراساتنا عن بزوغ الافكار كنموذج ( شكل ١ ) يحتاج للتحقق التجريبي .  
ففى العملية الإبداعية - التى تتضمن تغيرا معرفيا حاسما - نستطيع أن نميز الأطوار الآتية :

#### ١ - طور تمهيدى ، يتضمن :

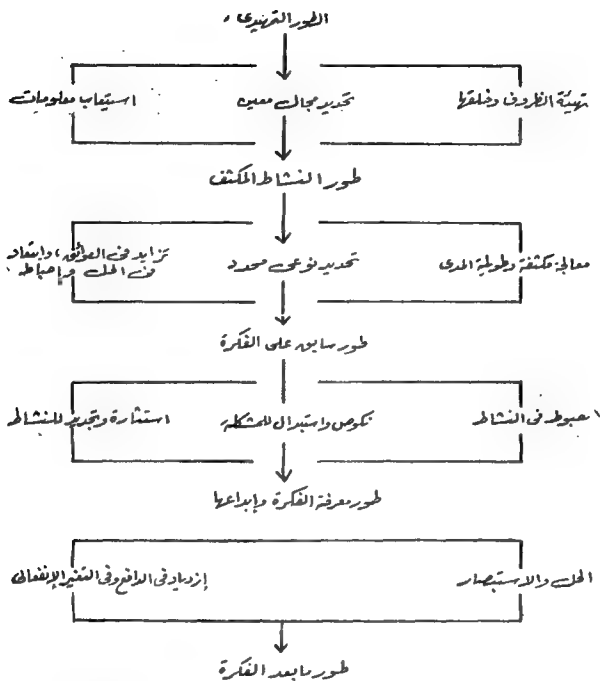
( أ ) مرحلة سابقة تقتصر على وجود الشروط الأولية للإبداع .

( ب ) تحديد جانب معين والاحتمام به .

( ج ) التهيؤ فى عملية لجمع ، واستيعاب المعلومات .

#### ٢ - طور من النشاط المكثف : ويتميز هذا الطور بالعمل المكثف والمركز لتأييد

الفكرة . هذا الطور يعتبره الكثيرون المرحلة العلمية الحقيقية فى حل المشكلات . فيه يتحول النشاط الفكرى الى نشاط موجه نحو هدف ، ومجال أكثر تحديدا من الطور السابق . وتبدأ الأهداف النهائية فى التراجع تدريجيا بسبب تزايد الصعوبات وخبرات الاحباط فى هذه الفترة . وتتراكم نتيجة لهذا الخبرات غير السارة ، ويؤدى هذا غالبا الى سيطرة الشعور



الشكل (١) وهو يوضح الصور الخاصة بأطوار العملية الإبداعية السابقة على إبداع الفكرة -  
 (لاحظ أن تلك الأطوار قد يطرا عليها تغيير وتعديل في الترتيب بحسب الفرد، ونوع  
 المشكلة. فضلا عن هذا، فإن أحد هذه الأطوار أو أكثر قد يبرز أكثر من غيره -  
 وبسبب على مختلف مراحل عملية البحث) -

بالفشل والاحباط بدرجات متفاوتة . ويتضمن هذا بدوره تناقصا ملحوظا في الدافع للعمل ، واستمرار النشاط .

٣ - طور سابق على الفكرة : يمهّد الاحباط ( الذى يمكن ملاحظته بصعوبة فى المواقف الصغرى ) مع تناقص الدافع لطور آخر يبدأ فيه النشاط العقلى فى الهبوط . ويطفو التفكير الواعى بالمشكلة ويغيب بصورة دورية . فيتقيد أحيانا بجوانب من المشكلة بشكل نمطى وتبرى ، وأحيانا أخرى يأخذ شكلا متبلورا كاملا . وينشغل النشاط العقلى خلال هذه الفترة بصورة دائمة أو جزئية بما وراء الفكرة أو المشكلة . وهذا ما يطلق عليه أحيانا « التبلور » . ومن المعروف أن لحظات « الانهباط » تظهر ، حتى فى الأطوار الأخرى ، ولكنها فى هذا الطور تظهر بصورة أكثر وضوحا وشيوعا بالمقارنة بغيره من الأطوار . وتقطع هذا « الانهباط » وانخفاض النشاط مرحلة - تسبق ظهور الفكرة أو الاستبصار - يزداد فيها النشاط العقلى الذى يدور حول الفكرة الأساسية ، أو الجوانب الوثيقة الصلة بها . وتتميز هذه الفترة من ازدياد النشاط بحالات نكوصية خاصة ، وأيضا بوجود مواقف متباينة من حيث درجات الاثارة .

٤ - طور التعرف على الفكرة : فى هذا الطور يبدأ الإدراك الواضح للعناصر الأولية الأساسية للفكرة الجديدة . غير أن من الصعب تمييز هذا الطور عن غيره من المراحل السابقة أو التالية .

٥ - طور ما بعد الفكرة : ويتكون من لحظات متعددة منها تقويم المشكلة فضلا عن التطور ، والتغيرات الواسعة فى ملامح الأفكار الأساسية .

الدافع للبحث :

لا شك فى صحة القول بوجود حاجات أساسية تدفع الإنسان والحيوان بصورة متشابهة ومن هذه الحاجات الجوع ، والجنس وغيرها . غير أن هناك دوافع أخرى بدرجات متفاوتة منها على سبيل المثال : الحاجة للأمان ، والاعتبارات المادية فى ارضاء بعض الرغبات الأساسية ، لكن ما هى الدوافع التى تظهر لدى الباحثين - خاصة المبدعين - فتميزهم عما عداهم ؟ هل هى تتمثل فى المحاولات الدائبة للمبدع فى البحث أو فى الكشف عن مشكلات وحلول جديدة ؟ أم هى فى المشكلات التى لا يلاحظها الناس بدرجة كافية من الحساسية وتؤدى الى الاحباط ، والشعور بخيبة الامل ؟ ولا شك فى أن تفرد الشخص المبدع وما يعطيه لنا عمله من ثمار ( بعضها مباشر وبعضها غير مباشر ) يدفعان بعالم النفس الى الاتجاه نحو دراسة دوافع المبدعين ، وشخصياتهم ، والعملية الإبداعية بدرجة كبيرة من التحدى والاهتمام .

وتلخص السطور الآتية نتائج بحوثنا فى مجال الدوافع . وقد أولينا اهتمامنا



- بلغة التحليل النفسى - للدوافع الثانوية أو المستويات الصريحة فى الدوافع ( أى الدوافع الشعورية ) .

ولكى نحقق قدرا أكبر من الرؤية الواضحة بالدوافع المؤثرة فى سلوك الباحث، قمنا بتحليل الصفات المميزة للحظات الحرجة ، واجابات الأشخاص عن بعض الأسئلة الخاصة بالدوافع (مثل : ماهى أهم اللحظات اثارة لاهتمامك أثناء البحث؟) كذلك طلب من العلماء فى الدراسة التى اعتمدت على السيرة الذاتية أن يصفوا بمزيد من التفاصيل أهم ما يدفعهم للبحث .

وفى هذا التلخيص العام بالعوامل الشائعة المؤثرة فى دوافع المبدعين الباحثين، يتبين وجود عوامل واقعية عامة تسود لدى غالبية العلماء .

ومن أهم العوامل شيوعا عامل « الاستثارة العقلية » وهو عامل يتضمن جوانب متعددة منها : الانشغال الشخصى ، حب الاستطلاع ، الانشغال بالعمل ، وحب الابتكار وغير ذلك .

ولو أنه يجب أن ننظر الى الدافع للاستثارة العقلية فى اطار أكثر اتساعا من هذه المظاهر . فهو لا يقتصر على مجرد الرغبة فى الحل ، ولكنه يتضمن أيضا القدرة على الاستمرار فى طرح الأسئلة ( البريئة ) التى تؤدى بالتدريج الى استيعاب كل المشكلات التى تحتاج للحل . ولا يقنع الباحث المبدع عادة بمجرد « اكتشاف أساس » كبير وما يضيفه له من تفصيلات لاحقة ، لأن العالم الحقيقى يرى باستمرار المشكلات، ويتوقعها ، ويسيطر عليه الشعور بعدم الاتزان الشخصى فى المواقف التى يمر عليها الآخرون من الكرام .

لكن الاستثارة العقلية وحدها لا تكفى اذ أن طاقة الباحث الابداعية تندفع الى الظهور بفعل حالة وجدانية تكاد تقرب من الحوار العقلى ، ينظر لها أشخاصنا انباحثون على أنها مشحونة بالانفعال ومن خلال هذا الشعور الغامر ، وتلك البهجة الواقعية التى يخلقها حل المشكلات ، قد يظهر الباحث بمظهر الخجسل فى المواقف الاجتماعية وهو مظهر قد يفسر ما يتميز به العلماء ( خاصة علماء الطبيعة ) من ميول نحو الانطواء ، ولو أن هذا الانطواء يمكن تفسيره تفسيراً أعمق فى ضوء نمط الحساسية لدى العلماء المبدعين ، خاصة اذا تذكرنا أن العالم المبدع لا تتجه حساسيته نحو الظواهر البيئية فحسب ، بل نحو خبرات وحوادث داخل ذاته أيضا ، وهى نوع من الحساسية الداخلية .

أما العامل الآخر الذى كشفت عنه بحثونا فيمكن أن نطلق عليه عامل « الرغبة فى تقديم مساهمة أصيلة » ، وهو جزء لا يتجزأ من الحاجة للجدد والتغيير ، ويتفاعل أيضا مع عامل الاستثارة العقلية . لا ينبغى أن تقتصر النظرة لهذه الرغبة على مدى اشباعها لحاجة الفرد الخاصة لكن يجب النظر اليها وفق منظور اجتماعى أكثر

رحابة • ولو أن الباحث لا يتجاهل بالطبع حاجات العلم والمجتمع • فالعالم لا يفكر إلا في الرغبة في القيام بمساهمة أصيلة للعلم ، وبهذا يزداد تراكم المعرفة العلمية في مجال ذي صلة عميقة باهتماماته • ويمكن في تلك المعادلة الجانب « المجتمعي » فضلا عن الصيت الذي يحصل عليه الباحث في الأوساط العلمية وبين أئبائه من العلماء البادين • وتقوم هذه الوظائف بجانب تدعيم الدافع الأصلي نحو متابعة البحث والاستمرار فيه • ولقد كشف الباحثون بالفعل عن الاهتمام بالشهرة في الدوائر العلمية وبين الأنداد • أما الرغبة في الشهرة الاجتماعية فقد ظهرت بدرجة أقل ، ولو أنها من المفروض أن تقوم على الشهرة العلمية •

وقد احتلت عوامل الدفاع الخاصة بالتطبيقات العملية للعلم ، والمسئولية الاجتماعية درجة منخفضة • وربما يكون السبب في هذا أن العينة تشمل باحثين في الجامعات يولون اهتمامهم « للبحوث الأساسية » • ولكن من المعقول أن نفترض أن الجانب التطبيقي يحتل مكانا « هامشيا » أثناء عملية البحث ، وتبدأ أهميته في الظهور في مرحلة استخلاص النتائج ، وكتابة التقرير •

أما **الكاسب المادية** فقد احتلت بدورها — كعامل دافع — اهتماما أقل بين الباحثين • وقد ترجع ضالة الدور الذي تلعبه الدوافع المالية في البحث إلى إعطاء استجابات يغلب عليها التأثير بالمثاليات الاجتماعية • ومن المعقول أن نفترض أن العوامل المادية تكتسب أهميتها « الدافعية » لدى العلماء المبدعين إلى الحد الذي ترضى فيه احتياجاتهم الأساسية للبحث ، أما ما عدا ذلك فإن النقود لا تلعب دورا مهما • فضلا عن هذا فإن العلماء بسبب انشغالهم واهتمامهم بمشاكلهم العلمية ، يحتاجون إلى ادخار طاقتهم العقلية لجوانب أولى بالاهتمام • ولهذا تحتل الأمور المادية لديهم مكانا ثانويا بحق • وقد تأيدت هذه النتيجة بنتائج البحوث الأخرى التي اهتمت بالمبتكرين ، والمبتكرين في مجال الصناعة • وهناك دليل آخر على ضالة أهمية العوامل المادية تمثل في عزوف أشخاصنا الباحثين عن المكافآت المادية ، أو الرغبة في الاستشهاد بهم والرجوع إليهم ، وغير ذلك من رموز الهيبة الاجتماعية ذات التأثير الدافع • فمن الصعب حقيقة أن نتصور عالما مبدعا ، أو فنانا يجلس على مكتبه بينما يدور في خله ما يأتي :

- « أنني أود أن تزداد الفتى بهذا الموضوع ( وليكن مثلا أشعة اكس ) »
- « لأنه من الموضوعات الثرية المشحونة بالإمكانات الجديدة • فإذا تم »
- « لي ذلك ، فسيكون من نصيبي أن أحصل على جائزة نوبل ، وأن يرجع »
- « الباحثون إلى مؤلفاتي ، وأن تطبق شهرتي الإفاق »

وبهذا الصدد نشر إلى ما كتبه « زاكمان » عام ١٩٦٦ عن التأثير المحيط في السلوك الإبداعي الذي تسبب فيه الجوائز العلمية كجائزة نوبل وغيرها ، وقد أثبت

أن الانتاج الابداعى يتضاد بعد الحصول على تلك الجائزة بين العلماء الذين حصلوا عليها .

### صلة الدافع بالعملية الابداعية :

يمكن أيضا دراسة الدوافع التى اشرنا اليها منذ قليل من حيث صلتها ودورها فى العملية الابداعية . فاذا عرفنا اطوار العملية الابداعية السابقة ، واذا راعينا ان العملية الابداعية تمتد بالساعات ، أو الأيام ، أو الشهور أو حتى السنين ، نستطيع اذا عرفنا ذلك أن نقدر الدور الحيوى الذى تلعبه العوامل الدافعة فى عملية البحث لدى العالم . فالطور التمهيدي فى العملية الابداعية يؤدى مثلا من خلال الدافع لالقاء الاسئلة الى ازدياد الاهتمام بالمشكلة . أما فى الطور الثانى ، فان العالم عندما يكتف جهده وينعزل عن بيئته ؛ يبذل بفضل ذلك مزيدا من الاهتمام والنشاط فى الجزء الذى يتعلق به . فاذا أمكن التغلب على الاحباطات والمصاعب التى تواجهه ، بسبب غياب الحل ، فان اهتمامه ، وانشغاله الشديد هذا سيضمن لنا بانه لن يترك المشكلة وهى فى مرحلة عدم النضوج ، ولكنه سيثابر فى محاولاته لتحقيق الحل . أما فى الطور الثالث من العملية الابداعية ( مرحلة هبوط النشاط ) فان العودة للمشكلة بين الفينة والأخرى يصبحها تقدم فى العمليات السابقة على الشعور . ولا تحدث تلك المعالجة السابقة على الشعور بالحل الا اذا كانت هناك زيادة فى الطاقة ، وفى التوحد بالعمل . وتلعب العوامل الدافعة خلال هذه الفترة دورا هاما لا شك فيه ، غير أن ديناميات هذا الدور لا يزال يحوطها الغموض . ومع ذلك ، فان من الجدير بالملاحظة أن تؤكد هنا على دور تلك العوامل فى ترسيخ وتنشيط اهتمام العالم بالمشكلة .

وبفضل الحاجة الى حب الاستطلاع ، والاستثارة العقلية ينتقل العالم الى عملية شاقة تتمثل فى مرحلة اثراء العمل . وتعتبر تلك الفترة « الحامية » التى تتلو فترة الالهام « أو بزوغ الفكرة » هى فترة « جهاد » فى المكان الاول . أما الشعور المفاجئ بالجلد والجلال ( وهو شعور يراه البعض قريبا من الشعور الدينى ) عند الوصول الى حل مقنع ، ومشبع من الناحية الجمالية ؛ هذا الشعور يعتبر فى حقيقته عاكسا دافعا كما تبين دراستنا فى موضوع اللحظات الحرجة . فالاحباطات وخيبات الأمل السابقة على بزوغ الفكرة تختفى ، بظهور السرور الذى تبعثه ولادة الفكرة والذى يدفع الى استمرار الاهتمام ، وتعميقه حتى يسهل تحقيقه .

## الخلاصة :

تتكون الغالبية العظمى من معرفتنا بالنشاط الفردي فى عملية البحث من خلال الخبرات الشخصية ، والحكايات التى ترد فى السير الشخصية للعلماء . وتعتبر تلك المعلومات ذات فائدة ضخمة لصياغة عدد كبير من الفروض للبحث فى مجال « سيكلوجية العلم » ، والمجالات المرتبطة به . غير أنه يجب معالجة البيانات - فى شكلها الأصل - بحسن كبير ، خاصة عند اشتقاق أى تعميمات علمية . وتعتبر المناقشات التى عرض لها هذا المقال ، والتى قامت على بحوث واقعية منظمة مساهمة فى بناء هذا الميدان الجديد نسبيا . ولكن حاجتنا الى بحوث عملية أعمق لا تزال قوية ، قبل اقامة معرفة أساسية ، وتفصيلية بعملية البحث ككل وبالمجالات الثلاثة التى عرضنا لها وهى : اللحظات الحرجة ، والعملية الإبداعية ، ودافع البحث .

صحيح أن نتائج بحثنا لم تقم على علماء مبدعين ، مشهورين ، أو كبار ، وصحيح أن الجماعات - التى قمنا ببحثنا عليها - كانت من جماعات الباحثين العاديين ممن تفرسوا بالبحث العلمى ، ومن حملة الدكتوراه ، أو المسجلين لها . غير أن النتائج قد أكدت بمقارنتها بالتقارير الخاصة الواردة فى السير الذاتية لكبار العلماء أن هناك وجوها مختلفة للشبه تمثلت فى أهمية الدور الذى يلعبه الاتصال غير الرسمي وفى وجود فترة من الانهياط تسبق بزوغ الفكرة الجديدة ، فهذه العوامل يمكن تعميم فاعليتها بالنسبة لكبار العلماء أيضا .

ويبدو - بحسب نتائجنا - أن هناك تشابها كبيرا بين العلماء بتخصصاتهم المختلفة فيما يتعلق باللحظات الإيجابية التى تؤثر فى عملية البحث لديهم . وقد أكدت النتائج أيضا ضمن ما أكدت أهمية المرحلة التمهيدية فى عملية البحث بما فيها تحديد المشكلة واختيارها، والآثار السلبية لعامل الوقت على عملية البحث. ويبدو لنا أن دراسة اللحظات الحرجة منهج ثرى ، لبحث مختلف العوامل المؤثرة فى عملية البحث عامة وفى مختلف الميادين .

هناك أيضا قدر لا بأس به من المعلومات الشائقة عن الدافع للبحث أمكن استنتاجه من الدراسات الحالية . فالاستثارة العقلية ، والحاجة للجدد - وهما من أهم الدوافع التى كشفت عنها بحثنا - يمكن النظر إليهما على أنهما مفاهيم واسعة لوصف جانب واحد من الموقف « الدافعى » المعقد للبحث . ويشئى أن يتجه البحث

فى المستقبل نحو مزيد من القاء الضوء على أهمية تلك الدوافع ، وبنائها ، وظهرها ،  
فضلا عن دورها فى العملية الإبداعية والأعمال العلمية • ويبدو لنا أن الطور  
التمهيدى ، والطور السابق على بزوغ الفكرة فى العملية الإبداعية من أكثر الجوانب  
أهمية فى الإبداع من وجهة النظر الدافعة والمعرفية •

غير أن المشكلات المنهجية ذات تأثير معقد سواء فى مستوى دراسة العملية  
الإبداعية ، أو عملية البحث بشكل عام • فمن الصعب مثلا على أى فرد أن يصف  
بدقة ، أو أن يحدد بناء سلسلة الأحداث التى تسبق معرفة الفكرة ، أو اللحظات  
الحرية التى حدثت فى فترة سابقة ، أو قريبة • ولعل أفضل حل – فى الحدود  
الراعية للمعرفة – لتلك المشكلات المنهجية أن نستخدم مختلف المناهج الصالحة لهذا  
الغرض ومنها الأساليب التجريبية ، وأساليب التحليل النفسى ، وتحليل السير  
الذاتية ، والذكريات ، والقيام بالاستبانات الطولية والعرضية • فمن شأن المقارنة بين  
النتائج المستخلصة من تلك الأساليب والمناهج المختلفة أن لا تساعد فحسب على  
زيادة حصيلتنا من المعرفة الواقعية فحسب ، بل انها ستكون أيضا ذات أثر فعال  
فى صياغة نظرية ملائمة •

# المؤتمرات الدولية القادمة

١٩٧٤

— أوروبا : اتحاد الربيع الدولي للسلام العالمي : أول مؤتمر عالمي  
IAEWP. International Secretariat, Huntsville, Alabama, 35762 (United States).

— بوخارست : الاتحاد العالمي للدراسات جنوب شرقى أوروبا : المؤتمر الثالث —  
International Association of South-East  
European Studies : Third Congress.  
IASEES, 9, Rue I.C. Primu, Bucharest (Rumania).

— دوبروى جانيرو : الاتحاد الفدرالى الدولى لجمعية الاخصاب : المؤتمر العالمى الثامن للاخصاب  
والمعلم .

Dr. G.T.M. Swyer, Secretary-General, IFFS, University College Hospital,  
London, W.C.1 (United Kingdom).

٣ - ٧ مارس : جمعية علم السموم : الاجتماع العلمى السنوى.  
Society of Toxicology : Annual Scientific Meeting.  
Dr. R.A. Scala, SOT, c/o Med. Div. Esso R and Co., Linden,  
N.J. 07036 (United States).

١٨ - ٢٤ أبريل : اتحاد السكان الأمريكى : الاجتماع السنوى  
Population Association of America : Annual Meeting,  
PAA, Bo 14182 Benjamin Franklin Station,  
Washington, D.C. 20044 (United States).

٥ - ٢٧ يونيه : منظمة العمل الدولية : المؤتمر الدولى للعمل ، الدورة التاسعة والخمسون .  
جنيف

International Labour Organisation : International Labour Conference,  
Fifty-ninth Session.  
ILO, 1211 Geneva 22 (Switzerland).

يوليه : الاتحاد الدولى للرعاية الاجتماعية : مؤتمر الدولى السابع  
International Council on Social Welfare :  
Seventh International Conference.  
ICSW, 345 East 46th Street, New York, N.Y., 1007 (United States).

٢٨ يوليه : الاتحاد الدولى لعلم النفس التطبيعى : اجتماع  
الى ٢ اغسطس ي  
مونترال

International Association of Applied Psychology :  
Meeting. Mr. G. Deauteils, 195 Bloomfield, Outremont, Montreal (Canada).

اغسطس : الاتحاد الدولى للتاريخ الاقتصادى : المؤتمر السادس .  
كونهناج

International Economic History Association : Sixth Congress.  
Professor Dr. J.F. Berigier, Rindermark 6, 8001, Zurich (Switzerland).

١٨ - ٢٤ اغسطس : الاتحاد الدولى لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمى الثامن لعلم الاجتماع ( الموضوع :  
علم الاجتماع والثورة فى مجتمعات اليوم )  
تورنتو

International Sociological Association : Eighth World Congress of Sociology  
(Theme : Sociology and Revolution in today's societies.  
IS, Via Daverio 7, 20122 Milan (Italy).

١٩ - ٣٠ أغسطس : إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة : المؤتمر العالمي الثالث للسكان .

United Nations Department of Economic and Social Affairs :  
Third World Population Conference.  
United Nations, New York, N.Y. 10017 (United States).

٢٦ - ٢٩ أغسطس : الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي .  
مونتريال

American Sociological Association : Annual Meeting  
ASA, 1001 Connecticut Avenue, N.W., Washington D.C. 20036 (United States).

سبتمبر : الجمعية الاقتصادية : المؤتمر العالمي الثالث .  
الولايات المتحدة

Economic Society : Third World Congress  
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520 (United States).

٦ - ٧ سبتمبر : معهد أثينا للانسان : المؤتمر الدولي السادس للطب النفسي الاجتماعي .  
أثينا

The Athenian Institute of Anthropos : Sixth International Congress  
of Social Psychiatry.  
The Congress Secretariat, The Athenian Institute of Anthropos,  
8, Demetriou Douydou St., Athens-602 (Greece).

١٩٧٥-

المجلس الدولي للرعاية الاجتماعية : حلقة دراسية اقليمية عن آسيا وغربي المحيط الهادي .  
International Council on Social Welfare : Regional Asian and Western  
Pacific Seminar  
Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee ICSW, Ann Black Red  
Cross Building Harcourt Rd., P.O. Box 474 (Hong Kong).

١٨ - ٣٠ أغسطس : اتحاد الباشفيكي للعلوم : مؤتمر الباشفيكي الثالث عشر للعلوم : ( الونوع :  
جستقل الانسان في الباشفيكي ) .  
فانكوفر

Pacific Science Association : Thirteenth Pacific Science Congress  
(Theme : Mankind's Future in Pacific)  
University of British Columbia, Vancouver 8 (Canada).

٢٥ - ٢٨ أغسطس : الاتحاد الامريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي .  
ASA, 1001 Connecticut Avenue, N.W.,  
Washington, D.C. 20036 (United States).

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسي : مؤتمر .  
الولايات المتحدة

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven,  
Connecticut, 06520 (United States).

١٩٧٦ :

- فرنسان : الاتحاد الدولي لعلم النفس : المؤتمر : المؤتمر العالمي والشؤون

International Union of Psychological Science :  
Twenty-first International Congress.  
Professor E. Jacobson, Secretary-General,  
Department of Psychology, Michigan State University,  
East Lansing, Michigan (United States).

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسي : مؤتمر .

Econometric Society : Conference  
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven,  
Connecticut 06520 (United States).

# مطبوعات الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة

السكان ، والصحة ، والطعام ، والبيئة :

السكان :

تقرير عن قياس الإخصاب ، ومصادر البيانات . معالم الاتجاهات العامة بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٥ وفقا للأقاليم : أوروبا ، وأمريكا الشمالية ، والأوقيانوسية ، والاتحاد السوفيتي ، وأمريكا الوسطى ، وأمريكا اللاتينية ، وآسيا ، وإفريقيا

(UN/ST/SOA/SER. A/52)

تقرير عن مؤتمر السكان العالمي سنة ١٩٧٤ ، خطط وتنظيمات المؤتمر : الوثائق والتقارير التي تصدرها مختلف الدول عن اتجاهات السكان ، والنتائج غير المباشرة للتنمية .

(UN/E/CN. 9/265)

تقرير عن عام السكان العالمي ١٩٧٤ : الإجراءات التي تتخذها السلطات المعنية لتعزيز هذه انعام السكاني العالمي ، والتقدم الذي حققه الأعداد للبرنامج .

(UN/E/CN. 9/266 and Add. 1)

تقرير المجموعة الاستشارية الخاصة من الخبراء عن السياسة السكانية ، والبحث الذي تقوم به الأمم المتحدة وبرنامج التعاون الفني في هذا المجال .

(UN/E/CN. 9/267)

تقرير لجنة السكان التابعة للمجلس الاقتصادي الاجتماعي فيما يتعلق باستراتيجية المقعد الثاني للتنمية للأمم المتحدة ، وهدف الاستراتيجية العالمية للسكان والتنسيق بينها وبين غيرها من الاستراتيجيات السكانية .

(UN/E/CN. 9/268)

اللجنة التحضيرية للمؤتمر السكاني العالمي لسنة ١٩٧٤ : تقرير عن دورة الانمقاد الثالثة

(UN/E/CONF/ PC/3)

تقرير عن الدورة الاولى لمؤتمر علماء احصاء السكان الافريقيين ، بمالغ مسألة السكان في افريقية والبيانات الخاصة بالسكان وتحليلها ، والقوة البشرية والعمالة والنتائج غير المباشرة على التنمية الاقتصادية والاجتماعية أو العكس : البرنامج السكاني الافريقي . تقرير عن أنشطة الإحصاء السكاني للجنة الاقتصادية الخاصة بإفريقيا .

(UN/E/CN. 14/553)

تقرير عن مؤتمر اكرا الافريقي من توقعات الإحصاء السكاني في إفريقيا : الحجم ، والتكوين ، والسمات الاجتماعية الاقتصادية للسكان ، والإخصاب ومعدل الوفيات ، والتوزيع الجغرافي للسكان ، والهجرات الداخلية وعملية التكوين ، وتطبيق الإحصاء السكاني على تخطيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

(UN/E/CN. 14/562)



تقرير من الاجتماع الثاني لمنظمات الدول خارج نطاق الأمم المتحدة المهتمة بالعمل الإحصائي في أفريقيا ، وأنشطة مختلف المنظمات التي تؤثر في السكان ، أنواع مشروعات البحث ، وبرنامج الإحصاء الأفريقي والمسح العالي للأخصاب .

(UN/E/CN. 14/564)

دراسة إقليمية مقارنة لرموز الانعاط الخاصة بالتنوع على أساس الجنس والسكن مع جدول مقارن لهذه الانعاط في دول مختلفة في العام نفسه (١٩٦٠) وفي جميع القارات

(UN/E/CN. 14/POP/65)

توزيع السكان في أفريقيا ، وعرض لسياسات الحكومات التي تؤثر في توزيع السكان .

(UN/E/CN. 14/POP/68)

التمدين في أفريقيا : السنويات ، الاتجاهات والتوقعات . فصول البيانات ، مقارنة بين التمدن في أفريقيا وفي غيرها من أقاليم العالم . الوقت في مختلف الدول الأفريقية .

(UN/E/CN. 14/POP/67)

المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للتمدين في أفريقيا : نمو سكان المدن ، تصور التمدن السكاني بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٠ ، والتنسيق بين التمدن والاتجاهات في التعليم والعمالة والصحة والسكان (UN/E/CN. 14/POP/69)

#### حقوق فواضية :

اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية : الحلقة الأولى عن اعداد واستخدام الجداول الإحصائية الخاصة بالسكان ، والحلقة الثانية خاصة بجداول إحصاء السكان . الثالثة توضحية لتحليلات الجداول الإحصائية . وتتمثل هذه الجداول بالأخصاب ، ومعدل الوفيات ، والهجرة ، والتوزيع الجغرافي ، والتعليم ، والاقتصاد والأسرة ( من ١٤ - ١٩ أغسطس ١٩٧٢ ) .  
(UN/ST/ECLA/CONF. 43/L.6.)

#### الصحة :

تقرير من الطب النفسي للشيخوخة : حجم المشكلة علم الأوبئة الخاص بالاضطرابات العقلية عند المسنين ، بحث في العلم النفسي للشيخوخة ( WHO منظمة الصحة العالمية - ١٩٧٢ ) .

مجموعة تقارير فنية من التعليم والتدريب للتخطيط الأسري في الخدمات الصحية . منظمة الصحة العالمية ١٩٧٢ . مؤسسات التعليم والتدريب المهني . اعداد وتنفيذ برامج تعليمية وتدريبية لتدريب مجموعة موظفي الخدمات الصحية . تقيم التعليم والتدريب المتاحين .

الفحوص الصحية الجماعية ، مقالات الصحة العامة ( منظمة الصحة العالمية ١٩٧٢ ) .

المشكلة وصحة الاختبارات المستعملة ، الاعتبارات القانونية والأخلاقية ، عمليات مسح ومراقبة . الحالات الوبائية . توقعات المستقبل .

تقرير عن الإحصاءات العالمية للصحة ( منظمة الصحة العالمية )

أجزاء من اللخصات المستمرة للإحصاءات الخاصة بأثر مختلف الأمراض في جميع أنحاء العالم ، بالإضافة إلى الجداول الأساسية ، ويضم كل جزء دراسة خاصة مثل الإحصاءات الخاصة بالمستشفيات وإحصاءات الحوادث .

## الطعام :

حالة الطعام والزراعة ( منظمة الطعام والزراعة FAO - ١٩٧٢ ) .

## البيئة :

تقرير من مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة البشرية . يضم قائمة بالمقالات التي تألف ونافق المؤتمر ،  
وابتقارير القومية والدراسات وغيرها من المقالات التفسيرية التي وصلت الى سكرتارية المؤتمر من  
ادول المدعوة ومنظمات الأمم المتحدة والؤسسات الأخرى

(UN/A/CONF. 48/14)

تقرير مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة البشرية ( مستكمل من ٥ - ١٦ بونية ) ، يتضمن خلفية  
وأجراءات المؤتمر ، والقرارات ، وبيان عن البيئة البشرية ، وخطة العمل من أجل هذه البيئة .

(UN/A/CONF. 48/14)

التعاون الدولي للسيطرة على التلوث والطرق التطبيقية ، فبراير سنة ١٩٧٢

( تقارير عن البحوث رقم ٩ معهد الأمم للتدريب والبحوث ) . UNITAR

## الاقتصاديات :

الاحصاءات وطرق الاحصاء

لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعي للاحصاء :

تقرير عن تنسيق البرامج الاحصائية الدولية وتكاملها . احصاءات الدول النامية فيما ينصن .  
بالفقد الثاني في التنمية للامم المتحدة . برنامج العمل والاولويات . بولية سنة ١٩٧٢ .

(UN/E/CN. 3/420)

لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعي للاحصاء :

تقرير عن احصاءات الاسعار والكميات ، والحسابات الوطنية في الاسعار الثابتة . أهداف .  
ومدى وتركيب النظام الذي يقترحه المؤلفون في الوثيقة بتحديد وتصنيف مجموعة الفهارس التي  
ستستخدمها . الصيغة المستخدمة في تصنيف الجداول . أغسطس سنة ١٩٧٢ .

(UN/E/CN.3/427)

لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعي للاحصاء :

تقرير من جميع وتصنيف احصاءات الاسعار والكميات . طبعة ومميزات المؤشرات الأساسية  
الملائمة لهذه المجالات . الاجماليات . طرق اختيار وجمع البيانات - استخدام المجموعات -  
أغسطس سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/428)

لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعي للاحصاء :

الاحصاءات . بولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/430)

#### لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن نظام للاحصاء السكانى والقوة البشرية والاحصاءات الاجتماعية واحصاءات الهجرة .

فصل قصير عن اتجاه احصاءات القوة البشرية . موجز عن المعايير الدولية ، تحليل للمطالب الجديدة فى احصاءات القوة البشرية ، التوسع المطلوب فى مثل هذه الاحصاءات فى نطاق الاحصاءات الاجتماعية . يونية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/433)

#### لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن الحاجة الى الاحصاءات المتطعة بالمهجرات الدولية . توجيه لتتبع توصيات الامم المتحدة فيما يتعلق بهذه الاحصاءات ، يولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/434)

#### لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعى للاحصاء :

اقتراحات لتحسين احصاءات الهجرة الداخلية ، المشكلات النوعية التى تنطوى عليها اجراءات الهجرة الداخلية مصادر البيانات الخاصة بمثل هذه الهجرات ، مسح ميدانى . سجلات سكانية - توجيهات بسحب توصيات الامم المتحدة ما يتعلق بهذه الاحصاءات . يولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/435)

#### لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعى للاحصاء :

تقارير عن أنشطة احصاءات التنمية وقطاع التنسيق . فرع المال والاسمار ، قطاع المشروعات انخاصة . قطاع الاحصاءات الصناعية . مركز الاحصاءات التجارية . فرع الاحصاءات السكانية والاجتماعية . قطاع نفقات المعيشة .

#### لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن برنامج العمل والاولويات . نشرات احصائية ، جمع البيانات والمعاملة ، الشرعية المساوية المفعول ونوع الاحصاءات المنشورة والازدواج ، يولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/439)

#### لجنة المجلس الاقتصادي والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن الاحصاءات الخاصة بالدول النامية فى العقد الثانى من التنمية للامم المتحدة ، الاحصاءات المطلوبة والطرق والاولويات الجمع : المؤشرات المطلوبة لتقويم التقدم الذى حدثه بأن العقد الثانى للتنمية لتحقيق الاهداف المقررة وفقا للاستراتيجية الداخلية ، تقديم توصيات ابدى مدى . شروحات المساعدة الفنية فى هذا المجال : سبتمبر سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/423)

الكتاب السنوى للاحصاءات الحسابية الاحلية : جزآن ، يحتوى الاول على بيانات الدولة ، والثانى على جداول دولية ، وهى تتعلق بعشرين دولة واقليةها، وتتضمن المقدمة وصفا لطريقة الحسابات والتعريف بها : ١٩٧٢ ( الاسم المتحدة ) .

تقرير المجموعة العاملة التابعة للجنة الاقتصادية لافريقيا ، عن احصاءات القطاع المنزلى :

مصادر وطرق تقدير البيانات الخاصة بالدخل والاستهلاك والتكديس فى القطاع المنزلى : مصادر المعلومات الاساسية المتاحة لتقدير وتوزيع الدخل والاستهلاك والتكديس . عينات من عمليات المسح المنزلى أغسطس سنة ١٩٧٢

(UN/CN. 14/NAC/52).

# تَبَيَّنَ

العدد وتاريخه

المقال

- المجلد الخامس عشر

العدد : الأول

والثاني ١٩٧٣

١٠٠٠ ب. الكين

شلفرو فيرتادو

أتر كلاينبرج

رينيه كونيغ

أ.ر. لوريا

ت.هـ. مارشال

عل ١٠٠ مازروي

ويلبرت ١٠٠ مور

م.ن. سرينفاس

جان شزابانسكي

جون فايزي

مجلة ترانساكشنز

بقلم : ارفنج لويس هوروفتس

الحظات الحرجة في العملية  
الابداعية والدافع للبحث

بقلم : س.م. مايني  
و

ب. لوورديك
- A.P. Elkin

Celso Furtado

Otto Klineberg

René König

A.R. Luria

T.H. Marshall

Ali A. Marui

Wilbert E. Moore

M.N. Srinivas

Jan Szczepanski

John Voizey

Transaction magazine

by  
Irving Louis Horowitz

Critical moments, the creative  
process and research  
motivation

by  
S.M. Maini and B. Nordbeck

١٠٠٠ ب. الكين

شلفرو فيرتادو

أتر كلاينبرج

رينيه كونيغ

أ.ر. لوريا

ت.هـ. مارشال

عل ١٠٠ مازروي

ويلبرت ١٠٠ مور

م.ن. سرينفاس

جان شزابانسكي

جون فايزي

مجلة ترانساكشنز

بقلم : ارفنج لويس هوروفتس

الحظات الحرجة في العملية  
الابداعية والدافع للبحث

بقلم : س.م. مايني  
و

ب. لوورديك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٧٣



# مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأقل من كتاب  
مخصصة وأمانة باريس.  
ويقدم باختيارها وتخطيطها العربية مجلة متخصصة  
من الأمانة العربية، تصبح إضافة إلى المكتبة العربية  
تأهم في إثراء الفكر العربي، وتكثيف من ملامحة  
البحث في قضايا العصر.

تصدر شهرياً

مجلة رسالة اليونسكو

يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

للمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

مستقبل البشرية

فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

مجلة اليونسكو للمكليات

مجلة (ديوجون)

مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

العلم والمجتمع

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغة  
الدولية، وتصدر طبعا بالعربية بالارتباط مع الشبكة القومية  
للونسكو، وبمبادرة الشعب القومية العربية، ووزارة  
الثقافة والإعلام بجمهورية مصر العربية.

التمن ٢٠ قرشا

المجلة الدولية

للعلاوم الاجتماعفة

خطة التنمية فى العالم



بين مجموعة  
من الضرورات والمحاذفر

العدد السادس عشر - السنة الرابعة  
فولفر ١٩٧٤

تصدر عن مجلة رسالة الفونسكو

ومركز مطبوعات الفونسكو





# المجلة الدولية

## للعالم الاجتماعي

العدد السادس عشر

السنة الرابعة

٥ جمادى الآخرة ١٣٩٤

٥ يوليو ١٩٧٤

٥ تموز ١٩٧٤

### محتويات العدد

#### ١ - التنمية والبيئة والتقويم التكنولوجي

بقلم : انياس ساكس

ترجمة : الدكتور أنور محمود عبد الواحد

#### ٢ - اختيار الأساليب الفنية للإنتاج

والنفيير التكنولوجي

كمشاكل في الاقتصاد السياسي

بقلم : شارل كوبر

ترجمة : الدكتور علي لطفى

#### ٣ - الثورة الخضراء

والتوترات الاجتماعية الاقتصادية في الهند

بقلم : كاليانا بردهان

و

برانا ب بردهان

ترجمة : الدكتور امام محمد سليم

#### ٤ - التقويم التكنولوجي

بقلم : هارفى بروكس

ترجمة : المهندس ابراهيم عادل جنديه

#### ٥ - الترشيد الأكاديمي للسياسة

بقلم : هارولد أورلانس

ترجمة : الدكتور أحمد الخشاب

تصدر من مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

١ شارع طلعت حرب

بميدان التحرير بالقاهرة

تليفون : ٢٢٤٠٢

رئيس التحرير : عبد النعم الفتاوى

د. مصطفى كمال طلبه

د. السيد محمود الشنيطي

د. عبد الفتاح اسماعيل

عثمان نوييه

محمود فؤاد عمران

مدير التحرير : عبد السلام الشريف

# مفكرو هذا العصر

ان الذى يشغل المفكرين فى العالم اليوم شيء يختلف تماما عما كان يشغل مفكرى العصور السابقة .

ان التنافس بين رأس المال وحقوق العمال ، على اثر الثورة الصناعية ، قد قضى بظهور مجموعة من المفكرين يحاولون أن يجدوا حلا لهذا التنافس .

وشهدت عصور سابقة مناقشات حول هذا التنافس ، ومحاولات للوصول الى حلول . واذا كانت الماركسية قد كانت اظهر ماتفتحت عنه فلسفة تلك العصور فلذلك لانها قد حملت مارآه مفكرو ذلك العصر اسلم الحلول لحسم الصدام بين رؤوس الاموال والطبقة العاملة .

لكن تلك ذلك العصر عصور اخرى ، شهدت الوأنة من الصراع جديدة . بل ربما جالت الوان الصراع الجديدة هذه نتيجة طبيعية لما اسفرت عنه الحلول الماركسية من اشكال جديدة فى طبيعة القوى العاملة .

لقد سيطرت القوى العاملة على مصادر الانتاج بصورة او باخرى . وشهد العصر المأخى شيئا مختلفة لتحديد سلطة رأس المال او تصفيتها لحساب الطبقة العاملة . وادى هذا الى تغير النظرة الى السلطة ، التى تحد من مسيرة الشعوب نحو غاياتها .

والتيارات الفكرية ، كالثورات ، كالمراض ، كالمودات ، عمليات سريعة العدوى ، وسريعة الانتقال من مكان الى مكان .

وهى فى انتقالها الزمنى او المكانى قد تأخذ صورة مفارقة ، لكنها — مع هذا — تنفق مع الطبيعة الاصلية فيها ، وهى التحرر من القهر او التحكم ، بمختلف صورة واشكاله .

ولقد سرت عقب هذا العهد ، فى بقاع مختلفة من العالم ، تيارات

# ومجموعة من المناقضات

اخرى ، تمكس صراعا بين أنواع اخرى من القوى . واخذ الصراع هذه المرة شكل التحرر من الاحتلال الاجنبى ، والتخلص من قهر الاستعمار ، الذى كان قد توهم انه استقر على الارض التى يحتلها ، حتى لقد اخذ يحاول تغيير الخريطة الجغرافية للعالم بضم المستعمرات الى ارضه ، بصرف النظر عن الحدود والموانع والبعد المكافى ، واختلاف الطبيعة والاجناس واللغات والاديان والمصالح .

وشهد مطلع هذا القرن مجموعة من ثورات التحرر من الاستعمار، والمطالبة بجلاد جنود الاحتلال عن الاراضى التى تحتلها بقوة السلاح . وراينا تناقضا جديدا ، اخذ شكل الصدام الدامى بين قوى الاحتلال والقوى الوطنية الثائرة عليه .

وكان من الطبيعي ان يكون لهذه الثورات صدى مختلف الوقع ، فبينما تشوهها النواثر الاستعمارية ، وتتهمها بالتمرد وانكار الجميل ، كانت الطبقة العاملة التى سيطرت على مصادر الانتاج تتحمس لها وتؤيدها وتطالب بالاستجابة لها ، وتحقيق مطالبها فى التحرر والاستقلال .

وبرغم ان بعض ثورات التحرر قد نشأت من قاعدة راسمالية ، وبرغم ان الذين قادوا بعضها قد كانوا من طبقات اقطاعية ، فان ذلك لم يمنع الطبقات العاملة من تبني قضائهما ، والانتصار لحظائهما .

ولسنا هنا نريد تحليل الاسباب التى كانت تربط بين هذه التيارات ، لكننا نكتفى بان نرصد الظاهرة ، حتى لاندخل فى تفاصيل متشعبة كثيرة ، فى تفسيرها .

والذى لاشك فيه ان قوى التحرر قد سجلت انتصارات هائلة خلال هذا القرن ، وان الثورات الوطنية قد نجحت فى تطهير الارض من محتليها ، واجلاء قوات الاحتلال ، بالانضال المسلح ، او بالثورة الوطنية ، او باستسلام الاستعمار نفسه لمنطق العصر الجديد .

المهم ان اللون التناقض السياسى او الاجتماعى قد كانت شاذل  
المفكرين من رجال العصور السابقة . وكان همهم الاول هو ان يجدوا  
الصيغة المناسبة لطول سليمة ، يتفادون بها الصدام بين الطبقات  
الاجتماعية داخل المجتمع الواحد ، او بين القوى الوطنية في مجتمع ،  
والرغبة في السيطرة عليه من مجتمع آخر أكثر تقدما .

وانا كانت هناك سمة مشتركة تجمع هذه التيارات فهي بالقطع  
مستمدة من عنصر اساسى راسخ في كيان الانسان نفسه . فالانسان  
بطبيعته حر . بل ان تصور الحياة بغير الحرية - حتى في النبات والحيوان -  
تصور عقيم .

وقد تأخذ الحرية الكامنة في الانسان اشكالا مختلفة في التعبير عن  
نفسها ، وقد تختلف هذه الاشكال باختلاف البيئات ، او باختلاف  
الازمان ، او باختلاف الظروف ، لكنها في النهاية لابد ان تجد صيغة  
ما من صيغ التعبير عن نفسها .

ان تحكم راس المال قد ادى الى ظهور مذاهب تدعو لتحرير القوى  
العاملة من هذا التحكم .

ويأخذ التحرير اشكالا شتى ، ويمضى الى غايته بنسب متفاوت ،  
لكنها جميعا تتلاقى عند تعبير الانسان عن حريته ومطالبته بضمانات  
تكفلها له .

كذلك قد ادى تحكم قوى خارجية في مجتمع ، عن طريق احتلال  
اراضيه بالقوة ، الى الثورة . واخذت الثورات الوطنية في احيان كثيرة ،  
ولا تزال تأخذ شكل العنف المسلح والصدام الياسل ، انتزاعا لحق الانسان  
في الحرية .

وانتهى الامر في الاغلب الى تحقيق ارادة الانسان في التحرير ، حتى  
ليمكن ان نرى في بقايا المستعمرات مجرد ثغرات ، في سبيلها الى ان  
تصفى .

لكن هل انتهى الصراع ؟ وهل وقف عند هذا الحد ؟ .

الحقيقة : لا .

ان الانسان قد استغل الحريات التي انتزعها لنفسه ، في سبيل  
تحقيق اكبر قدر من التقدم .

في المجتمعات التي تسود فيها الطبقة العاملة ، وتأخذ بمبدأ الاقتصاد  
الموجه ، حاولت الطبقة العاملة ان تحقق التقدم ، دفاعا عن نفسها ، على  
الاقل ، ضد مجتمعات أخرى .

وفي المجتمعات التي تأخذ بمبدأ الاقتصاد الحر مضت النظم تستخدم أحدث أنواع المبتكرات والتكنولوجيا الحديثة ، في محاولة دائبة لتحقيق مجتمع الرخاء ، دفاعا عن نفسها كذلك ضد المذاهب الجديدة .

ومن خلال هذه المنافسة الشديدة وصل العالم الى نوع آخر من التناقض ، صار يقض مضاجع المفكرين فيه .

والتناقض هذه المرة هو من صنع الانسان نفسه . وكما ان الحاجة عبه على اصحابها فقد صار الرخاء كذلك عبئا على اصحابه .

وصل التقدم بالانسان الى تلوث البيئة التي يشغلها ، وفساد الجو والأرض ، وتسميم مصدر الحياة وهو الماء بمخلفات التكنولوجيا الحديثة .

ووجد الانسان نفسه في مجتمعات الرخاء امام احد اختبارين ، كلاهما صعب : اما ان يصحى الرخاء ، ويعود الى الحياة البسيطة ، على ما فيها من شغف ، او يصحى البيئة في سبيل المضي في تيار التقدم .

لكن الضرورة قد صارت تحتم على الانسان ان يراجع موقفه على كل حال .

هل هذا هو التناقض الوحيد ؟

ان هناك تناقضا اخطر ، فينما المتقدمون يزدادون تقدما ، ويندفعون الى ما يمكن ان يسمى بعالم المخزون السلمي التناقض عن حاجة الاستهلاك، نجد ان الجزء المتخلف من العالم عاجز عن اللحاق بهذا التقدم وعاجز في الوقت نفسه عن استيراد حاجاته من المخزون السلمي في الجزء الآخر من العالم ، لانه يفتقد القدرة على دفع ثمن ما يحتاج اليه .

والمعالم كله مع هذا يزداد اكتظاظا بالسكان ، وبجلايين وفيرة تطلب ان تاكل وان تلبس وان تعيش .

ومع زيادة السكان تشح موارد الغذاء ، حتى لقد اصبحت نخشى شبح الجوع على ابناء عصرنا .

وخريطة العالم مع هذا مختلفة .

اماكن فاضت فيها الثورة ، حتى لم تعد تجد طريقا لاستهلاك ماينتج عنها .

واماكن فاضت فيها اعداد البشر ، حتى لم تعد تجد القوات .

ومصادر للطاقة في بئاع خلوية خالية الا من هذه المصادر ، تتناثر

فيها اعداد من الناس ، لا يكادون يكونون مدينة واحدة من المدن العظمى .  
ومع هذا فان هذه البقاع لاتعتبر مناطق استهلاك ، لقلة سكانها .

هذه المتناقضات تشكل اليوم عبئا على الفكرين في هذا العصر .

وعندما يتوفر راس المال ، ولاتتوفر المادة الخام ، يختل الميزان .

وعندما تتوفر المادة الخام ، ولا تتوفر الخبرة في استغلالها ، يختل الميزان .

وعندما تتوفر القوى العاملة ، مجردة من راس المال ، ومن التكنولوجيا المصرية ، يختل الميزان كذلك .

مشاكل الاختلال في كل مكان .

واختناقات اقتصادية في كل شبر على هذه الأرض .

حيث التقدم ، البيئة ملوثة .

وحيث البيئة بكر لاتزال ، نجد التخطف ضاربا اطنابه .

وراس مال بلا خبرة ، وخبرة بلا راس مال .

ماذا يفعل الناس ؟ كيف يتصرف الانسان امام مجموعة قيود تتحدى  
حرياته ايضا ، كما كان يتحداها الدهر ، في اى شكل من الاشكال .

وبدا المفكرون ينشغلون بمصير مجهول مخيف .

هل تؤدي الهوة بين جزءي العالم المتقدم والتخلف الى تعكير صفو  
السلام ؟

هل يشور المحتاجون ؟

وعلى من يشورون ؟

ان ثاروا على الكبار فان تطور التسايح ، وادوات اعمار ، قد  
صارت تهدد بخراب نووى ، لا احسد يستطيع ان يتنبأ بما سيؤدى  
اليه .

وان سكتوا على ما هم فيه فان الهوة تتسع ، حتى ليتمكن ان نتصور  
عهدا جديدا من الاستعمار ، ياخذ في هذه المرة شكل التفوق العلمى .  
اذن كيف يكون الحل امام عالم المتناقضات والاختناقات هذا الذى  
نعيش فيه ؟

ويكثر الكلام حول التخفيف . ويرتبط التخفيف بالتصنيع .  
ويرتبط التصنيع بالتكنولوجيا . وترتبط التكنولوجيا بالانفاق الضخم  
على الابحاث وعلى التطبيق .

ويكثر الكلام عن التزاوج بين الخبرة ورأس المال ، ليتحقق التقدم في المناطق المتخلفة .

لكن لذلك محاذير يجب ان تكون في الاعتبار .  
وهكذا نجد انفسنا امام احتياج الى التقدم ، على اوسع رقعة من رقاع الأرض ، لتسود العدالة ويستقر السلام .

وسيجد مفكرو هذا العصر انهم مطالبون بحل هذه المتناقضات ، قبل ان يصاب العالم بدوار .  
ان العزلة لم تعد ممكنة بين اجزاء العالم بعد ثورة وسائل المواصلات .

لكن الاتصال ايضا مخوف باخطار يجب تداركها قبل ان تؤدي الى متناقضات جديدة .  
ولم يعد هناك لاحد القدرة على ان يخطط لنفسه ، في حدود قدراته وطاقاته وحدها .

واذا كان الكبار قادرين على ان يحموا انفسهم بقدرتهم على الردع فان الصغار محتاجون الى ان يحموا انفسهم من الكبار ، عندما يستمينون بخبراتهم في تطوير مجتمعاتهم .

ولست أدري كيف يمكن ان تكون هذه الحماية .

هل يصدر ميثاق دولي يضمن ان لا تتجاوز الخبرة حدودها ، وان لا تتطور لتصبح شكلا جديدا من اشكال الاستعمار ؟  
ومن الذى يضمن تنفيذ هذا الميثاق ؟

صحيح ان العالم قد تجاوز مرحلة الصلاسية المفرطة من ههنا الجلب .

لكن صحيح ايضا ان اطماع السيادة والنفذ جزء من طبيعة البشر .  
... وعلى كل حال فالوضع صعب .  
لكن حله لن يكون مستحيلا .

عيد النعم الصاوى



## - ١ -

بحسب الإنسان أنه مسخر الطبيعة وسيدها . ولكنه في الواقع ليس سوى ضحية ابتكاراته وأسير اختراعاته . فهو يدمر عن طريق تفنناته و « إبداعاته » . وهو يقتضى المجتمع نمنا باهظا مقابل بعض منجزاته التكنولوجية المرموقة . وفي حين أنه يعتقد اعتقادا راسخا بأنه يحمي المستقبل ويؤمنه فهو يهدده ويكاد يودي به . إن هذه الملاحظات مألوفة لنا وليست جديدة في حد ذاتها . وإنما الجديد هو الوعي بعدم انعكاسية عمليات معينة : فمع نمو نطاق النشاطات الإنسانية نموا مطردا لم نعد تهددنا القلائل المحلية وحدها . وإنما تهددنا كذلك التوازنات المختلفة التي تؤثر على العالم ككل .

فهل يجب ، إذن ، إيقاف النمو ؟ إن العلاج سيكون أسوأ من المرض . ففي عالم من عدم المساواة الاجتماعية يكون التكمّل عن الغاء النمو معادلا للحكم على أغلبية البشرية بفقر ميثوس منه . والواقع أن مساندى هذه النظرية يكتفون بمجرد الكلام عن ضرورة إعطاء كل شخص شظية أكثر عدلا من الكعكة . ولكن من يستطيع أن يأخذهم بجديّة عندما نتفكر في عجزنا عن تصحيح التوزيع السيء للدخل ، سواء بين



## بقلم : انيسى ساكس : تجربة : الدكتور أنور محمود عبد الواحد

مهندس ميكانيكى • مدير عام مصانع شركة النصر لصناعة  
المراجل البخارية وأوعية الضغط • حصل على الدكتوراه  
فى الهندسة الميكانيكية من جامعة الاسكندرية ( ١٩٥٣ ) .  
والدكتوراه فى العلوم التطبيقية من جامعة بروكسل بيلجيكا  
• ١٩٥٥ ) • ترجم كتاب « مكافحة تلوث البيئة » ، وترجم  
وراجع العديد من الكتب العلمية والتكنولوجية • ساهم  
بترجمة عدة مقالات لمجلات مركز مطبوعات اليونسكو  
بالقاهرة • أشرف على تحرير « موسوعة الثقافة العلمية »  
التي نشرتها مؤسسة الأهرام بالقاهرة • مؤلف « المعجم  
الهندسى » الذى نشرته دار الشروق بالقاهرة • يشرف على  
تحرير سلسلة كتب « الأسس التكنولوجية » ، وسلسلة  
« المواجه التكنولوجية التخصصية » التى تنشرها مؤسسة  
الأهرام بالقاهرة بالتعاون مع « دار النشر لايبزج » بجمهورية  
المانيا الديمقراطية •

اقتصادى من أصل بولندى • درس فى البرازيل  
والهند وبولنسة • كان مديرا لمركز بحوث  
الاقتصاديات غير النامية فى وارسو • يعمل مديرا  
للدراستات فى المدرسة العملية للدراستات العليا  
فى باريس • كان مستشارا لبعض المنظمات الدولية •

الامم او فى نطاقها ، على مدى ربع قرن من النمو السريع كان من المحقق أن يجعل  
هذه المهمة أكثر سهولة ؟ وعلاوة على ذلك فإن الرؤيا ليست للفرد : فالوقف بالنسبة  
للمصادر الطبيعية التى لا يمكن تجديدها لا يبرر بالتأكيد وجهات النظر المنذرة التى  
ينادى بها انبياء المصير المحتوم • والأسلوب الجارى للعالتوسياتية ليس هو الأول  
من نوعه منذ أن كتب مالتوس مؤلفه الشهير ، كما أن الاحداث أثبتت خطأ أساليبها  
السابقة • ويجب أن نستخلص من ذلك أن الحالة ستظل هكذا دائما ، وأن تلجأ الى  
نوع من « فلسفة المنطق المتفائل » التى يساندها التحالف المتستر بين المهيمنين على  
الصناعة والتكنوقراطيين اليساريين • وليس من شك فى أن سفينة الفضاء التى  
نعبش عليها ، والى اسمها « الأرض » ، محدودة الإمكانيات ، وأنه تبعا لذلك ستصل  
المنحنيات الأسية للنمو ان عاجلا أو آجلا الى حد محدود • وكل شيء يتوقف على  
موعد ذلك ، وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن هذا الموعد ليس على أية حال من القرب  
بحيث يستلزم الدعوة للتوقف على الفور • ومن الناحية الأخرى من المهم أن نوقف  
كافة المضيعة فى أقرب وقت ممكن ، وأن نتنبه الى الاستعمالات التى نحصل  
نليها من النمو •

ولا يفيد ادراكنا لامكانيات النمو المحدودة الا فى إبراز الوطاة العاجلة للمشاكل

الاجتماعية ، وضرورة تصحيح الأخطاء التي ارتكبت في حق دول العالم الثالث ، فحرماتها منذ وقت طويل من مصادرها ، أو أجبرتها على بيعها بشمن بخس ، والحاجة الملحة الى التحكم في التكنولوجيا واحكام العنان على الأغراض التي تستخدم فيها . وبمعنى آخر يجب أن نركز انتباهنا على الوشائج بين الأساليب الاجتماعية والطبيعية ، بين اقتصاديات المجتمع واقتصاديات الطبيعة ، مؤكداين أهمية الدور الحيوي للتكنولوجيا في أوسع مفاهيمها . وإذا أمكننا أن نعرف الثقافات بمقدرتها على انتاج سلع وخدمات (ل) تسيطر على الاحتياجات التي تولدها فيمكننا أن نأخذ بالصيغة التقريبية الآتية التي صاغها لسلي ١ . هويات

ق × ت × ب - ل

حيث ق = الطاقة ، ت = التكنولوجيا ، ب = البيئة .

ومع ذلك فإن هذا لا يحل مشكلة الدور الدقيق للبيئة من ناحية ، ولتنظيم الاجتماعى من الناحية الأخرى ، فهل تؤدي الظروف الطبيعية دورا إجباريا بحيث تقوم بتشكيل الثقافات الفردية ؟ أن الأنثروبولوجيين على حق في اتفاقهم على نبذ الحتمية الجغرافية العمياء . ولكنهم لا يستطيعون الهرب منها تماما ، حيث أن التناسق القائم بين ثقافة ما وبين خلفيتها الطبيعية الكامنة يصبح معيارا لتقويم الثقافة ، مع أسبقية مؤشرات مثل كمية السلع المتاحة لكل فرد من السكان .

وعلى ذلك فإن مجرد الوعى بالمصادر الطبيعية يكتسب بعدا ثقافيا ، وبالتالي تاريخيا ، كما أن المدى الذى تستقدم فيه مصادر جديدة الى داخل النظام الاقتصادى لمجتمع ما انما يشكل نوعا من الحدود المتحركة بينه وبين البيئة . والبيئة تعنى فى الواقع كل شيء يظل خارج النظام الجارى اعتباره ، ولكنها تحدد الى حد ما أداء هذا النظام . وإذا حدث أن جاء يوم يحتوى فيه التنظيم الاقتصادى للمجتمع احتواء حقيقيا كل مصادر سفينتنا الفضائية - الأرض - ويتحكم فى أستعمالها ، فإن البيئة تكون قد ردت الى حدود الفضاء الخارجى .

ما هى الدوافع والطرق للسيطرة التقدمية على البيئة ؟

هناك رأى يكثر تردیده ، يقرن بين : السكان ، والبيئة ، والتقدم التكنولوجى . ويدلل على أن الضغط السكانى على البيئة هو أساس التجديد التكنولوجى ، الذى يزيل العوامل المقيدة ويمكن من حدوث أسلوب من النمو السكانى التراكمى .

والواقع أن هذه العلاقة تبدو فى ضوء مختلف عن هذا تماما حسب الحالة التى توضع تحت الاعتبار . فلقد ألقى البحث التاريخى الضوء على الفعل المدمر لبعض تجدييدات تكنولوجية معينة على البيئة ، مما نتج عنه القضاء على السكان . وكانت هذه هى الحالة ، مثلا ، مع انشاء الطرق والسكك الحديدية على الجسور فى البنغال خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وادى ردم نظام المجارى

الطبيعى الى اجتذاب البعوض الحامل للملاريا ، مع العواقب الواضحة لذلك على السكان المحليين .

وفيما بين هاتين الحالتين القصويتين توجد حالات يجب فيها التعرف من جديد في كل مرة على العلاقات المتداخلة بين : السكان ، والبيئة ، والتكنولوجيا ، والتنظيم الاجتماعى ، على أساس من البحث التاريخى أو الانثروبولوجى . وكل ذلك بعيد تماما عن الفرضية المفرطة التبسيط الواردة في المسح الذى قام به معهد ماساشوستس التكنولوجى تحت عنوان « حدود النمو » .

ولا يمكن لعالم البحث في المستقبل ان يعضى في بحثه بأسلوب يختلف تماما عن أسلوب المؤرخ أو الانثروبولوجى . فمن واجبه ان يكشف بقدر الامكان عن وقع الاختيارات التكنولوجية على المجالات المتشابكة للبيئة والمجتمع ، آخذا في الاعتبار حقيقة ان التلف الذى يحيق اليوم بالبيئة سيؤثر على امكانيات التنمية في المستقبل .

ونوع التداول الذى نعرضه هنا يبنى على تقويم الممارسات التكنولوجية ، كما لو كان الامر مجرد اختيار بينها .

## - ٢ -

لسنا في حاجة الى ان نتمعن طويلا في الطرق المستعملة لدراسة الاختيار بين الممارسات . فهى تنبنى عادة على حساب « التكلفة - المنفعة » الذى يأخذ في الاعتبار بعض تكاليف وتأثيرات غير مباشرة معينة يتضمنها اختيار المجتمع . ومن المؤكد ان مثل هذا الأسلوب يمثل خطوة الى الامام اذا قورن بالاختزالية الاقتصادية المتطرفة التى تبسط كل شيء الى عملية حسابية مباشرة للربحية عند مستوى المؤسسة . ومع ذلك يجب ان نلاحظ أولا ان قرارات القطاع الخاص الصناعى تنبنى فى التحليل الأخير على معيار الربح ( الذى يقصر امكانية تطبيق طرق « التكلفة - المنفعة » على حالات ينتمى فيها صانعو القرارات الى القطاع العام ) . كما يجب ان نلاحظ ثانيا ان طريقة « التكلفة - المنفعة » تتأثر هى نفسها تأثرا ملحوظا بالاختزالية الاقتصادية التى انتقدناها .

والواقع انه علاوة على التكاليف فان التأثيرات تختزل كذلك الى مقام مشترك ، وتحسب عادة بدلالة النقود . ومن المحقق ان طرق التقويم التى تستعمل عادة في دول أوروبا الشرقية لتقويم العائد على الاستثمارات تنفادى الى حد ما هذا الانتقاد . ولكن مجال تطبيقها أضيق بكثير ، حيث ان غرضها هو مقارنة التقنيات البديلة لصنع منتج واحد بعينه . واسلوب اختزال كل شيء الى قيم نقدية - حقيقية أو نظرية - ينطوى على مخاطر جسيمة . ففي بعض الأحيان يجرى التقدير الكمي بواسطة طرق فذة ولكنها مصطنعة تماما ، تنبنى دائما على مثال ظاهرة السوق . إلا تحرى محاولات لتقويم بعض تأثيرات بيئية معينة عن طريق تحديد مدى استعداد المتأثرين بها لتحمل تكاليف بحيرة أقل تلوثا أو هواء أكثر نقاء ؟ . ان الطبيعة

المصطنعة لهذه الحسابات واضحة ، حيث أن هذا الإطار العقلي الواهي لا يكون قادرا على الالام بما هو كامن وراء حدود التسويق ، وبظل مرتبطا بما كان يسمى « العقلية السوقية البائدة » ، التي تظل متحكمه دون فحص أو مراجعة حتى مرحلة التحليل النهائي ، فيعتبر أن كل ما يمكن حصره كميا هو الأنسب والأوفى وأخيرا فإن طرق « التكلفة - المنفعة » طيبة طواعية ممتازة ، في أبدى الجماعات المعنية : إذ يكفي اعتراض تتابع التأثيرات عند هذه النقطة أو تلك لتقصير أو تطويل الفترة الزمنية حسب المطلوب ، أو استعمال أسلوب معين للتعبير عن التكاليف غير النقدية كي تجرى الحسابات بحرية . ونحن نعرف من التجربة أن مشروعات التنمية الرديئة قد أخذ بها دائما على أساس حسابات « تكلفة - منفعة » جذابة جدا وتكون خالية في ظاهرها من العيوب . والتمقق في الظروف المحيطة بالقرار هو وحده الذى يجعلنا نتحقق من التدخل المعقد للاهتمامات المتضمنة والاستراتيجيات الموضوعة للوصول الى حساب « التكلفة - المنفعة » ، وبالتالي لاتخاذ القرارات المتوخاة .

وقد تجدر الإشارة هنا الى أن اساءة استعمال طريقة ما ليست تدليلا ينقص ما فيها من مزايا كامنة . فالاغراض صحيح ، ولكن من الواجب عدم فصل الطرق عن الموضوع الذى تستعمل فيه وعن الأغراض التى تخدمها . وعلاوة على ذلك فإن الاهتمام بالكميات والاهتمام بمظهرها الزائف للدقة هما وسيلتان لهدف ايدولوجى ، ونعنى به تبرير التكنولوجيا .

ولا يمكن ان توجد طريقة للتقويم مستقلة عن مقياس القيم الذى يتم اختياره كمعيار . فهذه القيم تكون فى الغالب ضمنية وغير محددة ، ومن ثم فمن اللازم أولا جعلها واضحة ومحددة . وتسم عادة المواقف التى يجرى فحصها بوجود استراتيجيات واهتمامات متناقضة ، لذلك فمن الضرورى أن يحدد القائم بالتقويم مقدماته المنطقية . فإذا ظهر أن هناك اتفاقا عاما اجتماعيا فإن المهمة تكون أسهل وأيسر . وإذا لم يمكن حل التناقضات فمن الأوفى عمل تقويم تؤخذ فيه وجهة نظر المخطط والمخطط المضاد ، كل بدوره . ولعلنا نلاحظ أننا قطعنا شوطا بعيدا عن الثقة والحيادية الزعومة لأسلوب « التكلفة - المنفعة » . فلا عجب أن نرصد فى استعمال مقياس موزون لوضع قاسم مشترك بين المعايير العديدة والمتفاوتة المتضمنة .

ومن الممكن بمجرد اتخاذ قرار ما محاولة استنتاج العوامل المؤثرة الواضحة ، وترتيب الأولويات التى تنتج عنها ، ولكن قد يكون القرار نفسه نتيجة لتوليفات مختلفة من الاعتبارات ذات الوزن التى تتسم بها المعايير المختلفة . وبالإضافة الى ذلك فإن معادلة أسلوب اتخاذ القرار مع اختيار نظام للوزن إنما تؤدي الى استبعاد وجهتين جوهريتين للتقويم : أولاها : أسلوب التوضيح التام بقدر الامكان لكافة العواقب المستقبلية للأسلوب التكنولوجى على : البيئة ، والعلم ، والمجتمع ، مقرونا بالظروف التى سيستعمل فيها ، وثانيتهما : حقيقة الدخول فى مناقشة مع

جميع الوكلاء ذوى النفوذ للحصول على تفهم أفضل - وتناسق اوفق عند اللزوم - لواقفهم واستراتيجياتهم .

يمكننا أن نرى اذن ان التقويم التكنولوجى يذهب الى ابعد من تحليل « التكلفة - المنفعة » ، سواء من حيث الاتساع او العمق . وهو يحتفظ بالاجراء الاساسى الذى يتكون من اقتفاء التأثيرات الى ابعد ما يسجلها السوق ، ومن أخذ التكاليف غير المباشرة فى الاعتبار . ولكنه يتجنب بعناية البحث عن « قاسم مشترك » لجميع التكاليف والبقاء سجيناً لنواحي القصور فى المعالجة الكمية البحتة . ان هدفه الاساسى اجراء تبادل بين الوكلاء المعنيين . ان من الواجب التوقف عن تطبيق الطريقة الكارتيزية التى تقسم الصعوبات وتتناولها واحدة بعد اخرى ، كما لو كان من المؤكد أن الكل لا يساوى أكثر من مجموع اجزائه .

ولقد ذكر الان تودين من وقت قريب اننا لم نعد نعيش فى العالم الميكانيكى الذى عاش فيه ديكارت ، كما اننا لا نعيش فى العالم التطورى للعن التاسع عشر . ان مجالاتنا الفكرية الحالية مختلفة ، وبالتالي فان تصرفاتنا مختلفة .

فالتقويم التكنولوجى يستمد استلهاماته اساسا من تناول النظم . ومن الواضح ان هذه الممارسة لا يكون لها معنى الا اذا كان الأسلوب المقوم يهدف بقطع العلاقات القائمة ، والا اذا ثبت ان هناك مغزى لتأثيراته على البيئة وعلى المجتمع . ان الطريقة التى اشرنا اليها آنفا لا ينبغي ان تستعمل الا فى تقويم التطورات التكنولوجية المؤثرة ، والمشروعات الصناعية الرئيسية . ومن الأفضل على وجه الخصوص اللجوء اليها اذا كان من المرجح أن تنجم عن التكنولوجيا الجارى تقويمها ( او التطوير الجارى دراسته ) عواقب على البيئة الطبيعية أو على المجتمع لا يمكن ان تلاحظ الا بصعوبة ، أو لا يمكن ملاحظتها على الاطلاق .

### - ٣ -

تخفى المناقشات الحديثة عن البيئة بعض الغموض . فغالبا ينشأ خلط بين المخزون المحدود للمصادر التى لا يمكن تجديدها وبين الأجواء التى يجب ان نعيش فيها .

وعند تقويم الممارسات التكنولوجية يلزم اجراء تمييز واضح بين هاتين الوجهتين وتحليل تأثيراتها ، كل على حدة ، على الموقف فيما يتعلق بالمصادر وبحالة أجوائنا الطبيعية . وبالإضافة الى ذلك يجب ان تحلل بالطبع تأثيراتها على المجتمع . والقصد فى الواقع هو التعرف على أهداف المجتمع النهائية ، مع النص بصفة خاصة على مجالات النشاط الآتية ، وهى مجالات وثيقة الصلة بعضها ببعض :

- ادارة المصادر الطبيعية لتجنب النمو العائى الذى يرجح أن يورث المستقبل .

— حماية البيئة الطبيعية لمنع تدهور « جودة الحياة » ، بالمعنى الحرفي ، بل بالمفهوم البيولوجي ، للكلمة .

— تنمية قوى انتاجية وانشاء مؤسسات قادرة على ضمان الانتاج المتزايد من السلع والخدمات وتوزيعها العادل ، وهذا يتضمن — من بين اشياء اخرى — الاستخدام الكامل لهذا الانتاج .

— تطوير البحوث الموجهة الى تلك الاهداف .

والاستعمال الطائش للمصادر غير المتجددة يمكن ان يعرض للخطر ، في نهاية الامر ، الاداء المستقبلي للاقتصاد ، من حيث ان هذه المصادر يمكن ان تستنفد فعلا ولا يمكن تعويضها ، وفي حين يبدو لنا ان الآراء المنفردة لنادى روما مبالغ فيها الى حد كبير فانها لا تستيع بآية حال ان تواصل الدول الصناعية تبديدها للمصادر كما تفعل في الوقت الحالي . وفيما يتعلق بالتلف الذي يلحق بالبيئة فانه يكاد يكون دائما نتيجة موقف يخضع وجهة النظر الاجمالية للتنمية الى وجهة النظر الاقتصادية ، الضيقة بوجه عام . واذا تركت الأعمال الاقتصادية وشأنها فانها ستحاول دائما ان تخفي الأرباح وتبرز التكاليف ، وبمعنى آخر ستحاول أو تلقى عبء التكاليف على المجتمع . فهل يعنى هذا وجود تعارض لا حل له بين حماية البيئة وبين النمو ؟

اننا نعتقد ان الأمر كذلك فعلا . ويمكن لاستراتيجية تنمية سليمة ان تشمل بصورة جيدة تماما على عنصر بيئي . وهى أيضا مشروع تأمين طويل الأجل المجتمع ، وحيث ان الاجراء الوقائي يكون في العادة اقل تكلفة بكثير من الاجراء العلاجى بعد وقوع الحدث فان اعطاء بعض الأولوية للاجراء الأول هو مجرد تخطيط لعملية التنمية بأفضل طريقة مرشدة ، كما يشاهد على نطاق زمني أطول ما هو ملائم للمؤسسات الفردية ، والجمع بين الادارة المرشدة للبيئة وبين التنمية الاقتصادية والصناعية يتضمن التوصل الى اتقان التكنولوجيات الملائمة ، ومن ثم تبرز الأهمية القصوى للسياسة العلمية والتكنولوجية في جميع استراتيجيات التنمية .

ولا يمكن ان توجد صيغة واحدة تتضمن كل شيء ، بل ولا عدة صيغ جاهزة ، وتتوافق مع التشكيلة العظيمة للأوضاع السائدة في المجتمعات المختلفة . وهذا هو السبب في أننا نقتصر في هذا البحث على التمييز بين المستويات . فمن الواجب تحليل كل حالة على حدة ، بكيفية سليمة ، وفي سياقها التاريخي . والتقييم التكنولوجي ، بالمفهوم الذى تقدمه هنا ، غير ممكن الا بالرجوع الى مخطط خاص للحضارة . وبالرغم من ذلك فهناك ملاحظة عامة تتمشى مع هذه النقطة : فمن الواجب علينا ان نتجنب باى ثمن المبالغة الجزئية التى تتكون من عزل حقيقة تقنية ما ، مهما كانت أهميتها ، وفحصها في معزل عن القرائن ، في حين ان التحليل المبني على القرائن يمكن — على العكس من ذلك — من الالمام بالنمط الشامل

للعلاقات بين اجمالية الاهداف التى يسعى المجتمع وراءها وبين منشأته ومنتجاته . وعلى ذلك لا يمكن - على سبيل المثال - تقويم نظم بديلة للنقل وتأثيراتها على البيئة وعلى المجتمع دون التطرق الى الوضع الذى تشغله صناعات السيارات والبتترول فى الدول الصناعية ، ناهيك عن الاستثمارات الثابتة التى أنفقت فعلا على الهيكل الاساسى نتيجة لتفوق النقل بالسيارات . اننا نستنتج من ذلك ان النقل العام يستحق ان يعاد تأهيله فى اسرع وقت ممكن . ومن الناحية الأخرى يجب ان نتحقق من اننا لا نتناول مقترحات تقنية صرفة . فالحاجة تدعو لاجراء تغيير اساسى فى الهياكل الصناعية . وقد يستدل من ذلك على ان بعض دول العالم الثالث قد تكون فى وضع افضل من وضع الأمم الصناعية لتنفيذ حلول مستحدثة حقا فى هذه المنطقة الحيوية ، ما لم تصبح بعد سجيئة تماما لانماط المستهلكين فيما يسمى المجتمعات المزدهرة .

#### - ٤ -

يجب فى ضوء ما تقدم ان نتفهم الانهزام الذى يوجهه بارى كومونور الى التكنولوجيا بوصفها المصدر الاساسى للتمزق البيئى . وحيثما قدم بديل تقنى اكثر ملاءمة للبيئة فانه من اللازم التأكد من ان البديل يعادل المنتج موضوع البحث . وكومونور على حق عندما يطالب بسماد ومبيدات حشرية اقل ، وعلى نطاق اوسع ، وبزراعة مكثفة فى حالة الولايات المتحدة . ومن الناحية الأخرى فان جدله يتزعمع عندما يلح فى طلب الرجوع الى الصابون بدلا من المنظفات الصناعية ، وذلك حيث ان مواصفات هذين المنتجين متطابقة . واستبدال الصابون بالمنظفات الصناعية يتضمن تغييرا فى نمط الاستهلاك . ومثل هذا التغيير ممكن تماما ، وقد يثبت انه مفضل ، ولكن الاجراء لم يعد له مثل ضرورة اختيار افضل طريقة لانتاج القمح . وهذا يؤدى بنا الى تأكيد ان البحث عن حلول تقنية للمشاكل البيئية يجب ان يقع فى نطاق سياسة سليمة ومتكاملة تغطى المجالات الآتية :

- البحوث فى التقنيات غير الملوثة ، والعمل على تشجيع استعادة المواد القيمة من المواد المبددة ، فى مواجهة اللجوء الى الاجراءات العلاجية : ديرة الانتاج ، التلوث ، مكافحة التلوث ، التى لا يمكن السماح باستمرار تصاعدها كما هى الحال الآن .

- التحكم فى معدل الإبطال والالقاء : فبدلا من تشجيع استبدال المعدات والاستمعاضة ببعضها عن البعض ، كما هى الحال الآن ، يجب توجيه العناية الى الجودة والمتانة ، ولا يبدو ان ذلك يخرج عن نطاق سلطات سياسة ضريبية ملائمة تحقق الاهداف التى نجد عكسها فى الوقت الحالى .

- رسم سياسة تعدينية تتعلق باختيار المواقع الصناعية بحيث تتمشى مع متطلبات الادارة المرشدة للمصادر وتأمين جودة البيئة . ويمتد نطاق الامكانيات فى هذا المجال من اختيار موقع بعينه الى اعادة توزيع

الصناعات على مستوى عالمي . ويجب في نطاق هيكلية التقسيم الصلبي للعمالة ان تخصص مكانة اكثر أهمية لدول العالم الثالث ، التي تكون في وضع يمكنها من تبني سياسة صناعية لحماية البيئة بتكلفه ، بل بخير مما تتكبده معظم الدول الصناعية ، والتي في حوزتها أيضا مصادر رخيصة غير ملوثة للطاقة ، وعلاوة على ذلك يجب وضع قيود على نقل الشحنات الضخمة عبر المحيطات ، كما يجب تصنيع المواد الخام التي تنتجها دول العالم الثالث في مواقع استخراجها . ويجب ان تضاف الى ذلك النفقة التي سبق ذكرها . والتي يجب ان تكون في صالح تلك الدول ، ومن صميم حقوقها ، وهي ان تستفيد بحق من مصادرها غير القابلة للتجديد ، التي حرمت منها حتى الآن .

— اجراء تغييرات في نمط الاستهلاك وتنظيم اسلوب الانتاج بهدف تجنب تبديد المصادر والطاقة .

وهذا يعيدنا ثانية الى مشكلة اختيار « مخطط للحضارة » تشكل فيه البيئة ، كما سبق ان ذكرنا ، وجهة واحدة فقط . وشروط هذا الاختيار « درامية » على وجه الخصوص لدول العالم الثالث التي تسابق الزمن ولا يمكن ان تسمح لنفسها برفاهية المرور خلال مرحلة من التبديد الصفيق الذي تتسم به الرأسمالية الصناعية في الدول المتقدمة .

ومن المهم في هذا المجال ان نكون واضحين تماما فيما يتعلق بنظام القيم الذي يجب ان تبناه دول العالم الثالث لتعمل بنفسها على اقامة التكنولوجيا التي نرضها عليها الدول المتقدمة ، وفي الوقت نفسه لتقرر أولويات البحث الخاصة بها .

ومن المتفق عليه الآن بوجه عام ان معظم التقنيات الصناعية للعالم المتقدم قد هيء تهيئاً سبباً للظروف الاجتماعية والاقتصادية لدول العالم الثالث . فهذه التقنيات لا تخلق فرص عمل كافية ، وتتطلب اتفاقات باهظة بالعمولات الصعبة ، وتربط دول العالم الثالث بعجلة الدول المتقدمة صناعياً ، عن طريق اعتمادها التكنولوجي الدائم عليها . كما انها تنشر نمطا منفرا للاستهلاك ، يستورد جاهزا ولايناح الا لصفوة مختارة . وتكون النتيجة اذن هي التخلف ، من حيث ان هذا النمط يمثل في عدم القدرة على اتخاذ قرارات مستقلة ملمعة بتدفق متواصل من التجديدات المستحدثة في نطاق الدولة النامية .

ان دراسة تأثيرات التكنولوجيات المستجبة على البيئة الطبيعية قد بدأت او كادت . والصورة هنا مشبعة ايضا . فعلى سبيل المثال نجد انه في كثير من الدول الاستوائية الرطبة ، التي تتسم نظمها البيئية بنوعية خاصة ، لا تؤخذ هذه الحقيقة في الاعتبار عند اختيار المحاصيل والتقنيات ، بل تبذل جهود عقيمة وباهظة التكاليف تستهدف تغيير هذه النظم البيئية لجعلها أكثر شبيها بنظم الاجواء المعتدلة ، وبذلك تهيئها لاستعمال تقنيات لا تصلح الا لاجواء أخرى وفي ظروف أخرى . وهذا الأسلوب يجب ان يعكس تماما بالطبع .



ويصور البعض « الثورة الخضراء » بأنها تزيق لمشاكل الغذاء في العالم الثالث . وهي بالرغم من ذلك تجمع بين كل من السمتين السلبيتين اللتين ذكرناهما . فعند المستوى الاجتماعي نجد انها تستقطب المجتمعات الريفية بمحابة جماعة محدودة من كبار الزراع يمكنها الاستحواذ على الماء والقروض والتقنيات الجديدة . وبغوة المنطق يولى هؤلاء الزراع وجوههم شطر الميكنة الزراعية . وعلى ذلك فبعد مرحلة من « الاستخدام ، والإبداع » تنتهى الثورة الخضراء بزيادة تفاقم البطالة . وهى على المستوى البيئى تخوض فى خطر ذى ثلاث شعب : عدم تنوع المحاصيل مع المجازفة بالتعرض للأوبئة ، والاستعمال المفرط للماء ، والجوء المتزايد باستمرار للمبيدات الحشرية والأسمدة التخليقية . وهذا لا يعنى ، كما يحاول بعض المتحمسين للفلاحة البيولوجية اقناعنا به ، ان كل استعمال للأسمدة والمبيدات الحشرية ردىء حتما . ويبدو ان هناك امكانية اخرى مفتوحة لدول العالم الثالث فى كل من التنظيم الاجتماعى للزراعة وفى البحث ، فبدلا من توزيع سلالات قليلة رائعة من القمح قد يكون من الافضل دراسة امكانيات الانتاج المتنوعة جدا لكل تربة ، بالتعاون مع الاهالى الزراعيين انفسهم .

- ٥ -

تبين النقاط وجهات النظر التى اوردناها انه باخذ البيئة فى الاعتبار توجد فرص واسعة فيما يتعلق باختيار التقنيات ، والأهم من ذلك ، فيما يتعلق بتقويم التكنولوجيا ، أن نعرف هل من الممكن اذن تطوير منهج دقيق لتقويم التكنولوجيا التى يمكن تطبيقها على وجه التعميم فى جميع الحالات ؟ اننا لا ننظر ذلك . ومن الطبيعى انه من الممكن صياغة قواعد عملية من اجل بناء قوائم لتسجيل وقع التكنولوجيا او تحليل الاهتمامات المتشابهة . ولكن المضى اكثر من ذلك قد يعنى الانزلاق ثانية الى روتين تحليل « التكلفة - المنفعة » الذى تنشذ الطريقة المبنية على التقويم التكنولوجى ان تتحرر منه . ومن ثم فاننا نعتقد ان هذه الطريقة تمثل مرحلة هامة فى تطوير العلوم الاجتماعية التطبيقية . ومن الآن فصاعدا سيكون من اللازم انشاء هيكل تحليلى محدد لكل حالة ، تمهيدا لدراسة الوشائج المتبادلة بين الأساليب الطبيعية والاجتماعية . وقد يبدو لأول وهلة أن ضرورة انشاء هذا الهيكل من جديد فى كل مرة ، وتحديد الأدوات التحليلية ، أمر مشط . ومع ذلك فبالاضافة الى فاعلية هذا الهيكل فى التحرز من العمل الروتينى - ودوره المخرب فى العلوم الاجتماعية معلوم لنا جيدا - فانه يسمح بالمناقشة المرشدة المستنيرة عن الدور الملائم لتقنيات التخطيط ، وذلك بالتأكيد على شرعية الحوار الاجتماعى . واذا أمكننا بهذه الوسيلة أن نكتسب الخبرة اللازمة لممارسة التحكم الاجتماعى على التكنولوجيا والعلم واستعمالهما فاننا نكون بذلك قد اتخذنا خطوة حاسمة الى الامام .

ويجب تأكيد مسئولية المجتمع العلمى فى تقويم التأثيرات المحتملة لنتائج البحوث . لذلك فاننا نحذر الاقتراح الذى قدم حديثا فى مؤتمر بوجواش الثانى والعشرين عن « العلم والشئون المالية » بتخصيص ما يتراوح بين ١٪ و ٥٪ من ميزانية كل مشروع بحث تكنولوجى لتقويم نتائجه .

# اختيار الأساليب الفنية

## للإنتاج

### والتغير التكنولوجي

#### كمشاكل في الاقتصاد السياسي

ان الموضوعات المتعلقة بالأساليب الفنية للإنتاج والتغير الفني تناقش غالبا في الدول النامية باعتبارها مشاكل اقتصادية . ولكن الاقتصاديين لا يأخذون في اعتبارهم بطريقة منهجية نظم الاقتصاد السياسي التي تثير اليها مناقشتهم . والهدف الأساسي من هذا المقال هو أن الاخفاق من أن تكون منهجيين فيما يتعلق بالموضوعات الخاصة بالاقتصاد السياسي قد يؤدي الى توصيات مبسطة جدا فيما يتعلق بسياسات التكنولوجيا ، وقد يؤدي الى تفاؤل قائم على أساس غير منطقي فيما يتعلق بفاعلية التكنولوجيا الملائمة كعلاج لمشاكل البطالة وسوء توزيع الدخل .

وانه لمن المفيد بغرض التوضيح أن نبدأ بمناقشة موجزة لبعض النقاط الخاصة بتحليل الأساليب الفنية للإنتاج كما جاءت في كتاب الاقتصادي «سن» .

وعلى أية حال فاقبل افتراض يمكن ملاحظته في كتاب « سن » هو افتراض اقتصاد مخطط . فكل فائض زيادة عن احتياجات الاستهلاك الجارى يكون تحت الرقابة المباشرة للدولة ويعاد استثماره . ان الموارد القابلة للاستثمار نادرة ، ويختار المخططون الأساليب الفنية للإنتاج بغرض الوصول الى الغاية القصوى من الاهداف الوظيفية في كل القيود المفروضة بهذه النادرة .

## بقلم : شارل كوير

كان عضواً بمجلس مديري الشؤون العلمية الملحق بمنظمة التنمية والتعاون الإقصادى حيث كان مسئولاً عن الدراسات الخاصة بالعالم والتكنولوجيا فى منطقة البحر المتوسط . وهو يعمل حالياً زميلاً أول فى وحدة بحث السياسة العلمية بمعهد دراسات التنمية بجامعة مسكس البريطانية منذ عام ١٩٦٩ . وقد نشر حديثاً عدداً خاصاً من مجلة دراسات التنمية ( أكتوبر ١٩٧٢ ) عن العلم والتكنولوجيا فى الدول النامية ، وسوف يظهر فيما بعد فى شكل كتاب .

## ترجمة : الدكتور على لطفى

استاذ الاقتصاد بكلية التجارة بجامعة عين شمس . حصل على بكالوريوس التجارة مع مرتبة الشرف من جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ ، وعلى الدراسات العليا من الجامعة نفسها عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، وليسانس العلوم الاقتصادية من جامعة لوزان عام ١٩٦٠ ، دبلوم المنشآت الاقتصادية من جامعة لوزان أيضاً عام ١٩٦١ ، وحصل منها كذلك على الدكتوراه فى الاقتصاد عام ١٩٦٣ . له مؤلفات عديدة فى الاقتصاد باللغة العربية ، ودراسات وبحوث ومقالات عدة بالعربية والانجليزية والفرنسية .

ومن الواضح أن افتراض الاقتصاد المخطط يتعلق بملكية وسائل الإنتاج . فهناك ملكية الدولة حيث تمثل الدولة المجتمع . ولاتواجه الدولة أية صعوبات اجتماعية أو سياسية حينما تتخذ قرارات تتعلق باختيار الأساليب الفنية للإنتاج . ومن الناحية التحليلية فإن النتيجة الأكثر أهمية المترتبة على هذه المجموعة من الاقتراحات هى أن مشكلة اختيار الأساليب الفنية للإنتاج تصبح مجرد عمل اقتصادى . وإذا توافرت لدينا بعض البيانات التحليلية عن الأهداف الاجتماعية وبيانات عن القيود الموضوعية ، مثل نقص موارد الاستثمار ، فإن كل ما نحتاج إليه لحل المشكلة هو بيانات عن الخصائص الفعلية للأساليب الفنية للإنتاج ، الحالية أو الممكن تحقيقها ، والمتاحة للحصول على الأثمان المرغوب فيها من المنتجات . ومن المؤكد أن عدداً من المشاكل العملية يظل قائماً . فقد لا يكون هناك مجال للاختيار بين الأساليب الفنية للإنتاج - لأنه لا يوجد أسلوب فنى واحد للإنتاج للحصول على كل منتج - وهذه الأساليب قد يكون فيها رأس المال كثيفاً إلى حد بعيد . أو إذا كانت هناك أساليب فنية للإنتاج بديلة كثيفة العمل فقد تكون غير فعالة ، بمعنى أنها قد تحتاج إلى قدر أكبر من الاستثمارات كما تحتاج إلى قدر أكبر من العمل لكل وحدة من الإنتاج الإضافى أكثر من الأساليب الفنية

للانتاج الفعالة التي تحتاج - رغم ذلك - الى قدر اكبر من الاستثمار للعامل الواحد . واذا كان التوظف بذاته هدفا اجتماعيا فهذا يعنى انه قد يكون من الضروري اجراء مناوبات صعبة . ولكن رغم انها قد تكون هامة في اوضاع عالمية حقيقية فانها مشاكل فنية بحثة يمكن الى حد ما ايجاد حلول فنية لها . ان المشاكل نفسها يمكن تحديدها تماما اذا ما توافرت لدينا البيانات الأساسية عن الاهداف الاجتماعية وقيود الموارد والمدى المتاح للأساليب الفنية للانتاج .

وبقدر ما تسير الأمور فمن الممكن أن لا يكون هناك اعتراض على هذا الأسلوب من التحليل . انه يقوم على أساس منطقي سليم ، ويعتبر نقطة بداية مفيدة للتفكير في اختيار الأساليب الفنية للانتاج والتغير الفني في اقتصاد مخطط . ان الصعوبة انه ليس دائما من السليم به أن يكون التحليل متعلقا باقتصاد مخطط واقتصاد مخطط ذي خصائص محددة بطريقة قاطعة . وانه ليس على الإطلاق خطأ «سن» أن يعتمد الأفراد عن افتراضه ويعدوا اقتراحات السياسة لأشكال أخرى من الاقتصاد مستخدمين تحليله ، ولكنه يكون خطأهم هم ، وينتج عن ذلك خلط كبير وخسائر ضخمة .

ان النقطة الجديرة بالاهتمام هي أن تحليل « سن » لا يمكن أن يطبق كما هو في اقتصاد تسوده الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ان المشاكل التي يأخذها « سن » في اعتباره يمكن أن تظل ظاهرة في هذا الشكل من الاقتصاد ، ولكن هناك مشاكل أخرى لم يأخذها « سن » في اعتباره نظرا لأن افتراضه خاص باقتصاد مخطط . ان هدفنا هنا هو أن نناقش مشكلة اختيار الأساليب الفنية للانتاج في النظم المختلفة للاقتصاد السياسي بما في ذلك النظام الذي يفترضه « سن » ، وبصفة خاصة في نظم الملكية الخاصة .

ومن المؤكد اننى سأتهم غالبا بأننى لا أقف على أرض صلبة . ان الاقتصاديين - وبصفة خاصة هؤلاء الذين يطلقون على انفسهم اسم «الاقتصاديون المتخصصون في التنمية» - يوافقون عادة على أنه ليس من الملائم أخذ بناء تحليلي يتم اعداده خصيصا لنظام معين من الاقتصاد السياسي وتطبيقه على نحو أعمى في نظم أخرى . وفي الواقع اذا كان هناك أى تقدم في فهم طبيعة التخلف فانه يكون قد تم التوصل اليه من خلال تحديد أفضل للاقتصاد السياسي في الدول النامية . وكما تقدمت معرفتنا عن خصائص التنظيم الاقتصادى والاجتماعى في الدول النامية فاننا تعلمنا أن نتأكد من أن أشكال التحليل التي نستعملها تتلاءم مع النظام الاقتصادى والاجتماعى محل الدراسة .

انى لا ارى اطلاقا اننى لا أقف على أرض صلبة . ان معظم الناس سوف يوافقون لفترة قصيرة على أنه من الخطأ ومما يؤدي الى الخلط أن نستخدم نموذج « سن » الدقيق الملائم والخاص بالأساليب الفنية للانتاج للتنبؤ بالسلوك في الحقيقة غير الملائمة للتخلف الرأسمالى . ان عددا قليلا جدا منا يمكن أن يدعى اننا

تجنبنا هذا النوع من الانحراف بطريقة متعاضدة ومنهجية . والواقع أن هناك اتجاهًا عامًا لتكون غير منهجيين . أن الاتجاه هو أن يؤخذ في الاعتبار التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في الجزء التشخيصي عن العمل ، مثلما يبحث أحد الأشخاص لماذا نستخدم أساليب فنية معينة للإنتاج ، وما هي النتائج التي تترتب عليها ، ولكن ليضع جانبًا مشاكل الاقتصاد السياسي في الجزء الإرشادي . ومثلما يتقدم أحد الأشخاص باقتراحات عن كيفية الحصول على اختيار أكثر ملاءمة للأساليب الفنية للإنتاج .

وعلاوة على مشكلة اختيار الأساليب الفنية للإنتاج هناك مسألة السياسات الخاصة بالتغير الفني . وعلى قدر أهمية هذا الموضوع فإننا مازلنا في البداية . أن معلوماتنا عن كيفية تأثير نظام الاقتصاد السياسي على اتجاه ومعدل التغير الفني مازالت ضئيلة جدًا وتكاد تكون منعدمة . فبالنسبة لكثير من الاقتصاديين مازال التغير الفني هو الفداء السماوي أو الروحي .

أن معظم طرق التحليل الخاصة بالأساليب الفنية للإنتاج تركز اهتمامها حول الإجابة عن ثلاثة أسئلة :

- ١ - ما هي العوامل التي تفسر الاختيارات التي تمت حتى اليوم في الاقتصاد ؟
- ٢ - ما هي النتائج الاقتصادية والاجتماعية لهذه الاختيارات ؟

٣ - كيف تعمل الحكومة حتى يستطيع المنظّمون القيام باختيارات أفضل في المستقبل ( مفترضين أننا نتعامل مع اقتصاد تسوده الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، وأن الاختيارات التي تمت حتى الوقت الحالي هي اختيارات مثالية جزئيًا من وجهة النظر الاجتماعية لا من وجهة نظر المنظّم الخاص ) ؟

وفي أيامنا هذه فإن السؤالين الأول والثاني ينظر إليهما عادة كمشاكل في الاقتصاد السياسي لا في الاقتصاد فقط في معناه الضيق . أن الصعوبة تكمن في أنه عندما ننقل إلى السؤال الثالث - وهو المتعلق بالسياسات - فإننا نكون عرضة لأن ننسى هيكل النظام الاقتصادي ، ونصرف كما إذا كنا نعتقد أنه لا توجد صعوبات اجتماعية أو سياسية في مواجهة تنفيذ السياسات المرغوب فيها . أن هذه هي النقطة الأساسية في مناقشتي . أنها تشير بصفة أساسية إلى النقطة الثالثة المذكورة ولكنني سأعالجها عن طريق بحث الأسئلة الثلاثة على التوالي .

أن المعايير الاقتصادية التي تحدد اختيار الأساليب الفنية للإنتاج بواسطة المنظّمين واضحة تمامًا . والمعايير الأساسية هي : نمط الطلب على السلع الوسيطة وعلى الاستهلاك النهائي للسلع ، معدلات الأجر الحقيقي للفئات المختلفة ( العاملون بما في ذلك المدبرون ) ، توافر و « سعر » موارد الاستثمار ، توافر وسعر المواد الخام . ولا يمكن اعتبار أن من هذه المعايير - باستثناء سعر المواد الخام في بعض الأحيان - معايير ذات حدود وأبعاد اقتصادية بحتة .

وبعبارة أخرى فإن انماط الطلب ومعدلات الأجر الحقيقي ومعدلات الفائدة تتوقف على التنظيم الاجتماعى لا على جهاز شوقى محايد ( ومن ثم عادل ) الى حد ما من الناحية الاجتماعية . ان الخطوة الحقيقية الهامة نحو فهم اختبار الأساليب الفنية للإنتاج فى اقتصاد ما إنما تأتى بعد أن تقوم بقياس هذه الحدود والأبعاد الاقتصادية ، حينما نحاول أن نوضح ونفصل القوى الاجتماعية التى تحدد أسباب هذه القوى وأنواعها . ان هذا هو الذى يأخذنا الى ما وراء التحليل الاقتصادى فى الاقتصاد السياسى فيما يتعلق باختيار الأساليب الفنية للإنتاج .

ولسوء الحظ ليست هناك اجابات عامة مرضية لتساؤلات الاقتصاد السياسى ونحن نحتاج بالضرورة الى نظرية مدعمة تماما للتوزيع حتى يمكن أن نتعامل مع هذه التساؤلات ، وليست لدينا هذه النظرية . وعلى الرغم من ذلك فإن أولية الأهمية لهذه العوامل خارج الاقتصادية معترف بها تماما فى كل مكتب فى هذا الموضوع ، وبصفة خاصة الدور الحاسم لتوزيع الدخل فى تحديد أنواع المنتجات المطلوبة ، ومن ثم نموذج الإنتاج لاحتلال الواردات فى اقتصاد شبه مغلق .

ان التقارير التى قدمتها بمئات التوظف التابعة لمنظمة العمل الدولية الى كل من كولومبيا وكينيا تؤكد ان كثافة الاستثمار المرتفعة والمتزايدة للأساليب الفنية للإنتاج الصناعى فى هاتين الدولتين هى نتيجة لأن النخبة القليلة ذات الدخل المرتفع لها تأثير مرجح على الطلب على السلع الاستهلاكية . انهم يطلبون بصفة عامة أنواع السلع الاستهلاكية المطلوبة فى أسواق الدول المتقدمة اقتصاديا ، وغالبا المنتجات ذات العلامة التجارية المعروفة .

ان نجاح اسواق المنتجات ذات العلامات التجارية المعروفة لايعنى حتما أنها أكثر كفاية من المنتجات التقليدية من حيث امداد المستهلكين بالخدمات الضرورية بتكاليف اجتماعية أقل . ان الاسواق أبعد بكثير جدا من أن تكون مثالية ، وبصفة خاصة فى الدول النامية حيث يكون من الأسهل أن نعتقد فى سيادة المنتج أكثر من اعتقادنا فى سيادة المستهلك .

ان كثيرا من السلع التى تنتج تكون على الأقل بعيدة جدا عن اشباع الحاجات الضرورية للمستهلك ، ومن المحتمل أن يكون تأثيرها الرئيسى هو تشجيع الاستهلاك على حساب الاستثمار . وهناك سلع أخرى تحل محل السلع الاستهلاكية التقليدية حتى ولو كانت تشبع الحاجات نفسها بتكلفة أعلى حيث انه قد تم تمييزها وقامت حملات ناجحة لترويجها . لقد وجد « فرانسز ستيوارت » - على سبيل المثال - أن دقيق الذرة المكرر الذى يحل محل الدقيق غير المكرر لعمل «البوشو» فى كينيا يجعل تكلفة انتاج الوحدة ومن ثم سعر السوق أكثر ارتفاعا ، علاوة على ان القيمة الغذائية للسلعة تكون أقل منها فى حالة استخدام الدقيق غير المكرر ، كما ان كثافة رأس المال تكون أكبر . ولكن هذه السلعة تنتج بواسطة الشركات الكبيرة فى كينيا التى تمتلك موارد للأساليب المختلفة لترويج المبيعات وخاصة فى المدن الكبيرة .

وهناك بالتأكيد أكثر من ذلك بكثير مما يمكن قوله فيما يتعلق بآثار توزيع الدخل على الطلب وبصفة أساسية على اختيار الأساليب الفنية للإنتاج ، ولكن هذا يكفي ببساطة لتوضيح وجهة النظر . ان المناقشة الفنية التي تسند الى كل ذلك هي ان الأساليب الفنية للإنتاج التي تستخدم لعمل المنتجات الجديدة تكون كثيفة الاستثمار بطريقة متصلة ، وليس هناك بدائل متاحة كثيفة العمل . وهي كذلك لأنها تقدمت في الدول ذات الأجر المرتفع حيث تكون موارد الاستثمار وفيرة نسبياً . وفي كل الاحتمالات فهناك معدل مرتفع لتنمية الوسائل الفنية الجديدة للإنتاج لهذه الأنواع من السلع ، لذلك ليس هناك وقت لاستنباط بدائل كثيفة العمل ، حتى ولو كان من الملائم فنياً عمل ذلك . ولكن في خطوط الإنتاج التقليدية جداً ، كصناعة النسيج مثلاً ، نرى نقىض ذلك ، فان بطء معدل التجديد يدل على أن التكنولوجيا الكثيفة الاستثمار والتكنولوجيا الكثيفة العمل يمكن أن توجدا معاً الى حد بعيد .

وإذا أخذنا في الاعتبار نمط توزيع الدخل فهناك العوامل التي تحدد هيكل معدلات الأجر الحقيقي وحرية استخدام موارد الاستثمار . وكذلك فان معدلات الأجر وتكلفة الاقتراض لها تأثير مباشر على الاختيار الفني ، ومن الواضح تماماً انها بذاتها حاصلة عمليات اجتماعية معقدة لانعلم عنها الا القليل ، ولكننا نستطيع أن ننسبها الى حد ما . فمثلاً العمال المستخدمون في القطاع الحديث - أو الرسمي - في دول مثل كينيا وكولومبيا يكونون منضمين في نقابات ، وهناك شك وان يكن ضعيفاً في أن النقابات ناجحة في زيادة الأجور الحقيقية . ومن البديهي أن هيكل الأجور المرتفع نسبياً في هذه القطاعات يؤثر في رجال الأعمال ويجعلهم يستخدمون أساليب فنية للإنتاج أكثر آلية .

وفي بعض الأحيان يمكن بيان الدليل على ذلك على مستوى المصنع حيث نجد على سبيل المثال بعض العمليات المساعدة التي تكون آلية ولكن يحتمل أداؤها يدوياً اذا كانت معدلات الأجر أكثر انخفاضاً . ولكن تأثير معدلات الأجر المرتفعة على اختيار الأساليب الفنية للإنتاج قد يكون اقل وضوحاً من ذلك . ويبدو لي أنه من الممكن أن تكون معدلات الأجر المرتفعة قد أسهمت في إحلال المنتجات الجديدة الكثيفة رأس المال محل المنتجات الكثيفة العمل نسبياً من خلال القطاع الحديث نفسه ، ونتيجة لذلك تكون قد قوت بعض الآثار التي تنتج عن ذلك بسبب توزيع الدخل غير العادل . ولناخذ مثلاً افتراضياً : ان زيادة في معدلات الأجر قد تجعل إنتاج آلات الحلاقة الكهربائية بالطرق الآلية المرتفعة أكثر ربحاً من إنتاج أمواس الحلاقة العادية بطرق غير آلية نسبياً . وقد لا يكون هذا مثلاً جيداً جداً ولكنه يوضح أن اثر معدلات الأجر المرتفعة قد لا يظهر على مستوى اختيار الأساليب الفنية للإنتاج بالنسبة لمنتج معين (حيث قد تكون البدائل المتاحة قليلة جداً) ولكنه يظهر أكثر على مستوى الإحلال بين المنتجات التي تؤدي مثل الوظيفة المتسعة للمستهلك .

إذا كانت هذه المناقشات صحيحة فان إنشاء قطاع حديث نقابي للطبقة العاملة

على اقل الاحتمالات له اثر في النمو البطيء لفرص العمل الرسمي ، واكثر من ذلك بالنسبة للنمو لما يسمى «القطاع غير الرسمي» في الأحياء الفقيرة بالمناطق الحضرية والريفية . ان معدلات الأجور والكاسب السنوية تكون عادة منخفضة جدا في القطاع غير الرسمي ، كما ان جزءا كبيرا من النشاط الإنتاجي في هذا القطاع - الذي يكون غالبا غير مرخص ومن ثم غير قانوني - يكون كثيف العمل الى حد بعيد وموجها نحو طلبات المستهلكين ذوي الدخل المنخفضة . ان عدم قانونية هذه الأنشطة الإنتاجية يعكس - في حد ذاته - تنظيميا اجتماعيا . ففي كينيا كان نظام تراخيص الأعمال موروثا من الادارة الاستعمارية البريطانية التي كانت تهدف الى حماية منتجى السلع الاستهلاكية ذات الأجور المرتفعة القادمين من الخارج ضد المنافسة من صغار المتهمدين المحليين الذين يرغبون (أو يكونون مضطرين) أن يقبلوا مكاسب سنوية منخفضة جدا والذين ينتجون منتجات كثيفة العمل ومنخفضة التكاليف . أن هذا النظام مازال قائما كما هو ، ومازال يخدم الغرض نفسه بصفة عامة ، الا انه يفيد في الوقت الحالي من كانوا مميزين في عهد الاستعمار .

ان عدم قانونية منشآت القطاع غير الرسمي الكثيفة العمل وصغرها المطلق وتعرضها للمخاطرة (وذلك ليس الا اسما كبيرا وضخما بالنسبة لهم) يعني بوضوح أنها ليست لديها عمليا القدرة على اقراض رأس المال ، أو اذا توافرت هذه القدرة فانها تكون ممكنة فقط من خلال المقرض المحلي للتقود . فهناك تحيز وظيفي ظاهر في سوق رأس المال لصالح المنشآت الكبيرة الكثيفة الاستثمار . وهذا الانجاء يقرى غالبا بالطريقة التي تعمل بها بنوك التنمية حاليا (لا الطريقة التي يجب أن تعمل بها) وكذلك بنظم الائتمان التي تضمها الدولة .

أن عاملا مهما في كل ذلك هو الدولة - كما هي ممثلة بحكومة وخدمة عامة - وهي تنتمي دائما لبعض الأشخاص ولا تنتمي الا نادرا جدا الى جميع الأشخاص . ان العلاقة بين أجهزة الدولة والمستهلكين ذوي الدخل المرتفعة تكون غالبا وثيقة جدا ومركبة . ان تقارير بعثة منظمة العمل الدولية تترك شيئا من الشك في ذلك في حالات كينيا وكولومبيا . وفي هذه الظروف يعمل جزء كبير من السياسة وكثير من التشريعات بطريقة ضمنية الى الاحتفاظ بالهيكل القائم . وتمثل الدولة مصالح المميزين من القوم (معتدلة ومقيدة الى حد ما بالحاجة الى أصوات الجماهير في الأجل الطويل) ، أو لا تكون قادرة على اصلاح الهياكل الا في حدود معينة ، وبصبر ، وقد لا يكون ذلك الا في فترات ازيمات اجتماعية حقيقية أو وشيكة الحدوث . ان المعايير الاقتصادية الأساسية التي تحدد اختيار الأساليب الفنية للإنتاج بواسطة أصحاب رؤوس الأموال هي حصلة هذه التفاعلات المركبة .

ومن الواضح أن نتائج الاختبارات الفنية الخاصة في هذا الشكل من التنظيم الاقتصادي تكون غالبا مختلفة تماما عن النتائج المتوقعة في نظام اقتصاد مخطط .

ان الخاصية الأولى لهذا الشكل من التنظيم الاقتصادي هي أنه من المحتمل



وجود اتجاهات شديدة للتقوية التلقائية للعمل . أن استخدام التكنولوجيا الآلية المتقدمة في القطاع الحديث يؤدي الى استمرار سوء توزيع الدخل . وليس هذا ببساطة بسبب ارتفاع معدل عائد الاستثمار (إذا كانت هناك أساليب فنية للإنتاج كثيفة العمل وفعالة متاحة ، وإذا كانت معدلات الأجر الحقيقي مماثلة تماما لتلك التي استخدمت ، فمن المحتمل أن يكون معدل عائد الاستثمار أعلى مما هو عليه في الوقت الحالي) . أن الآثار المتعلقة بالتوزيع تظهر كذلك لأنه بكمية محدودة من الاستثمار ، لن يكون متسع الاستثمار لجزء صغير نسبيا من القوة العاملة في الوظائف ذات الأجر المرتفع في القطاع الحديث . إن التكنولوجيا الكثيفة الاستثمار المتقدمة تقوى قبضة اتحادات العمال وتجعل من الممكن لطبقة العمل العليا المنظمة أن تحقق معدلات أجر مرتفعة بقدر إعطاء رجال الأعمال دخلا مرتفعا . ولكن جمهور القوة العاملة يحال بينه وبين دخول الدائرة السحرية .

والخاصية الثانية وهي الخاصية الخطيرة - هي أن الطريقة التي يمو بها اقتصاد أي دولة لا تتوقف ببساطة على النسبة المتاحة فعلا من الناتج القومي الإجمالي للاستثمار أنها تتوقف بشكل حاسم على من يسيطر على موارد الاستثمار الكافية ، وماذا يريدون أن يفعلوا بها .

ومن الواضح أن عمال المناطق الحضرية ذوي الأجور المرتفعة يسيطرون على جزء من هذا الفائض . وهناك مناقشات مفيدة حول ما يفعلونه بهذا الفائض . ومن المؤكد في كينيا أن جزءا هاما من مكاسب العمال في القطاع الحديث يتجه لتدعيم أفراد الأسرة الكبيرة الأقل يسرا ، ولذلك فهناك تساؤل إلى متى يظل هذا السلوك قائما مقاوما العملية الحضرية .

أن الأبطال هم بحق رجال الأعمال المحليون ، والأجانب الذين يملكون وسائل الإنتاج ، ويقدر ما يكونون مهتمين تكون هناك بديهة طبيعية ولكنها مؤثرة ، وهي أن نسبة طيبة من موارد إعادة الاستثمار الفعلية لم يتم بعد إعادة استثمارها . أن هذه البديهة معروفة جيدا ، ولكننا نذكر بها . وتتميز طبقة رجال الأعمال المحليين غالبا بارتفاع الميل للاستهلاك ، وبصفة خاصة عن طريق بناء القصور وما شابه ذلك . وعلاوة على ذلك فانهم ينقلون أرباحهم غالبا إلى الخارج بحثا عن الأمان في الاستثمار ، وهو اتجاه يظهر بصفة خاصة في فترات عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي . وبالمثل فإن الفائض الذي يتكون في المنشآت الأجنبية يتم نقله إلى الخارج - لا في شكل أرباح فقط ولكن خلال عمليات تحويلية مستخدمة جهاز الائتمان تحت أسماء متعددة .

أن دور المنشآت الأجنبية في نقل الفائض إلى الخارج هو بالتأكيد أكثر تعقدا من ذلك . ونظرا لأن الشركات المملوكة محليا تعتمد غالبا على الشركات الأجنبية لأنواع متعددة من الملكية الصناعية - ممتدة من المعرفة المسجلة إلى العلامات التجارية - فإن الارتباط البسيط بين ملكية وسائل الإنتاج والسيطرة على الفائض

تتحطم . ان اصحاب التراخيص الأجانب قادرون على الاستيلاء على نصيب من شبه الربح الذى تخلقه المنشآت المحلية بتأثير التكنولوجيا أو العلامات التجارية أو المهارات التسويقية التى يأتى بها صاحب الترخيص حتى ولو لم يكن له نصيب فى الملكية . وفى الدول التى تتميز بالنوعية التكنولوجية المتقدمة نجد ان الموارد التى لاتتاح للدولة فى هذه الطرق المختلفة يمكن أن تقارن الى حد بعيد بالاستثمار الاجمالى السنوى فى القطاع الحرفى .

ان كل ذلك يعنى ان العلاقات البسيطة التى يقيما «سن» بين اختيار الاساليب الفنية للانتاج ونمو سبل العمل والانتاج توشك أن تتحطم مع الملكية الخاصة فى الدول النامية . ففى مثل هذه الدول من المحتمل أن يعتمد على رجل الأعمال لاختيار الاساليب الفنية للانتاج التى تسمح بتجسيم الفائض . ان هذه الاساليب الفنية للانتاج تغطى - فى الاقتصاد الذى يتفق مع افتراضات «سن» - الحد الأقصى لمعدل نمو الانتاج والتوظيف ، حتى ولو كانت هذه الاساليب كثيفة الاستثمار نسبيا وقد تغطى توظفا اضافيا اقل فى الاجل القصير ولكن معدلات النمو هذه تحدث لان الفوائض يعاد استثمارها . واذا لم يعد استثمار هذه الفوائض فان فرص التوظيف فى القطاع الحديث لن تنمو . وبصفة عامة فان الجدل يثار بسبب عادات الاستهلاك لاصحاب رؤوس الاموال وبصفة خاصة تكاليف مايسمى «تحويل التكنولوجيا» ، فان اسخدام الاساليب الفنية للانتاج التى تجسم الفائض يكون من المحتمل ان يعطى اسوأ مافى الدينيتين فى الدول النامية ذات النظم الاقتصادية التى تعتمد على الملكية الخاصة . ان الاساليب الفنية للانتاج التى تجسم الفائض تغطى فى الوقت الحالى توظفا ضعيفا لكل وحدة من الاستثمار ، وليس هناك تعويض فى شكل معدل مرتفع لنمو فرص التوظيف أو الانتاج . وبسبب البحث الحديث عن تحويل التسيير فى أمريكا اللاتينية - وبصفة خاصة بحوث «فاتسوس» فى كولومبيا - يتجه السوق الى حد بعيد لالقاء معظم اللوم على «التبعية التكنولوجية» ان هذه المشكلة الخاصة ببطء معدل نمو فرص العمل فى القطاع الحديث تضاعفت بسبب الانحراف فى التغير الفنى تجاه الاساليب الفنية للانتاج التى تكون كثيفة الاستثمار اكثر من غيرها .

وليست هناك صعوبة كبيرة فيما يتعلق بكل ذلك . ان الامر ليس اكثر من انه اقرار الحكمة المقبولة عن كيفية معالجة مشكلة اختيار الاساليب الفنية للانتاج، وجميع الدراسات التحليلية الدقيقة تتفق حول التعرف على مشاكل الاقتصاد السياسى على هذا المستوى التشخيصى . ومع ذلك تبدأ الصعوبة مع الجزء الوصفى ، جنما يحاول الناس اعداد السياسات المتعلقة بالموقف ، حيث لدينا اتجاه واضح لتجاهل مايتعلق باطار الاقتصاد السياسى حينما تقدم اقتراحات السياسة ، نتردد الى الاوصاف التى يمكن أن يكون لها معنى فى الاقتصاديات المخططة ، ولكن من المحتمل أن لاتحدث اثرها فى النظام الاقتصادى فى الشكل الذى نناقشه . ان نوع السياسة التى تقدمها غالبا جماعة تنمية التكنولوجيا الوسيطة

تعتبر مثالا طيبا عن ذلك ، بحيث أن تحليلهم يركز اهتمامه على هدم النظم الاقتصادية والاجتماعية التقليدية التى تنشأ من نوع تنمية القطاع الحديث الذى اخذناه فى اعتبارنا ، وبصفة عامة فانهم يقترحون حل هذه المشاكل عن طريق تشجيع التنمية واستخدام التكنولوجيا الوسيطة الكيفة العمل ، وبصفة خاصة فى الصناعات الريفية ذات الأحجام الصغيرة . ويترب على ذلك توقف الاتجاه نحو المدن ، ومن ثم التمزق الاجتماعى والثقافى . وسيزداد كذلك العمل فى الفترة القصيرة ، كما يصبح الميل للادخار واعادة الاستثمار بالنسبة للمتعهدين ملائما (وهذه نقطة لم تناقش معمق) ، كما ان العمل يزداد بدرجة أسرع . وهناك العديد من النقاط المتعلقة بهذا الافتراض ، وهى تزعجنى . وبعضها نقاط فنية اقتصادية، فمثلا التأكيد الوحيد تقريبا على تكاليف الاستثمار لكل مكان عمل كمييار استثمار يمكن أن يؤدي الى نتائج خاطئة جدا بالنسبة لاي نظام اقتصاد سياسى . ولكن ليست هذه هى المشاكل الأساسية ، فيقدر مايزداد اهتمامى تظهر الصعوبات الأساسية ، لأن هذا الاقتراح يجعل التساؤل عن كيفية تغير الهيكل الاقتصادى والاجتماعى القائم الى الوضع المرغوب ، بعيدا تماما عن وضعه الصحيح . ان الوضع ليس كما لو ان نقطة البداية فى الدول النامية هى حاليا نظام اقتصادى واجتماعى تقليدى متناسق يحتاج الى اتقاذه من «التحديث» المهدد . ان نقطة البداية هى نظام اقتصادى حيث «التحديث» قد مزق النظم السابقة للنظم الحالية ، وخلق طبقات جديدة ومجموعات ذات مصالح (طبقة رأسمالية حضرية ، أرستقراطية العمل ، وهكذا) تتحكم عادة فى العملية السياسية والاقتصادية . وعلى قدر ما تكون النظم الاجتماعية التقليدية مهتمة يكون ماتبقى للمحافظة عليه هو القليل جدا .

ومع ذلك فان الفكرة العامة المتعلقة بضرورة المحافظة على النظام التقليدى من شىء ما ، هو التحضر الذى لم يحدث بعد ، تكون حاسمة بالنسبة للمناقشة كلها . واذا كنا نطرح هذه الفكرة فلن يكون امامنا اختيار الا أن نقرر التنظيم الاجتماعى كما هو موجود حاليا . وفى هذه الحالة يجب علينا أن نواجه المشكلة من حيث كيفية اعداد برنامج للتكنولوجيا الوسيطة التى تكون فى نواح اساسية متعددة فى تضارب مباشر مع مصالح الطبقات المتميزة سياسيا واقتصاديا .

وليس كافيا ان نعتد على برنامج ضخم لتصنيع الريف يعتمد على الصناعات ذات الحجم الصغيرة لتحقيق اعادة توزيع الدخل . ان قياس اعادة توزيع الدخل يكون عادة شرطا أساسيا لمثل هذا البرنامج . ان برنامجا من هذا النوع يتطلب على الأقل سيطرة مباشرة الى حد ما على أنماط استهلاك الأغنياء وعلى الأنشطة الشجيمية لمنشآت القطاع الحديث ذات الأحجام الكبيرة . ان الانفاق الترفى يجب التخلص منه ، ولابد من وجود وسائل أكثر فاعلية وصرامة لمنع من كانوا يلجأون الى الاستهلاك الترفى من أن يحولوا الى الخارج الموارد التى كان من الممكن أن تستهلك . ان دور المنشآت الأجنبية ، وكذلك دور العديد من المنشآت المحلية التى تستخدم الاسماء الأجنبية ، يجب أن يوضع تحت الرقابة مع ضرورة تغييره . ان

الصعوبة تكمن في أن هذه السياسات تسير غالبا في اتجاه مضاد لمصالح طبقات المجتمع الأكثر قوة ونفوذا . وليس من الواضح أنهم سيكونون قادرين على تنفيذها . ومن الممكن أن نتصور بطريقة الحال أن الأزمات الاجتماعية الوشيكة الحدوث ستؤدي الى تنازلات مستقبلية تقوم بها الحكومة للتهنئة . ولكن الطبقات المتميزة ليست بالضرورة بعيدة النظر ، ففي أغلب الأحيان تنبثق الأزمة دون أن ينتبهوا إليها . وحينئذ يكون رد الفعل العادي هو الدفاع عن الوضع الراهن . أن الأشياء لا تحدث دائما بهذه الصورة ، ففي بعض الأحيان يكون التغير التقدمي ممكنا . ومع ذلك فإن القطعة الأساسية هي أنه ليس الأمر واضحا من تلقاء نفسه . أن الصورة تكون دائما هكذا ، وهذا يفترض غالبا بطريقة ضمنية .

وبالإضافة الى ذلك فإن بادرة التحويل الى التكنولوجيا الوسيطة والصناعات الصغيرة في الريف عملية هامة تقتضى إعادة تخصيص موارد الاستثمار في المجتمع بطريقة مباشرة وإلى الحد الذي يكون فيه البرنامج كبيرا بشكل يجعله فعالا ، فإن رجال الأعمال في القطاع الحديث سيجدون أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لتمويل برامجهم الاستثمارية وكذلك الأمر بالنسبة للمنشآت الأجنبية . وقد تجد المجموعتان أنهما تواجهان ارتفاعا كبيرا في أعباء الفائدة ، أو بطريقة أخرى تحديد حصص رأس المال . وليس من الواضح أن يكون هذا مقبولا سياسيا وخاصة في الحالات التي يكون فيها اتحاد وثيق ، أو حينما يكون كل من الطبقة البيروقراطية هي التي تشكل مجتمع الأعمال الكبير ، أو يكون مجتمع الأعمال هو الطبقة البيروقراطية .

لقد ركزت كل هذه الاتهامات اتجاهها على التكنولوجيا الوسيطة كمثال . ومع ذلك فإن كثيرا من هذه الاتهامات ينطبق الى حد ما على اقتراحات سياسة أخرى ، حيث تؤدي سياسة التكنولوجيا دورا هاما في خلق التوظيف وإعادة توزيع الدخل . أن الصفة المميزة لمناقشة التكنولوجيا الوسيطة هي أننا نبدأ من نظام اقتصادي تقليدي من الضروري المحافظة عليه . وهناك دراسات تحليلية أخرى (كدراسات بعثة منظمة العمل الدولية) أكثر واقعية لأنها تقر بطريقة صريحة بأن نقطة البداية هي نظام الاقتصاد السياسي القائم والأكثر تعقيدا الذي نطلق عليه اسم التخلف . ولكنهم ، على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من أنهم لا يجهلون الحقائق السياسية والاجتماعية ، يلحون باقتراحات السياسة التي تكون قائمة على حساب غير منهجي أو غير كامل للصعاب التي يمثلها النظام الحالي للتنظيم . وإذا أخذنا في الاعتبار الدراسة الخاصة بكينيا فأنني أشك في أن المشاكل الأساسية تكون مثلا في إطلاق سراح القطاع غير الرسمي من القيود الشديدة المتعلقة بنظام التراخيص لتغيير تخصيص الموارد للأشكال المختلفة لتنمية الإسكان القليل التكاليف وما شابه ذلك ، ولاتخاذ قرارات أكثر حرصا فيما يتعلق بأنواع سلع الاستهلاك التي يجب أن تكون متاحة . أن هذه الاقتراحات وكثيرا غيرها مما جاء في التقرير يعني ضمنا تحديا للأغنياء في مصلحة الفقراء . أنني لا أعتقد أن الأمر السياسي أو

امكانية التطبيق السياسى قد تم تحليلهما بالكامل . وبالنسبة للجزء الأكبر فعليهم ان يعيشوا على امل ان الدولة والطبقات ذات الدخل المرتفع والعمل الأجنبى فى كينيا تكون تقدمية بطريقة متصلة او تكون مهتمة بالتوتر الاجتماعى الحقيقى لعمل تنازلات فى الوقت المناسب . واننى ببساطة لا اعرف هل هم من هذا النوع ام لا .

ان الافتراض الاساسى الموجود بطريقة ضمنية فى عدد كبير من اقتراحات السياسة التى يتم اعدادها عن سياسات التكنولوجيا ، وانا اتكلم هنا بصفة عامة، هو انه من الأسهل تحقيق أهداف توزيع الدخل عن طريق استخدام التكنولوجيا الملائمة وزيادة فرص العمل بدلا من تحقيقها عن طريق استخدام الطرق المالية او غيرها . ومن الواضح ان الطرق المالية كانت الى حد ما اداة ضعيفة لاعادة التوزيع . ان كل ما اريد ان اقترحه هنا هو ان سياسة التكنولوجيا قد لا تكون اكثر فاعلية حينما ننظر الى الحقائق السياسية ، وكنا نميل فى اقتراحاتنا الى اهمال مشاكل التنظيم السياسى والاجتماعى المتاحة بالتكنولوجيا الملائمة ، وما الى ذلك .

والنقطة الأخيرة التى اود ان اذكرها ، واو باختصار ، تتعلق بالسياسة العلمية فى الدول النامية ، وكذلك السياسات من اجل النفر الفنى . ان هناك اهتماما قويا فى الوقت الحالى بتوجيه البحث والتطوير والتصميم الهندسى وقدرات البناء ونظم التعليم العلمى والفنى فى الدول النامية نحو تكنولوجيا اكثر ملائمة . وهذا يعتبر عادة كأساليب انتاج كثيفة العمل لانتاج السلع غير المعقدة نسبيا فى المنشآت الريفية والحضرية ذات الأحجام الصغيرة . وهناك عدد من المشاكل المتعلقة بهذا النوع من السياسة ، ولايتسع المجال هنا الا لذكر عدد قليل من المشاكل الدقيقة .

ان المشكلة الاولى هى انه نظرا لأن العوائد الاجتماعية للاستثمار فى العلم والتكنولوجيا تتوقف بطريقة حتمية على الحصول على نتائجها مطبقة فى النظام الانتاجى فان نوع السياسة يكون عرضة لجميع المشاكل التى سبق أن ناقشناها فيما يتعلق باختيار الأساليب الفنية للانتاج . ان هذا ليس نقدا للمفهوم الفنى الاساسى . ان من الصعوبات الكبيرة عدم وجود بحوث وتطوير أو أى مجهود هندسى عن التكنولوجيا التقليدية الكثيفة العمل التى يجب ان تستخدم فى الدول النامية . ويمكن القول بأن مجهود العالم فى البحث والتطوير فى مجال التكنولوجيا الانتاجية يدور حول أساليب الانتاج الآلية الكثيفة الاستثمار الى حد بعيد ، ولذلك فحتى

لو كانت أساليب الإنتاج الكثيفة العمل فعالة في الوقت الحالي فإنها ستكون غير فعالة في المستقبل . اننا لانستطيع ان نفصل مشكلة اختيار الأساليب الفنية للإنتاج عن مشكلة الحصول على التغير الفني الكثيف العمل . ولكننا لانستطيع ان نتجاهل الصعاب السياسية والاجتماعية التي تواجه التطبيق على نطاق واسع لأساليب الإنتاج الفعالة الكثيفة العمل التي يمكن ان تستنبط وتطور في المعامل وعلى لوحات الرسم (أي بعيدة عن الواقع العملي) ، ومع ذلك فهناك مجموعة أخرى من المشاكل متعلقة بتحقيق إعادة التوجيه المرغوبة للمجهود الفني . وسأختصر هذه المشاكل في نقطتين رئيسيتين :

١ - ان الأنشطة العلمية والفنية الموجودة في الدول النامية تميل الى ان تكون علاقاتها بالقطاعات الانتاجية محدودة جدا ، ويرجع ذلك بصفة أساسية الى الاعتماد الكبير على التكنولوجيا الأجنبية للإنتاج .

٢ - ان الدور المحدود الذي تؤديه هذه الأنشطة موجه بدرجة كبيرة جدا تجاه انواع التكنولوجيا التي تسود أصلا في النظام الاقتصادي .

لقد ناقشت هذه المشكلات في موضع آخر ، ولن أعود الى التكرار هنا . ان كل ما أريد ان أفعله الآن هو ان أشير الى انه ليس من اللائق أن نفكر في النظام العلمي والهندسي كشيء يمكن توجيهه او إعادة توجيهه حينما نريد دون حدوث اضطراب شديد في البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي يوجد فيها هذا النظام العلمي والهندسي حيث ان نتائج مثل هذا التفكير يمكن أن تكون لها أضرار أكثر من فوائدها . وأن المثاليين التاليين يمكن ان يساعد في توضيح هذه النقطة :

المثال الأول ان انشاء « المجلس العلمي والفني » في تركيا في بداية العقد السابع كان الهدف من انشائه على وجه التحديد هو التوصل الى طرق أكثر انتاجية باستخدام البحث العلمي الذي يعتبر ، من وجهة النظر العلمية البحتة ، متقدما نسبيا في تركيا . ويضم المجلس مخططين ، وموظفين عموميين ، ورجال صناعة ، كما يضم علماء أكاديميين . وباستعراض ما أنجزه المجلس منذ انشائه يتضح انه لم يحقق الا القليل على الرغم من الحماسة والرغبة الصادقة اللتين بدأ بهما المجلس . ولاشك ان جانبا من المشكلة ذو طابع اداري . لقد ظهرت اشكال متعددة من الخلافات بين المجلس والوزارات التي تشرف على البحث العلمي في الدولة . ولكن جانبا هاما من المشكلة هو انه ليس هناك حقا الا القليل جدا لما

يمكن أن يفعله المجتمع العلمي التركي ، على الأقل بقدر الاهتمام بالتكنولوجيا الصناعية حيث تتولى المنشآت الأجنبية امداد الدولة بها . فرجال الأعمال الأتراك يفضلون بطريقة منطقية تكنولوجيا الانتاج الخاصة بالدولة المتقدمة ، لأنهم ينتجون منتجات الدول المتقدمة ، ولأنهم يعرفون أن التكنولوجيا التي تتولى المنشآت الأجنبية جلبها هي التي ستعمل . ومع ذلك فمن المؤكد أن قرارات رجال الأعمال هذه تكون في مصلحة الدولة في مجموعها . أن النتيجة يمكن أن تكون تدهورا في وظيفة المجلس . أنها يمكن أن تأتي لتخدم وتحمي مصالح البحث للمجتمع الأكاديمي الذي كان من المفروض أن يتغير .

والمثال الثاني من كينيا يتعلق بكلية الهندسة بجامعة نيروبي . وهو أننا أثناء بعثة التوظيف الخاصة بمنظمة العمل الدولية أردنا أن نعرف كم من البحوث التي تمت في الكلية اهتمت بأنواع التكنولوجيا المتعلقة بالأراضي الزراعية المستأجرة ذات المساحات الصغيرة والصناعات ذات الأحجام الصغيرة . وكانت الإجابة التي لا تدعو للدهشة أنه عدد قليل جدا . ومع ذلك فإن الأسباب كانت شائعة : أن السبب لم يكن هو أن أعضاء الكلية غير منتهيين أو غير مهتمين بتكنولوجيا الوحدات الصغيرة . أنهم قاموا بتدريس قدر لا بأس به ، وكثير منهم يقوم حاليا بأعداد بحوث في هذا المجال عن نوع التكنولوجيا حتى في أوقات فراغهم . يبدو أن المشكلة الرئيسية هي أن البحث الذي يتم في الكلية يكون متصلا بشدة بحكم الظروف والحاجة بالمناهج التي يتم تدريسها . وهذه المناهج يتم اعدادها بالضرورة لأعداد الطلبة للعمل في منشآت القطاع الحديث ذات الأحجام الكبيرة ، لأنها إلى حد بعيد هي المصدر الرئيسي للتوظيف لخريجي كليات الهندسة في كينيا . وفي هذه الحالة فإن امكانية إقامة شكل جديد من نشاط البحث والتصميم تتوقف بشكل قاطع على الشروط التي تقع تحت إشراف المجتمع العلمي نفسه . وأنه لمن الواضح تماما أن إعادة توجيه البحث والتعليم في هذه الكلية ، سيؤدي في حالة عدم وجود أي تغييرات خارجية ، إلى إيجاد أفراد يصعب توظيفهم .

لقد أثرت هذه النقطة الأخيرة لأنها - كما يبدو لي - تحدد بدقة المشاكل الحقيقية لما يسمى السياسة العلمية في الدول النامية ، ولنوضح أنه بينما قد يبدو أمرا حسنا أن نقيم معاهد بحث ذات مظهر خارجي مقنع فإن قيام هذه المعاهد بأعمال جيدة هو أمر آخر . أن هذا الموضوع ، شأنه في ذلك شأن مسألة اختيار الأساليب الفنية للانتاج ، يورطنا في أنواع من التحليل معقدة وغير سهلة .

# الثورة الخضراء

## والتوترات الاجتماعية والاقتصادية في الهند

كان للاكتشافات الكيماوية والبيولوجية المتتالية في تكنولوجيا الزراعة في السنوات الأخيرة وتطبيقها في مساحات كبيرة في الدول الفقيرة في العالم أثر كبير وتطور ملحوظ يوصف في تعبير غير دقيق بأنه « الثورة الخضراء ». فاستعمال الأنواع الجيدة للبذور التي تعطى إنتاجا كبيرا مع استعمال الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية ومدخلات أخرى مستحدثة في فنون الزراعة قد غير أنماط الإنتاج الزراعي في بعض المناطق ، وارتبط هذا التغير بآثار اجتماعية واقتصادية واسعة المدى ، وتأخذ النظرة الحالية لمضمون الثورة الخضراء طريقتين مختلفتين .

الأول هو تأكيد أن التكنولوجيا الحديثة تكسر دائرة الجمود التي تورثت عن القرون الماضية في طرق الزراعة التقليدية واستخدامها بحيث تنقلها الى مرحلة عصرية فعالة ، واسلوب زراعي رأسمالي ناجح يعود بنتاجه على الجميع ، حتى المزارعين الفقراء والعمال الذين لا يملكون أرضا ، لأن الإنتاج والكسب يكون وفيرا في هذه الحالة .

والطريق الثاني يتركز على القوى المتولدة عن الثورة الخضراء التي تميل الى اظهار التفاوت الكبير السائد في النظام الاقتصادي ، وتضم الذين يؤمنون بالارتباط



## بقلم : كاليانا بردهان و پيراناب بردهان

يشغل كاليانا بردهان وظيفة أستاذ اقتصاد في المعهد الهندي للأحصاء بنيودلهي . نشرت له كتب أهمها : النمو الاقتصادي ، والتنمية والتجارة الخارجية . كما نشر له عدد من المقالات العلمية . أما پيراناب بردهان فهو باحث متخصص في مركز بحوث الاقتصاد الزراعي بجامعة دلهي . نشرت له عدة مقالات علمية في عديد من المجلات العلمية .

## ترجمة : الدكتور إمام محمد سليم

وكيل وزارة التخطيط . حاصل على بكالوريوس الزراعة من جامعة القاهرة ، ودبلوم العلوم السياسية من السوربون ، والماجستير في المجتمع الريفي ، والدكتوراه في التخطيط الاجتماعي من جامعة نورث كارولينا : له مؤلفات عديدة منها : المجتمع الريفي ، السياسة الاجتماعية ، قاموس المصطلحات الاجتماعية ، طرق البحث الاجتماعي . كما نشرت له مقالات علمية عديدة .

الوثيق بين الزيادة في عدم المساواة وتزايد عدم الرضا والتوتر في الجهاز الزراعي حيث تلاحظ لدور ثورة عارمة ربما يتغير لونها في النهاية الى اللون الأحمر . وقد ازداد عدد أصحاب هذا الرأي الثاني بشكل جماعي وفردى ، وبخاصة في السنوات القليلة الأخيرة ، بحيث أصبحنا أمام فئات من الناس من ذوي المعتقدات السياسية المتباعدة الاتجاه . فبعضهم يرى في ازدياد الرأسمالية والتوتر الاقتصادي في إطار الثورة الخضراء جزءا حتميا من النسق التاريخي للزراعة لا يمكن تجاهله ، وهي تعمل في طريقها تجاه هدف واضح . ويرى الآخرون في هذه الظاهرة انذارا بالاتجاه نحو كارثة يجب تجنبها بأي ثمن .

وفي هذه المقالة سنناقش العلاقة المتداخلة بين التطور الزراعي المسمى بالثورة الخضراء والتوتر الاجتماعي الاقتصادي مع الإشارة بالأخص الى الزراعة في الهند .

بالرغم من التأكيدات الكثيرة التي تشير الى العكس لا يتبين من تطور الزراعة في الهند عامة براهين واضحة لآثر الثورة الزراعية عليها . وبمقارنة معدلات ازدياد الانتاج الزراعي للغدان في الفترة من ١٩٥٠/٤٩ الى ١٩٧١/٧٠ نجد أن الانتاج

الزراعي قد ازداد لكل فدان بمعدل سنوي تراكمي ١.٦٦٪ ، مع أن معدل الزيادة في الانتاج لفترة الثورة الخضراء ( وهي ما بين سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ وسنة ١٩٦٤/١٩٦٥ ) كانت ١.٦١٪ سنويا ، وكانت معدلات الزيادة في انتاجية الفدان من الحبوب في هاتين الحقتين ١.٧٤٪ و ١.٦٣٪ على التوالي . وعلى ذلك فان معدلات الزيادة للانتاج الزراعي العام أو الحبوب تظهر أن الثورة الخضراء لم تقم بأى تغيير كبير . ولو درسنا محاصيل الحبوب كالأعلى أفراد ، واخترنا أهم محصول بالنسبة لكمية الانتاج في الهند وهو الأرز ، فان معدل الزيادة في انتاجية الفدان كانت أقل في السنوات الأخيرة بالمقارنة بفترة ما قبل الثورة الخضراء ، في حين ازدادت انتاجية الفدان من القمح ، وهو تقريبا المحصول الرئيسى الوحيد ، حيث حدث تغير تكنولوجى ملموس في زراعته بين ١٩٦٥/٦٤ و ١٩٧١/٧٠ بمعدل ٧.٥٪ سنويا ، وبالتالي أصبحت الثورة الخضراء في الهند خاصة بمحاصيل معينة ، وأصبحت مركزة في منطقة صغيرة في شمال الهند تضم : البنجاب ، الهاريانا واورار ، برادشى الغربية . وساهمت فعلا وبقوة في زيادة انتاجية الحبوب منذ سنة ١٩٦٥/٦٤ في مناطق أخرى حيث حدثت هناك ثورة خضراء ، ولكنها عمليات تجريبية عديدة في محاصيل منفردة .

وبسبب طبيعة هذه المحليات لم يتضح الأثر الاجتماعى للثورة الخضراء على المستوى الشامل ، ولكن تظهر في بعض الأحيان اتجاهات في عمليات التنمية الاقتصادية والسياسية يرون فيها آثارا متولدة عن الثورة الخضراء ، ولكن على المستوى الحلى أو الجزئى . ويوجد الكثير من الدلائل بأن التكنولوجيا الحديثة قد حطمت شبكة العلاقات شبه القطاعية وصقلت نظام الانتاج والاتجاهات والاعتقادات التقليدية ، إذ أن القوة الظاهرة المدهشة للتكنولوجيا الحديثة في رفع الانتاجية قد أزلت خيوط العنكبوت عن قرون الجمود وعدم الدراية والمعتقدات التقليدية في سنة الفقر ، وقد وصفها أحد المشاهدين بقوله :

« ولأول مرة منذ أن وجه العالم المتطور اهتمامه ونظرته الى الفلاح ، لأن حالته قابلة للتنبؤ والتوجيه ، فان الفقر والجهد الكبير بدون عائد أصبحا قابليين للشفاء بمجهودات الانسان التى توجد أصولها في زيادة وتنوع الموارد التى يجب أن تستغل بمساعدة الفرص التى قدمها العلم الحديث ، تلك الفرص الهادفة المتاحة لكل الناس بغض النظر عن مكانتهم أو مراتبهم الاجتماعية » .

ومع الآمال المتزايدة للفلاحين الفقراء (مع تعريف أوضح للقوى التى تحاول أن توفيقهم) ازدادت القيمة السيكلوجية للتكنولوجيا الحديثة ، التى تهدف الى زيادة الربح في الزراعة ، وهذا شجع الكثير من ملاك الأراضي على الاهتمام بزراعة أراضيهم ، ومهدت لذلك أيضا سياسة الحكومة الهندية عن طريق مساندة سياسة الأسعار والضرائب الزراعية المنخفضة .

وقد حفزت التكنولوجيا الحديثة في ميدان الزراعة بأرباحها وعائدها الكبير

عدة ملاك كبار وجهاوا أنشطتهم واهتمامهم الى الزراعة ، ومهدت لذلك سياسة الحكومة الهندية عن طريق مساندة سياسة الأسعار المرتفعة والضرائب الزراعية المنخفضة . وكان كثير من ملاك الأراضي الذي يوجرون معظم أراضيهم قد تحولوا الى مزارعين رأسماليين مستثمرين . وقد اتجهت حسابات التفاضل لأكبر المكاسب للرأسمالية الباردة في تقويم وضعها على التزاماتها التقليدية (وذلك هو تبادل الخدمات وتبادل المنفعة) بالنسبة للمستأجرين أو العمال المؤقتين . فالأرباح الناتجة عن التكنولوجيا الحديثة والارتفاع المترتب عليها في قيمة الأراضي جعل ملاك الأراضي أقل ترددا في طرد المستأجرين واسترجاع الأراضي بقدر المستطاع لزراعتها على الفمة . أما من حيث السماح للمستأجر بالبقاء فالمالك يصمم غالبا على رفع قيمة الإيجار أو اقتسام المحصول ، ويحاول أن يخادع المستأجر بطرق مختلفة حتى لا يكون له أي حق في الزيادة المحصولية . وقصور فاعلية قوانين حماية المستأجر أو تنظيمات الإيجار الموجودة حاليا تعجز في معظم الحالات عن منع كل ذلك من الحدوث .

ومثل هذا يحدث في استخدام العمال الزراعيين وفصلهم ، فتميل تربيئات المساومات غير الشخصية عن طريق الوسيط الى احتلال مكانة العلاقة التقليدية بين العامل وصاحب العمل . وعلاوة على ذلك فإن جزءا كبيرا من الرتبات والصلوات العينية التي تعودوا أن يدفعها لهم أصحاب العمل تدفع الآن نقدا ، وهذا يعتبر مكسبا لصاحب العمل وميزة في حالة زيادة الأسعار . ولذلك يجد عدد كبير من العمال أنفسهم الآن ، وقد أصبحوا غير مطمئنين للنظام اليومي لسوق العمل غير المستقر ، في جو أكثر اطمئنانا نسبيا تحت ظل العلاقة شبه الاقطاعية التي تربط ملاك الأرض بمزارعيه .

وكان لسرعة انهيار وتخلخل العلاقات التقليدية للإنتاج الزراعي المنفذ في بعض المناطق بسبب ظهور من يسمون «المزارعين الوجهاء» (وهم من أصل حضري ، كضباط الجيش المتقاعدين ، والموظفين ، وأصحاب الأعمال الذين اتجهوا الى الزراعة وإدارة مزارع حديثة في الريف المحيط بالمدن التي يسكنونها . فهم لا ينتمون الى الطبقة التقليدية للزراع ، وغير مرتبطين بالروابط الاجتماعية ، وغير ملزمين بالنظم التقليدية للريف) أن عملوا على تدليل مشاكل الإشراف على العمالة وجعلها اقتصادية ، وقد كانوا من الأوائل الذين أدخلوا الميكنة الزراعية في عمليات الحرث والري والحصاد لتحل محل العمالة اليدوية .

فبالرغم من رفع وتحسين وتوثيق الاتجاهات الاجتماعية في العلاقات بين الملاك الكبار والمستأجرين ، والملاك الكبار والعمال ، فإن الأسلوب التكنولوجي الحديث كان أقوى وله أثره الموجه للأنظمة الاقتصادية في تجمعات الزراع والعمال الزراعيين . ويقال في معظم الأحيان أن التكنولوجيا الحديثة هي «ميزان طبيعي للتبادل» ، وهذا يعني أن سلالات الحبوب ذات الإنتاج الكبير يمكن استخدامها وتطبيقها على مستوى متكافئ من الكفاءة والكفاية في المزارع الصغيرة والكبيرة . وهذه حقيقة علمية بالنسبة

لاستخدام البذور المنتقاة والمخصبات والمبيدات الحشرية ، ولكن في حدود . وحيث ان استخدام المدخلات الأكبر عائد مطلوب يحتاج الى توقيت محكم لتنظيم كميات مياه الري ، مع أن وضع الفلاح الصغير هو وضع غير المنتفع بنظام الري الحالي ، حتى ولو كانت قنوات الري والمشروعات الحكومية والاستثمار في الآبار الأرتوازية بمضخات وآلات وأدوات تكميلية ميكانيكية لتزويد الحقول بالمياه ميسورة ، فان هذا يتعارض مع كفاءة استغلال التكنولوجيا الحديثة ، وتأمين توقيت منظم للري ، حتى ولو كانت الأمطار كافية ، لأن عمليات الري تحتاج الى استثمارات في أعمال تكميلية ، مثل سهاريج لخزن الماء ومضخات لرفعها ، وهذه ضرورة حتمية . ولما كان الفلاحون لهم قدرات مختلفة في الاستثمار فالزراع الصغيرة التي كان لها فائض متواضع لا يكفي استثماره في مشروعات التكنولوجيا الحديثة ليس لها من هذا التوازن شيء في هذه الحالة ، فهي تحتاج الى الكثير منها ، وبالإضافة الى ذلك فالزرعة الصغيرة لا يمكنها في أغلب الأحيان الانتفاع الأمثل من الآبار الأرتوازية أو الأجهزة للمائلة .

وبالنسبة لصغار المزارعين فان مدخراتهم المتواضعة لا تكفي لتمويل الاستثمارات اللازمة في مشروعات الري الإضافية وسد حاجتهم لشراء الأسمدة والصرف على العمليات الزراعية الكبيرة المتعددة التي تفرضها عليهم التكنولوجيا الحديثة ، فلا يجد المزارع أمامه إلا مصدرا واحدا هو الاقتراض . والاقتراض في ريف الهند سواء كانت مصادرة خاصة أو حكومية ينحكم فيه وضع المالك ومركزه . وحيث تكون الأرض المملوكة - في هذه الحالة - هي الضمان الرئيسي في مباحثات القروض فان عقبات تلازم اتفاقيات اعطاء القرض بشروط ملائمة ، حتى الجمعيات التعاونية للتسليف والبنوك العقارية للرهن ، وهي تتميز بسياسة تسليف متحررة ، تشترط عادة أن يكون الزراع في وضع يمكنهم من رهن ما لا يقل عن أربعة أفدنة وأحيانا سبعة أفدنة من أرضهم وأحيانا سبعة أفدنة بصفة ضمان حتى يستطيعوا الحصول على قرض طويل أو متوسط الأجل لتكلفة بئر أرتوازي أو مضخة . ومن شأن هذا استبعاد أغلبية صغار الزراع في نطاق الأرز . ونتيجة لذلك لا يكون لدى صغار الزراع مصدر مضمون للماء . وهذا بالتالي يعني عدم استطاعتهم استخدام قروض الانتاج القصيرة الأمد لشراء أسمدة ، الخ ، وتلك ظاهرة يفسرها أحيانا موظفو البنك التعاوني بأنها نقص في الطلب . وتظهر المشكلة بالطبع بصورة أكثر حدة بالنسبة لعدد كبير من المستأجرين والمزارعين بالحصّة ، الذين لا يملكون أرضا ويزرعون بالمشاركة ، ولذلك ليس عندهم أي ضمانات تنبج لهم فرصة الاقتراض ، وغالبا يرتبط صغار المستأجرين بارتباط شقوى فلا تتاح لهم فرص الاقتراض ، ولا حتى القروض التعاونية القصيرة الأمد ، ليمولوا الانتاج المستمر ، فيتوجهون جميعا يتلمسون عطف مرابي القرية .

أما بالنسبة للعمال الزراعيين فيمكن أن يقال أن الثورة الخضراء قد صاحبها تمنيات لهؤلاء الذين يعملون أجراء في مزارع صاحب الأرض . ويتمثل ذلك أولا

في زيادة الطلب على اليد العاملة للحصاد ودراس الفلات الوفيرة المنتجة . ويتمثل ثانيا في تحسين العمليات الاجرائية في التسميد واستعمال المخصبات وتداخل عروات المحاصيل وبخاصة المحاصيل القصيرة المواسم والسريعة النمو والوفيرة الفلة . ومن ناحية أخرى فان الكثير من الأعمال المعدلة ، كالاستعمال الشامل للأسمدة الكيماوية ، تجعل المحاصيل والحصاد المتضاعف للأنواع السريعة النمو ذات الفلة الكبيرة من الأهمية بمكان . وتحتاج انجازات هذه الأعمال طبعا الى عدد كبير من العمال ، مما قد يزيد من الطلب على العمال الأجورين وتضمن لهم عمالة مستمرة ، حتى الجرارات التي تعد بديلة لليد العاملة في عملها في الحرث واعداد احواض البذور تعد مستغلة لليد العاملة عندما تستعمل في ضخ المياه وفي الحصاد على نطاق واسع . وفي دراسة للباحث ماهاراشترا اتضح ان ٥٤ ٪ من زيادة الانتاج في المناطق التي تتبع دورة ثنائية تستلزم استخدام الجرارات . ويمكن القول ان النتيجة الظاهرة لاستعمال الجرارات انها استبدال اليد العاملة وان لم يكن ذلك مؤكدا ، ولكن المدخل أو العامل الذي له اثر على خفض الطلب من اليد العاملة هو قاتل الأعشاب الضارة الذي يمثل جزءا هاما من العملية المحسنة ، أما الآلات الميكانيكية الأخرى كالمحاصد الميكانيكية فهي تعد بالطبع بديلة لليد العاملة .

هذا ، وبغض النظر عن موضوع تقديم عمالة مستمرة ، وبمعدل اكبر ، فالتكنولوجيا الحديثة تضع جدولا زمنيا منظما للعمليات الزراعية . وعدم اتاحة فاصل زمني اطول بين المحاصيل يزيد من الحاجة الى عمل سريع ومركز من جانب العمال ، وهذا ايضا يزيد من قوتهم في مساومة أصحاب العمل على الأجور .

اما بالنسبة للجانب الآخر المتعلق بعملية طرد المستأجرين ، المفترض انها بسبب الرغبة في زيادة الربح عن طريق الزراعة على الدمة ، فيمكن أن يحل بطريق غير مباشر ، أي بسن القوانين الخاصة بتأجير الأراضي ، حتى تقابل الضغط المتزايد للسكان على الأرض ، ولتواجه مشكلة تضخم أعداد العمال الزراعيين في سوق العمالة . وبمقارنة البيانات الإحصائية في الهند في سنة ١٩٦١ وسنة ١٩٧١ نجد ان نسبة العمال الزراعيين لمجموع القوى العاملة الزراعية في الريف (وهم من الذكور) قد تزايدت من ١٥ ٪ الى ٢٥ ٪ . وتشير احصائيات كل ولايات الهند الى أن هذه الزيادة صحيحة .

وفي هذا الموضوع المهم يجوز ان نستشهد ببعض البراهين التي توضح حالة العمال الزراعيين وظروفهم في ولاية هاريانا ، وهي حقا قلب الثورة الخضراء في الهند . لقد وجد من دراسة فئة تضم ١٤٢ من الأسر العاملة في عام ١٩٧٠/٦٩ أن عدد أيام العمل الفعلية كانت نصف الأيام المحتملة للعمل ، ومع ذلك فان الرقم القياسي لمتوسط معدلات الأجر الحقيقي للعمال الزراعي لم يطرأ عليه أي تحسن في هاريانا في الفترة الزمنية من ١٩٦٣ الى ١٩٧٠ . وقدر أيضا أن مستوى حوالى

٦٠٪ من العمال ذوى الأسر في هذه الولاية يقع تحت مستوى الفاقة (مرف مستوى الفاقة بدخل ٢٠ روبية هندية أو ٢٧٥ دولار امريكى للفرد فى الشهر : تقدير لجنة التخطيط لحكومة الهند ١٩٦٩ - ١٩٧٠) .

وتوضح النتائج الاحصائية للسكان الريفين على المستوى العام للهند أن النسبة المثوية للأفراد الذين وصلوا الى ماتحت مستوى الفاقة قد تزايدت نسبتهم بعد عام ١٩٦٠ . وفى الحقيقة يتكرر مثل هذا فى معظم الولايات بما فيها هذه الولاية التى أحدثت بها الثورة الخضراء تقدما واضحا . وتوحى هذه الحالة بأن الثورة الخضراء لم يكن لها من القدرة ما تستطيع به رفع كاهل الفقر عن الزراع والعمال الزراعيين المعدمين .

وتحت تأثير هذه الظروف ينتظر طبعا توتر أو ترم فى تلك المناطق الزراعية . واكبر برهان على ذلك أنه تخلت السنين القليلة الماضية حالات عدم الاستقرار والاضطراب والاعتداءات وأعمال العنف فى كل مكان فى ريف الهند . وقد سجل تقرير وزارة الشؤون الاجتماعية فى حكومة الهند لعام ١٩٦٩ عن الأسباب الطبيعية لتغيرات التوتر فى المناطق الزراعية اثنتين وستين حالة من حالات الاضرابات فى المناطق الزراعية عن عامى ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ، وكانت ٥١ حالة من هذه الاضرابات قد قامت بها فئة المعدمين ضد مالكي الأرض للضغط عليهم لتلبية مطالبهم ، وهى : زيادة الأجور للعامل الزراعى ، والاستقرار والطمانية للمستأجرين ، ونصيب أكبر للزراعيين بالمشاركة ، واعادة توزيع الأراضى ( أى العناصر الرئيسية للإصلاح الزراعى ) . ومن السهل طبعا الاعتراض على وجود علاقة بين نشوب هذا الصراع الزراعى والثورة الزراعية ، حيث يكون الأمر دقيقا وحساسا بالنسبة للتنمية الزراعية ، فقد وقعت معظم الأحداث فى السنين القليلة الماضية فى بعض الأقاليم بشرق الهند وجنوبه ، وبالأخص فى المساحات الكبيرة فى غرب البنغال وكيرالا ، وجزريا فى اشبرا براديش وفى دلتا كافيرى فى تاميلناد .

وهذه المناطق فى الطليعة بالنسبة للثورة الخضراء ، وهى فى الحقيقة أقاليم زراعة الأرز فى الهند ، فى حين أن الثورة الخضراء أخذت طريقها أولا - كما سبق أن ذكرنا - فى مناطق انتاج القمح ، وعلاوة على ذلك فإن مناطق زراعة الأرز ليست هى المناطق المتقدمة من الناحية التكنولوجية .

ولو حاولنا تحليل بعض الخصائص العامة لقيام هذا الصراع في هذه المناطق فإن كثيرا من العوامل التي أوضحت الموضوع تملئ نفسها علينا ، فمعظم هذه المناطق اقاليم مزدحمة بالسكان ، حيث أن معدلات كثافة الأفراد بالنسبة للأرض عالية جدا . وينتج عن ذلك خصائص أخرى في معظم هذه المحليات كارتفاع نسبة العمال غير المالكين عن المتوسط . فمثلا وجد في ١٩٦٤/١٩٦٥ أن نسبة عامل رب أسرة ( وهو يعتمد أساسا على أجره وليس مزارعا له ملكية ) الى مجموع ارباب الأسر ٤٣٪ في كيرالا ، و ٣٤٪ في أنهرا براديش ، وكذلك حوالي ٢٥٪ في البنجاب ، أما في هاريانا فكانت حوالي ١٧٪ .

وفي المناطق التي ترتفع فيها نسبة العمال الذين لا يملكون أرضا ، أو يملكون مساحات ضئيلة ، ينبثق الصراع على المصالح بين الذين يملكون الأراضي والذين لا يملكون من الوعي الاجتماعي وتوجيه التنظيمات السياسية . وقد أكد أحد المراقبين أنه بمقارنة زراعة الأرز المائي بزراعة القمح يلاحظ أن الأولى تتطلب عملا شاقا ومضنيا ، وكان نتيجة لذلك أن طبقة الفلاحين المتوسطة في السلم الاجتماعي ( بعكس مناظرهم في مناطق زراعة القمح ) يميلون الى تجنب العمل البدائي في هذه الزراعة . وذلك يبين أن التفرقة بين الذين يقومون بالعمل اليدوي في الحقول والذين لا يعملون هو في حد ذاته فرق كبير في مناطق زراعة الأرز .

وتظهر نقطة أخرى مرتبطة بموضوعنا هذا ، هي أنه في بعض المناطق يوجد بين العمال الزراعيين علاقة مترابطة من التجانس الطائفي ، وهو عامل مهم له فاعليته في ثاجافور الشرقية في تاميلنادر وفي بعض مناطق كيرالا . وقد سهلت هذه الظاهرة للقادة السياسيين المحليين اقتراح سياسة عامة لتعريف الجماعة وتوحيدها . ومع ذلك فهناك درجة مشابهة من التجانس الجماعي نلاحظها في بعض مناطق القبائل في البنغال الغربية ، بهار واندبراديش ، حيث قام الفلاحون بتعدد متناثر في السنوات الأخيرة . وقد ساهم في ذلك ارتفاع نسبة التعليم واستثارة وعي الفلاحين من الناحية السياسية والاقتصادية كما هو في كيرالا .

وبعض هذه الأسباب لا يثير الدهشة ، فمن الملاحظ أن اتحاد التجارة الزراعية كمثال قد أصبح ناجحا نسبيا في بعض هذه المناطق . وقد يكون من الصعب أن نشرح بصراحة لماذا ارتفعت نسبة أجور العمال الزراعيين بسرعة كبيرة في سنوات العقد السابع في كراه وتاملناد واندبراديش ، بالرغم من ضغط زيادة

عدد السكان الكبير نسبيا على الأرض بالمقارنة ببعض المناطق في الشمال الغربي للهند حيث تعتبر الثورة الخضراء في أوج مجدها .

ونحن لا نقصد بكل ما سبق ذكره أن نشير الى ان الثورة الزراعية لم تسهم في تزايد التوتر في المناطق الزراعية ، ولكن نريد أن نقول كما ذكرنا من قبل ان ازدياد قيمة الأرض وكذلك الفائدة التي تعود على الزراع على الذمة توزع بتشجيع كبار الملاك على طرد المستأجرين ، وتضعف من طمأنينة المستأجرين ازاء رفع الإيجارات . وقد اثر ذلك وساهم في رفع الأجور الزراعية ، وكان أيضا ممهدا للبواعث لاحتلال العمالة البشرية بالميكنة في العمليات الزراعية . وتساعد هذه الظروف السائدة من عدم المساواة في تركيب نظام الملكية الزراعية وتوزيع الأصول الأخرى وامكانيات القروض والتسويق في اظهار الثورة الخضراء بأنها ساهمت في حل مشكلة الفوارق البغيضة في توزيع الدخول المحتملة بين كبار وصغار الزراع ، فيستطيع الأول ان يكتسب نصيب الأسد في تدفق المكاسب ، في حين ان الأخير يشقى بسبب يقظة فكره المفاجئة ورغبته المعطلة في تحسين أملكه وإنتاجه . وكان للمحاكاة وتاثير التكنولوجيا الحديثة والرخاء المترتب عليها لمن يملكون الموارد الوفيرة اللازمة لها اثر على الروابط والواجبات التقليدية ، وتحلهم منها باستنكار بعض التشريعات الاجتماعية التي تدعم القانونية لتقارب الفروقات الاقتصادية ، ولتحل محل الميول التقليدية في الانقياد والخضوع عن طريق زيادة تأكيد معاونة الفقراء . وهذا التوتر المستغل يمكن ان لا يظهر واضحا ويتخذ شكلا من الأعمال المكتسبة والمتفق عليها ، الأمر الذي يعتمد على درجة التنظيم الاجتماعي والسياسي . ويظهر هنا مقدرة القيادة في تركيز الاهتمام على المواضيع الحقيقية وتوجيه القرارات الى برامج بسيطة ولكنها فعالة .

وقد صاحب التوتر بين المالك والمستأجر الرأسمالي والعمالي مساهمة الثورة الخضراء بطريق غير مباشر في التوتر والصراع بين العمال الزراعيين أنفسهم في كثير من المناطق ، فقد سببت التكنولوجيا الحديثة ارتفاع الأجور الناتج عن زيادة الإنتاج ، مما دعا للحد من العمل على استيراد الأيدي العاملة من مناطق أو ولايات أخرى تمتاز بوفرة العمالة وانخفاض الأجور ، وبخاصة خلال مواسم الزراعة والحصاد ، وتكون النتيجة أن العمال المهاجرين يستطيعون خفض الأجور المحلية واضعاف قوة المساومة على الأجر بالنسبة للعمال المحليين الذين يعارضون هذه الأوضاع . وحدثت أمثلة كثيرة لمصادمات عنيفة بين الجماعتين من العمال



ومساندة أصحاب العمل للعمال المهجرين . وبالرغم من ذلك كانت المظاهرات في نانجاפור سنة ١٩٦٨ من أكثر البراهين التي تدعم هذا القول ، حيث توجد كثير من النقاط لابد من تحليلها ومعرفتها تدور حول المناطق المتقدمة فنيا في مناطق مختلفة في الهند . وهذه مشكلة لم تلق كثيرا من التفاصيل والبحث والاهتمام في المؤلفات التي كتبت عن الثورة الخضراء ، وتعد أيضا واحدة من أصعب الموضوعات التي يحاول زعماء الأحزاب السياسية القومية وضع نظم لحركة العمال الزراعيين لمواجهة المستقبل القريب .

وختاما نقول انه في حيز اطر التنظيم غير المتكاملة في ميدان الاقتصاد الزراعى في الهند فان الثورة الخضراء ، حتى ولو أنها تفيد في كثير من الأحيان كل الطبقات ، مازالت تهتم بالحرمان النسبى عند الفقراء . ومع التوسع في محو الأمية والمواصلات والاتصالات والانتخابات الرشيدة ورفع الحواجز التقليدية للحركة الاجتماعية فان هذا الاحساس بالحرمان يظهر غالبا في شكل عدم الاستقرار والتوتر . وينحصر الصراع في المراحل الأولى للثورة الخضراء في مناطق غنية في شمال الهند وفي الشمال الغربى منها ، وهى المناطق التى كانت سببا للنسبة المرتفعة لمساحة الأرض المزروعة بالقمح والمزودة بنظام رى متقدم فى البلاد . ويمتاز هذا الجزء من الهند بأن أغلبية المزارع فيه شاسعة ومتكاملة نسبيا من حيث الامكانيات ، وتشغلها طبقات الفلاحين الذين يزرعون بنظام الأسر المنتجة ، ويقل اعتمادهم على عمال الترحيل . وانتشار التكنولوجيا الحديثة في مناطق أوسع ، وبخاصة في مناطق انتاج القمح في بهار والبنغال الغربية وأورسا وأندرا برادش وتاميلنادر وكيرالا ، هذه المناطق التي تتميز بمعدلات مرتفعة ( فرد - مساحة زراعية ) ونسب كبيرة من الممتلكات الصغيرة ، سيكون غير اقتصادى بسبب الأعداد الكبيرة من العمال الزراعيين والفروق الاقتصادية والصراع بين اهتمامات واتجاهات الطبقات التي تميل لأحداث توترات اجتماعية وسياسية في هذه المناطق .

# التقويم التكنولوجي

في ١٣ أكتوبر ١٩٧٢ اصدر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قانونا بإنشاء مكتب مسئول امام الكونجرس للتقويم التكنولوجي عن المساعدة في التعرف على الاستخدامات التكنولوجية الحالية وبحث التعارض بينها . وتنص مقدمة هذا القانون على أن الاستخدامات التكنولوجية كبيرة وأخذة في النمو ، وأنها تمتد وتنتشر ، وأن آثارها على البيئة الطبيعية والاجتماعية - مفيدة كانت أو ضارة - حرجة للغاية . وبناء على ذلك يرى الكونجرس الأمريكي أنه من الضروري توقع نتائج الاستخدامات التكنولوجية وتفهمها وأخذها في الاعتبار قبل اقرار أى سياسة عامة متعلقة بالمشاكل القومية الحالية أو مابستجد منها .

وهذا التشريع وثيقة جديدة تغطي مدى اوسع مما يحويه القانون السابق الخاص بسياسة البيئة القومية الذى يتضمن انشاء مجلس «دراسة البيئة» المسئول عن اعداد القرارات الفيدرالية التى تؤثر فى مستوى البيئة التى يعيش فيها الانسان الأمريكى . ويتناول التشريع بالإضافة الى المشروعات التكنولوجية الفيدرالية الاجراءات المنظمة للحد من تشجيع تطوير التكنولوجيا فى القطاع الخاص أو الحد من ذلك ومن الصعب التكهّن فى الوقت الحالى بنتيجة التأثير النهائى لكل من هذين

## بقلم : هارثى بروكس

عميد كلية الهندسة والفيزياء التطبيقية ، وعضو كلية الادارة  
العامّة بجامعة هارفارد • رئيس لجنة العلم والسياسة العامة  
بأكاديمية العلوم بالولايات المتحدة • حجة في المشكلات  
الخاصة بالعلاقات بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع •

## ترجمة : المهندس إبراهيم عادل جندية

مدير المتابعة بديوان عام وزارة الصناعة •

---

التشريعين أو الارتباط بينهما نظرا لأن اختصاصات كل منهما متداخلة في اختصاصات الآخر .

ويعرف «التقويم التكنولوجي» بأنه وسيلة للتخطيط والتنبؤ المنظم عن طريق الوقوف على تأثير التكنولوجيا على قاعدة منسجمة ذات زوايا متعددة . انه تقويم للنواحي الايجابية والسلبية لنتائج استخدام التكنولوجيا ، تقويم للمكاسب والخسائر للبدائل ، هو تجميع للمعلومات على أساس شامل يهدف الى تسهيل عملية اتخاذ القرارات . هو باختصار برنامج شامل متعدد الجوانب يعتمد على تجميع الفنون التقنية الحالية واستخدامها في جميع مراحل التحليل . ويحتاج التقويم التكنولوجي في كل مرحلة من مراحل تنفيذ أى مشروع الى اجراء تنبؤات عن التكنولوجيا التي يجرى تقويمها وعن التكنولوجيات الأخرى المتعلقة بها والتي يحتمل أن تتنافس معها هذا بالإضافة الى أنه من الضروري أن تؤخذ في الاعتبار الظروف الاجتماعية والقيم التي يعمل بها المجتمع الذي ستطبق عليه التكنولوجيا الجاري دراستها .

ويمكن تحديد واجبات «التقويم التكنولوجي» بما يلي :

١ - تصريف التناقضات الحالية أو المحتملة للتكنولوجيا أو البرامج التكنولوجية .

- ٢ - إيجاد الصلة بين الأسباب والنتائج ، ما أمكن ذلك .
- ٣ - تحديد الطرق التكنولوجية البديلة لتنفيذ البرامج المحددة .
- ٤ - تحديد البرامج البديلة للوصول الى الاهداف الضرورية .
- ٥ - اعداد تقديرات ومقارنات عن التناقضات بين الطرق والبرامج المختلفة .

وقد اصبحت الحكومة الفيدرالية مطالبة اليوم بالاهتمام ببرامج التنفيذ كاهتمامها بكيفية التنفيذ وتكاليفه ، بعد ان كانت المشاكل الى وقت قريب تحل عن طريق وضع الأولويات المناسبة لها ، ثم تعريفها وتخصيص الاعتمادات المالية لها . واستتبع ذلك ضرورة الارتفاع بمستوى قياس تأثير جميع الأنشطة في القطاعين العام والخاص ومستوى الحكم عليه .

والنجاح الذى احرزته الولايات المتحدة في برنامج الوصول الى القمر يعكس فكرة أن المال والتصميم على بلوغ الهدف كفيلا يحل أى مشكلة ، كما أن نجاح أى تكنولوجيا مفيد من حيث هو ، يعكس هذه الفائدة أوتوماتيكيا على ما حوله ولكل تكنولوجيا أو مشكلة آثار غير منظورة ، لم تكن متوقعة ضمن الاهداف التى أعد البرنامج من أجلها ، وكلما زاد المجتمع تعقدا واعتمادا بعضه على بعضه الآخر أصبح التأثير الثانوى أوسع انتشارا ، وربما كان أهم من الهدف الاساسى نفسه ، وقادى ادراك هذه الظاهرة الى ضرورة تقويم التكنولوجيا وتقويم السياسة عامة .

يعتبر اصطلاح «التقويم التكنولوجى» مضللا لأنه يوحى بالاهتمام بوجه خاص بالتكنولوجيا ، فى حين أن القرار بالنسبة للتكنولوجيا لا يمثل غير ناحية اجتماعية واحدة ، قد لا تكون بالضرورة أهم من النواحي الأخرى التى لاتتناول التكنولوجيا بطريق مباشر ، وهناك حالات كثيرة تكون فيها البدائل لاستخدام التكنولوجيا أو تنظيمها غير تكنولوجية اطلاقا . وعلى سبيل المثال فان حل أزمة الطاقة المعاصرة بالولايات المتحدة لا يكون باستنباط تكنولوجيا جديدة لتوليد الطاقة ، ولكن بتغيير سياسة الحكومة تجاه تسعيرة أنواع الوقود المختلفة وتجاه تحديد حصص الاستيراد أو احتياجات الشحن من ناقلات البترول الأمريكية .

وإذا اعتبرنا بعض البرامج الاجتماعية (مثل : التعليم الإلزامى ، الضريبة على الدخل ، طرق التمويل ، الأحقية فى الرعاية الطبية الشاملة) كتكنولوجيا اجتماعية أمكن اعداد برامج لها داخل نطاق «التقويم التكنولوجى» ، ويمكن تأكيد أن تفهم المشكلة واتباع الطرق العلمية لتقويم هذه البرامج لا يختلفان عن الطرق المتبعة فى تقويم التكنولوجيا الطبيعية . هذا بالإضافة الى أنه كثيرا ما تصبح التكنولوجيا - التى تبدو اجتماعية - متداخلة فى التكنولوجيا الطبيعية وآثارها الثانوية . وعلى سبيل المثال فان العلاج الطبى الشامل بالولايات المتحدة يتطلب بيانات واقية عن الأشخاص ، ومع عدم توفر الضمان التكنولوجى والتشريعى فى القانون قد يساء استخدام هذه البيانات .

ومن المؤكد أن تنظيم استخدام التكنولوجيا أو منع استخدامها أمر له ما على النتائج غير المنتظرة من الأثر ، كاستخدام التكنولوجيا الجديدة ، وقد تكون المشاكل في حالة عدم وجود تكنولوجيا أكثر صعوبة من تقويم أى تكنولوجيا مقترحة . وفى حالة اتخاذ قرار بمنع استخدام نوع من التكنولوجيا أو الحد من انتشاره فإنه يلزم تحديد نوع آخر من التكنولوجيا يحل محله ، نظرا لأن أى تعديل في الهيكل الاجتماعى قد يحدث آثارا غير مرغوب فيها . من أمثلة ذلك تأثير انخفاض كمية القوى الكهربائية في ولاية نيويورك على مستقبل العمالة بالنسبة للسكان ذوى الدخل المنخفض . ومثال لفشل تقويم التكنولوجيا البديلة عدم إمكان تحديد الأضرار الصحية التى قد تنجم عن استبدال الفوسفات المستخدم فى صناعة مواد التنظيف . ومثل آخر هو احتياج محطات التوليد الكهربائية الى فحم تكون نسبة الكبريت فيه منخفضة، وما لذلك من تأثير على عملية استخراج الفحم من المناطق القاحلة فى غرب الولايات المتحدة . ومما سبق يتضح صعوبة تجزئة «التقويم التكنولوجى» أو «تقويم ظروف البيئة» .

وهناك وجه آخر لتقويم المشروعات يتعلق بالنظم الاجتماعية التى تقوم بمساعدة هذه المشروعات وتمويلها ، وغالبا تكون علاقة هذه النظم بالآثار الثانوية أكبر من علاقاتها بالتكنولوجيا نفسها . وتبدو هذه العلاقة واضحة فى مجال التلفزيون ، فإن طبيعة البرامج التلفزيونية وتأثيرها الاجتماعى فى الولايات المتحدة تكيفها المساندة المالية للإعلانات التى تقدمها الشركات الكبيرة . ويعتبر هذا النظام ذاتيا للمساندة بمعنى أن التلفزيون يقوم بتسهيل إيجاد سوق محلى متجاسس ، وهذا بدوره يقوم بتوجيه البرامج التلفزيونية . والعلاقة بين التكنولوجيا والنظم الاجتماعية فى مجال الاعلام والمواصلات وثيقة ولا يمكن فصلها ، كما لا يمكن النظر الى التكنولوجيا على أساس أنها متغير مستقل تعتمد عليه البرامج والاستخدامات . فالتكنولوجيا تخلق بعض المجالات للتأثير على تطور نظم المساندة المالية ، ولكن هذه النظم بدورها تحدد نوع التكنولوجيا التى يختارها المجتمع .

وفى بقاء وتطور نظم المساندة المالية ما يؤكد أن النظام التكنولوجى يتضمن قدرا كبيرا من التقويم التكنولوجى . ومن الخطر اعتبار التكنولوجيا «متغيرا مستقلا» واعتبار التطور التكنولوجى حتمية يحددها المنطق التكنولوجى وحده ، لا التأثير الخارجى . ولا يمكن تفادى استرجاع الحوادث بالنسبة للاتجاهات التكنولوجية ، اذ انها كالتاريخ ذات جاذبية خاصة . وبالحكمة والفراسة يمكن التعرف على الاتجاهات التى تتحكم فى المستقبل والتفاضى عن باقى الاتجاهات التكنولوجية الأخرى . والتطور التكنولوجى ، كتطور علم الأحياء ، عملية وفيرة ، ولها احتمالات كثيرة ، علاوة على ما يضيفه التطور نفسه من استخدامات .

والمنطق التكنولوجى مثل المواد التكوينية التى تمر من جيل الى جيل ، وإدراكه الوراثى لآثار كثيرا بالبيئة الاجتماعية ، ولكن المجتمع يتدخل عن طريق التحكم فى اتخاذ القرار الذى يحدده المنطق التكنولوجى . ويتحدد الخط التكنولوجى الذى

يتبع يكون المجتمع قد حدد القائمة التكنولوجية التي منها يبدأ التطور المنطقي التالي . وبهذه الطريقة يمكن تحديد المنطق العلمي والتكنولوجي الذي يبدو مستقلا استقلا ذاتيا عند النظر اليه خلال مقياس دقيق بهيكل وآراء المجتمع عند النظر اليه خلال مقياس زمني أطول ومحيط أوسع .

عند ظهور نظرية داروين عن الاختيار الطبيعي كان من الصعب على الناس أن يفهموا كيف أن نظرية الوراثة لانتاثر بالعوامل المحيطة ومع ذلك تتأثر بالعوامل الخارجية . وأغلب الذين يكتبون حاليا عن التكنولوجيا والمجتمع يتجهون الى تطبيق نظرية الوراثة على التطور الثقافي ، ويعتقدون أن المجتمع لا يؤثر في التكنولوجيا الا اذا تحكم مباشرة في تطورها ، غير مدركين كيف أن الطرق الثقافية المستقلة مثل العلوم والتكنولوجيا تطبق على الظروف الاجتماعية المحيطة بسبب استخدام نظرية التطور .

ويتضح أن الاستقلال الظاهري للتكنولوجيا يكون حادا خلال الفترة التي تمر فيها الظروف المحيطة بتغيرات سريعة . وبما أن التكنولوجيا هي عملية تطوير طويلة الأمد فانها لا تتشبع مع القيم والتوقعات الجديدة لانها في الحقيقة بعثت خلال جو مختلف من القيم والآراء .

ومما سبق يتضح أن «التقويم التكنولوجي» هو وسيلة ثقافية وسياسية جماعية لاكتشاف وتقويم واقرار أنسب الحلول التي تتيحها التكنولوجيا ، بما في ذلك التكنولوجيا التي مستطوره وتستخدم وتنتشر .

ومع أنه يمكن تحليل نتائج الاختيارات التكنولوجية المختلفة فانه لا يوجد أساس علمي ملموس يستند اليه القرار النهائي . واتخاذ القرارات عملية سياسية تعتمد على طرق تبادلية معقدة وعلى مفاضلات بين مصالح وقيم اقتصادية وسياسية وعقائدية متضاربة ، وتتضمن عوامل المفاضلة ما يتم الوصول اليه بالمناقشة ، بالإضافة الى المصالح والقيم المتضاربة . وعلى سبيل المثال فان سبب معارضة الكثيرين لوسيلة النقل بالطائرات التي تفوق سرعة الصوت يرجع بصفة أساسية الى أنه رمز للتكنولوجيا المطلقة ، لا لتأثيره على الظروف المحيطة أو للامكانيات الاقتصادية . ومما لا شك فيه أن الضغوط لخلق أدوات تقويم التكنولوجيا ترجع الى توقعات غير صحيحة بأن آراء الخبراء وحدها يمكنها تحليل الاختيارات الصعبة . ويعتبر التحليل العلمي للمعوس في النظام الأمريكي وسيلة جذابة لتفنين الاتفاقات السياسية العامة، ولتفادي النقد الذي يقدم على هيئة خبرة ، والذي يمثل غالبا مجموعة مختلفة من المقترحات بالإضافة الى الاقتراح السائد .

ولا ينبغي الإقلال من قيمة التحليل على أساس أن الاختيار النهائي عملية سياسية ، فالتحليل يوضح الصلة بين القيم ويكشف التناقضات والاختلافات الأساسية بين القيم ، كما يوضح أن التعارض في المصالح بين الجماعات وهمي ، وأن هناك بعض السياسات يمكن أن تستفيد منها مجموعتان ، مصالحهما متعارضة .

وبإظهار التكاليف المتعلقة بالاختيارات المتخلفة يمكن للتقويم التكنولوجي ان يقود الناس الى إعادة التفكير في قيمة الاهتمامات التي تخصهم . وقد تقاوم بعض المجموعات - بدرجات متفاوتة - الجهود لتحسين البيئة وفقا للتكاليف التي تتحملها الحرية الشخصية أو التنمية الاقتصادية ، ولكن تمسك هذه المجموعات يقل بمجرد اكتشافها للشئ الاجتماعي الحقيقي لبعض القيم والاختيارات عند تحليلها . وقد يظهر التحليل أن بعض الاختيارات التي تعتبر قيما تتحول الى تنبؤات متخفية تتعلق بقيم أساسية أكثر أهمية ، وعلى ذلك فالتمييز بين القيم والحقائق نسبي الى حد ما ، ويتوقف على مستوى المعرفة ، وكلما تقدمت المعرفة امكن تطبيق عدد كبير من الاختيارات على عدد قليل من القيم الواسعة الانتشار . والواقع ان هذا الأمل الأخير يبرر أهمية القيمة السياسية للتقويم التكنولوجي .

ويمكن في بعض الحالات استبدال «التقويم التكنولوجي» بتقويم «الهدف من التكنولوجيا» ، اذ قد يؤدي ذلك الى اكتشاف أن الهدف الأساسي يتعارض مع أهداف أكثر أهمية للمجتمع . ولذلك فمما هو أكثر فائدة التحدث عن «تقويم المشاكل» بدلا من «التقويم التكنولوجي» . ويوصى «التقويم التكنولوجي» بالبدء من تكنولوجيا محددة ، تكون غالبا تكنولوجيا جديدة ، ثم محاولة استكشاف أكبر مجموعة من الوسائل لمقابلة هذه الحاجة أو لحل تلك المشكلة . وقد يكون تقويم نتائج التكنولوجيا البديلة جزءا من الطريقة ، ولكن بعض هذه التكنولوجيات لا يكون في حاجة الى تقويم لأنه غير مناسب لكي يتخذ سبيلا لحل المشكلة . وبالإضافة الى ذلك لا تخلو عملية تقويم المشاكل من العوائق لأن المشاكل تعرف بأهدافها الرئيسية ، في حين أنه قد ينتج عن حلها آثار ثانوية لأهداف أخرى . واختيار الحلول للمشاكل قد يؤدي الى مكاسب أو أضرار للمجموعات الاجتماعية المختلفة ، بما في ذلك بعض المجموعات التي لا صلة لها بعملية التقويم .

ويعتبر الحجم أحد العناصر المهمة في التقويم التكنولوجي ، اذ قد يكون معدل الزيادة في التأثير الاجتماعي أو البيئي لاستخدام التكنولوجيا أكبر بكثير من معدل الزيادة في حجم استخداماتها .

وإذا نحينا مؤقتا المسائل المتعلقة بتكنولوجيا الحرب فسيصبح لنا أن أسباب البدء في استخدام أي تكنولوجيا هو أنها تؤدي منفعة لبعض الأشخاص بتكاليف أقل بالنسبة للأشخاص الآخرين . وكثيرا مانسى أن فساد الجو الذي تحدثه السيارات بالنسبة لنقل الركاب الواحد مسافة ميل واحد يقل عما تحدثه الخيل ، وأن الأراضي الزراعية التي تحتاج اليها السكك الحديدية بالنسبة لنقل عدد من الركاب مسافة ميل واحد أقل من الأراضي اللازم تخصيصها لأمداد الخيل الفداء لتقوم بنقل هذا العدد من الركاب هذه المسافة .

وتعتبر أزمة النقل مثلا للأضرار الناجمة عن الزيادة السريعة في عدد الركاب بالنسبة لعدد السيارات وعلى ذلك يمكن اعتبار أن عددا كبيرا من التأثير الجانبي

الضرر للتكنولوجيا هو نتيجة لتجاوز استخدام هذه التكنولوجيا من الحد المقرر لها، وعليه يجب تحسين التكنولوجيا وتغييرها واستبدالها أو تعديلها كلما زاد حجم استخداماتها . فكلما زاد استخدام السيارات أصبحت في حاجة الى طرق حديثة ونظم دقيقة للتحكم في المرور ، وكلما زاد استخدام الطائرات كانت الحاجة اكبر الى المطارات والى نظام للتحكم الجوى والتحكم في الاقلاع والهبوط والى تخفيض الصوت الناتج عن المحركات النفاثة والى التوقيت العلمى لتحرك الطائرات . ومن ذلك يتضح ان الأضرار الناجمة عن استخدام التكنولوجيا ليست نتيجة للتكنولوجيا الجديدة أو التقدم التكنولوجى ، ولكن سببها هو الحاح التكنولوجيا القديمة التى أصبح حجم استخداماتها يفوق امكانياتها ، أو سببها هو التخلف في تطوير التكنولوجيات المساعدة لها .

وإذا نضج نوع من التكنولوجيا فانه يصبح متجانسا واقل استعدادا للتغيير أو التبدل ، ويؤدى نجاحه هذا الى تجميده فى قالب يمليه عليه الخوف من الانحراف عن النمط الناجح ، والخوف من القاء أعباء جديدة على التمويل أو على هيكل التسويق .

خلال المراحل الأولى لاستخدام أى تكنولوجيا جديدة تظهر احتمالات واختيارات كثيرة ، وتتنافس الوحدات الصغيرة ، كل منها بساند نوعا مختلفا من التكنولوجيا الأساسية ، وكل منها يحاول أن يسيطر على المجال ، ثم يبدأ بالتدرج أحد الأنواع فى النجاح . وعلى الفور يقوم الحجم الاقتصادى للإنتاج والتسويق بمساعدته ضد الاختيارات المنافسة . ويضيق مجال الاختيارات التكنولوجية التى تستحق الاهتمام ، وتتجه الأبحاث الى تحسين الإنتاج الحدى ، أو الى تحسين جودة الإنتاج ، ويعتبر التوسع فى الاستخدامات قضية مسلما بها . ثم تقوم التكنولوجيا الجديدة ونظم المساندة المالية المتعلقة بها خلال نجاحها بتكوين نظام اجتماعى قائم بذاته ، يزيد فى النمو باستمرار ، ويصبح غير قابل للتكيف مع التغيير الذى يوجبه نجاحه .

وهناك عدة ردود فعل محتملة للحالة السابق توضيحها . التقويم التكنولوجى هو احد هذه الحالات . وفى هذه الحالة يكون هدفه هو توقع النتائج الناجمة عن الاستخدامات المتزايدة ، واجراء البحوث ، ومراقبة النتائج المتعلقة بها ، واستخدامها كدافع نحو التطوير المستمر . بعض ذلك يمكن أن يتم قبل استخدام التكنولوجيا الجديدة ، ولكن من النادر أن يكون التحليل أو التنبؤ دقيقا بالدرجة التى تمكننا من توقع نتائج الاستخدامات الكبيرة لهذه التكنولوجيا مقدما ، وعلى ذلك فان التقويم التكنولوجى يجب أن يكون اقل اهتماما أو تعلقا بالتكنولوجيا الجديدة ، وأن يكون أكثر اهتماما بمراقبة نتائج التكنولوجيا القائمة لمحاولة دفعها نحو التطور المناسب للتغير فى حجم التشغيل بالإضافة الى التغيير المحتمل فى المجتمع .

تعتبر المساهمة العامة احدى دعام الإدارة الاجتماعية والتحكم فى التكنولوجيا،



وهي تتعلق بالتكنولوجيات التي تعتمد على التمويل العام مثل الطاقة الذرية ، ويمكن القول بأن المساهمة العامة في اتخاذ قرار بالنسبة للتكنولوجيا يتم عن طريق السوق ، فالجمهور يدلي بصوته عن طريق محفظة نقوده ، وهو يكافئ الذين يخترعون وينتجون التكنولوجيا التي يحتاج إليها . وقد يفير الاعلان مايمتد المستهلك أنه يريده ، ولو اني اعتقد أن تأثير الاعلان على الخليط التكنولوجي المطلوب هو تأثير مغالى فيه . وقد يؤثر الاعلان في الاختيار بين الطرازات المتباينة والتصميمات المتعلقة بسلع تكنولوجية أساسية مثل السيارات ، ولكني أشك في أنه يؤثر في حاجة الجمهور الى سلعة ذات مواصفات محددة .

وقد يحجب الانتاج الاقتصادي لنوع من التكنولوجيا عن بعض طبقات المستهلكين التكنولوجيات الأخرى التي تفيدها والتي ليس لها سوق كبير . واستبدال النقل العام بالسيارات الخاصة هو مثال لهذه الظاهرة ، إذ أن اقتصاديات النقل العام بالمدن تتأثر بحجم التشغيل ، وهي وسيلة مهمة جداً لتوصيل طبقة العمال ذات الدخل المنخفض الى مكان عملها ، ولكن هذه المجموعات من العمال ليست سوقاً كافياً وفقاً للقواعد الاقتصادية لتبرير الاستثمار في النقل العام ، وتؤدي السيارات الخاصة المتاحة للطبقة القادرة الى تسرب الجمهور الذي يمكنه أن يجعل النقل العام قادراً على الصمود الاقتصادي .

وفي مجال الاختيار الحكومي تقدم التكنولوجيا للجمهور على أساس القبول أو الرفض ، لا على أساس تحليل منطقي للبدائل مع توضيح تكاليف كل بديل ونفعه للمجموعات المختلفة ، وبدون القرار في هذه الحالة ذا هدف علمي ظاهرياً ، ولكنه في الواقع يخفي القيمة المستقرة للنتائج .

وإذا قدمت نتائج الاختيارات التكنولوجية للجمهور فقد لا يختار الخطوط المحددة للتطور الذي تم في بعض التكنولوجيات مثل الطيران والمفاعلات الذرية والسيارات والتلفزيون . ولكن السؤال الذي يجب طرحه هو : من كان له القدرة على التنبؤ بنتائج الاختبارات التي عرضت منذ عشرين عاماً ؟ أو : هل كان لأي شخص أن يصدق التنبؤات حتى لو كانت صادقة ؟ ويشعر المدافعون عن مساهمة الجمهور في اتخاذ القرارات أنه إذا أعطى الجمهور معلومات كافية فإنه سيتوصل الى اتفاق عام على التكنولوجيا التي يحتاج إليها أو التي يريدها ، وعلى التكنولوجيا التي يرفضها أو التي يستغنى عنها . وهذا يبدو كامل غير واقعي ، إذ يحتمل في حالة المساهمة في الاختيار أن تستغل المجموعة المعارضة حق الفيتو ضد التكنولوجيا المعروضة ، بفض النظر عن المنافع والقيم الأخرى .

ومما يؤسف له أن جميع السياسات ، بما في ذلك المتعلق منها بالتكنولوجيا ، تحتاج الى مقياس للتماسك والاستمرار بين الأهداف ، الأمر الذي يصعب المحافظة عليه بديمقراطية المساهمة في اتخاذ القرارات ، وتكون القرارات التكنولوجية

والاجتماعية شبكة معقدة من العمليات المتداخلة . وتستطيع المجموعة التي تعارض قرارا ما أن تتجاهل كل شيء فيما عدا قيمها وأهدافها ، لأنها لا تتحمل مسئولية حل المشكلة أو إيجاد بدائل لها . ولا يهتم المجموعة المحلية التي تعارض اقامة محطة لتوليد الكهرباء أو طريق رئيسي أو مطار أن المجتمع عامة في حاجة الى هذه الخدمات ، ويمكن لهذه المجموعة أن ترفض أهمية أو قيمة أو أفضلية على اختيار ما بدون موازنته بالاختيارات الأخرى . وقد لا تكون الحالة خطيرة اذا كان الاخفاق في استخدام التكنولوجيا أو تطويرها غير ضار ، ولكن الأمر كما سبق أن اشرت ليس كذلك .

ويحتاج الأمر الى عبقرية سياسية للتوفيق بين الرغبة الشرعية لمشاركة الجمهور وبين الاحتياجات المعقولة لمجموعة مختلفة من المصالح المتضاربة التي تتأثر بالقرار .

ومن المتعذر توعية الجمهور بالنسبة لجميع الاختيارات ، وهناك خطورة طبيعية تنتج عن المشاركة الرائدة ، فقد تميل الكفة نحو مصالح محددة متعلقة بالبيئة أو بالتكنولوجيا ، بدون محاولة موازنة جميع المصالح الأخرى التي تتأثر . هذه حالة لا يمكن حلها حلا كاملا ، ولكنها عرضة لأن تمر بدورات من ضرورة اتخاذ القرارات بواسطة المشاركة ضد اتخاذ القرارات بواسطة الخبراء . وقد نتج عن تأكيد اتخاذ القرارات بواسطة المشاركة في الولايات المتحدة نوع من المعارضة الشديدة من جانبها الذين لم تقدر آراؤهم ، ويبدو أن هناك ميلا نحو الاتجاه الآخر .

وليس من الممكن تحديد التوازن الأمثل بين المشاركة في اتخاذ القرارات وبين اتخاذ القرارات بواسطة الخبراء ، وهذا أحد أسباب الخلافات السياسية ، وسيحل في النهاية بطريقة سياسية . وسيؤدي شلل اتخاذ القرارات عن طريق المشاركة الى العودة الى الخاصة المثقفة مع المطالبة بالنتائج وفقا للقيم الاجتماعية . وفي النهاية سيصبح التأثير على بعض التوقعات الاجتماعية واضحا بدرجة أن يعود عدم الثقة بالخبراء ، وتقوم موجة أخرى من المطالبة بالمشاركة ، الى أن تؤدي معارضة المصالح الاجتماعية المختلفة الى العودة الى الخبراء .

وستكون وظيفة التقييم التكنولوجي في هذه الطريقة الدورية هي امتصاص حدة اللبذبات الناجمة عن التغيير في حجم استخدام التكنولوجيا وتوقعات المجموعات الاجتماعية المختلفة ، حتى لا يتذبذب النظام كثيرا قبل أن تتدخل القوى التعويضية .

هذه النظرة الى عملية التقييم التكنولوجي تجعل واجب هذا التقييم ميسرا ، لأنه ليس على التقييم أن يتوقع كل نتائج التكنولوجيا المحتملة وإنما عليه أن يتفوق على الأدوات المستعملة حاليا .

وعلى سبيل المثال يمكن تلخيص العوامل التي يلزم أخذها في الاعتبار عند النظر في بناء ناطحات السحاب لاستخدامها كمساكن للجمهور فيما يلي :

- ١ - توجد علاقة مهمة بين ارتفاع المبني والموقع ، ولذلك يلزم مراعاة الدقة في الاختيار للمحافظة على هذه العلاقة .
- ٢ - ارتفاع المباني يتناقض مع البيئة المحيطة ، فهو يؤثر على الضوء والرطوبة والتهوية والتربة ، ولذلك يلزم بحث نتائج اقامة المباني المرتفعة على الاماكن المحيطة بها .
- ٣ - يلزم اخذ المضار المحتمل حدوثها في الاعتبار .
- ٤ - يجب مراعاة المرونة في الاستخدام وفي اماكن مسايرة متطلبات السكان المتنوعة .
- ٥ - يجب الوصول الى وسيلة لتخفيض استهلاك الكهرباء والمياه والتصرف في المخلفات .
- ٦ - يجب الاهتمام بالخدمات المشتركة بين السكان .
- ٧ - ونظرا لانه من الممكن ان تصبح المباني المرتفعة مملة فيجب عند تصميمها مراعاة خلق جو بهيج وغنى بالمناظر المتنوعة .
- ٨ - بما انه من الممكن تطبيق عدة تكنولوجيات في اقامة المباني العالية فانه من الانسب استغلال جميع التكنولوجيات الممكنة .

# الترشيح الأكاديمي للسياسة

يحمل عنواني القصير مدلوله ، ذلك لأنني لا أدعي أن هناك ترشيحا في السياسة . كما أنه لا يعني زوال أو انقضاء الاعتقاد في أي فكرة حول الدم أو الشوك والعظام والمصير الكامل . وهي أفكار لا يبدو أن أحدها كان أساسا قامت عليه يوتوبيات أفلاطون وماركس وماركيوز المجردة . فيوتوبيات كثير من الفلاسفة والعلماء والقديسين والدارسين كانت ذوات طابع مجرد حافل بالحزن والالم والموت ، ذلك أن الوقائع الأخلاقية مرفوضة في طبقاتنا ، وأن لم تكن كذلك في حياتنا . طابع يسمو على الفكر أن لم يكن أيضا متعاليا على الواقع .

ولحسن الحظ وسونه - في وقت واحد - ليست هناك حكومة في التاريخ كانت يوتوبية ، وبالتأكيد أيضا لا تعد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كذلك . وإذا كانت مهمة الأكاديمية أن تكون في طابعها ( ونحن نعلم كم من الأساتذة مقصرون في السنوات الأخيرة ) ، فإن مهمة الحكومة أن تحكم مادام هناك أناس يحكمون ) ، ولكي تحكم لا يكفي أن تقوم بهذا من خلال أساليب القوة ، ولكن أيضا أن تفي بالضرورات والخدمات الأساسية .

والعمل الأكاديمي واحد من الضرورات والخدمات ، حتى يتم دعم خدمات

---

رؤيا متفحة لمقال قدم في اجتماع الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٧٠ ، حول

» الأكاديمية والسياسة « -

## بقلم : هارولد أورلانس

زميل أول في معهد بروكجس للدراسات الحكومية بـوشطن  
له عدد من الكتب والمقالات في السياسة العلمية والبحوث  
الاجتماعية وموضوعات أخرى . ومن أحدث مؤلفاته الأبحاث  
الاجتماعية التي ترعاها الحكومة ، ومعهد البحوث فيما  
لا يحق ربحا ( ١٩٧٢ ) .

## ترجمة : الدكتور أحمد الخشاب

« لقد انتقل الأستاذ الدكتور أحمد الخشاب الى رحمة الله  
بعد أن ترجم هذا المقال فكانت العبارة العلمية فيه فائدة  
لقد شغل منصب أستاذ قسم الاجتماع بكلية الآداب ، وتولى  
منصب وكيل الكلية حتى توفاه الله . وللأسف أعماله وآثاره  
العلمية مما سيحفظها له السجل العلمي . رحمه الله » .

الحكومة له في الولايات المتحدة، فهذا يعنى ممارسة الحكومة لقدرة واضح من  
التأثير عليه ( كالتأثير على هيئة أفرادها ، ومشرفيه ، والمواطنين المعنيين ) ، وعلى  
شئون كثير من الهيئات ، كمكتب التعليم ، وخدمة الصحة العامة ، وهيئة الدعم  
القومى للعلم ، واجتماعات الكونجرس . وبالطبع، نظرا لاهتمام الرجال الأكاديميين  
بمصالح الدولة ومصالحهم فهم يهتمون بالمستويات العليا للفروع والتخصصات ،  
وكذلك بالمستويات الحكومية ، ومن ثم يلقى اهتمامهم هذا في معظم الأحيان قبولا  
من قبل الجهاز الفيدرالى ، وفى بعض الأحيان قليلا من المقاومة . ولهذا يستغل  
التعليم الأكاديمى وكذلك البحث الأكاديمى استغلالا سريعا من قبل الحكومة  
والكروع الأكاديمية الأخرى ، كالمناهج والأفكار واللفة المتأصلة فى الأكاديمية ، التى  
تقوم بفترات ملحوظة على بيروقراطية الحكومة .

وبقليل من الملاحظة ، والنظرة المتأنية للعلوم الاجتماعية ، نجد أن حوالى  
ثمانية آلاف شخص من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية قد وظفتهم الوكالات الفيدرالية  
والحكومة فى الولايات المتحدة ، وتنفق عليهم وعلى بحوثهم حوالى ٣٠٠ مليون دولار  
سنويا منها ١٢٠ مليوناً للجامعات . ويوجد خلال العقد الأخير تأثير واضح  
وملموس للبحث الأكاديمى ، على مجالات الاقتصاد وشئون الدفاع والصحة العقلية

والتعليم والفقر والرغابية ، وحديثا جدا لقيت مجالات الجريمة والعنف قدرا من الاجتنام . وهناك قليل من المجالات والمبادئ الاجتماعية لم يقترب الدعم الحكومى بعد من بحوثه . ولم يصف أى من هذا أو كله مجتمعنا شيئا الى سيطرة الحكومة على الوسط الأكاديمى والفكرى ، ولكن هذا الوسط هو الذى يقدم بعض الملاحظات الناقدة القيمة للحكومة .

وفيما سبق استخدمت بعض الهيئات رجل قانون ، أو مؤرخا أو مجرد ادارى خبير لتحليل احدى العمليات أو مشكلة سياسية ، لوضع سلوك بديل لها . أما الآن فمازال بعض الرجال يستخدمون فى الوكالات ، ولكن هؤلاء يعتمدون فى بعض ما يوكل اليهم على العلوم الاجتماعية ، ويقوم الاقتصادى أو عالم السياسة أو القائم بالبحث بتحديد المهمة .

ان أسلوب تفكير العلم الاجتماعى والتعبير المعقد فى لغته المنهجية والتعميمية وغير الشخصية والحدثة يقابل من قبل البيروقراطية بشئ من التعجب . فلغة البحث الاجتماعى واجراءاته واساليبه السلوكية والكمية واجراءاته البيروقراطية المطولة والانتكال تلقى هى الأخرى بطبيعة الحال مثل هذه الدهشة ، وكل من التفكير والتعبير يحاول توضيح المسائل السابقة تفصيلا ، ويحاولان ترتيب الأشخاص والوقائع ترتيبا عقليا بتجميعهم فى فئات يمكن علاجها مكتيبا ومن خلال الآلات الحاسبة ، وكلاهما يحاول تجاهل العاطفة والفردية أو يعزلها ، مرة بقصد مناشدة الحقيقة التى تبقى غير واقعية الى حد ما ، ومرة أخرى من أجل كفاءة وسلامة العمليات التى تبقى مع ذلك ساذجة وغير كاملة .

وبالإضافة الى ذلك يبدو ان العلماء الاجتماعيين ، فى بحثهم عن الحقيقة الثابتة ، يتبنون بل يلجأون الى الأساليب التى يستخدمها البيروقراطيون ، يفرضهم قدرا من النظام المطول فى التنبؤ واستنباط الحقائق على أشياء قومية بسيطة . وكما تعتمد الحكومة فى الحفاظ على النظام العام ، بمناشدتها طاعة السلطة ، والقبول الطوعى ، والأوامر الإلزامية ، وضوابط السلوك ، كذلك أيضا تستند المعرفة العلمية الاجتماعية الى موضوعات مطيعة لها ، واستجابات أمينة مفروضة ، وقبول طوعى أو قسرى ، لتصنيف هذه الموضوعات فى فئات يضعها المحلل . ويتبدى النظام الفكرى أو الضبط المتأصل فى البحث عن قوانين السلوك أكثر وضوحا فى الإجراءات التجريبية ، التى تمثل ملجأ للطاعة أو القوة . وبذلك تظل الملاحظات والاقتباسات محافظة على معانيها الدارجة والمهنية .

ويمكن لنا تقديم تفسير تاريخى ملائم لنمو العلم الاجتماعى واستغلاله فى الولايات المتحدة وفى غيرها من البلدان . والذى لا شك فيه ان هناك عدة تفسيرات تبدو ضرورية لهذا ، لان هذه النظم الفكرية تخدم أغراضا عديدة ، وتقدم معرفة أصيلة ، وأيضا ايدولوجية أصيلة ، على أن الحاجة الى هذه العلوم تختلف وفقا لدرجة التعليم والتصنيع والاتجاه التقليدى فى أى دولة من الدول ، فالتأريخ

للعلوم الاجتماعية يوضح ازدياد احترامها ، بعد تجاهلها في الماضي ، بسبب اتجاه المجتمع الى العلمانية وانتشار التعليم انتشارا كبيرا واسعا ، ولقد تأثر منظور هذه العلوم الاجتماعية - سواء في مضمونها أو حجمها أو تأثيرها - بسياسة كل دولة وتنظيمها الاجتماعي والثقافي وتقاليدها . ويعزى نموها الكبير نسبيا من قبل الحكومة الأمريكية في جانب منه الى افتتاح ومرونة الخدمة المدنية الأمريكية ، ويعزى في جانب آخر الى تفاؤل الأمريكيين وميلهم نحو التقدم والعلم والعقلانية والبرجماتية والليبرالية ، ومثال هذه الرغبة في زيادة السعادة الانسانية عن طريق الإصلاح السياسي والاجتماعي .

هل أساطير وحقائق علم الاجتماع والاقتصاديات بإمكانها مساعدة المجتمع الحديث ودعمه في الوقت الذي لا تقوى فيه النظم الكلاسيكية والكنسية على الوفاء بهذا ؟ هذا ممكن ، وغير ممكن ، لأن هناك نزعة محافظة بجانب راديكالية ، وبالمثل باتجاهات ساذجة ، لأن هناك عقولا متمصبة ، وهناك صانعوا الأساطير والخرافات ، وهناك ايضا قتلة الأساطير في هذه الميادين . ولعل المشكلة والاضطراب يأتيان من انه ليس هناك من يستطيع أن يقرر بدقة ما هي الحقائق وما هي الأساطير التي تستطيع أن تساعد على الحفاظ على المجتمع أو تحطمه ؟

واذا نظر الى الأمر رقميا وعدديا نجد أن النظرة السياسية السائدة لدى العلماء الاجتماعيين الأمريكيين هي نظرة ليبرالية ديمقراطية ، مع وجود قدر من الأقليات المحافظة والراديكالية فيما بين هؤلاء العلماء ، ولكن هذا لا يقوم قياسا دقيقا منضبطا لنظرة أولئك العلماء الذين توظفهم الحكومة ، والذين يفيدون من الدعم الحكومي للبحث العلمي . ومن قبيل الاحتمال فان الاتجاه الراديكالي العرضي غير ممثل ، أو يراعى قليلا في البحوث الأساسية ، في الوقت الذي تلقى فيه القوى المحافظة والليبرالية دعما قويا من خلال الإدارات المحافظة ، ( أو بمباراة أخرى تمارس كل إدارة من الإدارات قوى من القوة السياسية تشابه الطيف ) . وإيا كان الأمر فان اللون السياسي لإدارة معينة وتسييس الخدمة المدنية وادخال بعض الأبعاد السياسية الأكاديمية منذ ١٩٦٠ والبقاء على خصائص تنظيمات التعاقد من أجل البحث ، كل هذا ساعد على إعطاء طبقة مغلقة سياسيا تنكفئ بالبحث الحكومي . وذلك لاختيار العنصر الفني في هذا البحث ومعادلة الأبعاد السياسية بالسياسات التشريعية أو المركزية أو بالقوة غير الصادية للتشويش التي أمدت البيروقراطيين والعلماء الاجتماعيين بنوع من التلون السياسي المصون .

ولو كان هناك شخص مريض مرضه طبيبان فهذا المريض هو مجتمعنا ، فانه سوف يشفيه لا العلماء الاجتماعيون . فالسرب والحشد الذي يشبه القزم حزل مضجع جاليفر ينخز ويدفع الجسد العضوي ، مريضا أو سويا ، وبعد ذلك يفشل في سير غوره كله . ووفقا لتطور العلماء الاجتماعيين لمنهج للملاحظة والفهم نابذة ودقيقة فان نسق المعرفة الذي يتم الوصول اليه يقدم لنا علما يتعلق

بالاجزاء ، بالمكونات لا بالكل ، علما حول العموميات لا الخصوصية ، والنظام لا التغيير ، والتكرار لا التجديد ، وحول الأمن لا حول اليوم ، وهم لا يلمون بدقة بالاحكام والوقائع والخطأ والافصال والتصرفات التلقائية والوقائع الاصلية الجوهرية . كما ان هؤلاء العلماء لا يهتمون بالأصل ، وانما بالطوارئ والمصطنع ، ولا يلمون بكل نشاط الافراد والتاريخ . والعلماء الاجتماعيون باستثناء علماء الاقتصاد يهتمون بأشياء متواضعة وبالبيروقراطية الروتينية ، وتلك اشياء أحرزوا فيها نجاحا أكثر من نجاحهم في مجال بحوث الحكومة ، حيث يكون النجاح معتمدا على الدور السريع والفني للقوى المتنقلة .

والواطن السوسيولوجي الجيد هو الذي ينجز عمله بقدر من السواء ، شأنه في ذلك شأن الطالب ، لأن هذا السوسيولوجي يتعمق بناء على قواعد سوسيولوجية ومن السهل علينا الزج بقواعد معينة - يحوى كل كتاب من كتب علم الاجتماع مئات منها - تكون بمثابة تفسيرات وإيضاحات زائدة لكيفية وسبب حدوث وظائف المجتمع . ولكن هذه القواعد الزائدة يجب ان لا تتناقض مع الواقع الفعلي ، كما ان التفسير التعميمي يجب ان لا يتناقض او يتعارض مع المحدد ، وكذلك يجب ان لا يتعارض المعروف والمعلوم مع غير المعلوم ، كم هو شيء غريب ان يكون المستقبل غير معلوم او غير معروف ، والماضي هو وحده القابل للتفسير . ! . فبعد تفسير الباحث للواقعة يبدو التفسير كالنبوءة ، حيث يكون من السهل توضيح ان الذي حدث قد حدث ، لأسباب تكون معلومة لدى الدارس لا لدى الفاعل ، فلكثير من الأغراض الفكرية تحدد معاني ومدلولات الوقائع ، حتى ولو كانت هذه التحديدات غاية من حيث هي ، ومن ثم يكون هناك نمو من الفخر والتعالى في القيام بذلك ، لأن تقبل تفسير فعل الانسان ببساطة يعنى ان هذا الانسان بدوره يقوم بدور الملحن للمفكر . فالتاريخ الحقيقي بمثابة ملجأ في حالة عدم التيقن . والعالم الاجتماعى الحقيقي يمكن ان يكون متواضعا ، لأن لديه ما يكفيه مما يجعله كذلك .

ان المثقف المتبحر الذى يعلن ثقته في اجابته ، برغم تغير الحياة اليومية من حوله ، هو اكثر فائدة للحكومة وان لم يكن اكثر قربا من القادة السياسيين في سلوكهم . وبالنظر الى الدولة ومكوناتها فان قادتها يجب ان يظهروا في ثوب الواثقين والعارفين امام الجماهير . اننى لا أعرف ما الذى يجعل اعضاء مجالس الشيوخ ووزراء الخزانة يتجاسرون على الإدلاء به للصحف ؟ وكيف يفعل الأستاذ في قاعة الدرس ؟ وما الذى يقوله كل انسان أمين لنفسه ؟ اننى لا أعرف ذلك . !!



أن رجال الإحصاء يقومون ببيانات بدونها لا يتمكن الحاسب الآلى والمخطوطون والاقتصاديون والوزراء أن يقوموا بعملهم ، فالحكومة لا يمكن أن تدير والسياسة لا يمكن أن تصنع بدون رجال الإحصاء ، ولكن رجال الإحصاء نفسه أكثر تواضعا من أن يصنع السياسة . فعقل الإحصائي لا يتحرك بترابته عندما ينظر للوقائع الكثيرة ، في حين أن السياسة تصنع بتحديد قليل من العوامل التي تكون أكثر وزنا . وإذا كان العلماء الاجتماعيون لا يقدمون عوامل قليلة وأكثر وزنا حول جوهر طبيعة العلم الاجتماعى ، والتفسير التاريخى في جملته ، فمن إذن يكون له التأثير الكبير على بناء النظام العظيم ؟

اننى لا أود فى هذا الصدد الاطّباب فى أوجه الشبه بين المفكرين العظماء والمعادين أو بين المثقفين والأكاديميين . فهناك اختلافات كبيرة فى المدى والمهابة والاقتناع بين العقول التي من الدرجة الأولى وتلك التي من الدرجة الثانية . لقد ميز كثير من الكتاب بين المثقفين الحقيقيين ( الذين يشبهونهم ) وبين الأكاديميين ، فالمثقفون قد يكونون مفكرين يظهرون الإنكار بسرعة تشابه سرعة الفاهم بالكلمات على الورق (١) ، فى حين أن الأكاديميين رجال ذوو خيال محدود ، وهم يحفظون حياتهم من التعامل مع أفكار الآخرين ، بكميات صغيرة ، ويحيطون الحقائق بكافة ، ويقدمونها الى دارسين هم أيضا ذوو خيال محدود . كيف يمكن تصنيف العلماء الاجتماعيين الأميركيين ؟ هناك قليل منهم يعدون مثقفين ( كماركس وسبنسر وموس Moas وميردل Myrdal ) ، وبعضهم يعدون أكاديميين أو فنيين . وفى تصنيف أكثر تملقا يمكن لهم أن يقوموا بوظيفة التجريبيين ، تاركين التنظير للمثقفين ، ومن وجهة نظرى هناك أنواع من العلماء الأميركيين ، وبعضهم كنية وبعضهم مفكرون ، وبعض منهم لديه أفكار كثيرة ، وبعض آخر لديه أفكار قليلة ، ولكن لو أنهم أميرقيون أمناء ، وليسوا أيديولوجيين أو بيروقراطيين محترفين فسوف يقومون بجهود واضحة للتمييز بين الحقيقة وبين ما يعتقدون فيه ، ولهذا يجب أن يكونوا دائما مستعدين لقبول أنهم على خطأ ، كما يجب أن يعرفوا الشواهد الواقعية التي يحصلون عليها للبرهنة على ذلك . ومع ذلك فبإمكان المرء منا أن يكتفى بمزيج الأفكار والمعتقدات والحقائق التي تذهب الى أن تنوعات الرجال المحترفين المتخصصين كالمثقفين والدارسين والأكاديميين والعلماء الاجتماعيين قد استطاعوا أن يصلوا الى مكانة مرموقة لدى الحكومة ، أو على الأقل يعملون تحت تماقدها أو بالتعاقد معها .

(١) عندما طلب من برتراند راسل أن يعرف المثقف أجاب بأنه لا يعد نفسه مثقفاً ، انى أظن أن الفكر يمكن تعريفه كمنهض يزعم أن لديه ثقافة وفكر أكثر مما لديه . وأمل أن لا ينطبق هذا التعريف على ..

ودعنى احدد هنا باختصار ماهية ذلك المكان الذى وصلوا اليه لدى الحكومة . اننى اقرب نفسى الى المثقفين الذين يتركز موضوعهم الأساسى فى الانسان والمجتمع ، والذين يخرج عنهم اولئك العلماء والمهندسون الذين يتركز موضوع اهتمامهم فى الطبيعة والتكنولوجيا ، فمند زمن والكتاب والناسخون والمثقفون يؤدون دورا فى الحكومة ، واننى لا اعتقد ان دورهم فى ايامنا اكثر اهمية من ذلك الذى كانوا يؤدونه فيما مضى ( وان كانت درجة تخصصهم ولغتهم قد اعترافا بعض التغير ) ، كما انه لا يمكن القول بأن فهمهم للمجتمع اصبح اكثر فائدة من فهم أسلافهم . والدور الجديد الذى يمكن ملاحظته لهم فى ايامنا هذه هو ان المجتمعات المعاصرة اخطأت حجم عملهم الذى حقق قدرا من النجاح والفائدة انجزها بعض المثقفين ، كما ان كل مجالات نجاحهم المتقدمة وفائدتهم قد رفع من قدر تأثيرهم حتى وصل الى مستوى عال من الفهم وسعة الأفق .

والامر المؤكد ان حجم الكتابات والبيانات المنشورة او غير المنشورة فى ازدياد سريع ، سواء كان هذا الحجم غثا او سمينا ، يتسم بالحياد او غير الحياد ، والمعرفة المفيدة او غير المفيدة . فالغابات وفضلات الطعام والمكتبات والمعامل بمضامينها تسجل لهم مهمة النقلة التى أحدثوها والتى تتعدى قدرة أى انسان . وفى جدهم فى طلب بيان صحيح فى الوقت المناسب خسروا معارك اجتماعية كثيرة وعديدة . وثمة آخرون كانوا وقتيين بشكل جعل تكرارهم ثانيا امرأ نادرا . واذا جئنا امام المعرفة الاجتماعية والبيانات الاجتماعية فيمكن القول بأن هذه المعرفة ليست نهائية وبعضها لا يكاد يعد فى أهميته أهمية جريدة البارحة . وسواء كان النمو عظيما او ناقصا فان العلماء الاجتماعيين توصلوا الى نظام اوفق من البيانات والنتائج الهامة التى ساعدت فى حل المشكلات الاجتماعية الهامة . ونظرا لتغير هذه المشكلات فان النتائج التى يتم التوصل اليها تفقد قيمتها، الأمر الذى يتطلب اعادة دراسة هذه المشكلات بطريقة او بأخرى .

ولعل من الأمثلة الحديثة على مثل هذه الانتصارات القصيرة الحياة فى مجال المعرفة الاجتماعية العلمية تلك التى تتعلق ببروز الاختيارات والقياسات الكمية ، باعتبارها وسائل موضوعية لانتقاء الطلاب ذوى القدرات ، وما يترتب عليها من وجود أنواع معينة من التحيز ناجمة عن السيطرة الثقافية للطبقة الوسطى ، وعن نجاح الاقتصاديات الجديدة التى تمت فى ظل حكم الرئيسين كيندى وجونسون ،

والتي تبدو جميعها الآن كما لو كانت قائمة على ظروف سعيدة محفوظة هدأت من روع التقلبات وهذبت من الظروف الاقتصادية الخشنة . على ان فكرة التوظيف الأنسب فيما يتعلق منها بالامثال والنسق الاجتماعى الذى استند اليه كثير من اتجاهات النظرية الأنثروبولوجية والسوسيولوجية ، وان بدت ملائمة للعقد السادس ، قد فشلت فى مواجهة سنوات التمرد التى تلت ذلك . كم هى مصطنعة تلك النظرية التى لم تستطع أن توضح ، وتتصور القوى المنصهرة فى أعماق المجتمع وكم هم سذج أولئك الدارسون الذين يفكرون فى بساطة الأزمة الاقتصادية والتفكك الاجتماعى والجريمة والقتل والفقر وما الى ذلك ، ويعالجونها من خلال نماذج حسابية الكترونية بالاستناد الى أسئلة متعددة . ما الذى وضعه الله فى أيدينا كينابيع ومظاهر على قوته ؟ وهل هو أخذ على عاتقه عدم تجاوز حدود معرفتنا ؟ لقد سأل ذلك موتنى ، وحتى الرجل الأمين لم يحدد نفسه ويربطها بأن يفعل غدا ما فعله اليوم ، وحتى لو عرف ورغب فهل يستطيع أن يضع فى أيدي طلابه صبر عمله ؟

قد يقال ان العلم أقوى وأمضى من السيف ، ان تلك دعوى براءة ، لأن جراح السيف تبرز كل الوقت فى الوقت الذى لا يمكن فيه ملاحظة وإبل الكلمات التى ترتبط بجمالها وسياقها ، كما أن تأثير الأفكار لا يتلاءم مع حقيقتها وواقعها . لأن الأفكار المتعارضة — كتلك التى تتعلق بالمساواة العنصرية وعدم المساواة العنصرية — قد يكون لها تأثير يتعادل باختلاف الزمان والمكان ، وحتى فى الزمان الواحد والمكان الواحد . فى المنطق فقط لا توجد التناقضات معا ، وأما فى المشاعر فقد توجد معا . لقد أشار فرويد فى إحدى المرات الى أنه لكى تكون الفكرة مؤثرة فهى لا تحتاج الى تصديقها بقدر ما تحتاج الى وجودها فى اليد .

وبالتالى لا جدوى ولا قيمة من استنتاجنا أن زيادة استخدام الحكومة للعلوم الاجتماعية سوف يرفع من ترشيدها وعقلانياتها ، كما لو كنا أكثر مهارة من آبائنا ومن ادارة الرؤساء جونسون ونيكسون ، او أكثر حكمة وتعقلا من ادارة جيفرسون ولينكولن . وهناك ثلاثون تفسيرا وايضاها أخرى يمكن أن تقترب من الحقيقة ، ولكن نظرا لأنها أقل تأثيرا فهى أقل تواترا واطرادا .

ولقد قال ج.ب. مورجان ذات مرة «لكى تخبرنى بكيفية عمل ما أرغب فيه فان ذلك لن يطفى كل استخدامات الحكومة وتوظيفها للعلوم الاجتماعية ، لكن ذلك يطفى قدرا لا بأس به» .

فالحكومة الجيدة أو الضعيفة أو الضعيرة ، والسياسات الحصنة ، تقتضي أن نضع في الاعتبار عدة مذكرات تختلط لمئات الحروب التي لم تتم ، ولكي يعهد اليها بأخذ مئتين من الدراسات لكي نحدد أى مائة منها مشفرة ، وأى عشر منها يمكن أن يقع عليها الاختيار ، فهذا امر متروك للارادة لا لحكم العالم الاجتماعى الذى يكتشفه عدوه .

من أى مصدر غير انساني يشتق العالم الاجتماعى منطقته المتعالى الذى يتبدى له أكثر وضوحا من منطق غيره من المواطنين ؟ اليس لهذا العالم يدان وأعضاء ، اليس له أبعاده وأحاسيسه وآلامه ؟ إلا يتغذى بنفس الغذاء ويتنفس ، ويعانى من المرض ، ويشفى ، بنفس الوسائل والأساليب ، ويدفى ويبرد ، بتعرضه للصيف والشتاء ، اليس . هو فى النهاية مواطننا ؟

وإذا كان المنطق قد انتشر انتشارا واسع المدى تحت تأثير العلم ، فلماذا يتناقض شعورنا بالجموع والهدف العام وشرعية السلطة تناقضا كبيرا ؟ هل يتجافى المنطق مع الادراك السليم ؟ وهل هو يخدم كل مصلحة خاصة لا المصلحة المشتركة ؟ انه فقط للتحليل النقدي ، لا للعمل البناء ، أهو مجرد دأع خاص ، أهو فى النهاية أداة للسياسة والانفعال لا لشيء آخر ؟

ان الحقائق الاجتماعية تقرب الالتقاط على مصور شطآن بحر ثائر فيه مياه ضحلة ومد وجزر ، وطقس غير مستقر . ففي العاصفة ليس هناك طريق مأمون للعودة ، وقد توضع السفينة تحت رحمة الطريق أو المرفأ ، فكل شيء يكون بإيجاز عشوائيا . ففي الدعوى تساؤل هل يمكن العالم الاجتماعى أن يقيس الأمور الجارية ، وكذلك بالنسبة للعاصفة يكون التساؤل عن تحديد موقع الصخور القريبة من سطح الماء أو من قاعها ، ان تلك الصخور قد تصدر صوتا كالتنفس ، لكن وضع السفينة وقيمة الخريطة تكون أشياء غير متيقن منها ، وقد لا تكون المائلة بين العالم الاجتماعى وسط الحقائق الجارية وبين السفينة التى تتقاذفها الامواج معانلة ملائمة ، لأن لكل حزب سياسى أساليبه الخاصة وكذلك لكل مدرسة فكرية . ويطقى اللوم عادة على الحزب الآخر ، وبذلك يصبح من الصعب الإشارة الى أن الرحلة المأمونة يرجع امنها الى أحوال البحر وإلى الملاحة ، أو الى حسن الحظ ، ولكن نظرا لأن كل رحلة لاتشبه الاخرى ، فلكل ظروفها ، بالمثل ، ولذلك فان الدولة ككل لا تصل للأمان ، ولكن تحقق نجاحا ومكسبا نسبيا .

وإذا ما تمجّلنا الخلط الذي ندرّكه حول اتجاهنا فإن وظائف العلم الاجتماعي الأكاديمي تصبح كالدين العلماني ، لكننا بكل أمانة وبكل تصور عميق نشير إلى أن مثل ذلك ليس هو القصد والرغبة ، لاننا نرغب في البداية والنهاية أن نعمل كعلماء . لقد كتب دوايت والدو يقول : « ولكن لو أن التفتيت القديم عاد إلى أزمة السلطة ، ألا يمكن هنا أن نقول أن العلم نفسه يقدم دعاوى لاكتساب القرارات صفة شرعية ؟ انه لا يوجد من يستطيع انكار أن العالم الاجتماعي يمكن أن يمارس الدور الاجتماعي الذي كان يقوم به القسيس الروماني الذي كان يقرأ المستقبل من أحشاء الثيران . على الرغم من أن العالم الاجتماعي يقرأ المستقبل من تقرير أو خريطة ، أو حاسب إلكتروني » . على أن العار الذي يمكن أن يلحق بالعالم الاجتماعي ليس هو ذلك الناجم عن تطلعاته ، وإنما هو ذلك النابع من فشله في تحديد مضامين الواقع .

# المؤتمرات الدولية القادمة

Econometric Society : Meeting.

الصيف الصيف

جرينوبل : جمعية الاقتصاد القياسي : اجتماع

Ms C. K. Stiglitz, Econometric Society, Box 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520.

(United States)

Pugwash Conferences on Science and World Affairs. يولية

فرنسا : مؤتمرات «بحوث» عن العلم والشئون العالمية .

Russell Mansions, 60 Great Russel St., London, WC1B 3BE.

---

٥ - ٩ يولية : الاتحاد الدولي لمدارس الخدمة الاجتماعية : المؤتمر الدولي

أديس أبابا : السابع عشر :

Dr. K.A. Kendall, International Association of Schools of Social Work, Inc., 345 East, 46th Street, New York, N.Y., 10017 (United States)

١٤ - ٢٠ يولية : المجلس الدولي للرفاهية الاجتماعية : المؤتمر الدولي

السابع عشر .

نيروبي

Mrs. Kate Katz ki, ICSW, 345 East 46th Street, New York, N.Y. 10017 (United States).

١٥ - ١٩ يولية : جمعية لدراسة الخصب : المؤتمر السنوي

كارديف :

SSF, 1451 Newmarket Road, Cambridge (United Kingdom).

٢٨ يولية - ٢ أغسطس : الاتحاد الدولي لعلم النفس التطبيقي : اجتماع

مونتريال :

Mr. G. Desautels, Secretary General, 242, Staton Youville, Montreal, Quebec (Canada).

أغسطس : الاتحاد الدولي للتاريخ الاقتصادي - المؤتمر السادس  
Professor Dr. J.F. Bergier, Rindemarket 6, 8001,  
Zurich (Switzerland). كوبنهاجن :

٥ - ٩ أغسطس الاتحاد الدولي الانساني والاخلاقي : المؤتمر السادس .  
Oudegracht 152, Utrecht (Netherlands) أمستردام

١٢ - ١٦ أغسطس الجمعية الدولية للتنمية : المؤتمر العالمي السادس .  
أيدجان  
W.P.J. Boichel, International Headquarters, Society for International  
Development, 1346 Connecticut Ave, N.W., Washington, D.C.  
20036, (United States).

١٢ - ١٦ أغسطس علم الاجتماع والطب : المؤتمر الدولي الرابع  
Dr. P.J.M. McEvan, SSM. السينيور :

١٣ - ١٩ أغسطس الاتحاد الفدرالي الدولي لنساء الجامعات : مؤتمر يقم  
كل ثلاث سنوات .

طوكيو IFUW, Case Postale 398, 1211 Geneva 2 (Switzerland).

١٨ - ٢٤ أغسطس الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمي الثامن .  
تورنتو : (الموضوع : علم الاجتماع والثورة في المجتمعات الراهنة)  
ISA, Via Daverio 7, 20122 Milano (Italy).

١٨ - ٣٠ أغسطس الاتحاد العلمي لدول المحيط الهادي : المؤتمر الثالث عشر .  
فانكوفر University of British Columbia, Vancouver 8 (Canada).

١٩ - ٢٠ أغسطس ادارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم  
المتحدة :

نيويورك مؤتمر السكان العالمي الثالث

The Secretary General, World Population Conference, United Nations,  
New York, N.Y., 10017 (United States).

١٩ - ٢٤ أغسطس الاتحاد المجري الاقتصادي : المؤتمر العالمي الرابع  
للاقتصاديين .

بودابست : (الموضوع : التكامل الاقتصادي)  
Hungarian Economic Association.

٢٦ - ٢٩ أغسطس : الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي

منتريال

ASA 1001 Connecticut Ave, N.W., Washington D.C., 20036 (United States).

٢٨ أغسطس - ٢ سبتمبر مؤتمرات «بجواش» عن العلم والشؤون العالمية

Pugwash Conferences on Science and World Affairs, بادن

(الموضوع : نزع السلاح ومشكلات الطاقة ، والتعاون الدولي .

9 Great Russell Mansions, 60 Great Russell Street, London WC1B 3BE  
(United Kingdom).

٣٠ أغسطس - ٣ سبتمبر : الاتحاد الأمريكي لعلم النفس : الاجتماع السنوي

نيو اورلبانز :

Dr. K.B. Little, Exec. Secretary, 1200 17th Street, N.W., Washington  
D.C., 20036 (United States).

---

سبتمبر : جمعية الاقتصاد القياسي : المؤتمر العالمي الثالث

الولايات المتحدة

P.O.Box 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520 (United States).

١ - ٧ سبتمبر معهد اثينا لعلم الانسان : المؤتمر الدولي السادس للطب

العقلي الاجتماعي .

Dr. G. Wassiliou, c/o The Congress Secreariat, اثينا

The Athenian Institute of Anthropol, 8 Demetriou

Douydou Street, Athens 602 (Greece).

٤ - ١٩ سبتمبر : الاتحاد الفدرالي الدولي للوثائق : حلقة دراسية ، ومؤتمر

دولي ، وتداول .

FID Secretariat, 7 Hofweg, The Hague برلين

(Netherlands).

١٧ سبتمبر - ٢٠ ديسمبر : الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الانعقاد التاسع

والعشرون .

United Nations, New York, N.Y., 10017 (United States). نيويورك



٣ - ٤ أكتوبر : المجلس الدولي للبحث في المباني ، دراسات وتوثيق (CIB)  
المؤتمر السادس  
بودابست

Professor Dr. G. Sebestyen, Institute for Building SCI-ETI, Budapest,  
81, David Ferenc U. 6 (Hungary).

٣٠ أكتوبر - ٢ نوفمبر : جمعية علم الشيخوخة - اجتماع سنوي  
بورتلاند

E. Kaskowitz, Executive Director, 1 Dupont Circle, Washington, D.C.,  
20036 (United States).

---

نوفمبر : اجتماع اللجنة الاقتصادية للخبراء ، الخاصة بآسيا والشرق  
الأقصى ، عن الاجراءات الخارجة عن متناول تخطيط الأسرة لتقاص التوالد .  
ECAFE, Sala Sanitham, Bangkok 2 (Thiland). بانكوك

٣ - ٩ نوفمبر : الاتحاد الفدرالى لجمعيات الخصب : المؤتمر العالمى الثامن .  
بيونس ايرس

IFFS, Vicente Lopez, 971, Martinez F.C.N.M., Buenos Aires (Argentina).

٨ نوفمبر : اليوم العالمى لتخطيط المدن : العيد السنوى الخامس والعشرون  
Secretary, WTPD, Ombu, Buenos Aires (Argentina). بيونس ايرس

---

١٦ - ٢٠ ديسمبر :  
Pugwash Conferences on Science and World Affairs. دوبروفنك  
(الموضوع : العلم والأخلاق )

9 Great Russell Mansions, 60 Great Russell Street, London WC1B, 3BE  
(United Kingdom).

---

١٩٧٥  
هنج كنج : المجلس الدولي للرفاهية الاجتماعية : حلقة دراسية اقليمية خاصة  
بآسيا وغرب المحيط الهادى .

Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee ICSW, Ann Black Red Cross  
Building, Harcourt Road, Box 474 (Hong Kong).

يناير - الاتحاد الاشتراكي النيوزيلندي لنقد العلم المؤتمر السادس والاربعون  
كانبرا . Executive Secretary, ANZAAS (?)

---

فبراير - مارس الاتحاد الدولي للجمعيات منظمه السياحة الوطنية اليابانية  
اليابانية المؤتمر الاول عن تنظيم المؤتمر ، في آسيا وجنوب المحيط الهادي  
كيوتو

Département du Congrès de l'UAI, 6, Rue aux Laines, 1000 Bruxelles  
(Belgium).

---

١ - ١٣ مارس : جمعية علم السموم : الاجتماع السنوى العلمى .

وليامزبرج

Dr. R.A. Scale, c/o Med. Res. Division Esso and Co., Linden, New  
Jersey, 07036 (United States).

---

١٦ - ١٩ ابريل : اتحاد سكان امريكا - الاجتماع السنوى

سيتل

PAA, Box 14182, Benjamin Franklin Station, Washington, D.C. 20044,  
(United States).

٢٢ - ٢٧ يونية : الاتحاد الدولي لعلم الشيخوخة ، الجمعية الاسرائيلية لعلم  
الشيخوخة : المؤتمر الدولي العاشر .

تل ابيب

Professor S. Bergman, POB 16271, Tel Aviv (Israel).

---

٢٠ يولية - ١٠ اغسطس : المجلس العالمى للكنائس : الاعتقاد الخامس .

جاكارتا

World Council of Churches.

---

١٨ - ٣٠ اغسطس : الاتحاد العلمى لدول المحيط الهادى : المؤتمر العلمى  
الثالث عشر :

(الموضوع : مستقبل الانسان في دول المحيط الهادى)

فانكوفر

Thirteenth Pacific Science Congress,  
University of British Columbia, Vancouver, (Canada).

٢٥ - ٢٨ أغسطس : الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوي .  
سان فرانسيسكو

1001 Connecticut Ave., N.W., Washington, D.C. 20036 (United States).

---

١٩٧٦

فرنسا : الاتحاد الدولي لعلم النفس : المؤتمر الدولي الحادي والعشرون  
Mme H. Gratio-Alphandery, Laboratoire de Psychologie, Université de  
Paris, 28, Rue Serpente, Paris, 6e, (France).

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسي : مؤتمر  
الولايات المتحدة

Box 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520  
(United States).

# مطبوعات الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة

السكان : الصحة ، الطعام ، البيئة :

السكان :

Preparations for the World Population Conference  
(UN/ECN.9/275).

خطط. لبرنامج وتنظيمات المؤتمر السكاني العالمي لسنة ١٩٧٤ .  
Report on the African Census Programme  
(UN/E/CN.9/277).

مذكرة السكرتير العام للأمم المتحدة عن البرنامج الإحصائي الأفريقي .  
Report of the 2nd Asian Population Conference  
(UN/E/CN.14/1065).

المركز الإحصائي للسكان في آسيا منذ سنة ١٩٦٣ ، وماينطوى عليه من تقدم  
زراعي وصناعي ، وتخطيط للأسرة .  
Review of available evidence on fertility differentials in Africa  
(UN/E/CN.14/POP/71).

جوانب النقص في احصاءات المواليد خلال الستينات في افريقيا ، والعلاج  
المستطاع ، والاتجاهات في السنوات العشرين الأخيرة .  
Indications of current and future methodological trends in the collection of data on fertility levels and differentials in Africa  
(UN/E/CN.14/POP/72).

مؤشرات الاتجاهات المنهجية الراهنة والمستقبلية في جمع البيانات الخاصة  
بمستويات التوالد وتباينها . في افريقيا .  
Levels and trends of fertility in the countries of Africa  
(UN/E/CN.14/POP/75).

تقرير أعدده قسم السكان بالأمم المتحدة ، عن مستويات واتجاهات المواليد بالدول الإفريقية وهو تغطي الفترة من سنة ١٩٦٠ - سنة ١٩٧٠ .

**Interim report on conditions and trends of fertility in the world, 1960-1965**  
(UN/E/CN.14/POP/76).

تقرير مؤقت يضم خلاصة للكشوف الخاصة بأحوال واتجاهات المواليد في العالم .

**Activities of the Latin American Demographic Centre**  
(UN/E/CN.12/950).

انشطة مركز الاحصاء السكاني الأمريكا اللاتينية التي تمت في ١٩٧١ - ١٩٧٢ ، وبرنامج ١٩٧٣ - ١٩٧٤ ، ومذكرة السكرتارية . تتضمن التدريس في المركز ، وعدد التلاميذ والمدرسين ، والمواد التي تدرس ، وخطط المستقبل

**Seminar on the status of women and family planning**  
(UN/ST/TAO/HR/46)

حلقة دراسية عن مركز المرأة وتخطيط الأسرة ، وتأثيرات الاتجاهات الراهنة لنمو السكان في هذا المركز

### الصحة :

**Handbook of Resolutions and Decisions of the World Health Assembly and of the Executive Board (WHO)**

كتيب يضم قرارات وأحكام جمعية الصحة العالمية والمجلس التنفيذي لمنظمة الصحة العالمية .

**Model for the allocation of resources for public health planning : Case studies in the control of tuberculosis (WHO)**

نموذج لتوزيع الموارد على تخطيط الصحة العامة ، دراسات في السيطرة على مرض السل وتطبيقها في كوريا في السنوات الأخيرة مع الاحصاءات والنتائج من سنة ١٩٥٥ - ١٩٦٥ ، أجرتها منظمة الصحة العالمية .

**Principles of health planning in the USSR (1973)**  
(Public health papers, 43) (WHO)

مبادئ التخطيط الصحي في الاتحاد السوفيتي ، وطريقتهم في الشؤون الصحية هي : النظرية ، وطرق الاحصاء ، وتدريب هيئة الأساتذة .

**Approaches to national health planning**  
(Public health papers, 46) (WHO)

طرق طبقت في عدد من الدول الشديدة التباين : الولايات المتحدة ، والهند ،  
والإتحاد السوفيتي ، والسويد ، وبيرو ، وتايوان ، وتركيا .

**Evaluation of community health centres, by I. Romer 1973**  
(Public health papers, 4) (WHO)

مراكز الصحة (مراكز الإسعاف الأولى ، الخدمات المتخصصة ، والعيادات العامة) مختلف طرق التقييم ، والنفقات والنتائج .

**Health practice research and formalized services managerial methods 1973.**

(Public health papers, 51) (WHO)

استخدام الطرق الرسمية مثل نظام التحليل ، وتحليل العمل ، والأغراض أو الأداء .

**Development of educational programmes for the health services.**  
(Public health papers, 52) (WHO)

تقدم البرامج التعليمية في الخدمات الصحية .

**The prevention of blindness.**  
(Technical report series, 518) (WHO)

تقرير فني لمنظمة الصحة العالمية عن الوقاية من العمى ، والأمراض التي تؤدي إلى فقدان البصر ، وطرق تسجيل الأسباب - التوصيات : العمل الدولي ، والتنسيق ، والعمل الوطني .

**Training and preparation of teachers for schools of medicine and of allied health sciences.**

(Technical report series, 518) (WHO)

تقرير لمنظمة الصحة العالمية عن احتياجات العالم الكمية والنوعية ، والمسئوليات التي يجب أن تدرب هيئة التدريس على القيام بها . تدريب وبحث ، برنامج طويل المدى لمنظمة الصحة العالمية .

**Energy and protein. Report of a Joint FAO/WHO Ad Hoc Expert Committee 1973.**

(Technical report series, 552).

تقرير لجنة الخبراء لمنظمة الزراعة والطعام بالاشتراك مع منظمة الصحة العالمية عن الطاقة وتحديد الحاجة إلى البروتين ، مع التطبيق العملي على شعب معين . والتوصيات بالبحث في المستقبل .

**WHO Expert Committee on Drug Dependence, 1973.**

(Technical report series, 526) (WHO).

أنشطة الوكالات المتخصصة المختلفة في مجال الاعتماد على المخدرات . دراسة  
في علم الأوبئة . الطريقة والمناهج والمصطلحات الفنية . تقدم الطرق النسبية .  
الإشراف الدولي على نوعين من المخدرات : التحضيرات القائمة على الديفينوكسيليت  
والنيكودينيكتين .

ثبت بمراجع مختلفة : الوثائق التالية تحتوى قوائم بالمراجع (من ١٠٠ الى  
٤٠٠ تقريبا تعتمد على الموضوع :

Delivery of health care in developing countries of Asia, Africa, Central and South America  
(WHO/LIB/BIB/118).

توزيع العناية بالصحة في الدول النامية بآسيا وأفريقيا وأمريكا الوسطى  
والجنوبية . ابريل ١٩٧٣ .

Prevalence of nutritional disorders in the Eastern Mediterranean.  
(WHO/LIB/BIB/120).

تفتش الفوضى في التغذية باقليم شرقى البحر المتوسط : ١٩٧٠ . ابريل  
١٩٧٣ .

Emigration and immigration of physicians and nurses  
(WHO/LIB/BIB/122).

الهجرة ، وهجرة الأطباء والمرضى . ١٩٧٠ . مايو ١٩٧٣ .

Utilization of health services and forces affecting it  
(WHO/LIB/BIB/130).

الإفادة من الخدمات الصحية ، والقوى المؤثرة فيها : ١٩٧٠ . مايو ١٩٧٣ .  
Evaluation studies in medical education and use of questionnaires.  
(WHO/LIB/BIB/132).

دراسات تقييمية في التعليم الطبى ، واستخدام الاستفتاء : ١٩٧٠ .  
يونية ١٩٧٣ .

Measurement of health services performances  
(WHO/LIB/BIB/136).

قياس إنجازات الخدمات الصحية : ١٩٧٠ - يونية ١٩٧٣ .

Medical research policy  
(WHO/LIB/BIB/137).

سياسة البحث الطبى : اغسطس ١٩٧٢ - يونية ١٩٧٣ . يونية ١٩٧٣ .  
World Health Statistics Report (WHO).

### تقرير بإحصاءات عالية صحية - منظمة الصحة العالمية :

الكراسات من رقم ٢ - ٨ من المجلد رقم ٢٦ (١٩٧٣) . وهي من مجموعة الإحصاءات الدائمة لحدوث مختلف الأمراض ، وتغطي كل أنحاء العالم ، بالإضافة الى الجداول الأساسية التي تكرر بانتظام ، وتحتوي كل كراسة على دراسات خاصة ، وتوجد بين هذه الكراسات بيانات عن حوادث الانتحار (رقم ٣) مصنفة بحسب الطريقة المستخدمة (١٩٥٠ - ٧٠) ، وجداول عن حوادث القتل (١٩٥٠ - ٧٠) في الكراسة رقم ٤ ، وفي الكراستين ٧ و ٨ قسمان من الكتاب عن الأورام الخبيثة على أساس أحدث الإحصاءات ، بأرقام وفقا للجنس والسن لكل ١٠٠.٠٠٠ من السكان .

### الطعام :

The World Food Programme and its activities in Asia and Far East,  
11th report, 23 March 1973  
(UN/E/CN.11/1075).

قائمة بعمليات التنمية والضرورات الملحة التي نفذها البرنامج العالمي للتغذية خلال السنوات العشر الأخيرة في خمس عشرة دولة آسيوية .

### الاقتصاديات :

الإحصاءات والطرق الإحصائية .

Inventory of data bases of economic and social statistics  
(UN/ST/STAT.64).

مسودة تقرير أعدته السكرتارية بالتعاون مع الوكالات المتخصصة ، ويضم قائمة بجميع أنواع البيانات الإحصائية المتاحة للأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة .

Yearbook of national accounts statics  
: (UN/ST/STAT/SER).

مقارنة الحسابات الوطنية لمعظم الدول الأعضاء بهيئة الأمم المتحدة لسنة ١٩٧٠ .

Revision of the Standard International Trade Classification  
(UN/E/CN.3/429).

تقرير للسكرتير العام للأمم المتحدة يضم قائمة بالقطاعات والأقسام والمجموعات والمجموعات الثانوية ، لجميع المنتجات التي تدار فيها التجارة الدولية .

Statistics of the distribution of income, consumption and wealth  
(UN/CN.3/426).



تقرير مجموعة الخبراء عن توزيع الدخل والاستهلاك والتكدس ، مع ملاحظات منهجية ، ونتائج اجتماع مجموعة الخبراء المنعقد في جنيف في أبريل سنة ١٩٧٢ .  
Sample surveys of current interest (UN/E/73/XVII.5)

دراسات اجتماعية من خلال عمليات مسح لمشكلات شتى أجريت في خمس عشرة دولة تقريبا .

Technical guide. Vol. 1 (ILO).

دليل فني يضم إحصائيات عن العمالة والبطالة ، وساعات العمل والأجور ، أصدرته منظمة العمل الدولية ، ليكمل المعلومات القصيرة الواردة في جداول المذكرات ، مع طرق الإحصاء المستخدمة فيها .

Report of the Conference of Asian Statisticians  
(UN/E/CN.11/1057).

تقرير عن مؤتمر الإحصائيين الآسيويين (الدورة ١١) ١٩٧٢ .

Report on the Working Group on Household Sector Statistics, Addis Ababa, 1972.  
(UN/E/CN.14/586).

مشكلا في الإحصاءات الإفريقية . المفاهيم والتعريفات والمصادر . صعوبات خاصة قابليتها المجموعة العاملة في إحصاءات القطاع المنزلي في هذه القارة عند تطبيق طريقة حسابات الأمم المتحدة .

### التخطيط الاقتصادي (والتخطيط بوجه عام)

Report on a unified approach to development analysis and planning.  
1972.  
(UN/E/CN.5/477).

تقرير ميدنى للسكرتير العام ، يضم مختلف أنواع التنمية - الخطط ، وطرق الملاحظة ، والمؤشرات وأجهزة الاستعلامات ، كطريقة موحدة لتطوير التحليل والتخطيط .

Report on a unified approach to development analysis and planning.  
(UN/E/CN.5/490).

تقرير السكرتير العام عن اجتماع مجموعة الخبراء ، الخاص بوضع طريقة موحدة لتطوير التحليل والتخطيط ، المنعقد في استكهولم من ٦ - ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ . المعلومات الخلفية ، مفهوم الطريقة ، الجوانب المنهجية لاستخدامها ، والتوصيات .

Report on the activities of the Latin American Institute for Economic and Social Planning  
(UN/E/CN.12/951).

تقرير عن المعونة الفنية لمختلف دول أمريكا اللاتينية ، والبحث الاقتصادي والاجتماعي اللازم لها . . .

Lectures given at the bilingual training course in budget-plan harmonization, Addis Ababa, 1971.  
(UN/E/CN.14/BUD/17).

محاضرات تبين وظيفة التخطيط المركزي في افريقيا ، والعلاقة بين التخطيط والميزانية ، والطرق المختلفة ، ووجهة نظر الحكومات ، والشركات المومة والشركات الخاصة .

Participation of employers and workers in planning, 1973 (ILO).

مفهوم فكرة مشاركة اصحاب العمل والعمال ، تنظيمات للمشاركة في التخطيط : تقنيات ، مشكلات تطبيق التخطيط ، والنتائج .

التنمية الاقتصادية (والتنمية بوجه عام) والتصنيع  
United Nations Development Programme  
(UN/E/5185/Rev. 1).

تقرير المجلس الحاكم في دورته الرابعة عشرة (١٩٧٢) ، ويضم البرامج الرفيعة ، والتخطيط لعدة قوميات ، والمتطوعين من الأمم المتحدة ، واختبار المنظمة ، والأنشطة ، ودور برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة ومركزه المالي في سنة ١٩٧١ .

(UNE/5238). 1973.

تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة عن دور العلم الحديث والتكنولوجيا في تقدم الشعوب . والحاجة الى تقوية التعاون الاقتصادي والعلمي الفني بين الدول

The application of space technology to development  
(UN/ST/ECA/161).

تطبيق تكنولوجيا الفضاء على التنمية : الاتصالات ، ومراقبة الأرض بواسطة القمر الصناعي في خدمة التنمية .

Disarmament and development  
(UN/ST/ECA/174). 1972

تقرير جماعة من الخبراء عن نتائج نزع السلاح. الاقتصادية والاجتماعية ، والعلاقة بين نزع السلاح والتنمية . طرق تعبئة الرأي العام ، نتائج وضع صيغة لاعادة توزيع النفقات العسكرية على اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية .

Implementation of international development strategy for the second United Nations Development Decade.  
(UN/E/AC.54/L.51 and Add. 1).

تنفيذ استراتيجية التنمية الدولية الخاصة بالعقد الأول من التنمية للأمم المتحدة : أوراق تمهيدية عن النظرة الكلية وتقييم التقدم . الدول النامية واستراتيجية التنمية الدولية . الإنجازات الأساسية ، والعقبات الجوهرية في سبيل التنمية في الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٧٠ ، ودرجة تعبئة الموارد البشرية والمالية والطبيعية .

Implementation of international development strategy for the second United Nations Development Decade.  
(UN/E/AC.54/L.52).

اجراءات تتعلق بالتجارة ، تأثيرات السياسات المحلية ، معلومات قانونية .  
Implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade.  
(UN/E/AC.54/L.53).

التجارة : الاتجاهات ، والمستقبل المتوقع ، التوسع في التجارة مع الدول النامية . برامج التعاون الصناعي .  
Implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade, 1973.  
(UN/E/AC.54/L.54).

التعاون والتكامل الاقتصادي بين الدول النامية .  
Implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade, 1973.  
(UN/E/AC.54/L.55).

مرض انتقائي للأهداف الموضحة في الخطط الحديثة للدول النامية .  
The international development strategy  
(UN/E/AC.54/L.60). 1973.

تقرير تمهيدى للسكرتير العام يتضمن التغيرات في أولويات التنمية ، وتغيرات طرق الإنتاج والمشكلات ، واتجاهات العلاقات التجارية .  
Proposals for action on finance for housing, building, and planning  
1973  
(UN/E/C.6/106 Rev. 1 (ST/ECA/168), 1973.

مقترحات للتنفيذ عن تمويل الإسكان والبناء والتخطيط : المشكلة ، الحلول الممكنة ، طرق التمويل ، في الدول النامية ، قاعدة المعونة الأجنبية ، البرامج الإقليمية والدولية ، توصيات المجلس الاقتصادي والاجتماعي .  
Science and technology in the second United Nations Development Decade, 1973  
(UN/E/C.8/10).

مذكرة السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة بتحديد الأغراض في المقعد الثاني للتنمية .

Action programmes in science and technology for developing countries, (UN/E/C.8/11).  
1978

برامج عمل في العلم والتكنولوجيا ، وتطبيق تكنولوجيا الآلة الحاسبة .

An Asian plan of action for the application of science and technology to development, 1973  
(UN/E/CN.11/1071).

خطة اسيوية فعالة لتطبيق العلم والتكنولوجيا في التنمية .

Asian Institute for Economic Development and Planning, 1973.  
(UN/E/CN.11/1083), 1973.

تقرير المجلس الحاكم بالمعهد الآسيوي للتنمية الاقتصادية والتخطيط ، عن التدريب والبحث والخدمات الاستشارية .

Latin America and the international development strategy.  
(UN/E/CN.12/947 and Add. 1).

اول تقييم اقليمي ، يتناول التغيرات الاجتماعية والنمو الاقتصادي والعلاقات الاقتصادية الخارجية ، والتمويل الخارجي ، والتكامل الاقليمي ، وتحليل للاستينات .

World plan of action for the application of science and technology to development. Summary of the regional plan for Latin America.  
(UN/E/CN.12/949).

تطبيق العلم والتكنولوجيا في التنمية في مختلف المجالات : الصحة والتعليم ، وخاصة في الاقتصاديات

Co-ordination of activities of the United Nations system in the field of industrial development  
(UN/ID/E/102).

التقرير التحليلي الثاني ، به تصنيف للأنشطة وفقا للأصل والوظيفة والاقليم (افريقيا وآسيا وأوروبا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية)

Interrelationship between health programmes and socio-economic development.  
(Public health papers, 49) (WHO).

تقرير لمنظمة الصحة العالمية عن المناقشات التي جرت في جمعية الصحة العالمية سنة ١٩٧٢ : نص الوثيقة الأساسية ، وتقرير عن المناقشات نفسها .

## الموارد الطبيعية والمواد الخام والطاقة .

### Developments in the field of natural resources.

1972

(UN/E/C.7/32 and Add. 1).

التنمية في مجال الموارد الطبيعية - الماء والطاقة والمعادن ، وتوصيات مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة البشرية فيما يتعلق بالموارد الطبيعية ، ومذكرة للسكرتير العام .

### Developments in the field of natural resources

(UN/E/C.7/35). 1972

التنمية في مجال الموارد الطبيعية - الماء والطاقة والمعادن - الجوانب الفنية والاقتصادية لتطوير حياض الأنهار الدولية ، مى عرض للتعاون الثنائى والجمعى .  
النتائج والتوصيات .

### Projections of natural resources, supply and future demand

(UN/E/C.7/40 Add. 1 and 2). 1972

اتجاهات وتصورات استهلاك الطاقة ، الاحتياطات التقديرية ، والإجراءات المقترحة مع مذكرة للسكرتير العام .

### World energy supplies 1961-1970

(UN/ST/STAT/SER. J/15).

مجموعة احصائيات تغطى الانتاج والتجارة واستهلاك الطاقة لنحو 185 دولة.  
الفحم الحجري ، وفحم الكوك ، والبتروول ، والغاز الطبيعى ، والكهرباء ، والطاقة النووية والحرارة الأرضية .

### Electricity costs and tariffs : a general study

(UN/ST/ECA/156).

العوامل المؤثرة في التكاليف ، وأمثلة مستمدة من خمس وعشرين دولة .

## الزراعة والسلع الأساسية

### Report of the seminar on intra-sub-regional economic co-operation and trade in agriculture in West Africa

(UN/E/CN.14/566). 1973

تحليل لأنواع التعاون التى تمارس في الإقليم الغربى في الوقت الحاضر .  
Index, FAO Conference and Council Decisions, 1945-1972

(FAO/MD/D5920/E/6.73/1/3100).

فهرس لمنظمة الطعام والزراعة ، وقرارات المجلس .

FAO Commodity review and outlook 1972-1973 (FAO).

الوقف والمستقبل المتوقع فيما يتعلق بالسلع الأساسية . اتجاهات ومشكلات  
التجارة الدولية ، مركز كل سلعة والمستقبل المتوقع لها .

Agriculture : Report of the Intergovernmental meeting on the est-  
ablishment of an Asian Rice Trade Fund  
(UN/E/CN.11/L 373). 1973

تقرير عن انشاء اعتماد مالى لتجارة الارز الآسيوية . نص المخطط  
التبويدي .

National grain policies : 1972-1973 (FAO).

السياسات الوطنية للحبوب ، تغطى جميع الدول الاعضاء فى منظمة الزراعة  
والطعام .

The Green Revolution : an economic analysis (UN. RISD), 1972  
by Keith Griffin.

تأثير الميكنة والاستخدام المكثف للمخصبات على الانتاج الزراعى العالمى . بقلم  
كيث جريفين

#### البناء والصناعة والنقل

Report of the UNECA Task Force on Financing of Housing, Building  
and Physical Planning  
1972  
(UN/E/CN.14/585).

تقرير حملة ادارة التعاون الاقتصادى التابعة للأمم المتحدة عن تمويل الاسكان  
والبناء والتخطيط المادى ، ومركز افريقيا ككل ، والتوصيات المقدمة للحكومات .

Shipping in the seventies, 1972  
(UN/TD/177).

الشحن البحرى فى السبعينات والمركز الراهن وتوقعات المستقبل ،  
والاستراتيجية الدولية لتنمية الشحن .

#### التعاون الاقتصادى

Regional co-operation study on regional structure. Report of the Se-  
cretary-General, 1972  
(UN/E/5127).

تقرير السكرتير العام عن التركيبات الإقليمية الموجودة وطرق تشجيع التعاون ، وأنشطة الوكالات المتخصصة في هذا المجال .

Regional co-operation. United Nations export promotion and development efforts  
(UN/E/5254).

تقارير عن عمل اللجان الإقليمية الاقتصادية الأربع ، وعمل الوكالات التسع المتخصصة لسنة ١٩٧١ - ١٩٧٢ مع مشروعات لسنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .

Report of the panel of experts on intra-African economic co-operation and Africa's relations with the European Economic Community  
(UN/E/CN.14/584).

تقرير هيئة الخبراء عن التعاون الأفريقي المشترك ، وعلاقات أفريقيا بالجماعة الأوروبية الاقتصادية وقائمة بالوثائق التي أصدرتها الهيئة في هذا الموضوع .

The impact of regional economic groupings of the developed countries on international trade including the trade of developing countries. Comparison of the major groupings  
(UN/TD/131).

تأثير التجمعات الاقتصادية للدول المتقدمة ، على التجارة الدولية ، ومن بينها تجارة الدول النامية . مقارنة بين دول الاتحاد الأوربي للتجارة الحرة ، ودول الوحدة الاقتصادية الأوروبية ، ومجلس المساعدة الاقتصادية المشتركة ، والأدوار التي تقوم بها الدول الأعضاء في كل منظمة ، والعلاقات مع العالم الثالث من ١٩٦٠ - ١٩٧٠ .

- المجتمع ، وظروف المعيشة والتشغيل ، والعمالة ، والسياسة الاجتماعية التخطيط الاجتماعي ، والتقدم الاجتماعي -

Social planning, social development  
Social development. Promotion of the co-operative movement during the Second United Nations Development Decade  
(UN/E/5246).

التقدم الاجتماعي . تعزيز حركة التعاون إبان عقد التنمية الثاني للأمم المتحدة .

Review and appraisal of the implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade  
(UN/E/CN.5/476).

توصيات عن المشاركة العامة في أنشطة التنمية والقرارات . ثمار التنمية  
وتوزيعها .

Report on national experience in achieving far-reaching social and  
economic changes for purposes of social progress, 1972.  
(UN/E/CN.5/478/and Add. 1, 2 and 3).

تقرير عن التجربة الوطنية في احرار تغيرات اجتماعية واقتصادية بعيدة المدى  
لاهداف التقدم الاجتماعى . اجابات . ه دولة على أسئلة عن سياستها الاجتماعية .  
Integration of women in development, 1972.  
(UN/CN.5/481).

دور المرأة في المجتمع الريفى ، العمل والأسرة . توصيات .  
Studies on social development in the Middle East, 1971.  
(UN/ST/ECA/175).

المشكلات المتصلة بالشباب والاسكان والاصلاح الزراعى ، والامن الاجتماعى في  
الصناعة .  
Planning for youth development : The Hong Kong experience.  
1972  
(UN/TAO/HOK/1).

التخطيط لتطوير الشباب : تجربة هنج كنج .  
السياسة الاجتماعية

Social policy  
The aged and social change, 1972  
(UN/E/CN.5/482).

تقرير للسكرتير العام عن الاتجاهات السكانية والتاثيرات الاجتماعية على  
المسنين بالدول الصناعية .

Multinational enterprises and social policy, (ILO), 1973.

طبيعة واهمية المشروعات المشتركة بين مجموعة من الدول ، وعلاقتها بالقوة  
العاملة . ظروف العمل . علاقات الموظفين في هذه البيئة . مقاييس منظمة العمل  
الدولية . تقرير عن اجتماع هذه المنظمة في هذا الموضوع .  
Employment policy in the Second Development Decade.

منظمة العمل الدولية ١٩٧٣  
خصائص السياسة المتفق عليها في التوظيف . تقييم .  
Migrant workers. Report VII (1). International Labour Conference  
(ILO), (Geneva 1974).



عمال التراجيل . المضار . السياسات الاجتماعية المطبقة . المقاييس الدولية  
للدوظيف والاقامة .

Urban unemployem in developing countries (ILO), 1973.

طبيعة المشكلة . عوامل في البطالة في المدن . التضخم . الاندفاع الى المدن .  
التوصيات .

Labour inspection : purposes and practice (ILO).

الخدمات الاجتماعية

التفتيش العمالي

الهدف : قانونى ، واقتصادى واجتماعى ومسئوليات ادارية . الطرق العملية  
والقواعد . الحصول على احصاءات دقيقة .

Encyclopaedia of medicine, Health and safety at work (ILO).

موسوعة طبية وصحية وحماية العامل خلال العمل . الوسائل الفنية المختلفة  
والمنتجات والأخطار المرتبطة بها .

مشكلات العمل ، وظروف العمل

Directory of labour relations institutes (1973).

قائمة خاصة بكل دولة . معلومات عامة . أنشطة التدريس والبحث - شروط  
القبول - نشرات .

Labour relations institutes : structure and functions (ILO), 1973.

دراسة لكل اقليم على حدة : شمال وجنوب أمريكا ، آسيا ، غربى وشرقى  
اوربا ، افريقيا . المنظمات والأنشطة وأعمال البحوث في هذه المؤسسات .

Minimum age for admission to employment (ILO), 1973.

ادنى سن للقبول في الوظيفة ، واجابات الحكومات . نصوص مشروع الاتفاقيات  
والتوصيات .

The social repercussions of new handling methods (ILO), 1973.

تقرير عن الصدى الاجتماعى لطرق المعالجة الجديدة للأرصفة . اجابات  
الحكومات والتعليقات . ومشروع الاتفاق ، والتوصية المقترحة في المؤتمر الدولى  
للعمل .

Organizations of rural workers and their role in economic and social  
development (ILO), 1973.

المشكلات الكبرى التى يواجهها عمال الريف اليوم . منظمات مصنفة بحسب  
أصول أعضائها وطبيعة أنشطتهم ، العقبات فى سبيل تقدمهم . الإجراءات التى  
تضاعف مشاركتهم لهذه المنظمات فى التنمية .

**Second technical tripartite meeting for the timber industry (forestry):**

الإجراءات التى اتخذت فى مختلف الدول ، بشأن : الحوادث ، وظروف المعيشة  
والعمل ، وعلاقات إدارة العمل ، والإجراءات التى اتخذتها منظمة العمل الدولية  
وفقا لعمليات المسح التى أجرتها .

**Second technical tripartite meeting for the timber industry (forestry):**

المشكلات المتعلقة باستقرار العمل فى صناعة الخشب : تركيب العمل ، والعوامل  
الأساسية فى استقراره وبخاصة التبرير . مقارنة بين الدول الصناعية والدول  
النامية . (منظمة العمل الدولية - جنيف) .

**General report : recent events and development in the textile industry  
(ILO), 1973.**

تقرير عام عن مركز الفروع المختلفة لصناعة النسيج . الجوانب الاجتماعية :  
البطالة ، والأجور ، وساعات العمل ، والاتجاهات الحديثة فى المساومات  
الجماعية .

**Safety and health in the textile industry (ILO), 1973.**

الامن والصحة فى صناعة النسيج

**Industrialization and wages in Japan (ILO), 1973.**

التصنيع والأجور فى اليابان ، قبل وبعد سنة ١٩٤٥ . اتجاهات عامة ،  
وتوصيات .

مسائل قانونية وسياسية ، حقوق الانسان

**United Nations Commission on International Trade Law. Vol. III  
(UN/A/CN.9/CER/A/1972).**

كتيب بالأحداث الكبرى فى تطور القانون الدولى فى سنة ١٩٧٢ . فحوص  
موضوعات خاصة : البيع الدولى للسلع ، المدفوعات الدولية ، التحكم التجارى ،  
النشر الدولى المسيطر على الشحن البحرى .

**Commentary on the draft convention on prescription (limitation) in  
the international sale of goods  
(UN/A/CN.9/73).**

تفسير لمشروع الاتفاقية الخاصة بالتقييد في البيع الدولي للسلع .

**International payments, 1973**

(UN/CN.9/77).

وسائل صالحة للتفاوض ، مسودة قانون التماثل الخاص بمشروعات قوانين التبادل الدولي والمذكرات الدولية التمهيدية . تقرير المجموعة العاملة عن الوسائل الدولية الصالحة للتفاوض .

**Tax treaties between developed and developing countries, 1972.**

(UN/ST/ECA/166).

فرض الضرائب على شركات النقل ، التهرب من الضريبة الدولية .

**Peace, independence**

**Youth :** (UN/A/878/Add. 1-3).

تقرير عن الشباب وتعليمه وحرياته الأساسية ، ومشاركته في التنمية الدولية ، ومثله العليا في السلام والتفاهم بين الشعوب ، من السكرتير العام ، ويتضمن تعليقات من ثلاث حكومات : الولايات المتحدة ، وباربادوس ، واليونان .

**Report of the United Nations visiting mission to observe the elections to Papua New Guinea, 1972**

(UN/T/1739).

القطر ، شروط العلاقة ، والانتخابات ، وتعليقات اللجنة ، والتوصيات . مثال

لمجتمع في دور التحول .

**Human rights, discrimination.**

**Elimination of all forms of racial discrimination, 1972**

(UN/A/8813).

القضاء على كل صور التمييز العنصري ، مع اجابات لنحو خمسين حكومة .

**Capital punishment, 1973**

(UN/E/5242).

عقوبة الاعدام : تقرير السكرتير العام عن الموقف الراهن ، الضمانات الممنوحة للمتهم . القانون والتطبيق ، قائمة بالدول التي ألغت عقوبة الاعدام قانونا وعملا ، الدول المحتفظ بها .

**Seminar on human rights and scientific and technological developments**

(UN/ST/TAO/HR/45).

حلقة دراسية عن حقوق الانسان والتنمية الفنية والتكنولوجية وتأثيرها في

تطوير مختلف حقوق الإنسان ، وبخاصة حق العرمة الشخصية ، الإجراءات التي يجب اتخاذها لتأمين هذه الحقوق .

Commission on Human Rights, 1972  
(UN/ECN.4/1023/Add. 6).

مسألة تحقيق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يتضمنها الإعلان العالمي لحقوق الانسان . معلومات مستمدة من الحكومات والولايات المتخصصة .

Periodic reports on human rights, 1972  
(UN/E/CN.4/1100 and Add. 1).

تقارير دورية تضم اجابات من منظمة العمل الدولية ، واليونسكو ، ومنظمة الصحة العالمية ، عن الحقوق المدنية والسياسية ، وحق تقرير المصير ، وحق الاستقلال .

Report of sub-commission on prevention of discrimination and protection of minorities, 1972  
(UN/E/C.4/1101).

تقرير اللجنة الفرعية عن تحريم التمييز ، وحماية الاقليات المقدم للجنة حقوق الانسان في دورتها الخامسة والعشرين .

Periodic reports on human rights, 1973  
(UN/CN.4/1102).

ثبت بوثائق الأمم المتحدة المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية ، مع جداول تحليلي بالمحتويات .

Review of studies of problems of race relations, 1972  
(UN/CN.4/110 ) .

تقرير السكرتير العام عن دراسات خاصة بمشكلات علاقات الاجناس وصيانة اوضاع الاجناس .

The widening gap, 1973  
(UN/E/CN.4/1108 and Add 1-9).

الجزء الاول من دراسة تحقيق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، للمراسل الخاص للجنة حقوق الانسان .

Study of equality in the administration of justice.  
(UN/E/CN.4/1112 and Add 1-4).

تقرير للسكتر العام يحتوى على دراسة للمساواة في ادارة الصدل ، مع تعليقات وآراء لثلاث عشرة حكومة .

Human rights and scientific and technological developments, 1973  
(UN/E/CN.4/1112 and Add 1-4).

تقرير السكتر العام عن حقوق الانسان والتقدم الفنى والتكنولوجيا والتاثيرات الايجابية والسلبية لهذه العوامل على حق العمل (الطرف والاجور والانحدادات التجارية) ، وحق السكنى .

Human rights and scientific and technology developments, 1973

تقرير للسكتر العام حقوق الانسان والتقدم الفنى والتكنولوجيا :  
(UN/E/CN.4/1116 and Add. 3).

احترام خصوصية الافراد ، وسلامة وسيادة الشعوب في ضوء التسجيل وغيره من الوسائل التقنية .

Human rights and scientific and technology developments, 1973  
(UN/E/CN.4/1116 and Add. 1, 2).

تقرير للسكتر العام عن حقوق الانسان والتقدم الفنى والتكنولوجيا . احترام خصوصية الافراد وسيادة الشعوب في ضوء تقدم التسجيل وغيره من الوسائل التقنية ، وتنظيمات للسيطرة على اجهزة الاستماع والمراقبة في الوقت الحاضر ، والاجراءات التي يجب اتخاذها .

#### الادارة العامة

United Nations directory, 1973 .  
(UN/ST/TAO/M/47/Rev. 1).

دليل الامم المتحدة الخاص بالوكالات والمؤسسات الوطنية لتحسين الادارة العامة .

Inter-regional seminar on electronic data processing in government, 1973  
(UN/ST/TAO/M/63/Add. 1).

حلقة دراسية اقليمية مشتركة عن البيانات الالكترونية ، وعرض للموقف الراهن لخبراء من خمس قارات ، ومشكلات الدول النامية .  
Report of the inter-regional seminar on electronic data. Vol. 1

تقرير عن حلقة الدراسة الاقليمية المشتركة يتضمن :  
(UN/ST/TAO/M/63).

اقرار واستخدام ، وتنظيم وإدارة علم الآلة الخاصة في الحكومة ، وبخاصة في الدول النامية ، التعاون الفني .

Report on the meeting of consultants on administration of public enterprises, 1973  
(UN/E/CN.12/946).

تقرير عن المشروعات العامة وإدارتها في أمريكا اللاتينية  
Social defence, delinquency

A policy approach to planning in social defence, 1972  
(UN/ST/SOA/114).

منع الجريمة ومعاملة المجرمين ، ودور التخطيط في هذه المجالات ، وسياسة الأمم المتحدة .

Work programme for 1974-1975 and report on activities 1971-1972, 1972  
(UN/E/CN.5/479).

تقرير السكرتير العام عن مؤتمر وزراء أوروبا المسؤولين عن الرفاهية الاجتماعية

The evaluation and improvement of manpower training programmes in social defence  
(UNSDR 1/2).

تقييم وتحسين تدريب القوة البشرية في الدفاع الاجتماعي ، أعده معهد البحث للدفاع الاجتماعي التابع للأمم المتحدة .

Perceptions of deviance, 1972  
(UNSDR 1/3).

ملكرات البحث ، واقتراحات للبحث الثقافي المتعارض . معهد البحث للدفاع الاجتماعي للأمم المتحدة يروما .

#### اللاجئون

Report of the United Nations High Commissioner for Refugees, 1972  
(UN/A/8712).

الحماية الدولية للاجئين : مبادئ عامة ، عرض للموقف الراهن ، الصونة المادية في أفريقيا وبخاصة بورندي ، وفي آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية .

التعليم ، والعلم

بحث في السلام والصراع

International repertory of institutions for peace and conflict research.  
Social science series (UNESCO), 1973.

ترجمة كاملة حديثة للمجموعة الأولى التي ظهرت سنة ١٩٦٨ ، وقد تضاعفت منذئذ مؤسسات السلام خمسة أضعاف . التحديد النظري للموضوع ، تقدم واتجاهات البحث ، ثبت بالمؤسسات بوصف موجز لنظامها وأنشطتها .

### التعليم

Practical guide to functional literacy (UNESCO).

النظر الى المعرفة الفعالة بالقراءة والكتابة كأداة للتنمية . وصف لاقوى الطرق  
فعالية

The teaching of reading (UNESCO/Ginn).

مجموعة دراسات عن تقدم هذه الطرق في المدارس الابتدائية .

International directory of programmed instruction  
(UNESCO) 1973.

دليل دولي للتثقيف المنهجي يغطي جميع وجوه استخدام التكنولوجيا  
المصرية في التعليم ، مع قائمة تضم المؤسسات والاتحادات والناشرين ، والدوريات  
المتخصصة في مختلف الدول ، وثبت بالكتب والمقالات التي نشرت منذ سنة ١٩٦٨ ،  
المؤتمرات والاجتماعات ، والبحوث التي تمت أو التي يجري فيها العمل .

Education and the employment problem in developing countries (ILO)  
1973.

النتائج التي انتهى اليها الخبراء في اقتصاديات التعليم ، فيما يتعلق بالربط  
بين التعليم وأشكال الاستخدام . الحلول التقليدية والمعاصرة .

# تَبَيُّر

العدد وتاريخه

مجلد : ٢٥  
العدد الثالث  
١٩٧٣

Development,  
environment  
and technology  
assessment

by  
Ignacy Sachs

المقال وكاتبه  
● التنمية والبيئة والتقويم  
التكنولوجي  
بقلم : انياسي ساكس

مجلد : ٢٥  
العدد الثالث  
١٩٧٣

Choice of techniques and  
technological as problems  
in political economy

by  
Charles Cooper

● اختيار الأساليب الفنية  
للانتاج والتغير التكنولوجي  
كمشاكل في الاقتصاد  
السياسي  
بقلم : شارل كوبر

مجلد : ٢٥  
العدد الثالث  
١٩٧٣

The green revolution and  
socio-economic tensions  
the case of India

by  
Kalpana Bardhan  
and  
Pranab Bardhan

● الثورة الخضراء  
والتوترات الاجتماعية  
الاقتصادية في الهند  
بقلم : كالبانا بردهان  
برناب بردهان

مجلد : ٢٥  
العدد الثالث  
١٩٧٣

Technology assessment  
as a process

by  
Harvey Brooks

● التقويم التكنولوجي  
بقلم : هارفي بروكس

مجلد : ٢٤  
العدد الرابع  
١٩٧٢

Academization in the  
polity

by  
Harold Orlans

● الترشيح الأكاديمي  
بقلم : هارولد أورلانس

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٧٣





يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأفلام ككتاب  
متخصصين وأستاذة وأستاذة .  
ويقيم باختيارها وتقليد إلى العربية تحت متخصصين  
من الأستاذة العرب ، لتصبح إضافة إلى المكتبة العربية  
تأهم في إثراء الفكر العربي ، وتكثيف من مله هفت  
البحث في قضايا العصر .

تصدر شهرياً

{ يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

{ فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغابط  
الدولية ، وتصدر طبعا إلى العربية بالانفتاح مع الشعب القومية  
للونسكو ، ومجموعة الشعب القومية العربية ، ووزارة  
الثقافة والإعلام بجمهورية مصر العربية .

الشن ١٠ قروش

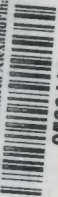








Bibliotheca Alexandrina



0536418